

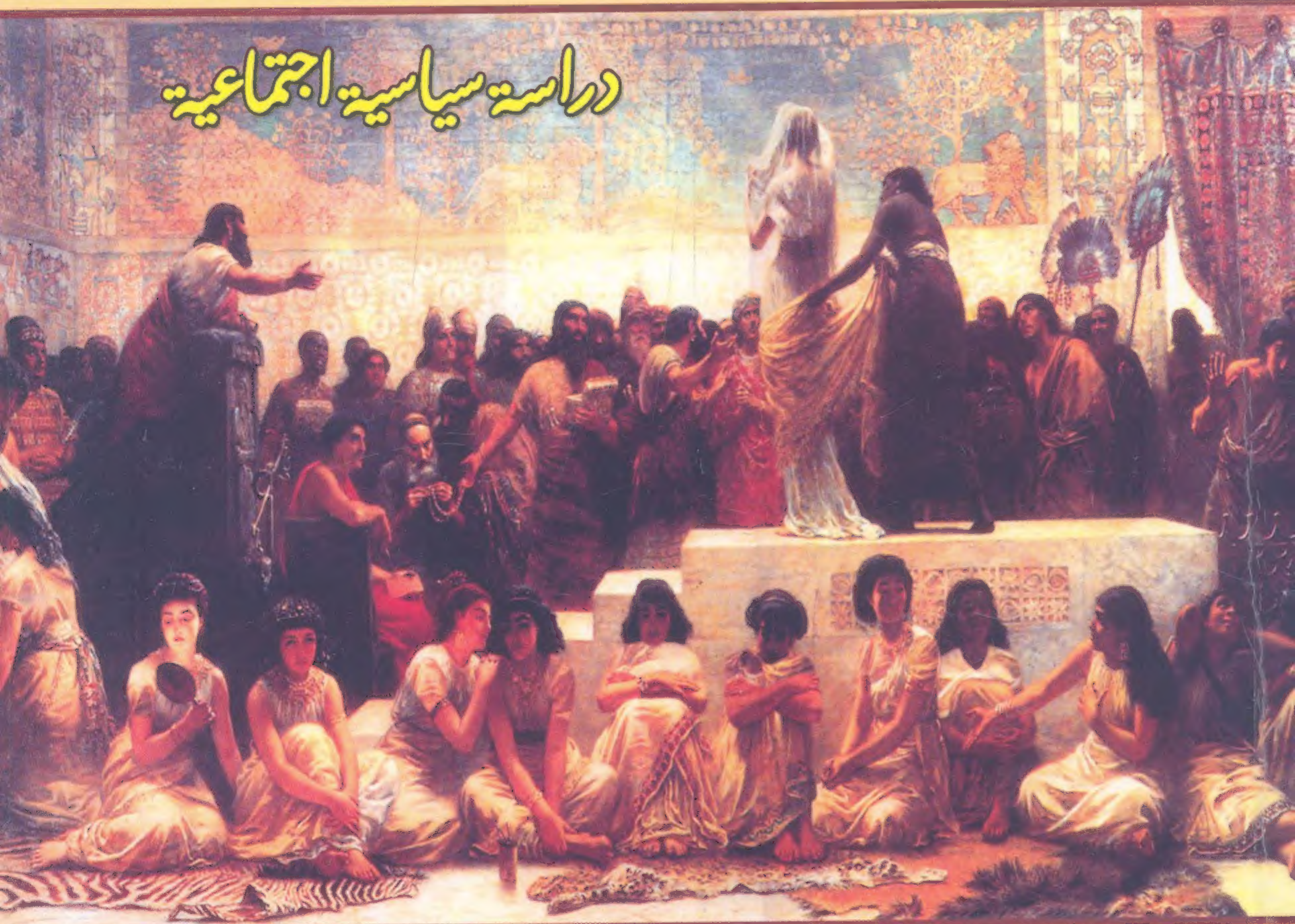
الجواهر في العلمتنا

في عصر

في العصرين الفاطمي والأيوبي

(٣٥٨-٦٤٨هـ / ٩٦٩-١٢٥٠م)

دراسة سياسية اجتماعية



١٦ شارع محمد فريد
٠٢٠٢٣٩١٣٣٥٤٠ موبيل، ٠١٢٣١٧٧٥١٠

الدكتورة

نجوى كمال كيرة

الجواري والغلمة

في عصر

في العصرين الفاطمي والأبوني

(٣٥٨-٥٦٤هـ / ٩٦٩-١٢٥٠م)

دراسة سياسية اجتماعية

الدكتورة

نجوى كمال كيرة

الناشر

مكتبة زهراء الشرق



١٦ شارع محمد فريد

ش. ٢٠٢٩١٢٣٥٤، ص. ١٢٣١٧٥١٠٠

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

كيره، نجوى كمال.
الجواري والغلمان في مصر في العصرين
الفاطمي والأيوبي (٣٥٨ - ٦٤٨ هـ / ٩٦٩ م).
١٢٥٠ م): دراسة سياسية اجتماعية / نجوى
كمال كيره. - القاهرة: مكتبة زهراء الشرق
٢٠٠٧،
٥٦٠ ص، ٢٤ سم.
تدمك ٢ ٣٠٨ ٣١٤ ٩٧٧
١- الرقيق - مصر ٤٤٩٣، ٣٠١،
٢- مصر - تاريخ - العصر الفاطمي (٩٦٩ - ١١٧١)
٣- مصر - تاريخ - العصر الأيوبي (١١٧١ - ١٢٥٠)
أ- العنوان

اسم الكتاب :	الجواري والغلمان في مصر
اسم المؤلف :	في العصرين الفاطمي والأيوبي
رقم الطبعة :	الأولى
السنة :	٢٠٠٧
رقم الإيداع :	٢٣٨٥٣
الترقيم الدولي :	I.S.B.N
	977 - 314 - 308 - 2
اسم الناشر :	زهراء الشرق
العنوان :	١١٦ شارع محمد فريد
البلد :	جمهورية مصر العربية
المحافظة :	القاهرة
التليفون :	٠٠٢٠٢٣٩١٣٨٥٩ - ٠٠٢٠٢٣٩١٣٣٥٤
فاكس :	٠٠٢٠٢٣٩١٣٨٥٩
المحمول :	٠٠٢٠١٢٣١٧٧٥١٠



﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ

عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(١)

صدق الله العظيم

إهداء

إلى روح والدي الحبيب طيب الله ثراه وأسكنه فسيح جناته.

إليك فلا زلت أقتفي أثرك في الطموح وأترسم خطاك في الرقي، لا زالت كلماتك نافذة إلى غايات قلبي وعقلي، واستشعر روحك الطاهرة تحوم حولي كلما يئست أو تثاقلت خطاي.. تشجعني وتؤازرنني على الوصول إلى مبتغاي الذي هو مبتغاك..

إلى مصر التي في خاطري..

إلى كل من يزعم انه أحب مصر أكثر مني..

وإلى كل من علّمني حرفاً وساهم في تكويني العلمي..

أهدي هذا الكتاب

نجوى كيرة

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

صداقة الله العظيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد أشرف المرسلين وخاتم النبيين.

يعالج هذا الكتاب حياة الجواري والغلمان ودورهم كمماليك سياسيًا واجتماعيًا في مصر في العصرين الفاطمي والأيوبي (٣٥٨-٦٤٨ هـ / ٩٦٩-١٢٥٠ م). وقد آثرت اختيار هذا الموضوع والبحث فيه لما لهؤلاء المماليك من دور مؤثر في الحياة السياسية والاجتماعية في مصر.

وقد قمت خلال دراستي بتتبع دور هؤلاء منذ شرائهم من الأسواق أو حين سبيهم في الحروب إلى أن أصبحوا أمراء وقوادًا يتحكمون في مقدرات أكبر دول العالم الإسلامي.

اهتمت الدراسات والأبحاث السابقة بنشأة دولة المماليك وبدورهم السياسي والاجتماعي في مصر في فترة العصر المملوكي حين أقاموا دولتهم في مصر. ومن ثم كانت وجاهة اختيار هذا الموضوع إذ يبدو غريبًا أن نتحدث عن المماليك ولما تقوم لهم دولة بعد.

ويجب التنويه على أن هذه الدراسة قد أوضحت أن مصطلح «المماليك» استخدم في كثير من الأحيان مرادفًا لمصطلح «الرقيق» وذلك في المصادر الفقهية والمصادر التاريخية السابقة على فترة الدراسة والمعاصرة واللاحقة لها.

ويبدو من الخطأ الشائع أن يرتبط لفظ «المملوك» بمماليك الصالح أيوب البحرية

الذين أقاموا دولة المماليك الأولى، فالمملوك هو من استرق وسبى دون والديه أو من مسته يد النحاس.

كذلك بينت خلال هذه الدراسة أن نشأة هؤلاء المماليك والبيئات المختلفة التي أتوا منها قد انعكست على تصرفاتهم تجاه المجتمع المصري، لكن اللافت للنظر أن هؤلاء المماليك، مهما تنازعوا فيما بينهم واختلفوا، كانوا، حين يداهمم الخطر، يكونون جبهة قوية دفاعًا عن كياناتهم متناسين، أحقادهم واضعين نصب أعينهم أنهم طائفة خاصة في وسط مجتمع من الأحرار يجب الحفاظ فيه على كياناتهم حتى لا يلفظهم هذا المجتمع خارجه فقد ارتبطوا بأرضه واعتنقوا الشريعة الإسلامية وانبثقوا إليه.

وقد قسمت دراستي إلى تمهيد وخمسة فصول، أما التمهيد فقد قدمت فيه إيجازًا لتاريخ الرق عامة. وعرفت الرق لغة واصطلاحًا. وتحدثت عن مصادر الرقيق وأشارت إلى أهميته وكيفية التعامل معه وإلى دوره في الحضارات القديمة وموقف الديانات السماوية منه . وأكدت على موقف الإسلام من الرق وكيف جفف منابعه تدريجيًا حيث أنه كان نظامًا موجودًا بالفعل وكان من الصعب إلغاؤه مرة واحدة. لقد أعلى القرآن الكريم حرية الإنسان وجعلها قوامًا للحقوق التي منحها للإنسان كافة.

أما الفصل الأول، وعنوانه «المماليك» ، فقد تحدثت فيه عن مراكز تجارة الرقيق وأنواع المماليك وبداية دخولهم في خدمة الدولة الإسلامية.

وجاء الفصل الثاني، وعنوانه «دور المماليك السياسي في العصر الفاطمي» ، ليناقد استخدام الفاطميين للمماليك، وفيه تناولت بالدراسة عناصر المماليك التي عرفت مصر بكثرة في تلك الفترة، وهم الصقالبة والأتراك والسودان، وتعرضت للصراع بين الطوائف المختلفة للمماليك في تلك الفترة وأثر ذلك في المجتمع المصري، ثم بينت أبرز العناصر المملوكية في العصر الفاطمي ودورها سياسيًا واجتماعيًا.

أما الفصل الثالث، والذي يحمل عنوان «دور المماليك الاجتماعي في مصر في العصر الفاطمي» ، فقد تعرضت فيه للمجتمع المصري في العصر الفاطمي شارحة

التقسيم الطبقي لذلك المجتمع في تلك الفترة وأنه كان ينقسم إلى طبقتين: الخاصة، وتشتمل على الأسرة الحاكمة والأشراف وأرباب الوظائف، والعامّة، وتشكل من التجار وأرباب الصناعات والحرف وعامّة الفقراء من أهل الذمة.

ثم تحدثت عن المماليك من الجوّاري والغلمان والعبيد والخصيان في حياة القصور ودور كل منهم، واقتناء الخلفاء للجوّاري، والأعمال التي قامت بها الجوّاري في القصر، وعشق الخلفاء لهن وثراؤهن، وذكرت الغلمان والعبيد وحياة القصور وعقدهم وميراث الخدم من العبيد والغلمان والخصيان في القصر الفاطمي ثم الأستاذون المحنكون والأساتذة غير المحنكين، وفي نهاية الفصل، أشرت إلى علاقة المماليك بالمجتمع المصري في تلك الفترة، وامتلاك العامة للرفيق والآثار التي ترتبت على وجود الجوّاري في الأسرة المصرية وإعتاق العامة للجوّاري، ثم بينت الجوانب الإيجابية والسلبية لهؤلاء في المجتمع الفاطمي.

أما الفصل الرابع، فقد وضعته تحت عنوان «دور المماليك السياسي في مصر في العصر الأيوبي»، وفيه تعرضت لمساندة المماليك لصالح الدين الأيوبي في إسقاط الخلافة الفاطمية واستخدامه للمماليك، وبينت الدور الذي قاموا به في الجهاد، ضد الصليبيين حتى نهاية الدولة الأيوبية.

وتناولت بالدراسة تكوين فرقة البحرية على يد الملك الصالح نجم الدين أيوب ودورهم في التصدي للحملة الصليبية السابعة وموقفهم من تورانشاه وشجر الدر.

أما الفصل الخامس، والذي يقع تحت عنوان «الوضع الاجتماعي للمماليك في العصر الأيوبي»، فيتعرض لنظام تربية المماليك في العصر الأيوبي والعلاقة بين هؤلاء المماليك وبعضهم البعض وعلاقة المماليك بالمجتمع المصري، ثم عرضت بعض الوظائف والمهن التي تقلدها مماليك العصر الأيوبي في قصور السلاطين كما أبرزت دور المماليك في إقامة المنشآت الدينية والاجتماعية في مصر في ذلك العصر.

وإذ أنهيت موضوع هذا الكتاب على النحو المتقدم، فقد أردت بذلك أن أضيف

لجنة إلى الدراسات التاريخية لفترة تاريخية هامة ربما لم تلق عناية الباحثين بالشكل المطلوب على الرغم من أهميتها التي نبتت من تزامناتها مع أخطر حلقات الحركة الصليبية ضد العالم الإسلامي، فقد كان للمماليك دور مؤثر في التصدي لها بدافع من إيمانهم بأن الجهاد قضية مصيرية وأن الدفاع عن الإسلام ضد الغزاة الطامعين واجب كل مسلم فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمني، والخير أردت والله ولي التوفيق.

دكتورة

نجوى كيرة

تہذیب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

تاريخ الرق

- الرق لغة واصطلاحاً.
- مصادر الرق.
- الحضارات القديمة والرق.
- الرق في الديانات السماوية.
- الرق في الإسلام.

تاريخ الرق

سجل المؤرخون والرحالة في كتبهم ومشاهداتهم دوراً مؤثراً للرق في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العالم في العصور الوسطى، وذلك فضلاً عن دور الرقيق في الدولة الإسلامية، فقد استخدم المسلمون الرقيق في القيام بالأعمال المختلفة، كالزراعة والصناعة والخدمة في القصور، بالإضافة إلى الاستعانة بهم في الجيوش الإسلامية وبصفة خاصة في الدولة الفاطمية.

واختلفت مكانة الرقيق، فهم تارة عبيد مملوكة، وطوراً غلمان للتربية، منهم من استطاع بعد الحصول على حريته أن يسيطر على مجريات الأمور وصولاً إلى السلطة والحكم.

والاسترقاق قديم، عرفته البشرية منذ قيام المدن الأولى، وكان الاسترقاق صورة من صور البغي والتسلط عكست سيطرة القوي على الضعيف، وظلت سائدة في العالم القديم، وكان للإسلام دور أساسي في تنظيم هذا الوضع لصالح الإنسان الذي لم يخلق عبداً إلا الله سبحانه وتعالى فقد أعلّى القرآن الكريم حرية الإنسان وجعلها أساساً للحقوق التي منحها للإنسان منذ ميلاده فقد نص على أنه ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(١).

وأنكر الإسلام على الإنسان والأقوام أن يفاخروا بجنسهم أو بفضيلة فيهم أو أن يستعبدوا غيرهم من الأجناس على سند من قوة أو تحضر أو ثراء أو زعمهم أنهم صفوة مختارة اختصهم الله دون خلقه فادعوا حقوقاً إلهية تعلّهم عن غيرهم^(٢).

ومع ذلك، فما زال الرق نظاماً معمولاً به في الكثير من بقاع العالم بالرغم من أن المنظمات العالمية المهمة بحقوق الإنسان تعمل جاهدة لتخليص أولئك الذين

(١) سورة آل عمران: آية ٧٩.

(٢) انظر عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): مقال في الإنسان، دراسة قرآنية، القاهرة ١٩٦٩م،

يننون تحت نير الإستعباد، كما لا تزال الحكومات الحديثة تحاول جاهدة القضاء على تلك التجارة المهينة لكرامة الإنسان.

الرق لغة واصطلاحاً:

أ- الرق لغة:

عكف اللغويون والمؤرخون والفقهاء على تعريف الرق، فذكر اللغويون أن الرق «هو حرمان الشخص من حريته الطبيعية وصيرورته ملكاً للغير» أو هو الضعف ومنه رقة القلب^(١).

واتفق اللغويون في تفسير لفظة «المملوك» أو «العبد» على قولهم: هو عبد مملكة ومملكة، وفي هذا يقول ابن الأعرابي وصاحب التهذيب أن العبد هو الذي سبي ولم يملك أبواه، أما ابن سيده فيقول: ونحن عبيد مملكة، لاقن أي أننا سبينا ولم نملك قبل، ويقال: فهم عبيد مملكة، والعبد هو «القن» الذي ملك هو وأبواه^(٢).

ويبدو أنهم اعتمدوا في رأيهم هذا على ما جاء في أي الذكر الحكيم: أيما نكم، ملكت أيما نكم، ملكت يمينك^(٣).

وعرفت لفظة «الرق» في اللغات الأجنبية، فهي في الإنجليزية «Slavery» وفي الفرنسية «Esclavage»^(٤).

وجاء في تعريف «الرق» في دائرة المعارف البريطانية أنه وضع اجتماعي يعني

(١) أحمد شفيق: الرق في الإسلام: ترجمة أحمد زكي، القاهرة ١٩٨٢، ص ٧، عبد الله حسين: الدولة الإسلامية د. ت، ص ٢٦٢.

(٢) ابن منظور: لسان العرب القاهرة ١٣٠١هـ، ج ٦، ص ٤٢٦٧ وما بعدها مادة ملك وقارن سعيد عاشور: العصر المماليكي القاهرة ١٩٧٦م، ص ١، أنور زقلمه: المماليك في مصر، القاهرة ١٩٦٧، ص ١٦ - ١٧، وعبد المنعم ماجد: طومان باي القاهرة ١٩٧٨، ص ١٢.

(٣) سورة النساء آيات ٣، ٢٤، ٢٥، ٣٦ وسورة النحل آية ٧١ والنور آيات ٣١، ٣٣، ٥٨، وسورة الروم آية ٢٨، والأحزاب آية ٥٠.

(٤) Encyclopedia Britannica, Vol.20, «Slavery», P/628, La grande encyclopedie Tom, 16. P.247.

العبودية الإلزامية التي تفرض على شخص من قبل شخص أو جماعة معينة^(١). كما عرفت دائرة المعارف الأمريكية بأنه نظام معين أو حالة أو وضع يكون بمقتضاه الأشخاص مملوكين، وجاء في دائرة المعارف الفرنسية أن لفظ «الرق» يطلق على وضع إنسان مملوك لإنسان آخر وهذا الوضع لا يشكل قيداً على الحرية الشخصية فقط بل إنه يلغيها إلغاءً تاماً، فالعبد يعد شيئاً وهذا الشيء ملك لمالك الشيء، أي لسيده^(٢).

ب - الرق اصطلاحاً:

ذكر الإمام مالك لفظ «مملوك» بمعنى عبد، وقيل «إنه عجز حكمي شرع في الأصل جزاء عن الكفر فيكون من حق الله تعالى، لكنه في البقاء أمر حكمي به يصير المرء عرضة للتملك»^(٣).

وقيل إنه «عجز حكمي عن الولاية والشهادة والقضاء ومالكية المال وغيرها»^(٤).

وقد نظم الشرع الإسلامي وضع الرقيق في المجتمع تنظيمًا دقيقًا وحدد حقوقه وواجباته، ووضع القواعد لتنظيم ذلك حتى أنه جعله مساوياً للحر في الكثير من الأمور، منها إنه أباح له إمامة المسلمين في الصلاة.

فقد كان أبو عمرو مولى عائشة، ولم يكن أعتق حينئذ، يؤم الناس في الصلاة. وقال الشافعي «ليس بضيق أن يتقدم المملوك الأحرار إماماً في مسجد جماعة»^(٥). كما حددت النفقة على المماليك وواجب المالك في إنفاقه عليهم^(٦).

(1) Encyclopedia Britannica Vol.20 «Slavery» P/628.

(2) La Grande Encyclopedie, Tom 16, P.247.

(٣) الإمام مالك بن أنس: المدونة الكبرى، بيروت ١٣٢٣هـ، ج٧، ص ١٥٢.

(٤) عبدالله بن مسعود الملقب بصبر الشريعة: شرح التوضيح في متن التنقيح، القاهرة د. ت، ج ٢ ص ١٧٠.

(٥) ابن أمير حاج: التقرير والتحبير، القاهرة د. ت، ج ٢ ص ١٨٠. انظر الشافعي الأم: القاهرة

١٢٩٧ هـ، ج١، ص ١٤٦.

(٦) نفسه: ح٥، ص ٩٠.

كما فرض الحج على كل من الغلام إذا بلغ الحلم والجارية المحيض في أي سن بلغها واستكملا خمس عشرة سنة. كما نظم بيع الإماء وكذلك نكاح العبد والأمة. وحدد ميراث العبد ونظم العتق وكذلك شراء العبيد^(١).

مصادر الرقيق:

تعددت مصادر الرقيق باختلاف البيئات والظروف. فكانت الحروب مصدراً رئيسياً من مصادره كما كانت القرصنة وسيلة من أهم وسائل جلبه، وعن طريق الصيد والقنص والخطف كانت أسواق النخاسة تمتلئ بمختلف أنواع الرقيق وخاصة الرقيق الأسود الأفريقي^(٢).

كما كان البيع أحد المصادر الهامة لجلب الرقيق، فقد ذكر المقرئ في خطته «باع أهل الصعيد أولادهم من الجوع وصاروا أرقاء مملوكين»^(٣).

وكان الأهالي يقومون ببيع أبنائهم عندما يجتاح البلاد الوباء وترتفع الأسعار ويتهددهم الجوع، وقد أكد المقرئ ذلك بقوله «عجز الفلاحون عن البذر سيما أراضى الصعيد فإن أهلها بادوا موتاً بالجوع والبرد، وباعوا أولادهم بأبخس الأثمان، فاسترق منهم بالقاهرة خلائق، ونقل الناس منهم إلى البلاد الشامية ما لا يعد فبيعوا في أقطار الأرض كما يباع السبي ووطئ الجواري بملك اليمين»^(٤).

كذلك كان الحال عند غزو المغول لشمال آسيا تحت قيادة «باتوخان» حفيد جنكيزخان حيث سيطر المغول على تلك البقاع وأذلوا أهلها الذين اضطروا للفرار من ديارهم وتشتتوا في بلاد آسيا الصغرى فعرضوا أولادهم وبناتهم للبيع، فكانت فرصة

(١) للمزيد انظر الشافعي الأم: جـ ١، ص ١٩٩، جـ ٢، ص ٩٤ - ٩٥ وجـ ٣، ص ٢٧٦ - ٢٧٧، جـ ٤، ص ٣، ص ٤٣، جـ ٦، ص ١٩٣، جـ ٧، ص ١٨٣.

(٢) عن أساليب الصيد والقنص انظر: لبيبة إبراهيم: الرقيق وتجارته في مصر والشام في عصر دولة سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، كلية الآداب / جامعة القاهرة ١٩٩٣م، ص ٤٢ - ٤٣.

(٣) المقرئ: الخطط، بولاق ١٢٧٠ هـ، جـ ٢، ص ٢٤٠.

(٤) المقرئ: السلوك، القاهرة ١٩٥٦، جـ ٣، ق ٣، ص ١١٣٥، ١١٦٧.

سانحة لتجار الرقيق والنخاسة الذين ابتاعوا ما شاء الملوك والأمراء والسلاطين «فيشب الفتى وقد نسى قومه وجنسيته واندمج في سلك أمثاله من المماليك تحت رعاية مملوك منهم أو أمير من أمراء العرب أو غيرهم يقرّبونهم إليهم ويحبّونهم لجمالهم وذكائهم»^(١).

الحضارات القديمة والرق:

عرفت الشعوب القديمة الرق بأنواعه المختلفة، جماعيًا أو فرديًا، وامتلكه الملوك والأمراء والعامّة^(٢) وقد استخدم الرقيق في الجيوش والمعابد والجبانات، وقد ذكرت النقوش المصرية القديمة أن كتاب ذلك العصر اعتبروا هؤلاء الأرقاء العبيد أشخاصًا منتمين إلى الطبقات الدنيا ليس لديهم قلب ينبض ولا عقل يفكر، فكانوا يعاملون معاملة الحيوانات وكانت الغالبية العظمى منهم من أسرى الحروب يؤخذون من الغنائم والأسلاب ويوزعون على الجهات المختلفة لاستخدامهم في مختلف الأعمال، كالزراعة وتمهيد الطرق وإقامة الجسور وشق القنوات والتجديف في السفن إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة، كما كان المصريون القدماء يتخذون الرقيق من ذوي الرشاقة والجمال من النساء والرجال ليزينوا مواكبهم^(٣).

وعرف الرق في الشرق القديم، ففي العراق استخدم الرقيق في أعمال مختلفة، كما كان يتخذ للزينة، أما في الهند فكان الرقيق يمثل طبقة خاصة عرفت (بالشودرا)^(٤).

وكان عمل الرقيق في الشرق يتلخص في خدمة السادة، شأنهم في ذلك شأن

(١) أنور زقلمة: المماليك في مصر، القاهرة ١٩٦٧، ص ١٦، ١٧.

(٢) إبراهيم الفلالي: لارق في القرآن، القاهرة ١٩٦٢، ص ٢٧.

(٣) انظر أدولف ارمان، ورآنكه: مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ترجمة عبد المنعم أبوبكر ومحرم كمال، القاهرة د. ت، ص ١٢٨ - ١٢٩، وإبراهيم الفلالي: لارق في القرآن، ص ٢٧.

(٤) الشودرا: لا تزال موجودة حتى الآن وتعامل نفس المعاملة كما كانت منذ آلاف السنين، ولم تصلح محاولات المصلحين في القضاء على هذا النظام. بل إن غاندي قتل حينما أراد تحريرهم والإعتراف بآدميتهم مثل بقية المواطنين. انظر إبراهيم الفلالي: لارق في القرآن ص ٢١ - ٢٥.

الرقيق في الصين، فقد كان الصينيون يقومون باسترقاق أسرى الحرب، كما كان هناك من يبيع نفسه نتيجة لتعرضه للفقر الشديد أو يضطر إلى بيع نسائه وأطفاله، فقد كان الصينيون يسترقونهم ويعاملونهم بمنتهى القسوة^(١).

ولم تختلف أوروبا القديمة عن الشرق القديم، فقد وجد الرق والاسترقاق في اليونان، وأكد فلاسفة اليونان الكبار أمثال سقراط وأرسطو وأفلاطون على ضرورة وجوده، ومن الجدير بالذكر أن أفلاطون ذكر في جمهوريته أن بناء الجمهورية لا يستقيم إلا إذا كان هناك الرقيق الذي يكلف بالأعمال الشاقة^(٢).

وكان أرسطو قد قسم الجنس البشري إلى أحرار وأرقاء وأعلن في فلسفته للعناصر الأساسية والطبيعية للدولة ولأصل السيادة والاستعباد عن ضرورة تواجد العبيد في المنازل قائلاً «إن الصناعات المحدودة تحتاج إلى آلاتها الخاصة لإجاز العمل، كذلك الإدارة البيئية تحتاج إلى أدواتها الخاصة للقيام بشئونها. ومن الأدوات ما هو جامد ومنها ما هو حي: فهكذا الربان يستعمل الدفة وهي من الجمادات ويستعين بسائق مقدم السفينة وهو من الأحياء، إذ أن الخادم في الصناعات هو بمثابة الآلات، وعلى هذا النحو، فالقينة أداة للمعاش والإقتناء وفرة أدوات، والعبد قينة حية والخادم كأداة مقدم على كل الأدوات»^(٣).

ومن فلسفته أيضاً أن القيادة والإقياذ ليسا فقط أمرين ضروريين ولكنهما نافعان أيضاً، ومن الكائنات ما يفرز منذ نشأته للرئاسة ومنها ما يفرز للخضوع، والرؤساء كالمروسين أنواع شتى، والرئاسة تكتسب جودة من جودة المروسين»^(٤).

(١) أحمد شفيق: الرق في الإسلام ص ١٤ - ١٦، إبراهيم الفلالي: لارق في القرآن ص ٢٦، ٢٧.

(٢) أفلاطون: جمهورية أفلاطون، ترجمة نظلة الحكيم ومحمد مظهر سعيد، القاهرة ١٩٦٩ ص ص ٤٦ - ٤٨، ص ص ٦٤ - ٦٦، ص ص ١٢٩ - ١٤٧.

(٣) أرسطو: السياسيات، ترجمة الأب أوغسطينس بربارة البولسي طبعة بيروت ١٩٧٥م، نشر اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، ص ١٢.

(٤) نفسه ص ١٤.

ورأيه في المجتمع الإنساني أن «من حازوا في جسمهم من الجمال مقدار ما حازت تماثيل الآلهة يحق لهم أن يستعبدوا من دونهم روعة»، وأن أفراد المجتمع الإنساني تمايزوا تمايزًا جعل من بعضهم سادة والبعض الآخر عبيدًا، ويمضي بنظريته فيشمل عالم الجماد ويضرب لهذا مثلاً بالنغم الموسيقي الذي ينشأ من انسجام الأصوات وهذا الانسجام لا معنى له إلا متابعة الأصوات الضعيفة للأصوات القوية وذوبانها فيها^(١).

وكان اليونانيون يحصلون على الرقيق من الحروب الكثيرة التي كانوا يشنونها أو عن طريق الشراء، وكان أغلبهم من الفريق الثاني وكان الإسترقاق غالبًا ما يحدث عن طريق القرصنة، فيختطفون سكان السواحل لاسترقاقهم ثم أصبحت المستعمرات اليونانية في آسيا الصغرى أسواقًا عظيمة لبيع الرقيق.

وقد كان بأثينا أسواق للرقيق، وتنافست معها في ذلك أسواق قبرص وغيرها من الجزر اليونانية^(٢).

وقد كان القانون يمنع السيد من أن يحسن لعبده بتحريره بشروط معقدة، فإذا خالف تلك الشروط فإنه يتعرض لغرامة مالية كبيرة يدفعها للدولة لأنه بذلك يكون قد أضاع حقًا من حقوقها^(٣).

وقد حاول بعض حكام إسبرطة تقريب الهوة بين طبقات مجتمعاتهم، فكانوا يقيمون الموائد الجماعية لإطعام الفقراء. لكن هذا لم يكن في واقع الأمر سوى محاولات يائسة، فقد استمرت المعاملة السيئة والقسوة التي عاني منها الرقيق في بلاد اليونان.

إن بعض حكامهم ومشرعهم أباحوا القرصنة، كما شجعوا السطو على الموانئ وسفن التجار وعلى خطف الناس لاسترقاقهم، وكانوا يعتبرون مهنة الاسترقاق من

(١) أرسطو: السياسيات، انظر مقدمة التحقيق، ص ١٢، ص ١٤.

(٢) إبراهيم الفلالي: لارق في القرآن، ص ١٤ - ١٥، أحمد شفيق: الرق في الإسلام، ص ١٨ - ٢٠.

(٣) الفلالي: لارق في القرآن، ص ١٤ - ١٥.

المهن الرفيعة التي تتمتع بها طبقة الأشراف، وكانوا يزودونهم بالسفن والأسلحة حتى كثر الرقيق لديهم.

وعندما تزيد أعدادهم لدرجة تخيفهم، كانوا يقومون بإبادتهم جماعيًا قتلًا أو حرقًا، كما أقر مشرعوهم استغلال الرقيق في البغاء للانتفاع بأرباحه واعتبروه مصدرًا للدخل وبلغ جنونهم بالبغاء أنهم جعلوه قربي يتقرب بها إلى الآلهة^(١).

وورث الرومان ما كان قبلهم في الشعوب القديمة، فكثُر الرقيق عندهم، وتعددت وجوه الإسترقاق في روما، فضلاً عن الرقيق الذي كانوا يحصلون عليه من حروبهم، فقد كانوا يسترقون الأطفال ويخطفون النساء لارتكاب الفواحش. وكانت تجارة الرقيق تجارة ناجحة برغم اعتبارهم لها مخلة بالشرف.

وكانت أثمان العبيد المتعلمين عالية جدًا، وكذلك أثمان مشخصي الروايات. كما ارتفعت أثمان الجواري الحسان. ومثلما كان الحال عند اليونان، كان هناك أرقاء عموميون لخدمة الحكومة وخصوصيون لخدمة الأفراد وكانوا يعتبرون في نظر القانون أشياء ليس لهم الحق في ملكية أو إقامة عائلة وليس لهم الحق في صفة شخصية^(٢).

وقد أباح القانون الروماني للسيد الحق في إماتة عبده أو استحيائه، وكان من حقه أن يستبد به. ثم بظهور المسيحية، تحسنت أحوال الرقيق^(٣)، وسمح له بعد دخول المسيحية في الدولة الرومانية بالإشتراك في الطقوس الدينية ومساواته بالأحرار في المحافظة على قبره، ثم سمح له أن يحل محل سيده في بعض العقود التجارية وتم تحريم إلقاء الأرقاء للحيوانات المفترسة - كما كان يحدث - إلا بعد حكم قضائي. ثم تطور الأمر بمعاقبة السيد الذي يقتل رقيقه بلا سبب، ثم سمح للرقيق بتحرير نفسه من سيده نظير مبلغ من المال اكتسبه من عمله^(٤).

(١) نفسه: ص ١٤ - ١٧.

(٢) أحمد شفيق: الرق في الإسلام ص ٢٢ - ٢٤، الفلالي: لارق في القرآن، ص ١٧ - ١٨.

(٣) أحمد أمين: فجر الإسلام، القاهرة ١٩٦٥، ص ٨٧.

(٤) الفلالي: لارق في القرآن، ص ١٧ - ١٨.

أما في الإمبراطورية الفارسية الأخمينية، فقد كانوا يحصلون على الرقيق من الحروب وكان الرقيق ينقسم إلى قسمين قسم يقوم بالأعمال الشاقة وكانوا ينتقون هؤلاء ممن يتمتعون بصحة جيدة، والثاني للاستخدام في مظاهر الزينة والثراء وكانوا ينتقون ممن يتمتعون بقدر كبير من الجمال. ومثلهم مثل الرومان، كان معاملتهم لرقيقهم قاسية، ثم فطنوا إلى منح هؤلاء الرقيق أوقاتاً للراحة لتجديد نشاطهم وزيادة إنتاجهم^(١).

الرق في الديانات السماوية:

نظمت الديانات السماوية معاملة الرقيق وقد تمتع الرقيق في ظل اليهودية ببعض الحقوق إذ كان من حقهم الراحة سبعة أسابيع في السنة، وكان لا يجوز للرجل أن يضرب عبده ضرباً مزمهاً، ومن فعل ذلك عوقب عقاباً شديداً وكان كثيراً ما يميز الرجل إحدى إمائته فيتخذها خلية له بل كان للعبد أن يتزوج بنت مولاه حينما لا يكون للمولى أولاد ذكور^(٢).

وقد أجازت الشريعة الموسوية الرق ولم تضع نظاماً للتخلص منه إلا إذا كان العبد عبرانياً في يد عبراني أو في يد غريب مستوطن بينهم^(٣).

ومن أهم الأدلة على إباحة اليهودية للرق ما ورد في الإصحاح العشرين من سفر التثنية والذي يقول: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسألك بل عملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها الرب إليك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إليك^(٤).

(١) نفسه: ص ٢٦.

(٢) أحمد شفيق: الرق في الإسلام، ص ١٦ - ١٧، أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٨٧.

(٣) انظر: العهد القديم، سفر الخروج، الإصحاح ٢١، سفر التثنية الإصحاح ١٥، سفر اللاويين الإصحاح ٢٥.

(٤) العهد القديم، سفر التثنية، إصحاح ٢٠.

ومع إنتشار المسيحية، ظهر الرق في البلاد التي دانت بها فمع أن المسيحية كانت تدعو بوجه عام إلى المحبة والإخاء، إلا أننا لا نجد أن العهد الجديد يحوى نصاً صريحاً ضد الاسترقاق ولم يتناول عيسى عليه السلام الأرقاء بقول معين كما لم يذكر أمر تحريرهم.

ولما جاء زمن الرسل، أمر بولس الرسول العبيد بإطاعة السادة تماماً مثل طاعتهم للمسيح، ولأن المسيحية ليست دين تشريع، فإننا لا نقف على تشريعات خاصة تتعلق بتنظيم حياة الأرقاء، بل اكتفت المسيحية بحث العبيد على طاعة أسيادهم.

وقد ذكر بولس الرسول العبيد بطاعة أسيادهم طاعتهم للسيد المسيح، فقد ورد في رسالته إلى آل أفسوس في الإصحاح السادس قوله «أيها العبيد، أطيعوا ساداتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس - عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبداً كان أم حراً، وأنتم أيها السادة افعلوا لهم هذه الأمور تاركين التهديد عالمين أن سيديكم أنتم أيضاً في السموات وليس عنده محابة»^(١).

ومع ذلك، فقد حارب رجال الكنيسة تجارة الرقيق، بل إن الكنيسة كانت تقضي بالحرمان على من يشتغل بها^(٢).

ولم يكن الرق غريباً على الجزيرة العربية قبل الإسلام، فقد عرف العرب في الجاهلية الرقيق والعبيد والسبايا من النساء، ومن ثم يمكن أن نقول إن العرب عرفوا تجارة الرقيق وكان لهم أسواق يباعون فيها وكان منهم السود والبيض، ومكان جلب البيض الممالك التي حول الجزيرة العربية، أما السود فكانوا يأتون من الحبشة وكانوا يبيعونهم في تلك الأسواق في مواسمهم، وكانت قریش تتاجر في

(١) العهد الجديد: رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس، الإصحاح السادس.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريذة، القاهرة ١٩٥٧، جـ ١،

الرقيق كتجارته لسائر السلع، وكانوا يتهادونهم ويتوارثونهم كالأمته، وكانت أعدادهم كثيرة في منازل أشراف العرب^(١).

وكانت موارد الرقيق لدى العرب عن طريق الحرب أو الخطف والقرصنة والإعتداء على القوافل التجارية و «كانت النعرة الجاهلية تجعلهم يحتقرون الأجناس غير العربية»^(٢) وكان ذلك من أشد أسباب قسوة معاملتهم للرقيق من غير العرب، فقد كانوا يسيئون استغلالهم، وإذا غضب السيد على عبده أنزل به أشد أنواع العقاب، وكان السيد إذا أنجب من أمته يلحق هذا الوليد برقيقه، لكنهم كانوا لا يبيعون أبناءهم أبداً إذا أصابهم إملاق فكانوا يفضلون قتلهم على أن يصبحوا أرقاء^(٣).

ورغم أن إعتاق العبيد كان يعتبر إحدى المفاهيم التي يزعم بها العرب ويفخرون بها غيرهم، إلا أن هذا لم يمنع من أن العبد كان مهاناً سواء عمل بالخدمة في المنازل أو عمل بالرعي. كما أنه كان معرضاً للبيع في أي وقت. ولذلك، كان منتهى أمل العبيد نيل رضا أسيادهم، لذلك كانوا يكدون ويكدحون للحصول على رضاهم، كما كانوا يعيشون في عزلة تامة فلم يكن بإمكانهم الإتصال بأوطانهم الأولى فكانوا يحيون ويموتون في هذا القاع الاجتماعي^(٤).

ومن هذا يتضح لنا أن الرق قديم قدم الإنسانية ذاتها وعرف عند مختلف الأمم، وأن منابعه كانت واحدة ألا وهي الحرب والبيع وإعادة إنتاج الرقيق بالتوالد.

من كل هذا نلمس مدى الفوضى التي كانت سائدة في تلك المجتمعات ومدى ما وصل إليه الإتحلال الخلقي الذي قوض دعائم ذلك المجتمع الذي أصبح في أشد الحاجة إلى تشريع سماوي ينظم قوانينه ويدعو إلى احترام الإنسان ويؤكد على أنه

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٨٨ - ٨٩.

(٢) إبراهيم الفلالي: لارق في القرآن، ص ٣٠.

(٣) نفسه، ص ٣٠ - ٣١.

(٤) عبده بدوي: السود والحضارة، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٠٩ - ١١١.

لا عبودية إلا لله، فكان الإسلام خاتم الرسالات الذي قدم للبشرية ما يعينها على احترام ذاتها واحترام أبنائها.

الرق في الإسلام:

وتستقبل البشرية مرحلة جديدة بنزول الوحي على رسول الله ﷺ، فكانت دعوة القرآن الكريم أن لا عبودية إلا لله وحده، ومن ثم كانت الدعوة إلى خلاص الرقيق المستضعف في الأرض من الذل والعبودية.

كرّم الإسلام الإنسان أحسن تكريم واختاره «لخلافه في الأرض وسخر له كل ما فيها من جبال ووهاد وزرع وضرع بل سخر له ما في السموات وما في الأرض وأعطاه من العلم قدرًا يستطيع أن يسخر له كل ما يقرب منه لمصلحة نفسه»^(١).

لقد أقر الإسلام على أن المسلمين إخوة لا فرق بين عربي وعجمي ولا بين أبيض وأسود إلا بالتقوى.

وكانت الخطوة التالية التي شهدتها المجتمع البشري هي تنظيم العلاقة بين الناس في وقت كان الرق فيه نظامًا مستقرًا في المجتمعات البشرية جميعًا، ولما كان الإسلام يعالج مشكلات المجتمع بالتدرج لا بالطفرة فقد نظر إلى الرق والرقيق من هذا المنطلق.

وكان نظام استخدام الرقيق أساسيًا عند العرب في الجاهلية، ولذلك، فقد كان من الصعب أن يلغى الإسلام نظامًا اعتاد عليه الناس أعوامًا طويلة وأجيالًا متتالية حتى تمكن منهم، كما كان من الصعب انتزاعه حتى لا يحمل نفوسهم ما لا تطيق في الوقت الذي بني فيه الإسلام على السراحة واليسر فإنه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وعلى هذا، فإن الإسلام عالج هذا الأمر بمنتهى البراعة، فقد مهد لزواله تدريجيًا حتى لا يترك مجالًا للناس لأن يلجأوا للشرائع الإلهية والوضعية السابقة،

(١) محمد أبو زهرة: تنظيم الإسلام للمجتمع، القاهرة ١٩٦٥، ص ٢٧، أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٦٤، ص ٢٨٣.

كما أن المسلمين كانوا يسترقون من قبل أعدائهم فكيف يطلقون أسرى الأعداء في الوقت الذي يسترق فيه الأعداء أسرى المسلمين؟ وكيف يفادى المسلمون أسراهم ومن أين؟! من هنا كان التدرج في إلغاء نظام الرق دون حدوث تغيير في نظام المجتمع الإنساني^(١).

وأقر الإسلام أن من أسلم من الرقيق صار حراً له ما للمسلمين من حقوق وعليه من الواجبات ما عليهم وأن من ظل على دينه يدفع الجزية، وبذلك يدخل في ذمة المسلمين يدافعون عنه ويحمونه، أما من يعمد إلى حربهم فإنه يكون حين يؤسر ملكاً لهم يتصرفون فيه كيف شاءوا^(٢).

كانت حلول الإسلام عبقرية في مجال القضاء على المشاكل التي تنتج عن نظام الاسترقاق، الفكرية منها أو الإقتصادية أو الإجتماعية أو العنصرية أو الطبقية، فبدأ بالفكرية محرراً العقول والأرواح، وقضى على المعتقدات الفاسدة والفلسفات المنحرفة وقضى على الخرافات التي كان يُسترق بها الرجال والنساء وأصلح الأوضاع الإقتصادية الفاسدة وحدد الملكيات ووزع الثروات بطريقة عادلة^(٣) وتنزلت الآيات القرآنية تحت على تحرير الرقاب وفك أسرها وجعل ذلك من القربات إلى الله تعالى ومنها ما يحث على حسن معاملة الرقيق وطرق

(١) للمزيد انظر: عبد الله بن أحمد قادري، أثر التربية الإسلامية في أمن المجتمع الإسلامي، ١٩٨٨، ص ١٩١، إبراهيم الفلالي: لارق في القرآن ص ٣٢ - ٣٣، عبد الكريم الخطيب: التعريف بالإسلام، القاهرة ١٩٥٦، ص ٣٠٤ وأبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٢٧٩ - ٢٨٣ وأحمد شفيق: الرق في الإسلام، ص ٥٤ - ٥٥، عبده بدوي: السود والحضارة العربية، ص ١١٤ - ١١٥، الشاطر بصيلي عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، ١٩٧٢، ص ١٧.

(٢) محمد حسن عواد: محرر الرقيق، القاهرة ١٩٩٤، ص ١١٩ - ١٢٠، الفلالي: لارق في القرآن، ص ١٥٠ - ١٥١.

(٣) عبد العزيز عبد الدائم: الرق في مصر في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٨٣، ص ١٢، الفلالي: المرجع السابق، ص ١١٤ - ١١٥.

عتقه ومنها الحديث عن ملك اليمين^(١).

وقد أباح الإسلام زواج الإماء والجواري: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيِّمَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢).

فإذا أنجبت الأمة أصبحت أم ولد، وعند وفاة سيدها تعتبر حرة وأبنائها من البنين والبنات أحراراً^(٣).

وأمر الإسلام المسلمين بعق أمهات الأولاد: «أخبرنا مالك، أخبرنا نافع، عن ابن عمر، قال عمر: أيما وليدة ولدت من سيدها فإنه لا يبيعها ولا يهبها ولا يورثها وهو يستمتع منها فإذا مات فهي حرة»^(٤).

كما أن الإسلام فضل الزواج بالمملوكة المؤمنة على ذات الحسب المشركة: ﴿وَلَا أَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾^(٥).

وفرض للإماء حقوقاً: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾^(٦).

(١) من الآيات القرآنية التي تعرضت للرق والرقيق وملك اليمين سورة البقرة آية ٧٧، النساء، آيات ٣، ٢٣، ٢٥، ٣٦، ٩٢، والمائدة، آية ٨٩، والتوبة، آية ٦٠، والنحل آية ٧١، المؤمنون الآيات ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، والنور آيات ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٥٨، الروم آية ٢٨.

(٢) سورة النور آية ٣٢.

(٣) عن عتق أمهات الأولاد، انظر الشافعي الأم: جـ ٥، ص ٢٨٦، الشيرازي: المذهب في فقه الإمام الشافعي، د. ت، جـ ٢، ص ١٩ - ٢٠.

(٤) أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي: عالم المدينة، ولد سنة ٩٣هـ وتوفي ١٩٧هـ، انظر موطأ الإمام مالك: رواية محمد بن الحسين الشيباني ط: ٣ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ١٩٨٧م، ص ٢٥٦، كذلك انظر الشوكاني: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار طـ ١٢٩٧هـ، جـ ٦، ص ٩٦-٩٧.

(٥) سورة البقرة، آية ٢٢١.

(٦) سورة الأحزاب، آية ٥٠، وعن ملك اليمين، انظر: الكاساني الحنفي، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، بيروت ط: ٢ سنة ١٩٨٣م، جـ ٢، ص ٢٦٥، ٢٧٦.

وأوصى القرآن بالعدل والرحمة في معاملة الرقيق: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا^١ وَيَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ^(١)﴾.

نظم الإسلام إذن علاقة الرقيق بالمجتمع تنظيمًا دقيقًا فبين ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات وجعل العبد مساويًا للحر في الكثير من الحقوق والواجبات. وفرض الإسلام الحج على كل من الغلام إذا بلغ الحلم والجارية المحيض في أي سن بلغها أو استكملا خمس عشرة سنة^(٢).

كما نظم بيع الإماء^(٣) ونظم ميراث العبيد والعنق^(٤) وأوجب الإنفاق على الممالك وجعله حقًا من حقوقهم على السيد تأديته^(٥) وجعل من حق العبد والأمة الزواج^(٦).

وعندما تنزل الأمر بالجهاد، كان حتمًا على المسلمين أن يدخلوا حروبًا مع أعدائهم دفاعًا عن كيانهم ووجودهم، ومن ثم كانت الحروب مصدرًا حصل به المسلمون على الرقيق، ولذلك، قيد الإسلام وجوب الاسترقاق عن طريق الحرب بشرطين: أحدهما أن تكون حربًا شرعية والثاني، أن يكون القتال مع القوم الكافرين. لذلك كان المسلمون قبل فتحهم لأي بلد من البلاد يبعثون الرسل في شأن الصلح وقبول الدخول في الإسلام، وعند رفضهم يعرضون عليهم دفع جزية سنوية فني مقابل حمايتهم والدفاع عنهم، فإن لم يقبلوا أعلنت الحرب عليهم، وإذا قبلوا أوفى المسلمون بعهودهم تجاههم وأمنوهم، وإذا أسروا في الحرب لهم الحق في اقتداء

(١) سورة النساء، آية ٣٦.

(٢) الشافعي الأم: ج ٢، ص ٩٤ - ٩٥.

(٣) نفسه: ج ١، ص ١٩٩.

(٤) نفسه: ج ٤، ص ٣، ٤٣ وج ٦، ص ١٩١.

(٥) نفسه: ج ٥، ص ٩٠.

(٦) نفسه: ج ٣، ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

أنفسهم إما بالإسلام أو بالمال^(١).

كما حرم الإسلام قتل السبايا إن كن من أهل الكتاب واعتبارهم سبياً مسترقاً يقسمن مع الغنائم. وإن لم يكن لهن دين (كعبدة الأوثان) ورفضن الدخول في الإسلام، فإن آراء الفقهاء قد اختلفت في شأنهن: رأي الشافعي قتلهن، أما أبو حنيفة فقد قال باسترقاقهن وبعدم التفريق بينهن وبين أولادهن، وإذا كن متزوجات بطل نكاحهن بالسبي، وإن سبين مع أزواجهن فهن على النكاح، وإن أسلمت قبل السبي فهي حرة، وإذا كانت متزوجة فنكاحها يبطل بعد أنقضاء العدة^(٢).

ولما جاء الإسلام، كان العرب يمتلكون الكثير من الجواري اللاتي تم سبيهن أيام الجاهلية فأقرهم الله سبحانه وتعالى عليهن في قوله ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾^(٣)، مع الدعوة إلى تحرير الرقاب واعتباره من اسمى القربات إلى الله تعالى اعترافاً بنعمه الكثيرة على الإنسان: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ ﴿ فَكُ رَقَبَةً ﴾^(٤).

كما اختص تحرير الرقاب بسهم من ثمانية أسهم من الزكاة وفرض علي الإمام افتكاك الرقاب من أموال الزكاة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَكِيمٌ ﴾^(٥).

(١) أحمد شفيق: الرق في الإسلام، ص ٥٧ - ٦٦.

(٢) عن عدة الأمة، أنظر: الشافعي، الأم ج-٥، ص ١٩٨ والماوردي: الأحكام السلطانية، القاهرة ١٩٦٦، ص ١١٧.

(٣) سورة النساء، آية ٣.

(٤) سورة البلد، آيات ٨ - ١٣.

(٥) سورة التوبة، آية ٦٠.

وجعل الإسلام من تحرير الرقاب كفارة عن جرائم تجتبرم فقال في كفارة الظهار^(١).

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا﴾^(٢).

كما جعل الإسلام عتق الرقيق كفارة عن اليمين: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾^٣ فَكَفَرْتُمْ^٤ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ^(٥).

وقد حبيب الرسول عليه الصلاة والسلام المسلمين في العتق^(٦). وقد أشارت إلى ذلك الكثير من الأحاديث، فعن عبيد الله بن عبد الله عن رجل من الأنصار أنه جاء بأمه سوداء، فقال: يا رسول الله، إن علي عتق رقبة مؤمنة فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتها، فقال لها رسول الله ﷺ: أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ قالت (نعم) قال: أتشهدين أنني رسول الله؟ قالت (نعم)، قال: أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟ قالت: نعم، قال: فأعتقها. وعن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ بجارية سوداء أعجمية فقال: يا رسول الله، إن علي عتق رقبة مؤمنة فقال لها رسول الله ﷺ: أين الله فأشارت إلى السماء بإصبعها وإلى رسول الله ﷺ وإلى السماء أي

(١) للمزيد عن الظهار، انظر: الكاساني الحنفي: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، جـ ٥، ص ٩٦ - ٩٩، انظر: ابن تيمية: الفتاوى الكبرى، بيروت، د. ت، جـ ٤، ص ٥٨٤ - ٥٨٥، والشافعي: الأم، جـ ٤، ص ١١٤ وجـ ٥، ص ٢٦٢، والشوكاني، نيل الاوطار، جـ ٦، ص ٢٥٨ - ٢٦١.

(٢) سورة المجادلة، آية ٣.

(٣) سورة المائدة، آية ٨٩.

(٤) «العتق» مأخوذ من «السبق» يقال عتقت مني يميني أي سبقت وعتقت الفرس إذا سبقت، وعتق فرخ الطائر إذا طار واستقل وكان المعتق خلبى فذهب حيث شاء، ذكره العتبي: يقال: «عتق» العبد «يعتق» عتاقاً وعتقا فهو «معتق» و«عتيق» ولا يقال «معتوق»، وخص الرقبة بالعتق والملك دون سائر الأعضاء لأن ملك العبد كالجبل في الرقبة وكالغل يحبس به كما تحبس الدابة بالحبل في عنقها - الشيرازي: المذهب في فقه الإمام الشافعي، جـ ٢، ص ٢.

أنت رسول الله قال فأعتقها^(١).

كما أن الكثير من الأحاديث تبين مدى إهتمام الرسول عليه الصلاة والسلام بحث المسلمين على عتق الرقاب، فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار حتى فرج به بفرجه» - متفق عليه^(٢).

وعن أبي زر، قال: قلت يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله، قال: قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً^(٣). وعن أبي موسى، قال رسول الله ﷺ: «أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران...»^(٤).

لذلك، تسابق المسلمون إلى عتق ما ملكت أيديهم تقريباً إلى الله واستعطافاً لرحمته، لذلك كان تحرير الرقاب من أسمى مواطن الخير عند المؤسسين من المسلمين^(٥).

وكما حُبب الإسلام إلى المسلمين العتق، كذلك حثهم على حسن معاملة عبيدهم والإحسان إليهم والعطف عليهم، ومن الأحاديث التي أشارت إلى ذلك المعنى عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل ما لا يطيق» رواه أحمد ومسلم^(٦).

(١) رواها الشوكاني: نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار، جـ ٩، ص ٢٥١. وفي العتق عن كفارة

اليمين: أنظر: الكاساني الحنفي: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، جـ ٥، ص ١٠٠ - ١٠٧.

(٢) الشوكاني: نيل الأوطار، جـ ٦، ص ٧٨.

(٣) نفسه: جـ ٦، ص ٧٩.

(٤) نفسه جـ ٦، ص ١٥٤.

(٥) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، القاهرة ١٩٦٨، جـ ١، ص ٩٨ - ٩٩، عبد الله

عفيفي المرأة العربية، مكتبة الثقافة، المدينة المنورة، د. ت، جـ ٢، ص ٣١ - ٣٢، آدم منز:

الحضارة الإسلامية، جـ ١، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٦) الشوكاني: نيل الأوطار، جـ ٧، ص ٢.

وعن أنس، قال: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة وهو يغرغر بنفسه الصلاة وما ملكت أيمانكم - رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه^(١).

وقد جرت العادة منذ بداية الإسلام على ألا يسمى العبيد عبيداً فالعبد يسمى «فتى» والأمة «فتاة»^(٢).

وقد حافظ الإسلام على الكرامة الإنسانية، فكان من حق الرقيق استرداد حرياتهم مقابل مبلغ من المال يتفق عليه السيد والرقيق ويكون هنا كعتق إجباري ليس للسيد رفضه أو تأجيله ويسمى هذا بالمكاتبه^(٣)، ووقتها يصبح عمله عند سيده بأجر أو يكون له الحق في العمل عند غيره، وعلى هذا يكون للإسلام السبق في وضع هذا النظام، فعن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «يؤدي المكاتب بصحة ما أدى دية الحر وما بقي دية العبد»^(٤).

وعن علي كرم الله وجهه، عن النبي ﷺ قال: «يؤدي المكاتب بقدر ما أدى»^(٥). وهكذا فإن الإسلام «ارتفع بأتباعه إلى منزلة من الإتصاف للرقيق والرفق به لم تبلغها الإنسانية بآدابها وقوانينها وديساتيرها وأنظمتها بعد أكثر من ألف سنة»^(٦).

(١) نفسه.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ ١، ص ٣٠٦.

(٣) «المكاتب» والأنثى «مكاتبه» وهو أن يتعاقد العبد مع سيده على تأديه قدر معين من المال حالاً أو مؤجلاً يصبح بعدها حراً فيكسب ويملك ما يحصل في يده من المال فيؤدي منه بدل الكتابة لسيده، فإن عجز عن السداد أو إكماله عاد إلى الرق. انظر: وثيقة في المكاتب، الشافعي الأم: جـ ٦، ص ١٩٨ - ١٩٩، وللمزيد عن المكاتب، انظر: الكاساني الحنفي: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، جـ ٥، ص ١٠٧ - ١١٠ وانظر: الشوكاني: نيل الأوطار، باب المكاتب، جـ ٦، ص ٩١ - ٩٢، والشيرازي: المذهب في فقه الإمام الشافعي، جـ ٢، ص ١١ - ١٥ وانظر الإمام مالك: المدونه الكبرى، جـ ٧، ص ٢٣٠ - ٢٧١.

(٤) الشوكاني: نيل الأوطار، جـ ٦، ص ٩٣.

(٥) نفسه.

(٦) عباس محمود العقاد: المرأة في القرآن الكريم، القاهرة ١٩٧٣، ص ١٠١.

فقد شرع الإسلام العتق ولم يشرع الرق وحرّم كل أنواعه وأباح ما كان موجوداً فعلاً. وإذا أمعنا التفكير، نجد أن القوانين الجديدة والتشريعات لم تأت بجديد في هذه المسألة بعد الذي تقدم به الإسلام، فما أباحه الإسلام مباح اليوم فالأسر مباح حتى يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الأسرى أو افتدائهم^(١).

وإذا كان نظام الاسترقاق قد بقي في المجتمع الإسلامي على عهد الرسول أو الصحابة، فإنه كان في طريقه إلى التصفية والزوال لولا المتغيرات التي طرأت على المجتمع الإسلامي مع مطلع العصر الأموي^(٢).

وتحاول الجبهات المعادية النيل من الإسلام فهي تدعى أن الإسلام أقر الرق ونظم قوانينه. ويرد على ذلك مفكروا المسلمين قائلين: «إن القرآن الكريم لم يرد فيه نص يبيح الرق بإقراره ثبت من كثرة أوامره بالعتق»^(٣).

وقالوا إن النبي لم يقر «إنشاء رق على حر لا في حرب ولا في سلم وأن الرق الذي أنشأه الخلفاء في الحروب من بعده كان لعدم وجود نهى كما أنه لم توجد إجازة، وكان ذلك إقتداء بمبدأ المعاملة بالمثل في الحروب تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٤).

وكان أعداء المسلمين يسترقون، فاتخذت تلك الجبهات من الرق سلاحاً لحرب تعاليم الإسلام وخاصة في أفريقية السوداء حيث اتجه مواطنوها إلى الإسلام خلاصاً من الاستعباد والاسترقاق^(٥).

(١) عبده بدوي: السود والحضارة العربية، ص ١١٢.

(٢) عائشة عبد الرحمن: مقال في الإنسان، ص ٧٣.

(٣) محمد أبو زهرة: تنظيم الإسلام للمجتمع، ص ٢٨، ٢٩، عبد الكريم الخطيب: التعريف بالإسلام، ص ٢٩٣.

(٤) سورة البقرة، آية ١٩٤.

(٥) عبد الكريم الخطيب: التعريف بالإسلام، ص ٢٩٣، محمد أبو زهرة: تنظيم الإسلام للمجتمع،

ص ٢٨ - ٢٩.

الفصل الأول

الفصل الأول

الممالك

١- مراكز تجارة الرقيق:

- تجارة الرقيق الأبيض.
- الرقيق الآسيوي.
- الرقيق الأفريقي.
- عمليات بيع الرقيق.
- نظم بيع الرقيق في الأسواق.

٢- أنواع الممالك:

- المملوك - العبد، القن، الغلام، المولي، الجواري والإماء، السراري، القيان، أمهات الأولاد، الجواري السميات، الخصيان.

٣- دخول الممالك في خدمة الدولة الإسلامية:

- استخدام الأمويين للرقيق.
- استخدام العباسيين للرقيق.

٤- دخول الممالك في خدمة حكام مصر.

- الممالك في الدولة الطولونية.
- الممالك في الدولة الإخشيدية.

الفصل الأول

المماليك

١- مراكز تجارة الرقيق:

انتشرت تجارة الرقيق، بنوعية الأبيض والأسود، انتشارًا كبيرًا في العصور الوسطى، وذلك إما عن طريق الشراء أو الخطف. وعند انتشار الأوبئة والقحط وكان بعض الناس يضطرون إلى بيع فلذات أكبادهم، وقد كان لإقبال الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء وتهافتهم على شراء المماليك والجواري أكبر الأثر في ارتفاع أثمانهم ومغالاة التجار في هذه الأثمان.

وقد تعددت أنواع الرقيق وأشكاله وجنسياته، فمنهم التركي أو الرومي أو الجركسي ومنهم الزنجي أو الفارسي، وتميز الرقيق التركي والجركسي وراجت تجارته لسببين، أولهما ما يتصف به هذان الجنسان من جمال وحسن، وثانيهما: ما تعرضت له بلادهم من غارات وحروب.

وقد استفحل أمر الرقيق التركي حتى استطاع هؤلاء الوصول إلى مكانة مرموقة أثرت تأثيرًا واضحًا في أمور الدولة وبصفة خاصة في تكوين الجيوش الإسلامية^(١).

وكان الخلفاء العباسيون قد استبدلوا الفرس بالأتراك الذين أخذ نفوذهم في التزايد على حساب العنصر العربي الذي بدأ وجوده يتضاءل حتى فقد سيادته تمامًا في القرنين الرابع والخامس الهجريين (العاشر والحادي عشر الميلاديين) كما كان من أسباب رواج تلك التجارة نزول قبائل السلاف (الروس) شمال البحر الأسود ونهر الطونة نازحين نحو الغرب الجنوبي في اتجاه أواسط أوربا، وهم قبائل كثيرة سميت فيما بعد بالسلاف أو الصرب أو البوهيم والدلمات، وكانوا يحاربون الشعوب التي يمرون بها مثل السكسون والهون ويبيعون أسراهم، فنشطت هذه التجارة وظهرت

(١) محمود رزق سليم: عصر المماليك وإنتاجه العلمي والأدبي، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٤ - ١٥،

أنور زقلمة: المماليك في مصر، ص ١٧ - ١٨.

طبقة التجار الذين كانوا ينقلونهم إلى مصر والشام^(١).

وكان لبعض أصحاب الجاه نصيب من تلك التجارة على سبيل المثال السيدة المعزية (زوجة المعز وأم العزيز الفاطمي وهي أم ولد من أصل عربي، وكان قد تزوجها المعز بالمغرب قبل انتقاله إلى مصر) كان لها نشاط في تجارة الرقيق فتبعث بالجواري والعبيد من المغرب لبيعوا في مصر على يد وكيل لها^(٢).

وكان الناس يزدهمون على أسواق الرقيق لمجرد الفرجة عليهم خاصة الجواري، مما حدا بالحاكم الفاطمي إلى تخصيص يوم لبيع الجواري وآخر لبيع الغلمان وإلى وضع شروط للوجود في تلك الأسواق بحيث يكون الشخص بائعاً أو شارباً فقط^(٣).

أما في عصر الدولة الأيوبية، فقد شجعت حالة الرخاء التي شهدتها مصر أهل تركستان على بيع أولادهم وبناتهم أملاً في ارتقائهم عرش السلطنة يوماً ما وطلباً لأن يحيا حياة رغدة في بلاط السلاطين. وقد كثر تجار المماليك حينذاك، وكان ذلك العصر في مصر عصر الازدهار لهؤلاء التجار الذين كانوا يلقون التشجيع من قبل السلاطين والأمراء الذين كانوا يقدرون تلك البضاعة ويدفعون فيها مبالغ باهظة^(٤).

في ذلك العصر السابق على قيام دولة المماليك، كان التجار الأوربيون يبيعون المماليك للعرب والبنادقة^(٥)، حتى اضطر ملوك أوربا وبابواتها إلى اتخاذ إجراءات متعسفة ضد التجار المسيحيين. وقد كان للبنادقة وأهل جنوة شهرة واسعة في هذه التجارة حيث كانوا يجلبون الشبان من سواحل البحر الأسود ويبيعونهم في مصر،

(١) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، القاهرة ١٩٠٦، ج ٥، ص ٢٧.

(٢) نريمان عبد الكريم، أحوال المرأة في العصر الفاطمي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس، ١٩٨٤م، ص ٤.

(٣) المقرئ: اتعاط الحنفا، ج ٢، تحقيق جمال الشبال، القاهرة ١٩٦٧، ص ٧٦، عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري في العصر الفاطمي، القاهرة ١٩٨٥، ص ٨٥ - ٨٦.

(٤) ابن عبد الظاهر: من مقدمة التحقيق لكتابه تشریف الأيام والعصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة ١٩٦١، ص ٣٧.

(٥) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة، د. ت، ص ١٦٨.

كما كان الترك يرسلون الأسرى من المجرمين إلى أسواق الرقيق في مصر^(١).
ظهرت أسواق النخاسة في الشرق والغرب على السواء، وكانت أفريقيا وآسيا وأوروبا مصادر أساسية للحصول على الرقيق.

كانت أفريقيا تمد العالم بالرقيق الأسود، وكان يتم جلب الأتراك والتركماني والجراسنة من القارة الآسيوية، أما أوروبا فقد أمدت العالم بالسلاف والصقالبة والجرمان^(٢).

وكان للرقيق أسواق عالمية تعد مراكز لتجمع التجار الذين ينتقون منه ما يريدون ثم يقصدون به بعد ذلك الأسواق المحلية لبيعه لمن يريد^(٣).

وكانت تجارة الرقيق تمر بمراحل متعددة يتم فيها تجميع الرقيق من مواطنهم الأصلية ثم يتم ترحيلهم فينتقى الجلاب ما يصلح منهم وينقلهم إلى الحواضر والعواصم المختلفة ثم يقوم النخاسون بتدريبهم وبيعهم داخل البلاد وكان هؤلاء محل رعاية واهتمام التاجر لأنهم مصدر دخله^(٤).

تجارة الرقيق الأبيض:

كانت أسبانيا من أهم مصادر الرقيق الأبيض، فقد كان حكامها يحصلون عليه من سبي الفرنج وجليقية، كما كان تجار الرقيق اليهود والفرنج يشترون الأسرى السلاف والجرمان من ألمانيا عند ضفاف نهر الراين وجبال الألب، ثم يسوقونهم كالحوانات ذكورا وإناثا حتى فرنسا، ثم ينقلونهم بعدها إلى أسبانيا (الأندلس)

(١) علي إبراهيم حسن: تاريخ الممالك البحرية، القاهرة ١٩٤٤، ص ٣٠، عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين الممالك ورسومهم، القاهرة ١٩٧٩، ص ١١ - ١٢.

(٢) كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين قاسم، بيروت ١٩٨٣، ص ١١٣.

(٣) لبيرة إبراهيم، الرقيق وتجارته، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٩٣، ص ٥٧.

(٤) صلاح شمردل: الرقيق واثره في المجتمع العراقي، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة القاهرة ١٩٩٤م ص ٥٢.

فيستخدمهم المسلمون، الذكور للحرب والخدمة، أما الإناث فكن يعملن كجوار^(١).
ووصل إلى إسبانيا صنف من الرقيق كان يأتي من خراسان، يقول ابن حوقل:
«وبالأندلس غير طراز يرد إلى مصر متاعه وربما حمل منه شيء من أقاصي
خراسان وغيرها ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان الروقة من
سبي إفرنجة وجليقيه والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة
الخصيان فمن جلب الأندلس لأنهم عند قريبهم منها يخلصون ويفعل ذلك بهم تجار
اليهود»^(٢).

وكان طريق جنوة التجاري يتفرع إلى فرعين:
الأول تنقل منه السفن هذا الرقيق وتتجه بعضها إلى الشرق بجانب شاطئ شبه
الجزيرة الإيطالية مارًا بنابولي ومضيق مسينا على جزيرة كريت ومنها شمالاً فيعبر
اليوسفور والدردنيل إلى القسطنطينية وموانئ البحر الأسود، والآخر يتجه غرباً فيمر
بساحل فرنسا جنوباً ثم برشلونة وفالنسيا في قطلونيا.
هذا بالإضافة إلى الطريق البحري الذي كان يخرج من جنوة ضمن أسطولها
متجهاً إلى تونس محاذياً ساحل إفريقية ويتجه من الشرق إلى الإسكندرية والشام^(٣).
أما في الغرب فإن الطريق كان يصل حتى مضيق جبل طارق إلى غرب إفريقية.
وعند وصول السفن إلى البحر الأسود فإنها كانت تتجه إلى الجنوب ثم إلى أنطاكية
ودمشق بحذاء الساحل حتى تصل إلى القاهرة^(٤).
أما سفن الرقيق الصقلبي فكانت تحمل الرقيق إلى ساحل دلماشيا المطل على

(١) أحمد مختار العبادي: في التاريخ الأيوبي والمملوكي ص ٥، جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج ٥، ص ٢٧.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، لندن ١٩٢٩، ج ١ ص ١١٠. وانظر: YAACOV LEV. Arab History and civilization, state and society in Fatimid Egypt V.1.P/74

(٣) سوزي أباطة، السودانيون في جيش مصر، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة ١٩٨٩م ص ٦٨.

(٤) نفسه.

البحر الأردني وتنتقله إلى أسواق مصر والشام. كما كان هناك مركز صراى^(١) وهو من أكبر محطات تجارة الرقيق^(٢).

وقد لعب التجار اليهود دورًا هامًا في هذه التجارة بين الشرق والغرب وزادت ثرواتهم، وكان من أسباب تفوقهم في هذه التجارة أنهم كانوا يتكلمون لغات عديدة منها الفارسية والعربية^(٣).

الرقيق الآسيوي:

وكانت بلاد ما وراء النهر من أهم مصادر الرقيق الأبيض حيث مدينة وخان في أعالي نهر جيحون والتي كانت تعد من أشهر مراكز تجمع قوافل الرقيق الترك الآتي من أواسط آسيا، وقد كانت هذه التجارة مصدرًا هامًا من مصادر ثراء الخوارزميين، فقد كانوا يربون هؤلاء المجلوبين تربية إسلامية ثم يبيعونهم في جميع أنحاء الدولة الإسلامية واشتهرت مدينة سمرقند بأجود أنواع الرقيق الأبيض، وكذلك مدينتا نيسابور ومرو فقد اشتهرتا بأحسن أنواع الجواري والغلمان. وكان لميناء باب الأبواب أو الدربند - على بحر قزوين - شهرة واسعة في تلك التجارة^(٤).

واشتهرت مدينتا كفا وتانا في شبه جزيرة القرم^(٥) بتجارة الرقيق الأبيض، كما

(١) صراي: بفتح الصاد والراء المهملتين والـف مثناة تحته ووقع في مسالك الأبصار بالسين المهملة بدل الصاد وهي من أعظم المدن تقع على شط نهر الإثل (الفلجاء) من الجانب الشمالي الشرقي غربي بحر الخزر وشماله على مسيرة نحو يومين وبحر الخزر شرقيها بجنوبيها وهي «قُرْضَنَة» عظيمة للتجار ورقيق الترك وقد بناها بركة بن طوجي بن جنكزخان والسراي مدينة كبيرة بها أسواق وحمامات ومنها يجلب الرقيق وأهلها من خيار الترك لوفائهم وشجاعتهم وتجنبهم الغدر من حسن قامتهم وظرافة شمائلهم ومنهم معظم جيش الديار المصرية من ملوكها وأمرائها وجندها فلما رغب الصالح أيوب في شراء المماليك اشترى منهم . القلقشندي - صبح الأعشى ج٤/ ص ٤٥٥ - ٤٥٦.

(٢) لبببة إبراهيم: الرقيق وتجارته، ص ٥١ - ٥٢.

(٣) صلاح شمردل: الرقيق وأثره في المجتمع العراقي، ص ٥٣.

(٤) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٦، ١٧.

(٥) سوزي أباطة، السودانيون في جيش مصر، ص ٦٩.

اشتهرت طرابيزون وسينوب وسمسون على ساحل البحر الأسود الجنوبي (آسيا الصغرى) والقسطنطينية وأدرنة وغليبولى في تركيا، وكذلك مدينة بلغار في حوض نهر الفولجا ويعد ميناء ستاليا Satalia وكاندلور Candlor من أشهر موانئ آسيا الصغرى التي تخصصت في شحن الرقيق الأبيض من الجنسين كما كانت دلهي وساحل كروماندل (ساحل الهند الشرقي) من مراكز تجمع الرقيق الهندي في هذه المنطقة والذي كان من أهم مصادره الحروب الكثيرة بين ممالك الهند وكذلك المجاعات التي كانت تضطر الأهالي لبيع أبنائهم في مقابل القليل من الطعام^(١).

الرقيق الإفريقي:

شهدت القارة الإفريقية أهم الأسواق العالمية لتجارة الرقيق الأسود، وكانت النوبة وسنار وشندي ودارفور وكردفان وزويلة وبربرة أشهر تلك الأسواق^(٢). وكذلك كانت غانة ومالي وتمبكتو وكاتو ومدينة باداجري على ساحل العبيد غربي إفريقيا، كما أن منطقة تشاد، بلاد كانم وبرنو، وكذلك القيروان كانت من المراكز التجارية العالمية الهامة لتصدير الرقيق السوداني إلى كل من الشرق والأندلس^(٣). وقد تعددت المصادر التي وفد عن طريقها الرقيق السوداني إلى مصر، فقد قامت الصلات التجارية بين البلدين نظراً لإتصالهما الجغرافي وكفلت اتفاقية البقطة^(٤)

(١) ليبية إبراهيم: الرقيق وتجارته ص ٥١ - ٥٢، ص ٥٦ - ٥٧.

(٢) نهلة أنيس - العلاقات بين مصر والممالك الأفريقية، رسالة دكتوراه كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر ١٩٩٥م، ص ٢٠٩.

(٣) سوزي أباطة، السودانيون في جيش مصر، ص ٦٩.

(٤) «بقطة» قد تكون كلمة فرعونية قديمة بمعنى «عهد».

انظر: د. شوقي الجمل، تاريخ السودان وادي النيل، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٩، ج ١ ص ٢٣٣ ويرى بعض الباحثين أنها من كلمة Pactum اللاتينية ومعناها الاتفاق انظر، على سبيل المثال: الدكتور عطية القوصي تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، ط ٢، دار المعارف بمصر، ١٩٨١، ص ٤٤، هامش رقم ٢.

وقد عرفه المقرئزي بأنه «ما يقبض من سبي النوبة في كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم»، فإن كانت هذه الكلمة عربية فهي إما من قولهم «في الأرض بقطة من بقل وعشب، أي نبذ»

حرية التجارة بين مصر والنوبة، وكان الرقيق السوداني أساسًا للتبادل التجاري بين البلدين، وكانت الإماء من أئمن الهدايا التي تصل إلى مصر بخلاف البقط. وقد وجدت في أوراق البردي وثيقة بيع جارية نوبية عام ٣٦٩هـ / ٩٧٩م بخمسة وعشرين دينارًا^(١).

وقد اشتهرت منطقة اللاب في بلاد النوبة^(٢) بجلب الرقيق السوداني منها، وإليها ينتسب كافور الإخشيدي^(٣)، وكانت نساؤهم يتميزن بالجمال الباهر فكان إقبال المصريين عليهم كبيرًا^(٤).

= من مرعى» فيكون معناه على هذا نبذة من المال أو يكون من قولهم «إن في بني تميم بقطًا من ربيعة، أي فرقة أو قطعة»، فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه ومنه: بقط الأرض «فرقة منها»، وبقط الشيء فرقة. والبقط أن تعطي الحبة على الثلث أو الربع. والبقط أيضًا ما سقط من التمر إذا قطع فأخطأ المخرق فيكون معناه على هذا بعض ما في أيدي النوبة. وكان يؤخذ منهم في قرية يقال لها القصر مسافتها من أسوان خمسة أميال فيما بين بلد لاق وبلد النوبة. وكان القصر فرضه لقوص وأول ما تقرر هذا البقط على النوبة في إمارة عمرو بن العاص لما بعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح بعد فتح مصر إلى النوبة ٢٠هـ / ٦٤٠م في عشرين ألفًا. ثم مات عمرو رضي الله عنه فنقض النوبة الصلح الذي كان بينهم وبين أبي السرح فغزاهم مرة ثانية في خلافة عثمان ٣١هـ / ٦٥١م ثم تم الصلح على شروط أمنهم فيها المسلمون شريطة أن يحفظوا من ينزل بلدهم من المسلمين وأن يحفظوا المسجد الذي ابتناه المسلمون وأن يدفعوا كل سنة ثلاثمائة وستين رأسًا يدفعونها إلى إمام المسلمين إنثاءً وذكرًا. للمزيد عن البقط، انظر: المقرئ، الخطط، جـ ١ ص ١٩٩ - ٢٠١.

(١) جروهمان: أوراق البردي، ترجمة حسن إبراهيم حسن، جـ ٥، ص ٣٥.

(٢) النوبة: «بضم النون وسكون الواو وفتح الباء الموحدة وهاء .. ولون بعضهم يميل إلى الصفاء وبعضهم شديد السواد وبلادهم ما يلي مصر في نهاية جنوبيها ما يلي المغرب على ضفتي النيل الجاري إلى مصر» القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٥، ص ٢٦٤. ولاية النوبة جنوبي أسوان ولها ملك خاص وسكانها سود البشرة ودينهم النصرانية ويذهب إليها التجار ويبيعون الخزر والأمشاط والمرجان ويجلبون منها الرقيق. ناصر خسرو: سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٩٣، ص ٩٦.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت ١٩٧٧، جـ ٧، ص ٣٠٨.

(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٣٠.

كان طريق البحر الأحمر من أهم الطرق التجارية بين الشرق والغرب وقد وصلت عن طريقه أعداد كبيرة من الرقيق الأسود من مراكز في الحبشة والنوبة إلى مصر والشام عبر البحر الأحمر أو عبر نهر النيل حتى ميناء بولاق على نهر النيل بالقاهرة ومنه إلى ميناء دمياط ثم إلى الساحل الشرقي للبحر المتوسط.

وكانت موانئ مصوع وسواكن من أشهر الموانئ التي يتم عن طريقها نقل الرقيق الأسود، سواء الوارد إليها من الحبشة أو من النوبة بواسطة القوافل، إلى مصر بطريق البحر الأحمر. وقد كان هذا الطريق نفسه يتصل بواسطة سفن التجارة الداخلية للبحر الأحمر بميناء بربرة وزيلع اللذين كانا مركزين لتجمع تجارة الحبشة والنوبة ومنها تجارة الرقيق الأسود، كما كانت أسوان المنفذ الرئيسي في جنوب مصر لتجارة النوبة وبلدان السودان وإفريقية الوسطى وبخاصة تجارة العبيد^(١). وكان أهل سنار «يعطون الرقيق بالجنزير، أي بالجماعات، لأن الأرقاء في أثناء السير تربط كل جماعة منهم بجنزير»^(٢).

كما كانت مدينة زويلة، والتي كانت تعد من أهم مراكز تجمع الرقيق الأسود، يجلب إليها الأسرى من القبائل المجاورة لها. وقال الإصطخري عن هذه القبائل «الخدم السود الذين يباعون في بلدان الإسلام منهم وليس هم بنوبة ولا بزنج ولا بحبشة ولا من البجة إلا أنهم جنس على حده أشد سوادًا من الجميع وأصفى»^(٣).

وكانت قوص بمثابة ميناء نهري يخدم الطريق التجاري الذي يمر عبره الرقيق، فكانت تصلها بضائع الصين والهند واليمن والحبشة من عيذاب ميناء مصر الرئيسي على البحر الأحمر منذ أواخر العصر الفاطمي وحتى أوائل دولة المماليك الجراكسة^(٤).

وكانت منطقة مريس النوبية هي مصدر الرقيق النوبي في أوائل العصر

(١) الإصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد صابر عبد العال، القاهرة ١٩٦١، ص ٤٢.

(٢) نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان، بيروت ١٩٧٢، ص ٤١٥.

(٣) الإصطخري: المسالك والممالك، ص ٣٤ - ٣٥.

(٤) حسن محمود: الإسلام والحضارة العربية في آسيا، القاهرة ١٩٦٨، ج ١، ص ٨٥.

الفاطمي. وقد أغرى الربح الوفير من هذه التجارة على أن يتبارى تجار الرقيق في جلب هؤلاء حيث أباح الدين الإسلامي أسر الوثنيين وبيعهم وشرائهم وساعدهم على ذلك نظام العبودية الذي كان منتشرًا في تلك المنطقة فقد كان سكانها عبيدًا لملكهم النوبي^(١).

عمليات بيع الرقيق:

وجدت تجارة الرقيق في مصر منذ بداية الفتح حيث شهدت الفسطاط سوقًا للرقيق، ثم ازدادت هذه التجارة في العصر الأخشيدي فوجد الرقيق بنوعيه، الأبيض والأسود، وكان معظم هؤلاء ممن يعملون في الأراضي الزراعية^(٢)، وقد أشار ابن عبد الحكم إلى سوق الرقيق في عصر الفتوح حينما بعث عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بأنه اختط له دارًا بالفسطاط عند المسجد الجامع فرفض عمر أن يكون بالحجاز وتكون له دار بمصر فجعلت سوقًا للرقيق^(٣).

كما ذكر ابن دقماق^(٤) أن أحمد بن طولون حول دار أحمد بن المدبر سنة ست وخمسين ومائتين، بعد هدمها، إلى سوق للرقيق.

ويبدو أن تجارة الرقيق كانت أكثر رواجًا في العصر الفاطمي فقد كانت هناك أسواق نشطة تحوى أجناسًا عديدة، فيصف ابن الطوير طريقة جلب هؤلاء إلى مصر في هذا العصر قائلاً «إذا وقع لهم مركب وكبسوه لا يسألون عما فيه سوى الشخوص الكبار والصغار والنساء والسلاح وما كان سوى ذلك كان للأسطول»، واتفق مرة أن قدم عليه الأمير سيف الملك الجمل فكسب بطسة^(٥) عظيمة فيها ألف

(١) المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ١٩٣.

(٢) سيدة الكاشف: دراسات أثرية إسلامية، بحث منشور بالمجلد ٢ ط ١٩٨٢ بالمجلة العلمية الصادرة عن هيئة الآثار قطاع المتاحف ص ١٢.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٩٢.

(٤) ابن دقماق: الإنتصار بواسطة عقد الأمصار، بيروت ١٨٩٣، جـ ٤، ص ٣٤.

(٥) البطسة أو بطسة، ويقال أحيانًا بطشة ويجمع على بطسات وبطس، مركب للحرب أو للتجارة بلغة الإسبان، وهي سفينة عظيمة الحجم كثيرة القلوع وقد يصل عدد القلوع في البطسة الواحدة إلى =

وخمسمائة شخص فامتنعت عليهم بالقتال على ما خلفه بعد وصولهم وأخذها الأسطول بعد أن قتل منهم نحواً من مائتين وعشرين رجلاً وأحضروهم إلى القاهرة ففرح الخليفة بذلك وركب إلى المقس وجلس بالمنظرة للقائهم وأطلقوا الأسرى بين يديه تحت المنظرة من جانب البر فاستدعيت الجمال لركوبهم وشق بهم القاهرة ومصر فما وجدت في الحال جمال كعدتهم فركبوا الرجال منهم كل اثنين على جمل ظهراً بظهر^(١).

ومن هذا نستطيع أن نتبين مدى حرص الخلفاء على اقتناء هؤلاء الرقيق واستخدامهم كماليك وجوار، والخليفة لم يكتف بالنظر إليهم من المنظرة بل إنه عند عودته، لفرحه الشديد بهم، اعتلى منظرة من مناظر القصر ليراهم، ثم كانوا يساقون إلى مكان يقال له المناخ يفصل الرجال عن النساء والصبيان ويستخدم كل في مجاله، أما الشيوخ أو الذين لا يرجى منهم نفع فهم يقتلون في مكان يقال له «بئر المنامة» في الخراب القريب من مصر، ولم يسمع كما أخبرنا ابن الطوير أن الدولة افتدت أسيراً بمال أو بمثله وكانت الأعداد في ازدياد مستمر عاماً بعد الآخر^(٢).

وقد ذكر ناصر خسرو أن الرقيق في مصر إما نوب أو «نوبيون» وأما روم^(٣) كما ذكر أن أهل النوبة يعيشون في صحراء عظيمة تقع على يمين عيذاب ناحية القبلة خلف الجبل وهم قوم ليس لهم دين ولا يؤمنون بالأنبياء لبعدهم عن العمران والحضارة، وأن الصحراء التي يسكنونها طولها أكثر من ألف فرسخ وعرضها ثلاثمائة وليس بهذه المساحة سوى مدينتين صغيرتين الأولى يطلق عليها «بحر النعام» والثانية «عيذاب» وقد وصفهم بأنهم «ليسوا أشراراً فهم لا يسرقون ولا يغيرون بل يشتغلون بتربية ماشيتهم ويسرق المسلمون وغيرهم أبناءهم ويحملونهم

= أربعين قلغاً وكانت تختص بشحن الغلال والأقوات والمير والإمدادات الحربية. أنظر: ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٩٩.

(١) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٩٨ - ١٠٠.

(٢) نفسه، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٣) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ٩٦.

إلى المدن الإسلامية ليبيعوهم فيها»^(١).

وكانت قبائل البجة^(٢) تسكن المنطقة الواقعة بين نهر النيل والبحر الأحمر وكانت ألوانهم تقرب من ألوان العرب، فهي بين السواد والبياض^(٣).

وقد استخدم الفاطميون السود المجلوبين من الجنوب كفرق لها أهميتها في الجيش الفاطمي فقد ذكر ناصر خسرو أنه كانت هناك «فرقة تسمى المصامدة وهم سود من بلاد المصامدة قيل إنهم عشرون ألف رجل»، كما ذكر أنهم كانوا عماد الجيش الفاطمي^(٤) وأنه كانت هناك «فرقة تسمى الزنوج يحاربون بالسيف وحده قيل إنهم ثلاثون ألف رجل»^(٥).

وقد ذكرهم الرحالة بنيامين التيطلي الذي زار مصر في نهاية العصر الفاطمي

(١) نفسه، ص ١٣٤.

(٢) البجة أو البجا بضم الباء الموحدة وفتح الجيم وألف في الآخر، وهم من أقصى السودان لونا وهم مسلمون ونصارى وكانوا يعبدون الأوثان ومواطنهم في جنوبي صعيد مصر مما يلي الشرق فيما بين بحر القلزم ونهر النيل وقاعدتهم سواكن. انظر القلقشندي، أصبح الأعشى، ج ٥، ص ٢٦٣ - ٢٦٤. ويطلق اسم بجة أو بُجّة على مجموعة من القبائل الحامية التي تعيش بين النيل والبحر الأحمر، وقد امتد نفوذها في يوم من الأيام من القاهرة في الشمال إلى حدود الحبشة وكثيرا ما خلط بين قبائل البجة والبلמים Blemmyes ولكن هؤلاء قبائل مختلفة، فالأسم القديم بلמים» لم يحور إلى بجة وإنما تحور إلى بليميين أو البليين، وقد اعتبر المسلمون هؤلاء البجة في صدر الإسلام قبائل همجية وثنية غير جذيرة بالتحالف معها ولم يبدأوا التفاوض معهم إلا في أوائل القرن الثاني للهجرة، وقد سكنت ربيعة وجهينة في أراضيهم. وبالرغم من غلبة الدم العربي عليهم، فإن، قبائل البجة قد احتفظت بشخصيتها إلى اليوم، وأهم فروعهم العبادة ولبادهم أهمية كبيرة لوجود الذهب والزمرد بأرضها. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثالث (مادة بجة) ص ٣٦١ - ٣٦٢ وقارن عطية القوصي: تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، القاهرة ١٩٨١، ص ٢٥ - ٢٦.

(٣) الإصطخري: المسالك والممالك، ص ٢١، ٢٣، ٤٢.

(٤) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٠٩ وكان المصامدة رجالة الجيش الفاطمي وأصلهم من بلاد مصموده والتي تمتد إلى جنوب إفريقيا. ماجد: نظم دولة الفاطميين ورسومهم، ص ٢١٧.

(٥) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١١٠.

فقال «أهل أسوان يخرجون لصيد العبيد في أراضي هؤلاء الزنوج، وهم إذا خرجوا حملوا معهم الخبز والزبيب والتين فيجذبون الزنوج ويرغبونهم حتى يتبعونهم في أسواق النخاسة بمصر وما جاورها من البلدان»^(١).

وعن أهم أسواق الرقيق بمصر يقول المقرئ في أثناء حديثه عن خان مسرور الصغير أنه علي يمين من سلك من سوق باب الزهومة^(٢) إلى الجامع الأزهر كان ساحة يباع فيها الرقيق بعد ما كان موضع المدرسة الكاملة هو سوق الرقيق^(٣) ويبدو أنها كانت مفصولة عن سوق الجواني لأنه ذكر أن سوق الجواني كان «بخط المسطاح فيما بين الوزيرية وخط الملحيين»^(٤) وكذلك كان خان مسرور ساحة تقام فيها أسواق الرقيق^(٥).

وكانت بالقاهرة وكالة تقع بالقرب من الجامع الأزهر تسمى وكالة الجلابة فيتلقى صغار التجار الرقيق من تجار الصعيد، وقد عين الحاكم الفاطمي مشرفاً خاصاً يدعى أبو منصور الجودري للإشراف على هذه الوكالة، وتطورت هذه الوكالة في عهد الأمر حيث قام وزيره المأمون البطاحي عام ٥٦١هـ / ١١٢٢م بتطويرها فقصدها التجار من كل أنحاء العالم، وكانت أسواق الرقيق تدر على الفاطميين أرباحاً طائلة^(٦).

ويبدو أن سوقاً للرقيق كان بالإسكندرية، فقد جاء في حكاية مريم الزنارية في قصة ألف ليلة وليلة، والتي تصور تصويراً دقيقاً الحالة الاجتماعية للمجتمع

(١) بنيامين التطيلي: الرحلة، ترجمة وتحقيق عزرا حداد، بغداد ١٩٤٥، ص ٧ وما بعدها.

(٢) باب الزهومة كان في آخر ركن في القصر مقابل خزائن الورق لأن اللحوم وحوائج الطعام التي كانت تدخل إلى القصر كانت تدخل عن طريقه وكان تجاه درب السلسلة - انظر المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٤٣٥. وج ٢، ص ٩٢.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه ص ٩٢.

(٥) علي إبراهيم حسن، تاريخ الممالك البحرية، ص ٣٠.

(٦) عبد الرازق عبد المجيد: العلاقات بين مصر والنوبة، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات الإفريقية جامعة القاهرة، ١٩٧٨م، ص ١٨٨ - ١٨٩.

المصري في تلك الفترة، أنه كانت هناك إلى جانب سوق النجارين والصرافين والنقلية والفكهانية وسوق العطارين سوق للرقيق يقبل عليه الأعمى وهو راكب بغله وخلفه الجارية ويصيح على الدلال لينادي عليها في السوق. وتخبرنا هذه القصة أن ثمن الجارية وصل إلى ٩٥٠ ديناراً وأن بعض الجواري كانت لهن حرية اختيار من يشتريهن بحسب راحتهم إليه، فقد جاء في القصة أن الجارية رفضت أن تباع للعجوز والشيخ وذي اللحية الطويلة ولا للأحذب رغم كونه صاحب عبيد وغلطان ولا للأعمش، كما نفهم أيضاً من هذه الرواية أن أهل مصر كانت لهم خبرة بالجواري وأثمانهن وأن الجارية الإفرنجية وصل ثمنها إلى مائة دينار^(١).

نظم بيع الرقيق في الأسواق:

كانت عملية البيع والشراء تتم وفق أصول معينة وكان الشخص الذي يأتي بالمماليك يدعى «التاجر» أو «الجلاب»، وهو الذي كان يجلب الرقيق من المناطق المختلفة سواء كانت محلية أو عالمية ويأتي لبيعه في السوق المحلي، وكان أغلب هؤلاء من الأجانب، كالفرس مثلاً، لا يذكر عادة اسم التاجر إلا إذا أتى بمماليك اشتهروا فيما بعد^(٢). و «هنا يتردد اسمه على أنه أول حائز للمملوك وأول أستاذ له»^(٣).

وكان «الدلال» حلقة الوصل بين الجلاب والمشتري، أي السمسار، ومهمته الوقوف بالسوق والمتابعة على الجارية أو العبد والإعلان عن محاسنهما لجذب المشتري لقاء مقابل مادي معين، وكان ما يتقاضاه يسمى بالدلالة أو السمسرة وقد سمي الدلال في بعض المصادر والمراجع «النخاس» وعرفه الشيزري بقوله «النخاس بائع الدواب والعبيد، على أنه لم يكن تاجراً يشتري ويبيع بل اقتصر عمله

(١) رشدي صالح: ألف ليلة وليلة، القاهرة ١٩٦٩ حكاية مريم الزنارية، جـ ١٧، ص ١٢٩٨ - ١٣٠٤.

(٢) عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر، دمشق ١٩٦٨ ص ١٣، السيد الباز العريني: المماليك، بيروت ١٩٦٧، ص ٧٤.

(٣) الباز العريني، المرجع السابق، ص ٧٢.

على الدلالة على السلع التي يطلب إليه بيعها»^(١).

وقد حدد الشيزري صفات رأى ضرورة توافرها في النخاس وهي أن يكون على جانب كبير من الثقة والعدل والعفة لأنه يتسلم جوارى الناس وغلماتهم وربما اضطرتهم الظروف للبقاء في منزله أياماً، ويجب عليه ألا يبيع جارية ولا عبداً إلا بعد التأكد من حاله حتى لا يكون حراً أو مسروقاً^(٢).

وأضاف شروطاً يجب أن يتبعها النخاس عند البيع كان يمنع المشتريين من الخلوة بالجوارى، خاصة قبل عقد البيع، وعدم التفريق بين الجارية وولدها قبل سبع سنوات، ولا يباع المملوك ولا الجارية إذا كانتا مسلمين لأحد من أهل الذمة إلا إذا تأكد النخاس أن المملوك ليس مسلماً، كما أوجب توافر عدة صفات في النخاس منها أن يكون خبيراً بإبتداء العلل والأمراض، فإذا أراد بيع غلام نظر إلى جميع جسده سوى عورته قبل بيعه، ذلك حتى لا يكون «فيه عيب أو علة فيخبر به المشتري»^(٣). وكان ابن رمضان أحد النخاسين في العصر الفاطمي^(٤).

ويضيف الجاحظ أن تجارة الرقيق من «التجارات التي يقع فيها المساومات والمشاركة بالثمن ويحتاج البائع والمبتاع إلى أن يستشفا العالج ويتأملاه تأملاً بيناً يجب فيه خيار الرؤية المشترط في جميع البياعات. وإن كان لا يعرف مبلغه بكيل ولا وزن ولا عدد ولا مساحة فقد يعرف بالحسن والقبح»^(٥).

ولم يكن دور الدلال مقصوراً على البيع في أيام الأسواق فقط بل كان البائع يضطر إلى اللجوء إليه أحياناً في الأيام العادية، فقد جاء في قصة مريم الزنارية أنه لم يكن يبيعها في يوم سوق كما تبين هذه القصة دور الدلال وحرصه على إتمام البيع

(١) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبه، ص ٨٤.

(٢) نفسه: ص ٨٤.

(٣) نفسه: ص ٨٤ - ٨٥.

(٤) المسبحي: أخبار مصر، تحقيق وليم ميلورد، القاهرة ١٩٨٠، ص ٢٢٧.

(٥) الجاحظ: رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٤، كتاب القيان، ص ١٦١.

ومدى ضيقه عندما تفسد الجارية بتصرفاتها إتمام كل بيعة^(١).

سارت عملية البيع والشراء وفق خطوات محددة تحدث عنها المؤرخون، ففي رسالة ابن بطلان العديد من الوصايا التي ينتفع بها في البيع والشراء «منتزعة من كلام الحكماء ومن تفقد أجسامهم وصحة أعضائهم بحسب ما يراه الأطباء من تعرف أخلاقهم بقياس الفراسة على مذهب الفلاسفة ومن معرفة صور كل جنس وما يصلحون له من الأعمال بحسب خواص بلادهم والمنشأ ومن كشف تلبيسات يُدلس بها النخاسون الرقيق على المشتري»^(٢).

وقد عدد ابن بطلان الوصايا، وهي تشمل الممالك والإماء، الوصية الأولى هي أن يكون الشاري ليس ذا فاقة لقوله «فإن الجائع يستجيد كل طعام يشبعه والعريان يستوفى كل طمر يدفيه ويستره»^(٣).

والوصية الثانية التحذير من شري الرقيق في المواسم لأن النخاسين يبتدعون الحيل «فكم من قصيفة بيعت بخصبه وسمرا كمدة بيعت بصفرا مدهبة وممسوح العجز بثقل الروادف»^(٤).

لذلك، كانت الوصية بعدم الشراء في المواسم أو النظر بطريقة جيدة للمشتري، ومما يخص شراء الممالك ثلاث وصايا، منها أن يتم تحذير المشتري من شراء المملوك الذي كان يضرب كثيراً من قبل مولاه، وكذلك السؤال عن سبب بيع المملوك فيجب فحصه جيداً والبحث عن أسباب تركه بسؤال المملوك عن مولاه الذي يبيعه لأن من رده سواء بالذم أو بالشكر سيعرف هل سبب البيع من جهته أو من جهة مالكه، والوصية الثالثة خاصة بعدم إطماع المملوك أو تعريضه للفساد بمخالطة غيره من الممالك الفاسدين^(٥).

(١) ألف ليلة: قصة علي نور الدين المصري مع مريم الزنارية جـ ١٧، ص ١٢٨٨ - ١٣٢٨.

(٢) ابن بطلان، مخطوط رسالة في شري الرقيق وتقليب العبيد رقم ٢٢٣٢٧، جامعة القاهرة، ص ٢.

(٣) نفسه، ص ٣.

(٤) نفسه ص ٣ - ٤.

(٥) ابن بطلان، رسالة في شري الرقيق، ص ٦.

وكان النخاس يوصي الجواري بالتبرج وإظهار الزينة للمشتري وإخفاء القبائح والعيوب واستمالة المشايخ وأن «يتجنون على الشباب ويمتنعن عليهم ليتمكن من قلوبهم»^(١).

وفي هذا يقول الجاحظ إن «مكالمة القيان ومفاكهن ومغازلتهم ومصافحتهن للسلام ووضع اليد عليهن للتقليب والنظر حلال ما لم يشب ذلك ما يحرم»^(٢).

وأخيراً لم تكن تجارة الرقيق تحظى بالإحترام الكافي من العامة في المجتمع الإسلامي، فقد اعتبرت هذه التجارة من التجارات المشينة، فأصبحت تقام في منزل خاص بعيداً عن السوق، وعلى أي حال، كانت هذه التجارة تدر أرباحاً طائلة على النخاس^(٣) الذي يبدو أنه لم يكن موضع احترام في المجتمع الإسلامي وعلى سبيل المثال عندما أراد محمد بن الأشعث صاحب شرطة مصر في خلافة يزيد بن معاوية^(٤) سنة ٦٠هـ / ٦٧٩م سب أحد القادة الخارجين على الخلافة فإنه وصفه بقوله «النخاس الكذاب»^(٥).

أنواع المماليك:

يظهر اصطلاح «مملوك» في المصادر الإسلامية بأشكال مختلفة تترادف أحياناً وتختلف في أحيان أخرى. وكذلك فإن اصطلاحات «عبد» «مملوك» و«قن» و«غلام» و«مولي» تتفق في مدلولاتها العامة^(٦) ولكنها تختلف بحسب المراحل

(١) نفسه، ص ٢١ - ٣٢.

(٢) الجاحظ: كتاب القيان، ص ١٦٣.

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٩.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، طبعة دي غويه، ليدن ١٨٨١، ج٥، ص ٣٥٠.

(٥) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٩.

(٦) عبد : الرقيق والعبد: الإنسان حرّاً كان أو رقيقاً لأنه مريبوب لله عز وجل - جميعها عبيد وعبد

وأعبد وعبدان، المعجم الوسيط ج٢، ط٣، مجمع اللغة العربية ١٩٨٥ ص ٦٠١، الغلام:

والخادم جمعها غلمان وغلمة والغلام هو الصبي من حين يولد إلى أن يشب ويطلق على الرجال

مجازاً. المعجم الوسيط، ج٢، ص ٦٨٤.

المملوك: العبد وجمعها مماليك، المعجم الوسيط، ج٢، ص ٩٢٢.

التاريخية للدولة الإسلامية.

ومع أن كلمة «مملوك» تعني في دلالتها اللغوية «من يملك بكصد التربية والإنتفاع»، إلا أنه من الملاحظ أن المؤرخين قد اتفقوا على أن لفظ «مملوك» اتخذ معنى اصطلاحياً في التاريخ الإسلامي فأطلق على جموع الرقيق الأبيض، على حين أن اصطلاح «عبد» (من العبودية) جرى إطلاقه على الرقيق الأسود^(١).

وعند بعضهم، فإن «العبد» يولد لأبويه من العبيد، بينما يولد «المملوك» في معظم الأحوال من أبوين من الأحرار^(٢).

و «القن» مملوك هو وأبوه لكنه عرف أيضاً بأنه من كان خالص الرق لمولاه رقبة ويدا، وهذا هو الرقيق عند الإطلاق.

وتطلق الرق لغة على الواحد والجمع ويجمع على أقنان، وأقنة والقن هو العبد الذي يستخدم في فلاحه الأرض و يسمى بالمزارع المقيم، وإذا سلبت الأرض التي يعمل فيها بالبيع أو بالفتح أو غيره صار «عبدًا قنًا» ويظل قنًا ما بقي حيًا ليس لمولاه بيعه أو عتقه، وأولاده من بعده يكونون عبيدًا بالتبعية لمالك الأرض أو مقتطعها^(٣).

أما «الغلام» فهي لفظة كانت تطلق غالباً على الرقيق في سن الشباب وعلى القائمين على خدمة الخلفاء والسلاطين في القصور، ومؤنثها «جارية».

و «المولى»، وجمعه «الموالي» اصطلاح عربي عرفه العرب في الجاهلية،

= المولى: جاء في المعجم الوسيط أن المولى معناه المنعم عليه أو المعتق أو العبد أو التابع والجمع موالى، المعجم الوسيط، جـ ٢، ص ١١٠٠.

القن: العبد الذي كان أبوه مملوكاً لمواليه ويقال بين القناتة والقنونة: خالص العبودية أما إذا لم يكن كذلك فهو عبد مملوك ويجمع على أقنان وأقنة. المعجم الوسيط، جـ ٢، ص ٧٩٣.

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ١، ٢ العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ١١، وعبيده بدوي: السود والحضارة، ص ١٠٨.

(٢) ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ص ١١.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ ٤، ص ٤٦.

وكانت تبعيته مرحلة وسطاً بين العبودية والحرية.

عرفت مكة العبيد والأرقاء، ودخل بعضهم في الإسلام، وكانوا ممن أعتقهم الصديق أبو بكر رضي الله عنه، وقد ظهرت للموالي درجات فكان «المولي المعتق»، «مولى العقد»، و «مولى الرحم».

وكان الإسلام يستعين بالعبيد فينقضهم على أسيادهم بطريق الإعتاق حتى يستخدموا في الحروب ضد الكفار. فعل الرسول ﷺ ذلك عندما استعصت عليه مدينة الطائف فنادى أن أي عبد ينزل سيكون حراً فنزل منهم جماعة كبيرة وأعتقوا وعلى هذا، فإن «المولي المعتق» هو من أطلق سراحه عن طريق المكاتب أو التدبير، أي نال الحرية بعد موت السيد فلا يورث، أو يكون «المولي المعتق» تدبيراً لآل المعتق وهو يورث ولا يرث.

أما «مولى العقد» ويسمى أيضاً «مولى الحلف» أو «مولى الإصطناع»، فهو من ينتمي إلى رجل بالخدمة أو المحالفة أو الملازمة حسب شروط يتفق عليها، وهو لا يرث^(١). أما «مولى الرحم» فيكتسب ولاية ونسب القبيلة التي يولد فيها^(٢).

ويمكن ان نضيف هنا أن المصادر الإسلامية استخدمت ألفاظ «السودان» و «الزنج» و «الحبشان» بمعنى «العبيد السود» على حين أنه أطلق لفظ «جلبان» أو «أجلاب» على المماليك الذين كانوا يجلبون من أسواق النخاسة من بلاد القوقاز وآسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود^(٣).

وقد تحدث ابن بطلان في رسالته عن الرقيق شارحاً مميزاتهم واستخداماتهم فقال «ومن أراد العبيد لحفظ النفوس والأموال فالهند والنوبة ومن أرادهم للكسب والخدمة فالزنج والأرمن، ومن أرادهم للحرب والشجاعة فالترك والصقالبة»^(٤).

(١) إلياس الأيوبي: تاريخ مصر الإسلامية، ص ٢١٦ - ٢١٨.

(٢) نفسه، ص ٢١٨.

(٣) حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف، القاهرة ١٩٦٥، ج ١، ص ٢٥.

(٤) ابن بطلان: رسالة في شرى الرقيق، ص ١.

الجواري والإماء: (١).

تشير المصادر التاريخية إلى اصطلاح «الجواري» باعتباره مرادفاً لاصطلاحات «الإماء» و «السراري» و «القيان» و «أمهات الأولاد» (٢).

وتنقسم «الجواري» إلى عدة أنواع فمنها من تسترق طوال حياتها ثم تباع أو تورث، ومنها من يهبها مولاهاً أو يبيعها أو تلد له فتحرر بعده، ومنها ما يوصى مولاهاً بعقدها بعد وفاته فلا يجوز بيعها (٣).

والجواري أقدم تاريخياً من الرجال المملوكين حيث كان رجال القبائل البدوية يستطيّبون الزواج من سبي القبائل الأخرى (٤).

وتجئ لفظة «الأمة» مرادفة للفظ «جارية» وجمعها «جواري» وهما معاً، تختلفان بعض الاختلاف عن لفظة «القينة»، «السرية»، فالأمة هي أنثى الرقيق. وقد كان العرب في الجاهلية يفضلون زواج الحرائر لتمسكهم الشديد بعصبيتهم ورغبة في المحافظة على نقاء عنصرهم، ولكنهم يتزوجون الإماء أو الجواري، فإن أنجب أصبح الابن عبداً لهم (٥).

وكانت الأمة للخدمة والتسري، وكان لسيدها الحق المطلق في امتلاكها دون عقد أو مهر، ومن حقه بيعها، أي أنها كانت متاعاً خالصاً له (٦).

وقد امتلك أثرياء قريش وزعماءها الإماء والجواري، وكانوا يستخدمونهن في الغناء لإمتاع ضيوفهم في أوقات الترف واللهو حيث كانت حياة البادية تتسم

(١) الجارية «الأمة وإن كانت عجزاً» والجارية «الفتية من النساء» تجمع على جوار المعجم الوسيط، جـ ١، ص ١٢٤.

(٢) أنظر: الجاحظ، رسائل القيان جـ ٢، ص ١٧٥ - ١٧٦، ابن بطران: رسالة في شري الرقيق، ص ٢٥ - ٢٦.

(٣) جبور عبد النور، الجواري، القاهرة ١٩٤٧، ص ١١٦.

(٤) عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن الكريم، القاهرة ١٩٧٣، ص ١٧٧ - ١٧٩.

(٥) عبده بدوي: السود والحضارة، ص ١٣٢، إلياس الأيوبي: تاريخ مصر الإسلامية، ص ٢٤٢.

(٦) عبده بدوي: السود والحضارة، ص ١١٨.

بالخشونة والقسوة، وعلى هذا فقد كانت تلك الأمسيات تحد من خشونتها وتضفي عليها نوعاً من المرح، وكثيراً ما كان العربي يقوم بالغزو على جيرانه والإستيلاء على ممتلكاتهم بما في ذلك النساء^(١) وكثر عدد الجواري والإماء^(٢) ومع الفتوحات الإسلامية، ودخول المسلمين بلاد الفرس والروم، وانتصار الجيوش الإسلامية، كانت غنائم المسلمين من السراري والجواري والإماء كثيرة.

ولما وزعت الغنائم، تملك المقاتلون من الأفراد والقواد الكثير من السراري وتزوجوا منهن، وكان بينهن بنات الأكاسرة والقيصرة من اللواتي كن يتمتعن بالحياة المترفة في بلادهن^(٣).

ومنهن من أنجبن رجالاً عظماء أثروا بدورهم في المجتمع الإسلامي وكانت لهم شهرة في التاريخ^(٤).

أما عن زواج الإماء أو الجواري فإن بعض الأحرار يتزوجون جواري لسن ملك أبويهن فيدفعون الصداق لأسيادهن، وهنا يقضى الشرع بأن يكون هذا الزوج الحر غير متزوج من حرة، وألا تمكنه حالته المادية من الزواج من حرة، أو يخشى عليه

(١) جبور عبد النور: الجواري، ص ٢٢.

(٢) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، ج ١، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٣) عبد الله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها ج ٣، ص ١١، ١٢ جبور عبد النور، الجواري، ص ٢٣ - ٢٦. وكان قد تم أسر بنات يزجرد بن شهريار بن كسرى على يد المسلمين السذج فتحوا بلاد فارس وسبوهن وأرسلوهن إلى المدينة فأمر عمر ببيعهن. وعندما أراد الدلال كشف وجه إحداهن، لطمته على وجهه لأنه ليس من عادة نبيلات فارس كشف وجوههن، فلما أوجعته الضربة نادى «واعمره». ولما علم الخليفة أراد ضربهن، لكن علياً حال دونهن قائلاً: يا أمير المؤمنين إن الرسول قال أكرموا عزيز قوم ذل وغنى قوم افتقر، وبنات الملوك لا يبعن فقوموهن، وأعطاهن أثمانيهن وزوج إحداهن للحسين بن علي والأخرى لمحمد بن أبي بكر والثالثة لعبد الله بن عمر، فولدت ثلاثة من مشاهير العرب هم علي بن الحسين المعروف بزين العابدين والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، انظر جبور عبد النور، الجواري، ص ٢٣ - ٢٦.

(٤) جبور عبد النور: الجواري، ص ٢٤ - ٢٦، جرجي زيدان: تاريخ التمدن، ح ٤، ص ١٥٤.

من الفتنة والمجون، في هذه الحالة يصبح له الحق في الزواج من أمة^(١).

أما إباحة الإسلام للتعدد من الإماء وملك اليمين فقد كان لها هدفان، الأول: رفع منزلة ملك اليمين لمرتبة تقرب من مرتبة الزوجات، فإن بقيت مملوكة أحاطها سيدها بعنايته وعاملها معاملة البشر لا الأشياء، والثاني فتح باب جديد لتحرير الرقيق، فاتصال السادة بإيمانهم وما ينتج عن ذلك من ذرية سوف يجعل أعداد الرقيق والإماء في تزايد مستمر، لكنه إذا تحررت الأمة التي حملت من سيدها فهي أم ولد لا يجوز بيعها أو هبتها، وليس من حق ورثته التصرف فيها بعد موته إذ هي تكتسب الحرية^(٢).

لذلك أباح القرآن التعدد وأقر زواج الإماء ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾^(٣).
وقد كن في مرتبة تالية للحرائر لأن الابن يتبع أمه في الرق والحرية^(٤).

السراري:

السراري هن الجواري المقتنيات للتمتع بهن أو استيلادهن^(٥) وقد أبيع التسري في الإسلام تطبيقاً لمبدأ المعاملة بالمثل لأن مصير المسلمات حين يؤسرن كان كذلك، فأبيع ذلك حتى يمكن الاتفاق على نظام لأسرى الحرب وإن كان النظام الإسلامي أسمى لأنه يبيع الأسيرة لمن هي في يده فقط ولكن غير المسلمين يبحنها لكل من أرادها^(٦).

وقد كان من حق السيد أن يتسرى بجاريته، فهي مخصصة له كما لو أنها

(١) عبد الفتاح عاشور: منهج القرآن في تربية المجتمع، القاهرة ١٩٧٩، ص ٣٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٣) سورة النساء، آية ٣.

(٤) عبد الفتاح عاشور: منهج القرآن في تربية المجتمع، ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٥) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، ج ٥، ص ١١٧.

(٦) إبراهيم الفلالي: لارق في القرآن، ص ١٥١ - ١٥٢.

زوجته ولكن باختلاف أن الزوجة مخصصة بعقد والتسري بنسب واقعة.
وعلى أي حال، فقد نتج عن ذلك خروج جيل أعمامه مسلمون وأخواله من
شعوب مختلفة^(١).

القيان: «القيان» جمع «قينة» والقينة في اللغة هي الأمة سواء كانت مغنية أم
كانت غير ذلك، ولكنها اصطلاحاً تطلق على الأمة المغنية^(٢).

وقد وصف الجاحظ القينة بأنها لا تخلص في عشقها لأنها مجبولة على إيقاع
الرجال في غرامها بابتزاز أموالهم «وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون
عفيفة، وإنما تكتسب الأهواء وتتعلم الأسن والأخلاق بالمنشأ، وهي تنشأ من لبدن
مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللعب
والأخانيث وبين الخلعاء والمجان، ومن لا يسمع منه كلمة جد ولا يرجع منه إلى ثقة
ولا دين ولا صيانة مروة»^(٣). والقيان كن يعرفن بفساد الأخلاق نظراً لفساد البيئة
التي ينشأن فيها حيث يقوم السادة بتربيتهن على فنون الخداع ليستولوا على قلوب
الحاضرين الذين يطربون للخلاعة والمجون ويغدقون على هؤلاء السادة بالهدايا^(٤).
وقد ارتفعت أثمان القيان لدرجة كبيرة حتى أن الجاحظ قال في ذلك «والحسب
والنسب الذي بلغ به القيان الأثمان الرهيبة إنما هو الهوى ولو اشترى على مثل
شرى الرقيق لم تجاوز الواحدة منهن ثمن الرأس الساذج»^(٥).

وعن دهائهن وقدرتهن على الإيقاع بالرجال، قال «وليس يحسن هاروت
وماروت وعصا موسى وسحرة فرعون إلا دون ما يحسن القيان»^(٦).
أما «أمهات الأولاد» فقد عرض لهن الجاحظ قائلاً «ثم هن أمهات أولاد من قد

(١) مصطفى كمال وصفي: مصنفة النظم الإسلامية ص ٦٧٢.

(٢) القينة: هي الأمة صانعة أو غير صانعة، جمعها قيان، المعجم الوسيط جـ ٢، ص ٨٠١ واصبحت
في العرف تطلق على الأمة المغنية أنظر أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ ١، ص ١٢٧.

(٣) الجاحظ: رسائل عن القيان، ص ١٧٦.

(٤) جبور عبد النور: الجواري، ص ٥٤ - ٥٦.

(٥) الجاحظ: رسائل عن القيان، جـ ٢، ص ١٧٥.

(٦) نفسه.

بلغ بالحب لهن أن غفروا لهن كل ذنب وأغضوا منهن على كل عيب»^(١).

و «أم الولد» هي الجارية أو الأمة التي تنجب من سيدها وهذا الإيجاب يعطيها بعض الحقوق فهي تظل ملكاً له للإستمتاع بها، ولكن لا يجوز بيعها أو توريثها، فإذا مات عنها صارت حرة ويكون طفلها حراً منذ ولادته^(٢).

الجواري السميرات:

أما «الجواري السميرات» فهن نوعاً آخر من الجواري يتألف من قيان بارعات في الغناء والرقص يعشن مع أسيادهن ولكنهن لا يتمتعن بغيره أسيادهن عليهن أو حميتهم لهن فهم يعرضونهن على زائريهم في أوقات معينة من الليل أو النهار يتمتعن بغنائهن ورقصهن، وفي المقابل يحمل هؤلاء الزائرون إلى السيد الهدايا من أفخر أنواع الخمور وأطيب النقل والعطور الثمينة، وكانوا من مختلفي الطبقات فمنهم الشعراء والقواد والتجار والحكام وكان يستفيد من كل منهم في حل مشاكله وتصريف أموره^(٣)، هذا بالإضافة إلى أجناس أخرى من الجواري. فلما انتقل المسلمون من حياة التقشف إلى حياة الترف والبدخ وكثرت ثرواتهم، بدأوا يتهادون الجواري، وكان كل من أحب التقرب إلى خليفة أو وزير يهدي إليه جارية تجمع صفات كثيرة محببة إليهم^(٤).

واختلفت أجناس الجواري باختلاف البلاد التي فتحها المسلمون وسبوا أو استرقوا نساءها، وكذلك باختلاف أماكن شرائهن، فقد تسابق النخاسون في استجلابهن من أقاصي بلاد الترك والهند والخطا والكرج وأرمينيا والروم والبربر والنوبة والزنج والحبشة بمختلف الأعمار، كما أنهم يقومون برعايتهن وتربيتهن

(١) الجاحظ: رسائل القيان، ج ٢، ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٢) حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف ج ١، ص ٩١ - ٩٢ وعبد الفتاح عاشور: منهج

القرآن في تربية المجتمع، ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٣) جبور عبد النور: الجواري ص ٩٣ - ٩٤.

(٤) إلياس الأيوبي: تاريخ مصر الإسلامية، ص ٢٧١.

وإظهار مواهبهن فتنبغ منهن الخدم والحواضن والولائد والمواشيط والمغنيات وغير ذلك^(١).

وكان النخاسون من يهود الأندلس يجدون في العرب سخاء يد ليس له مثيل، الأمر الذي شجعهم على الطواف بالبلاد الأوربية والروسية يستجلبون الجواري السلافيات والجرمانيات اللاتي أسماهن العرب صقلييات وكانت لهن سوق رائجة لدى العرب نظراً لجمالهن وبياض بشرتهن^(٢) وكانت فيهن البيضاء والحمراء والبربرية والزنجية، بين مولده في البصرة أو الكوفة أو بغداد، كن يتعلمن العربية ومنهن من احتفظت بلغتها كلغة أصلية أساسية وتحدثت بلغة عربية ركيكة، وكانت أثمانهن تختلف حسب مواصفاتهم وما يجدنه من فنون^(٣).

وفي بيوت الأمراء، اشتهرت التركيات اللاتي كن يجلبن من سمرقند أهم مراكز تجارة الرقيق الأبيض حينذاك، وقد كن مفضلات لأنهن «قد جمعن الحسن والبياض والنعمة ووجوههن مايله إلى الجهامة وعيونهن من صغرها ذات حلاوة، وقد يوجد فيهن السمرا الأسيلة وقدودهن ما بين الربع والقصير والطول فيهن قليل، ومليحتهن غاية وقبيحتهن آية، وهن كنوز الأولاد ومعادن الناس قل ما يتفق في أولادهن وحش ولا ردي التركيب ولا جاف، وفيهن نظافة ولباقة»^(٤).

وكذلك كان للأرمنيات حظ وافر لدى العرب والمسلمين، وكانت الملاحاة للأرمن لولا ما خصوا به من وحشة الأرجل مع صحة بنية وشدة أسر وقوة لأن العفة فيهن قليلة أو مفقودة ولأن السرقة فيهن فاشية قل ما يوجد فيهن بخل، وفيهن غلظ طبع ولفظ وليست النظافة في لغتهن^(٥). كما أن نساؤهم «لا يصلحن لمتعة»^(٦).

(١) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ ٥، ص ٢٩.

(٢) جبور عبد النور: الجواري، ص ٢٣ - ٢٦.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ ٥، ص ٢٩.

(٤) ابن بطلان: رسالة في شري الرقيق، ص ٢٥ - ٢٦.

(٥) نفسه، ص ٢٦.

(٦) نفسه ص ٢٧.

أما الإماء أو الجواري السود، فقد كانت أسواقهن رائجة وكان الرجال يقبلون عليهن، وهن قد أخذن في تقليد البيض والسمر حتى في الإكتحال رغم أنه لا يبدو عليهن لسواد بشرتهن^(١).

وقد قال ابن بطلان عن السود «من أراد الجارية للذة فليخذها بربرية ومن أرادها للرضاع فزنجية»^(٢).

الخصيان:

يقول الجاحظ: «وكل خصاء في الدنيا فإنما أصله من قبل الروم»^(٣). لكن يبدو أن الخصاء كان من العادات الشرقية التي شاعت بين بعض شعوب الشرق القديم^(٤). وقد عرف الجاحظ الخصي بأنه ليس رجلاً ولا امرأة، فهو إنسان ممثل به وأخلاقه تجمع بين أخلاق النساء والصبيان وهو «فيه من العيوب التي لو كانت في حوراء كان حقيقاً أن يزهد فيها منه، لأن الخصي سريع التبدل والتنقل من حد البضاضة وملاسة الجلد، وصفاء اللون ورقته، وكثرة الماء وبريقه، إلى التكسر والجمود والكمود والتقبض والتجمد والتحدب وإلى الهزال وسوء الحال»^(٥).

كما قال عنهم أيضاً «أن لهم أقداماً طويلة وأصابع أيديهم معوجة، وأصابع أرجلهم ملتوية، وذلك عندما يتقدم بهم السن»، ثم يقول «تري الخصي وكأن السيوف تلمع في لونه، وكأنه مرآة صينية، وكأنه وذيلة»^(٦) مجلوه، وكأنه جمارة^(٧) رطبة، وكأنه قضيب فضه قد مسه ذهب، وكأن في وجناته الورد، ثم لا يلبث كذلك إلا نسيئات يسيرة حتى يذهب ذلك ذهاباً لا يعود» والخصي «لا يصلح كما لا تصلح

(١) عبده بدوي: السود والحضارة العربية، ص ١٢٧.

(٢) ابن بطلان: رسالة في شري الرقيق، ص ١.

(٣) الجاحظ: الحيوان جـ ١، ص ١٢٤.

(٤) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ ٥، ص ٢٦.

(٥) الجاحظ: رسائل مفاخرة الجواري والغلمان، ص ١٢٣.

(٦) «الوذيلة» هي المرأة النشيطة الرشيدة المعجم الوسيط جـ ٢، ص ١٠٦٥.

(٧) «جمارة» واحدة «جمار» وهو قلب النخل، المعجم الوسيط: جـ ١، ص ١٣٩.

المرأة» والخصيان «مع جودة الاتهم، ووقارة طبائعهم في معرفة أبواب الخدمة، وفي استواء حالهم في باب المعاطاة، لم تر أحدًا منهم قط نفذ في صناعة تنسب إلى بعض المشقة وتضاف إلى شيء من الحكمة، مما يعرف ببعد الروية والغوص بإدامة الفكرة»^(١).

ويضيف الجاحظ أن الخصي صوته يتغير وأن ذلك يتعرض له خصيان الصقالبة أكثر من تعرض السودانيين له .. وتتبدل أخلاقه فيتصرف تصرفات النساء والصبيان من حيث اللعب واللهو ولكنه سريع الغضب والرضا أيضًا وله من أخلاق النساء حب النميمة و «يعرض له حب أن تملكه الملوك على ألا تقيم له إلا القوت ويكون ذلك أحب إليه من أن تملكه السوق وإن ألحقته بعيش الملوك»^(٢).

وقد شاع استخدام الخصيان في الدولة الإسلامية شيوعًا كبيرًا، ذلك لأن الرجال كانوا يستخدمونهم في دورهم خوفًا وغيره على النساء اعتقادًا منهم أنهم أكثر أمانًا في حماية هؤلاء النساء من الرقيق الغلمان سواء في تربية الأولاد أو في مجال تقديم الخدمات لهذا استلزم الأمر حفاظًا على هذه البيوت، أن يُستخدم هؤلاء الذكور الذين هم أقرب صورة إلى الإناث في تكوينهم العضوي في خدمة السيدات دون خوف أو خشية عليهن، وأول من استخدمهم من العرب هو يزيد بن معاوية^(٣) الذي اتخذ منهم حاجبًا لديوانه اسمه «فتح» ثم اقتدى به الرؤساء^(٤).

ثم ازداد الطلب عليهم في الدولة العباسية، وخصوصًا في عصر الخليفة الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ / ٨٠٨ - ٨١٣ م)، قد بعث في طلبهم من مراكز بيعهم، واقتدى به الخلفاء من بعده حتى وصل عددهم في عهد المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٧ - ٩٣٢ م) أحد عشر ألفًا^(٥).

(١) الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٤، ج١، ص ١٠٦ - ١٠٧، ١١٧.

(٢) الجاحظ: المصدر السابق ج١، ص ١١٣، ١١٤، ص ١٣٥.

(٣) في الطبري أول من اتخذهم حرس، تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص ٣٣٠.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص ٣٣٠.

(٥) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٢٣ - ١٢٤.

وقد شغف العرب بهؤلاء وكثرت أعدادهم بصورة ملحوظة في القصور إلى جانب الجواري اللاتي كانت لهن الأفضلية من قبل، ويقول صاحب «آثار الأول في ترتيب الدول» وقد كان في الرسم الأول ظهور الجواري غير السراري وتصرفهن في الخدمة، بارزات غير متسترات، مثل الاستئذان عليهم والوقوف بين أيديهم للترويح ومناولة ما تدعو الحاجة إليه من طعام وشراب، ثم اتخذ لذلك الخصيان ليتناولوا ذلك من النساء ويحضره عند الرجال»^(١).

وقد حرم الإسلام الخصاء وشددت السنة على تحريمه^(٢) فقد ذكر أن عثمان بن مظعون استأذن النبي ﷺ في الخصاء فقال «خصاء أمي الصوم والصوم وجاء» وكما حرم خصاء الإنسان في الإسلام، حرم أيضا خصاء البهائم ووكل لوالي الحسبة أن يمنع ذلك ويحاسب عليه^(٣).

وقد تسابق التجار وأكثرهم من اليهود - في خصاء الأرقاء لما يتكسبونه من ورائهم من الربح الوفير. وكان معظم هؤلاء من الصقالبة والروم، فقد ذكر القلقشندي أنهم يجلبون من بلدة تسمى هديه وأخرى اسمها وشلو وهما من بلاد الحبشة وأن أهل وشلو هؤلاء همج وليس لهم دين، فكان التجار إذا اشتروا العبيد يخرجون بهم إلى وشلو فيخصونهم بها ثم يحملون إلى هديه فيعالجون بها من الآثار المترتبة على هذه العملية الفظيعة حتى يبرأوا ومنهم الكثير الذي كان يموت بسبب نقلهم من مكان إلى مكان آخر فلو «عولجوا في مكان خصيهم كان أرفق بهم»^(٤).

وأنشأ كثير من التجار أماكن مجهزة لخصاء الرقيق نظراً لما لمسوه من رواج تجارته ومن أشهرها فردين بمقاطعة اللورين في فرنسا فكانوا يخصون هؤلاء وهم

(١) الحسن بن عبد الله: آثار الأول في ترتيب الدول، ص ١١٢.

(٢) الجاحظ: الحيوان، ج ١، ص ١٢٨ - ١٢٩، جرجي زيدان: تاريخ التمدن، ج ٥، ص ٢٧.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٥٨، أنظر فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية،

دار الفكر العربي ١٩٩٧، ص ١٤٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ وأنظر نهلة انيس مصطفى: العلاقات بين

مصر والممالك الأفريقية، ص ٢٠٨ - ٢١٠.

أطفال فيموت أكثرهم والباقي يباع بأثمان باهظة نظراً لقلّة عدده وزيادة الطلب عليه، ثم أصبح عظماء القوم يتهادون هؤلاء الخصيان كالمتاع والآثاء، فكان ملوك الفرنج يتقربون إلى خليفة المسلمين في الأندلس أو غيرها بإهدائه الخصيان من جملة الهدايا كما فعل ملكا برشلونه وطركونة لما طلبا تجديد الصلح مع المستنصر خليفة الأندلس فقد قاما بإهدائه عشرين خصياً من الصبيان الصقالبة^(١).

وتعددت أنواعهم تبعاً للمناطق التي جلبوا منها فمنهم الصقالبة والترك والفرس والهنود، ومنهم خصيان الخبشة والنوبة والسودان الذين لم يحظوا بنفس المكانة التي للعناصر الأخرى، وقد كونوا طبقات في قصور الخلفاء منهم الأمراء ومنهم الخدم وأصبحوا زينة الإحتفالات التي تقام في قصور الخلفاء^(٢). وبخاصة الفاطميون الذين أكثروا منهم، وكانوا يلقبون بالطواشي^(٣) ثم لقبوا في زمن الفاطميين بالأسنانين^(٤).

وقد تمتع الطواشية بمواقع هامة في البلاط الفاطمي وأصبحوا جزءاً من دوائر الحكم ذا شأن رفيع^(٥).

دخول الماليك في خدمة الدولة الإسلامية:

اعتمدت الدولة الإسلامية منذ نشأتها وحتى نهاية العصر الأموي على العرب^(٦).

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٥، ص ٣٢٧ - ٣٢٨، نهلة أنيس مصطفى: العلاقات بين مصر والمالك الأفريقية، ص ٢١٠.

(٢) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٣) «الطواشي في لغة أهل المشرق هو الخصي ويسمونه الخادم أيضاً» أنظر ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، تحقيق علي عبد الواحد، القاهرة ١٩٥٨، جـ ٥ ص ٣٢٦ و «الطواشي» كلمة تركية وجمعها في العربية «طواشية» وقيل هي مفرد وجمع ويبدو أن أصلها من الطاووس للتعبير عن الرجل الجميل، أنظر: ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٢٣.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٥، ص ٤٨٩.

(٥) YAACOV LEV - state and society in Fatimid Egypt., V.1.P74.

(٦) سعيد عاشور: البنية البشرية لجيوش صلاح الدين، بحث منشور بالمجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، عدد ٣٧ المجلد العاشر، ١٩٩٠م، ص ١٢.

ومع انتقال السلطة إلى العباسيين، دخلت عناصر جديدة في خدمة الدولة كالفرس والترك وغيرهم، ومع اتساع رقعة الدولة الإسلامية، دخلت أعداد كبيرة من الرقيق في خدمتها، وقد اختلف هذا الرقيق باختلاف الأراضي التي فتحت، ولم يكن امتلاكها مقصوراً على الخلفاء والقادة المحاربين بل امتلكهم من أهله ثروته لذلك^(١).

وظهرت أهمية الرقيق ودورهم في المجتمع، فاهتم الناس بهم وأولوهم الرعاية العلمية والثقافية والحرفية التي تتلاءم مع قدراتهم والتي يحتاجها المجتمع، الأمر الذي أثر على ارتفاع أو انخفاض أثمانهم حسب الحاجة إليهم، وكان المسلمون يحسنون معاملة هؤلاء الرقيق عملاً بما جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة، وكان الإعتاق منتشراً لأنه اقترن بالبر والإحسان وكان المعتقون يتقلدون في بعض الأحيان مناصب هامة في الدولة فضلاً عن تأثير الجواري والغلمان على الخلفاء والوزراء^(٢).

استخدام الأمويين للرقيق:

بدأ استخدام العناصر غير العربية في الجيوش الإسلامية منذ بدايات العصر الأموي، ففي عام ٤٥هـ/٦٦٥م اتجهت فرقة من الصقالبة قوامها خمسة آلاف مقاتل إلى بلاد الشام بعد أن هاجمهم الإمبراطور قنسطانز وطرد منهم عدداً كبيراً إلى آسيا الصغرى. وقد شاركت هذه الفرقة بعد انضمامها إلى صفوف المسلمين في حربهم ضد البيزنطيين ٧٣هـ/٦٩٢ واستخدموا من قبل المسلمين كجند مرتزقة في حروبهم ضد البيزنطيين.

وكان لصراع الصقالبة مع البيزنطيين أثر سياسي كبير، فقد بدأوا يعرضون خدماتهم على القوى السياسية المتصارعة في ذلك الوقت^(٣).

(١) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٤.

(٢) سيدة الكاشف: دراسات في المجتمع المصري، بحث منشور بمجلة هيئة الآثار ص ١٢.

(٣) سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة في مصر الإسلامية، بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإنسانية=

وعندما قامت الخلافة الأموية في الأندلس، استخدم الأمويون الصقالبة في مجالات مختلفة حتى ازداد نفوذهم وسيطروا على مقاليد الأمور^(١) وكان لغنائم موسى بن نصير من فتح الأندلس ٩١هـ/٧٠٩م، والتي بلغت ٣٠٠ ألف رأس من السبي، تأثير كبير على تكوين طبقة مؤثرة في المجتمع الإسلامي من هؤلاء الرقيق^(٢).

وقد جاء أغلب هؤلاء الصقالبة أطفالاً إلى إسبانيا الإسلامية، وتم تدريبهم على كل الأعمال والفنون، واحتلوا مكانة مرموقة في المجتمع القرطبي، ونبغ الأدباء والشعراء. واستطاع البعض منهم الوصول إلى الثراء وامتلاك الإقطاعات والعبيد^(٣). أما في المشرق، فقد امتد الفتح الإسلامي إلى بلاد تركستان وما وراء نهري سيحون وجيحون، وذلك في عهد الوليد بن عبد الملك ٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م، على يد قتيبة بن مسلم في نهاية القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) حتى كثر عدد الرقيق التركي نتيجة لهذه الفتوحات^(٤).

وقد وصف ابن خلدون الرقيق التركي بأنهم «أهل حرب وافتراش ومعاش من التغلب والنهب إلا في الأقل .. عند الفتح لم يذعنوا إلا بعد طول حرب وممارسة أيام سائر دولة بني أمية»^(٥).

كما زاد عدد الرقيق التركي في العصر الأموي نتيجة للانتصارات التي حققها قتيبة بن مسلم الباهلي في بلاد ما وراء النهر والتي نتج عنها أسر الكثير من الأتراك واستخدامهم أو جلبهم كأرقاء^(٦).

= - جامعة الأزهر العدد التاسع ١٩٩١م ص ١٤٧ - ١٤٨.

(١) لبينة إبراهيم: الرقيق وتجارتهم، ص ٩٨.

(٢) صلاح شمردل: الرقيق وأثره في المجتمع العراقي، ص ٣٢ - ٣٣.

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٣٥ - ٣٧.

(٤) عبد العزيز عبد الدايم: الرق في مصر في العصور الوسطى، ص ١٦.

(٥) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٥، ص ٣٦٩.

(٦) صلاح شمردل: الرقيق وأثره في المجتمع العراقي، ص ٣٦.

وكان الأتراك من العناصر المملوكية الهامة التي دخلت في الدولة الإسلامية وأثرت فيها وتأثرت بها^(١).

ولما قام المسلمون بفتح بلاد ما وراء النهر، رأوا في أهل تلك البلاد عنصراً محارباً يمتاز بالطاعة والنظام مما شجع العباسيين على الاستعانة بهم لتقوية مركزهم في الخلافة ولكنهم أخطأوا التقدير لأن هؤلاء أنفسهم هم الذين استبدوا بالخلفاء وتحكموا فيهم وسلبوهم سلطانتهم^(٢).

وقال عنهم ابن خلدون «امتلاأت أيدي العرب يومئذ من سبيهم فاتخذوهم خولاً في المهن والصنائع ونساءهم فرشاً للولادة كما فعلوه في سبي الفرس والروم وسائر الأمم الذين قاتلوهم على الدين»^(٣).

عظم شأن المماليك الترك وغير الترك في الدولة العباسية منهم الأفشين ومؤنس الخادم وابن طولون وابن طنج وتنماش وتوزون وإياز المسعودي وكافور ولؤلؤ صاحب الموصل ومن قبله قراقوش الناصري، وقد لاحظ هذه الظاهرة صاحب كتاب «آثار الأول في ترتيب الدول» فقال: «وذلك أنه لما ركب الله فيهم من السر الإلهي والعناية الربانية، ملكهم بلاده وعباده وجعلهم حضنة بيته وخدام حرمه ونصرة دين رسوله محمد ﷺ محافظين على كتابه وسنته منفذين أحكام شريعته ملازمين على طاعته وخصهم بخصائص نالوا بها الحظ الأوفى فتقربوا بها إليه زلفى»^(٤).

(١) في وصف موطن الترك «أنهم في بلاد البنادقة من أرض الروم وأما مواطنهم فأنهم ملكوا الجانب الشمالي من المعمور في النصف الشرقي منه قبالة الهند والعراق في ثلاثة أقاليم هي السادس والسابع والخامس» ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٦٩، وانظر سيده الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، مكتبة الأنجلو د. ت، ص ٧.

(2) William Muir : The Mameluk or Slave dynasty of Egypt P.3

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ ٥، ص ٣٦٩.

(٤) الحسن بن عبد الله: آثار الأول في ترتيب الدول، ص ١١٦.

استخدام العباسيين للرقيق:

وعندما قامت الخلافة العباسية في بغداد على أنقاض الخلافة الأموية في دمشق، وجد العباسيون نظامًا موجودة منذ أيام الأمويين وهي الاستعانة بغير المسلمين في الجيش^(١).

وعندما أصبحت بغداد في العراق هي حاضرة الخلافة، بديلة لدمشق، لم يكن هذا الانتقال مجرد الانتقال من بيت إلى بيت أو من عاصمة إلى أخرى بل كان نقلاً للدولة الإسلامية بأكملها في اتجاه العالم الآسيوي الذي سيتم ضم أراضيه بالفتح إلى الدولة الإسلامية. وقد ظلت الدولة العباسية تحكم مدة خمسمائة وثلاث وعشرين سنة تقريباً فيها «افتقرت كلمة الإسلام وسقط اسم العرب من الديوان وأدخل الأتراك في الديوان واستولت الديلم ثم الأتراك وصارت لهم دولة عظيمة وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر»^(٢).

وعندما استخلف المنصور (١٣٦هـ - ١٥٨هـ / ٧٥٣ - ٧٧٤م)، بعث معن بن زائدة إلى سجستان في حملة غنمت ثلاثين ألف رأس، وكان ذلك مما قوى العنصر الفارسي^(٣).

وقال عنه المقرئزي أنه «أول من استعمل مواليه وغلتمانه في أعماله وقدمهم على العرب فاقتدى به من بعده من الخلفاء حتى سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها»^(٤).

ثم اتجه الخلفاء العباسيون لغزو بلاد الروم حماية لحدود الدولة الإسلامية، ففي عام ١٥٣هـ / ٧٧٠م انتصرت الحملة التي قادها معيوف بن يحيى فأسرت ستة آلاف رأس من اللاذقية^(٥).

(١) حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية، ص ١٣٧.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ١ قسم ١، ص ١٤.

(٣) صلاح شمر دل: الرقيق وأثره في المجتمع العراقي، ص ٣٧.

(٤) المقرئزي: السلوك، ج ١ ق، ص ١٦.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ٥٣.

وفي عهد الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ / ٧١٤-٧٨٥م)، قاد ابنه هارون الرشيد حملة على بلاد الروم كان من نتائجها أسر خمسة آلاف وستمائة رأس^(١). وكان من نتائج نظام الصوائف والشواتي أن زادت أعداد الرقيق من الروم مما اضطر الخليفة المهدي إلى أن يسكنهم في منطقة يطلق عليها الشماسية شمالي بغداد^(٢).

وقد استخدم الموالي الترك والروم والبربر ليزين بهم المواكب في المناسبات المختلفة وليكونوا عوناً لهم في حروبهم وغزواتهم^(٣).

وفي عهد الهادي العباسي بن المهدي، استخدم المماليك وولع شغفاً بالجواري حتى لقد هام الهادي بجاريته غادر حباً^(٤).

وبالرغم من وصول العنصر الفارسي إلى قمة الشهرة والمجد والتسلط في عهد الرشيد متمثلاً في أسرة البرامكة، إلا أن الخلفاء بدأوا في استبدال هذا العنصر بالعنصر التركي حين أدركوا أن سلطانهم يُغتال من قبل هؤلاء الفرس. ولم يكن هؤلاء الأتراك أحسن حالاً من الفرس، فقد تغلغلوا وتحكموا في أدق أمور الدولة^(٥). وقد امتلكت السيدة زبيدة عدداً من المماليك الأتراك اختصوا بخدمتها وأطلقت عليهم اسم الشاكزية أو العسكر الشاكزي^(٦).

وجدير بالذكر أن الفضل بن يحيى البرمكي أنشأ فرقة كبيرة من الأتراك في خراسان بلغ عدد أفرادها نحو من خمسين ألف مقاتل بعث منهم إلى بغداد عشرين

(١) ابن كثير: البداية والنهاية بيروت ١٩٦٦، جـ ١٠ مجلد ٥، ص ١٤٧.

(٢) صلاح شمردل: الرقيق وأثره في المجتمع العراقي، ص ٣٧.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المتبدا والخبر، جـ ٥، ص ٣٧٠.

(٤) ابن الساعي: نساء الخلفاء، تحقيق د. مصطفى جواد، دار المعارف، القاهرة د. ت، جـ ١، ص

٤٥.

(٥) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر، القاهرة ١٩٤٩، ص ٩٣.

(٦) صلاح شمردل: الرقيق وأثره في المجتمع العراقي، ص ٣٧.

ألفاً وسماهم الفرقة العباسية^(١).

وفي عام ١٦٠هـ/٧٧٦م، توالى فتوح الإسلام في الهند فقامت الحملات وغنم المسلمون عدداً كبيراً من السبي^(٢).

وقد كان للجواري أهمية كبيرة في عهد الرشيد، وكانت له جارية تدعى هيلانة أخذها من يحيى بن خالد البرمكي وكانت رائعة الحسن فأحبها وحظيت عنده وأقامت معه ثلاث سنوات ثم ماتت فحزن عليها حزناً شديداً^(٣).

وزاد عدد الخصيان في عهد الأمين زيادة كبيرة داخل القصر، وقد كان يرسل في طلبهم ويغالي في دفع أثمانهم ويطلق لهم الأرزاق، ويسمى البيض منهم الجرادية والحبشان أو السود الغرابية، ووزع عليهم الأموال والجواهر. فلما رأت أمه تعلقه الشديد بهؤلاء، اصطنعت الجواري الحسان وعمت رؤوسهن وألبستهن الأقبية والمناطق حتى يصبحون على هيئة الغلمان وبعثت بهن إليه فسعد كثيراً بهن وأطلق عليهن الغلاميات^(٤) وفي إشارة إلى اهتمامه بالخصيان، يذكر الطبري «ولما ملك محمد، وجه إلى جميع البلدان في طلب الملهين، وضمهم إليه وأجرى لهم الأرزاق ونافس في ابتياع فره الدواب^(٥)، وأخذ الوحوش والسباع والطيور وغير ذلك واحتجب على أخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم، وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجواهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه»^(٦) وهو أول من استخدم

(١) حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية في أسيا الوسطى، ص ١٣٧.

(٢) صلاح شمردل: الرقيق وأثره في المجتمع العراقي، ص ٣٧.

(٣) ابن الساعي: نساء الخلفاء، ص ٥٤.

(٤) الغلامية: هي الفتاة تتزيا بزي الغلام وهيئته، المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٦٨٤.

(٥) فرة (فراة وفروهة): جمل وحسن، وخف ونشط، وحقق ومهر، فهو فاره المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٧١٢.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج ١٠، ص ٢١٤ - ٢١٦، وأنظر المقرئ في السلوك ج ١، ق ١، ص ١٦.

هؤلاء الترك كمماليك، وكان طولون منهم^(١) فقد أرسله حاكم بخارى نوح بن أسد الساماني في جملة الهدايا للمأمون سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م وكان طولون من الطغر الذين تعرضوا لغزو التتر فأخذه نوح الساماني^(٢).

وقد ابتدع المأمون إدخال فرسان الترك في الحرس الخلفي^(٣) لما رأى أن العرب يقفون خلف الأمين^(٤)، وكان لا يطمئن إلى الفرس، فرأى أن وجود العنصر التركي سيوجد نوعاً من التوازن بين العنصرين العربي والفارسي فبدأ في استخدامهم كمحاربين على نطاق ضيق^(٥).

وقد فتح المأمون عدة حصون وسبى عدداً كبيراً من الرقيق ٢١٦هـ/٨٣١م^(٦)، وكان يشتري الأتراك من وسط آسيا لاستخدامهم في الحراسة حتى وصل ثمن الواحد منهم إلى مائتي ألف درهم وهو مبلغ باهظ في ذلك الوقت^(٧).

وكان المأمون يحب اقتناء الجواري فكانت له جارية رومية حظية اسمها مؤنسة المأمونية^(٨) وكذلك عريب وقيل إنها ابنة جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي سرقت بعد انتهاء دولة البرامكة وهي صغيرة فاشتراها الأمين وبعده المأمون وكانت شاعرة ومغنية^(٩).

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص ١٧٣ - ١٧٤، ابن خلدون: العبر، ج٤، ص ٢٩٧ والسيوطي: حسن المحاضرة، القاهرة ١٩٧٦، ج١، ص ٥٩٤ - ٥٩٥، أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، القاهرة ١٩٧٢، ص ١٢٨.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٣٥، سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٢.

(٣) حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة، ص ١٣٧.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١٠، ص ٢٥٨ - ٢٦٠.

(٥) سعيد عاشور: العصر المماليكي ص ١، سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ٧.

(٦) صلاح شمردل: الرقيق وأثره، ص ٣٣.

(٧) عبد المنعم ماجد: طومان باي، ص ١٢.

(٨) ابن الساعي: نساء الخلفاء، ص ٧٩.

(٩) نفسه ص ٥٥.

أما المعتصم فقد تولى الخلافة بعد أخيه المأمون وقيل إنه أول من أدخل الأتراك الديوان لأن أمه كانت «أم ولد» تركية من السند تدعى ماردة^(١)، وعلى هذا فإنه كان يميل إلى الترك ويعمل على استجلابهم والإستكثار منهم حتى بلغ عددهم ٨٠ ألفاً^(٢).

وقد استخدمهم المعتصم لتثبيت مركزه بعد أن فقد ثقته بالعرب والفرس الذين قامت الدولة العباسية على أكتافهم فأراد حماية نفسه بهؤلاء الجند الترك^(٣) واتخذ لنفسه حاجباً تركياً هو وصيف التركي^(٤).

وشغف المعتصم بحب هؤلاء الأتراك واقتنائهم وميزهم بزي معين عن سائر جنوده، ونتج عن ذلك أن ضاقت بهم بغداد، وكانوا يؤذون العامة وكثرت شكاية الناس منهم^(٥)، وتعرضوا للنساء وقتل الأطفال تحت أرجل خيولهم فبنى لهم المعتصم مدينة سامراء^(٦).

وقد كان هؤلاء الأتراك مختلفي الديانة، فمنهم المسلمون ومنهم المجوس الوثنيون الذين دخلوا في الإسلام بعد استقدام المعتصم لهم، وكانوا يتكلمون اللغة التركية ثم اقبلوا على تعلم العربية، واتصفوا بالشجاعة والمهارة في القتال، وحافظ المعتصم - نظراً لعصبية الترك - إذ كانت أمه من جنسهم - على نقاء عنصرهم فجلب لهم نساء من جنسهم زوجهم إياهم ومنعهم من الزواج

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ١١، ص ٩، المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ١٦.

(٢) زبيدة عطا: بلاد الترك في العصور الوسطى ص ٣٤، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية، ص ٩٣.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٣٥، أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ ١، ص ٣، علي إبراهيم حسن: تاريخ الممالك البحرية، ص ٢٨.

(٤) ابن العمراني: الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ١١٠.

(٥) المسعودي: مروج الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت ١٩٧٠ - ١٩٨٠، جـ ٤، ص ٥٣، ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، بيروت ١٩٦٠، ص ٣٢١، ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٧٠.

(٦) ابن العمراني: الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ١١٠، زبيدة عطا: بلاد الترك، ص ٣٤ وحافظ حمدي: الدولة الخوارزمية، ص ٩٣، سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ٧.

من غيرهم. وقد ساعدوه على الانتصار على الروم في وقعة عمورية ٢٢٣هـ / ٨٣٧م وعلى رأسهم أشناس التركي^(١).

وكان حرسه الخاص من هؤلاء الترك من الصغد وفرغانة وأشروسنة والشاش، فقد كانوا دعائم الخلافة وكان يقوم بشرائهم تجار متخصصون على تخوم السهوب الروسية الآسيوية حتى غدوا عنصراً أساسياً للجيش وكانوا ينتقون على أساس لياقتهم العسكرية وحسن أخلاقهم^(٢). ولكنه عاد وأسف لاستخدامه هؤلاء الترك والاعتماد عليهم^(٣).

وبعد عصر المعتصم، دخل عنصر الترك بقوة في بلاد الخلفاء. وأسهم النزاع القائم بين العرب والفرس في ارتفاع أسهمهم فأصبح بذلك النزاع ثلاثياً. بعد أن إنضاف إليهم العنصر التركي وتزايدت قوته على حساب ضعف قوة العرب التي انهكها صراعهم مع الفرس. وبعد أن ارتبطت أهم الأحداث بأعلام الفرس كأبي مسلم الخراساني والبرامكة والحسن بن سهل والفضل بن سهل وعبد الله بن طاهر وأمثالهم^(٤)، وفي عهد الواثق (٢٧٧-٢٣٢هـ / ٧٤٢-٧٤٧م) كثُر المماليك والغلمان في فترة حكمه وخاصة الجواري فقد انشغل بهن واتخذ السراري^(٥). وأشهر مماليكه إيتاخ^(٦).

وفي عصر المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧هـ / ٨٤٧-٨٦١م)، كان قد مر حوالي اثنتي عشرة سنة على تواجد الأتراك في البلاد، وقد ذكر ابن خلكان ما يفيد أن المتوكل استخدم الأتراك بكثرة^(٧).

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ ١، ص ٥، جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ ١، ص ٧١.

(٢) حسن محمود: الإسلام والحضارة، ص ١٣٧، كلود كاهن: تاريخ العرب، ص ١٦٨.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ١١، ص ٨٠٩.

(٤) أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ ١، ص ٥٠٦.

(٥) الحنبلي: شذرات الذهب جـ ٢، ص ٧٦.

(٦) المقرئ: الخطط، جـ ١، ص ٣١٢.

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣، ص ٢٧٢.

وفي عهده علا سلطان هؤلاء الأتراك ومسك إيتاخ قائدهم بزمام الأمور وكانوا يثيرون القلق والاضطراب ويقيمون المؤامرات والفتن، وانقسموا إلى فرق، كل فرقة تتعصب لقائدها ضد الأخرى، وجمعوا الكثير من الأموال وتآمروا على قتل المتوكل فضربه باغر بالسيف ولما حاول الفتح بن خاقان منعهم عاجلوه بضربة سيف هو الآخر فقتل وأقاموا المنتصر (٢٤٧-٢٤٨هـ / ٨٦١-٨٦٢م) (١).

واستخدم المتوكل الجواري فكانت له جارية تدعى إسحق الأندلسية وهي: مولدة وكانت للمتوكل حظية عنده وولدت له المؤيد إبراهيم والموفق أبا أحمد (٢)، كما كانت له خمسمائة وصيفة للفراش وكانت صبيحة أم ولده المعتز هي حظيته، وكان يؤثرها على غيرها حتى أنه أراد أن يعهد بالخلافة إلى ولدها المعتز رغم كونه أصغر من المنتصر بعد أن كان قدم العهد للمنتصر ولأخويه من بعده (٣).

وقد أهدى له محمد بن عبد الله بن طاهر ثلاثمائة جارية وكان فيهن واحدة تدعى «محبوبة» ونشأت بالطائف فأحبها كل الحب وكان لا يفارقها أبدا (٤).

وكان طبيعيا أن يزداد نفوذ هؤلاء الأتراك بعد قتلهم المتوكل فأجبروا المنتصر على خلع أخويه المعتز والمؤيد (٥) وكان قد مات قبل أن يستخلف خليفة في الوقت الذي ازدادت فيه سطوة هؤلاء الأتراك حتى أصبحوا يقيمون الخلفاء ويعزلونهم، فقاموا بتحليف القواد على الرضى بمن يعينه بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش، وجميعهم أتراك، فاخترأوا المستعين واضطروا الناس إلى مبايعته (٦).

وبعد المتوكل، أقيم المستعين بالله أحمد بن المعتصم (٢٤٨-٢٥٢هـ / ٨٦٢-

(١) المسعودي: مروج الذهب، ج-٢، ص ٣٨٩ - ٣٩٠.

(٢) ابن الساعي: نساء الخلفاء، ص ٨٢.

(٣) الحنبلي: شذارات الذهب، ج-٢، ص ١١٤.

(٤) نفسه.

(٥) الطبري: ج-١١، ص ٧١ - ٧٣.

(٦) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج-١، ص ٢٠.

وجميعهم أترك، فاختاروا المستعين واضطروا الناس إلى مبايعته^(١).

وبعد المتوكل، أقيم المستعين بالله أحمد بن المعتصم (٢٤٨-٢٥٢هـ / ٨٦٢-٨٦٦م)، فاقام ثلاث سنين وثمانية أشهر وعشرين يوماً حتى خلعه الأتراك وعذبوه ثم قتلوه بعد تسعة أشهر من خلعه^(٢) ثم ما لبث الأتراك أن انقسموا على أنفسهم وحاربت كل فرقة إلى جانب قائدها فكان داغر له فرقة وبغا له فرقة ووصيف له فرقة، وقاموا بقتل داغر وأقاموا الفتن وأثاروا الاضطرابات، فلما لم يستجب المستعين إلى مطالبهم بايعوا المعتز بالله، بمعنى أنه كان هناك مقرران للخلافة أحدهما في بغداد وفيه الخليفة المستعين والآخر في سامرا وعليه المعتز، لكن أهل بغداد ظلوا على ولائهم للمستعين، وكان يؤازره ابن طاهر الفارسي الأصل وبعض من الأتراك. وكانت شدة تعرضت فيها البلاد والعباد للسلب والنهب، إلا أن الأتراك تغلبوا في النهاية ودخلوا بغداد، ثم أقيم بعده المعتز بالله بن المتوكل، لكنهم سرعان ما تغلبوا عليه أيضاً وكان على الدوام يتوجس خيفة منهم فكان لا يخلع سلاحه أبداً ليلاً ولا نهاراً خوفاً من بغا^(٣).

وبعد المعتز، أقيم المهدي بالله محمد بن الواثق (٢٥٥-٢٥٦هـ / ٨٦٨-٨٦٩م)، ثم قام الأتراك باغتياله أيضاً بعد أحد عشر شهراً وتسعة عشر يوماً، وقد كان كغيره من الخلفاء الذين سبقوه العوبة في أيدي هؤلاء الأتراك، وقد روى الطبري حادثة تؤكد ذلك قائلاً «رفع المهدي يديه إلى السماء ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: اللهم إني أبرأ إليك من فعل موسى بن بغا وإخلاله بالثغر وإباحته العدو، فإني قد أعذرت فيما بيني وبينه .. اللهم تول كيد من كاید المسلمين، اللهم انصر جيوش المسلمين حيث كانوا، اللهم إني شاخص بنيتي واختياري إلى حيث نكب المسلمون فيه ناصراً لهم ودافعاً عنهم، اللهم فأجرني بنيتي إذ عدمت صالح الأغوان

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ ١، ص ٢٠.

(٢) المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ١٧.

(٣) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ ١، ص ٢١.

ثم انحدرت دموعه يبكي»^(١).

وقد قامت في عهده ثورة الزنج^(٢) التي هددت عرش الخلافة العباسية في بغداد وأقلقت بال خليفة، فقد كانت مصر وشمال إفريقيا وشمال جزيرة العرب من أهم أسواق الرقيق الأسود، وقد جلب إلى العراق الكثير من الزنج لفلحة الأرض، وقد أدت كثرتهم إلى قيام ثورة الزنج التي دامت أكثر من أربع عشرة سنة (٢٥٥-٢٧٠ هـ / ٨٦٨-٨٨٣ م) وأجهدت الخلافة مادياً واقتصادياً^(٣).

وكثر شراء الزنوجيات اللاتي عرفن بكثرة النسل، كما كثر شراء الجواري المغنيات واللاتي ارتفعت أثمانهن في هذا العهد ارتفاعاً كبيراً^(٤).

أما الخليفة المقتدر العباسي (٢٩٥-٣٢٠ هـ / ٩٠٧-٩٣٢ م)، فقد استكثر من الممالك الروم والسودان حتى قالوا إن عددهم بلغ أحد عشر ألفاً وكانوا في أول عهده ألفاً ومائة، وملأت الجواري الروميات جوانب القصور لما لهن من مميزات^(٥) و «صارت ثمل القهرمانة إحدى جواريه تجلس للمظالم ويحضرها الوزراء والقضاة والفقهاء»^(٦).

وقد استخدم المقتدر الخصيان بكثرة حتى وصل عددهم في قصره إلى أحد عشر ألف

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ/ ١١ ص ١٧٣.

(٢) «الزنج» طائفة من العبيد السود بإفريقية ثاروا على الخلافة العباسية وكان مسرح ثوراتهم المستنقعات الممتدة بين البصرة واسط، وانضم إليهم العبيد الهاربون من القرى والمدن المجاورة تخلصاً من حالتهم، وكانوا لا يتقاضون أجراً بل يقتاتون بقليل من الدقيق والتمر مما جعلهم على أتم الاستعداد للخروج على مواليهم، وقادهم رجل فارسي يسمى علي بن محمد من أهالي الطالقان ادعى أنه من ولد زين العابدين بن الحسين بن علي وادعى أنه العناية الإلهية قد أرسلته لتخليص هؤلاء المعذبون فاندفعوا إليه وثاروا على مواليهم ثورة عارمة (للمزيد عن ثورة الزنج، انظر: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص ٤٣٢، ماجد تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٩).

(٣) ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٩.

(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص ٤٣٢.

(٥) أحمد أمين: ظهير الإسلام، جـ ١، ص ٦٦.

(٦) المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ١٨.

وقد شاع استخدامهم في المجتمع العراقي في ذلك الوقت نتيجة لشيوع استخدام الحجاب وأصبحت لهم ضرورة في القصور، وكذلك في بيوت الأثرياء، لحراسة الحريم^(١).

ولما استفحل أمر هؤلاء الأتراك، استعان الخلفاء عليهم بالبويهيين^(٢) الذين طمعوا في السلطة ولم يقدموا العون للخلافة بالقضاء على الأتراك بل استولوا على بغداد عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م ولقد أخطأ الخلفاء في الاستعانة بهم فكانوا «كمن استجار من الرمضاء بالنار»^(٣).

ثم ظلت المنازعات قائمة بينهم وبين الخلفاء العباسيين. وكان الأتراك يميلون إليهم، وكان الخلفاء ليس لهم إلا ذكر اسمهم في الخطبة ونقشه على السكة، فقد كان يتحكم فيهم البويهيون كما كانوا يعمدون إلى وضع الخلفاء ضعاف الشخصية على كرسي الخلافة حتى يستطيعوا السيطرة عليهم ويخلعوا من يحاول الخروج عن طاعتهم فضلاً عن التعذيب والقتل الذي كان يتعرض له الخلفاء المخلوعون^(٤).

ولم يلبث أن شاع استخدام هؤلاء المماليك في كل أنحاء الدولة الإسلامية، فكان لضعف الخلفاء العباسيين من جهة ورغبة حكام الولايات في تكوين ولايات مستقلة بهم من جهة أخرى أن اعتمد هؤلاء الخلفاء على شراء المماليك لتأليف الجيوش التي يستطيعون بها تحقيق مطامعهم، ثم لا يلبث هؤلاء بعد أن يتحرروا وتقوى مراكزهم أن يحكموا السيطرة على البلاد التي استوطنوها.

يقول ابن خلدون: «فلم يزل هذا دأب الخلفاء في اصطناعهم ودعامة سرير الملك بعمدهم وتمهيد الخلافة بمقاماتهم حتى سموا في درج الملك وامتألت جوانحهم من الغزو وطمحت أبصارهم إلى الاستبداد فتغلبوا على الدولة وحجروا على الخلفاء

(١) صلاح شمر دل: الرقيق وأثره في المجتمع العراقي، ص ٨٠.

(٢) لمعرفة أصل البويهيين أنظر حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، القاهرة ١٩٩١، ج ٣، ص ٤٣ - ٦٨.

(٣) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية، ص ٩٣ - ٩٤.

(٤) نفسه، ص ٩٤.

وقعدوا بدست الملك ومدرج النهي والأمر وقادوا الدولة بزمائمهم وأضافوا اسم السلطان إلى مراتبهم وكان مبدأ ذلك واقعة المتوكل وما حصل بعدها من تغلب الموالي واستبدادهم بالدولة والسلطان ونهج السلف منهم في ذلك سبيلاً للخلف واقتدى الآخر بالأول فكانت لهم دول الإسلام متعددة تعقب غالباً دولة أهل العصبية وشوكة النسب كمثل دولة بني سامان وراء النهر وبني سبكتكين بعدهم وبني طولون بمصر وبني طغج»^(١).

ومن تلك الدول المستقلة التي استخدمت المماليك في الجيوش والقصور الدولة الصفارية^(٢) والدولة السامانية والدولة الغزنوية وكانت الدولة الصفارية أبلغ تصوير لازدياد شوكة المماليك في دول المشرق الإسلامي، فقد اشترى يعقوب بن الليث الصفار مؤسس الدولة الصفارية في سجستان في عهد المعتمد غلاماً صغاراً من الترك استخدمهم في الجيش والقصر وقام على رعايتهم وعلمهم فنون الحرب والخدمة^(٣)، كما اقتنى عمرو بن الليث الصفار ثاني ملوك الدولة الصفارية (٢٥٤-٢٩٠ / ٨٦٧-٩٠٣م) الكثير من صغار الترك وكون منهم حرسه الخاص، وكان يهديهم لقواده دون قطع رواتبهم لاستخدامهم كجواسيس يطلعونه على أسرار هؤلاء^(٤) كما استخدمت الدولة السامانية (٢٦١-٣٨٩هـ / ٨٧٤-٩٩٩م) الأتراك في جيوشها منذ عام (٣٠٠هـ / ٩١٢م)، وقد وصلوا إلى أعلى المناصب في تلك الدولة، ومنهم البتكين الذي قام بتأسيس دولة تركية مستقلة عام (٣٨٤هـ / ٩٤٤م) وهي الدولة الغزنوية التي كانت ثمرة الصراع بين العنصرين الفارسي والتركي من أجل إحكام السيطرة على الأطراف الإسلامية في القرن الرابع الهجري^(٥).

(١) ابن خلدون: العبر، ج-٥، ص ٣٧٠ - ٣٧١.

(٢) للمزيد عن تاريخ هذه الدول أنظر حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج-٣، ص ٧٢ - ٧٧.

(٣) السيد الباز العريني: المماليك، ص ٢٤٨.

(٤) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢١.

(٥) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج-٣، ص ٧٨ - ٨٤، العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٢١ -

وكان السامانيون يقدرّون قيمة هؤلاء المماليك، فقد قال نصر ابن نوح الساماني: «اتخذوا المماليك وأحسنوا تربيتهم فهم أولاد يريدون حياة والدهم»^(١)، كما قال:

«التسلط على المماليك من عجز المقدرة والكلام القبيح من لؤم النفس، وإنما يجب الرفق بهم والإحسان إليهم والتوسع في نفقتهم وإطعامهم مما تأكلون والنهي عن ضرب الوجه وعن المثلة في العقوبة»^(٢). وسارت الدولة الغزنوية على نهج تلك الدول في استخدام المماليك، فقد كان مؤسسها البتكين مولى تركيا أصلاً عنه عبد الملك بن نوح الساماني حاجباً في بلاطه (٣٤٣هـ - ٣٥٠هـ / ٩٥٤ - ٩٦١م) ثم عينه عاملاً له على هراة، ولكنه بعد وفاة مولاه أقصى من منصبه فعاد إلى مدينة غزنة التي وليها أبوه من قبل السامانيين وحل محله في حكمها بعد وفاته ٣٥٢هـ / ٩٦٣م، ثم مات وتولى ابنه إسحاق حكم البلاد، ويعتبر سبكتكين زوج ابنه إسحاق وأحد مواليه هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة والذي مد سلطانه إلى الشرق وإلى فارس واستولى على خراسان^(٣).

ومن هذا نرى كيف أن هؤلاء المماليك الذين جلبوا عن طريق الشراء أو السبي وربوا صغاراً قد تغلبوا على سادتهم الذين كانوا «ينتقون أجود السبي الغلمان كالدنانير والجواري كالألي، ويسلمونهم إلى قهارمة القصور وقرمة الدواوين يأخذونهم بحدود الإسلام والشريعة وآداب الملك والسياسة ومراسي الثقافة في المران على المناضلة بالسهام والمسالحة بالسيوف والمطاعنة بالرماح والبصر بأمور الحرب والفروسية ومعانة الخيول والسلاح والوقوف على معاني السياسة حتى إذا تنازعوا في الترشيح وانسلخوا من جلدة الخشونة إلى رقة الحاشية وملكه التهذيب اصطنعوا منهم للمخالصة ورقوهم في المراتب واختاروا منهم لقيادة العساكر

(١) الحسن بن عبد الله: أثار الأول في ترتيب الدول، ص ١١٥.

(٢) نفسه.

(٣) عفاف صبره: الدولة الخوارزمية، القاهرة ١٩٨٧، ص ٢٦ - ٢٩.

في الحروب ورياسة المواكب أيام الزينة»^(١). من ذلك نرى كيف أنهم استطاعوا بمهارة وذكاء ومقدرة فائقة على تطويع كل الظروف لخدمة مصالحهم الشخصية والوثوب على عروش السلطنة بصورة متعاقبة فأقاموا الدول المستقلة الواحدة تلو الأخرى حتى خلدت أسماؤهم في سجل تاريخ تلك الفترة الهامة من فترات التاريخ الإسلامي.

ولقد أدرك هؤلاء الخلفاء جميعًا والذين كانوا يزهون بحماية هؤلاء الأتراك، ولكن بعد فوات الوقت، أنهم باستخدامهم لهؤلاء قد حكموا على أنفسهم بالإستعباد^(٢).

دخول المماليك في خدمة حكام مصر:

بقيت مصر منذ عصر الفتح وحتى ٢٤٥هـ / ٨٦٨م تحكم بواسطة عمال يرسلون إليها من قبل الخلفاء الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين، وقدم إلى مصر أول وال تركي ٢٣٢هـ / ٨٤٦م، ثم توالى إرسالهم من قبل الخلفاء. وكان الخلفاء يهدون إقطاع مصر إلى المخلصين من قوادهم الذين يفضلون البقاء في حاضرة الخلافة بغداد حرصًا على مراكزهم، فكانوا يرسلون إلى مصر عمالهم، الواحد تلو الآخر، فقد وليها يزيد بن عبد الله والفتح بن خاقان ومزاحم بن خاقان وأزجور ترخان، ثم آلت إلى بابكياك^(٣).

المماليك في الدولة الطولونية:

ابتدع العباسيون فكرة الاستعانة بالمماليك منذ عهد المأمون^(٤)، وقد كان

(١) ابن خلدون: العبر، ج٥، ص ٣٧٠.

(٢) سناتلي لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن، القاهرة ١٩٥٠، ص ٨٠.

(٣) سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ٨، عبد الرحمن زكي: القاهرة ١٩٤٣، ص ٢١،

أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج١، ص ٣٥، سناتلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ٨٠.

(٤) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٣٥.

المماليك في الدولة الطولونية:

ابتدع العباسيون فكرة الاستعانة بالمماليك منذ عهد المأمون^(١)، وقد كان طولون^(٢) من المماليك الترك الذين أهداهم نوح بن أسد الساماني والذي كان عاملاً على بخارى في جملة الرقيق والهدايا إلى الخليفة المأمون سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م وولد ابنه أحمد في سامرا سنة عشرين ومائتين^(٣) ويقال في سنة أربع عشرة^(٤) ثم توفي طولون سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م وكفل أحمد رفقاء أبيه وربوه بدار الملك حتى ارتقى إلى خدمة السلطان وعرف صيته وذاعت شهرته وسافر إلى طرسوس وتلقى العلم على بعض علمائها ودرس العربية^(٥).

ولكن الأتراك قد ملكوا زمام الأمور وبرز منهم القواد ذو الصيت ومنه بابكياك وبغا ووصيف وسيما الطويل، فلما حدثت الإضطرابات وفرضوا سيطرتهم على بلاط الخلفاء اضطروا أن يقطعوهم الإقطاعات، واقطع بابكياك هذا أعمال مصر من قبل الخليفة المعتز ففكر فيمن يستخلفه على مصر ووقع اختياره على أحمد بن طولون (٢٥٤هـ/٨٦٨م) التركي الذي نشأ وتربى على نهجهم^(٦). «فبعثه على مصر فاستولى عليها أولاً دون أعمالها والإسكندرية ثم قتل المعتز بابكياك وصارت مصر في إقطاع يارجوخ الترك وكان بينه وبين أحمد بن طولون مودة متأكدة فكتب إليه واستخلفه على مصر جميعها ورسخت قدمه فيها وأصارها تراثاً لبنيه فكانت لهم فيها

(١) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٣٥.

(٢) طولون: بضم الطاء المهملة وسكون الواو وضم اللام (وسكون الواو) وبعدها نون وهو اسم تركي - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٧٤. وقارن المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٣١٣.

(٣) ابن خلكان: وفيات، ج ١، ص ١٧٣ - ١٧٤، ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٣٥، ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ٢٩٧، السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٩٤.

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٩٤ - ٩٥٩.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ٢٩٧، ستقلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ٨١ وأحمد أمين: ظهر الإسلام ج ١، ص ٤٥ - ٤٦.

(٦) ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٢٩٥، ج ٤، ص ٢٩٨.

واستخدمهم في عسكرها»^(١).

وقد أكثر أحمد بن طولون من استخدام المماليك الترك لتدعيم سلطانه لأنه كان قد فقد ثقته بالعرب كما فقد ثقته بالفرس الذين أقاموا الدولة العباسية ففكر في استخدام هؤلاء ليحمي نفسه ويكون منهم جيشاً قوياً فصار على نهجه الإخشيدون والفاطيون من بعده وقد وصل عددهم إلى أكثر من أربعة وعشرين ألف غلام من الأتراك وأربعين ألفاً من السود^(٢).

وعن استخدامهم للسود، أشاد الحسن بن عبد الله بمعاملة ابن طولون لهؤلاء السود، فذكر أنه أحسن إليهم وأنفق عليهم وبني لهم المساكن والجامع وكان «يزوجهم ويكسوهم ويعتق أولادهم»^(٣).

ولقد برع ابن طولون في استغلال الفرصة التي واثته إلى اعتلاء السلطة في مصر عندما خرج عيسى بن الشيخ بن السليل الشيباني عامل فلسطين والأردن على الخلافة واستولى على دمشق، وقطع الخراج عن الخليفة، واستولى على أموال مصر التي ترسل إلى الخلافة، وقد استنجد المعتمد بابن طولون لتخليصه من هذا الخارج على الخلافة، فوجدها ابن طولون فرصة للإكثار من ممالিকে وتقوية جيشه بطريقة شرعية فاستكثر منهم تحت سمع وبصر الخليفة، وكانت له سياسة مرسومة للسيطرة على تلك الطوائف والتعامل معها، فالتفت حوله هؤلاء المماليك وأدانوا له بالطاعة والولاء^(٤)، ولما كثر عدد الجند من السودان والروم والترك في جيش ابن طولون

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٤٢٨.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٣٥، ابن إياس: بدائع الزهور، القاهرة ١٩٧٥، جـ ١، ق ١، ص ١٦٢، عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي، ص ١٤، علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٨.

(٣) الحسن بن عبد الله: آثار الأول، ص ١١٨ - ١١٩.

(٤) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، دمشق ١٣٥٨م، ص ٤٧ - ٤٩.

بنى لهم مدينة القطائع^(١) وعندما شكوا أهل مصر لابن طولون أن هؤلاء الجند كثروا بحيث أن المسجد الجامع يوم الجمعة يضيق بهم، أمر ببناء المسجد الجامع بجبل يشكر^(٢).

واستمر ابن طولون أميراً بمصر إلى أن مات بها سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م وخلف من الأبناء سبعة عشر ومن المماليك عشرة آلاف ومن الغلمان ٢٤ ألفاً^(٣). ومن الموالى سبعة آلاف رجل^(٤).

وكانت مدة ولايته سبع عشرة سنة وظل مريضاً عشرة أشهر ولما شعر بنهايته بايع لابنه خمارويه من بعده، وكان للمماليك دور كبير في توليته فقد «اجتمع الأجناد وقتلوا ولده العباس الأكبر وولوا خمارويه فاستقل بالأمر»^(٥).

وقيل أنه ذبح في فراشه على يد مماليكه، وولوا بعده ابنه جيش فأقام تسعة أشهر ثم قتلوه ونهبوا داره ثم أقاموا هارون بن خمارويه الذي قتل على يد عمه شيبان وعدى ابني أحمد بن طولون، ثم ولى عمه أبو المغتم شيبان والذي خلع من قبل المكتفي بعد أن بعث بالوالي محمد بن سليمان الوثاقي لاستلام ولاية مصر وانقضت الدولة الطولونية.

(١) المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٣٢٠.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ ١، ص ٥٩٥، الإسحاقى: لطائف الأول، ص ١٥٥.

(٣) النويري: نهاية الأرب، القاهرة ١٩٩٢، جـ ٢٨، ص ٢١، ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١١، ق/١، ص ١٦٤.

(٤) المسعودي: مروج الذهب، جـ ٣، ص ٢١٠.

(٥) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٢٢.

المماليك في الدولة الإخشيدية:

وبعد زوال الدولة الطولونية تأسست الدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ) / ٩٣٥/٩٦٩م^(١) وقد كون مؤسسها محمد بن طغج بن جف^(٢) جيشه من الأتراك والديلم حتى بلغت عدتهم بمصر والشام أربعمئة ألف جندي بالإضافة إلى حرسه الخاص الذي بلغ ثمانية آلاف مملوك^(٣)، وكان «يحرسه في كل ليلة منهم ألفا مملوك»^(٤).

وكانت مصر في العصر الإخشيدي من أعظم أسواق الرقيق الأسود، كان يأتيها العبيد من الجنوب كما كان يصلها الرقيق الأبيض من بيزنطة وأرمينية وثغور البحر المتوسط^(٥).

وكان الإخشيد يمتلك عددًا كبيرًا من المماليك والغلمان والأتباع، تألق منهم بعض الأسماء مثل بدر الكبير وشادن الصقلبي ومنجج الصقلبي وكافور الأسود وفاتك

(١) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٨.

(٢) هو محمد بن طغج بن جف بن يلتكين بن فوران الأمير أبو بكر الفرغاني التركي ولد ببغداد وولى إمارة مصر بعد خروج تكين منها ٣٢١هـ من قبل القاهرة بالله. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ والقرماني أخبار الدول وآثار الأول، ص ٢٦٤ ولم يدخلها في ولايته الأولى ودخلها في ولايته الثانية من قبل الراضي بعد عزل الأمير أحمد بن كيغلف عنها. النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص ٤٨ - ٤٩، ابن تغري بردي: النجوم ج٣ / ص ٢٥١ والإخشيد معناها ملك الملوك وكان شجاعًا حازمًا وله هيبه في قلوب رعيته مع حب واحترام ووقار - ابن تغري بردي: النجوم: ج٣، ص ٢٥٦ وقد رسم له الخليفة الراضي بزيادة لقب الإخشيد تكريمًا له. نفسه، ص ٢٥٢.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٣٥، عطية مصطفى مشرفه نظم الحكم بمصر، ص ١٧٠، سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٢، علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك، ص ٢٩.

(٤) النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص ٤٩، ابن تغري بردي: النجوم، ج٣، ص ٢٥٦ والقرماني: أخبار الدول، ص ٢٦٤.

(٥) سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ٢١٤ ومنتز: الحضارة الإسلامية ج١، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

الرومي وبشرى وغيرهم كما امتلأ قصره بالجواري^(١).

ومما يدل على كثرتهم في ذلك الوقت عتق محمد بن علي الماذرائي^(٢) مائة ألف مملوك، ومما يدل على كثرتهم كذلك امتلاك الوزير لهذا العدد الذي أعتقه غير من بقي ولم يعتق فكم كان عدد ممالك هذا الوزير؟!^(٣).

وكانت هناك أعداد ضخمة من العبيد الآباقي^(٤) (وهم الذين كانوا يعملون في فلاحه الأرض)، كما كان السود يستخدمون في وادي علاقي وعيذاب في الصحراء الشرقية للعمل في المناجم والبحث عن الذهب، وقد استخدموا ذكورا وإناثا أيضا في مناجم النحاس في الصحراء^(٥).

وبالمقارنة بأعدادهم في عهد الطولونيين الذي ذكرت المراجع أنه ٤٠ ألفا بعددهم في عهد الإخشيديين (أربعة آلاف) سيتضح أن الانخفاض الكبير في استخدام هؤلاء السود إما للتدهور الاقتصادي الذي حل بمصر في عصر كافور^(٦) أو تسريح

(١) سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ١٦٣.

(٢) أسرة الماذرائيين نزح كثير من أفرادها إلى مصر وتقلدوا المناصب الإدارية والمالية الكبرى عدة سنين حتى تغلب عليهم محمد بن طغج وقلص نفوذهم. انظر عبد الرحمن زكي: الجيش المصري ص ٢٢.

(٣) سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ٢١٤.

(٤) نفسه ص ٢١٥.

(٥) لبببة إبراهيم: الرقيق وتجارته، ص ١١٦.

(٦) هو الأستاذ أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيد الخادم الأسود الخصي جلب إلى مصر ٣١٢هـ وعمره أربع عشرة سنة وبيع باثنى عشر ديناراً، اشتراه سيده الإخشيد بثمانية عشر ديناراً من مصر ورباه وقربه وأعتقه ثم رقيه فأصبح من كبار قواده، ولما مات الإخشيد، أقام كافور ابني الإخشيد الواحد بعد الآخر ثم استقل بأمور مصر بعد وفاتهما .. وكان يدنى الشعراء وتقرأ عنده كل ليلة السير وأخبار الدول. وكان له حجاب يمتنع عن الأمراء وكان كريماً ذكياً استطاع أن يجمع رضا المعز صاحب المغرب وبني العباس في العراق ويخضعهم جميعاً. وكان وزيره أبو الفضل جعفر بن الفرات مهتماً بالأدب والعلم وقيل أن بلاطه احتوى ألفاً وسبعون من الغلمان والترك والفين من الروم غير المولدين والسودانيين وكان مجموعهم أربعة آلاف غلام، وكانت له الجواري المغنيات. وقد توفي ٣٥٧هـ وكانت امرته على مصر اثنتين وعشرين سنة واستقل بالملك سنتان وأربعة أشهر. وقد مدحه الشعراء ومنهم المتنبي، ثم غضب عليه كافور =

أعداد كبيرة منهم أو قتل أعداد كبيرة على يد محمد بن سليمان عقاباً لهم لوقوفهم بجانب الدولة الطولونية^(١).

ويبرز دور المماليك في العصر الإخشيدى من واقع أنهم سيطروا على مقاليد الحكم وأثاروا الاضطراب والشغب بعد تغلبهم على الوزير أبي الفضل و «طلبه الأتراك والإخشيديّة بما لا قدرة له به من المال .. واضطرب التدبير على جعفر بن الفضل ونهبت داره ودور جماعة من حاشيته فكتب جماعة من القواد من مصر إلى المعز في المغرب يستدعون منه إنفاذ العسكر»^(٢).

= فجهاه ورحل عنه (مخطوط شرح اللمعة: مجهول ص ٢، النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٥٤ - ٦٠، ابن تغرى بردي جـ / ٤، النجوم الزاهرة، ص ١، ٦، ١٠ سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ١٦٥ - ١٦٧.

(١) سوزي أباطة: السودانين في جيش مصر، ص ٧٠.

(٢) مجهول: مخطوط شرح اللمعة من أخبار المعز، ص ٣.

الفصل الثاني

الفصل الثاني

دور المماليك السياسي في العصر الفاطمي

١- استخدام الفاطميين للمماليك:

- عناصر المماليك
- الصقالبة - الأتراك - السودان
- الصراع بين طوائف المماليك
- أهم الشخصيات المملوكية في العصر الفاطمي
- جوهر الصقلي
- برجوان الصقلي
- بدر الجمالي
- يانس الأرمني
- بهرام الأرمني
- جوهر مؤتمن الخلافة

الفصل الثاني

دور المماليك السياسي في العصر الفاطمي

استخدم المماليك في مصر قبل العصر الفاطمي، فقد جلبوا إلى مصر وعاشوا فيها، وحصلوا على حرياتهم، وسمح لهم بالانضمام إلى الجيش، وتمكن بعضهم من الوصول إلى مراكز مرموقة في خدمة الدولة.

ويمكن القول أن هؤلاء المماليك قد امتزجوا بالمجتمع المصري في ذلك الوقت، لكنهم ظلوا يحتفظون بسماتهم الخاصة التي ميزتهم عن بقية ذلك المجتمع.

وبنهاية العصر الإخشيدي ودخول الفاطميين مصر في سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م، أعتمدوا أول أمرهم على المغاربة الذين كانوا عماد الجيش ورجال الدولة.

وقد اهتم الفاطميون بالقبائل المغربية القادمة معهم من شمال إفريقيا ومنحوهم الثقة، واستعملوهم في الوظائف العليا في الدولة، فاستفحل أمرهم حتى طغوا على سلطات الخلفاء الفاطميين، الذين بدأوا يستشعرون خطرهم. ومن ثم كان تفكيرهم في استبدال العناصر المغربية بعناصر أخرى كالصقالبة والأتراك والسودان، مما أشعل نار الصراع بين هؤلاء جميعاً.

ظهر ذلك واضحاً في تكوين الجيش الفاطمي، فيقول القلقشندي: «إن الفاطميين قد استخدموا إلى جانب المغاربة الأتراك والأكراد والغز والديلم أو من المستصنعين كالروم والفرنج والصقالبة أو من السودان من عبيد الشراء أو العتقاء وغيرهم من الطوائف ولكل طائفة منهم قواد ومقدمون يحكمون عليهم»^(١).

كذلك اتخذ الوزراء قوات خاصة بهم ضمنوا ولاءهم، فاستخدموهم لتحقيق مآربهم الخاصة وكان ذلك من أهم العوامل التي أسهمت في ضعف سلطة الخلفاء واستبداد الوزراء وأمراء الجيش^(٢).

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٤٧٨.

(٢) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، بيروت ١٩٨٦، ص ٨٤.

بدأت العناصر المملوكية تزداد في الدولة الفاطمية ويتعاظم دورهم في خدمة الخلفاء. ويخبرنا القلقشندي أن الخلفاء كانوا يحرصون على اصطفاء ما يحلو لهم من السبي^(١).

وكان يؤتى بهؤلاء الأسرى فتتضم النساء إلى حريم القصر ويلحق الصبيان بحرسه الخاص أو يعهد إلى الأستاذين بتربيتهم^(٢).

وازدادت أعداد العبيد والأرقاء في الدولة الفاطمية حتى خصصت لهم حارات خاصة لسكنائهم، وازداد تواجدهم أيضًا في قصور الخلافة، فيؤكد ابن الطوير مدى اهتمام الخلفاء بهم، وكيف أولوهم رعايتهم الخاصة^(٣).

ولم يقتصر شراء المماليك واقتناء العبيد على الخلفاء، بل اشترك في ذلك بعض الأسر المصرية الذين تشبهوا بحكامهم، فادخلوا العبيد في خدمتهم^(٤).

ويبدو أن الإشراف على هؤلاء المماليك قد آل إلى قاض مختص ويمثل ذلك إشرافه على الدواوين والخزائن، فيذكر ابن ميسر في حوادث ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م أن «فيها أعيد نظر الدواوين والآتراك والخزائن للقاضي الموفق أبي الكرم محمد بن معصوم التنيسي في جمادى الأولى»^(٥).

ويذكر ابن واصل أنه عندما جاء إلى مصر كان بها أنواع مختلفة من الأجناد «عدهم كثير وسوادهم كبير وأموالهم واسعة وكلمتهم جامعة .. وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف رجل، كلهم أغتام أعجام، إن هم إلا كالأنعام، لا يعرفون ربًا إلا ساكن قصره، ولا قبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه (وامتثال أمره)»^(٦).

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٥٢٣ - ٥٢٤.

(٢) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٥٧.

(٣) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري في العصر الفاطمي، القاهرة ١٩٨٥، ص ٣٢.

(٤) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٨١، ص ١٣٦.

(٥) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣، جـ ٢، ص ٢٦.

استخدام الفاطميين للمماليك:

كان دخول الفاطميين إلى مصر مرحلة تحول تاريخي وحضاري شهدته البلاد، فقد أصبحت كياناً سياسياً مستقلاً عن الخلافة العباسية السنية، وأصبح ذلك الكيان يشكل القطب الثاني في القوى الإسلامية في ذلك الوقت^(١).

ومن الجدير بالملاحظة أن الفاطميين قد اعتمدوا في بداية أمرهم على القبائل العربية المغربية الذين كان لهم الفضل في قيام دولتهم في المغرب، وقد استمر دورهم حتى نهاية القرن الثالث الهجري^(٢) حيث أعلنت الخلافة الفاطمية في المغرب (٢٩٧هـ / ٩٠٨م). ومن ذلك الحين تطلع الفاطميون إلى مصر لتكون قاعدة انطلاق لدعوتهم، لكن هذا لم يتحقق إلا في خلافة المعز لدين الله الذي كان يرى أن المتملك لمصر يستطيع أن يسيطر على الأراضي المقدسة الإسلامية وبالتالي ينال زعامة العالم الإسلامي^(٣).

وتطلع الفاطميون إلى مصر باعتبار أن موقعها المتميز في قلب الدولة الإسلامية يسهل الاتصال ببقية البلدان الخاضعة لسلطان الفاطميين وبالتالي تحقيق أهدافهم استراتيجياً وسياسياً ومعنوياً^(٤).

وكان المعز يطمح إلى تحقيق ذلك الهدف وبدأ بالفعل في اتخاذ الخطوات العملية لذلك، فأرسل دعائه إلى كافور الإخشيدي يدعو به إلى الاعتراف بالسيادة الفاطمية، واستطاع الدعاة أن يقنعوا كبار رجال الدولة والقادة فيها إلى

(١) فتحية النبرواي: العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية، القاهرة ١٩٨٢ ص ٣٢.

(٢) عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٩١، ص ٢٧٥. وأنظر أيضاً Yaccov Lev. State and society in Fatimid Egypt V.1 P.84

(٣) المقرئزي: الخطط، ج٢، ص ٣٥٧: ٣٥٨، أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، القاهرة ١٩٩٢، ص ٥٣: ٥٥، محمد جمال سرور: الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٦٥، ص ٦١، عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية، ص ٩٣.

(٤) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص ٧٤: ٧٥، عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية، ص ٩٤.

مناصرة المعز وإعلان البيعة له^(١).

وقد كانت الأرض ممهدة لإرساء قواعد تلك الدعوة الجديدة كما كانت الأجواء صالحة في مصر لنجاح أي غزو يأتي إليها^(٢).

لقد عانت مصر من الضعف السياسي والتفكك الإداري، ودليلنا على ذلك انفراد الوزير جعفر ابن الفرات بالسلطة بعد وفاة الإخشيد في ظل حكم طفل لم يبلغ الحادية عشرة من عمره، بالإضافة إلى تدمير الأجناد ومطالبتهم بأرزاقهم^(٣).

في هذا المناخ، عمت الشدة مصر فزاد من صعوبة حالها وتدهور اقتصادها، الأمر الذي وصفه الأنطاكي في تاريخه فقال:

«أفرطت الشدة في سنة سبع وثمان وخمسين وهلك الضعيف من الناس، وأكلوا الميتة والجيفة وكانوا يسقطون موتى من الجوع، وزاد الوباء وكثر الموتى ولم يلحق دفنهم وكان يحفر حفراً وينزل فيها عدة كثيرة ويردم عليهم التراب من غير صلاة ولا غسل ولا كفن»^(٤).

هذا إلى جانب ما عانتها البلاد من غارات القرامطة المتكررة والتي هددت البلاد^(٥).

فلما توفي كافور، انقسم القواد وعلم المعز بذلك فجهز جيشه، فلما علمت العساكر الإخشيدية هربوا وتركوا الساحة خالية قبل وصول جوهر القائد^(٦)، وما لبث

(١) محمد جمال سرور: الدولة الفاطمية، ص ٦٥، عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر، القاهرة ١٩٤٨ ص ٥٦ - ٥٧.

(٢) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٩٤ - ١٩٥.

(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، تحقيق شيخو، بيروت ١٩٠٩، جـ ١، ص ٨١١ - ٨١٣، مجهول: مخطوط شرح اللمعة من أخبار المعز، ص ٣، السيوطي: حسن المحاضرة، جـ ١، ص ٥٩٩.

(٤) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، جـ ١، ص ٨١٣.

(٥) العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٥٩.

(٦) ابن الوردي: تنمة المختصر، بيروت ١٩٦٩، جـ ١، ص ٤٠٨، السيوطي: حسن المحاضرة، جـ ١، ص ٥٩٩.

أن أرسل الدعاة للمعز بالحضور مشيرين إلى أن الثمرة قد نضجت وحن قطافها.
وفي سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م، دخل أبو الحسين جوهر القائد الرومي في جيش
كثيف إلى الديار المصرية وأقام الخطبة للمعز على المنابر وأمر المؤذنين أن يؤذّنوا
بحي على خير العمل وشرع في بناء القاهرة^(١). ودخلها دون قتال أو حرب وأعطى
الأمان لأهلها وخرج إليه وجوه مصر فأحسن لقاءهم^(٢).

وقبض جوهر على فلول الإخشيدية والكافورية وحبسهم^(٣)، ثم توجه المعز من
المغرب قاصداً مصر فوصلها سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٢م وقوبل بحفاوة بالغة من
المصريين ومن قائده جوهر الذي بنى له القاهرة فجعلها دار ملكه وأطلق جميع
الإخشيدية والكافورية الذين اعتقلهم جوهر من قبل^(٤). وقد أصبح هؤلاء محايدين
تجاه الفاطميين بل إنهم استغلوا كجنود وقت الحاجة بعد أن جردوا من أملكهم
وأسلحتهم وأصبح من الممكن الاستفادة منهم جنوداً مرتزقة في خدمة الفاطميين^(٥).

وكان الفاطميون في حاجة إلى جيش يستطيع خوض تلك التجارب التي غيرت
موازين القوى في تلك المنطقة، وقد كانت قواتهم العسكرية تتألف أولاً من مغاربة
كتامة^(٦). وهم من القيروان وكان انتقالهم مع الخليفة إلى مصر شيئاً طبيعياً وكان
تعدادهم حين أتوا مع المعز حوالي ٢٠ ألف فارس ومن قبائل زويلة والباتليين الذين
قدموا قبل دخول المعز إلى مصر ثم المصامدة وبلغ عددهم عشرين ألف رجل، هذا

(١) ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٧، ص ٤٧، ابن الوردي: نعمة المختصر، جـ ١، ص ٤٠٨، ابن كثير:

البداية والنهاية، جـ ١١، ص ٢٦٦، الدميري: حياة الحيوان، ص ٨٥.

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، جـ ١، ص ٨١٨ : ٨٢٠، بيبرس الدوادار: مخطوط زبدة
الفكرة، جـ ١، ص ٢٠٠.

(٣) الأنطاكي: تاريخه، جـ ٢، ص ٣٥٢.

(٤) الأنطاكي: تاريخه، جـ ٢، ص ٣٥٢، ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٣، ص ٦٠، والمقريزي: اتعاظ
الحنفاء، جـ ١، ص ١٣٤ : ١٣٦، السيوطي: حسن المحاضرة، جـ ١، ص ٦٠٠.

(٥) Yaacov Lev, Arab history and civilization. State and society V.1 P.84.

(٦) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٣٥، علي إبراهيم حسن: تاريخ الممالك البحرية،
ص ٢٩.

بالإضافة إلى من جاء معهم من قبائل لواته والباطلية والجودرية والبرقية وهوارة وصنهاجة ودينهاج^(١).

وقد تباينت أعداد هؤلاء الممالك واختلفت أنواعهم وزاد تأثيرهم طوال العصر الفاطمي تبعاً للظروف السياسية التي أحاطت بكل خليفة من الخلفاء الفاطميين وزاومت فترة حكمه فترة تزيد أعداد الصقالبة ويصبح لهم دور مؤثر وأحياناً يزيد عدد الأتراك وتزيد سطوتهم بصورة كبيرة ثم نرى السودان وقد ارتفعت أسهمهم وزاد تعديهم وسطوتهم بصورة أكبر من تلك التي وصل إليها الأتراك ونراهم تمكنوا في البلاد وتأرجح هذا التباين وذلك التأثير من عصر إلى عصر ومن فترة زمنية إلى أخرى حسب المتغيرات التي تفرضها ظروف كل فترة من تلك الفترات. ولكننا نستطيع القول أن هؤلاء الممالك قد حظوا بمكانة رفيعة لدى معظم الخلفاء الفاطميين.

فعندما استقرت أحوال الخلافة الفاطمية في مصر، رأى بعض الخلفاء استخدام عناصر جديدة، ربما كان ذلك خوفاً من استبداد البربر عند محاولة انفصال المغرب عنهم، فشرع المعز عند مجيئه إلى مصر في وضع نواة نظام استخدام الممالك حتى يضمن ولائهم له فبدأ بالصغار من أولاد الناس المشتريين من سبي الفرنجة فرتب لهم في قصره حجراً وعرفوا بصبيان الحجر^(٢). وقد ذكر القاضي النعمان أن المعز لدين الله كان يعامل الرقيق معاملة حسنة ويساويهم في كثير من الأحيان في بعض الحقوق بالأحرار وخاصة المناصرين منهم للمذهب الشيعي^(٣). كما أنه استكثر من الصقالبة والسودان والأتراك^(٤).

(١) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص ٧٢ - ٧٣.

(٢) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٥٧، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٨١، المقرئزي:

الخطط، ج ١، ص ٤٤٣ - ٤٤٤، عبدالرحمن زكي: الجيش المصري، ص ٢٧.

(٣) القاضي النعمان أبي حنيفة: مخطوط المجالس والمسائرات رقم ٢٦٠٦٠ أنظر هامش (١) ص

١٠٠، ج ٢، ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٧٥، ج ١، ق ١، ص ١٩١.

وقد استشعر المعز لدين الله أهمية دخول الأتراك في خدمة الدولة الفاطمية في مصر، حيث ذكر المقرئزي عن جوهر الصقلي أنه قال: «لما خرجت إلى مصر وأنفذت إلى مولانا المعز من أسرته ثم حصل في يدي آخرون اعتقلتهم، وهم نيف على ثلثمائة أسير من مذكوريهم والمعروفين فيهم، فلما ورد مولانا المعز إلى مصر أعلمته بهم، فقال: اعرضهم علي واذكر في كل واحد حاله.. ففعلت، وكان في يده كتاب مجلد يقرأ فيه، فجعلت آخذ الرجل من يد الصقالبة وأقدمه إليه وأقول: هذا فلان ومن حاله، وحاله فيرفع رأسه وينظر إليه ويقول: «يجوز» ويعود إلى قراءة ما في الكتاب حتى أحضرت له الجماعة وكان آخرهم غلاماً تركياً، فنظر إليه وتأمله، ولما ولي أتبعه بصره .. فلما لم يبق أحد قبلت الأرض وقلت: يا مولانا رأيتك فعلت لما رأيت هذا التركي ما لم تفعله مع من تقدمه .. فقال: يا جوهر يكون عندك مكتوما حتى ترى أنه يكون لبعض ولدنا غلام من هذا الجنس تتفق له فتوحات عظيمة في بلاد كثيرة، ويرزقه الله على يده ما لم يرزقه أحد منا مع غيره»^(١).

وكان العزيز بالله أول من استعان بالأتراك واصطنعهم وأولاهم ثقته فولاهم المناصب الرفيعة في دولته^(٢).

كما أنه سار على نهج والده في تمييز الصقالبة فجعل لهم الحارات الخاصة بهم لسكناهم وأطلق أسماؤهم على أحد الشوارع الفاطمية في القاهرة وهو الشارع الذي كان يمتد بين حارة زويلة وخان أبو طاقية^(٣).

وقد تولى الصقالبة وظائف النظر في المظالم مما يدل على دخول هذه العناصر في الإسلام^(٤)، وكان لتفضيل العزيز للترك والصقالبة أثر كبير في ظهور الحسد

(١) المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٣٧٨.

(٢) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٢٠٦ وأنظر أيضاً: عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم، ص ٦٣، عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٧٢، وجمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، جـ ٢، ص ١٣، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، جـ ٥ ص ١١٤.

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٦٨.

(٤) سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة، ص ١٦٧.

بينهم وبين المغاربة^(١).

ولما تولى الحاكم بأمر الله الخلافة (٣٨٦-٤١١ هـ / ٩٩٦-١٠٢٠ م)، وكان صغير السن إذ لم يكن يتجاوز الحادية عشرة من عمره، تولى تدبير أمور مصر في عهده برجوان الصقلي^(٢)، واتسم عهده باستخدامه لمختلف أنواع المماليك، فيذكر المقرئ أنه في ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م «قرئ عدة أمانات بالقصر للكتاميين من جند إفريقية والأتراك والقضاة والخدام السود والخدام الصقالبة لكل طائفة أمان»^(٣)

كما أكد ابن إياس على تنوع عسكر الحاكم فقال: «عسكر الحاكم ما بين ديلم ومصامدة وصقالبة وروم وعبيد وزنج»^(٤)

وقد كان الناس في عهد الحاكم يزدهمون في سوق الرقيق للفرجة، وخاصة على الإماء وليس للشراء، فأصدر الحاكم قراراً بتخصيص يوم لبيع الجواري ويوم لبيع الغلمان، ووضع شروطاً للذهاب إلى هذه الأسواق فمن يذهب إليها إما أن يكون بائعاً أو مشترياً^(٥)، كما شدد على النخاسين ومنعهم من بيع العبيد والإماء لأهل الذمة^(٦).

وفي عهد أبو الحسن الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧ هـ / ١٠٢٠-١٠٣٥ م) قوى نفوذ الأتراك وملكوا زمام الأمور، إلا أن أمر السودانيين كان أكثر ظهوراً في عهد هذا الخليفة لأنه كان قد تزوج سودانية كانت أمه لدى أبي سعيد التستري اليهودي فاشتراها وتزوجها^(٧).

ساندت هذه المرأة أبناء بلديتها من السودانيين وقوت من شوكتهم حتى أنهم

(١) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، جـ ٥، ص ١١٤.

(٢) أنظر ترجمته في نهاية الفصل في أهم الشخصيات المملوكية.

(٣) المقرئ: اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٨٢.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ٢١٠.

(٥) المقرئ: اتعاظ، جـ ٢، ص ٧٦، عبد المنعم سلطان: المجتمع لمصري، ص ٨٥ - ٨٦.

(٦) المقرئ: اتعاظ، جـ ٢، ص ٥٣.

(٧) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٢٢٦.

هاجموا قصر الخليفة عندما تعرضت البلاد للمجاعة^(١).

واستمر نفوذ السودانيين في عهد المستنصر بالله معد أبي تميم (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) حيث كثرت أعدادهم بتأثير من أمه السودانية حتى بلغ عددهم أكثر من خمسين ألفاً^(٢)، ومن الملاحظ أن لفظ مملوك لم يطلق على السود بل كانوا يلقبون دائماً بالعبيد أو الخدم وكان نصفهم من الزنوج والنصف الآخر من عبيد «الشري» ، وكان تجار الرقيق يسرقون أبناء البجة لبيعهم إلى الفاطميين ولكثرة أعدادهم عرف المستنصر في عصره باسم صاحب السودان^(٣).

ويذكر ناصر خسرو الرحالة الذي زار مصر في تلك الفترة أن «الرقيق في مصر إما نوب (أو نوبيون) وإما روم»^(٤).

وقد ظل هذا العنصر يحتفظ بقوته وسيطرته حتى آخر عهد الدولة الفاطمية^(٥). وذكر ناصر خسرو أن بقصر الخليفة اثني عشر ألف خادم غير الجواري والنساء فبلغ مجموع من في القصر ثلاثين ألف آدمي^(٦).

وفي عهده زاد عدد الأتراك وقامت المنازعات بينهم وبين السودانيين وكانت المغاربة تساند فريق الأتراك فهزموا السودانيين برغم مساعدة أم المستنصر لهم وهجموا على الصعيد براً وبحراً لطردهم السودانيين^(٧)، مما اضطر المستنصر إلى

(١) المسجي: أخبار مصر، ص ٢٠٨ : ٢١٠، ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، القاهرة ١٩٦٨، ص ٣٧٢.

(٢) المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٣٣٥ - ٣٣٦، جمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامي، القاهرة ١٩٦٣، جـ ٢، ص ١٣.

(٣) ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٧٣.

(٤) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ٩٦.

(٥) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٦٩.

(٦) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٧) ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٧٧ : ٧٨، ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠ ص ٨٢، وابن القلاسي، ذيل، ص ٩٤، المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٣٣٥ - ٣٣٦.

استدعاء والي عكا بدر الجمالي الأرمني الأصل، فقدم في ٤٦٦هـ — / ١٠٧٤م^(١)، لإتقاذ البلاد من الاضطرابات التي أثارها الأتراك، فاشترط عليه عند قدومه أن يجيء ومعه عسكره فأجابه المستنصر إلى ذلك فجاء من عكا في مائة مركب ونزل دمياط ودخل القاهرة وما لبث أن أوصى كل أمير من أمرائه بقتل قائد من قواد الدولة والإتيان برأسه^(٢).

ويبدو أنه، بقضاء بدر الجمالي على هؤلاء القادة، لم تقم لهم قائمة في عهدي المستعلي والامر، فقد كان الأفضل بن بدر الجمالي مسيطراً على مقاليد الأمور هو ومن معه من الأرمن ولم يكن لهذين الخليفتين حول ولا قوة^(٣).

إلا أن الأتراك استعادوا بعضاً من نفوذهم في عهد الحافظ (٥٤٠-٥٤٤هـ — / ١١٤٥-١١٤٩م) حتى أنه أعيد النظر في أمورهم للقاضي الموفق أبي الكرم محمد بن معصوم التنيسي^(٤).

وثمة دور ظهر للسودان في عهده أيضاً سنوضحه تفصيلاً فيما بعد.

وفي عهد الظافر (٥٤٤-٥٤٩هـ — / ١١٤٩-١١٥٤م) تمتع الأتراك بنفوذ قوى مستمد من قوة الوزير العادل بن السلار الذي اصطنعهم ثم ما لبث أن تقلص دورهم حتى وصول القوات النورية بقيادة أسد الدين شيركوه^(٥) كما وجد السودانيون أيضاً في عهده^(٦).

ثم تولى الفائز عيسى أبو القاسم (٥٤٩-٥٥٥هـ — / ١١٥٤-١١٦٠م) وذكر

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٢، ص ٢٦.

(٢) المقرئزي: الخطط جـ ٢ ص ٣٠٦.

(٣) الذهبي: العبر في خبر من غير، تحقيق أبو هاجر، بيروت ١٩٨٥، جـ ٢، ص ٤٠٥، الحنبلي:

شذارات الذهب، بيروت ١٩٧٩، جـ ٤، ص ٤٧.

(٤) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ١٣٦.

(٥) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص ٨١، ٨٠.

(٦) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٤٩.

المقريري أن عدد الجند السودانيين في عهده بلغ أربعين ألف فارس وثلاثين ألف راجل^(١).

أما عهد العاضد لدين الله (٥٥٥هـ - ٥٦٧هـ / ١١٦٠-١١٧١م) فقد تميز بتوافر عنصر السودانيين الذين لعبوا دوراً خطيراً في التعجيل بسقوط الدولة الفاطمية حتى أفناهم صلاح الدين^(٢).

وكان العاضد يؤثر مماليكه ويطلق عليهم «العساكر المنصورة»، وقد أوصى بهم أسد الدين شيركوه في الوثيقة الخاصة بتقليده الوزارة قائلاً: «والعساكر المنصورة هم الذين غزوا بولاء أمير المؤمنين ونعمه وربوا في حجور فضله وكرمه واجتاحهم من لم يحسن لهم النظر واستباحهم بأيدي من أضرّ لمّا أصر وطالما شهدوا المواقف ففرجوها واصطلوا المخاوف - تولجوها، وقارعوا الكفار مسارعين للأعنة مقدمين مع الأسنة مجرين إلى غايتين إما إلى النصر وإما إلى الجنة، ودبروا الولايات فسدّدوا وتقلّدوا الأعمال فيما تقلّدوا، واعتمد أحمرهم وأسودهم وأقربهم وابعدهم وفارسهم وراجلهم ورامدّهم ونابلهم بتوفير الإقطاع وإدراك النفقات وتصفية موارد العيش الموافقات وأحسن لهم السياسة التي تجعل أيديهم على الطاعة متفقة وعزائمهم في أعداد الدين مستبقة، وأجرهم على العادات في تقليد الولايات واستكفهم لما هم أهلّه من مهمات التصرفات، وميز أكابرهم تمييز الناظر بالحقائق، واستنهضهم في الجهاد، فهذا المضمار وأنت السابق^(٣).

(١) المقريري: الخطط، ج-٢، ص ١٣.

(٢) ابن أبيك: كنز الدرر، ج-٧، ص ٥٠.

(٣) جمال الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية (الوثيقة العشرون)، ص ٣٩٤ - ٣٩٥.

عناصر الممالك

الصقالبة - الأتراك - السودان

أولاً: الصقالبة:

اعتمد الفاطميون على الصقالبة^(١) كواحد من العناصر المملوكية، وقد عرف الجغرافيون العرب هذا النوع من الممالك باسم «الصقالبة»، وهم الشعوب التي كانت تأتي على الأراضي المجاورة لبلاد الخزر بين الدولة البيزنطية وأرض البلغار طلباً للاستقرار وفراراً من الحروب والمجاعة^(٢) وكان العرب يجلبون من بلادهم الرقيق^(٣).

وكان الجرمان يقومون بسبي هؤلاء وبيعهم لمسلمي إسبانيا الذين استكثروا منهم واستعملوهم في الخدمة في القصور والجيش^(٤).

وقد أطلق عليهم العرب مصطلح «صقلب» و«صقلبي» والكلمة معناها عبد أو رقيق^(٥)، وفي الفرنسية عرفت باسم Esclave وفي الجرمانية Slave وفي الإنجليزية Slave^(٦).

ثم أصبح اللفظ يطلق على الرقيق الأبيض جميعه. واستخدم المؤرخون المسلمون مصطلح «الصقالبة» بمعنى أرقاء السلاف والجرمان^(٧)، ونتيجة للحروب

(١) هم جماعة حمر الألوان صهب الشعور تجاور بلاد الخزر عند (بحر قزوين) وبعض بلاد الروم، وكانوا يصلون إلى مصر مع النخاسين تجار الرقيق. تكاثر عددهم في أيام الفاطميين حتى أصبحوا يكونون عنصراً هاماً من عناصر الجيش والحرس. أنظر: المقرئ: اتعاط جـ ٢، ص ١٢٨.

(٢) ابن فضلان: الرسالة (تحقيق سامي الدهان)، ص ٦٧.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، جـ ١٤، ص ٢٥٠.

(٤) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٧.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٥ - ٣٦.

(٦) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، جـ ٥، ص ٢٧.

(٧) نفسه ص ٢٧.

الدائرة بين القوى السياسية في عالم العصور الوسطى وخاصة بين الدولة البيزنطية ودولة البلغار زادت هجرة هؤلاء وكان ملاذهم الأخير إلى بلاد الأندلس، ومنها كانت هجرتهم إلى بلاد المغرب حيث تلقفهم الفاطميون واستخدموهم في جيوشهم وقد شاركوا في أجناد جوهر التي تحركت لفتح مصر^(١).

وتجدر الإشارة إلى أن الفاطميين قد استخدموا الصقالبة منذ نهاية القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي حيث راجت تجارة الرقيق من الصقالبة^(٢). واشتهر تجار اليهود بخصاء الصقالبة وبيعهم إلى العرب، يذكر ذلك ابن حوقل قائلاً وبالأندلس غير طراز يرد متاعه وربما حمل منه شيء إلى أقاصي خراسان وغيرها، ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان الروقة من سبي إفرنجة وجليقية والخدم الصقالبة وجميع من علي وجه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب الأندلس لأنهم عند قريتهم منها يخصون ويفعل ذلك بهم تجار اليهود^(٣).

وقد اتخذ هؤلاء التجار اليهود من فرنسا مركزاً لهذه التجارة الرابحة وصار لهم في مدينة فردان باللورين مصانع للخصاء فكانوا يخصون الأطفال الذين يتعرض الكثير منهم للموت خلال تلك العملية البشعة، وإن من ينجو منهم يباع للكبراء بأثمان باهظة، وكانوا من أئمن الهدايا التي تقدم للخلفاء كما هو الحال عندما أراد ملكا برشلونة وطرقونة التقرب من المستنصر خليفة الأندلس فقد أهدياه عشرين خصياً من الصبيان الصقالبة إلى جانب التحف والهدايا الأخرى^(٤). وقد برع التجار اليهود بهذه التجارة وأثروا منها ثراء كبيراً حتى فرضت عليهم الضرائب، فكان التاجر يدفع ضريبة على كل فرد من الرقيق المار بها. وللتحايل على ذلك، انتحى تجار الرقيق طريقاً آخر يبدأ من شرق أوروبا ماراً بتشيكوسلوفاكيا وبولونيا وروسيا

(١) سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة في مصر، ص ١٤٦ - ١٤٧.

(٢) سهام أبو زيد: المرجع السابق، ص ١٥٦.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ج ١، ص ١٠٩ - ١١٠.

(٤) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ٣٦ - ٣٧. وأنظر: جرجي زيدان: تاريخ التمدن،

والقسطنطينية، وكانت براغ في القرن العاشر الميلادي سوقاً للرقيق المتجه إلى البلاد الإسلامية وقد حمل بعض التجار جزءاً من هذا الرقيق من جنوب إسبانيا إلى مصر عبر بلاد المغرب ثم إلى الشام والعراق والخليج الفارسي إلى السند^(١).

واستخدم الصقالبة بكثرة في الدولة الإسلامية حتى أن خلفاء القرن الرابع كان غالبيتهم من أمهات صقلبيات، فقد قال ابن حوقل: «فأما ما يجهز من المغرب إلى المشرق فالمولدات الحسان الروقة كاللاتي استولدهن بنو العباس وغيرهم وأكابر رجالهم وولدن غير سلطان عظيم كسلامة البربرية أم أبي جعفر هارون الواثق بن المعتصم وقتول أم أبي منصور محمد القاهر بن المعتضد»^(٢). وكان الصقالبة دائماً موضع التفضيل والتميز على أنواع الرقيق الأخرى^(٣).

وكان التجار من اليهود يتوغلون في أوربا ويحملون الجواري السلافيات^(٤) والجرمانيات اللاتي عرفن في بلاد العرب باسم الصقلبيات وقد كانت لهن سوق لما تمتعن به من جمال بارع^(٥) ومن الطرق التجارية التي كان يمر بها الرقيق طريق البحر المتوسط، فكانت السفن تخرج من المدن الإيطالية في اتجاهين أحدهما يسير غرباً نحو أوربا والآخر يتجه شرقاً إلى مصر والشام والأناضول، وبواسطة هذا الطريق كان الرقيق الصقلبي ينقل عن طريق البندقية من ساحل دلماشيا متجهاً إلى

(١) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٧.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ج ١، ص ٩٧.

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٤ - ١٥.

(٤) السلاف يرجع أصلهم إلى الجنس الآري أو الهند أوروبي، وقد نزحوا من آسيا وتوسعوا نحو غرب أوربا أو جنوبها في القرن العاشر، وسرعان ما تأثروا بالحضارات المجاورة لهم واعتنقوا المسيحية ثم انقسموا إلى ثلاثة أقسام: أولها السلاف الجنوبيون أو اليوجوسلاف في الجنوب والوسط ويسمون البلغار والصرب والكروات والسلوفيين، وثانيها: السلاف الغربيون في بولندا وبعض ألمانيا وبوهيميا ومورافيا وسلوفاكيا، وتسمى العناصر التي تسكن هذه الجهات البولنديون والتشييك أو البوهيميون والسلوفاك، وثالثها السلاف الشرقيون أو الروس: أنظر: سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٥) جبور عبد النور: الجواري، ص ٢٦ - ٢٧.

الإسكندرية في مصر^(١).

استخدام الصقالبة في مصر:

ويبدو أن الصقالبة كانوا في مصر منذ عهد الدولة الإخشيدية، فقد كان للإخشيد عدد كبير من المماليك منهم شادن ومنجج الصقليين^(٢). ومن المحتمل أن يكونوا قد شاركوا في بعض الوظائف البسيطة، لكن الأمر قد اختلف في أيام الفاطميين إذ إنهم استخدموهم في وظائف الدولة الكبرى^(٣) في بلاد المغرب، وكذلك في المناصب الإدارية وأحياناً في قيادة الجنود الكتامية المغربية^(٤).

وقد كان الأستاذ جوذر أحد أهم الشخصيات الصقلية التي احتلت مكانة مرموقة عند الفاطميين في المغرب ولمدة أربعين عاماً، وقد لقب «بالأستاذ» ، وهو من العبيد الصقالبة الخصيان الذين كانوا في ولاية المهدي أول الخلفاء الفاطميين في أفريقيا، ثم عمل لدي القائم الذي أخلص له فوثق فيه واستخلفه على قصره وأهله عندما خرج بجيشه إلى المغرب، كذلك قربه المنصور واستخلفه على دار الملك وسائر البلاد واستأمنه على خزائن بيت المال نيابة عنه عند خروجه للمهمات وكانت له كذلك نفس المكانة لدى المعز الذي كان يحبه ويقدر ولاءه حتى أنه طلب من المعز المضي معه إلى القاهرة رغم أنه أصبح شيخاً كبيراً ضعيفاً ولكنه مات في الطريق قبل أن يصلها^(٥).

وقد جاءت فرقة صقلية قوامها أربعمائة صقلبي صحبة جوهر الصقلي عند مجيئه للاستيلاء على مصر، وقد اختطوا الحارة المعروفة باسم «درب الصقالبة» ، ولكن نفوذهم لم يتعد تنفيذ أوامر قائدهم جوهر ومساعدته، وظلوا كذلك طوال فترة

(١) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى، جـ ٢، ص ٩٦، ونعيم زكي: طرق التجارة، ص ١٧٨

(٢) سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين، ص ١٦٣.

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٦٨.

(٤) سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة، ص ١٥٩.

(٥) نفسه، ص ١٥٩ - ١٦٢.

إدارته لمصر وحتى مجيء المعز ٣٦٢هـ / ٩٧٢م^(١).

ومن الصقالبة الذين حضروا إلى مصر وكانوا سابقاً في خدمة الفاطميين سليمان الخادم ابن كافي وابنه مسرور وميسور الخصي وصافي ووصيف، وشفيع الذي أصبح حامل مظلة المعز، وريان وقيصر^(٢)، وطارق وربيع الصقلبي وخفيف الصقلبي، ونصير الصقلبي الذي استخلفه المعز على المهديّة، وأفلح بن ناشب الذي كان متولياً على برقة وكان يحبط أي ثورات من البربر ضد المعز، وكذلك مظفر الصقلبي الذي علم المعز الخط في صغره فكان بمثابة أستاذه ومعلمه^(٣).

ولكن يبدو أن هؤلاء الصقالبة، كعبيد أو ممالك، لم يرتقوا أبداً للمكانة التي كانت للكتاميين في عهد المعز حتى أنهم عاتبوه على تفضيله للكتاميين والحقيقة أن ذلك كان لما لهم من منزلة رفيعة عنده، فقد ناصرهم وأتوا معه من المغرب، فحرص على تقريبهم وكان دائم السؤال عنهم، ويحب وجودهم معه في المناسبات. نستطيع أن نتبين ذلك جلياً من نص بمخطوط المجالس والمسائرات للقاضي النعمان يذكر فيه أنه عند اقتراب عيد الأضحى: «سأل المعز عن مجيء كتامة من الأعمال لشهود العيد، قيل له هم يا أمير المؤمنين يتساريون وقد غص القصر بهم، فقال: بارك الله فيهم وكثر أعدادهم فما أسرني بهم وباحتفالهم وما أحب إلي أشخاصهم وأزين في عيني مناظرهم... فقال بعض العبيد الصقالبة فنحن يا أمير المؤمنين فما ترى أنا قصرنا وقد كان لنا من العناء والجهاد كمثّل ما كان لغيرنا فمن نازعنا ذلك فليعد مشاهدنا ووقائعنا ومقاماتنا ومن استشهد منا^(٤)».

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ قسم ١ ص ١٩١.

(٢) المقرئزي: اتعاظ، جـ ١ ص، وأنظر أيضاً: ١٠١.

Yaacov Lev, Arab history and civilization state and society V.1 P.74.

(٣) نفسه، ويذكر المقرئزي في نفس الصفحة أن المعز سمع المظفر يتكلم بكلمة صقلبية لم يفهم معناها فأخذ يعلم نفسه اللغات بدءاً بالبربرية ثم الرومية ثم السودانية ثم الصقلبية، فلما عرف تلك الكلمة حزت في نفسه فقام بقتله.

(٤) القاضي النعمان أبي حنيفة: مخطوط المجالس والمسائرات رقم ٢٦٠٦٠ جامعة القاهرة ص ٢.

ويتضح من ذلك أن هؤلاء الصقالبة كان لهم في مؤازرة المعز ومناصرتة أيضًا دور مشهود يرون أنه لا يقل عن دور الكتاميين ولكن رد المعز عليهم يبين أنه كان يعتبرهم في مرتبة أدنى من مرتبة كتامة حيث هم ممالك والكتاميون أحرار جاءوا لمناصرتة طائعين وكان لهم معه ومع أجداده من الإخلاص والوفاء ما جعل لهم تلك المنزلة الرفيعة لديه فقد قال لهم: «لا سواء بهم إنا ملكتكم ولم نملكهم بكم رأيتم لو تركت أنت وأمثالك في بلدانكم أكنتم تأتوننا قال: لا. قال: فهؤلاء أتونا طائعين وبذلوا لنا أنفسهم راغبين مضى على ذلك أسلافهم وثبت عليه أخلافهم للسلف منا وللخلف ترنا فقرنا وجيلًا فجيلًا، والله ما وفيت أمة من الأمم لنبي من الأنبياء ولا لإمام من الأئمة ولا لملك من ملوك الدنيا ولا وفي لها وفاءهم لنا ووفاءنا لهم ..» ثم استرضى الصقالبة قائلاً: «وليس سبقهم وفضلهم مما ينقص من جاء بعدهم من عبيدنا وأنصارنا»^(١).

وكان شفيع الصقلبي حامل مظلة المعز مقرباً منه لدرجة أنه كان يجلسه معه على المنبر مع القائد جوهر في جلوس الخليفة لصلاة عيد الفطر^(٢) وقد استخدمهم العامة في المنازل وزاد الطلب على استخدامهم^(٣).

وسار العزيز على نهج والده فاستكثر من هؤلاء الصقالبة وقربهم وولاهم أعلى المناصب والتي تستوجب ثقة الحاكم أو الخليفة^(٤).

«فإذا دخلت الدابة لركوب الخليفة وأسندت على الكرسي الذي يركب عليه الخليفة من باب المجلس أخرجت المظلة إلى حاملها فيكشفها بإعانة جماعة من الصقالبة يرسم خدمتها»^(٥).

(١) نفسه، ص ٢، ٣.

(٢) المقرئ: الخطط، ج ٢ ص ٢٠٥.

(٣) المقرئ: اتعاط ج ١ ص ١٠١.

(٤) عنان: الحاكم بأمر الله، ص ٣٦.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٨٧.

فقد ولي العزيز وفي (أو وفيًا) الصقلبي عكا^(١) وولي يانس الصقلبي الإشراف على القصور الفاطمية^(٢) ثم «سيره لولاية برقة ٣٨٨ هـ / ٩٨٨ م وأعطاه خمسة آلاف دينار وعدة من الخيل والثياب»^(٣).

كما ولاهم العزيز الكثير من الوظائف الديوانية، وتقلدوا وظائف الشرطة «فقد جمعت الشرطتان لمسعود الصقلبي»^(٤).

وتولى الصقالبة بعض وظائف القضاء كالنظر في المظالم، وهو ما يدل على دخولهم في الإسلام لأن هذه الوظائف كانت حكرًا لا يتولاها إلا المسلمون لأنها تختص بولاية أمرهم^(٥).

كما خلع على خود الصقلبي وقلد الشرطة السفلى^(٦)، كما ولي ميسور الخادم الصقلبي ولاية طرابلس وخلع على فائق الصقلبي وجعل على الأسطول^(٧).

وكان أشهر الصقالبة في عهده على الإطلاق هو خادمه برجوان^(٨) الصقلبي فكانت له الكلمة المطاعة^(٩). وكان العزيز قد عهد إليه بأمر الحرم والقصور لثقته به^(١٠) وقد اشتهر برجوان بالبذخ والترف وهما من سمات العصر الفاطمي في تلك

(١) المقرئزي: اتعاط، جـ ٢، ص ٣٤.

(٢) هو أبو الحسن يانس وكان صقلبيًا خصيًا من خدام العزيز بالله. ولما توفي العزيز، أبقاه الحاكم في وظيفته ثم عينه وقلد بسيف ودفع إليه رُمح وحمل على فرس بمركب ذهب ثقل ومائة غلام: المقرئزي، الخطط، جـ ٢ ص ١٦، اتعاط، جـ ٢، ص ١٧ - ٣٤.

(٣) المقرئزي: الخطط، جـ ٢ ص ١٦.

(٤) المقرئزي: اتعاط، جـ ٢ ص ٣٦.

(٥) سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة، ص ١٦٧.

(٦) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ١٧.

(٧) المقرئزي: اتعاط، جـ ٢، ص ١٨.

(٨) انظر ترجمته في نهاية الفصل.

(٩) مخطوط شرح اللمعة: (المؤلف مجهول)، ص ٥، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٢٧٠.

وانظر: Yaacov Lev, Arab history and civilization. State and society 1 P.75

(١٠) ابن الفلاس: نيل تاريخ دمشق، ص ٤٤.

الفترة وكان من مبلغ أهميته أنه كانت له حارة تعرف باسمه^(١) وكان العزيز قد وصاه على ابنه الأمير أبي علي منصور^(٢).

وقد ميز العزيز الصقالبة وجعل لهم الحارات الخاصة بهم لسكناهم وقد أطلق اسمهم على أحد الشوارع الفاطمية في القاهرة وهو الشارع الممتد بين حارة زويلة وخان أبو طاقية^(٣) وعرف باسم «درب الصقالبة»^(٤). كما سمح لكل من الصقالبة والمغاربة بالسكنى في الحارات التي تخص بعضهم البعض بغرض أن يحدث تآلف بينهم^(٥). كما اختط نادر الصقلي - الذي نعتة العزيز بسيف الدولة دربا عرف بدرب نادر وبدرب سيف الدولة^(٦). كان نادرا من قبل غلاما للمعز ولما توفي ٣٨٢هـ / ٩٩٢م^(٧) أرسل إليه العزيز لكفنه خمسين قطعة من الديباج المثقل، وقد ترك ثروة قدرها ثلاثمائة ألف دينار عينا وآنية من فضة وذهب وعبيدا وخيلا قدرت أيضا بحوالي ثمانين ألف دينار^(٨).

ويبدو أنه رغم استخدام العزيز للأتراك إلا أن الصقالبة كانت لهم الدرجة العليا على هؤلاء الأتراك، فيحدثنا المقرئ أن بعد قتل برجوان عين العزيز القائد حسين بن جوهر الصقلي رغم وجود الأتراك وأنه إذ كان هذا القائد يسير يوما رأى جماعة من القواد الأتراك قياما على الطريق ينتظرونه فأمسك عنان فرسه ووقف وقال لهم: «كلنا عبيد مولانا صلبوات الله عليه ومماليكه ولست والله أبرح من موضعي أو

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١١، ص ٣٢٧، المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٢٩٠.

(٢) الفلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٣٥٦ والمقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٢٩١٣.

Yaacov Lev. Arab history and civilization state and society V.1 P. 75.

ابن تغري بردي: النجوم جـ ٤، ص ٨٧ - ٨٨.

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٦٨.

(٤) المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٤٢.

(٥) سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة في مصر، ص ١٦٧.

(٦) ويقع بجوار المدرسة الجمالية فيما بين درب راشد ودرب ملوخيا: المقرئ: الخطط، جـ ٢.

(٧) نفسه، جـ ٢، ص ٤٢.

(٨) المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ١٤.

تنصرفوا عني ولا يلتقاني أحد إلا في القصر، فأنصرفوا، وأقام بعد ذلك خدما من الصقالبة الطرادين على الطريق بالتوبة لمنع الناس المجيء إلى داره ومن لقائه إلا في القصر وأمر أبا الفتوح مسعود الصقلبي صاحب الستر أن يوصل الناس بأسرهم إلى الحاكم وألا يمنع أحدا عنه^(١).

وفي عصر الحاكم الذي تولى خلافة مصر وهو غلام في الحادية عشر من عمره استطاع برجوان الصقلبي أن يحمي الحاكم من مؤامرات أخته ست الملك التي كانت تود نقل الحكم إلى ابن عمها عبد الله، لكنها لم تنجح في ذلك فقد استطاع برجوان أن يحدد إقامتها حيث نقلها إلى مقرها في ألف فارس واستطاع ضبط الأمور إلى أن كبر للحاكم^(٢).

ويذكر ابن تغري بردي أنها هي التي قتلت ابن عمها بعد أن أرسلت في القبض عليه بدمشق وحمل إلى مصر وقتل فيها^(٣) وضبط برجوان الأمور ونظمها إلى أن كبر الحاكم، ولذلك وجد الحاكم نفسه محاطاً بأجناس عديدة لكل منها أهداف وطموحات، ومن أجل ذلك استخدم طوائف عديدة في الجيش، فيذكر المقرئ أنه في سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م «قرئ عدة أمانات بالقصر للكتاميين من جنود إفريقية والأتراك والقضاة والخدام السود والخدام الصقالبة لكل طائفة أمان»^(٤).

وأكد ابن إياس على تنوع عسكر الحاكم فقال: «إن عسكر الحاكم ما بين ديلم ومصامدة وصقالبة وروم وعبيد وزنج»^(٥).

وقد نجح الصقالبة في عهد الحاكم في الوصول إلى منصب الوزارة، وهو ما يدل على استحواذهم على ثقته، وعلى أنهم اعتلوا كثيراً من الوظائف الهامة والمتنوعة في الدولة وقاموا بدور مؤثر في الأحداث.

(١) المقرئ: خطط، جـ ٢ ص ١٤.

(٢) أبو الفداء: المختصر، جـ ٢، ص ١٣١، وابن القلاسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم، جـ ٤، ص ١٨٩.

(٤) المقرئ: انعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٨٢.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق/١، ص ٢١٠.

ولكن أهمهم على الإطلاق هو برجوان الذي كان له دور بارز في أحداث تلك الفترة^(١). ويقول ابن الصيرفي^(٢): «ترقت أحوال برجوان إلى أن بلغ النهاية فقصر عن الخدمة وتشاغل بذااته وأقبل على سماع الغناء وأكثر من الطرب وكان شديد المحبة في الغناء. ثم ما لبث الحاكم أن غضب عليه وقتله.

وان برجوان الصقلبي محبوباً من الرعية، ومما يدل على ذلك أنه لما قتل ثار الناس ولبسوا السلاح وأحاطوا بالقصر فخرج إليهم الحاكم وأسكن الفتنة^(٣).

وذكرت المصادر^(٤) أنه قد خلف الكثير من الأثاث والثياب منها ألف سروال ديبقي^(٥) بألف تكة من حرير^(٦) كما ضم ميراثه كم كبير من الكتب إلى جانب ثلاثين

(١) Yaacov Lev. Arab history and civilization: state and society V.1 P.75

وأنظر: سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة، ص ١٧٤

(٢) ابن الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٥٧، ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٧٤، أنظر

أيضاً: أبو الفدا: المختصر جـ ٢، ص ١٣١، ابن أبيك كنز الدرر، جـ ٦، ص ٢٦٥، المقرئزي

اتعاط الحنفا، جـ ٢، ص ٢٥.

(٣) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ١٧٥.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١١، ص ٣٢٧، والمقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٣ - ٤.

(٥) سروال معناها «الثوب»، ومما يؤكد ذلك أن تركة برجوان ذكرت في مخطوط أخبار الدول

المنقطعة لجمال الدين علي بن ظافر لوحة ٥٤ فنذكر أنها «اشتملت على ألف حجرة جديدة ملبست

وفي كل حجرة تكة جديدة قيمتها وحدها ثلاثة دنانير» وكلمة «حجرة» جاء تعريفها في لسان

العرب على النحو التالي: الحجر: بالفتح والكسر للحاء: الثور .. وحجر الإنسان وحجر الإنسان

وحجره ما بين يديه من ثوب: زاجع مادة حجر. أما «ديبقي» فهي نسبة إلى «ديبق»، وهي بلدة

تقع بين الفرما ونيس من أعمال مصر تنسب إليها الثياب الديبقية (ياقوت: معجم البلدان، جـ ٢،

ص ٣٤، وقد عرفها المقرئزي بأنها من قرى دمياط ينسب إليها الثياب المثقلة والعمام الشرب

وقال والديبقي العلم المذهب: أنظر: الخطط، جـ ١، ص ٤٢٢.

(٦) كلمة «تكة» أو يسميها العامة رباط السراويل، أنظر: Dozy Vetments chez les Arabes .

P99, 203. كما يطلق عليها اسم «تكة» Tekka، وكانت تستخدم كرباط مثبت للسراويل على

الجسم، أنظر: المقرئزي: السلوك، جـ ١، ص ٤٤، ل.أ.ماير، الملابس المملوكية (الفصل الخاص

بملابس النساء)، ترجمة صالح الشيتي، ص ١٢٤: ١٢٥، وذكره ابن إياس أنها من الحرير

الأحمر المزين باللؤلؤ وحببات المسك: ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ص ٩١.

ألف دينار نقدًا مع العديد من الإسطبلات^(١).

كما اشتهر يانس الصقلبي الذي كان أحد خدام العزيز (وكان يتولى الإشراف على القصور) ، فلما توفي العزيز أقره الحاكم بأمر الله على ولايته تلك، وقُد بسيف ودفع إليه رمح وحمل على فرس بمركب ذهب ثقل وحمل إليه خمسة آلاف دينار وعدة من الخيل والثياب ومائة غلام وسار لولاية برقة^(٢).

وإليه تنسب طائفة العسكر اليانسية، وكانت هناك حارة للصقالبة تنسب إليه تسمى «حارة اليانسية»^(٣).

واشتهر أيضًا شخص يدعى خود الصقلبي وقُد بسيف وحمل وقيد بين يديه فرس وحمل إليه ثياب وقُد الشرطة السفلى^(٤).

وكان ميسور الصقلبي من مشاهير الصقالبة في ذلك العصر حيث ولي ولاية طرابلس وجعل فائق الخادم الصقلبي على الأسطول^(٥).

كما كان للحاكم خادماً يُعرف بريدان^(٦) الصقلبي فقر به منه وكان قد أطلعه على ما يكنه لبرجوان فقام بالإيعاز للحاكم ضده وتآمرا على قتل برجوان^(٧) وإليه تنسب الريدانية «التي بظاهر القاهرة خارج باب النصر»^(٨)، وقتله الحاكم ٣٩٣هـ / ١٠٠٢م^(٩).

(١) Yaacov Lev. Arab hisroty and civilization: state and society VP.75.

(٢) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ١٧.

(٣) نفسه، ص ١٧.

(٤) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ١٧.

(٥) نفسه، ص ١٨.

(٦) ريدان، إن كان اسماً عربياً فإنه من قولهم: ربح ريدة واردة وريدانة، أي لينة الهبوب، وقيل: ربح ريدة كثيرة الهبوب، وكان ريدان الصقلبي أحد خدام العزيز بالله نزار بن المعز ويحمل المظلة على رأس الخليفة واختص بالحاكم. المقرئزي: المخطوط، جـ ٢، ص ١٣٨.

(٧) ابن الفلاس: ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٥ : ٥٦.

(٨) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ١٧٨.

(٩) المقرئزي: الخطوط، جـ ٢، ص ١٣٨.

ومن الصقالبة الذين برزوا في عهد الحاكم أيضا مسعود الصقلبي الذي كان يشغل وظيفة صاحب الستر في قصر الحاكم اشتهر أمره وذاع صيته، وجمع الشرطتين، وخلع عليه في الجامع العتيق وقرئ سجله على المنبر^(١).

وفي ٣٩٠هـ / ٩٩٩م، أصدر الحاكم سجلاً قرئ على المنابر بأن يلقب القائد حسين بن جوهر الصقلبي بقائد القواد^(٢).

قرب الحاكم مملوكه الصقلبي «عين» أو «غين»^(٣) وهو صاحب جامع الجزيرة^(٤).

فعندما مرض، ذهب الحاكم لعيادته وصرف له خمسة آلاف دينار وخمسة وعشرين فرساً مسرجة ملجمة^(٥)، ثم غضب عليه فأقصاه عن الشرطتين والحسبة^(٦)، ثم قام بقطع يده ثم ندم على ذلك، ثم أمر بقطع رجله فقطعت ثم ندم، ثم قطع يده الأخرى وسمل عينيه^(٧) ثم بعث إليه بآلاف من الذهب وعدة أسفاط من الثياب وأمر بمداواته، ثم أمر بقطع لسانه فقطع^(٨) ثم فجأة ركب قائد القواد غين إلى القصر يحوطه موكب عظيم وخلع عليه^(٩). ونال «غين» لقب أستاذ الأستاذين وكان ذلك المصطلح يطلق على رئيس الخصيان في العصر الفاطمي، ونال مكانة عالية في

(١) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٣٠ - ٣٦.

(٢) نفسه، ص ٣٠.

(٣) ورد اسمه عند المقرئزي (اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٨٩ - ٩١) على أنه «عين»، وكذلك في ابن دقماق (الانتصار، جـ ٤، ص ٤٥، وصححه د. حسن الباشا إلى «غين» استناداً إلى وجود طبسق الخزف باسم «غين» مولى الحاكم بأمر الله في بحث نشره بمجلة كلية الآداب، مجلد ١٨، جـ ١، ١٩٥٦.

(٤) ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٦، ص ٢٥٩.

(٥) المقرئزي: اتعاظ، جـ ٢، ص ٩١.

(٦) نفسه، ص ١٠٠.

(٧) ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٦، ص ٥٩.

(٨) المقرئزي: اتعاظ، جـ ٢، ص ١٠٢.

(٩) نفسه، ص ١٠٣.

عهد الحاكم وكان يختص بالنظر في شئون العسكر ويشرف على تسيير العمليات العسكرية^(١).

كما اعتلى نسيم الصقلبي في عهد الحاكم منصب صاحب الستر والسيف، وكان يشرف على مائة رجل كانوا يعرفون بالسعدية اختصوا بركاب السلطان، وسموا أصحاب سيوف الحلى، وبعد ذلك عهدت له السيدة ست الملك أخت الحاكم بالخروج وضبط أبواب القصر بالخدم والصقالبة ففعل^(٢).

كما خلّع على الخادم الصقلبي مظفر وحمل على ثلاث بغلات وعين حاملاً للمظلة^(٣).

كما كان لعياد الصقلبي شأن كبير، فقد أرسله الحاكم في جماعة من الجند لتسكين الفتنة بين السودان وأهل الفسطاط ٤١٠هـ / ١٠١٩م، فلما عاد إلى الحاكم أغضبه بقوله: «لو أن بسيل ملك الروم دخل مصر لما استحسن أن يفعل فيها هذا الفعل، فأمر بقتله فقتل»^(٤).

ومما يدل على أن الصقالبة كانوا يتبوّون وضعاً متميزاً في عهد الحاكم أنه عندما أمر بهدم جميع الكنائس وهب جميع الكنائس بكل ما فيها من ثروات لجماعة من الصقالبة^(٥).

ومنذ عهد الظاهر (٤١١هـ - ٤٢٧هـ / ١٠٢٠ك - ١٠٣٥م)، بدأ نجم هؤلاء الصقالبة في الأفول إلا أن المسيحي ذكر أن الظاهر استعان بفرقة من الصقالبة خرجت من القصر للتصدي للسودانيين الذين أثاروا الذعر ونهبوا البلاد وأحرقوها^(٦).

لكن البعض منهم ظل محتفظاً بنفس الوظائف التي كانت لهم على عهد أبيه

(١) سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة، ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) المقرئزي: اتعاط، ج ٢، ص ١٢٧.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٧٩، المقرئزي: اتعاط، ج ٢، ص ١٢٧.

(٤) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٩٣.

(٥) نفسه، ص ١٩١: ١٩٢.

(٦) المسيحي: أخبار مصر، ص ٨٨ - ٩٩، أمينة الشوربجي: رؤية الرحالة، ص ٤٩٢.

الحاكم^(١). وقد أنعم الفاطميون على هؤلاء الصقالبة - نظراً لمكانتهم لديهم - بالألقاب التي كانت تمنح في معظم الدويلات الإسلامية لأصحاب المناصب الرفيعة، ففي ٤١٥هـ / ١٠٢٤م حصل مظفر الصقلبي صاحب المظلة على لقب «بهاء الدولة»^(٢) كما اشتهر نسيم الصقلبي في عهد الظاهر بلقب صاحب الستر^(٣).

ثم تولى المستنصر بالله معد أبو تميم (٤٢٧-٤٨٧هـ / ١٠٣٥-١٠٩٤م)، وبإعتلاء المستنصر عرش الخلافة، بدأ دور الصقالبة في الانحسار فلم يذكر لهم في المصادر دور ملحوظ، ولم يذكر أن اعتلى أحدهم منصباً هاماً، لازدياد شوكة الأتراك والسودان حتى جاء عهد الحافظ عبد المجيد أبو الميمون (٥٢٤-٥٤٤هـ / ١١٣٠-١١٤٩م) فبدأ نفوذهم في الظهور، فقد ذكر ابن ميسر في أخبار مصر مدى سطوتهم على الخليفة الحافظ. وقد تمثل ذلك في ممارسة الضغوط عليه حتى يتخلص من ابنه حسن الذي تمكن من الوزارة وقام بالقبض على بعض الأمراء، وهو ما أثار حفيظة الصقالبة حتى أنهم طلبوا من الخليفة أن يتخلص من ابنه بتقديم السم له. وقد انصاع الخليفة لأمرهم، وأجبر ابنه على تناول السم، بل أمعن في الرضوخ لهم بأن أدخلهم عليه ليطمئنوا من أنه قد فارق الحياة وذلك تهديئة وتسكيناً للفتنة^(٤).

ثم ينحسر دور الصقالبة في مصر إلى نهاية عهد العاضد وسقوط الدولة الفاطمية، فلا تشير المصادر إلى دور واضح لهم في تلك الفترة حيث ظهرت سيطرة الأتراك والسودانيين على أمور الدولة.

من كل ما سبق نستطيع القول أن هؤلاء الصقالبة كانت لهم مكانة رفيعة في عصور بعض الخلفاء الفاطميين قوى فيها نفوذهم فأنثروا في مجريات السياسة والحكم وأوجدوا لأنفسهم مكاناً بارزاً بين العناصر الأخرى التي استخدمها الخلفاء الفاطميون في مصر.

(١) المسبحي: أخبار مصر ص ١٢.

(٢) نفسه، ص ١٨٠.

(٣) نفسه، ص ١٨٠.

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر، جـ ٢، ص ٧٨، وأنظر أيضاً المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ١٨.

الأتراك

الترك أمة قديمة رعوية تتألف من قبائل متعددة سكنت جبال الألباني أو جبال الذهب في أواسط آسيا بين الصين والهند وسيبيريا. وتعرف بلادهم باسم تركستان^(١). وخلاف القرون الأربعة الأولى من الهجرة، هاجرت تلك القبائل واستقرت في إقليم ما وراء النهر وخراسان^(٢).

وغالبًا ما كانت هجراتهم إجبارية بمعنى أن تلك القبائل كانت تتعرض لظروف قاهرة تضطرها لهذه الهجرة، كسوء الأحوال الاقتصادية أو تغلب قبيلة على أخرى، وكانت تلك الهجرات إما متفرقة أو عامة تكتسح كل ما في طريقها وكانت تجذبها حياة المدينة حيث الثروة والبعد عن شظف العيش، لذلك، فقد استمالت الحضارة الإسلامية تلك العناصر التي سكنت حدودها ومدت نظرها إلى قلب الدولة الإسلامية^(٣).

ونظر الخلفاء والحكام إلى هؤلاء الأتراك منبهرين بجمالهم وقوة أجسامهم ونشاطهم فاقتنوهم وانتشر التجار ملبين رغبات الأسياد وكلما تكاثروا اشتد الطلب عليهم واعتمد عليهم الخلفاء، فسلبوا هؤلاء كل ما يملكون^(٤).

ودخل الأتراك بأعداد كبيرة في قصور الخلفاء والأغنياء كغلمان وجوار وأصبحوا يكونون فرق حرس خاصة لهم^(٥).

ولم يكن لهؤلاء مدنية أو حضارة أثرت بشكل ما في الحضارة الإسلامية،

(١) زبيدة عطا: بلاد الترك، المقدمة: (أ)، جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ ٤، ص ١٥٥.

(٢) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية، ص ١٧ - ١٨.

(٣) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية، ص ١٧ - ١٨، محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد

الشام، ص ٢٥: ٢٦، كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص ٢٣٦ - ٢٣٧، حسن

إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام جـ ٢، ص ١٥٨.

(٤) ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٦٩، إستاتلي، لينبول: سيرة القاهرة، ص ٨٠.

(٥) زبيدة عطا: بلاد الترك، ص ٣٤.

كافرس مثلاً، فهم بدو أو أشبه بالبدو كل اعتمادهم على مظهرهم وكمال أجسامهم وجمال هيئتهم^(١).

وارتبط دخولهم في الإسلام بالفتوحات الإسلامية على أيام بني أمية حيث فتحت بلاد ما وراء النهر ودخل المسلمون بخارى وسمرقند وفرغانة وأشروسنة وغيرها من تركستان فاختلف الأتراك بالمسلمين، وأخذ المسلمون من أولادهم سبياً وكناتوا يباعون كرقيق ويفرقون في بلاط الخلفاء، ثم دخلوا في الإسلام وتحمسوا له حتى أن بعضهم بدأوا يقاتلون أبناء عموماتهم الباقين على الوثنية^(٢).

لكن البداية الفعلية لدخول الأتراك في خدمة الدولة الإسلامية تبدأ عندما أهدى حاكم بخارى إلى المأمون مجموعة من الممالك كان طولون^(٣) واحداً منهم، وكان ذلك ٢٠٠هـ / ٨١٥م^(٤).

ولما فقد المعتصم ثقته بالعنصر الفارسي، وذلك لميلهم إلى المأمون الذي قربهم إليه لأن أمه فارسية، فكر المعتصم في الاعتماد على الترك، خاصة وأن أمه تركية الأصل (من السند) . ولما كان الدم التركي يجري في عروقه، فقد كان طبيعياً أن يميل إليهم فاستدعاهم لخدمته واستكثر منهم^(٥).

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ ١، ص ٤٤ - ٤٥.

(٢) كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب، ص ٢٣٨، جرجي زيدان: تاريخ التمدن جـ ٢، ٤، ص ١٥٦.

(٣) وينحدر طولون من أسرة كانت تقيم في بخارى بتركستان وقد أعجب المأمون بطولون فعينه رئيساً لحرسه، وبذلك وضع قدمه على أول طريق المجد لأبنائه وأحفاده وأنظر: العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص ١٢٩، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ جـ ٥، ص ٧٧.

(٤) ابن خلدون: العبر، جـ ٤، ص ٢٩٧، ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور ص ٣٥، والسيوطي: حسن المحاضرة جـ ٢، ص ٥٩٤، وسعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ١، وأحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢٨.

(٥) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٣٥، خودابخش: الحضارة الإسلامية، ترجمة على حسن الخربوطلي، القاهرة ١٩٦٠، ص ٦٥، سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ٧، ٨، أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ ١، ص ٤.

ولما كثر عددهم بشكل أصبح يهدد بغداد، بنى لهم المعتصم عاصمة جديدة ونقلهم إليها وأصبحت مدينة سامراء أو (سر من رأى) مدينة خاصة بهم^(١).

وقد ذكر ابن حوقل استخدام بني العباس للترك، فقال: «وهم مع ذلك أحسن الناس طاعة لكبرائهم وألطفهم خدمة لعظمائهم وفيما بينهم حتى دعا ذلك الخلفاء من بني العباس إلى أن استدعوا من أهل ما وراء النهر رجالاً، وكان الأتراك رجالهم لفضلهم على سائر الجيوش ودهاقينهم أمراء فيهم وجيوشهم من بين سائر الأجناس في البأس والجرأة والشجاعة والإقدام متقدمون على من سواهم ودهاقين ما وراء النهر قوادهم وحاشيتهم وخواص خدمهم للطفهم في الخدمة وحسن الطاعة والهيئة في الملبس والزي السلطاني حتى لصاروا حاشية الخلافة قديماً ورجالها سالفاً ورؤساء عساكرهم كالفراعنة والأتراك الذين كانوا شحنة دار الخلافة»^(٢).

دخول الأتراك مصر:

أما بداية دخولهم مصر فكان في عام ٢٣٢هـ / ٨٤٦م حيث بدأ الخلفاء في تولية مصر لولاتهم من الترك والذين كانوا بدورهم - لكراهييتهم البعد عن بغداد مركز الخلافة - يرسلون إلى مصر نواباً عنهم، وكانت مصر من نصيب باكباك التركي^(٣) الذي استخلف عليها أحمد بن طولون^(٤). وقد كان باكباك هذا قد تزوج أم

(١) المسعودي: مروج الذهب، جـ ٢، ص ٣٤٩، ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٧٠.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ق/ ٢، ص ٤٦٨.

(٣) كان من أكابر قواد الأتراك مع بغا ووصيف وسيما الطويل، ولما زاد نفوذهم وطالبوا بالإقطاعات قام المعز بإقطاع باكباك هذا أعمال مصر وبها يومئذ ابن المدبر. أنظر: ابن خلدون: العبر، جـ ٣، ص ٢٩٥، عبد الرحمن زكي: القاهرة، ص ٢١، وستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ٨٠.

(٤) هو الأمير أبو العباس أحمد بن طولون. كان عادلاً شجاعاً حسن السيرة صادق الفراسة، وكان محباً للرعية وأهل العلم محباً للخير وكانت له مائدة يحضرها كل يوم الخاص والعام وكان يتصدق بألف دينار كل شهر حافظاً للقرآن الكريم بني الجامع المنسوب إليه بين القاهرة ومصر وكان أبوه طولون قد ولد في سامراء عام ٢٢٠هـ / ٨٣٥م، وقيل أن طولون تبناه ولم يكن ابنه ودخل مصر عام ٢٥٤هـ / ٨٦٨م، أنظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١، ص ١٧٣ - ١٧٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٣، ص ١ - ٤، السيوطي: حسن المحاضرة، جـ ١، =

أحمد بن طولون فأرسل أحمد ليتولى حكم مصر باسمه ٢٥٤هـ / ٨٦٨م، ثم ما لبث أن قُتل باكباك هذا وتولى أمير تركي آخر اسمه يازكوج فتزوج أحمد ابنة هذا الأمير لتوطيد وتدعيم مركزه في مصر، فأقره صهره هذا على ولاية مصر وكتب إليه «تسلم من نفسك إلى نفسك»^(١)، وبهذا أقام أحمد بن طولون أول دولة مستقلة عن الخلافة الإسلامية^(٢)، وكما استطاع أن يكون جيشاً يحوى عدة عناصر مختلفة وكان بارعاً في السيطرة على هذه العناصر، وجعل ضباط جيشه من الترك واستمالهم إليه وأغدق عليهم فقد مارس تجربة في بغداد علمته أن العنصر الواحد في الجيش يستبد بالأمر^(٣).

لذلك، أكثر ابن طولون من شراء المماليك الديالمة، سكان بحر قزوين، حتى بلغت عدتهم أكثر من أربعة وعشرين ألف غلام بالإضافة إلى أربعين ألفاً من السود وسبعة آلاف من المرتزقة^(٤).

وأكد القلقشندي ذلك فقال: «هو أول من جلب المماليك الترك إلى الديار المصرية واستخدمهم في عسكرها»^(٥).

ولما كثر عدد ممالكه، اختار مكاناً يقع في أقصى الشمال الشرقي من العسكر، بين جبل يشكر وسفح المقطم (بالقرب من دار الإمارة)، وأسس مدينة القطائع، نسبة لكل طبقة فقطيعة السودان سكنها السودان، وقطيعة الروم والفراشين، فكل طبقة

= ص ٥٩٤ - ٥٩٥، وستانلي لينبول: سيرة القاهرة ص ٨١، على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٨ - ٢٩.

(١) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٦.

(٢) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٧ - ٤٨. وأنظر أيضاً: ابن خلدون: العبر، ج ٣، ص ٢٩٥، خودابخش: الحضارة الإسلامية، ص ٦٥، والعبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ١٢٩٠.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٣٥، سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ٢٧، عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص ١٤.

(٤) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٨ - ٢٩.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٢٨.

قطيعة تسمى بإسمنها^(١).

واستمر ابن طولون أميرًا بمصر إلى أن مات بها ٢٧٠هـ / ٨٨٣م^(٢) و«خلف من الأموال والعين والورق كثيرًا ومن الغلمان أربعة وعشرين ألف غلام ومن الموالى سبعة آلاف رجل»^(٣).

وبعد دولة الطولونيين جاءت الدولة الإخشيدية، وهي تنتسب إلى عبد الله بن طغج بن جف بن يلتكين بن خور بن خاقان^(٤).

وسار محمد بن طغج الإخشيد على نفس سياسة ابن طولون فجعل جيشه من الأتراك والديلم وبلغت عدة ذلك الجيش بمصر والشام أربعمئة ألف جندي، وذلك بالإضافة إلى حرسه الخاص الذي بلغ عدده ثمانية آلاف مملوك^(٥) يحرسه في كل ليلة منهم ألف مملوك^(٦).

وقد كثر الأتراك في عصر الدولة الإخشيدية حتى أنهم أثاروا الفتن والاضطرابات مطالبين بأرزاقهم وهاجموا دار الوزير جعفر بن الفضل ونهبوا داره ودور حاشيته فكان ذلك سببًا في استدعاء المعز من المغرب إلى مصر^(٧).

الفاطميون واستخدام الأتراك:

انتقلت خدمة الكافورية الأتراك إلى الفاطميين عند إطلاق سراحهم من قبل

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١ / ١، ص ١٦٢.

(٢) المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٥٨٩، ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ٨٢.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ ١، ص ٥٩٤ - ٥٩٥.

(٤) وكان المعتصم قد جلب من فرغانة رجالاً اصطنعهم فكان جف من جملتهم ومات ليلة قتل المتوكل، وكان طغج أصغر أولاده فأعجب محمد هذا ولقب محمد بن طغج بالإخشيد وولاه الراضي العباسي مصر والشام ثم استقل بها إلى أن مات: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٣، ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

(٥) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٣٥.

(٦) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٤٩، سعيد عاشور: العصر المالكي، ص ٢.

(٧) مخطوط شرح اللمعة (مؤلف مجهول)، ص ٣.

المعز، ومع ذلك فقد دخل الأتراك في خدمة الفاطميين بشكل ملحوظ في عهد العزيز، فهو أول من استخدم جند الترك المماليك في جيش الفاطميين^(١).

ويذكر المقرئزي أنه «اصطنع الديلم والأتراك وقدمهم وجعلهم خاصته فتنافسوا وصار بينهم وبين كتامة تحاسد»^(٢).

وبدخول الديالمة والأتراك في الجيش يبدأ تعدد الجنسيات فيه، فقد سمح لهم العزيز بالانضمام إلى فرق الجيش الأخرى وذلك بهدف كسر شوكة قبائل المغاربة لإيجاد توازن في الجيش^(٣).

كما عمل العزيز على تقريبهم إليه، وكان له غلامان تركيان يثق بهما أحدهما يسمى منجوتكين والآخر بازتكين^(٤)، وقد استعان بمنجوتكين هذا وولاه الشام ليستقطب الأتراك من ممالك سعد الدولة في حلب، وقد زاد عددهم في عهد العزيز عندما قبض على أفتكين المغربي غلام معز الدين بن بويه^(٥).

فكان قد خرج لحرب العزيز، فلما قبض عليه وجيء به إلى القاهرة عام ٣٦٨هـ / ٩٧٨م كان بصحبته حوالي أربعمائة من الأتراك والديلم فنزل الديلم مع أصحابهم في موقع حارة الديلم ونزل أفتكين أو هفتكين - كما سماه المقرئزي - والأتراك بحارة عرفت بحارة الأتراك^(٦) وكانت مختلطة بحارة

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي: ج٢، ص ٣٥٢، ابن الجوزي: المنتظم، ج٧، ص ٦٠، والمقرئزي: اتعاظ، ج١، ص ١٣٤: ١٣٦، السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ٦٠٠. وأنظر: محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص ٧٢، وعطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر، ص ٦٣، محمد جمال سرور: الدولة الفاطمية، ص ١٤٧.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج٢، ص ٢٠٦.

(٣) أنظر عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية، ص ٢٠٧، أحمد حسين: موسوعة التاريخ، ج٢، ص ٥٤٩.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم، ج٤، ص ١١٦.

(٥) مخطوط شرح اللمعة، مجهول، ص ٤، ابن تغري بردي: النجوم، ج٤، ص ١١٦ - ١١٧.

(٦) وتقع تجاه الجامع الأزهر وتعرف بدرب الأتراك وكان نافذاً إلى حارة الديلم: المقرئزي: الخطط، ج٢، ص ٩.

الديلم^(١) لأتھما «أهل دعوة واحدة إلا أن كل جنس على حده لتخالفھما في الجنسية»^(٢)، وهذا يدلنا على وجود أتراك وديلم سكنوا تلك الحارات قبل ورود أفتكين هذا، أي قبل سنة ٣٦٨ھ - / ٩٧٨م.

وشھد عهد الحاکم بأمر الله تأثيراً كبيراً للأتراك، فعندما اشتدت قسوته على الناس وخافوا «كتب ما شاء الله من الأمانات للقلمان الأتراك خاصة وزمامهم»^(٣).

ومع ذلك، وقع الخلاف بينهم وبين المغاربة ووقعت بينهم وقعة عظيمة^(٤) فقد ثاروا حينما أبطل ابن عمار مرتباتهم وبألف في محابة المغاربة وقاموا بمحاصرة قصر الحاکم حينما علموا أن محمد بن إسماعيل الدرزي لجأ إليه وطالبوه أن يسلمه لهم فأخبرهم بنفسه أنه غير موجود في الوقت الذي ساعده فيه على الهرب إلى الشام^(٥).

وقوى الحاکم نفوذهم وقربهم إليه وولاهم المناصب العالية وأعطى قيادة الجيوش لأبي منصور أنوشتكين المملوك التركي المعروف بالدزبري ثم ولاه على دمشق^(٦).

وقد زاد عدد الأتراك في عهد المستنصر، فقد استكثر أمه السودانية من العبيد واستكثر هو بالمقابل من الأتراك فتنافس كل منهما مع الآخر فقامت الحروب التي

(١) عرفت بذلك لنزول الديلم الواصلين مع هفتكين الشرابي حين قدم ومعه أولاد مولاه معز الدولة البويهی وجماعة من الديلم والأتراك عام ٣٦٨ھ فسكنوا بها فعرفت به: المقریزی: الخطط، جـ ٢، ص ٨.

(٢) المقریزی: الخطط، جـ ٢، ص ١٠.

(٣) المقریزی: اتعاظ، جـ ٢، ص ٥٥.

(٤) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، جـ ٢، ص ٤٥٣، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص ٤٣٥.

(٥) المقریزی: الخطط، جـ ٢، ص ٢٠٦، اتعاظ، جـ ٢، ص ١٢، ١٣، محمد جمال سرور: الدولة الفاطمية، ص ١٠٢.

(٦) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٦٩.

كانت السبب في خراب مصر^(١).

ويذكر ابن ميسر في حوادث ٤٦٠ / ١٠٦٧ م أنه «قويت شوكة الأتراك وطمعوا في المستنصر وقل ناموسه عندهم»^(٢).

كما يذكر ناصر خسرو الرحالة الذي عاصرت رحلته إلى مصر زمن المستنصر أنه شاهد أثناء الاحتفال بوفاء النيل أو فتح الخليج، هؤلاء الأتراك ضمن فرق الجيش» فمن فرق الجيش المشاركة وهم ترك وعجم وعددهم عشرة آلاف»^(٣).

وبلغ الخلاف ذروته بين الأتراك والعبيد في وقعة كوم شريك التي انتصر فيها الأتراك على الرغم من مساعدة أم المستنصر للعبيد أبناء جلدتها، وقد كانت تمدهم بإمدادات لمساندتهم إلا أن أحد الأتراك ضبط تلك الإمدادات فجمع الأتراك وواجهوا المستنصر بذلك وعنفوه مما جعله يعاتبها في ذلك^(٤).

ويبدو أن السبب في كراهية أم المستنصر للأتراك هو قتلهم مولاها السابق أبا سعد التستري الذي استوزرته. وفي سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م، ثاروا على ناصر الدولة بن حمدان لأنه انفرد بالأمور دونهم وحاربوه ونهبوا دوره وهزموه ففر إلى الجيزة^(٥)، ثم ما لبثوا في ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م أن اصطلحوا معه لما حدث من الشدائد على أن يسير لهم الغلال ثم نقض تاج الملوك شاذي الصلح واستبد بالأموال فدارت الحروب مرة أخرى بينه وبين ناصر الدولة بن حمدان فبعث إليه المستنصر العساكر فحاربوه ففر إلى الوجه البحري وزادت الشدة في ذلك الوقت^(٦) وضاعت هيبة الخليفة، فقد كان الحكام الحقيقيون هم الجند الترك الذين انفردوا بالعاصمة

(١) المقرئزي: الخطط، جـ، ص ٢٠٦، جرجي زيدان، جـ، ص ٤، ص ٢٠١.

(٢) ابن ميسر: أخبار مصر، جـ، ص ١٧ - ١٨.

(٣) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٠٩ - ١١٠.

(٤) ابن ميسر: المنتقى، ص ٢٤ - ٢٥.

(٥) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٢٥، النويري: نهاية الأرب، جـ، ص ٢٢٧ -

٢٢٨، هند إسكندر عمون: تاريخ مصر، القاهرة ١٩١٣، ص ١٧٠ - ١٧١، ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٨٤.

(٦) ابن ميسر: المنتقى، ص ٣٧ - ٣٨، ابن الوردي: تنمة المختصر، جـ، ص ٥٢٣.

ونهبوا قصور الخليفة والمجوهرات النفيسة مقابل رواتبهم التي تأخر دفعها كما نهبوا مدافن أجداد الخليفة بما فيها من التحف ثم عرجوا على خزانة الكتب فأخرجوا منها الآلاف ومنها ٢٤٠٠ مصحفاً^(١).

واستبد ناصر الدولة بالحكم وصادر أملاك أم المستنصر وقبض عليها واستولى على ثروتها^(٢)، وأجبرها على دفع دية لاقتداء نفسها وأخرج الترك من خزائنها أربعة آلاف سرج فرقت فيهم، وأخذوا أدوات فضية من خزائنها وزنها ٣٤٠ ألف درهم^(٣).

ولم يقتصر الصراع بين الأتراك على صراعهم مع العبيد بل تصارعوا مع أنفسهم ذلك الصراع الذي انتهى بقتل ناصر الدولة على يد الدكر عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م، وبدأ الدكر وبلدكوز القائدان التركيان يفرضان سيطرتهم على الخليفة فاستجد ببدر الجمالي والي عكا فجاء معه جنده الأرمن وتمكن من القبض على الأتراك حتى قضى عليهم^(٤).

ويبدو أنه بقضاء بدر الجمالي على قادتهم لم تقم لهم قائمة في عهدي المستعلى والأمير فقد كان الأفضل بن بدر الجمالي مسيطراً على مقاليد الأمور هو ومن معه من الأرمن ولم يكن لهذين الخليفتين رأي فقد «كانا معه صورة بلا معنى»^(٥).

ويذكر ابن الطوير أن الأتراك استعادوا بعضاً من نفوذهم، فقد تمكن المملوكان هزبر وبرغش بمعونة الديالمة تولية الحافظ للخلافة^(٦) وأخذ البيعة له، وتولى هزبر الوزارة كما ثار بعض أمراء الديالمة يساتدهم الصبيان الحجرية وقاموا بنهب كل ما

(١) الذهبي: العبر في خبر من خبر، جـ ٢ ص ٣١٧، إسماعيل أبو العينين: مصر الإسلامية، ص ٢٠، عبد الرحمن زكي، القاهرة، ص ٣٧.

(٢) ابن الوردي: تنمة المختصر، جـ ١، ص ٥٢٣.

(٣) وفاء محمد علي: نفوذ النساء في الدولة الإسلامية، ص ٩٢.

(٤) المرجع السابق.

(٥) الذهبي: العبر، جـ ٢، ص ٤٠٥، الحنبلي: شذرات الذهب، جـ ٤، ص ٤٧.

(٦) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٢٦ - ٢٧، ابن الوردي: تنمة المختصر، جـ ٢، ص ٥٩.

وجدوه في طريقهم وأصروا على تولية الأفضل الوزارة بدلا من هزبر الملوك^(١).
ويبدو أن شأنهم قد ارتفع في عهد الحافظ فيخبرنا ابن ميسر في أحداث عام
٥٤٠هـ / ١١٤٥م أن فيها «أعيد نظر الدواوين والأتراك والخزائن للقاضي الموفق
أبي الكرم محمد بن معصوم التنيسي في جمادى الأولى»^(٢). كما يخبرنا أيضا في
حوادث عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م أنه في عهد الظاهر «وجد جماعة من الأتراك كان
العادل قد اصطنعهم لنفسه»^(٣) وقد بلغ عددهم ثلاثمائة فارس وكان لهم دور كبير
في النزاع الذي أودى بحياة مصطنعهم الوزير ابن السلار ثم تقلص النفوذ التركي
إلى حد كبير وذلك في أواخر أيام الدولة الفاطمية إذ تصمت المصادر عن الإشارة
إليهم حتى وصول القوات النورية بقيادة شيركوه إلى مصر وذلك نهاية أيام العاضد
بالله آخر خلفاء الفاطميين^(٤) فطلب من نور الدين انسحابهم من مصر ولكنه أقنعه
بالإبقاء عليهم أملاً في فتح بيت المقدس على أيديهم^(٥).

(١) المقرئزي: الخطط، ج٢، ص ١٧.

(٢) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ١٣٦.

(٣) نفسه ص ١٣٦.

(٤) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص ٨٠ - ٨١.

(٥) أبو شامة: الروضتين، ج١، ق، ٢، ص ٤٦، ابن الفرات: تاريخه، ج٤، ص ٨٧.

السودان

ترتبط مصر ببلاد السودان بعلاقات أزلية قديمة، وكانت بلاد النوبة تمثل منطقة أمن للحدود المصرية الجنوبية، بل كثيرًا ما امتدت حدود مصر واتسعت لتشمل بلاد النوبة^(١).

وحدد ناصر خسرو موقعها بأنها تقع جنوبي أسوان ولها ملك خاص وسكانها سود البشرة ودينهم النصرانية ويذهب إليها التجار يبيعون الخرز والأمشاط والمرجان ويجلبون منها الرقيق^(٢).

ويقول عنهم الجاحظ «والسودان يعدّون الزنج والحبشة وفزان وبربر والقبط والنوبة وزعاوة ومروى»^(٣). «ولون بعضهم يميل إلى الصفاء وبعضهم شديد السواد»^(٤).

(١) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ، جـ ٦، ص ٦٢١. وجاء تعريف السودان بأنه الصقع الذي يجمع غرب أفريقية ووسطها إلى الجنوب من الصحراء الكبرى (دائرة المعارف، جـ ١٢، ص ٣٣٤). كما أطلقوا على هذه البلاد في العصور المتأخرة قبل الميلاد «اسم كوش» وهو الاسم الذي اقتبسته الحبشة فعرفت به جنوب مصر وشرق أفريقيا وفي العصر الروماني، كان يطلق على جنوب مصر وشمال السودان اسم «نوبيا» حسب الله محمد: قصة الحضارة في السودان ص ١٢، ويطلق لفظ النوبة حاليًا على المنطقة الممتدة على جانبي النهر بين أسوان والخرطوم (مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١) كما عرف العرب السودان بأنها أرض النوبة جنوب أسوان وكانت يطلقون اللفظة على كل السكان عموماً بما فيهم البجة أي أن سكان السودان كلهم يطلق عليهم نوبة واختلطوا بهم وتقربوا إليهم وامتزجوا بهم (حسب الله محمد: قصة الحضارة السودان، ص ١٨٦).

(٢) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ٩٦.

(٣) الجاحظ: رسائل فخر السودان على البيضان، ص ٢١٦.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٥، ص ٢٧٥. وإذا حصرنا تلك السلالات التي سكنت أرض السودان نجد النوبة وهي القبائل السمراء التي سكنت النيل أو تنهاتسو أو (أثيوبيا) كما كانت تسمى من قبل، فكان هذا الاسم يميز سكان الجنوب عن سكان مصر الأفتح لونا (حسب الله محمد: قصة الحضارة، ص ٢٦). وقد استخدمت كلمة «السودان» في كثير من المصادر للدلالة على العبيد السود عموماً دون تحديد لمواطنهم، وأستخدمت كلمة «الزنج» للدلالة على الرقيق الأسود.

وكانت تطلق كلمة «السودان» عند العرب على كل ما ينتمي إلى الأحباش الذين كانت لهم صلات قديمة بالعرب ومن أشهرهم بلال الحبشي مؤذن الرسول ﷺ وسعيد بن جبير سيد التابعين^(١).

وقد كان هؤلاء الأحباش قبل النبي ﷺ طبقة كادحة مقهورة ولكن مساواة الإسلام بين جميع الأجناس دون التفرقة بين ألوانهم أو أنواعهم أثار في نفوس هؤلاء تأثيراً عظيماً فقبل أن أحد الأحباش سأل النبي عن إمكانية دخوله الجنة مع المسلمين فلما طمأنه النبي ظل يبكي حتى فاضت روحه فدفنه الرسول بيده الشريفة^(٢).

وقد كان هؤلاء مستضعفين في الأرض حتى رفع الإسلام من روحهم المغنوية وأدمجهم في حركة التجمع الإسلامي الجديد، فانتشرت صدورهم حيث احتضنهم هذا المجتمع واعترف بإنسانيتهم فانتشلهم من القاع ليصبحوا أحد أعضائه المؤثرين في نهضته فتسابقوا إلى اعتناق هذا الدين وتعصبوا له^(٣). وكانت تتجه غالبية الحملات التي تتعرض لها مصر إلى النوبة^(٤).

= سواء جلب من الحبشة أو غيرها، واستخدام لفظ «الحبشة» مدلول معين لأنها أكبر دول الساحل الأفريقي تجارة في الرقيق (لبيب إبراهيم: الرقيق وتجارته، ص ٤٨).

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج١، ص ٧٢.

(٢) عبده بدوي: السود والحضارة العربية، ص ٩٨.

(٣) نفسه، ص ١٠٤، ١١٥، ١١٦.

(٤) ففي القرن السابع للميلاد، وعندما فتح المسلمون مصر، أرسل فاتحها عمرو بن العاص أخاه لأمه عقبة بن نافع الفهري على رأس جيش إلى النوبة سنة ٢٢هـ / ٦٤٢م، وكانت النوبة وقتها مركزاً لمملكة مسيحية هي مملكة دنقلة، واستبسل النوبيون في الدفاع عنها وأجبروا الجيش الإسلامي على التراجع، ثم غزاها العرب مرة أخرى سنة ٣١هـ / ٦٥١م على يد عبد الله بن سعد بن أبي السرح الذي وصل إلى عاصمتها دنقلة وحاصرها ثم تم الاتفاق بينه وبين ملك النوبة المسيحي قيلدوروث عام ٣٢هـ / ٦٥٢م على عقد اتفاقية البقطة التي يتم بمقتضاها تقديم ٣٦٥ رأساً من الرقيق في كل عام إلى بيت المال في مصر مقابل ألف إردب من الغلال وبعض البقول والأقمشة. أنظر: سعيد عاشور: العصر المالكي، ص ٧٧ - ٧٨، المسعودي: مروج الذهب، ج٢، ص ١٩ - ٢٠، كما تم الاتفاق على عدم محاربة المسلمين للنوبة والعكس وأن يكون =

وكان الرقيق الذي يقدم تبعاً لاتفاقية البقظ من النوبة إلى مصر يأتي عن طريق سبيله من «الممالك المجاورة للمسلمين من ممالك النوبة»^(١).

وبعد القرن الثامن، زادت هجرات القبائل العربية على شمال المملكة السودانية واختلط العرب بأهل النوبة وسكنت بعض القبائل العربية هذا الجزء ومنها ربيعة وجهينة وعكرمة وأصبح لهم وزن وشاركوهم في أعمال التجارة^(٢).

وقد كان أكثر رقيق الدولة الإسلامية من السود بسبب اتساع رقعة الدولة الإسلامية وامتدادها إلى القاهرة السوداء^(٣).

مع بداية دخول هؤلاء السودانيين أو النوبيين في جيش مصر، اتبع أحمد بن طولون سنة المعتصم في تجنيد العناصر غير العربية في الجيش ومنها العنصر السوداني^(٤) فاستخدم النوبيون واستجلب منهم أربعين

= للمسلمين حرية دخول بلاد النوبة وتأمين أهل النوبة للمسجد الذي ابتناه المسلمون بدنقلة وعدم منع المسلمين من الصلاة فيه (حسب الله محمد قصة الحضارة، ص ١٦١).

(١) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٢١. وكان يتم تسليمه جنوب أسوان ويتم توزيعه فلأمير مصر أربعون رأساً في صورة هدية ويأخذ نائبه في أسوان عشرين رأساً والقاضي خمسة رؤوس فهو يحضر الاستلام ولكل شاهد من أهل أسوان وعددهم اثنا عشر فرداً اثنا عشر رأساً (سوزي أباطة: السودانيون في جيش مصر، ص ١٦). وكثيراً ما كان ملك النوبة ينتهز الظروف السياسية للخلافة فيمتنع عن أداء البقظ كما حدث عند انتقال الخلافة من بني أمية إلى العباسيين فقد امتنع ملك النوبة عن إرسال البقظ فأرسل إليه واليها من قبل أبي جعفر المنصور عام ١٤١هـ / ٧٥٨م يستحثه على الالتزام بما تعهد به. وكذلك في عهد المعتصم ٢١٨ - ٢٢٩هـ / ٨٣٣ - ٨٤٤م، امتنع ملك النوبة زكريا بن يحنس عن تقديم البقظ وحرص ابنه على محاربة المسلمين فأرسل ابنه لمشاهدة بلاط الخليفة والإطلاع على قوة المسلمين ولكنه اتبهر بما رأى من حضارة وجيش قوي، واستقبله المعتصم بحفاوة وحمله بالهدايا ووافق على دفع البقظ كل ٣ سنوات بدلاً من كل سنة (سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٧٨).

(٢) حسب الله محمد: قصة الحضارة ص ١٨٩.

(٣) عبد العزيز عبد الدايم: الرق في مصر في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٨٣، ص ١٦.

(٤) فقد انتهر ابن طولون فرصة لجوء المعتمد العباسي إليه لتأديب والي فلسطين والأردن عيسى بن الشيخ الشيباني لخروجه عن طاعة الخلافة وعدم إرساله البيعة للخليفة واستيلائه على أموال =

ألفاً^(١) وأسكنهم في مكان عرف بهم، وقد حصل عليهم بطريق الشراء وكان بعضهم من النوبة والبعض الآخر من أواسط السودان ابتاعهم من تجار الرقيق^(٢).

وفي ذلك، ذكر ابن إياس «أنه بالغ في مشترى العبيد الزنج حتى بلغ عددهم نحو أربعين ألفاً»^(٣).

وكان ابن طولون يحبهم حباً شديداً لإخلاصهم له، وقد وثق بهم غاية الثقة حتى أنه أناب أيمن الأسود عند خروجه إلى الشام ليتولى أمر ابنه العباس^(٤).

واعتق أحمد بن طولون جنده جميعاً عند تجنيدهم، فيذكر القلقشندي «أن الجند السوداني من عبيد الشراء أو العتقاء»^(٥) وقيل أنه خلف من العبيد الزنج أربعة وعشرين ألف عبد^(٦). وانتشرت في عهده تجارة الرقيق، فقد حول دار أحمد بن المدير سنة ست وخمسين ومائتين بعد أن قام بهدمها إلى سوق للرقيق^(٧).

وبعد زوال الدولة الطولونية وقيام الدولة الإخشيدية على يد محمد بن طغج بن جف الإخشيدي سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٤م^(٨) أكثر من استخدام السودانيين فبلغت عدة عساكره بمصر والشام. أربعمئة ألف فارس^(٩).

= الخلافة المرسلة عن طريق أحمد بن المدير بل وعزمه على ضم مصر لبناء جيش قوي بموافقة الخليفة فأدخل عدة عناصر منها العنصر السوداني أنظر: البلوى: سيرة ابن طولون، ص ٤٧ - ٤٩.

(١) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٣٥، مكي شبكية: السودان عبر القرون، ص ٣٤، وأمنية الشوربجي: رؤية الرحالة، ص ٤٨٥.

(٢) مكي شبكية: السودان عبر القرون ص ٣٤.

(٣) ابن إياس: بدائع الدهور ج ١ ق ١ / ص ١٦٢.

(٤) البلوى: سيرة ابن طولون، ص ٢٤٨.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٧٨.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ١٦٩.

(٧) ابن دقماق: الانتصار بواسطة عقد الأمصار، بيروت ١٨٩٣، ج ٤، ص ٣٤.

(٨) ابن تغري بردي: النجوم الزهرة، ج ٣، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٩) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١ ص ١٧٨، وفي عهد الدولة الإخشيدية، كثيراً ما هاجم ملوك

النوبة حدود مصر الجنوبية وامتنعوا عن دفع البقظ، فيذكر الأنطاكي أنه في ٣٤٥هـ / ٩٥٦م =

واشتهر في عهده أبو المسك كافور الإخشيدي والذي جلب إلى مصر مع عبيد آخرين سودانيين وبيع لتاجر من تجار الزيت وقيل لرجل من أصحاب الضيع في مصر اسمه محمد بن هاشم ثم بيع لرجل يدعى محمود بن وهب بن عباس فاشتراه منه طغج الإخشيدي بثمانية عشر ديناراً فرباه وأعتقه^(١)، وارتفعت منزلته عند الإخشيدي لما كان يمتاز به من الذكاء والإخلاص^(٢) فصار من كبار قواده وقيل أنه كان له العديد من الغلمان بلغ عددهم أربعة آلاف^(٣)، و«له من الغلمان الروم السود ما يتجاوز الوصف»^(٤).

وكانت مصر في العصر الإخشيدي من أعظم أسواق الرقيق الأسود الذي كان يصل إليها من الجنوب^(٥).

ويبدو أنهم شاركوا في الحياة الاجتماعية في عهد كافور، فقد مر يوماً بحلقة سودان وكانوا يضربون على الطبل فيما يعرف بالدبدة ويصيحون فطرب كافور

= خرج ملك النوبة حتى وصل أسوان وقام بأعمال التخريب فيها وسبي وقتل منها الكثير فأرسلت إليه العساكر من مصر برًا وبحرًا فهزمته وقتلت وسبت الكثير من النوبة وفر الباقون وتم فتح حصن من حصونهم يعرف بحصن ابريم (الأنطاكي: تاريخه، ص ٧٣٣ - ٧٧٤)، كما استثمروا النزاع القائم بين انوجور وكافور على الحكم سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠م، وأغار ملكهم على الواحات المصرية وقام بأعمال التدمير والحرق لكثير من المدن، كما أغار سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥م، على أسوان وقتل النوبيون الكثير من أهلها فتصدى لهم محمد بن عبد الله الخازن من قبل انوجور بن محمد بن طغج الإخشيدي سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م، ودارت بينهم المعارك على أرض أسوان نتج عنها هزيمة النوبيين وأسر الكثير منهم وطاردتهم حتى حصن ابريم وسبى أهلها وعاد إلى مصر وفي صحبته مائة وخمسين أسيرًا: أنظر: سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٧٨.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص ٢٦٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ١.

(٢) سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ١٦٥ - ١٦٦، أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج١، ص ٧٣.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص ٥٦، مكي شبكة: السودان عبر القرون، ص ٣٤، وحسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج٣، ص ٤٣٥.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ٦.

(٥) آدم منتز: الحضارة الإسلامية، ج١، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

لذلك^(١). كما كانوا يشاركون في بعض الأعمال في الدولة الإخشيدية، فقد استخدم الكثير من السود في وادي علاقي وعيذاب في الصحراء الشرقية للعمل في المناجم والبحث عن الذهب، كما استخدم الذكور والإناث معًا للعمل في مناجم النحاس في الصحراء^(٢).

استخدام الفاطميين للسودان:

استخدم الفاطميون السودان أو العنصر النوبي تمشيًا مع السياسة التي اتبعوها الإخشيديون من قبل. وكانت سياسة الفاطميين تقوم في تكوين جيوشهم على عدم الاقتصار على جنس واحد فإلى جانب المغاربة ادخلوا العنصر السوداني.

وانتشر الرق في المجتمع الفاطمي على نحو ما كان الحال عليه في بقية مجتمعات العصور الوسطى، وكانت الرقيق سوق رائجة تحوى أجناسًا متعددة ولكن العبيد السود كانوا أكثر هؤلاء عددًا نظرًا لازدياد الطلب عليهم^(٣).

فقد كانت تجارتهم واسعة وكانوا يجلبون من بلاد النوبة حيث يصطادهم أهل أسوان ويبيعونهم في أسواق النخاسة بمصر والبلدان المجاورة لها^(٤). وكانت منطقة مريس النوبية هي مصدر الرقيق النوبي في العصر الفاطمي^(٥).

وقد اعتمد الخلفاء الفاطميون الأوائل على السودان إلى جانب المغاربة في تأليف جيوشهم^(٦).

وكان لكثرة النوبيين وازدياد نفوذهم في دولة الفاطميين أن صارت لهم في كل مدينة من مدن مصر حي خاص بهم لا يدخله أحد غيرهم إلا بإذنهم خوفًا واحترامًا لهم فقد كانوا دائمًا مصدر قلق واضطراب للفاطميين بل أثروا في النواحي السياسية

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١ ص ١٧٨، سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ١٣٨.

(٢) لبيرة إبراهيم: الرقيق وتجارته، ص ١١٦.

(٣) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٨٥.

(٤) بنيامين التطيلي: الرحلة، ص ١٧٠.

(٥) عبد الرازق عبد المجيد: العلاقات بين مصر والنوبة، ص ١٨٦.

(٦) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٢.

والاقتصادية والاجتماعية «ويخرج لطائفة من العبيد الأقوياء السودان الشباب ويقال لهم أرباب السلاح الصغير وهم ثلاثمائة عبد لكل واحد حربتان بأسنة مصقولة تحتها جلب فضة كل اثنتين في شراية وثلاثمائة درقة بكوابج فضة، يتسلم ذلك»^(١) وكانت القصور الفاطمية مكتظة بالكثير منهم سواء كانوا عبيدًا أو جوارى قائمين بمختلف الوظائف^(٢).

وكانت هناك مجموعة من الأجناد السود يصل عددهم إلى خمسمائة رجل ومثلهم من الفرسان مهمتهم حراسة قصر الخليفة والمرور حول أسواره طوال الليل وكان يلقب مقدمهم «سنان الدولة» من واجباته نفخ البوق ودق الطبل والصنوج بعد صلاة العشاء وإغلاق باب القصر وتثبيت سلسلة لمنع المرور بين القصرين ثم يقوم برفعها عند نفخ البوق في الفجر^(٣).

وحدث في أواخر عهد الدولة الإخشيدية أن امتنعوا عن دفع البقطة، فلجأ جوهر إلى إرسال أحمد بن سليم الأسواني لملك النوبة يطالبه بدفعها للدولة فخضع للأمر ودفع ما عليه كما أن جوهرًا دعاه لاعتناق الإسلام فلم يقبل، ومع ذلك فقد اتسم عهد الفاطميين بالسلام مع النوبة وأهلها^(٤).

كما حدث أن ثار عبد العزيز بن إبراهيم الكلابي أحد زعماء العرب في صعيد مصر ضد الفاطميين عام ٣٦١هـ / ٩٧٢م، فجهز له جوهر حملة سارت برًا ونهرًا بلغت عدد المراكب فيها أربعين مركبًا تحت قيادة قائد نوبي الأصل يدعى بشارة^(٥). ولما جاء المعز إلى مصر عام ٣٦٢هـ / ٩٧٣م، وجه اهتمامًا كبيرًا للفرق النوبية حتى أصبحت هذه الفرق من أهم فرق الجيش في عهده وكان يشركهم في ركوبه في احتفالاته بعيد رأس السنة الهجرية ويختار منهم ثلاثمائة شاب من أشد

(١) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٢) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٨٦.

(٣) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي، ص ٢٨.

(٤) مكي شببكة: السودان عبر القرون، ص ٢٣ - ٣٣.

(٥) المقرئزي: إتعاظ، ج ١، ص ١٣١.

الشبان ويسلم كل منهم درقة^(١) وحرابًا محلاة بالفضة فيسيرون في موكبه في نظام رائع كان يطلق عليهم اسم أرباب السلاح الصغير - ويبدو أنهم كانوا حرسه الخاص^(٢).

ولم يذكر لهم دور بارز في عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمي، أما الحاكم فقد استكثر منهم حتى أن عددهم زاد بصورة واضحة واستخدمهم الحاكم للقضاء على شغب الأتراك^(٣). واستكثر من عبيد الشراء^(٤).

وكان الحاكم يقرب السودانيين إليه ويثق بهم، ومنهم أبو الرضا سعد خادمه الأسود الذي جعله كاتبًا له ومنحه إقطاعًا ومالًا كثيرًا، وكان الناس يتوسطون لديه لقضاء حوائجهم لدى الحاكم^(٥).

وكان يستعين بهم في القصاص من أهل السوق الذين يخسرون الميزان يرقى الخدم منهم إلى الوظائف الإدارية لمسايرتهم له وعدم اعتراضهم على أفعاله بل ومساندته في القضاء على فتنة أهل الفسطاط^(٦).

وقد كان لهم دور بارز في الاضطرابات التي نتجت عن سياسة الحاكم، فعندما أمر في ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م بهدم كنيسة مريم القنطرة بمصر كان فيها مقابر ومدافن للنصارى قام السودانيون والعبيد بفتحها ونبشوا الموتى والقوا بعظامهم «فأكلت الكلاب لحم من كان قريب العهد منهم»^(٧).

(١) الدرقة هي الدرع.

(٢) المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٤٤٦.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ ٤، ص ٥٨٩، ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٢٧ - ٣٧٣، أمينة الشوربجي: رؤية الرحالة، القاهرة ١٩٩٤، ص ٤٨٥.

(٤) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص ٢١، ماجد: نظم دولة الفاطميين، ص ١٩٩.

(٥) المقرئزي: اتعاظ، جـ ٢، ص ١٠٤.

(٦) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ١٠٢.

(٧) الأنطاكي: تاريخه، جـ ٢، ص ٤٩١.

من هذا، يتضح لنا مدى غلظة هؤلاء والروح العدوانية التي كانت تتسم بها شخصياتهم. وكان للسودانيين دور كبير في حرق الفسطاط بأمر الحاكم واشتدوا على أهل هذه المدينة الذين ساءهم ادعاء الحاكم الآلوهية، وصنعوا تمثالاً على هيئة امرأة وفي يدها جريدة عليها ورقة فأخذها الحاكم سنة ٤١٠هـ / ١٠١٩م أثناء مروره وقرأها فإذا بها سب له ولأسلافه فغضب غضباً شديداً وأمر عبيده السودان بعد أن فرق عليهم السلاح بحرب أهلها وظلوا يقاتلون أهل الفسطاط ثلاثة أيام واشتد عسفهم بالأهالي قتلًا وحرقًا واستمات المصريون في الدفاع عنها^(١). وكانت من أهم الطوائف السودانية في عهد الحاكم الطائفة العطفوية (نسبة إلى عطوف الخادم الأسود الذي استخدمته ست الملك أخت الحاكم)^(٢). وكذلك في عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤م)^(٣). تمكن السودانيون وزاد نفوذهم لزواجه من السودانية أمة أبي سعيد التستري اليهودي والتي أنجبت منه الخليفة المستنصر الذي مكث في الخلافة ستين عاماً وهي أطول مدة أقام بها خليفة في تاريخ الخلافة الإسلامية ٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤م^(٤). وقد قربهم الظاهر ووثق بهم وولاهم المناصب الرفيعة في الدولة والتي تتطلب ثقة الخليفة فيمن يوليه تلك المناصب، فقد أنعم على أبي الفوارس معضاد الخادم الأسود والذي كان أستاذه يلقب عز الدولة وسماه «أبو الفوارس معضاد»، وذلك في احتفال كبير أقامه له^(٥) وذلك لأنه قائم بحقوق الخدمة ويرعى مصالح الناس، وقد بلغ مكانة كبيرة في عهد الظاهر حتى أنه عهد إليه بإدارة كافة أمور الدولة^(٦).

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ١٩٣، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٢، ص ٩ - ١٠، وابن تغري

بردي، جـ ٤، النجوم الزاهرة، ص ١٨١ - ١٨٢، جمال سرور: الدولة الفاطمية، ص ٩٦ - ٩٧.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٣٥٥.

(٣) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص ٣١، أمينة الشوريجي: رؤية الرحالة ص ٤٨٥.

(٤) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٣، سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص

٢٥١، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ ٤، ص ٥٨٩.

(٥) المقرئ: اتعاظ، جـ ٢ ص ١٣٩ - ١٤٠. وأنظر

Yaacov Lev, Arab history and civilization (state and society) V.1 P P. 75: 76.

(٦) المسبحي: أخبار مصر، ص ١٨، ٢٩، ٣٠، ٣١.

كما عهد إلى نافذ المعروف ببدر الدولة الخادم الأسود بولاية الشرطتين العليا والسفلى كما كان في عهده يميز السودانيين بمنحهم وظائف الحسبة والشرطة وكانت من أخص المناصب في الدولة^(١).

ومما يدل على زيادة نفوذ السودانيين على بقية الطوائف في تلك الفترة أن المقرئى ذكر أن «ركب القائد الأجل عز الدولة وسناها معضاد الخادم الأسود في سائر الأتراك ووجوه القواد، وشق البلد ونزل إلى الصناعة التي بالجسر بمن معه ثم خرج من هناك وعدى في سائر عساكره إلى الجيزة حتى رتب لأمير المؤمنين عساكر تكون معه مقيمة هناك لحفظه»^(٢).

وهذا يوضح أن السودانيين كانت لهم في عهد الظاهر السيادة على الأتراك، فقد كان معضاد يترأس هؤلاء الأتراك^(٣).

وقد قويت شوكتهم في عهد الظاهر بدرجة خطيرة حتى أنهم في ١٤١٤هـ / ١٠٢٣م خرجوا في ألف رجل إلى جبل المقطم وانضم إليهم اللصوص والرعايع وقرروا الهجوم على مصر للنهب والسرقة فأصدر الخليفة أمراً بمعاقبة هؤلاء والتصدي لهم وقتل كل من يتعرض منهم للأهالي فحاربهم الشعب وتصدى لهم بعد أن اتجهوا إلى إشعال النيران بالديار ونهبوا المساكن، وقد بعث لهم الخليفة بفرقة من الصقالبة طردتهم خارج البلاد وعاقب معضاد الدولة الكثير منهم^(٤).

وفي عهد المستنصر، زاد عدد العبيد السودانيين زيادة ملحوظة حتى قيل أن عددهم بلغ خمسين ألفاً وذلك لأن أم المستنصر الجارية السوداء تعصبت لبني جنسها وأكثرت من شرائهم واستكثر منهم وجعلتهم طائفة لها^(٥). وأكثرت من منحهم

(١) المسبحي: أخبار مصر، ص ١٨، ٢٩، ٣٠، ٣١.

(٢) المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٠٦.

(٣) سوزى أباطة: السودانيون في جيش مصر، ص ١٥٦.

(٤) المسبحي: أخبار مصر، امتداد الجزء، المقرئى: اتعاط، ج ٢، ص ١٦٤ - ١٧٢، وأنظر:

Yaacov Lev Arab history and civilization: (state and society) V.1 P.76.

(٥) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٢٥، النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٢٦.

وعطاياهم حتى قوى نفوذهم و«صار العبد بمصر يحكم حكم الولاة»^(١).

وفي ذلك ذكر ناصر خسرو أن «أركان الدولة والخدم من العبيد السود أو الروم»^(٢)، وقد كونوا بذلك عنصراً هاماً من عناصر القوة في الجيش والقصر الفاطميين^(٣).

وقد اشتهرت أم المستنصر بذكاء شديد استخدمته في السيطرة على ابنها فتحكمت في كل شئون الدولة وقويت بها شوكة السودان وتحكموا في الخليفة^(٤).

وكان من العوامل التي ساعدتها على الإستئثار بالسلطة وفرض سيطرتها على الحكم خلو الساحة في تلك الفترة ٤٣٦-٤٦٢هـ — / ١٠٤٥-١٠٧٠م من أحد الوزراء الأقوياء مما مكنها وجعلها تدبر أمور الدولة دون الخليفة الضعيف فكانت تلك الفترة محصورة بين وفاة الجرجرائي الوزير ذي النفوذ القوي والذي منعها من التدخل أو السيطرة على شئون الحكم وحتى ظهور ناصر الدولة ابن حمدان زعيم الأتراك الذي أوقف تدخلها في شئون الدولة^(٥).

وكان نصف السودانيين في ذلك العصر من الزنوج والآخر من عبيد الشراء وقد تضاعفت أعداد فرقة عبيد الشراء لاستكثار أم المستنصر منهم^(٦).

ومما يؤكد زيادة أعداد هؤلاء في تلك الفترة ما ذكره الرحالة ناصر خسرو، من مشاهدته لهم أثناء الاحتفال بعيد فتح الخليج فذكر أنه كان ضمن تشكيلات الجيش فرقة تسمى «عبيد الشراء» وهم عبيد مشترون قيل أنهم ثلاثون ألف رجل وفرقة

(١) المقرئزي: اتعاظ، جـ ٢، ص ٢٦٦: ٢٦٧، ماجد: نظم الفاطميين، جـ ١، ص ١٩٩، وعبد المنعم

سلطان: المجتمع المصري، ص ٨٦.

(٢) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٠٥.

(٣) مكي شبيكة: السودان عبر القرون، ص ٣٤.

(٤) حسب الله محمد: قصة الحضارة، ص ٢٣٤، ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ١٣٨.

(٥) ناريمان عبد الكريم: أحوال المرأة في العصر الفاطمي، ص ١٦٥ - ١٦٦.

(٦) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص ٣١، ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٧٢.

تسمى «الأسنادون»^(١) كلها خدم بيض وسود اشتروا للخدمة وهم ثلاثون ألف فارس^(٢).

وظلت أم المستنصر تستكثر من شراء هؤلاء السودانيين، وكلما استكثرت منهم استكثر ابنها من الجند الأتراك فأصبح السودانيون والأتراك طائفتين كبيرتين اشتعلت بينهما المنافسة للاستئثار بالنفوذ^(٣) وكانت أم المستنصر تتحين الفرص لإذكاء نار الفتنة بين السودان والأتراك وتعددهم دائماً بالعطايا إذا حاربوا الأتراك^(٤). وقد أسهم هذا في حدوث الشدة المستنصرية التي عانى منها الرعية والخليفة معاً^(٥). لم يكن هذا بسبب قلة الفيضان أو قصور مد النيل فقط وإنما كان السبب الحقيقي هو محاربة الأجناد مع بعضهم البعض بصورة وحشية^(٦).

وحينما زادت الشدة على الناس، يذكر ابن تغرى بردي^(٧) أن السودانيين كانوا يخطفون النساء بالكلايب من الأزقة ويقطعون لحومهم ويأكلونها «واجتازت امرأة بزقاق القناديل بمصر وكانت سميكة فعلقها السودان بالكلايب وقطعوا من عجزها قطعة وقعدوا يأكلونها وغفلوا عنها فخرجت من الدار واستغاثت فجاء الوالي وكبس الدار فأخرج منها ألوفاً من القتلى وقتل السودان».

وقد ذكر المقرئى تلك الحادثة قائلاً: حدثتني بعض نساءنا الصالحات، قالت:

(١) الأسنادون هم المعروفون بالخدم والطواشية وكان لهم في دولتهم المكاة الجليئة ومنهم كان أرباب الوظائف الخاصة بالخليفة وأجلهم المحنكون وهم الذين يدورون عمائمهم على أكتافهم كما تفعل العرب والمغاربة وهم أقربهم إليه وأخصهم به، ابن تغرى بردي: النجوم، جـ ٤، ص ٨٢، وعطية مشرفة: نظم الحكم، ص ١٠٧.

(٢) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١١٠.

(٣) المقرئى: الخطط جـ ٢ ص ٢، جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ ٤، ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(٤) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٢٤: ٢٥، النويري: نهاية الأرب، ص ٢٢٤ - ٢٢٧.

والمقرئى: الخطط جـ ٢ ص ٢٧٣: ٢٧٤، ابن تغرى بردي: النجوم جـ ٥، ص ١٧، ١٨.

(٥) المقرئى: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٢٢ - ٢٤.

(٦) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٥٨، أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية، ص ١٤٠.

(٧) ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ١٧.

كانت لنا من الجارات امرأة ترىنا أفخاذها وفيها كالحفر، فكنا نسألها فتقول: أنا ممن خطفني أكلة الناس في الشدة فأخذني إنسان وكنت ذا جسم وسمن - فأدخلني إلى بيت فيه سكاكين وآثار الدماء وزفرة القتلى فأضجعني على وجهي وربط في يدي ورجلي سلبا إلى أوتاد حديد عريانة، ثم شرح من أفخادي شرائح وأنا أستغيث ولا أحد يجيبي، ثم أضرم الفحم وشوى من لحمي وأكل أكلاً كثيراً ثم كسر حتى وقع على جنبه لا يعرف أين هو .. فأخذت في الحركة إلى أن انحل أحد الأوتاد وأعان الله على الخلاص، وتخلصت وحللت الرباط وأخذت خرقاً من داره ولففت بها أفخادي وزحفت إلى باب الدار وخرجت أزحف إلى أن وقعت إلى المأمن وجئت إلى بيتي وعرفتهم بموضعه فمضوا إلى الوالي فكبس عليه وضرب عنقه وأقام الدواء في أفخادي سنة إلى أن ختم الجرح وبقي كذا حفراً»^(١).

ومما سبق نستطيع أن نتبين أنهم كانوا قساة الطبع غلاظ القلب ليست لديهم رحمة أو شفقة.

وفي نهاية عهد المستنصر، قاتل بدر الجمالي فلول السودان الذين استولوا على الصعيد^(٢).

وفي عهدي المستعلى والأمر سيطر الأرمن على كل أمور البلاد، أما في عهد الحافظ فيبدو أنهم كانت لهم بقية من قوتهم، فيذكر لنا ابن ميسر^(٣) أنه في سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢م «حشد جماعة من العبيد بالأعمال الشرقية فكانت حرب بينهم وبين العسكرية».

وقد ذكرت لنا بعض المصادر^(٤) أنه تم قتل الوزير رضوان بن ولخشي على يد مقدمي السودان وقبضوا ثمن قتله من الحافظ، وكان ذلك سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م، كما قتلوا معه أخاه ودخلا برأسيهما إلى الحافظ.

(١) المقرئزي: الخطط، ج-١، ص ٣٣٧.

(٢) ابن الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٩٦، ابن ميسر: المنتقى، ص ٤١.

(٣) ابن ميسر: المنتقى، ص ١١٨.

(٤) المقرئزي: اتعاظ، ج-٣، ص ١٨٤، وأنظر ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر ص ١٣٨.

وفي سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م، تطاحنت الفرقتان الجيوشية - والتي يبدو أنها كانت أرمنية تابعة لأمير الجيوش بدر الجمالي والطائفة السودانية الريحانية وقد قتل فيها العديد وانهزمت الريحانية وانسحبت إلى الجيزة^(١).

كما يذكر ابن ميسر أنه من رابع شعبان من تلك السنة اجتمع بالهاوية جمع كبير من السودان والمفسدين فخرج إليهم الوزير ابن مصال فحاربهم وكسرهم^(٢).

وفي عهد الفائز عيسى أبو الوفا القاسم (٥٤٩-٥٥٥هـ / ١١٥٤-١١٦٠م)، انضم السودان إلى جند مصر في ثورتهم على الوزير ركن الدين عباس وآزروا طلاع بن رزيك وقتلوا عباس عام ٥٤٩هـ / ١١٤٥م، كما استعانت عمّة الفائز ست القصور بهؤلاء السودانيين على قتل طلاع فتربصوا له في دهليز القصر وقتل سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م^(٣). وقد أمدنا المقرئ في بعدد الجند في ديوان الجيش أيام الوزير بن طلاع (٥٥٦-٥٥٨هـ / ١١٦٠-١١٦٢م) إذ بلغ أربعين ألف فارس وثلاثين ألف رجل من السودان^(٤).

وكان للسودانيين دور بارز في عهد العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧هـ / ١١٦٠ - ١١٧١م) حتى أنه يعتبر من أخطر أدوارهم على مدى تاريخ الدولة الفاطمية، فقد تسببوا في الإسراع بالقضاء على دولة الفاطميين وقيام الدولة الأيوبية واعتلاء السلطان صلاح الدين الأيوبي عرشها.

وقد ذكر ابن واصل^(٥) نصًا هامًا لأنه يحدد عدد الجند السوداني في الجيش المصري أواخر العصر الفاطمي فقال: «وصلنا البلاد وبها أجناد عدهم كثير وسوادهم كبير وأموالهم واسعة وكلمتهم جامعة وهم على حرب الكفر والحيلة وفي السر فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف

(١) نفسه.

(٢) المقرئ: اتعاط، ج-٣، ص ١٦٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج-١١، ص ٢٧٤، أبي شامة: الروضتين، ج-١، ص ٣١١ - ٣١٣.

(٤) المقرئ: الخطط، ج-١، ص ٨٦.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج-٢، ص ٢٦.

رجل كلهم أعتام أعجام إنهم إلا كالأنعام لا يعرفون رباً إلا ساكن قصره ولا قبله إلا ما يتوجهون إليه من ركنه وامثال أمره»، ويقال أن عددهم في أيام صلاح الدين وصل إلى مائة ألف مقاتل^(١).

كما يبدو أنهم ثاروا عليه لتجاهله لهم واستبعادهم من الجيش الأيوبي واستبدالهم بعناصر كردية وتركية وديلمية فحاولوا استعادة مركزهم الذي كان لهم في الجيش الفاطمي بتدبير مؤامرة لإقصائه ولكن سرعان ما كشفهم وقضى على غالبيتهم^(٢) وقد كانت علاقة صلاح الدين بالجند السودانيين سيئة لمحاولتهم إقصاءه من الوزارة في عهد العاضد^(٣).

وفي سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م، أمر صلاح الدين بقتل جميع السودان بالديار المصرية وسائر أعمالها^(٤).

ولما خرج العبيد من النوبة لحصار أسوان وبها كنز الدولة^(٥)، أعطى السلطان أوامره للشجاع البعلبكي بالخروج إليهم فرحلوا إلى أسوان فتبعهم ومعه كنز الدولة وقتل منهم الكثير وعاد إلى القاهرة منتصراً^(٦).

وبذلك انحسر دور السودانيين، وبقيام الدولة الأيوبية، سيطر الأتراك على مقاليد الأمور.

(١) عبده بدوي: السود والحضارة، ص ١٤٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ٢، ص ٣٤٧، أبي شامة: الروضتين، جـ ١، ص ٤٥٠ - ٤٥٢، وابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٧٤: ١٧٧، ومخطوط فتوح النصر: محمد بهاء، جـ ١، ص ٦١، ابن الفرات، جـ ٤، ص ٧٨. جمال الشيال: تاريخ مصر، جـ ٢، ص ٢١، ٢٢.

(٣) مكي شبكة: السودان عبر القرون، ص ٣٤.

(٤) ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٧، ص ٥٠.

(٥) يسمى أيضاً "الكنز" فقط وهو مصري من الصعيد أقام بأسوان حين تشرد الجنود السودانيون على يد صلاح الدين بعد كشف مؤامرة مؤتمن الخلافة، وقد جمع هؤلاء الجنود وحاول إعادة الدولة الفاطمية: أنظر: المقرئزي: السلوك، جـ ١، ص ٥٠، حاشية ٩، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٢، ص ١٦ - ١٧.

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٥٦، أبو شامة: الروضتين جـ ٢ ق ١، ص ٥٣١، المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ٥٠، مكي شبكة: السودان عبر القرون، ص ٣٤.

الصراع بين طوائف الماليك

اتجه الفاطميون إلى تكوين جيش قوى يوطد مركزهم ويعاونهم في مد سلطانهم إلى بلاد الشرق وكان جيشهم في أول الأمر يتكون من قبائل كتامة المغربية والصقالبة ثم أضافوا إليه في مصر الأتراك والأكراد والغز والديلم والسودان وغيرهم^(١).

وكان من الطبيعي أن يؤدي اختلاف أجناس تلك الطوائف إلى اشتداد التنافس فيما بينهم^(٢).

فكان من أثر استبدال الخلفاء الفاطميين لمغاربة كتامة بالترك والسودان والصقالبة أن تنافست كل تلك الطوائف وقامت بينهم المنازعات التي أثرت على أمن البلاد^(٣) فكانت تلك العناصر تتعاون حيناً وتتفاعل أحياناً وتؤثر في السياسة وتنشأ عنها المؤامرات السرية أحياناً والقتال الصريح أحياناً أخرى وكان لها كلها أثر واضح في كل نواحي الحياة سواء الاقتصادية أو الاجتماعية^(٤).

وقد تعددت الأسباب التي كانت تدفع تلك الطوائف إلى التصارع والتطاحن، فقد كان الخليفة أحياناً يقرب طائفة ويميل إليها على حساب طائفة أخرى ثم يدفع الثمن في النهاية ضعفاً في دولته وانهياراً حتى تتداعى وتبدأ في طور السقوط^(٥).

وأمام كثرة أعدادهم، وتنوع انتماءاتهم واختلاف طموحاتهم، لجأ الخلفاء أحياناً إلى ضربهم بعضهم ببعض لتحقيق مصلحة شخصية خاصة بهم^(٦).

ومع أن هذا الصراع لم يكن يقصد المساس بالخلافة أو القضاء عليها فقد كان

(١) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٣٥.

(٢) عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية، ص ١٨٩ - ١٩٠.

(٣) عبد الله حسين: الدولة الإسلامية، ص ٣٩٧.

(٤) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ١، ص ٨٧.

(٥) عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية، ص ١٩٢.

(٦) أمينة الشوريجي: رؤية الرحالة، ص ٤٩١.

القتال بدور تحت الإدعاء بالمحافظة على بقاء الخلافة والولاء لها^(١).

وكان لاختلاف البيانات المتعددة لطوائف المماليك والتباين الواضح في عادات وتقاليدها كل طائفة، والتي كانت تعبر عن سمات المجتمعات التي أتوا منها، أثر كبير في التنافر بينهم إلى جانب طمعهم في الوصول إلى السلطة وبذل الحيل في التقرب من الخلفاء للحصول على ميزات مادية أو معنوية أو وظائف قيادية.

كانوا يستخدمون كل ما يمكنهم من أساليب للوصول إلى غاياتهم على غرار السياسة الميكافيلية والتي ترفع شعار الغاية تبرر الوسيلة.

وقد أدى الصراع بين هذه الطوائف إلى انهيار الاقتصاد المصري وبالتالي إلى ضعف الدولة، كما أدى الصراع بين الوزراء في العصر الفاطمي الثاني إلى القضاء على الدولة وانهيارها واضمحلالها.

لذلك نستطيع القول أنه إذا كان الصراع على الحكم أمر فطري جُبل عليه الإنسان فإنه أصبح في عهد الدولة الفاطمية مرضاً سياسياً ينهش في كيان مصر^(٢). كما نستطيع القول أن غرض الدولة الفاطمية من استحداث نظام تعدد الطوائف في جيوشها كان لإحداث المنافسة بين تلك الطوائف ضماناً لولائها ولكن النتيجة جاءت عكسية تماماً.

فلم يكن قصور الفيضان والغلاء والقحط وتفشي الأوبئة على مدى فترات العصر الفاطمي هو السبب الأساسي في انهيار اقتصاديات البلاد وإنما كان تنافس وطوائف الجند هو السبب الأساسي في إشاعة الفوضى وتدهور اقتصاديات الدولة الفاطمية التي أثرت العالم الإسلامي علماً وثقافة فكانت القلاقل تنمو في فترات الاضمحلال السياسي التي كانت متعرض لها مصر من وقت لآخر تبعاً لضعف الخليفة فيشتد الصراع بين الطوائف لمحاولة طائفة منهم الاستئثار بالحكم دون الأخرى أو

(١) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص ٨٦.

(٢) أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية، ص ١٥٤.

السيطرة على الخليفة الضعيف مثيرة للشغب والاضطراب داخل المجتمع المصري^(١). وكان للوزراء المنتمين إلى تلك الطوائف، والذين تظاهروا بحب مصر التي أتوا إليها وتمصروا فيها وأبدوا حرصهم على ضبط أمورها (ومدحهم في ذلك شعراؤهم المنتمون إليهم) وادعوا حرصهم على وحدتها. دور كبير في سلبية المصريين في مواجهتهم «فالشخصية المصرية ونيدة الخطى في ثوراتها ما لم تمس جوهر عقائدها واصل موروثةا لأنها غير نزاعة إلى التمرد والثورات، وقد كان المتخاصمون مسلمين (أو هكذا كانوا يعرفون) فعلى من تنور مصر الإسلامية وهي تواجه خطراً صليبيًا يطرق الأبواب ويحتاج إلى جمع الشتات ورأب الصدع»^(٢).

وقد شهدت مصر خلال العصر الفاطمي الصراع الذي كان دائراً بين تلك الطوائف، فعندما دخل جوهر الصقلي مصر عام ٣٥٨هـ / ٩٦٩م في عهد المعز فإن الطائفتين الإخشيدية (ويبدو أنها من الأتراك بقايا الإخشيد) والكافورية (ويبدو أنها من السودان بقايا كافور) أثارتا الفتن والقلق، فبعد أن اجتمع رأيهما على تسليم البلاد إليه دون قتال أو حرب بعد أخذ الأمان من جوهر، وبعد أن تم منحهم الأمان^(٣). عادوا عما اتفقوا عليه من مسالمة واتفقوا على المحاربة ونصبوا شخصاً يدعى تحرير شويزان سار بالعسكر إلى الجزيرة والجيزة وأرسل فرقا إلى منية الصيادين ليمنع عساكر جوهر من العبور إلى القسطنطينية، كما حاربوا بعضاً من جنود جوهر الذين وصلوا إلى منية الصيادين وانتهت المعركة بانتهازم الإخشيدية وسارع تحرير شويزان إلى داره فحمل ما خف حمله وغلا ثمنه وهرب إلى الشام هو ومن بقي من الإخشيدية والكافورية^(٤).

(١) أمينة الشوريجي: رؤية الرحالة، ص ٤٨٢، ٤٨٨، ٤٨٩.

(٢) أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية، ص ١٥٤.

(٣) بيبرس الدوادار: مخطوط زبدة الفكرة، ج ١، ص ٢٠٠، يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، ص ١٨٨. وأنظر: Yaacov Lev, Arab history and civilization (state and society) V.1 P.83 - 84.

(٤) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، ص ٨١٨ : ٨١٩، ابن الوردي: تاريخه، ص ١٨٨، وأنظر: Yaccov Lev, Arab history and civilization: (state and society) V.1 P.83.

وفي اليوم التالي دخل جوهر القاهرة بمن معه من عساكر كتامة وغيرها وخطب للفاطميين بالفسطاط وسائر النواحي في نهاية شعبان من نفس السنة^(١).

وكانت هذه القبائل هي التي دعت الفاطميين في تأسيس خلافتهم في مصر والعنصر الأساسي الذي تشكل منه الجيش الفاطمي حين دخل الفاطميون مصر، ولذلك فقد تمتعوا بمراكز ممتازة في الدولة وتولوا المناصب المرموقة وعرفت بعض الحارات باسمهم^(٢).

فلما استعان المعز لدين الله بالأتراك وبدأ سهم هؤلاء المغاربة في الهبوط عملوا على إثارة الاضطرابات لاستعادة مكانتهم السابقة مما تسبب في إضعافهم وكراهية المصريين لهم فضلاً عن الاختلاف المذهبي بينهم وبين المصريين وضعف جانبهم حينما هزمهم الأتراك واضطروهم للتوجه إلى الوجه البحري^(٣).

واستكثر العزيز من الأتراك، فالمقريري يقول: «فلما كان في أيام ولده العزيز بالله نزار اصطنع الديلم والأتراك وقدمهم وجعلهم خاصته فتنافسوا وصار بينهم وبين كتامة تحاسد»^(٤). وأطلق على تلك الفرقة «المشارقة» وقد بلغ عددهم حوالي عشرة آلاف^(٥).

وقد كان هذا من وجهة نظر المؤرخين خطيئة لأنه سيكون فيما بعد سبباً في اضطراب أمور الدولة وانحلالها فليس كل خلفاء الدولة الفاطمية كانت لديهم القوة بحيث يستطيعون السيطرة على تلك الطوائف^(٦).

(١) الأنطاكي: تاريخه، ص ٨٢٠: ٨٢١، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٧، ص ٤٧، ٦٠، ابن الوردي: تاريخه، ص ٤٠٨، المقريري، الخطط، ج ٢، ص ١٢، السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٩٩، علي إبراهيم حسن: تاريخ المعاليك البحرية، ص ٢٩.

(٢) عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم، ص ١٧١.

(٣) المقريري: الخطط، ج ٢، ص ١٢، محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص ٧٢ - ٧٤.

(٤) المقريري: الخطط، ج ٢، ص ٢٠٦.

(٥) أمينة الشوربجي: رؤية الرحالة، ص ٤٨٣.

(٦) عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم، ص ١٣، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ، ج ٥، ص ١١٤-١١٥.

وانحط نفوذ كتامة في تلك الفترة حيث قام الوزير يعقوب بن كلس بإسقاط المغاربة واستخدام المشاركة في ٣٧٠هـ / ٩٨٠م والاستكثار منهم^(١) تنفيذاً لسياسة ورغبة العزيز. وقد سمح العزيز لوزيره هذا بتكوين فرقة خاصة تحمل اسمه مكونة من خمسمائة غلام كان قد وهبهم له. وجمعت هذه الفرقة اسم الوزيرية نسبة إليه وكانت هذه بداية إنشاء الفرقة الخاصة التي تحمل اسم الخلفاء أو الوزراء وكانت تمثل الحراسة الخاصة لهم. وقد استزاد منهم ابن كلس حتى وصلت إلى أربعة آلاف حيث يخبرنا ابن خلكان أنه «وجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام»^(٢). وقد ازداد عدد هؤلاء الأتراك والديالمة في عهد العزيز عندما قدم افتكين^(٣) المغربي بعد هزيمة العزيز له وقبضه عليه فدخل إلى القاهرة سنة ٣٦٨هـ / ٩٧٨م فجاء معه أصحابه من الديلم والأتراك وأقاموا بالحارات مع أبناء جنسهم^(٤).

ثم بدأ الصراع الحقيقي بين تلك الطوائف المختلفة في عصر الحاكم بأمر الله سنة (٤٢٧-٤٨٧هـ / ١٠٢٠-١٠٣٥م)، فقد ظهر العنصر الصقلبي بقوة متمثلاً في برجوان الخادم الذي كان خادماً على القصور الفاطمية في عهد العزيز بالله ثم دبر الأمور للحاكم بأمر الله^(٥).

وقد تولى الحاكم الخلافة صغيراً فكان عمره وقتها إحدى عشرة سنة فتفتحت عيناه على عناصر مختلفة يكتظ بها القصر من أتراك ومغاربة وصقالبة وسودانيين كان لكل منها هدف واتجاه ومذهب تتسابق كلها للوصول إلى أعلى مرتبة^(٦).

(١) مصطفى مشرفه: نظم الحكم، ص ١٧١ - ١٧٢.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ٧، ص ٣٣، وراجع عبد الله جمال الدين الدولة الفاطمية، ص ١٩٠.

(٣) ذكر المقرئ أن اسمه هفتكين. أنظر: المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ١.

(٤) المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ١.

(٥) ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٦، ص ١٤٢، ابن الوردي: تاريخه، ص ٣٣٥، وابن تغري بردي: النجوم، جـ ٤، ص ٤٨.

(٦) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ، جـ ٥، ص ١١٧.

وفي الوقت الذي كان ينعم فيه برجوان في قصر اللؤلؤة في حديقة كافور بالراحة، كانت قوات البربر والأتراك تتقاتل في شوارع القاهرة حتى وصل الأمر إلى أن الحارس التركي أتى إلى الحاكم برأس القائد المغربي^(١).

وكان الحاكم قد قرب ابن عمار الكتامي وولاه الوزارة فاستبد بالأمور وقدم كتامة وزاد في أعطياتهم في نفس الوقت الذي حظ فيه من المشاركة، فاجتمعوا إلى برجوان حتى يخلصهم منه ووجدوا في نفسه هوى لتولي الوزارة^(٢).

ولذلك، ثارت المغاربة وطلب من الحاكم تسليم الجاني ليفتدوا به ثم استقر الحال على دفع دية بلغت ألف دينار، ولكن الكتامين رفضوا وانقضوا على الجاني فقتلوه، فغضبت المشاركة وقامت بينهما وقعة عظيمة سنة ٣٨٧هـ / ٩٧٧م، وظلت المعارك دامية ثلاثة أيام بينهما حتى ألزم الكتاميون ابن عمار إلى مشاركتهم حرب المشاركة، واشتعلت المعارك بينهم ونتج عنها انهزام المغاربة، ونهب المشاركة دار ابن عمار ودور المغاربة، ثم اختبأ ابن عمار في داره حتى قتل وعهد الحاكم إلى برجوان الصقلبي بالنظر في الأمور^(٣).

ويصف ابن القلاسي تلك الحادثة وصفاً دقيقاً حيث يقول: «واجتمع الأتراك والديلم والمشاركة وعبيد الشرا بالسلاح على باب القصر وبرجوان يبكي ويقول لهم: يا عبيد مولانا احفظوا العزيز في ولده وارعوا فيه ما تقدم من حقه، وهم يبكون لبكائه، وركب الحسن بن عمار في كتامة ومن انضاف إليهم من القبائل وغيرهم وخرج إلى الصحراء وتبعوه، وتبعه وجوه البلد فصار في عدد كثير، وفتح برجوان خزائن السلاح وفرقه على الغلمان والرجال واحدقوا ومن معهم بالقصر من المشاركة والعامية بقصر الحاكم وعلى أعلاه الخدم والجواري يصرخون، وبرز منجوتكين وبازتكين وبنال الطويل وخمسائة فارس من الغلمان ووقعت الحرب بينهم وبين

(١) سبتلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ١٣٤.

(٢) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ١٢.

(٣) الأنطاكي: جـ ٢، ص ٤٥٣، ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٥٧، وانظر: Yaacov Lev, Arab history and civilization: state and society. V.1.P.75.

نحسن إلى وقت الظهر وحمل الغلمان عليه فانهزم وزحفت العامة إلى داره فانتهبوها وفتحوا خزائنه وتفرقوا ما فيها، والتجأ الحسن إلى بعض العامة فاستتر عندهم وتفرق جميع من كان معه وفتح برجوان باب القصر وأجلس الحاكم وأوصل إليه الناس وأخذ له البيعة مجددة على الجند فما اختلف عليه أحد وكتب الأمانات لوجوه كتامة وقواد الدولة وراسلهم بما تطيب به نفوسهم من إقامة عذرهم فيما كان منهم فحضرت الجماعة وأعطت إيمانها على السمع والطاعة»^(١).

وبرغم أنه في بداية توليه الوساطة قد أمر بجمع الغلمان ونهاهم عن التعرض للمغاربة^(٢). وقيل أن برجوان هو الذي وشى بابن عمار لدى الأتراك والديلم، فلما اعتلى برجوان الوزارة بدلاً منه أبعد المغاربة وقدم الغلمان الأتراك^(٣).

ثم توجس برجوان خيفة من كتامة وابن عمار وشعر أنهم يدبرون له فعاهد الأتراك على الطاعة والولاء في الوقت الذي دبر فيه ابن عمار لبرجوان حتى أنه رتب له جماعة في دهليزه للفتك به ولكن برجوان علم بالحيلة.

وعندما شعر الحاكم بخطورة كل من ابن عمار وبرجوان تخلص منهما، فبادر بقتل برجوان، وقد أثار قتله المصريين فثاروا وتجمعوا عند القصر فخاف الحاكم وخرج إليهم وحياتهم وسلم عليهم ثم أخبرهم أنه قتل برجوان لعيب ظهر فيه، وطلب مساندتهم وبكى أمامهم فكثر ذلك عليهم فانصرفوا عنه^(٤) وكانت مدة ولايته للوزارة سنتين وثمانية أشهر تقريباً^(٥) وكان مقتله سنة تسع وثلاثمائة^(٦).

كما تخلص من شيوخ كتامة الذين زاد نفوذهم وسببوا له القلاقل والفتن^(٧).

(١) ابن القلاسي: الذيل، ص ٤٨ - ٤٩ وأنظر: النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٧١ - ١٧٢.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣.

(٣) نفسه، ص ٢٠٦.

(٤) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٧٤، النويري: نهاية، ج ٢٨، ص ١٧٥.

(٥) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٤.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٧٠، النويري: نهاية، ج ٢٨، ص ١٧٤.

(٧) أمينة الشوربجي: رؤية الرحالة، ص ٤٨٤.

وفي بعض الأحيان، نجد أن بعض الطوائف تقف إلى جانب العامة من المصريين وتدافع عنهم وتؤازرهم ضد طائفة أخرى أو حتى ضد الخليفة نفسه كما حدث عام ٤٠٩هـ / ١٠١٨م، فقد ظهر أحد الأشخاص ويدعى حسن بن حيدرة الفرغاتي الأخرم وهو فارسي ناصري بتأليه الحاكم وإبطال النبوة، وكثر أتباعه فاستدعاه الحاكم وخلع عليه الخلع وركبه في موكبه ولكنه ما لبث أن قتل بعد ذلك بثمانية أيام على يد رجل من الكرخ. ثم ظهر في ٤١٠هـ / ١٠١٩م رجل يدعى حمزة اللباد أعجمي وقد أقام بمسجد خارج باب النصر ودعى أيضاً إلى تأليه الحاكم واجتمع له بعض من غلاة الشيعة وسموه هادي المستجيبين فقربه إليه الحاكم فارتفع شأنه لذلك وزاد أتباعه ودعائه^(١).

ثم ظهر شاب من الأتراك المولدين يدعى أنوشتكين البخاري ويعرف بالدرزي^(٢) سار على نهج حمزة اللباد وكثرت أتباعه وكان الحاكم يسأله واستمر الأمر على ذلك إلى ٤١١هـ / ١٠٢٠م حتى شكا أهل مصر إلى قاضيهما وعرفوه بما جرى من هؤلاء فبادر مسرعاً إلى المسجد فلقى هؤلاء الثلاثة، وجماعتهم وأصحابهم وأحرقوهم فغضب الحاكم وأمر بقتل من تعدى على أصحاب اللباد فقبض على جماعة منهم وقتلهم في أوقات متعددة، واجتمع الأتراك وقصدوا دار اللباد فحاول مقاتلتهم من أعلاها فهدموها ونهبوا ما فيها وقتلوا حوالي ٤٠ رجلاً ممن كانوا معه، وفر اللباد فأخفاه الحاكم واجتمع الأتراك وطلبوا من الحاكم تسليمه لهم فوعدهم حتى ينصرفوا وعادوا في طلبه في اليوم الثاني فأخبرهم بقتله. وكان الحاكم قد تأكد أن أهل مصر هم الذين جرأوا العسكر عليه فسلط عليهم الرجال ومقدمي السودان أن «ينزلوا مصر على هيئة المناسر»^(٣) فيكبسون الحمامات ومنازل أهل مصر فكانوا

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، ص ٢٢٢ - ٢٢٣، المقرئزي: انعاظ، ج ٢، ص ١١٣ -

١١٨، المقرئزي ١٤٠، الخطط ج ١، ص ٣٥٤، ج ٢، ص ٢٨٩.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن الدروز الذين أعلنوا تأليه الحاكم وعن تاريخهم ومذهبهم أنظر: عنان الحاكم بأمر الله، محمد كامل حسين: طائفة الدروز، القاهرة، ١٩٦٢.

(٣) المنسر: المناسر: الجماعة من الخيل أو قطعة من الجيش بين المائة والمائتين لا تمر بشيء إلا =

يفعلون ذلك نهارًا. وتكرر ذلك منهم فاجتمع الناس ووقفوا للحاكم وسألوه أن يكف عنهم أيديهم فما أجابهم بجواب فتزايد بهم الضرر إلى أن بقيت الرجالة تكبس مساكنهم ويأخذون ما فيها ويعرّونهم في الطرقات ويفتحون دكاكين البزازين وغيرهم وينهبون ما فيها ويحرقون أبوابها بعد ذلك والناس يستغيثون فلا يغاثون»^(١).

ومما استثار الحاكم ودعاه إلى تحريض السودان على نهب وحرق مصر أنه كان في موكبه سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م فوجد صورة امرأة تخيل أنها حقيقية تمد يدها إليه بالرقاع فإذا هي معمولة من قراطيس، وكان المصريون قد نقموا عليه بسبب أفعاله فدرسوا إليه هذه الرقعة وفيها سب له ولأسلافه والدعاء عليه، فلما تقدم الحاكم وأخذها من يدها وعرف أنها تمثال عاد بسرعة إلى القاهرة ودخل قصره وجمع قواد العبيد وأمرهم أن يسيروا إلى مصر وفرق عليهم السلاح وعلم أهل مصر بذلك فقاتلوا دفاعًا عن أنفسهم واستمرت الحرب بين العبيد والرعية ثلاثة أيام^(٢).

ويقول السيوطي^(٣): إن أهل مصر قاتلوا قتالاً عظيماً، والنار تعمل في الدور والحريم، واجتمع الناس في الجوامع، ورفعوا المصاحف، وجأروا إلى الله، وما أنجلي الحال حتى احترق من مصر نحو ثلثها ونهب نحو نصفها، وسبي حريم كثير، واشترى الرجال من سبي لهم من النساء والحريم من أيدي العبيد.

ولما جاء اليوم الرابع اجتمع الأشراف والشيوخ، ولما رأى الأتراك حالهم وبكاءهم ورفقوا لهم انضموا إلى جانبهم وقاتلوا معهم وكانوا قد اختلطوا بهم وحدثت بينهم وبين المصريين مصاهرة فاجتمعوا جميعاً ضد العبيد وراسل الأتراك

= أقتلته النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٢٠٠.

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ١٩٧ - ١٩٨، وأنظر: المقرئزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ١٦: ١٧.

(٢) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ١٩٣، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٠، وابن تغري بردي: النجوم، جـ ٤، ص ١٨١.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ ١، ص ٦٠٣.

الحاكم وعاتبوه على ما فعله ضد أهل مصر^(١) الذين لم يفعلوا ما يستحقون عليه كل هذا وإن لم يكن هذا بأمره استأذنوه في الانفراد بالعبيد والقضاء عليهم وطلبوا منه معرفة السر في هذا حتى يستطيعوا الخروج بأموالهم وعائلاتهم إذا كان فيه خطورة عليهم فأجاب بأنه أراد ذلك واستحسن وقوفهم إلى جانب المصريين ومؤازرتهم وشجعهم على نصرتهم، لكنه لم يف بما وعد وكان يرسل العبيد سرًا حتى يستمروا فيما يفعلونه، فلما علم الأتراك وكتامة ذلك واجهوه بالحقيقة وإن لم يرتدع عما هو عليه هددوه بحرق القاهرة والاستعانة بالعرب وغيرهم عليه فنزل مسرعًا وركب حماره ووقف بين الصفيين المتحاربين وطلب من العبيد الانصراف واعتذر لوجه المصريين والأتراك وكتامة عما حدث وأنه بريء منه وحلف كاذبًا «فقبلوا الأرض بين يديه وشكروه وسألوه الأمان لأهل مصر فكتب لهم وقرئ الأمان على المنابر وسكنت الفتنة»^(٢).

مما سبق نستطيع أن نتبين انضمام الأتراك مع المصريين للقضاء على العبيد في مواجهة حاسمة لذلك العدو المشترك.

وكان الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧هـ / ١٠٢٠-١٠٣٥م)^(٣) قد مال إلى الأتراك والمشاركة وتقلص في عهده نفوذ كتامة^(٤) ومن العجيب ظهور أمر السودانين عندما تزوج الظاهر من سيدة سودانية^(٥).

فعادوا يقومون بدورهم المعهود أثر المجاعة التي حدثت في مصر، ونتج عنها أزمة اقتصادية شديدة اشتد فيها الغلاء وكثر الموت وانخفض ماء النيل فطلع حوالي

(١) ابن تغري بردي: النجوم، جـ ٤، ص ١٨١، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص ٤٣٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢ ص ١٠، ابن تغري بردي: النجوم، جـ ٤، ص ١٨٢، وعنان: الحاكم بأمر الله ص ١٢٠.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ ١، ص ٦٠٣، جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ ٤، ص ٢٠١.

(٤) المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ١٢، عطية مصطفى مشرف: نظم الحكم، ص ١٧١ - ١٧٢.

(٥) ابن ميسر: المنتقى، ص ٢٥، والنويري: نهاية الأرب، جـ ٢٠٨ ص ٢٢٦، سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٥١، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص ٤٣٥.

ألف رجل منهم وانضم إليهم قطاع الطرق واللصوص وقرروا النزول إلى مصر للنهب والسرقه فما كان من الخليفة إلا أن أصدر أمرًا بمكافحة هؤلاء العبيد وقتل كل من يتعرض منهم للأهالي وقد أحدثوا اضطرابات شديدة وأشعلوا النيران وبثوا الفوضى^(١).

وفي ذلك يقول المسبحي: «وفي يوم الأربعاء لسبع بقين منه تجمع العبيد ومن أنضاف إليهم من النهاية وخرجوا إلى دار حسب الله في أعلى الجبل بالمقطم في نحو ألف رجل وأنضاف إليهم من ورد من الجواله للتجريد من الضياع، وهموا بالنزول إلى بلد مصر لنهبه فنزل بدر الدولة^(٢) نافذًا في قطعة من الغلمان والرجالة بالسلاح لحفظ البلد»^(٣).

وجهاز لهم الخليفة فرقة من الصقالبة لطردهم خارج البلد حتى تستقر الأمور. وعاقب معضاد الدولة الأسود صاحب الشرطة الكثير منهم وهدد الخليفة عرفاءهم بالعقاب الشديد^(٤).

وكانوا قد تجرأوا وهاجموا قصر الخليفة عند حدوث المجاعة نتيجة لمساعدة زوجته السودانية لهم^(٥).

إذن، فقد خرج الصقالبة لحرب السودان كما حاربهم قادة الشرطة من جنسهم لإيقاف الاضطراب والفتنة.

وقد تزايد الصراع بين الطوائف بصورة واضحة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي سنة (٤٢٧-٤٧٨ هـ / ١٠٣٥-١٠٩٤ م)^(٦) نتيجة لضعف الخليفة وصغر

(١) المسبحي: أخبار مصر، ص ٨٧، أمينة الشوربجي: رؤية الرحالة، ص ٤٩٢، وأيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص ١٢٠، لينبول: سيرة القاهرة، ص ١٣٧.

(٢) وهو نوبي الأصل، عبد الرازق عبد المجيد: العلاقات بين مصر والنوبة، ص ٩٥، ٩٦.

(٣) المسبحي: أخبار مصر، ٨٧.

(٤) أمينة الشوربجي: رؤية الرحالة، ص ٤٩٢.

(٥) ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٧٢.

(٦) المقرئزي: الخطط، ح ٢ ص ٢٠٦، السيوطي: حسن المحاضرة، ح ١، ص ٦٠٤.

سنه وسيطرة أمه السودانية عليه وجلبها للعديد من أبناء جنسها^(١) وضعف الإدارة وكثرة تغيير الوزراء والقضاة وعدم استقرارهم في مناصبهم مددًا كافية تجعلهم يستطيعون ممارسة سلطاتهم بصورة كاملة.

وقد ذكر المقرئزي عن صراع الطوائف في عهد المستنصر قائلًا: «واستكثر أمه من العبيد حتى يقال أنهم بلغوا نحوًا من خمسين ألف أسود واستكثر هو من الأتراك وتنافس كل منهما مع الآخر فكانت الحرب التي آلت إلى خراب مصر وزوال بهجتها إلى أن قدم أمير الجيوش بدر الجمالي من عكا وقتل رجال الدولة وأقام له جنودًا وعسكرًا من الأرمن فصار من حينئذ معظم الجيش الأرمن وذهبت كتامة وصاروا من جملة الرعية بعدما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها»^(٢).

وفي عهد المستنصر، حدثت الصراعات الدامية بين الطوائف وخاصة الأتراك والسودان فذكر ابن ميسر في حوادث سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م أنه «قويت شوكة الأتراك وطمعوا في المستنصر وقتل ناموسه عندهم»^(٣).

وتبدأ تلك الأحداث بوفاة الوزير أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي سنة ٣٤٦هـ / ١٠٤٤م وكان مسيطرًا على مقاليد الأمور فتحكمت والدته المستنصر في كل شيء بسبب صغر سن الخليفة وناصرت السودانيين فأشعلت الفتنة بين الطوائف المختلفة^(٤) «وكانت تلك السيدة أمة لدى أبي سعد إبراهيم بن سهل التستري كان يستخدمه الظاهر في ابتياع ما يحتاج إليه من صنوف الأمتعة وتقدم عنده فباع له جارية سوداء فتحظى بها الظاهر وأولدها ابنه المستنصر»^(٥).

(١) حسب الله محمد: قصة الحضارة، ص ٢٣٤، استأثري لينبول سيرة القاهرة ص ١٣٨.

(٢) المقرئزي: الخطط جـ ٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٧. وفي ذلك، أنظر: سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٥١، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام جـ ٣، ص ٤٣٥، وجرجي زيدان: تاريخ التمدن جـ ٤، ص ٢٠١ - ٢٠٢، وجمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامية ص ١٣.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ١٧، ١٨.

(٤) ابن ميسر: أخبار، ص ٢٤ - ٢٦، المقرئزي: اتعاظ، جـ ٢، ص ٢٦٥.

(٥) المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٤٢٤، وراجع: ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ٨٠ - ٨١، ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٣ - ٤، المقرئزي: اتعاظ، جـ ٢، ص ١٩٥ - ٢٦٧.

احتدم صراع الطوائف منذ أن اعتلى المستنصر السلطة، ويذكر التويري في حوادث عام ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م أن الوزير الجرجرائي جمع وجوه القبائل من الكتاميين وغيرهم من الأتراك حين وفاة الظاهر وأخبرهم بأنه على مشارف الموت فإذا حدث لهم اعتراض في تولية ابنه الأمير معد؟ فأجابه بأنهم على رأيه فيما يرى فأخذ البيعة منهم لهذا الأمير ولقب بالمستنصر وكان عمره إذ ذاك سبع سنوات، وفي اليوم التالي تجمع الكتاميون وعبيد الشراء على باب القصر مطالبين بأرزاقهم فأخبرهم الوزير أنه كان وزيراً للظاهر وأنه سيحمل لهم كل ما في داره ليأخذوه ولكن الأتراك غضبوا لذلك وأعادوا ممتلكاته إلى مكانها ومنعوا أي شخص من الاستيلاء عليها، ثم اجتمع الأتراك والديلم شاهرين الأسلحة وجاء الكتاميون ودخل من كل طائفة عشرة أنفس إلى القصر فأخبرهم الوزير أن الخليفة سيدفع لهم أرزاقهم في مستهل شهر رمضان لكل واحد ثلث ما له فلم يرضوا بذلك وتحالف الكتاميون والأتراك على المطالبة بأرزاقهم واجتمعوا بباب القصر واعتدوا على الخليفة ورماه أحد العبيد بحربة فلم يصبه وفر الخليفة إلى القصر حتى اليوم التالي اجتمعوا ودخل من كل طائفة مائة نفر وعالج الوزير الموقف بحكمه وسكنت الفتنة^(١).

وبعد وفاة الجرجرائي قدمت أم المستنصر أبا سعد التستري وجعلته على ديوانها فتحكم في الأمور وتقدم على الوزير الفلاح^(٢) وأخذ في تقريب اليهود وتولييتهم أعلى المناصب فكسب بذلك عداة المسلمين^(٣).

وقد استغل الوزير الجديد وكان يهودياً قبل أن يشهر إسلامه مكانه فاستمال الأتراك إليه وزاد أعطياتهم وقام بتحريضهم على قتل التستري فقتلوه^(٤). ويقال في قصة قتله أن عرب البحيرة من بني قرة والطلحيين لما أثاروا الفتن

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٢١٠ - ٢١٢.

(٢) ابن ميسر: المنتقى، ص ٣، ٤.

(٣) ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٧١ - ٧٢، المقرئ: اتعاظ، جـ ٢، ص ١٩٥.

(٤) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٢٤، ابن ميسر: المنتقى من اخبار مصر، ص ٣، ٤.

خرج إليهم الخادم عز الدولة ربحان وهزمهم وقتل منهم الكثير وزاد بذلك نفوذه فاستمال المغاربة وزاد في أرزاقهم على حساب أرزاق الأتراك فأشاع الحرب بين الطائفتين على باب زويلة ثم مرض ربحان ومات فاتهم أبو سعد بأنه سمه وقتله ثلاثة من الأتراك وقطعوا لحمه وأحرقوا جثته فتأكدت أم المستنصر أن الفلاحى وراء كل هذا وكان ذلك سنة ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م^(١).

وقد تكاثفت الطوائف كلها واتحدت لأول مرة في تاريخ الفاطميين في مصر عندما طلب الخليفة إحضار قاتليه فأقروا أنهم قتلوه جميعاً حتى لا يعاقب الخليفة طائفة بعينها فلم يتمكن الخليفة من معاقبتهم.

ويؤكد هذا الرأي ناصر خسرو إذ يقول: «فلما ارتكبوا هذا الجرم خشوا بطش السلطان فركب عشرون ألف فارس منهم وخرجوا إلى الميدان. وهكذا خرج الجيش إلى الصحراء حتى منتصف النهار فخرج إليهم خادم القصر ووقف بباب السراى وقال: إن السلطان يسأل إذا كنتم مطيعين أم لا، فصاحوا صيحة واحدة «نحن عبيد مطيعون ولكننا أذنبنا» فقال الخادم: يأمركم السلطان بأن تعودوا في الحال»^(٢). وهذا يدل على مدى كراهية المسلمين لأبي سعد وعلى اتحادهم جميعاً ضده، على أن الخليفة لم يستطع معاقبتهم وتغاضى عن هذا الأمر^(٣).

وغضبت أم المستنصر لما حدث ولسلبية ابنها تجاه هذه الواقعة ودبرت للفلاحى وقبضت عليه واعتقلته بخزانة البنود سنة ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م ثم قتله^(٤).

واتجهت إلى الاستكثار من شراء العبيد بنى جلدتها حتى وصل عددهم إلى خمسين ألف أسود كانوا بمثابة طائفة خاصة بها وكانت تمقت الأتراك حقاً عليهم

(١) ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٧١، ٧٢، ابن ميسر: المنتقى، ص ٣، ٤.

(٢) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٤٢، ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ص ٣٧٥ - ٣٧٦.

(٣) المقرئزي: اتعاظ جـ ٢، ص ١٩٥.

(٤) ابن الصيرفي: الإشارة ص ٧١ - ٧٢، ابن ميسر: المنتقى ص ٣، ٤، المقرئزي اتعاظ، جـ ٢،

ص ٢٠٣، ابن تغرى بردي: النجوم جـ ٥، ص ١٩.

لقتلهم مولاها أبا سعد^(١).

كذلك كانت تحرض الوزراء المتعاقبين ضد الأتراك، فكانوا يتهربون من إجابتها خوفاً على الدولة^(٢).

حتى أن أحدهم، وهو أبو الفرج الباهلي، استطاعت استمالاته واشتعلت الفتنة بين الأتراك والسودان^(٣).

فإذا جاءت سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م، كانت والدة المستنصر قد استولت على كل الأمور في مصر وأصبحت العبيد حزباً والترك حزباً، وكان ناصر الدولة بن حمدان من أكابر القواد فجمع حوله الأتراك وكانت الوقائع المتتالية بينهم وبين العبيد^(٤).

حتى إذا جاءت سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وكانت وقعة كوم شريك بين الأتراك والعبيد وكان سببها أن المستنصر كان من عادته أن يركب كل سنة إلى جب عميرة^(٥) ليتنزه على هيئة أنه خارج للحج على سبيل الاستهزاء ومعه الخمر بدلاً من الماء ويسقيه للناس كما يفعل بطريق مكة وأخذ أحد الأتراك سيفه وهو مخمور واعتدى على عبيد الشراء فقتلوه فاجتمعت الأتراك وقتلوا جماعة بعد قتال شديد على كوم شريك وانهزم العبيد وكانت أم المستنصر تمدهم بالمال والسلاح فظفر أحد الأتراك بذلك وأعلم الأتراك بمساعدتها للعبيد فدخلوا على المستنصر وعاتبوه في ذلك

(١) ابن ميسر: المنتقى ص ٢٥، النويري: نهاية الأرب جـ ٢٨، ص ٢٢٦، والمقرئزي: خطط جـ ١، ص ٣٣٥ - ٣٣٦، اتعاظ جـ ٢ ص ٢٢٦، عطية مصطفى مشرفه نظم الحكم ص ١٧٢، عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري ص ٨٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ٨١، ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ص ٣٧٥ - ٣٧٦.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ص ٢٥، ٢٦، المقرئزي: اتعاظ جـ ٢، ص ٢٦٧.

(٤) رزق الله منقريوس: تاريخ دول الإسلام، ص ٣٤١ - ٣٤٢.

(٥) أرض جب عميرة في بركة الحاج بظاهر القاهرة من بحريها وتسميها العامة "بركة الحاج" لنزول الحجاج بها عند مسيرهم من القاهرة إلى الحج في كل سنة ونزولهم عند العودة بها ومنها يدخلون إلى القاهرة ويظل عليها أيضاً جب يوسف ولكن الأصح أن اسمها "جب عميرة" وهو ابن تميم بن جرب التجيبي من بني القرناء نسبت هذه الأرض إليه ف قيل لها أرض جب عميرة: المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٨٨، والمقرئزي: خطط، جـ ١، ص ٤٨٨، وجـ ٢ ص ١٦٣.

فحلف لهم أنه لا يعلم شيئاً من هذا وعاتب والدته وأنكر ذلك بين الطائفتين وكانت هذه الواقعة بدايه لصراع مرير بينهما^(١).

ويذكر السيوطي أنه في سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م «حدثت فتنه عظيمة بين عبيد مصر والترك واقتتلوا وغلب العبيد على الجزيرة التي في وسط النيل بين مصر والجزيرة واتصل الحرب بين الفريقين»^(٢).

حتى إذا جاءت سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م ازدادت شوكة الأتراك وطالبوا بزيادة أرزاقهم، وبالمقابل، ضاقت أحوال العبيد برغم ازدياد أعدادهم وخلت الخزائن من الأموال فراسلت أم المستنصر قواد العبيد واستمالتهم ووعدتهم بالعطايا إذا هم نكلوا بالأتراك فحضرُوا من شبرا دمنهور إلى الجزيرة وخرج الأتراك لحربهم بقيادة ناصر الدولة الحسين بن حمدان فكانت وقعة شديدة بين الفريقين انهزم فيها العبيد إلى الصعيد ثم اجتمع من العبيد خمسة عشر ألفاً مما أقلق الأتراك فجاءوا للشكوى للمستنصر فأمرت أم المستنصر عبيدها بالهجوم عليهم وقتلهم فقتلوا عدداً منهم فلما علم ابن حمدان بذلك جاء مسرعاً إلى القاهرة ومعه الأتراك ووقعت بينهم وبين العبيد المقيمين بالقاهرة ومصر وقعات شديدة عدة أيام وانتصر عليهم ابن حمدان وبالف في قتلهم حتى نقص عددهم في مصر والقاهرة نقصاناً شديداً ثم سار إلى عبيد الإسكندرية الذين سارعوا بطلب الأمان^(٣).

وكان لهذه الانتصارات للأتراك على العبيد أثر كبير في ازدياد شوكتهم وتمكنهم من الأمور، حتى إذا حلت ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م طمعوا في المستنصر وطالبوه بالأموال، ولما اعتذر بأنه لم يبق عنده شيء طالبوه بإخراج ذخائره، فأخرجها لهم

(١) ابن ميسر: المنتقى ص ٢٤، ٢٥، النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٥٢٤ - ٥٢٦، ابن تغري بردي: النجوم ج ٥ ص ١٧ - ١٩، عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم ص ١٧٢.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٨٧.

(٣) ابن ميسر: المنتقى ص ٣١ - ٣٢، أبو الفدا: المختصر، ج ٢، ص ١٨٩ - ١٩٠، والنويري: نهاية، ج ٢٨، ص ٢٢٦ - ٢٢٧، الذهبي: العبر، ج ٢، ص ٣١٧، ابن الوردي تاريخه ص ٥٢٣.

وأخذوها بأبغس الأثمان. وخرج ناصر الدولة إلى الصعيد مع أترাকে لقتال من بقي هناك من العبيد لكنه انهزم وعادوا إلى الجيزة وأثاروا الشغب على المستنصر متهمينه بمعاونة العبيد سرًا، ثم خرج الأتراك مرة أخرى لقتال العبيد وانتصروا عليهم وقتلوا منهم الكثير واستفحل أمر ناصر الدولة^(١).

وأدت هذه الأحداث إلى خلل اقتصاد البلاد وحدث المجاعات التي عرفت بالشدة المستنصرية التي لم تنتج عن قصور فيضان النيل وإنما بسبب محاربة الأجناد بعضهم البعض^(٢).

وفي ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م، حدث تطور سريع في علاقة ناصر الدولة بن حمدان والأتراك فقد علت منزلته وانفرد بالأمور دونهم نتيجة لانتصاره على السودانيين فشكوا ذلك إلى الوزير خطير الملك قائلين له «كلما يخرج من الخليفة مال يأخذ ناصر الدولة أكثره يفرقه على حاشيته ولا يصل لنا منه إلا القليل»^(٣). ودعاهم إلى مفارقتة حتى يضعف أمره فاتفقوا على حربه وإخراجه من مصر وطالبوا المستنصر بإخراجه فأرسل إليه يطلب منه الخروج ويتهدده إذا لم يستجب فخرج ونهبت دوره ودور أصحابه^(٤).

وفي المساء تسلل ناصر الدولة سرًا واجتمع بالقائد تاج الملوك شاذي وقبل رجله وطلب منه أن ينصره على الوزير الدكر والوزير خطير الملك، وعلم الدكر بهذا الاتفاق واستجار بالمستنصر. وتمكن شاذي من قتل الوزير خطير الملك. وبعث شاذي إلى ابن حمدان ليحضر. وقام الدكر بتحريض المستنصر على لقائه بنفسه

(١) ابن ميسر: المنتقى، ص ٣٢ - ٣٣؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٢٦ - ٢٢٧؛ والذهبي: العبر، ج ٢ ص ٣١٧؛ المقرئ: إغاثة الأمة، ص ٢٣ - ٢٥.

(٢) ابن ميسر: المنتقى، ص ٥٨، المقرئ: إغاثة الأمة، ص ٢٤ - ٢٥؛ وإسماعيل أبو العينين: مصر الإسلامية، ص ٢٠.

(٣) ابن ميسر: المنتقى، ص ٣٣ - ٣٤؛ وانظر النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٢٧ - ٢٢٨؛ وهند أسكند عمون: تاريخ مصر، ص ١٧٠ - ١٧١.

(٤) ابن ميسر: المنتقى، ص ٣٣؛ النويري: نهاية، ج ٢٨، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

فخرج إليه وتبعه العامة والجند في عدد كبير ودار القتال وكسر ناصر الدولة وانهزم وقتل الكثير من أصحابه فاضطر إلى الهرب إلى البحيرة وتزوج من أهلها وتقوى بهم.

وراسل ناصر الدولة سنة ٤٦٢هـ — / ١٠٦٩م ألب أرسلان (السلطان السلجوقي) يستدعيه إلى مصر وعمل على إقامة الدعوة العباسية في مصر وإزالة خلافة الفاطميين منها^(١).

وقطع خطبة المستنصر في الإسكندرية ودمياط والوجه البحري وخطب للقائم بأمر الله العباسي فاشتد الغلاء وكثر الوباء ونهب الجند منازل العوام ونتج عن ذلك أن وقع الصلح بين الأتراك وناصر الدولة سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م على أن يظل مقيماً بالوجه البحري ويحمل إليه مال قرره له المستنصر ويتولى شاذي الأمر نائباً عنه فوافق وسير الغلال إلى مصر، ولم تمض إلا شهور قليلة حتى وقع الخلاف بينهم وبين ناصر الدولة مرة ثانية فجاء من البحيرة بعساكر كثيرة وحاصر مصر وأعملوا فيها السلب والنهب وأحرقوا الكثير من الدور الواقعة على الساحل^(٢).

فلما علم المستنصر بذلك، أعلن الحرب عليه بقيادة ثلاثة من الأتراك أراد كل منهم أن تكون هزيمة ناصر الدولة على يديه فهزمهم وقطع الإمداد عن القاهرة ونهب أكثر الوجه البحري^(٣) ولكنه لم يستطع تنفيذ ما دبر له لان زعماء الأتراك اتحدوا ضده خوفاً من ضياع نفوذهم فنار عليه الدكر وبلدكوش وقتلوه في منازل العز بالفسطاط^(٤) وتتبعوا كل أسرة بني حمدان بمصر وتخلصوا منهم^(٥).

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٨٧؛ ابن ميسر: المنتقى ص ٣٥، ٣٦، ٣٩ والمقريزي: خطط، ج ١ ص ٣٣٧؛ اتعاط، ج ٢، ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٢) ابن ميسر: المنتقى، ص ٣٧ - ٣٨؛ النويري: نهاية الأرب، ص ٢٣٠ - ٢٣١؛ الذهبي: العبر، ج ٢، ص ٣١٧.

(٣) أبا الفدا: المختصر، ج ٢، ص ١٨٩ - ١٩٠.

(٤) ابن الصيرفي: الإشارة، ص ١٩٥؛ ابن ميسر: المنتقى، ص ٣٩؛ ابن الوردي - تاريخه، ص ٥٢٣؛ المقريزي: اتعاط، ج ٢، ص ٣٠٩.

(٥) ابن ميسر: المنتقى، ص ٣٨ - ٣٩؛ محمد جمال سرور: الدولة الفاطمية، ص ١٠٣ - ١٠٧.

وقد نتج عن تلك الصراعات بين الطوائف اختلال الأمور الإدارية للدولة حتى أن الخليفة اضطر إلى إبدال أربعين وزيراً من وزارته في خلال تسع سنوات وكان الترك هم المتحكمون في الأمور^(١).

وكانت تلك الأحداث مقدمة لوصول طائفة الأرمن إلى مصر بقيادة بدر الجمالي^(٢) ٤٤٦ هـ / ١٠٧٣ م.

لم يكن هناك بد من الاستعانة بقوة عسكرية خارجية تستطيع أن تسيطر على الأمور وتحمي الخلافة من حالة الفوضى التي أفقدت الخليفة سيطرته على الأمور، فقد سلبت منه هيئته ومكانته على يد تلك الطوائف التي سيطرت على أمور الدولة. واستقلت كل طائفة بمنطقة، فاستولى الأتراك على القاهرة والفسطاط، بينما اقتسم المغاربة والسودان سيطرتهم على الصعيد، وتمكن اللواتيون والملحية^(٣) من البحيرة والإسكندرية^(٤). فبعث الخليفة إلى بدر الجمالي القائد الأرمني الذي كان متولياً عكا فكتبه سرّاً عن طريق الوزير الفرّج محمد بن جعفر المعزي، وكان وقتها متولياً لديوان الإنشاء طالباً منه الحضور لإصلاح ما فسد من أمور البلاد، فصادت تلك

(١) عبدالرحمن زكي: القاهرة، ص ٣٧؛ ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ١٤٠.

(٢) هو مملوك أرمني كان ملكاً لجمال الدولة بن عمار فانتسب إليه وقد بدأ حياته والياً على دمشق سنة ٤٥٥ هـ ولمعلومات أكثر عنه، أنظر: ابن الصيرفي ك الإشارة، ص ٩٤ - ٩٧؛ ابن القلاسي ذيل ص ١٢٧ - ١٢٨، ابن الأثير الكامل ج - / ١٠ ص ٢٣٥ - ٢٣٦؛ وابن ميسر ك المنتقى، ص ٢٨ - ٣٠، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٣٩، ٤٥؛ ابن خلكان: وفيات، ج ٢، ص ٤٤٨ - ٤٤٩؛ ابن أبيبك: كنز الدرر، ج ٦، ص ٤٣٩؛ والمقريزي: الخطط، ج ١، ص ٣٨١ - ٣٨٢؛ انعاظ، ج ٢، ص ٣١١ - ٣٢٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٠٤؛ دائرة المعارف (مادة بدر)، ج ٣، ص ٤٤٧ - ٤٤٨.

(٣) الملحية: طائفة من طوائف العسكر في أيام الخليفة المستنصر بالله يقال لها الملحية وهم الذين قاموا بالفتنة في أيام المستنصر حتى اشتد الغلاء وخربت البلاد ونهبت خزائن الخليفة وحضر بدر الجمالي لإنقاذ البلاد وقتل جماعة من الملحية وأتباعهم في الإسكندرية بعد أن حاصرها عدة أيام واستماتوا في الدفاع عنها حتى أخذها غنوة وقتل الكثير منهم المقريزي - الخطط، ج ٢، ص ٣١ - ٣٢.

(٤) ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٩٥ - ٩٦؛ ايمن فؤاد: الدولة الفاطمية ص ١٤٣.

الدعوة طموحاته وطلب من المستنصر الحضور برجاله ولا يبقى على أحد من عساكر مصر فوافق المستنصر على طلبه^(١).

فقدم بدر من عكا في مائة مركب وعليها أصحابه من الأرمن وقد نصحه أصحابه بعدم ركوب البحر في الشتاء فلم يستمع^(٢)، وسار إلى دمياط فأقام فيها ثم سار إلى قليوب وراسل المستنصر بأنه لن يدخل مصر حتى يقبض على بلدكوز فقبض عليه المستنصر ودخل بدر الجمالي مصر وسير في الليل كل أمير من أمرائه إلى قائد من قواد الدولة فلما حضروا في الصباح كان كل منهم يحمل رأس أمير، وقبض على بقية الأتراك وعظم أمره وفر بلدكوز التركي إلى الشام سنة ٤٤٦هـ / ١٠٧٣ وقيل سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م^(٣).

ثم عقد مجلساً اجتمع فيه كثير من الناس وقتل أمير الجيوش جماعة من المصريين^(٤) وفي سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م اجتمع بعض من عرب جهينة والجعافرة والثعالبة فخرج إليهم فهزمهم وقتل وغرق الكثير منهم وغنم أموالهم وحملها إلى المستنصر وقاتل كنز الدولة الذي كان قد استطال في ثغر أسوان وكثر اتباعه فهزمه وقتله وانتهى أمره وقاتل أئسز الذي أقام بأرياف مصر فترة متحدداً مع بلدكوز الذي أطمعه في ديار مصر فهزمه أمير الجيوش.

وقد استكثر بدر من الأرمن^(٥) ليكونوا سنداً له ضد جيوش التبرك والسودان

(١) ابن ميسر: المنتقى، ص ٣٩؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٩، ص ٢٣٤؛ ابن الوردي تاريخه ص ٢٤ - ٥٢٥، عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري ص ٨٤ - ٨٥.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤٨.

(٣) ابن الصيرفي: الإشارة ص ٩٥ - ٩٦، ابن ميسر: المنتقى ص ٣٩ - ٤٠؛ النويري: نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٢٣٥، أبا الفدا: المختصر، ج ٢، ص ١٩١؛ ابن الوردي: تنمة المختصر ج ١ ص ٥٢٤ - ٥٢٥ والمقريزي: خطط ج ٢ ص ٨٠ واستار جيان: تاريخ الأمة الأرمنية، ص ١٧ - ١١٨ وفاء محمد علي: نفوذ النساء في الدولة الإسلامية ص ٩٥.

(٤) ابن أبيك: كنز الدرر ج ٦، ص ٣٩٩.

(٥) ذكر المقريزي أن حارة الحسين كانت سكناً لهم وأن عددهم وصل فيها إلى سبعة آلاف نفس: المقريزي: خطط ج ٢، ص ٣٢٠.

والمغاربة ولم يصبح لكتامة مكان فذكر المقرئزي: أنهم صاروا من ملة الرعية بعد ما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها^(١) فقد دخل عنصر جديد أسهم في إضعاف الدولة بعد عهد بدر الجمالي الذي استطاع بقوة شخصيته أن يمنع ذلك طوال فترة عهده.

وقد ولى الأفضل بن بدر الجمالي الوزارة ٤٨٧هـ — / ١٠٩٤م والسبب في ولايته دون الانتظار لوفاة أبيه أن غلاماً له يدعى صافياً ويلقب بأمين الدولة طمع في الوزارة وكان مقرباً من مولاه فعندما مرض ويئس من شفائه تصور أنه من الممكن أن يحل محل مولاه في منصبه ويتولى زمام الأمور بعده وأخذ يعمل الحيل ويجمع الأموال واجتمع إليه بعض الناس فاستمالهم وكان يتصور أن الخليفة المستنصر سوف يؤثره على الأفضل ويستوزره فبعث إليه الأفضل أن يعود عما هو فيه، وذكره بما لوأله عليه من الحقوق ولكنه تمادى في غيه وعصيانه وجمع أتباعه وركب إلى باب الذهب فلم يستقبله المستنصر وركب الأفضل إلى باب العيد فاستوزره المستنصر بدلاً من أبيه^(٢).

وقد تمتعت البلاد في عهده بهدوء نسبي بين الطوائف المختلفة، وهذا يرجع إلى اهتمامه بتنظيم الأمور الداخلية للبلاد والإصلاحات الشاملة التي بدأها بدر الجمالي بمصر إلا من وقعات بينه وبين نزار فبعد وفاة المستنصر، أقام الأفضل أبا القاسم أحمد ولقبه بالمستعلى سنة (٤٨٧-٤٩٥ / ١٠٩٤-١١٠١م)^(٣) وكان أصغر أخوته، وأجبرهم على مبايعته فامتنعوا ورفض نزار مبايعته ذاكراً أن والده كتب له بالخلافة ثم توجه إلى الإسكندرية^(٤).

وكان الأفضل يغار من نزار ويرد شفاعاته ويضع من قدره ولا يرفع رأساً لأحد

(١) المقرئزي: الخطط ج ٢ ص ١٢.

(٢) ابن الصيرفي: الإشارة ص ٩٧: ٩٩، ابن القلاسي: ذيل ص ١٢٧ - ١٢٨ وأبو الفدا: المختصر

ج ٢، ص ٢٠٥ والذهبي: العبر، ج ٢ ص ٣٥٧ وابن الوردي: تنمة المختصر، ج ٢

ص ١٤، الحنبلي: شذرات، ج ٣ ص ٣٨٣ وابن تغري بردي: النجوم ج ٥ ص ١٤١.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٦٠٤.

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر، ج ٢، ص ٣٤ - ٣٥.

من غلماته وحواشيه بل ويحتقرهم ويقصدهم بالأذى والضرر^(١).

وفي ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م، خرج الأفضل بعساكره إلى الإسكندرية لقتال نزار وأفتكين التركي متوليها والذي تحالف مع نزار فخرجوا إليه بعد أن جهزا جيوشهما وهزماده، فرجع القاهرة وأخذ من وقتها يتجهز للقائهم ثانية واستمال عرب البحيرة وأنفق فيهم الأموال ليتخلوا عن نزار ووعدهم بالإقطاعات وخرج إلى الإسكندرية ثانية فخرجوا إليه وكانت بينهما حروب انتهت بهزيمة نزار وفراره إلى المدينة فزحف وراءه الأفضل وحاصر المدينة ومنع عنها الإمداد وقبض على نزار وأفتكين وكل من والاه وقد طلبا من الأفضل الأمان فأمنهما، ودخل المدينة وقيل أن الأفضل بني لنزار حائطين وجعله بينهما إلى أن مات وقتل أفتكين^(٢).

ونذكر اليافعي أن الأفضل ملك زمام الأمور في عهد المستعلي بالله ولم يكن له مع الأفضل إلا الاسم^(٣).

وبعد وفاة المستعلي بالله، أقام الأفضل ولده أبا علي على الخلافة سنة (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ / ١١٠١ - ١١٣٠ م) وأخذ له البيعة ولقب بالآمر بأحكام الله وكان طفلاً لم يبلغ السادسة من عمره فدير الأفضل أمور الدولة^(٤).

وكانت للأفضل حنكة سياسية في السيطرة على الطوائف المختلفة، فلما كثرت شكاواهم بسبب إقطاعاتهم إنها خربت وقل ارتفاعها ولا يستفيدون منها وأن الإقطاعات التي بيد الأمراء زائدة عن الارتفاع استشار الأفضل وزيره فاتك البطائحي فأشار عليه بحل جميع الإقطاعات التي بيد الأمراء وغيرهم ويجمع الكل ويزايد عليها فلما اعترض الأمراء على ذلك بحجة أن لهم في إقطاعاتهم أملاك وبساتين ومعاصر، قال الأفضل للأملاك لملاكها يتصرفون فيها بالبيع أو بالإيجار^(٥) وقد قتل الأفضل على

(١) المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٤١٢.

(٢) ابن ميسر: أخبار مصر، جـ ٢، ص ٣٦ - ٣٧، المقرئزي: اتعاظ، جـ ٣، ص ١٤ - ١٥.

(٣) اليافعي: مرآة الجنان، جـ ٣، ص ١٥٨.

(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٢٧٤، السيوطي: حسن المحاضرة، جـ ١، ص ٦٠٤.

(٥) النويري: المصدر السابق، جـ ٢٨، ص ٢٧٥.

يد ثلاثة من الباطنيين بايعاز من أبي عبد الله البطايعي الذي وزر بعده ولقب بالمأمون، وكان ذلك بموافقة الأمر^(١).

ويذكر ابن الجوزي رواية أخرى في مقتله وهي أن الأفضل كان قد بادر لقتل الأمر «لأن قهرمانته لم تمكنه من ذلك وأقامت له اثنين من شجعان السودان بين القصرين ووعدتهم مالا وإقطاعا فانتظراه ليلة عيد الفطر بين القصرين فأمسك أحدهما بعنان فرسه وطعنه الآخر بسكين مسمومة فمات ٥١٦هـ / ١١٢٢م^(٢).

وتوفي الأمر أيضا سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م وبعد الأمر ولي الحافظ عبد المجيد أبو الميمون (٥٢٤-٥٤٤هـ / ١١٣٠-١١٤٩م) ، وكان «الحافظ» لقبه ويظهر بوضوح دور المماليك في تولية هذا الخليفة من نص ابن الطوير فذكر أنه كان هناك وجود ونفوذ فعلى وقوى للسودانيين والديلم ويتجلى دور الصبيان الحجرية في تولية ابن الأفضل، فقد كان للأمر مملوكان أحدهما لقبه هزبر الملوك واسمه جوامرد والآخر برغش ويسمى العادل فادعيا بعد مقتل الأمر أنه قبل وفاته بأسبوع كان يقول عن نفسه المسكين المقتول بالسكين وأنه أخبرهم «بأن الجهة الفلانية حامل منه وأنه رأى رؤيا تدل على أنها ستلد ولدا ذكرا وهو الخليفة من بعده وأن كفالته للأمير عبد المجيد أبي الميمون وأن يكون هزبر الملوك وزيرا وأن يكون الأمير الأجل السعيد يانس متولى الباب واسفهلار»^(٣) فأخذوا له البيعة وتولى هزبر الملوك جوامرد الوزارة فاجتمع بين القصرين خمسة آلاف فارس بقيادة الأمير رضوان بن

(١) ابن القلاسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٣ - ٢٠٤، ابن أبيك: كنز الدرر، ج ٦، ص ٤٨٥ والنويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٧٩، الذهبي: العبر، ج ٤٠٥، الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٤٧، وحسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ٤، ص ٣٠٦.

(٢) ابن الجوزي: مرآة الجنان، ج ٨ ق / ١ ص ١٠٤، ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٢٢.

(٣) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٢٦ - ٢٧، والإسفهلار بمثابة قائد عام للجيش وزمام كل زمام وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٩، المقرئ: خطط، ج ١، ص ٤٠٣.

الولخشي في نفس الوقت الذي أثار فيه الأمير برغش المعروف بالعدل حنق أبي علي أحمد بن الأفضل شاهنشاه وحمله عليه لحقده لأن رفيقه تولى الوزارة دونه وساهم في ذلك الصبيان الحجرية وأمراء الديلم وغلتمان أبيه وجده وثاروا شاهرين السيوف ونهبوا من باب الفتوح إلى باب زويلة ونهب ما كان في القيسارية وبها كل ممتلكات أهل القاهرة حيث كانت مخزنًا لهم وأصروا على تولية الوزارة لأبي علي بن الأفضل^(١)، فما كان من الحافظ إلا أن استجاب لمطالبهم وكانوا يريدونه أن يسلم لهم هزبر الملوك فقتله وألقى رأسه لهم حتى تسكن الفتنة^(٢).

وبرز دور المماليك مرة أخرى، عندما تولى أبو علي ابن الأفضل الملقب «كتيفات» إمرة الجيوش، قوى مركزه وقام باعتقال الحافظ صبيحة يوم توليته وسجنه بالقصر^(٣) وأعلن الدعوة للإمام المنتظر وأبطل دعوة الإسماعيلية واستولى على ذخائر وأموال قصر الخلافة لاعتقاده أنها كانت لوالدة الأفضل واستولى الخليفة عليها بعد وفاته^(٤) فاتفق صبيان الخاص على قتله فقد حكم حكمًا مطلقًا واستبد بالسلطة وحاول القضاء على المذهب الشيعي بمختلف الطرق مما أثار حفيظة الأمراء وصبيان الخاص. وعند خروجه إلى ميدان البستان الكبير للعب الكرة كعادته، وثب عليه مملوك رومي وقيل من صبيان الخاص قطعنه وألقاه عن فرسه. ولما وقع، قطع رأسه وأخذها إلى القصر^(٥). وبادر صبيان الخاص هؤلاء إلى القصر

(١) ابن الوردي: تنمة المختصر، جـ ٢ ص ٥٩، المقرئزي: الخطط، جـ ٢ ص ١٧، وجمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٨٧: ٨٨.

(٢) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٢٨ - ٣٠، النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨ ص ٢٩٦، والمقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ١٧، عاطف مرقص: الأرمن وعلاقتهم بالبيزنطيين، ص ٢٤٤.

(٣) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٢٩٦، المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ١٧، جمال الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٨٩.

(٤) الحنبلي: شذرات الذهب، جـ ٤، ص ٧٨.

(٥) ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨ ق / ١، ص ١٤٧ - ١٤٩.

ومعهم الأمير يانس متولي الباب وأفرجوا عن الحافظ وأجلسوه في منصب الخلافة^(١).

ولما اعتلى الحافظ الخلافة بعد مقتل أبي علي بن الأفضل، أخبره قتلته من صبيان الخاص بأن نجاته كانت بتدبير الأمير يانس فكافأه بأن خلع عليه بالوزارة^(٢). وكان يانس من ممالك الأفضل أمير الجيوش وكان أهداه باديس جد عباس الوزير إلى الأفضل^(٣). فاتخذ الحافظ هذا اليوم وهو يوم نجاته عيداً اسماه «عيد النصر»^(٤). وقد تسبب يانس هذا في صراع انتهى بقتل الخليفة له مسموماً، فقد بالغ في الاستهانة بالحافظ والاستبداد بالأمر دونه حتى أنه قتل أستاذاً من خواص الخليفة الحافظ دون علمه، كما أنه قام بقتل الطائفة المعروفة بصبيان الخاص فأوقع بهم بين القصرين وقتل منهم ما يزيد على ثلثمائة فارس بما فيهم قاتل أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي فخافه الحافظ كما خاف يانس منه^(٥).

بدأ كل منهما يدبر للآخر وخاصة بعد أن قبض على خواص الخليفة، ومنهم قاضي القضاة وداعي الدعاة، أبو الفخر وأبو الفتح بن قادوس، وقتلها، فشق ذلك على الحافظ واتفق مع طبيبه على سمه فمات وكانت وزارته تسعة أشهر وأياماً^(٦).

(١) ابن ميسر: أخبار، ج ٢، ص ٧٥، ابن أبيك كنز: الدرر، ج ٦، ص ٥٦، والمقريزي: اتعاض، ج ٣، ص ١٤٤، الحنبلي: شذرات، ج ٤، ص ٧٨.

(٢) ابن الطوير: نزهة المقلتين ص ٣٦، الذهبي: العبر ج ٢ ص ٤٢٨، المقريزي: الخطط، ج ٢ ص ١٧، جمال الشيال: مجموعة الوثائق وثيقة ٦ ص ٧١ حاشية (٢).

(٣) ابن الطوير: نزهة المقلتين ص ٣٥، ابن ميسر: أخبار مصر ج ٢ ص ٧٥: ٧٦.

(٤) ابن الطوير: نزهة المقلتين ص ٣٤ - ٣٥، وعيد النصر وهو في السادس عشر من المحرم، عمله الحافظ لدين الله لأنه اليوم الذي ظهر فيه من محبسه ويفعل فيه ما يفعل في الأعياد من الخطبة والصلاة والزينة والتوسعة في النفقة (ابن الطوير: نزهة ص ٣٤ - ٣٥، المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٣٥٧، ٣٥٩، وص ٤٩٠ - ١٩١).

(٥) ابن الطوير: نزهة، ص ٣٦، مخطوط شرح اللمعة: (مجهول المؤلف)، ص ١٢، ابن ميسر: أخبار ج ٢ ص ٧٥ - ٧٦، النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨ ص ٢٩٩.

(٦) ابن الطوير: نزهة، ص ٣٦، مخطوط شرح اللمعة: (مجهول المؤلف) ص ١٢، ابن ميسر: أخبار =

وفي عهد الحافظ، قامت فتنة بين الطوائف وصفها المقرئزي بأنها أول مصيبة تفقد الدولة للرجال والعساكر^(١).

لقد تنبه الحافظ إلى ضرورة استبعاد الوزراء لما قاسى منهم فبعد مقتل يانس الأرمني، ظل الحافظ لا يعين وزيراً لفترة طويلة تعدت العام، وفي ٥٢٨هـ / ١١٣٣م ولى الحافظ ابنه الأكبر سليمان ولاية العهد ولكنه ما لبث أن توفي بعد توليته بشهرين. وكان المرشح بعده لولاية العهد حسن الذي يلى سليمان، ولكن الحافظ تجاهله وعين ابنه الأصغر حيدرة فقد كان غاضباً على حسن لأنه دائماً ما كان يخالفه فغضب حسن لذلك وقام بإثارة الفتنة سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٣م فقد كان يتطلع لولاية العهد ويرى أنه أحق بها «لكثرة أمواله وبلاده وحواشيه وموكبه بحيث كان له ديوان مفرد»^(٢).

فحاربت الطائفة السودانية الريحانية إلى جانب حيدرة والطائفة الجيوشية الأرمنية إلى جانب حسن فاضطر الحافظ إلى تولية حسن ولاية العهد حتى تهدأ الفتنة^(٣).

ثم قوى أمر حسن واستقل بالأمور دون أبيه. وكان الأمراء يحبونه فطلبوا من الحافظ توليته أمورهم ففعل، وهو ماحز في نفس أخيه حيدرة، فجمع كل منهما جنوده واقتتلا فقتل الكثير من جماعاتهم فلما استقر حسن في الوزارة، قبض على الكثير من الأمراء الذين ساندوا أبا علي ابن الأفضل وأقام غيرهم فخافه بقية الأمراء^(٤).

وقد أمدنا ابن الطوير وابن ميسر بتفاصيل مهمة لتلك الفتنة فذكرنا أن حسن

= مصر ج ٢ ص ٧٥ - ٧٦، النويري: نهاية ج ٢٨ ص ٢٩٩ والمقرئزي: اتعاظ ج ٣ ص ١٤٥ وجمال الشيال: الوثائق الفاطمية ص ٧١ وسهام أبو زيد: تاريخ الأرمن ص ٧٥.

(١) المقرئزي: اتعاظ ج ٣ ص ١٤٩.

(٢) ابن الطوير: نزهة ص ٣٧.

(٣) المقرئزي: اتعاظ، ج ٣، ص ١٤٩.

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر، ج ٢ ص ٧٧ - ٧٨.

بعث إلى الأمراء في نصرته على أبيه وأراد اعتقاله ليستطيع السيطرة على الأمور ووعد الناس بالخلع والأرزاق إذا ملك زمام الأمور فالتفوا حوله وبعث إلى الأمراء يستقطبهم في صفه فوشوا به عند أبيه وأطلعوه على مكاتباته لهم فأرسل له الحافظ بها قائلاً له «لا تعتقد أن معك أحداً» مما أثار حسن على الأمراء فقتلهم ونهب ممتلكاتهم وأرسل إلى بهرام يستدعيه بالحضور بالأرمن ليتقوى بهم ضد الطوائف الأخرى وكانوا أكثر من ألفي رجل^(١).

وقد التجأ إلى أبيه بعد أن ثار بقية الأمراء عليه لما فعله بإخوانهم، فأخبرهم الحافظ بمكانه خوفاً منهم فأصروا على قتله. وتجمع بين القصرين عشرة آلاف نفس من الفرسان والرجالة فبعث إليهم الخليفة يعتذر ويرفض قتل ولده ووعدهم بعدم تعرضه لهم أبداً ووعدهم بزيادة أرزاقهم فأبوا إلا قتله أو يخلعوا الخليفة وقاموا بإحضار الأحطاب والنيران ليحرقوا القصر وتجرأوا عليه جرأة بالغة فلم يجد أمامه بداً من قتل ابنه وبعد أن أخذ رأي طبيبه ابن قرقة^(٢) أحضر له سم وأجبرته طائفة من الصقالبة على شربه فمات فبعث إلى الأمراء بخبر قتله فأصروا على إرسال مندوبين عنهم للتأكد من موته، فلما شاهدوه ميتاً سكنوا وتفرقوا وكان ذلك سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م^(٣).

وتدل هذه الحادثة على مدى ما وصل إليه نفوذ تلك الطوائف وسيطرتهم على الخلفاء حتى أنهم يجبرون الخليفة على قتل ابنه أو خلعه من الخلافة، ولولا علمه بقدرتهم على ذلك لما أقدم على قتل ابنه.

(١) ابن الطوير: نزهة، ص ٤٣، ابن ميسر: أخبار، ج ٢ ص ٧٧: ٧٨، وابن أبيك: كنز الدرر، ج ٦، ص ٥١٤، النويري، ج ٢٨، ص ٣٠٠.

(٢) ابن قرقة: كان يتولى الاستعمالات بدار الديباج وخزائن السلاح وكان ماهراً في علم الطب والهندسة ونحو ذلك من علوم الأوائل وقتله الحافظ بعد أن دبر السم لابنه حسن فاعتقله بخزانة البنود وقتله سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م (المقريزي: الخطط ج ٢ ص ٦٢).

(٣) ابن الطوير: نزهة المقلتين ص ٤٣، ابن ميسر: أخبار، ج ٢، ص ٧٧ - ٧٨، ابن أبيك: كنز الدرر ج ٦ ص ٥١٤، النويري، نهاية الإرب، ج ٢٨، ص ٣٠٠.

وبعد مقتل حسن بن الحافظ بالسّم، ثارت الفتنة بين الأجناد والسودان وطردهم الخليفة من القاهرة، وكانوا يميلون إلى حسن فانتقموا ممن أجبروا أباه على سسمه. فلما حضر بهرام من الصعيد بالأرمن، وجد أن حسن قد قتل مسموماً وتقابل مع الأجناد بالقرب من القاهرة فتمسكوا بتوليته الوزارة وألزموا الحافظ بذلك فاضطر إلى موافقتهم حتى لا تتور فتنة أخرى وخلع عليه بالوزارة سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م وهو باق على دين النصرانية فكان أول نصراني يتولى وزارة تفويض للفاطميين^(١) فقد ذكر المقرئزي أن الوزارة من حين توليها بدر الجمالي أصبحت «وزارة تفويض»^(٢).

و «صار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر الجمالي إلى آخر الدولة هو سلطان مصر، وصاحب الحل والعقد، وإليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية، وهو الذي يولي أرباب المناصب الديوانية والدينية»^(٣) كما ذكر أنه كان من عادة الدولة أنه إذا كان وزير رب سيف، فإنه يقد القضاء رجلاً نيابة عنه، وهذا إنما حدث من عهد أمير الجيوش بدر الجمالي^(٤). وقد اعترض المصريون على تولية نصراني الوزارة حيث ذكر المسبحي أن الحافظ أخذ يستشير كل من يثق به في ذلك فلم يشر به أحد عليه، وقيل: أولاً هو نصراني فلا يرضاه المسلمون، والثاني من شرط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر في الأعياد ليزرر عليه المزرة الحاجزة بينه وبين الناس، والثالث أن القضاء نواب الوزراء من زمن أمير الجيوش ويذكرون النيابة عنهم في الكتب الحكيمة النافذة إلى الآفاق وكتب

(١) ابن الطوير: نزهة، ص ٣٨ - ٤٤، ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر ص ١٢٣، ابن أبيك كنز جـ ٦، ص ٥٧، النويري: نهاية جـ ٢٨، ص ٣٠٠ - ٣٠٢، المقرئزي: اتعاظ جـ ٣، ص ١٥٥، جمال الشيال مجموعة الوثائق الفاطمية (الوثيقة الخامسة عشرة)، ص ١٤٤ - ١٤٩، أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية ص ١٩٣.

(٢) المقرئزي: الخطط جـ ١ ص ٤٣٩.

(٣) نفسه ص ٤٣٩.

(٤) نفسه ص ٤٠٣. وأنظر: جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية (الوثيقة الخامسة عشرة)، ص ١٤٩.

الأنكحة، فلم يصغ لذلك وقال إذا رضيناه نحن فمن يخالفنا وهو وزير السيف. وأما صعود المنبر فكان يستنيب عنه قاضي القضاة، وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة إلى ذلك، ويفعل ما كان يفعل قبل أمير الجيوش واستوزره والناس ينكرون عليه ذلك^(١).

ولما ثبتت مكانة بهرام في الوزارة طلب من الحافظ السماح له بإحضار إخوته فاذن له فأحضرهم من تل باشر ومن بلاد الأرمن حتى وصل عددهم بمصر إلى ثلاثين ألف إنسان فأساءوا إلى أهل مصر وجأهروا بنصرانياتهم وبنوا الكنائس واشتدت غيرة أهل مصر على الإسلام، واشتكوا بهرام إلى الخليفة وخاصة عندما استبد أخوه الباساك والي قوص بأهلها ونهب أموالهم فشق ذلك على الأمراء المصريين وبعثوا إلى رضوان بن الولخي والي الغربية يطلبون منه الحضور لإتقادهم^(٢).

يقول المقرئزي: لما تولى بهرام، اشتد ضرر المسلمين وكثرت أذيتهم، فحين ولى بهرام رضوان بن ولخي ولاية عسقلان وجد فيها الكثير من الأرمن وصلوا عن طريق البحر يريدون الوصول للقاهرة فتحرش بهم ومنع الكثير منهم، فلما علم بهرام غضب لذلك وصرفه عن عسقلان واستدعاه إلى القاهرة فالتف حوله الناس ممتنين له لمنعه الأرمن من الوصول إلى القاهرة فغار منه بهرام وقصد إبعاده عن القاهرة فولاه الغربية سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م^(٣).

فلما وصلت مكاتبات الأمراء كان منتهى أملهم أن يرتقى منصب الوزارة فاعتلى المنبر وخطب خطبة مدوية حرض فيها الناس على الجهاد فأجابوه والتفوا حوله دفاعاً عن الإسلام من الأرمن النصاري واتضم إليه ثلاثون ألفاً من العرب والجنود^(٤).

(١) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ١٢٣.

(٢) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٢٤، النويري جـ ٢٨، ص ٣٠١ - ٣٠٢، المقرئزي اتعاط جـ ٣، ص ١٥٦: ١٥٩، جمال الشيال: الوثائق (الخامسة عشرة)، ص ١٤٤.

(٣) جمال الشيال: الوثائق الفاطمية (الوثيقة الخامسة عشرة)، ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٤) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٤٤ - ٤٧، ابن الأثير: الكامل جـ ١١، ص ٤٨، ابن ميسر: -

فلما أصبح على مشارفها جمع بهرام الأرمن وابلغهم أنهم أصبحوا غير مرغوب فيهم برغم خدماتهم التي أدوها للدولة وأنه يأبى محاربة قوم كان عبداً لهم من قبل وحلف ألا يضرب بسيف في وجوههم أبداً^(١).

ثم اجتمع بهرام بالخليفة، ولكن الخليفة كان ضعيفاً أمام ثورة المسلمين فقال لبهرام «غلبني الإسلام عليك» ففهم بهرام على الفور أنه تخلى عنه فجمع الأرمن وسار إلى بلاد الصعيد، أما رضوان فقد انضم إليه الأمراء والجنود ووقف بهم بين القصرين، وقد رفع جنود رضوان المصاحف على أسنة الرماح ليعبروا أنهم ما جاءوا إلا دفاعاً عن الإسلام، فلما رأى جند بهرام ذلك انضم المسلمون منهم إلى جيش رضوان وكانت خطة مدبرة من رضوان والأمراء وتم عزل بهرام^(٢) وانتظر أوامر الخليفة فأمره بالنزول في دار الوزارة وخلع عليه وتولى الوزارة سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م^(٣).

ولم تكن ثورة المصريين على طائفة الأرمن لكونها جنساً غريباً عنهم فقد رحب المجتمع المصري بمختلف الطوائف وتعايش معهم وتصاهر منهم، سواء المغاربة أو السودانيين أو الصقالبة أو الأتراك وغيرهم ولكنهم تهادوا في تصرفاتهم إلى حد التطاول على المسلمين وكان هذا تحدياً سافراً لمشاعر شعب رحب بهؤلاء وامتزج بهم. ومما يدل على ذلك أن سجل تولية رضوان بن ولخشي والذي كتبه ابن الصيرفي ونقله لنا كل من ابن الطوير والمقريزي قد جاء فيه «لأنك أذهبت عن الدولة عارها وأمطت من طرق الهداية أوعارها، واستعدت ملابس سيادة كان قد

- المنتقى، ص ١٢٤ - ١٢٥ والنويري: نهاية جـ ٢٨، ص ٣٠٢، المقريزي: الخطط جـ ١، ص ٢٠٥، اتعاظ جـ ٣، ص ١٦١.

(١) ابن القلاسي: ذيل ص ٢٦٢.

(٢) ابن ميسر: أخبار جـ ٢، ص ٨٠، ابن الوردي: نعمة المختصر جـ ٢، ص ٦٤، المقريزي: خطط جـ ١، ص ٢٠٥، اتعاظ جـ ٣، ص ١٦١.

(٣) المقريزي: اتعاظ جـ ٣، ص ١٦٢، مجموعة الوثائق: جمال الشيال (الوثيقة الخامسة عشرة)، ص ١٤٥.

دنسها من استعارها»^(١).

فكانت الثورة عارمة ضدهم أطاحت بكل ما هو منتسب للأرمن حتى أنهم نهبوا حارة الوزيرية التي كانت كلها سكنًا للأرمن وكذلك حارة الحسينية بالقرب من باب الفتوح ونهبوا كنائسهم وقبورهم^(٢).

ويذكر القلقشندي أن الحسينية كان يسكنها الطائفة المعروفة بالوزيرية والريحانية من الأرمن والعجمان وعبيد الشراء^(٣).

وكانت أخبار بهرام قد وصلت إلى أهل قوص فتجروأوا وقتلوا أخاه الباساك وألقوه في النهر فاضطر إلى التزوح بالأرمن أصحابه إلى أسوان ليضم أهل النوبة النصارى إليه ضد رضوان الذي ما أن علم بذلك حتى أرسل إليه جيشًا على رأسه أخيه ناصر الدين الأوحدي إبراهيم لمطاردة بهرام ولكن الخليفة سارع وأمنه على نفسه وأقاربه وأصحابه وأوقف هذه الحملة ووافق على إقامته في الأديرة البيض بالقرب من أخميم بقى بها إلى سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م وأقام معه بعض أقاربه وهاجر البعض الآخر إلى تل باشر^(٤).

وقد انقلب الخليفة على رضوان واستاء من تصرفاته فأرسل في ٥٣٣هـ / ١١٣٨م في طلب بهرام وأسكنه معه في القصر وأخذ بمشورته في كل أمور الدولة مما أثار رضوان فآثر الهرب^(٥) وما لبث بهرام أن توفي سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م بالقصر فحزن عليه الحافظ حزنًا كبيرًا^(٦).

(١) ابن الطوير: نزهة المشتاق ص ٤٨، المقرئ: اتعاظ جـ ٣ ص ١٨٤.

(٢) ابن ميسر: أخبار جـ ٢، ص ٨٠، المقرئ: اتعاظ جـ ٣، ص ١٦١، ابن تغري بردي: النجوم جـ ٤، ص ٤٦.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٣، ص ٣٥٩: ٣٤٠.

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر جـ ٢، ص ٧٩: ٨٠، المقرئ: اتعاظ جـ ٣، ص ١٦٢.

(٥) ابن القلاسي: ذيل، ص ٢٧٠ ابن ميسر: المنتقى، ص ١٢٦.

(٦) ابن ميسر: المنتقى ن ص ١٣٣ ابن أبيك: كنز الدرر جـ ٦، ص ٥١٨، المقرئ: اتعاظ جـ ٣، ص ١٧٥.

وبوفاته أسدل الستار على فترة هامة من فترات التاريخ الفاطمي في مصر استطاع فيها العنصر الأرمني أن يلعب دوراً سياسياً وعسكرياً وحضارياً بارزاً في الدولة، فقد حافظوا على وجود الخلافة وأقاموا إنجازات حضارية متعددة شهد لها تاريخ تلك الفترة التي بدأت ببدر الجمالي فالأفضل ثم أحمد بن الأفضل ثم يانس وانتهت ببهرام الأرمني.

وفي ٥٤١هـ / ١١٤٦م، ذكر ابن ميسر أن «فيها خرج على الحافظ أمير من أمراء المماليك يعرف ببختيار طالباً للوزارة بأرض الصعيد فندب إليه عسكرياً عليه سلمان بن يونس اللواتي فمضى إليه وحاربه فانهزم فأتبعه حتى أخذه أسيراً وقتله وصلبه»^(١).

وفي سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م، خرج رضوان من الموضع الذي كان معتقلاً فيه في القصر من نقبٍ نقبه فيه وهرب إلى الجيزة واستجد بالعربان وسار إلى القاهرة فخرج إليه عسكر الحافظ ودارت الحرب بين الفريقين عند جامع ابن طولون. ولما هزمهم سار وراءهم إلى القاهرة ونزل بالجامع الأحمر فغلق الحافظ أبواب القصر ولم يسمح له بالدخول، فاستولى رضوان على الأموال وأنفقها في طوائف العسكر وطلب مالا من الحافظ فبعث إليه بعشرين ألف دينار وأمر الحافظ مقدمي السودان بقتال رضوان فنفذوا الأمر فقتل على يد أحدهم وقتل معه أخاه وأخذ السودان رأسيهما للحافظ وسكنت الفتنة سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م^(٢).

وفي سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م، وقع خلاف كبير واحتدم الصراع بين الطائفة الجيوشية والطائفة السودانية الريحانية^(٣) وقامت بينهما وقعات كبيرة حتى امتنع الناس من القدوم إلى القاهرة وظلت الحروب بينهما فترة إلى أن انهزمت الريحانية

(١) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٣٧.

(٢) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٣٧، رزق الله منقريوس: تاريخ دول الإسلام، ج ١، ص ٣٤٨.

(٣) ذكر القلقشندي في صبح الأعشى ج ٣، ص ٣٥٩، أن الريحانية من الأرمن ولكننا نرجح رأي ابن ميسر بأنهم من السودان والجيوشية من الأرمن نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالي لأنه ليس من الممكن أن تنشأ الحرب بين الأرمن وبعضهم فقد كانوا متحدين.

إلى الجيزة، ويبدو أن الصراع كان بسبب خلع الحافظ من الخلافة ثم انشغل الناس بوفاة الخليفة^(١).

بويع بعده بالخلافة ابنه الأصغر أبو المنصور إسماعيل وتلقب بالظافر بالله (٥٤٤هـ - ٥٤٩هـ / ١١٤٩ - ١١٥٤م)^(٢).

وفور مبايعته بالخلافة، عين الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال اللكي وخلع عليه بالوزارة تنفيذاً لوصية أبيه، ولم يكن وزيراً في عهد الحافظ وإنما كان متولياً للأمور والمصالح دون أن يطلق عليه لقب وزير^(٣).

وقد نجح في تأديب السودانيين في صعيد مصر^(٤) ولم يقبل على ابن السلار والي الإسكندرية والبحيرة أن يلي ابن مصال الوزارة وهو شيخ كبير فاتفق مع الأمير عباس الصنهاجي والي الغربية، وكان ابن زوجته على التوجه للقاهرة وإجبار الخليفة على توليته في الوزارة بدلاً من ابن مصال. وقد كان له ما أراد رغم أن ابن مصال جمع جيشاً كبيراً من بربر لواته ومن السودان والعربان وكاد أن ينتصر لولا أن ابن السلار بعث إليه جيشاً على رأسه الأمير عباس الصنهاجي هزمه وقتل عند مدينة دلاص قرب البهنسا عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م^(٥).

وبعد محاصرة ابن السلار للقصر الفاطمي، اضطر الظافر على غير رغبة منه إلى توليته الوزارة ولكنه لم يكن على وفاق معه فقد تحرز كل منهما للآخر حتى أن ابن السلار الذي كان أحد الصبيان الحجرية كون جماعة من الحرس الخاص به

(١) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٤٠.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة جـ ١، ص ٦٠٨.

(٣) ابن الطوير: نزهة، ص ٥٤.

(٤) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٤٢، المقرئ: اتعاظ: جـ ٣، ص ١٩٦.

(٥) ابن القلاسي: ذيل، ص ٣١١، ابن الطوير: نزهة، ص ٥٥: ٥٩، ابن الأثير الكامل، جـ ١١، ص

١٤٢، أبو شامة: الروضتين جـ ١، ص ١٩٥، ابن ميسر: المنتقى، ص ١٧٢، المقرئ: اتعاظ

جـ ٣، ص ١٩٦: ١٩٧، محمد جمال سرور: الدولة الفاطمية، ص ١٢٤.

عرفوا بـ «صبيان الزرد»^(١) وكانوا من الأتراك اصطنعهم لحمايتهم^(٢) وبلغ عددهم ٣٠٠ ألف فارس وكانوا دائماً ما يثيرون الشغب والاضطرابات^(٣) وقام العادل بن السلار سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م بإغلاق أبواب القاهرة والقصور وأمسك صبيان الخاص وقتلهم جميعاً^(٤).

وفي عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، قتل أبو الحسن علي بن السلار والذي نعتة ابن ميسر بسلطان مصر^(٥) على يد ربيبه عباس الذي كان مع الأمراء في عسقلان لحمايتها من الفرنج وكان معه أسامة بن منقذ وضرغام فجلسوا يتسامرون ويتذكرون مصر وما فيها من خيرات وطيب ونظروا إلى حالهم في السفر ولقاء العدو، فأخذ عباس يتحدث عاتباً على العادل لأنه أوفده لهذا فأوعز إليه أسامة بقتل العادل وأن يكون هو سلطان مصر بدلاً منه، فأحضر عباس ابنه نصر وحكا له ما دار بينه وبين أسامة وسيره إلى مصر لتأدية المهمة وتنفيذ الخطة، وبالفعل قام نصر بقتل العادل ومضى برأسه إلى الظافر بالقصر وأرسل في استدعاء عباس الذي جاء إلى القاهرة فوجد الغلمان الأتراك الذين اصطنعهم العادل بن السلار في قمة ثورتهم لما حدث وحاول تسكينهم فلم يفلح وقد تركوا القاهرة متجهين إلى دمشق^(٦).

استوزر الظافر عباس هذا الذي أخذ في تقريب أسامة بن منقذ اعترافاً بفضله ولكن ما لبث أن قتل الخليفة الظافر على يد نصر بن عباس بإيعاز من أبيه عباس

(١) ابن الطوير: نزهة، ص ٥٩، ابن خلكان: وفيات جـ ٣، ص ٤١٦، النويري: نهاية جـ ٢٨، ص

٣١٢، المقرئ: اتعاظ جـ ٣، ص ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) ابن الطوير: نزهة، ص ١٦٥.

(٣) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص ٨٠.

(٤) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٤٣.

(٥) نفسه، ص ١٤٦.

(٦) ابن القلاسي: ذيل، ص ٣١٩ - ٣٢٠، ابن الطوير: نزهة، ص ٦٢ - ٦٦، وابن الأثير: الكامل

جـ ١١، ص ١٨٤، أبو شامة: الترويضتين، جـ ١، ص ٢٢٦ - ٢٢٧، ابن ميسر: المنتقى،

ص ١٤٦ - ١٤٧، المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٥٥: ٥٦، اتعاظ، جـ ٣، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

وأسامة بن منقذ سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م^(١) فثارت فتنة وانقلب السودان والأمراء عليه لقتل الخليفة فحاربهم عباس وقتل الكثير منهم^(٢). وتولى بعده الفائز عيسى أبو القاسم (٥٤٩-٥٥٥هـ / ١١٥٤-١١٦٠م) وتولى وزارته العباس^(٣).

واستدعت نساء القصر والي الأشمونين طلائع بن رزيق وأرسلن إليه شعورهن لإتقان الخلافة^(٤).

وعند مجيء طلائع سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م دخل إلى القاهرة والتف حوله الناس. فلما رأى عباس ونصر وأسامة بن منقذ ذلك وتأكدوا من كراهية العامة لهم هربوا بأموالهم إلى الشام^(٥) وقد خلع عليه الفائز بالوزارة وكان أول وزير يلقب بالملك^(٦).

وقد قتل عباس على يد الفرنج بتحريض من أخت الخليفة وبذلها الأموال لهم في ذلك^(٧) وفر أسامة إلى الشام^(٨)، أما نصر فقد تسلمته جماعة الداوية في فلسطين مقابل ثلاثين ألف دينار وأرسل في قفص حديد إلى نساء القصر بالقاهرة فقممن بتعذيبه ثم صلب حياً على بابا زويلة^(٩).

(١) ابن القلاسي: ذيل، ص ٣٢٩ - ٣٣٠، ابن الطوير: نزهة، ص ٦٧، ابن الأثير: الكامل، جـ ١، ص ١٩١، أبو شامة: الروضتين، جـ ١، ص ٢٤٣ - ٢٤٥، ابن ميسر: المنتقى، ص ١٤٧، المقرئ: خطط جـ ٢، ص ٣٠، اتعاط، جـ ٣، ص ٢٠٨.

(٢) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٤٩.

(٣) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٧٠.

(٤) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٤٩، ابن خلكان: وفيات جـ ٢، ص ٥٢٦، المقرئ: اتعاط، جـ ٣، ص ٢١٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ ١١ ص ١٩٣، ابن ميسر: أخبار، ص ١٤٩ - ١٥٠، ابن خلكان: وفيات جـ ٢، ص ٥٢٦، المقرئ: اتعاط، جـ ٣، ص ٢١٥ - ٢١٧، والخطط، جـ ٢، ص ٢٩٣ - ٤١٠.

(٦) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٥٠ - ١٥١، المقرئ: اتعاط جـ ٣، ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٧) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٧٠.

(٨) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٥٠.

(٩) نفسه، المقرئ: اتعاط جـ ٣، ص ٢٢٠.

وبعد وفاة الفائز، أقام الوزير طلائع مكانه العاضد لدين الله عبد الله أبو محمد سنة (٥٥٥ - ٥٦٧هـ / ١١٦٠ - ١١٧١م) وزوجه ابنته طمعاً في ملك البلاد إذا أنجبت منه ولداً^(١).

ولما ضيق طلائع على العاضد واستبد بأمر الدولة وتحكم في الخليفة وفي نساء القصر، دبرت له ست القصور وحرضت الخدم النوبيين على قتله فتربصوا له وطعنوه سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م^(٢) ويذكر ابن خلكان أن العاضد هو الذي دبر لقتله جماعة من أجناد الدولة يقال لهم أولاد الراعي وأخفاهم في مكانه بالقصر حتى إذا مر الصالح قتلوه، وقد تمت المؤامرة، فجاء أصحاب الصالح وقتلوا الذين قتلوه وتوفي سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م^(٣).

ارتبطت نهاية تلك الصراعات بين الطوائف المختلفة ارتباطاً وثيقاً بنهاية الدولة الفاطمية في مصر إن لم تكن هي التي عجلت بنهايتها فقد ذكر ذلك ابن الفرات فقال: «جوهراً هذا سبب زوال دولة العبيديين، وكان سبب خلافتهم بالديار المصرية أولاً جوهراً القائد، وبين الجوهريين بون كبير»^(٤) كما قال المقرئ والمقرئ «تلاشى من هذه الواقعة أمر العاضد»^(٥).

كان بالقصر الفاطمي أعداد كبيرة من السودانيين قيل أن عددهم وصل إلى خمسين ألفاً سوداني كان يقودهم أو يشرف عليهم خصى سوداني أسود يدعى جوهراً مؤتمناً للخلافة شق عليه استئثار صلاح الدين الأيوبي بالأمور واستشعر أن نهاية الدولة الفاطمية قد حانت وأنها دخلت طور الاحتضار فحاول إنقاذها بشتى السبل فاتفق مع جماعة من المصريين وكتبوا الفرنج واستدعواهم لينصروهم على

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١١، ص ٢٥٥، ٢٧٤، ابن خلكان: وفيات، جـ ٢، ص ٥٢٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١١، ص ٢٧٤، أبو شامة: الروضتين، جـ ١، ص ٣١١ - ٣١٣، ٤١٠،

المقرئ: الخط، جـ ٢، ص ٢٩٤، اتعاط، جـ ٣، ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣، ص ٥٢٦.

(٤) ابن الفرات: تاريخه، جـ ٤، ص ٧٨.

(٥) المقرئ: الخط، جـ ٢، ص ٣.

صلاح الدين ومن معه وبعثوا بهذه الكتب خفية مع شخص يأتمنونه ويثقون به^(١). وكان الغرض من تلك الحيلة أن يأتي الفرنج فيخرج صلاح الدين وأصحابه للقائهم وقتالهم فيتخلص مؤتمن الخلافة ومن معه من أصحابه المتبقين ثم يخرج في إثر صلاح الدين ويقوضونه فلا يجد مفرًا، فالفرنج أمامه ومؤتمن الخلافة ومن معه من الخلف فيفنى هو وأصحابه وينتهي أمره^(٢).

وكان مؤتمن الخلافة يخطط للتخلص من صلاح الدين إلا أن خطته فشلت وكشف الأمر على يد رجل تركماني من أنصار صلاح الدين رأى مع هذا الشخص المبعوث من قبل مؤتمن الخلافة نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي فشك في أمره وأخذهما إلى صلاح الدين ففتقهما واضطلع على مكاتب الفرنج وذكر أبو شامة أنه وجد مكتوبًا فيها «من أهل القصر يرجون بحركتهم حصول النصر»^(٣) فطلب صلاح الدين معرفة كاتب هذا الخط والقبض عليه فقبضوا على أحد اليهود، فلما أحضروه لسؤاله، نطق بالشهادة واحتفى بالإسلام ثم اعترف أن هذا لم يكن إلا بأمر مؤتمن الخلافة فلما تأكد السلطان من إسلامه، سكت عن الأمر مضمراً في نفسه الشر لمؤتمن الخلافة، والذي شعر بما حدث فظل مقيماً بالقصر لا يبارحه أبداً خوفاً من صلاح الدين، وكان له قصر في قرية يقال لها الخرقانية قرب قليوب^(٤). فذهب إلى

(١) مخطوط شفاء القلوب: (مجهول الكاتب)، ص ١٩، ابن الأثير: الكامل جـ ١١، ص ٣٤٥، أبو شامة: الروضتين، ج ١ قسم ٢، ص ٤٥٠، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ١٧٤ - ١٧٥، ابن الفرات: تاريخه ج ٤، ص ٧٧، ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٢٨٣، المقريزي: خطط، ج ٢، ص ٢، ٤.

(٢) مخطوط شفاء القلوب: مجهول ص ١٩، ابن الأثير: الكامل ج ١١، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ وأبو شامة: الروضتين، ج ١ قسم ٢، ص ٤٥٠ - ٤٥١، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ١٧٤ - ١٧٥، ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٢٨٣، جمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ج ٢، ص ٢١، نظير حسان سعادوي: جيش مصر، ص ١٤.

(٣) أبو شامة: الروضتين ج ١، ق ٢، ص ٤٥٠ - ٤٥١.

(٤) مخطوط شفاء القلوب، ص ١٩، أبو شامة: الروضتين ج ١، ق ٢، ص ٤٥١، ابن واصل: مفرج الكروب ج ١، ص ١٧٥، وابن الفرات: تاريخه، ج ٤، ص ٧٧، ابن خلدون: العبر ج ٥، =

قصره بها للنزهة، فبعث إليه صلاح الدين من قتله وجاء برأسه سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م^(١) فلما قتل، ثار السودانيون من عبيد القصر وكان عددهم قد تعدى الخمسين ألفاً^(٢) وكانوا «إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه واستباحوه واستحلوه فحسبوا أن كل بيضاء شحمة وأن كل سوداء فحمة»^(٣).

ودارت الحرب بين القصرين بين أصحاب صلاح الدين ومقدمهم أبي الهيجاء وبين العبيد لمدة يومين انتصر فيها صلاح الدين عليهم وأحرق محلتهم المعروفة بالمنصورة وفيها أموالهم وأولادهم، فلما علموا بذلك ضعف أمرهم وانهزموا وطلبوا الأمان بعد أن قتل الكثير منهم فأجيبوا إليه، وكانوا كلما ذهبوا إلى مكان أحرقه عليهم جنود صلاح الدين حتى فروا إلى الجيزة^(٤).

وقد علق ابن واصل على تلك الواقعة بقوله: «ولما وقعت هذه الواقعة، تلاشى

- ص ٢٨٣، المقرئزي خطط جـ ٢، ص ٣.

(١) مخطوط شفاء القلوب: مجهول، ص ١٩، محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر جـ ١، ص ١١، ابن الأثير: الكامل، جـ ١١ ص ٣٤٦ - ٣٤٧، أبي شامة: الروضتين جـ ١، ق ٢ ص ٤٥١، وابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٧٥ - ١٧٦، وابن الفرات: تاريخه جـ ٤، ص ٧٨، وابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٢٨٣، المقرئزي: خطط، جـ ٢، ص ٣.

(٢) ذكر ابن الفرات أن عدد السودانيين عشرة آلاف، وذكر ابن خلدون أنهم خمسة آلاف، ولكن المقرئزي ذكر نصاً له أهميته في توضيح ذلك الخلاف فقال: فغضب العسكر المصري وثاروا بأجمعهم في سادس عشرية وقد انضم إليهم عالم عظيم من الأمراء والعامة حتى صاروا ما ينيف على خمسين ألفاً وعلى هذا، يبدو أن عددهم كان عشرة آلاف على قول ابن الفرات، ولما انضم إليهم بقية الأمراء والعامة وصلوا إلى خمسين ألفاً، ولكن هذا لا يمنع أن عددهم كان كبيراً في قصر العاضد الفاطمي. للمزيد أنظر: ابن الفرات: تاريخه، جـ ٤، ص ٧٨، ابن خلدون: العبر جـ ٥، ص ٢٨٣، المقرئزي خطط، جـ ٢، ص ٣، ٤.

(٣) أبو شامة: الروضتين جـ ١، ق ٢، ص ٤٥١ - ٤٥٢.

(٤) مخطوط شفاء القلوب مجهول، ص ١٩، محمد بهادر: فتوح النصر: جـ ١، ص ١١، ابن الأثير: الكامل جـ ١١، ص ٣٤٧، ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٢٨٣، المقرئزي: خطط، جـ ٢، ص ٣، جمال الشيبان: تاريخ مصر جـ ٢، ص ٢٢.

أمر العاضد خليفة مصر، إلا أن الخطبة باقية له وبعده لنور الدين»^(١).

ويذكر المقرئ أن العاضد كان يتابع المعركة من منظره القصر، وأن أهل القصر لما رأوا أن السودانيين قد أشرفوا على الهزيمة «رموا على الغز من أعلى القصر بالنشاب والحجارة حتى أنكوا فيهم وكفوه عن القتال وكادوا يهزمون»^(٢). لولا أن صلاح الدين أمر بإحراق المنطرة، وشاهد العاضد بنفسه النفاطين يستعدون لتطبيب قارورة النفط ويصوبون بها على المنطرة التي يشرف منها العاضد على الميدان وخاف وأمر أحد الأستاذين أن ينادى بصوت عال قائلاً: «أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول: «دونكم والعبيد الكلاب أخرجوهم من بلادكم». فلما سمع السودان ذلك، تراخت قواهم فهجم عليهم الصلاحية وتحصنوا بمكان كان للأرمن قريباً من بين القصرين ووقف الأرمن بجانبهم وكانوا رماة بارعين ومنعوا الصلاحية من السير إلى العبيد فأحرق شمس الدولة ديارهم بما فيها ومن فيها وتتبع العبيد كلما دخلوا مكاناً أحرقه عليهم وقتلوا فيه حتى وصلوا إلى باب زويلة فوجدوه مغلقاً فحصروا هناك وتم قتل الكثير منهم»^(٣).

ثم بعث صلاح الدين أخاه تورانشاه في إثرهم وشرع يقتل فيهم ثم أرسل أوامره إلى ولاية البلاد بقتل من وجد منهم^(٤)، وكان السودانيون قد كرهوا صلاح الدين لأنه لم يكن يستخدمهم في الجيش الأيوبي واستبدلهم بعناصر أخرى تركية وديلمية وكردية^(٥). وكان من نتيجة هذه الواقعة أن زاد ضعف الخليفة العاضد أمام قوة صلاح الدين وتلاشى نفوذه حتى أن ابن واصل أورد لنا نصاً إن دل على شيء دل ووضح مدى

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٧٦.

(٢) المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٣، ٤.

(٣) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣، ٤.

(٤) مخطوط فتوح النصر: محمد بهادر جـ ١، ص ١١، ابن الفرات جـ ٤، ص ٧٨، ابن خلدون:

العبر جـ ٥، ص ٢٨٣، المقرئ: خطط جـ ٢، ص ٣، جمال الشيال: مصر الإسلامية جـ ٢،

ص ١٢.

(٥) مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١٢٦.

ما آل إليه الخليفة العاضد من الضعف في أواخر أيامه مما أدى إلى سرعة زوال الدولة الفاطمية، وانفراد صلاح الدين بالأمر، فقد خلا له المسرح السياسي تمامًا وكان مهياً لقيامه على رأس الدولة الأيوبية.

ذكر ابن واصل «فحكى لي الأمير حسام^(١) الدين بن أبي علي، قال : كان جدي في خدمة الملك الناصر صلاح الدين فحكى أنه لما وقعت هذه الواقعة شرع صلاح الدين كل يوم يطلب من العاضد شيئاً من الخيل والرقيق والأموال ليقوى بذلك ضعفه، قال : فستبرني يوماً إليه أطلب منه فرساً ولم يبق عنده إلا فرس واحد فأتيت إليه وهو راكب في بستانه المعروف بالكافوري الذي يلي القصر الغربي فقلت: صلاح الدين يسلم عليك ويطلب منك فرساً فقال: ما عندي إلا الفرس الذي أنا راكبه ونزل عنه وشق خفيه ورمى بهما وسلم إليّ الفرس فأتيت به صلاح الدين ولزم العاضد بيته ولم يعد لركوب حتى كان منه ما كان»^(٢).

وهكذا كان لتضافر العوامل الخارجية ممثلة في التهديدات الصليبية على مصر، والداخلية ممثلة في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بها أثر كبير في التعجيل بنهاية الدولة الفاطمية التي استمر حكمها لمصر أكثر من قرنين من الزمان كان لمصر خلالها دور رائد في المنطقة بالإضافة إلى الكثير من الإنجازات الحضارية التي أولاهها خلفاء الفواطم عناية كبيرة.

وورث الأيوبيون حكم مصر لتستمر في دورها الريادي في العالمين العربي والإسلامي، فقد قامت مصر بإمكاناتها البشرية والمادية بدور كبير في التصدي للغزو الصليبي إلى أن تم استعادة القدس كما تمكنت أيضاً من وقف المد المغولي وإنقاذ الحضارة الإسلامية بل والحضارة الإنسانية من براثنه.

(١) كان الأمير حسام الدين بن أبي علي قائداً من كبار قواد الدولة في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ونائب السلطنة في عهده، كما كان صديقاً حميماً للمؤلف ابن واصل وينقل عنه الكثير من أخبار الدولة وأسرارها وخاصة في عهد الصالح نجم الدين، وهذا أول حديث ينقله عنه وهو من الأخبار التي ينفرد ابن واصل بإيرادها (ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٧٨، حاشية ٢).

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٧٨ - ١٧٩.

أهم الشخصيات المملوكية في العصر الفاطمي

استطاعت الشخصيات ذات الأصول المملوكية التي دخلت في خدمة الدولة أن تثبت جدارتها وتؤثر في الدولة والمجتمع، وأن تترك بصمات واضحة في الحكم والسياسة. وكان من أهم تلك العناصر القائد جوهر الصقلي وبرجوان الصقلي وبدر الجمالي ويانس الأرمني وبهرام الأرمني وجوهر مؤتمن الخلافة.

أولاً: جوهر الصقلي

وهو أبو الحسن جوهر بن عبد الله المعروف بالكاتب الرومي، المتوفي سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م كان من موالى المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي صاحب إفريقية^(١)، كما اتفق المؤرخون على أنه رومي الجنسية^(٢) ووصفه الذهبي بأنه «القائد أبو الحسن الرومي مولى المعز بالله وأتابك جيشه وظهيره ومؤيد دولته وموطئ الممالك له»^(٣).

ومسقط رأسه جزيرة صقلية^(٤). ويبدو أن والده كان مسلماً، فقد انتشر الإسلام

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٣٧٥، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ١٠٩،

ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٦، ص ١٣٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٤، ص ٢٨.

(٢) الذهبي: العبر في خبر من خبر، جـ ٢، ص ١٥٨، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٣٧٥،

أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ١٠٩، ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٦، ص ٢٨.

(٣) الذهبي: العبر في خبر من خبر، جـ ٢، ص ١٥٨.

(٤) صقلية: هي من جزر البحر الأبيض المتوسط بينها وبين إفريقية مائة وأربعون ميلاً، وهي جزيرة

خصبة كثيرة البلدان والقرى، وبها نحو ثلاث وعشرين مدينة وثلاثة عشر حصناً، وبها جبل النار

الذي يزعم الروم أن كثيراً من الحكماء كانوا يدخلون إلى الجزيرة لمشاهدة عجائبه واجتماع النار

والثلج فيه (ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٧٣: ٣٧٦)، وكانت تلك الجزيرة تجت

حكم الرومان إلى أن قام الأغالبية بفتحها سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م على يد أسد بن الفرات قاضي

القيروان وذلك في عهد المأمون، وقد انتشرت اللغة العربية انتشاراً واسعاً نتيجة لانتشار الإسلام

بين أهالي تلك الجزيرة حتى أصبحت لغة التخاطب واللغة الرسمية للبلاد، وترجمت في هذه

الجزيرة أهم مؤلفات أفلاطون وأرسطو إلى اللغة العربية، كذلك انتشر الشعر العربي بين أهلها،

وقد أثرت هذه البيئة الثقافية على نشأة الثقافة عند جوهر فقد أتقن اللغة العربية وكذلك اللاتينية=

في هذه الجزيرة سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م، أي قبل اتصال جوهر بالمعز بأكثر من قرن، ومما يؤكد ذلك الافتراض أن والده كان يدعى عبد الله وهو اسم من أسماء المسلمين^(١) وقد شُبَّ جوهر في كنف الدولة الفاطمية في بلاد المغرب واستطاع أن يكسب ثقة المعز الذي قرَّبه إليه لما بدا عليه من مظاهر الثقافة والعلم وتدرج لديه في الوظائف حتى أصبح كاتبًا له ٣٤١هـ / ٩٢٣م ولقب منذ ذلك الحين بجوهر الكاتب^(٢) وهو أحد المناصب الرفيعة في الدولة وكان الطريق الموصل إلى منصب الوزارة الذي اعتلاه بالفعل سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م، تميز جوهر بالأدب الجم في كتابته، ويتبين هذا من أسلوبه في كتابة عهد الأمان الذي كتبه للمصريين عقب دخوله إلى مصر سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م^(٣) وفيه «لتحمدوا الله تعالى على ما أولاكم وتحمدوه على ما حباكم ولتدأبوا فيما يلزمكم وتسارعوا للطاعة العاصمة لكم العائدة بالسعادة عليكم المضية بالسلامة لكم .. ولم يكن إخراج هذه العساكر المنصورة والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم إذ قد تخطفتكم الأيدي واستطال عليكم المشرك وأطمعته نفسه بالافتقار على بلادكم والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان المشرق وتأكد عزمه واشتد كلبه فعالجه مولانا وسيدنا أمير المؤمنين... بإخراج العساكر المنصورة وبإقاده بإنقاذ الجيوش المظفرة لتقاتله دونكم وتجاهده عنكم وعن كافة المسلمين ببلد المشرق^(٤).

كان جوهر من ذلك النوع من الرجال ذوي الكفاية والمقدرة الحربية والإدارية

- وتأثر بالحضارتين الإسلامية والرومانية مما أثر في حنكته السياسية ومهارته الحربية (علي إبراهيم حسن: تاريخ جوهر الصقلي، ص ١٩ - ٢٨).

- (١) علي إبراهيم حسن: تاريخ جوهر الصقلي، ص ٢١.
- (٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١، ص ٣٧٥، ابن تغري بردي: النجوم ج ٤، ص ٢٨.
- (٣) الأنطاكي تاريخه، ج ١، ص ٨١٩، ابن الوردي: تنمة المختصر، ج ١، ص ٤٠٨.
- (٤) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٢٤ - ١٢٦. وفيه «أيضًا بسم الله الرحمن الرحيم، وصل كتاب الشريف أطل الله بقاءه وأدام عزه وتأييده وتمكينه يهنئ بما هياه الله من الفتح المبارك وهو أيد الله المهنا بذلك لأنها دولته ودولة أهله وهو المخصوص بذلك، وذلك ردًا على القاضي الشريف عندما طلب إعادة الأمان للمصريين» النويري: نهاية الأرب، ج ٢٢، ص ١٢٨.

مما جعله «خصيصًا عند استأذه المعز وكان من كبار قواده» بل ولاه قيادة جيوشه ولقبه بقائد القواد^(١).

وكانت حملته على بلاد المغرب في سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م هي أول أعماله الحربية التي أظهرت كفاءته وحسن إدارته وشجاعته. ولقد كان هدف تلك الحملة هو توسيع المد الفاطمي ليشمل الشمال الأفريقي كله إخضاع البربر المناهضين للخلافة الفاطمية، فاستطاع جوهر الذي أثبت أنه يستحق وبجدارة ثقة المعز به تحقيق هذه المهمة الخطيرة بأن أعاد فتح سجلماسة، وتيهرت كما تمكن من الاستيلاء على فاس وإخضاع سبته وطنجة حتى وصل إلى المحيط مسجلًا مجده الحربي في التاريخ وشهرته العسكرية التي جعلت المعز يعهد إليه بالمهمة الخطيرة ألا وهي فتح مصر وتحقيق أمل الفاطميين في إقامة مركز للخلافة الفاطمية فيها^(٢).

وعندما فكر المعز في فتح مصر، ورأى أن الجو مههد تمامًا لذلك، أخذ في تجهيز العساكر وإصلاح الطرق المؤدية إلى مصر، وأمر بحفر الآبار على طول الطريق الموصل إليها وبعث المعز قائده جوهر لتأمين أحوال المغرب وحشد العساكر وترتيب الولاة على كل ناحية فيها، وأثناء التجهيز، ورد الخبر من مصر بوفاة كافور، فأرسل المعز في استدعاء جوهر فجاء بعساكر وحشود كبيرة من كتامة وغيرها^(٣).

وكان جوهر قد أصيب بمرض قبيل إرساله لفتح مصر ويئسوا من شفائه، فلما زاره المعز قال لمن حوله لا تحزنوا لأنه سيشفي ويفتح مصر بمشيئة الله، فلما

(١) ابن تغري بردي: النجوم، جـ ٤، ص ٢٨، وأنظر: القرماني، آثار الأول ص ١٩٠. وأنظر أيضًا: عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية، ص ١٢٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ٨، ص ٥٢٤: ٥٢٥، المقرئ: الخطط، جـ ١ ص ٣٧٧ - ٣٧٨، والمقرئ: اتعاض، جـ ١، ص ٩٣: ٩٤، وعلى سبيل المقارنة، أنظر: عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية، ص ١٢٤ وأيمن فؤاد: الدولة الفاطمية، ص ٦٤.

(٣) ابن خلكان: وفيات، جـ ١ ص ٣٧٥، ابن الوردي: تاريخه، جـ ١ ص ٤٠٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٤ ص ٢٨.

شفى، جهزه المعز^(١) وأكرمه وأمره بالرحيل إلى مصر لفتحها «فرحل من المنصورية ومعه ألف حمل مال ومن السلاح والكراع مالا يوصف^(٢)».

وبعد تجهيزه التفت المعز إلى المشايخ الذين وجههم معه وقال: «والله لو خرج جوهر هذا وحده ليفتح مصر وليدخلها بالأردية من غير حرب ولينزلن في خرابات ابن طولون ويبنن مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا»^(٣) وكان رحيله من إفريقية يوم السبت الرابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة^(٤).

ووصل جوهر بجيوشه إلى منية الصيادين^(٥) بمصر، وقد طلب أهل مصر منه الأمان على أن يسلموا له دون قتال أو حرب، وخرج إليه أكابر أعيانها، فقابلهم بالترحاب وطلبوا منه الأمان فأجابهم إليه وكتبه لهم وشهدوا عليه وعادوا إلى القسطنطين وأعلموا أهل مصر بذلك ولكن جماعة الإخشيدية والكافورية عادوا عما اتفقوا معهم عليه وقرروا الخروج لحربه وأمروا عليهم شخصاً يدعى تحرير الشويزاني^(٦) سار بالعسكر إلى الجيزة ولكنه ما لبث أن انهزم هزيمة منكرة وهرب حاملاً أمواله ونفائسه ليلاً إلى الشام، ونهب العامة داره فبعث الوزير أبو الفضل بن الفرات غلمانه يدورون في البلد رافعين بنوداً عليها

(١) مخطوط شرح اللمعة من أخبار المعز: مجهول، ص ٣.

(٢) ببيرس الدودار: مخطوط: زبدة الفكرة: جـ ٦ ص ٢٠٠، وأنظر أيضاً: ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٧٥، وابن الوردي: تاريخه، جـ ١، ص ٤٠٨، وابن تغري بردي: النجوم، جـ ٤، ص ٢٨.

(٣) مخطوط شرح اللمعة: مجهول، ص ٣ - ٤، ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٦، ص ١٣٨، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٣٤٩.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم جـ ٧، ص ٤٧، ابن خلكان: وفيات، جـ ١، ص ٣٧٥، ابن الوردي: تاريخه جـ ١، ص ٤٠٨، وابن كثير: البداية، جـ ١١، ص ٢٦٦.

(٥) منية الصيادين من القرى القديمة وهي حالياً جزء من وراق الحضر: مركز إمبابة بالجيزة: القاموس الجغرافي: ق ٢ جـ ٣ ص ٦٥.

(٦) تحرير الشويزاني في ابن خلكان: وفيات الأعيان، في ترجمة جوهر جـ ١، ص ٣٧٨.

اسم المعز ومنادياً ينادي بالإيمان^(١).

يقول ابن خلكان: دخل جوهر والعساكر إلى مصر يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م وشق البلد وسار ضارباً بخيمه بحذاء جنان كافور والتي أصبحت موقع القاهرة وكانت صحراء وقتها^(٢).

فلما جاء يوم الجمعة، خطب للمعز على منابر مصر كلها، وأمر جوهر المؤذنين أن يؤذّنوا بحي على خير العمل^(٣)، وكذلك ضربت السكة للمعز^(٤). وقد أرسل جوهر سنة ٣٥٩هـ / ٩٧٠م مع البشري هداياه إلى المعز ومعها المعتقلون في القيود وأهداه: تسعاً وتسعين بختيه وإحدى وعشرين قبة عليها الديباج المنسوج بالذهب ولها مناطق ذهب مكللة بالجواهر ومائة وعشرين ناقّة بأجلّة الديباج وأعنة محلاة بالفضة وخمسائة جمل عراباً وستة وخمسين جملاً وثمانية وأربعين دابة، منها بقلة واحدة وسبعة وأربعون فرساً بأجلّة حرير منقوش وسروج كلها ما بين ذهب وفضة ولجمها كذلك وعودان كأطول ما يكون العود الذي يتبخر به^(٥).

ونزل مكان يسمى المناخ واختطه وحفر أساس القصر في نفس الليلة التي وصل فيها وشرع في بناء القاهرة سنة ٣٦١هـ / ٩٧١م^(٦).

ثم أرسل جوهر يهنئ مولاه المعز بذلك ويبشر بفتح مصر^(٧) ففرح فرحاً شديداً، وقال شاعره ابن هانئ في ذلك :

يقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبني العباس قد قضى الأمر

-
- (١) الأنطاكي: تاريخه، جـ ١، ص ٨١٩ - ٨٢١، ابن الوردي: تنمة المختصر، جـ ١، ص ٤٠٨.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٢٧٦، ابن تغري بردي: النجوم، جـ ٤، ص ٢٨.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٧، ص ٧٤، ابن خلكان، وفيات، جـ ١، ص ٣٧٦، ابن كثير البداية والنهاية، جـ ١١، ص ٢٦٦، القلقشندي: وصح الأعشى، جـ ٤، ص ١٦٤.
(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ١٣١.
(٥) المقرئ: اتعاظ الحنفا، جـ ١، ص ١٢١، خطط، جـ ١، ص ٣٨٥.
(٦) ابن خلكان: وفيات حـ ١، ص ٣٧٦، ابن الوردي: تنمة المختصر، جـ ١، ص ٤٠٨، المقرئ: الخطط، جـ ١، ص ٣٦، والدميري: حياة الحيوان، جـ ١، ص ٨٥.
(٧) ابن خلكان: وفيات، جـ ١، ص ٣٧٦.

ومذ جاوز الإسكندرية جوهراً تصاحبه البشرى ويقدمه النصر^(١)

وأمر جوهراً بالقبض على قلول الإخشيدية والكافورية، فلما اجتمع منهم حوالي ألف غلام، قبض عليهم وقيدهم وحبسهم سنة ٣٦١هـ / ٩٧١م^(٢)، الأمر الذي يدل على أن جوهراً كان لا يزال إلى ذلك الوقت يتمتع ببعض النفوذ قبل أن يبعده المعز عن ساحة الحكم فقد استأثر بكامل النفوذ حتى انتهى الأمر بعزله عن الدواوين وجباية الأموال والنظر في أحوال الرعية سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤م^(٣).

وكان حريصاً على أن تخرج هذه المدينة في أبهى صورها بحيث تليق أن تكون عاصمة للدولة الفاطمية في مصر، فأحضر الفلكيين وأمرهم أن يلاحظوا النجوم فتكون ساعة إرساء أول حجر أساس للمدينة ساعة حظ^(٤).

وفي صفر سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٢م، غادر المعز مدينة القيروان إلى مصر التي وصلها في شهر رمضان من نفس السنة^(٥).

ولما جاء عيد الفطر، خلع المعز على جوهراً خلعة مذهبية وعمامة وقلده سيفاً وأعطاه فرساً مسرجة ملجمة ومنحه خمسون ألف دينار ومائتي ألف درهم مكافأة له وتعبيراً عن امتنانه له وإعجاباً به وبإنجاحه في فتح مصر^(٦).

ولم يترك المعز لجوهراً مجالاً لزيادة نفوذه ويبدو أنه كان يخشى من منافسته وحب المصريين له فعمل على أقصائه من أمور الحكم واحتفظ به مشيراً له في أغلب الأمور وكان المنتظر منه أن يقدمه ويكافئه اعترافاً بفضل له لفتح مصر والشام

(١) ابن تغرى بردى: النجوم، جـ ٤ ص ٣١.

(٢) الأنطاكي: تاريخه، جـ ٢ ص ٣٥٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات، جـ ١، ص ٣٧٦، ابن تغرى بردى: النجوم، جـ ٤ ص ٣٧٦.

(٤) المقرئ: الخطط جـ ١، ص ٣٧٦، منقريوس الصدفى: تاريخ دول الإسلام، ص ٣٢٩.

(٥) الأنطاكي: تاريخه، جـ ٢ تاريخ، ص ٣٥٢، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١١ ص ٢٨٣، ابن

تغرى بردى: النجوم، جـ ٤، ص ٢٣، الدميري: حياة الحيوان جـ ١ ص ٨٥.

(٦) رزق الله منقريوس الصدفى: تاريخ دول الإسلام، ص ٣٢٩.

وفلسطين وتثبيت دعائم الفاطميين ونشر دعوتهم ولكن المعز يضطر في نهاية سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤م إلى اللجوء إلى مساعدة جوهر حين تفاقم خطر الفتكين والحسن بن أحمد القرمطي، ولم يفلح قواد جيش المعز في محاربتهم فلجأ إلى جوهر وولاه قيادة الجيوش، وكان جوهر على إخلاصه ووفائه للمعز ثم لابنه العزيز من بعده فأنجز المهمة على أكمل وجه لكن المعز خشي أمره ثانية وعزله. وظل جوهر مخلصاً لمولاه فيذكر المقرئزي أنه لما مرض المعز سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م، ظل ثمانية وثلاثين يوماً يمرضه جوهر وطبيبه موسى بن العازار، كما كان لجوهر الفضل في توليه ابنه العزيز الخلافة وأخذ البيعة له من إخوته وعمومته وسائر الرعية^(١).

وكان من أهم إنجازات جوهر ذلك الأمان الذي كتبه هذا السياسي البارع بخطه للمصريين، فقد استطاع أن يكتسب به تأييدهم له إذ تعهد أن يترك لهم الحرية الدينية وأداء مناسكهم بما يتناسب مع مذهبهم السني في الأذان وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج والجهاد على أمر الله وكتابه وسنة نبيه ﷺ كما أقر أهل الذمة على ما كانوا عليه وأن يجرى في الموارث طبقاً لما جاء بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وإسقاط الرسوم الجائرة وترميم المساجد وتزيينها بالفرش الفاخر والإيقاد «وإعطاء مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس أرزاقهم»^(٢).

وكانت فترة حكمه لمصر قبل مجيء المعز والتي مهدت لمجيئه فترة تغيير في الأمور المذهبية والإدارية بطريقة سلسلة دون إثارة مشاعر أهالي البلاد، وأبقى جوهر المناصب الإدارية على حالها دون أن يحدث تغييراً أو إبدالاً للأشخاص المعينين قبل مجيئه فقد أراد أن يقتنص الفرصة لدراسة الأنظمة حتى إذا ماتم له ذلك «لم يدع عملاً إلا جعل فيه مغربياً شريكاً لمن فيه»^(٣).

(١) المقرئزي: اتعاظ، جـ ١، ص ٢٢٨.

(٢) أنظر المقرئزي: اتعاظ، جـ ١، ص ١٠٣ - ١٠٦، الخطط: أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٧٤ - ٧٧، الخطط، جـ ٢، ص ٢٤٠.

(٣) المقرئزي: اتعاظ، جـ ١، ص ١١٩، أنظر: النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ١٣٣.

وقام بقطع الخطبة للعباسيين من على منابر مصر وحذف أسمهم من على السكة وأحلّ اسم المعز بدلاً منهم وأزال السواد، شعار العباسيين، وألزم خطباء الجوامع بلبس الثياب البيض شعار الفاطميين^(١) وأمر بفتح دار الضرب بالفسطاط التي كانت معطلة على أيام الإخشيديين، وأمر بضرب سكة جديدة من الذهب تحمل اسم المعز لدين الله^(٢).

وقد أدخل جوهر بعض التغييرات على النظام الديني في مصر بمجرد دخوله والتي أثارت مشاعر المصريين السنيين فقد أذن في جميع المساجد «حي على خير العمل» وأعلن بتفضيل على بن أبي طالب على غيره وجهر بالصلاة عليه وعلى الحسن والحسين وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهم .. وأمر الإمام بجوامع مصر أن يجهر بالبسملة في الصلاة وزيد في صلاة الجمعة القنوت في الركعة الثانية وأمر في الموارث بالرد على ذوي الأرحام وألا يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ولا ابن عم وغيرها مما غيره في نظام الموارث وصار صوم شهر رمضان والفطر طبقاً لحساباتهم» فانقطع طلب الهلال من مصر وصام القاضي وغيره مع القائد جوهر كما يصوم وأفطروا كما يفطر»^(٣).

وطوال حكم الفاطميين، لم يخرج أحد من القضاة أو الدعاة لرؤية الهلال، وأزال جوهر التكبير بعد صلاة الجمعة^(٤) وكان يشجع الناس على الدخول في المذهب الشيعي بإسناد الوظائف الهامة لمعتنقيه من مصريين ومغاربة^(٥).

ويقول بعض المؤرخين بأن جوهر قد أدخل إلى جانب الإصلاحات الدينية العديد من الإصلاحات الاقتصادية والمالية وغيرها، وهذه في الواقع ليست إصلاحات

(١) نفسه، أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص ٧٧ - ٧٨.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج٢٨١، ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج٢، ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم، ج٧ ص ٤٧، ابن خلكان: وفيات، ج١، ص ٣٧٦، ابن كثير: البداية

والنهاية، ج١١، ص ٢٦٦، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٦٤.

(٥) علي إبراهيم حسن: تاريخ جوهر، ص ١٢١.

بالمعنى المفهوم، وإنما تنظيمات جديدة أدخلت لتلائم الوضع الجديد، فقد كانت مصر تمر بأزمة اقتصادية طاحنة منذ عام ٣٥٢هـ / ٩٦٣م قبل وصول جوهر إلى مصر واستمرت ثلاث سنوات بعد دخول الفاطميين إليها^(١). وقد تمكن جوهر من السيطرة على الموقف فبعث منادياً نادى في الناس «من عنده قمح فليخرجه وفرق الصدقات على الناس»^(٢) ثم ولى الحسبه إلى سليمان بن عزه الذي ضرب الطحسانين وطاف بهم البلد^(٣) وجمع القماحين وحصر مكان البيع وجعل له طريقاً واحداً حتى يستطيع معرفة مقدار القمح الخارج^(٤).

إلا أن الظروف التي مرت بها البلاد وبصفة خاصة نقص فيضان النيل وما ترتب عليه من تفشي الوباء وكثرة الأمراض وموت الناس وضعت جوهر أمام مسئولية جسيمة في محاولة جادة منه للسيطرة على الموقف فاتخذ الإجراءات العديدة، لذلك حتى ظهرت بوادر الانتعاش الاقتصادي في سنة ٣٦١هـ / ٩٧٢م^(٥) واهتم جوهر بإصلاح أحوال الزراعة في مصر، فقد أدرك ذلك القائد المحنك أن الاهتمام بالزراعة هو أقصر الطرق لجلب الرخاء لمصر، كما أنه أصلح الجسور والقناطر^(٦) وقام بمضاعفة ضريبة الخراج حتى يتمكن من الإنفاق على متطلبات الإصلاح الاقتصادي^(٧).

أما بالنسبة لإصلاحاته للنظام النقدي، فقد وعد المصريين في أمانه بإصلاح العملة المصرية وضربها على نفس عيار العملة الفاطمية في إفريقية ذلك أن المصريون استخدموا وغيرهم من المسلمين منذ زمن الفتح نقوداً ذهبية وفضية ونحاسية إلى جانب أخرى مخلطة وكانت الدنانير لا تستخدم إلا عند المدفوعات

(١) المقرئزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ١٢ - ١٤.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٣٠.

(٣) المقرئزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ١٢ - ١٤.

(٤) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص ٨٠.

(٥) المقرئزي: إغاثة الأمة، ص ١٣: ١٤.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١١، ص ١٩١.

(٧) المقرئزي: الخطط، ج ١ ص ٨٣: ٩٩، أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية، ص ٨١.

الضخمة وخاصة العقارات، أما في استخدام النقود في الحياة اليومية فكانت تستبدل القطع الفضية مقابل الدنانير وذلك بواسطة الصيارفة وعند الفتح الفاطمي، كان «الدينار الراضي»^(١) هو العملة المتداولة بين الناس، كما كانت تستخدم دنانير من الفضة المذهبة تسمى «الدينار الأبيض»^(٢).

فلما ضرب جوهر «الدينار المعزي»^(٣) سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م، عمل على تثبيت قيمة الدينار الراضي عند خمسة عشر درهماً بينما بلغت قيمة الدينار المعزي خمسة وعشرين درهماً. ومنع الناس من التعامل بالدينار الأبيض ثم خفض قيمته من عشرة دراهم إلى ستة دراهم مما تسبب في إفلاس بعض الناس فأعاد تقدير قيمته سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٣م فرفعت ثمانيه دراهم وبعد وصول المعز لدين الله كان الدينار المعزي هو العملة الرسمية^(٤) واهتم جوهر بالناحية المعمارية وما زالت آثار الفاطميين قائمة إلى يومنا هذا تشهد على عظمة مبانيهم وفخامتها وأبهتها تلك التي بدأها القائد جوهر الصقلي فقد حفر أساس قصر المعز في نفس الليلة التي وصل فيها^(٥).

كما أنه اختط القاهرة و«قرر كل جانب منها على أمير من أمراء عسكره وأرصده لبناء تلك الحارة حسبما أمره المعز لدين الله فسميت كل حارة باسم مقدمها أو الطائفة التي نزلت بها وابتدأ بالعمارة في شهر رمضان من السنة»^(٦) فأصبحت

(١) الدينار الراضي: هو الدينار الذي ضربه العباسيون المقريري : الخطط، جـ ٢، ص ٦ والاتعاظ جـ ١، ص ١٢٢، النقود الإسلامية، ص ٦٥.

(٢) الدينار الأبيض: وهو دينار منخفض القيمة حيث ترتفع فيه نسبة الفضة وكان مستخدماً في التداول قبل وصول المعز إلى مصر شأن الدينار الراضي المقريري : النقود الإسلامية ص ٦٥، الاتعاظ جـ ١ ص ١٢٢ - ١٣٢.

(٣) الدينار المعزي: وقد ضربه جوهر الصقلي سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م وقد بلغت قيمته خمسة وعشرين درهماً، المقريري : النقود الإسلامية، ص ٦٥.

(٤) أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية، ص ٨١ : ٨٢.

(٥) المقريري : الخطط، جـ ١، ص ٣٦٠، النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ١٣٠.

(٦) النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ١٣٠.

من أكبر العواصم الإسلامية وبرزها وقاعدتها الحضارية التي خرج منها العلم والثقافة والفنون والأدب إلى سائر دول الإسلام، وأصبحت مقصد الشعراء والكتاب واختطت كل قبيلة خطة عرفت بها: فزويلة بنت الحارة المعروفة بها، واختطت جماعة من أهل برقة الحارة البرقية، واختطت الروم حارتين: حارة الروم الآن وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر^(١)، كما شرع جوهر في بناء الجامع الأزهر سنة ٣٥٩هـ / ٩٧٠م وأكمل بناءه سنة ٣٦١هـ / ٩٧٢م وأقيمت فيه أول صلاة جمعة في شهر رمضان من نفس السنة^(٢).

وعمل جوهر على تأمين حدود مصر عسكرياً فكان غرضه بإختطاط القاهرة في ذلك الموضع الذي اختاره لها أن تكون حصناً يحمي مصر من القرامطة، وأحاط المناخ الذي نزل فيه بعسكره بسور من اللبن وأنشأ من داخل السور جامعاً وقصرًا لتكون بمثابة معقلا يتحصن به ويقيم به عساكره وقام بحفر خندق من جهة الشام ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة وما وراءها^(٣) وبني على هذا الخندق باباً كبيراً وركب عليه باباً من الحديد كان على الميدان الإخشيدي وبني عليه بابين آخرين^(٤).

وفي سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م، بني جوهر سوراً على القصور التي بناها من قبل وجعلها بلداً وسماها المنصورية. ولما جاء المعز سماها القاهرة^(٥) ثم شرع سنة ٣٦١هـ / ٩٧١م بحفر خندق يحمي طريق الحج من ناحية بحر القلزم^(٦).

كما قام بتأمين حدود مصر من جهة النوبة وأخضع ملكهم^(٧) وقام بتوطيد سلطة

(١) ابن خلكان : وفيات، جـ ١، ص ٣٧٦، ابن الوردي : تنمة المختصر، جـ ١، ص ٤٠٨.

(٢) المقرئزي : الخطط، جـ ١، ص ٣٦٠ - ٣٦١.

(٣) نفسه: جـ ٢، ص ٢٧٢.

(٤) المقرئزي : الخطط، جـ ١، ص ٣٦٠.

(٥) النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ١٣٦.

(٦) نفسه ص ١٣٧.

(٧) المسعودي : مروج الذهب، جـ ٢، ص ١٢٩ - ١٣٠، أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص

الفاطميين في بلاد الشام وفلسطين بعد هزيمة جعفر ابن فلاح لأن جنده قد خذلوه فسقط قتيلاً في الميدان، فلم تكن له الصفات السياسية والقيادية التي عند جوهر فجاء هذا وقضى على القرامطة ولولاه لثم لهؤلاء دخول مصر وإزالة الفاطميين منها^(١).

وكان يجلس بنفسه للنظر في المظالم ويعدل بين الناس ويرد إليهم حقوقهم يرد أي ظالم يتعدى على حقوق الغير حتى ولو كان أقرب خاصته، وكثيراً ما كان يعاقب الجند المغاربة بالقتل إذا تعدوا على الأهالي^(٢).

واشتهر جوهر بالتواضع وحسن الخلق، فقد ذكر المقرئ حواراً بين جوهر وابن عمار في عهد العزيز الذي اصطنع منجوتكين التركي وقدمه وخرج من القصر راكباً وحده وهذا يدل على ارتقائه مكانة عالية في عهد العزيز، وخرج جوهر وابن عمار ومن دونهما من أهل الدولة مشاة في ركابه فثقل ذلك على نفس ابن عمار لأن الناس كانوا يمشون من قبل في ركاب جوهر ولكن جوهر كان حكيماً حين رد عليه قائلاً: «يا أبا محمد، لكل زمان دولة ورجال .. أنريد نحن أن نأخذ دولتنا ودولة غيرنا .. لقد أرجل لي مولانا المعز لما سرت إلى مصر أولاده وإخوته وولى عهده وسائر دولته فتعجب الناس من ذلك وها أنا اليوم أمشي راجلاً بين يدي منجوتكين .. أعزونا وأعزوا بنا غيرنا»^(٣). ومن يقرأ رد جوهر يتبين مدى حكمته وتواضعه وكذلك مدى إخلاصه للعزيز الفاطمي ولقد أحب المصريون جوهر لأنه أحب مصر فأحبته ولما توفي رثاه شعراؤها أبلغ الرثاء بل لم يبق بها شاعر إلا رثاه^(٤).

وقد وصفه الذهبي فقال: «كان عاقلاً سائساً حسن السيرة وفي الرعية على دين

(١) العبادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٥٧، علي إبراهيم حسن : تاريخ جوهر ص ١٢٠.

(٢) علي إبراهيم حسن : تاريخ جوهر، ص ١٢١.

(٣) المقرئ : الخطط، جـ ١، ص ٣٧٨.

(٤) ابن خلكان : وفيات، جـ ١، ص ٣٧٦، المقرئ : خطط، جـ ٢، ص ٧٥، ابن تغري، النجوم، جـ ٤، ص ٣٣.

مواليه ولم يزل عالي الرتبة نافذ الكلمة إلى أن مات»^(١).

وقد مرض جوهر سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م وزاره العزيز وبعث إليه بخمسة آلاف دينار ومزينة بمنقل، كما بعث إليه منصور ابن العزيز خمسة آلاف دينار أخرى^(٢).
وتوفي جوهر الصقلي سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م بمصر^(٣) فكفن في سبعين ثوباً ما بين منقل ووشى مذهب وصلى عليه العزيز وولى ابنه الحسين رتبة أبيه ولقبه بالقائد بن القائد^(٤).

(١) الذهبي : العبر في خبر من غير جـ ٢، ص ١٥٨.

(٢) المقرئزي : اتعاط جـ ١، ص ٢٧٢.

(٣) ابن خلكان : وفيات جـ ١، ص ٣٧٦، ابن الوردي : تنمة المختصر جـ ١، ص ٣٤١.

(٤) المقرئزي : اتعاط جـ ١، ص ٢٧٢.

برجوان الصقليبي

هو الأستاذ أبو الفتوح برجوان وكان خصيًا صقلييًا أبيض تام الخلقة^(١)، ربي في دار الخليفة العزيز بالله وكان من خدام العزيز، فلما حضرته الوفاة وصاه على ابنه الأمير أبي على منصور الملقب بالحاكم لتثقت به، فلما مات العزيز بالله أقيم ابنه منصور في الخلافة من بعده وكان عمره وقت توليه الخلافة إحدى عشرة سنة^(٢).

وكان برجوان مدبر مملكة الحاكم، فضبط الملك وحفظه له حتى كبر^(٣). وقد سنحت الفرصة لبربر كتامة لاستعادة نفوذهم الذي تقلص بسبب سياسة الوزير ابن كلس تجاههم وشرطوا على الحاكم أن يولى الحسن بن عمار المغربي الوساطة^(٤).

وكان الخلاف مستحكما بينه وبين برجوان الذي كان «يختص بطوائف من العسكر دونه إلى أن أفسد أمر ابن عمار»^(٥).

وكان ابن عمار قد انحاز إلى المغاربة وزاد في أعطياتهم وأساء إلى الأتراك

(١) وقد وصفه ابن خلكان بأنه كان أسود وفيات جـ ١، ص ٢٧٠ وأنظر: أبو الفدا : المختصر جـ ٢، ص ١٣١، المقرئزي : الخطط جـ ٢، ص ٣.

(٢) مخطوط شرح اللعة ص ٥ مجهول، ابن القلاسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤ أبو شامة : الروضتين، جـ ١، ق ٢، ص ٤٩٤ حاشية ٢، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٢٧٠، أبو الفدا : المختصر، جـ ٢، ص ١٣١، ابن أبيك : كنز الدرر، جـ ٦، ص ١٤٢، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١١، ص ٢٣٧، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٣٥٦، المقرئزي الخطط، جـ ٢، ص ٣، ابن تغري بردي : النجوم، جـ ٤، ص ٤٨.

(٣) أبو الفدا : المختصر، جـ ٢، ص ١٣١، ابن أبيك : كنز الدرر، جـ ٦، ص ١٤٢، ابن الوردي : تاريخه، ص ٤٣٥، ابن تغري بردي : النجوم، جـ ٤، ص ٤٨، وأنظر أيضًا: Yaacov Lev, ..Arab history and civilization. state and society V.1 P.75

(٤) ابن الصيرفي : الإشارة ص ٥٦ - ٥٧ ابن القلاسي : ذيل ص ٤٤ - ٤٥، ابن ميسر : المنتقى، ص ١٧٧ والوساطة مغالها : الوزارة انظر المقرئزي : الخطط، جـ ٢، ص ١١ - ٣٠.

(٥) المقرئزي : الخطط، جـ ٢، ص ٣.

والمشاركة حتى اضطر جماعة منهم إلى الهرب من مصر فردوا قبل أن يغادروها^(١). وسيطر الكتاميون على الدولة، وحدثت مناوشات بينهم وبين المشاركة انتهت بقتل احد المغاربة فطلبوا القاتل للنار منه، وبعد الاتفاق على أخذ دية قدرها ألف دينار منه وتركه وثب الكتاميون على الجاني فقتلوه. وثار المشاركة وقامت بينهم وبين المغاربة معركة كبيرة سنة ٣٨٧هـ / ٩٧٧م استمرت ثلاثة أيام أصروا فيها على أن يشاركهم ابن عمار الحرب ولكنهم انهزموا على يد المشاركة ونهبت ديارهم ودار ابن عمار فولى برجوان الوساطة مكانه سنة ٣٨٧هـ / ٩٧٧م^(٢).

واستطاع أن يكسب ثقة الحاكم حتى أنه صار الواسطة بينه وبين الناس، وطلب من الغلمان عدم التعرض للمغاربة في نفس الوقت الذي عمل فيه على إقصاء هؤلاء المغاربة من الوظائف الهامة تدريجياً وإحلال الصقالبة محلهم^(٣).

ويبدو أن برجوان هو الذي دبر الواقعة بين ابن عمار والأتراك، وقد خاف على نفسه من كتامة والحسن بن عمار، فاتفق مع الأتراك والمشاركة واستقطبهم إلى جانبه وشرع هو وابن عمار كل منهما يدبر للآخر، فرتب له الحسن بن عمار جماعة في دهليزه للإيقاع به وبشكر خادمه، وكان لبرجوان عيون كثيرة ترقب الحسن بن عمار فعلم بهذه الحيلة فاتفق كل من برجوان وشكر على التأكد مما قيل ولما تأكدوا عادوا مسرعين وجرد الغلمان الذين رافقوهم من سيوفهم^(٤).

ويصف كل من ابن القلاسي والنويري^(٥) تلك الواقعة بأنهما «دخلا إلى قصر الحاكم يبيكان لديه ويستصرخان به وثار الفتنة واجتمع الأتراك والديلم والمشاركة

(١) ابن القلاسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٨ - ٤٩، ابن ميسر : المنتقى، ص ١٧٧، ١٧٨،

١٨٨، المقرئزي : الخطط، ج ٢ ص ٣٦، اتعاط، ج ٢، ص ٤، ١٠، ص ١٢، ١٣.

(٢) الأنطاكي : تاريخه، ج ٢، ص ٤٥٣، ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٥٧، المقرئزي : خطط، ج ٢،

ص ٣، عنان : الحاكم بأمر الله، ص ٤٧.

(٣) المقرئزي : الخطط، ج ٢ ص ٣، عبد الله جمال الدين : الدولة الفاطمية، ص ٢١٠.

(٤) ابن القلاسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٨-٤٩، النويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٧١-١٧٢.

(٥) المصدرين السابقين.

وعبيد الشرا بالسلاح على باب القصر، وبرجوان يبكي ويقول لهم يا عبيد مولانا احفظوا العزيز في ولده وارعوا فيه ما تقدم من حقه، وهم يبكون لبكائه».

وانتهت الأزمة بفرار ابن عمار ومن معه إلى الصحراء، وفتح برجوان خزان السلاح وفرقها على الغلمان ونهبت دار ابن عمار، وفتح برجوان باب القصر وأجلس الحاكم وأخذ له بيعة جديدة على الجند وكتب الأمانات للمغاربة من وجوه كتامة وقواد الدولة فجاءت جماعة منهم وأعطت الإيمان وتعهدت بالسمع والطاعة^(١).

وقد كثر مال برجوان وعظم شأنه^(٢) واشتهر بالبذخ والترف، فقد تميز العصر الفاطمي بهما وإليه نسبت حارة برجوان بالقاهرة^(٣).

وقد حفظ وصية العزيز في ولده وكان حريصاً على رعاية مصالح الحاكم فكان «لا يدعه يركب لغير ضرورة أو يعطى أحدًا عطية دون استحقاق»^(٤).

وكان ذلك من أسباب ضيق الحاكم ببرجوان فقد شعر أنه يحجر عليه كما أن المحيطين به أعداء برجوان أو عزوا للحاكم أنه يريد التسلط عليه وأنه يستبد بالأمور دونه^(٥).

وقد زاد برجوان من استقلاله بأمور الدولة حتى ضاق به الحاكم ذرعاً فيقول المقرئ «وجعل كاتبه أبا العلاء فهد بن إبراهيم النصراني يوقع عنه فجلس لذلك في القصر وصار يطالعه بجميع ما يحتاج إليه ورتب الغلمان في القصر وأمرهم بملازمة الخدمة وتفقد أحوالهم» ... وكان برجوان يجلس في دهاليز القصر ويجلس

(١) مخطوط شرح اللمعة : مجهول، ص ٥، ابن أبيك : كنز، ج ٦، ص ١٤٢، ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣٢٧، الفلقشندي : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٥٦.

(٢) أبو شامة : الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٤٩٤ حاشية ٢.

(٣) ابن خلكان : وفيات، ج ١، ص ٢٧٠، ابن أبيك : كنز، ج ٦، ص ١٤٢، ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣٢٧، المقرئ : الخطط، ج ٢، ص ٣.

(٤) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص ٧٤، النويري : نهاية ج ٢٨، ص ١٧٤.

(٥) النويري : نهاية الأرب ج ٢٨، ص ١٧٥.

الرئيس فهد بالدهلزي الأول يوقع وينظر ويطلع برجوان ما يحتاج إليه مما يطالع به الحاكم فيخرج الأمر بما يكون العمل به.. وترقت أحوال برجوان إلى أن بلغ النهاية فقصر عن الخدمة وتشاغل بذااته، وأقبل على سماع الغناء وأكثر من الطرب وكان شديد المحبة في الغناء فكان المغنون من الرجال والنساء يحضرون داره فيكون معهم كأحدهم^(١).

فلما تزايد الأمر وكثر استبداده بعد أن أبعد والدته الحاكم من شئون الحكم، لم يتح لها الفرصة للتدخل أو حماية ابنها من وصاية برجوان الخطرة^(٢) إلى جانب إغراء ريدان الصقلبي خادم الحاكم الذي حقد على برجوان فأوعز للحاكم أنه يريد الاستبداد بالأمور دونه وكان من جملة ما قاله له: «إن هذا يقصد أن يفعل بك كما فعل كافور الأخشيدي مع أولاد سيده»^(٣).

وأدرك الحاكم رغم صغر سنه حجم الخطر الذي يتعرض له من استبداد برجوان فما لبث أن تبدلت مشاعره نحوه حتى أنه اتفق مع ريدان الصقلبي هذا على قتله، وتناسى أنه هو الذي حفظ له ملكه حتى شب يافع، وكانت له بصماته وإضافته رغم قصر مدة ولايته للوزارة فهو إلى جانب أنه حفظ له ملكه فقد حفظه له أيضًا وحماه من عمته ست القصور التي كانت قد دبرت لأقصائه وإحلال ابن عمها عبد الله مكانه إذ «كانت مشتهاة عليه» فقبض عليه برجوان وأرسلها في حراسة ألف فارس إلى قصرها بالقاهرة وجدد بيعة الناس للحاكم وأحلفهم على الطاعة له سنة ٣٨٦هـ/٩٦٦م^(٤).

وفي أحد الأيام، حينما كان الحاكم وبرجوان في بستان اللؤلؤة، باغته ريدان الصقلبي بسكين ضربه بها في ظهره وأخرجها من صدره، فقال برجوان للحاكم

(١) المقرئزي : الخطط، جـ ٢، ص ٣، وأنظر: الصيرفي : الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٥٧.

(٢) عنان : الحاكم بأمر الله، ص ٤٨.

(٣) النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨ ص ١٧٥، المقرئزي : اتعاظ، جـ ٢، ص ٢٦ حاشية ١.

(٤) ابن القلاسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤.

«غُذِرَتْ»، فصاح الحاكم على خدمه وأمرهم أن يفصلوا رأسه عن جسده^(١) فخرج عقيق الخادم يصيح على الناس: قتل مولاى وكان مقرباً إلى برجوان ومتولياً خزاناته الخاصة^(٢) فكان مقتله سنة ٣٩٠هـ / ٩٩٩م^(٣).

فثار الناس وتسابقوا إلى القصر ووقفوا عنده فخافهم الحاكم^(٤) وصاح فيهم أن من كان على طاعة الخليفة فليصرف ويأتى في الصباح الباكر إلى القصر المعمور^(٥). ثم اعتلى الحاكم مكاناً عند أحد أبواب القصر والقى السلام على المتجمهرين وابلغهم أنه «قد استبان لي عذر من برجوان فقتلته»، وطلب منهم الطاعة وبكى أمامهم^(٦) فترجلوا وقبلوا الأرض^(٧) وتركوه وانصرفوا وأطلق فيهم الأرزاق حتى تسكن الفتنة^(٨).

ومما يدل على أن برجوان كان يتمتع بحب العامة واحترامهم، خروجهم متذمرين لحظة علمهم بمقتله وخروج الحاكم إليهم واستدراار عطفهم وإطلاق الأرزاق لهم وإيجاد مبرراته لقتل برجوان واستجدائه لهم قائلاً أرجو أن تكونوا معى لأعلى لأنى فتى بعد .. وبكى أمامه ولا طفهم فتركوه وانصرفوا .. وبعد هذا استدعى الحاكم فهد النصراني الكاتب ووشحه بحلية ملكية ترطيباً لقلوب الأهالي وقال له: كن مطمئناً وتولّ توزيع ارزاق الدولة^(٩).

(١) ابن خلكان : وفيات، جـ١، ص ٢٧٠، النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٧٥، ابن كثير:

البداية والنهاية، جـ١١، ص ٣٢٧، المقرئزي : اتعاظ، جـ٢ ص ٢٥، ٢٦

(٢) المقرئزي : اتعاظ، جـ٢، ص ٢٥، ٢٦.

(٣) ابن الصيرفي : الإشارة ص ٥٧، ابن خلكان : وفيات، جـ١، ص ٢٧٠.

(٤) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص ٧٤.

(٥) المقرئزي : اتعاظ، جـ٢، ص ٢٥٨، ٢٥٩

(٦) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص ٧٤.

(٧) النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٧٥.

(٨) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص ٧٤.

(٩) نفسه.

وقد خلف من الأموال والجواري ما لا يمكن حصره «ومن سائر الأجناس مالا يحصى»^(١) فقل أنه خلف ألف سروال ديبقي بتكة حرير^(٢) وعدد كبير من الآلات الموسيقية^(٣) وألف نافجة مسك ومن الجواهر والأواني والملابس والمتاع ما قيمته خمسمائة ألف دينار وأربعة آلاف دابة^(٤)، ومن الخيل الركابية مائة وخمسين فرسًا وخمسين بغلة ومن بغال النقل ودواب الغلمان نحو ثلثمائة رأس ومائة وخمسين سرجًا منها عشرون ذهبًا ومن الكتب شيء كثير وحمل لجاريته من مصر إلى القاهرة رحل على ثمانين حمارًا^(٥).

ومن أعماله أنه في سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م «جدد بياض المسجد الجامع وقلع شيئًا كبيرًا من الفسيفساء الذي كان في أروقه وبيض مواضعه ونقشت خمسة ألواح وذهبت ونصبت على أبوابه الخمسة الشرقية» ويذكر ابن دقماق: إن اسمه كان ثابتًا في الألواح، فقلع بعد قتله^(٦)، ومما يدل على مدى تسلطه واستئثاره بالأمور إلغائه لوجود الحاكم تمامًا حتى أن الإنشاءات التي تمت في عصر الحاكم يحفر عليها اسم برجوان دون الحاكم.

وعن أعماله العسكرية تجدر الإشارة إلى أنه سير جيشًا إلى الشام وعلى رأسه حبيش بن الصمصامة ليحل محل سليمان بن جعفر الكتامي وذلك لاستعادة دمشق والقضاء على الثورات والاضطرابات التي ثارت في الشام، وانتصر على الروم في شمال الشام واستطاع استعادتها كما سير جيشًا إلى برقة وعلى رأسه يانس الصقلبي

(١) مخطوط شرح اللمعة مجهول، ص ٥.

(٢) أبو شامة : الروضتين، جـ ١، ق ٢ ص ٤٩٤ حاشية ٢، ابن أبيك : كنز الدرر، جـ ٦، ص ٢٦٥،

ابن كثير : البداية، جـ ١١، ص ٣٢٧، القلقشندي : صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٣٥٦.

(٣) أبو شامة : الروضتين، جـ ١، ق ٢ ص ٤٩٤، حاشية ٢.

(٤) ابن أبيك : كنز الدرر، جـ ٦، ص ٢٦٥.

(٥) المقرئزي : الخطط، جـ ٢، ص ٤.

(٦) ابن القلاسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤.

للقضاء على الثورات هناك^(١).

وكانت مدة وزارته للحاكم سنتين وثمانية أشهر. فقد تولى في رمضان
٣٨٧هـ / ٩٧٧م وقتل في ربيع الآخر ٣٩٠هـ / ٩٩٩م^(٢).

(١) ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار، ق ١، ص ٦٨.
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٧٠ أنظر: ابن القلائسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤،
المقريزي : الخطط، ج ٢ ص ٤، وأبو شامة الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٤٩٤.

بدر الجمالي ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م

كان من مماليك جمال الدولة بن عمار صاحب طرابلس الشام وتربي عنده، وكان من الرجال المعدودين من ذوي الآراء والشهامة وقوة العزم فظل يتدرج في المناصب لدى مولاه إلى أن ولى دمشق سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م و«انفصل بعد عام ثم وليها والشام كله في سنة ثمان وخمسين» بعد أن قضى على بعض المناوشات^(١) التي أثارها الجند مع العامة واضطر على أثرها إلى الخروج من دمشق ثم جمع الجند وكون جيشاً وقدم إلى الشام فاستولى عليه بأسره سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٧م ثم خالفه أهل دمشق مرة أخرى ففارقهم سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م إلى عكا وقام الجند والعامة بتخريب قصر الأمانة فيها^(٢).

وفي سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م، أرسل المستنصر الفاطمي في استدعاء بدر الجمالي من الشام^(٣) لإصلاح أحوال البلاد التي تدهورت في مصر فقد كان المماليك من الأتراك يقاتلون الجنود السودان في مصر، وحل القحط بالبلاد لمدة سبعة أعوام استنفذت مواردها وتلاشت هيبة الحكومة أمام نزاع الطوائف. وأطاح الجوع والمرض بالناس، وقضى التخريب والعنف على ازدهار البلاد^(٤).

وقد وصف ابن الصيرفي حال مصر في تلك الفترة بأبلغ وصف قائلاً: «وكانت الأحوال يومئذٍ بالحضرة قد فسدت والأمور قد تغيرت وطوائف العسكر قد تبعثرت

(١) ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٩٤، ابن الأثير : الكامل، جـ ١٠، ص ٢٣٥، ابن خلكان : وفيات، جـ ٢ ص ٤٤٨، أبو الفدا : المختصر، جـ ٢، ص ١٩١، الذهبي : العبر، جـ ٢، ص ٣٥٧، المقرئ : خطط، جـ ١، ص ٣٨١، ابن تغري بردي : النجوم، جـ ٥، ص ١٤١، الحنبلي : شذرات جـ ٣، ص ٣٨٣، استاريجيان : تاريخ الأمة الأرمينية، ص ١٧.

(٢) ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٩٤، ابن الأثير : الكامل، جـ ١٠، ص ٢٣٥.

(٣) ابن خلكان : وفيات، جـ ٢ ص ٤٤٨، أبو الفدا : المختصر، جـ ٢ ص ١٩١، النويري : نهاية جـ ٢٨، ص ٢٣٤، ابن الوردي : تاريخه، ص ٥٢٤، ابن تغري بردي : النجوم، جـ ٥، ص ١٤١.

(٤) المقرئ : اغاثة الأمة، ص ٢٤ - ٢٦.

وتخربت والفتن بينهم قد اتصلت وتأكدت والوزراء يقتعون بالاسم دون الأمر والنهي والرخاء قد آيس منه والصلاح لا يطمع فيه، ولواته قد ملكت أليف، والصعيد بأيدي العبيد، والطرق قد انقطعت براً وبحراً بالخفارة الثقيلة والكلفة الكبيرة مع ركوب القرر وشدة الخطر والمارقون ينوي بعضهم لبعض الاحتيال والغدر ويضمر كل منهم لصاحبه الاغتيال والبغي»^(١).

لم يجد المستنصر الفاطمي بداً من استدعاء ذلك القائد الشجاع لإنقاذ مصر الفاطمية من براثن القوضى، فقد كانت شهرته ذائعة في بلاد الشام ولكنه كان صارماً مع جنده الذين لم يتعودوا على تلك الصرامة مما أدى إلى تدميرهم، وقد أصبح من أكبر قواد عكا وحارب جند ملكشاه حين زحف السلاجقة على الشام وكان له حرس خاص من الأرمن المخلصين له وكانوا في صحبته عند استدعاء الخليفة له سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م^(٢).

وحين أرسل إليه المستنصر الدعوة لإنقاذ مصر، صادفت هذه الدعوة هوى في نفسه فقد كان وهو بالشام يتحسر على ما يبلغه من أمرها ويتلهف على كونه بعيداً عنها وينتظر فرصة ينتهزها في المهاجرة إليها»^(٣).

وأرسل بدر يطلب من المستنصر القبض على بلدكوز قائد الأتراك، واشترط عليه الحضور بجنوده الأرمن فوافق المستنصر على ذلك وقبض على بلدكوز واعتقله في خزانة البنود^(٤).

ووصل أمير الجيوش مصر في شهر ربيع الآخر سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م^(٥).

(١) ابن الصيرفي : الإشارة ص ٩٥ وراجع ابن ميسر: أخبار، جـ ٢، ص ٢٢، ابن تغري بردي جـ ٥، ١٤١، استاربيان : تاريخ الأمة الأرمنية، ص ١٧.

(٢) استاربيان : تاريخ الأمة الأرمنية، ص ١٨، دائرة المعارف جـ ٣، (مادة بدر) ص ٤٤٨.

(٣) ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٩٥.

(٤) نفسه ص ٩٦، ابن ميسر : المنتقى ص ٣٩، النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٢٣٤، ابن الوردي : نعمة المختصر، جـ ١ ص ٥٢٤.

(٥) ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٩٦، ابن خلكان : وفيات، جـ ٢، ص ٤٤٩.

وقيل في ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م^(١) وقد أصر على ركوب البحر في الشتاء وكان من المتعارف عليه عدم السفر بالبحر في هذه الفترة من السنة لخطورته^(٢)، وهذا يدل على شدة لهفة بدر للحضور وانتظاره لهذه الفرصة فجاء في مائة مركب ووصل إلى دمياط وأقام فيها واقترض من تجار تنيس مالا ثم سار فنزل في قليوب^(٣)، ثم وصل إلى مصر وعقد مجلسا عظيما يوم وصوله وجمع الناس واستفتح قارئا ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ ﴾^(٤) وقطع الآية، فقال المستنصر: لو أتمها لأمرت بضرب عنقه^(٥).

وقد قلده المستنصر الوزارة في احتفال مهيب ففي وصف توليته ذكر صاحب السجلات أن المستنصر خرج من حجرات قصره إلى الإيوان وهو القاعة ذات الأعمدة، حيث أقيم حفل تولية بدر بحضور رجال الدولة وكبرائها ودعاتها وقضاتها فقدم الخليفة سجل تولية بدر والذي لم يكتب مثله من قبل، ذكر فيه بعضا من أعماله، وكان نصه: «وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره وناط بك النظر في كل ما وراء سريره، فباشر ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك مدبرا للبلاد ومصلحا للفساد ومدمرا أهل العناد»^(٦).

وكان السجل قد وضع في لفافه مذهبه وقبله الخليفة أمام الحاضرين ليمنحه البركة ومنح المستنصر بدرا خلع الوزارة البيضاء شعار الفاطميين كما خلع ثوبه وأعطاه له للبركة، كما خلع عليه بالطيلسان^(٧) وزيد في القابه كافل قضاة المسلمين،

(١) أبو الفدا: المختصر، جـ ٢، ص ١٩١، ابن الوردي: تاريخه، ص ٥٢٤.

(٢) ابن ميسر: أخبار، جـ ٢، ص ٢٢، ابن خلكان: وفيات، جـ ٢، ص ٤٤٩، أبو الفدا: المختصر، جـ ٢، ص ١٩١، ابن الوردي: تنمة المختصر، جـ ١، ص ٥٢٥.

(٣) ابن ميسر: المنتقى، ص ٣٩، النويري: نهاية، جـ ٢٨، ص ٢٣٤.

(٤) سورة آل عمران آية ١٢٣.

(٥) تمامها «وأنتم أدلة»: فإذا أتمها كان المستنصر قتله، أنظر: كنز الدرر: ابن أبيك، جـ ٦، ص ٣٩٩.

(٦) السجلات المستنصرية سجل رقم ٥٩ ص ١٩٤ - ١٩٥، ابن خلكان: وفيات، جـ ٢، ص ٤٤٩، المقرئ: خطط، جـ ١، ص ٤٣٩.

(٧) الطيلسان هو ثوب يلبس على الكتف مثل الطرحة وغالبا ما يكون خاليا من التفصيل والخياطة =

كما نعت بالسيد الأجل كافل أمير المؤمنين وهادي قضاة المسلمين وناصر دعاة الدين
أمتع الله ببقائه أمير المؤمنين^(١).

وولي وزارة السيف والقلم^(٢) وقد كان قبوله منصب الوزارة مرحلة جديدة في
تاريخ الدولة الفاطمية فقد كان ذلك بداية عصر تحكم الوزراء أرباب السيف
وأصبحوا هم الحكام المسيطرين على الدولة^(٣) حتى أنه أصبح يسمى عصر نفوذ
الوزراء أو عصر الوزراء العظام^(٤).

فقد أصبح الوزير هو قائد الجيش وقاضي القضاة وداعي الدعاة ولم يكن هذا
يعني أنه يجلس للقضاء بنفسه وإنما جعل القاضي والداعي نائبين عنه، وكان ذلك
يذكر في الكتب الحكمية وكتب الأئمة ومجالس الدعوة^(٥) ولما وصل مصر بعث كل
أمير من أمرائه مكلفاً برأس قائد من قواد الدولة ليلاً ويأتي بالرأس إليه فلما أصبح

= القلقشندي : صبح الأعشى جـ ١ ص ٤٢٨، وأنظر: Dozy: vet P278. والطيلسان المقور هو
نوع من الطيالس كانت تخطط وتعمل بها فتحة تسع الرقبة وتسدل على الأكتاف، فالمقصود
بالقوارة ما قورت من الثوب أي قطعت بقصد التفصيل وقال عنه المقرئ «الطيلسان المقور
يسمى اليوم بالطرحة» وقد كان الطيلسان المقور زي قاضي القضاة المقرئ : الخطط جـ ١ ص
٤٣٩ و Dozy: vet P219.

(١) ابن ميسر: المنتقى، ص ٣٩، ابن الوردي: تنمة المختصر، جـ ١، ص ٥٢٥، ابن أبيك: كنز الدرر،
جـ ٦، ص ٣٩٩، النويري: نهاية، جـ ٢٨، ص ٢٣٨، المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ١٢.

(٢) وزارة السيف والقلم تعني أن تكون الأمور كلها مردودة إليه ومنه إلى الخليفة دون سائر خدمة
وأول من تولاها بدر الجمالي للمستنصر الفاطمي وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر
إلى آخر الدولة هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد وإليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد
والقضاة والكتاب وسائر الرعية وهو الذي يولأرباب المناصب الدنيوية والدينية : المقرئ
خطط جـ ١، ص ٤٣٩.

(٣) ابن خلكان: وفيات، جـ ٢، ص ٤٤٩، الذهبي: العبر في خبر من غير، جـ ٢ ص ٣٥٧
والحنبلي: شذرات الذهب، جـ ٣، ص ٣٨٣.

(٤) جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية: الوثيقة الحادية عشر ص ١٣٠.

(٥) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص ٢٤٨، ابن الطوير: نزهة المقلتين، مقدمة التحقيق
ص ٤٣.

الصباح كان عنده الكثير من رؤوس أمراء الدولة وقبض على الأتراك وفر ابن بلدكوز إلى الشام^(١) وفي ذلك قال المقرئزي «إلى أن قدم أمير الجيوش بدر الجمالي من عكا، وقتل رجال الدولة، وأقام له جنداً وعسكرياً من الأرمن فصار من حينئذ معظم الجيش الأرمن، وذهبت كتامة، وصاروا من جملة الرعية، بعد ما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها^(٢)».

وقد قام بدر الجمالي بالعديد من الإنجازات في مصر شملت النواحي العسكرية والإدارية والمعمارية وغيرها مما ساعد على استقرار الأمور بالبلاد فعلى الصعيد العسكري نجده قام بقمع حركات التمرد والعصيان التي قامت ضده فقد اجتمع بمدينة طوخ العليا^(٣) من صعيد مصر جماعة كثيرة من عرب جهينه والثعالبة والجعافرة للقاء أمير الجيوش بدر الجمالي فسار إليهم وحاربهم وانتصر عليهم وقتل منهم عدداً كبيراً وغرق الكثير من الذين حاولوا الفرار وغنمت أموالهم وعاد بها إلى المستنصر^(٤)

كما أحبط ثورة كنز الدولة بأسوان «وكان قد عظم شأنه هناك وكثر أتباعه فسار إليه وقاتله وقتله وبذلك يكون قد قضى على مفسدى الديار المصرية ثم افتتح بعد ذلك بلاد الصعيد وجعل الأعداء بين قتيل أو شريد أو طريد»^(٥) كما رد هجوم أتسز ملك الروم الذي كان ابن بلدكوز قد التجأ إليه وأهدى إليه الجواهر الثمينة التي كان

(١) النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٢٣٦، ابن الوردي : نعمة المختصر، جـ ١ ص ٢٥٢.

(٢) المقرئزي : الخطط، جـ ٢، ص ١١.

(٣) طوخ العليا يوجد بصعيد مصر ٢١ موضع كل منها يحمل اسم طوخ مضافاً إلى اسم آخر وهذه قرية في صعيد مصر الأعلى على غربي النيل وتعرف باسم طوخ دمنو من أعمال قوص - القاموس الجغرافي، ق ٢ جـ ٤، ص ١٨٧.

(٤) ابن ميسر : أخبار، جـ ٢، ص ٢٤ - ٢٥، النويري : نهاية، جـ ٢٨، ص ٢٣٧، جمال الدين الشيال : الوثائق الفاطمية الوثيقة الحادية عشر ص ١٣٠.

(٥) ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٩٦ وراجع ابن ميسر : أخبار، جـ ٢، ص ٢٤ - ٢٥، النويري : نهاية، جـ ٢٨، ص ٢٣٧، استارجيان : تاريخ الأمة الأرمنية، ص ١٨، إسماعيل أبو العينين : مصر الإسلامية ص ٢٠ - ٢٥.

أبوه قد استولى عليها من خزائن المستنصر وأطمعه في ملك مصر وعلم أمير الجيوش بمسير أئسز إليه وكان ابن بلدكوز قد نصح أئسز بملك الرف قبل أن يملك القاهرة فجمع أمير الجيوش العساكر وخرج من القاهرة في ثلاثين ألف وسير المراكب في البحر حاملة المؤن والعتاد، وكان أئسز في خمسة آلاف فلما علم خروج بدر خاف لكن ابن بلدكوز شجعه على عدم الرجوع عما نواه ودارت الحرب بين الفريقين وانهزم أئسز وقتل أخوه وجماعة من أصحابه وهرب إلى غزة ثم إلى دمشق وأسر أمير الجيوش بقية عساكر أئسز^(١).

وفي سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م خلف الأوحى بن أمير الجيوش والده واجتمع معه العربان واستولى على الإسكندرية فسار إليه والده وحاصره بها وفتحها وقبض على ولده^(٢).

وأعاد تنظيم الجيش فزاد من استخدام جنود الحجرية الذين أهملوا لفترة بسبب صراع الطوائف المختلفة.

وفور انتهاء بدر من إعادة النظام اتجه بعد ذلك إلى النظر في الأوضاع الداخلية للبلاد من أجل إعادة الرخاء والاستقرار فدير الأمور وأرخص الأسعار فأمر بإخراج الغلال وبيعها وضرب بيد من حديد على كل من يخفى غلة خزين، وإذا ثبت على شخص ذلك طلبه وأعطاه ما يكفيه منه وأهله مدة سنة كما أمر أن يباع المتبقي فكان له الفضل في رخص الأسعار بعد الغلاء الفاحش الذي تعرضت له البلاد^(٣) و«أطلق الخراج للمزارعين ثلاث سنين حتى ترفعت أحوال الفلاحين واستغنوا في أيامه واحضر جماعة من التجار إلى مصر»^(٤).

وعم العدل أنحاء البلاد وعادت الطمأنينة إلى قلوب الفلاحين فزاد الدخل وعم

(١) ابن ميسر : أخبار، جـ ٢ ص ٢٥.

(٢) نفسه ص ٢٦ - ٢٧، النويري : نهاية، جـ ٢٨، ص ٢٣٨، المقرئزي : خطط، جـ ١، ص ٣٨١.

(٣) ابن أبيك : كنز الدرر، جـ ٦، ص ٣٩٩.

(٤) ابن أبياس : أخبار مصر، جـ ٢، ص ٢٠، ابن أبيك : كنز، جـ ٦، ص ٣٩٩، المقرئزي : خطط

جـ ١، ص ٣٨١.

الرخاء وعادت للخليفة هيئته وعادت مكة إلى مبايعة المستنصر بعد أن أثرت الأحداث على ولائهم له فظلت خمس سنوات تخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسي في بغداد^(١).

ووجه اهتمامه إلى ضرورة تحصين مدينة القاهرة لحمايتها من الغزوات الخارجية أو الفتن والثورات الداخلية التي يقوم بها الجند في الداخل وكان سور القاهرة قد تهدم وزحفت المباني خارج أبوابها الثلاثة التي بناها جوهر فهدم بدر تلك الأبواب، وأعاد بناءها من الحجارة سنة ٥٧٣ - ٥٨٧ هـ / ١١٧٧ - ١١٩١ م وجعل المدينة تضم مساحة أكبر^(٢).

كما بني جامع المقياس والجامع العتيق بإسنا وعمر المسجد العمري بالمحلة الكبرى^(٣) كما بني جامع العطارين بثغر الإسكندرية^(٤) وجمع الأموال لهذا من أهلها وعمره سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م وأقام به الخطبة وظلت به إلى آخر أيام العاضد^(٥).

وفي سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م بني باب زويلة الكبير وأمر أن يجعل له عطفة كمثّل أبواب الحصون وكان المقصود من ذلك أن يمنع هجوم العساكر عليه في أوقات الحصار فلا يستطيعون الدخول جملة وقد أشار عليه مهندسوه أن يعمل في بابيه زلاقة من حجر الصوان فعمل برأيهم، كما نقل باب النصر من موضعه فصار قريباً من مصلى العيد وكذلك باب الفتوح فقد وضعه بدر الجمالي^(٦).

كما بني جامع الجيوشي على ظهر المقطم ونسب إليه^(٧) وبني دار الوزارة أيضاً

(١) عبد الرحمن زكي : القاهرة، ص ٣٨ - ٣٩.

(٢) نفسه، ص ٣٨ - ٣٩.

(٣) عاطف مرقص : الأرمن وعلاقاتهم، ص ٢٤١.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٥٠، ابن كثير البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٤٧.

(٥) ابن ميسر : المنتقى ص ٤٦، النويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٣٨، ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٢، ص ١٨٩.

(٦) ابن ميسر : المنتقى، ص ٥١، النويري : نهاية، ج ٢٨، ص ٢٣٩، المقرئ : خطط، ج ١، ص ٣٨٥.

(٧) ابن ميسر : أخبار مصر، ج ٢، ص ٢٩، ماجد : ظهور خلافة الفاطميين، ص ٤٠١.

وظل يسكنها كل من يلي إمرة الجيوش حتى جاء بني أيوب فسكنوا القلعة.
كما أمر بإصلاح وترميم العديد من الجوامع فزاد في جامع الحاكم وجدد بساب
مسجد ابن طولون وعمر ضريح السيدة نفيسة وانتهى منه ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م^(١).
كذلك اهتم بتأمين الطرق حماية للتجارة وقوافل المسافرين، وأقام العديد من
التحصينات لحماية البلاد وأدخل بعض الإصلاحات على نظام الحكم في مصر فقام
بتقسيم البلاد إلى أربع ولايات رئيسية هي: قوص والشرقية والغربية والإسكندرية
بالإضافة إلى القاهرة والفسطاط، قد بدأ هذا التنظيم سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٨م.
ولم يغفل بدر الجمالي رعاية أحوال المذهب الفاطمي ويبدو أنه كان متشيعاً
فاتنسب للإمام وأصبح يدعى بدر المستنصري فأمر بإعادة الأذان الشيعي بحي على
خير العمل ودعا إلى التكبير على الجنائز ونظم دروساً في المذهب ولذلك عرف بباب
الدعوة وهي مرتبة من مراتب الدعوة يقصد بها أنها فصل الخطاب^(٢).
وقد شملت رعايته أمور المسيحيين من الأرمن واستقدم بطريركاً يرعى
شئونهم^(٣).

وقد شملهم بكل عناية حتى أن البعض وصف عهده بعهد هدوء الأديرة الشامل
واقيم في عهده ديران لطائفتين مختلفتين هما الأرمن والأحباش ويبدو أنهما كانا
ملحقين بدير القديس يونس القصير ومن الأدلة على وجود رهبان أرمن في أديرة
شبهت بكثرة في عهده وجود مخطوطتين بلغة أرمنية وبعض أجزاء من الإنجيل
مقسمة إلى خمسة أعمدة كل عمود بلغة مختلفة وتتصدر اللغة الأرمنية أولى هذه
اللغات ثم تليها العربية فالقبطية والسريانية والحبشية^(٤).

وتبارى المؤرخون في وصف بدر الجمالي فذكر ابن كثير أنه «كان عاقلاً كريماً

(١) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ص ٤٠١.

(٢) عاطف مرقص : الأرمن وعلاقتهم بالبيزنطيين والمسلمين ص ٢٤٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٤٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٤٠ - ٢٤١.

محبا للعلماء ولهم عليه رسوم داره»^(١).

ووصفه ابن إياس بأنه كان «شديد الهيبة مخوف السطوة كبير البطش قتل في سلطته من الخلق ما لا يمكن حصيه وقتل أكابر المصريين وقوادهم وكتابهم ووزرائهم خلقا كثيرا وعلى يده صلحت الديار المصرية بعد فسادها وعمرت بعد خرابها»^(٢).

وكان قد جمع ثروة طائلة^(٣) نتيجة جهده وذكائه وكانت قدرته الفائقة سببا في رفع شأنه وتوليه ارفع المناصب^(٤).

ثم مرض بدر الجمالي واشتد عليه المرض فمات سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م بعد أن جاوز الثمانين^(٥) وآل الأمر من بعده لأبنه الأفضل^(٦).

وبذلك انتهت حياة أحد وزراء مصر العظام ومصلحي أحوالها ذلك الرجل الذي دانت له البلاد وأحبه العباد وكان قد بلغ من القوة والسطوة أن الخليفة أصبح بجانبه اسما بلا معنى.

وتحكم في البلاد تحكم الملوك ولم «يبق للمستنصر معه أمر واستبد بالأمور فضبطها أحسن ضبط وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مخوف السطوة»^(٧).

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٤٧.

(٢) ابن إياس : أخبار مصر، جـ ٣٠، راجع النويري : نهاية، جـ ٢٨، ص ٢٣٨.

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ١٤١.

(٤) سنن أبي داود : سيرة القاهرة، ص ١٤٥.

(٥) ابن القلاسي : ذيل، ص ١٢٧، ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٩٧، أبو الفدا : المختصر، جـ ٢،

ص ٢٠٥، النويري : نهاية، جـ ٢٨، ص ٢٣٩، ابن الوردي : تنمة المختصر، جـ ٢، ص ١٤،

ابن تغري بردي : النجوم، جـ ٥، ص ١٤١، وابن إياس : أخبار مصر، جـ ٣ ص ٣٠، أحمد شلبي :

موسوعة التاريخ، جـ ٥، ص ١٢٣، قال ابن كثير أنه مات سنة ٤٨٨هـ : البداية والنهاية جـ ١٢،

ص ١٨٩، نكر ابن أبيك أن وفاته كانت سنة ٤٨٦هـ كنز الدرر، جـ ٦، ص ٤٣٩.

(٦) ابن القلاسي : ذيل ص ١٢٨، أبو الفدا : المختصر، جـ ٢، ص ٢٠٥ الذهبي : العبر، جـ ٢، ص

٣٥٧، ابن كثير : البداية والنهاية، جـ ٢، ص ١٨٩، الحنبلي : شذرات جـ ٣، ص ٣٨٣.

(٧) المقرئ : الخطط، جـ ١، ص ٣٨١.

يأنس الأرمني ٥٢٦هـ / ١١٣١م

مولى رومي من غلمان الأفضل الكبير شاهنشاه ابن بدر الجمالي كان قد أهداه له باديس^(١) جد العباس الوزير فترقى في الخدم إلى أن ولى الباب وهي أعظم رتب الأمراء^(٢) و«كنى بأبي الفتح ولقب بالسعيد ثم نعت في وزارته بناصر الجيوش سيف الإسلام»^(٣).

وقام يانس بدور بارز في خلافة الحافظ الفاطمي فحين قتل الأمر وأقيم الحافظ كان الأكمل بن الأفضل بن بدر الجمالي مسجوناً بعد قتل أبيه الأفضل فلما أقيم الحافظ أخرجوا الأكمل هذا وولى وزارة السيف والقلم فتمكن وحجر على الحافظ^(٤)، واستبد بالأمور دونه واستولى على ما في خزائن القصر وأهمل شئون الخلافة ومذهبها فقد كان سنياً كآبيه وأبطل من الأذان «حي على خير العمل» فكرهه الدعاة والقواد وتآمر عليه يانس الأرمني مع صبيان الخاص فعندما خرج للعب الكرة في المحرم سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م وثبوا عليه وطعنه مملوك الحافظ بحربة وأخرجوا الحافظ^(٥) من الاعتقال وأخذوا إليه رأس الأكمل^(٦).

وكان يانس قد استغل وظيفته كمتولي للباب في تزعم هؤلاء من صبيان الخاص والتآمر معهم^(٧) فلما تم قتل الأكمل أخرجوا الحافظ من حبسه وجلس في الشباك في

(١) باديس : أبو المناد بن المنصور بن يوسف بن بلكين بن زيري صاحب إفريقية على زمن الحاكم بأمر الله نيابه عنه : المقرئزي : اتعاض، جـ ٣، ص ١٤٥.

(٢) ابن الطوير : نزعة المقتلين، ص ٣٥، المقرئزي : اتعاض، جـ ٣، ص ١٤٥، خط، جـ ٢، ص ١٦.

(٣) المقرئزي : اتعاض، جـ ٣، ص ١٤٥، ص ٥٠٦، وأنظر الخط، جـ ٢، ص ١٦.

(٤) ابن أبيك : كنز الدرر، جـ ٦، ص ٥٠٦، الذهبي : العبر، جـ ٢، ص ٤٢٨، والمقرئزي، الخط، جـ ٢، ص ١٧.

(٥) ابن الجوزي : مرآة الزمان، جـ ٨، ق ١ ص ١٤٦، السيوطي : حسن المحاضرة، جـ ٢، ص ٢٠٥.

(٦) ابن أبيك : كنز، جـ ٦، ص ٥٠٦، ابن الوردي : تنمة المختصر، جـ ٢، ص ٥٩.

(٧) جمال الشيل : الوثائق الفاطمية : الوثيقة السادسة ص ٧٣، سهام أبو زيد : تاريخ الأرمن، ص ٧٣، ووظيفة متولي الباب من أهم الوظائف ويقال لصاحبها صاحب الباب وينعت بالمعظم وأول من خدم =

منصب الخلافة وشكر صبيان الخاص هؤلاء الذين انقذوه فقالوا: «والله ما حركنا إلا الأمير السعيد يانس» فأنعم عليه الحافظ بالوزارة سنة ٥٢٦هـ — / ١١٣١م وخلع عليه ولقبه بأمير الجيوش سيف الإسلام^(١).

ولما خلع عليه بالوزارة هدأت الأمور وصلحت الأحوال وتمكن الحافظ من الخلافة وحمل يانس جميع ما تم نقله إلى دار الوزارة من الأموال وكانت ثلاثمائة ألف دينار والأشياء الثمينة وأعادته إلى قصر الخلافة^(٢).

ثم قام يانس هذا ببعض الأفعال نتج عنها تغير الحافظ عليه وخشيته منه وأولها أنه قام بقتل استاذ من خواص الخليفة نتيجة لوشاية وصلته عنه فقام باعتقاله في خزانة البنود وضرب عنقه^(٣) دون الرجوع إلى الحافظ فاستوحش منه كما أن يانس قام بقتل الطائفة المعروفة بصبيان الخاص الذين سبق أن اتفق معهم وقاموا بقتل أحمد بن الأفضل وذلك لأنه خشي سطوتهم وخاف أن ينقلبوا عليه ويكون مصيره كمصير أحمد بن الأفضل «فخافه الحافظ وتخيل منه وتخيل يانس أيضاً من الحافظ فدير كل واحد منهما على صاحبه»^(٤).

ويذكر المقرئ واقعة قتل صبيان الخاص قائلاً: «فركب في خاصته، وأركب

= بها معظم خمرتاش في أيام الخليفة الحافظ وتسمى الخدمة فيها بالنيابة الشريفة لأنها مميزة ولا يليها إلا أعيان الدول وأرباب العمام وينعت أبداً بعدي الملك : المقرئ : الخطط، جـ ١، ص ٤٠١

(١) ابن الطوير : نزهة المقتلين، ص ٣٥ - ٣٦، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان، جـ ١، ق ١ ص ١٤٧، ابن أبيك : كنز الدرر، جـ ٦، ص ٥٠١، الذهبي : العبر، جـ ٢، ص ٤٢٨، المقرئ : خطط جـ ٢، ص ١٧.

(٢) ابن الجوزي : مرآة الزمان، ق ١، جـ ٨، ص ٤١٧، الذهبي : العبر جـ ٢، ص ٤٢٨، المقرئ : اتعاظ، جـ ٣، ص ١٤٤، الحنبلي : شذرات، جـ ٤، ص ٧٨.

(٣) ابن الطوير : نزهة المقتلين، ص ٣٦.

(٤) النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨ ص ٢٩٩، أنظر ابن ميسر : أخبار مصر، جـ ٢، ص ٧٥، وراجع ابن الطوير : نزهة المقتلين، ص ٣٦ والمقرئ : الخطط، جـ ٢، ص ١٦.

العسكر، وركب صبيان الخاص، فكانت بينهما وقعة قبالة باب التبتين بين القصرين، قوى فيها يانس وقتل من صبيان الخاص ما يزيد على ثلثمائة رجل من أعيانهم فيهم قتله أبي علي كتيفات، وكانوا نحو الخمسمائة فارس، فانكسرت شوكتهم وضعف جانبهم»^(١).

ومما عجل بنهايته أنه قبض على بعض حاشية الخليفة ومنهم قاضي القضاة وداعي الدعاة أبو الفخر وأبو الفتح بن قادوس وقتلها فاشتد ذلك على الحافظ واستدعى طبيبه وقال له: «اكفني أمره بمأكل أو مشرب» أي أن يأتيه بنوع من السم يدسه له في أكله أو شربه فأبى الطبيب ذلك خوفاً أن يقتله الحافظ بنفس ما علمه له^(٢) وظل الحافظ يلح عليه في ذلك إلى أن اتفقا على سمه في ماء المستراح^(٣) وعولج وكاد أن يبرأ^(٤) فشاور الحافظ خواصه من الأطباء وأوعز الطبيب إلى الخليفة بزيارته وتهنئته بالعافية لأنه سينهض لاستقباله وفي هذا نهايته لأن مرضه يحتاج إلى السكون فالحركة ستعجل بوفاته ففعل الخليفة وقام بزيارته وما أن رآه يانس حتى قام للقاءه وخرج عن فراشه وأطال الخليفة الجلوس عنده فسقطت أمعاؤه ومات في ذي الحجة سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م^(٥).

وقد وصفه المؤرخون ومنهم ابن الطوير وابن ميسر والمقريزي بأنه كان عاقلاً وله هيبة وكان يتماسك في الأمور ويحفظ القوانين ولم يحدث شيئاً ولا خرج عما يعنيه.

-
- (١) المقريزي: خطط، جـ ٢، ص ١٦، اتعاط، جـ ٣، ص ١٤٥.
(٢) مخطوط شرح اللمعة ص ١٢، وراجع المقريزي الخطط، جـ ٢ ص ١٦ جمال الشيال الوثائق الفاطمية: وثيقة ٦ ص ٧١.
(٣) ابن الطوير: نزهة، ص ٣٦، مخطوط شرح اللمعة: مجهول ص ١٢، ابن ميسر: أخبار مصر، جـ ٢ ص ٧٦، النويري: نهاية، جـ ٢٨، ص ٢٩٩، المقريزي خطط، جـ ٢، ص ١٦.
(٤) ابن الطوير: نزهة، ص ٣٦، مخطوط شرح اللمعة: مجهول، ص ١٢، ابن ميسر: أخبار مصر، جـ ٢، ص ٧٦، النويري: نهاية، جـ ٢٨، ص ٢٩٩، المقريزي: خطط، جـ ٢، ص ١٦.
(٥) ابن الطوير: نزهة، ص ٣٦، مخطوط شرح اللمعة: مجهول ص ١٢، ابن ميسر: أخبار مصر، جـ ٢، ص ٧٦، النويري: نهاية، جـ ٢٨، ص ٢٩٩، المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ١٦.

كما ذكروا أنه «كان عظيم الهمة بعيد الغور كثير الشر شديد الهيبة، وقد مكث في الوزارة تسعة أشهر وإيماً وخلف ولدين كفلهما الحافظ وأحسن إليهما وكانا مكرمين عنده»^(١). وقام يانس الأرمني ببناء مسجد سمي مسجد يانس^(٢).

-
- (١) أنظر: ابن الطوير : نزهة المقلتين، ص ٣٦، ابن ميسر: أخبار، جـ ٢، ص ٧٦، النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٢٩٩، المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ١٦، اتعاط، جـ ٣، ص ١٤٥، جمال الشيال : الوثائق الفاطمية : الوثيقة السادسة ص ٧١.
- (٢) المقرئزي : الخطط، جـ ٢، ص ٤١٠.

بهرام الأرمني ت ٥٣٥هـ / ١١٤٠م

استوزر الحافظ أبو المظفر بهرام الأرمني النصراني بعد وفاة يانس ولقب بسيف الإسلام تاج الدولة سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م^(١).

وقد اختلف المؤرخون في سبب توليه الوزارة للحافظ فذكر كل من ابن ميسر والنويري أن سبب وصوله من الغربية إلى الديار المصرية «أن القائم بأمر الأرمن مات وكان بهرام أحق بمكانه ممن ولي بعده فتعصب عليه جماعة من الأرمن ورفضوه وولوا عليهم غيره فخرج من تل باشر^(٢) مغضباً وقدم إلى القاهرة فندب للوزارة بها»^(٣) على حين يذكر كل من ابن الطوير والمقرئزي أن سبب توليه الوزارة أن الأمير حسن بن الحافظ قد أرسل بهرام ليحشد له طائفة الأرمن من الصعيد وكانوا يزدنون على ألفي فارس يدينون لبهرام بالطاعة وكان حسن بن الحافظ يريد التقوى بهم على الأجناد فقتل حسن بالسهم قبل مجيء بهرام بالحشود فلما جاء وجد الأمر قد انتهى «فقبض الأجناد على بهرام بظاهر القاهرة وادخلوه وزيراً للحافظ وقبل ذلك منهم ليُشغل به ويُسكن الدهماء. وأخلع عليه بهيئة الوزارة في هذه السنة على كراهية منه»^(٤).

وكان عمره وقت توليه الوزارة ثمانين عاماً ومات بعدها بخمس سنوات حينما جاوز الخامسة والثمانين^(٥)، بعد أن ظل يرتقى في الخدم لمدة خمسين عاماً حتى وصل إلى رتبة والياً على الغربية^(٦).

(١) ابن ميسر : المنتقى من أخبار مصر، ص ١٢١ - ١٢٢، ابن أبيك : كنز، ج ٦، ص ٥٠٧،

النويري : نهاية الأرب ج ٢٨، ص ٣٠٠، ابن الوردي : تمة المختصر، ج ٢، ص ٥٩،

المقرئزي : اتعاظ ج ٣، ص ١٥٥، السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢، ص ٢٠٥.

(٢) تل باشر: حصن وكورة شمالي حلب وأهلها من النصاري، ياقوت: معجم البلدان، ج ١.

(٣) ابن ميسر : المنتقى، ص ١٢١ - ١٢٢، النويري : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(٤) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٤٤، المقرئزي : اتعاظ، ج ٣، ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٥) أيمن فؤاد السيد : الدولة الفاطمية، ص ١٩٤.

(٦) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٢٣.

ويذكر المؤرخون أنه حينما اجتمع بالحافظ اقتنع به وأعجب بآرائه وعقله ودهائه في الحرب والسياسة^(١) ولكن الحافظ حينما استشار المقربون منه والذين يثق في آرائهم فامتنعوا جميعاً عن الموافقة على تولي بهرام الوزارة^(٢) لأنه نصرانياً. فلا يصح أن يرقى المنبر مع الإمام في الأعياد ليزر عليه المزرة الحاجزة بينه وبين الناس وقد كان ذلك من شروط الوزارة فأجاب الحافظ بأنه من الممكن أن يستنيب عنه قاض القضاة في صعود المنبر^(٣).

وقال آخرون «أن القضاة هم نواب الوزراء من زمن أمير الجيوش بدر الجمالي ويذكرون في النيابة عنهم في الكتب الحكمية النافذة عنهم إلى الآفاق وكتب الأنكحة فقال الحافظ: إذا رضيناه نحن فمن يخالفنا وهو وزير السيف؟ .. وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة إلى ذلك واستوزر والناس ينكرون عليه ذلك»^(٤).

فكان لاستوزار الخليفة له رغم اعتراض العامة^(٥) أبلغ الأثر في إثارة سخطهم وحنقهم ولكنه رغم ذلك أصبح أول نصراني يعتلي وزارة تفويض للفاطميين^(٦).

ولم يستقر بهرام طويلاً في الوزارة، إذ كانت سياسته سبباً في التعجيل بنهاية وزارته، فقد عمل على استجلاب الكثير من الأرمن إلى مصر وتم ذلك بموافقة الخليفة الحافظ وقلدهم أرقى المناصب في الدولة فتمكنوا واستبدوا واستطالوا على المسلمين^(٧) فثار المسلمون وكانت ثورتهم في تلك المرة مختلفة لأنها كانت دفاعاً عن الإسلام ضد النصرانية، فأخذوا في التدبير لإبعاد بهرام عن منصبه وكان زعيمهم في

(١) نفسه ص ١٢٢، النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٠٠.

(٢) ابن ميسر : المنتقى ص ١٢٢، المقرئزي : اتعاظ جـ ٣، ص ١٥٥ : ١٥٦.

(٣) النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٠١، المقرئزي : اتعاظ جـ ٣، ص ١٥٦.

(٤) النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٠١، المقرئزي : اتعاظ جـ ٣، ص ١٥٦.

(٥) ابن الطوير : نزهة ص ٤٤، ابن ميسر : المنتقى، ص ١٢٣، النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨،

ص ٣٠١، المقرئزي : اتعاظ، جـ ٣، ص ١٥٦.

(٦) ابن الطوير : نزهة ص ١٤، ابن ميسر : المنتقى، ص ١٢٢.

(٧) ابن ميسر : المنتقى ص ١٢٤، جمال الشيال : الوثائق الفاطمية، الوثيقة الخامسة عشرة،

ص ١٤٤ - ١٤٥.

هذا رضوان بن الولخشي الذي لم يكن راضيًا عما وصل إليه بهرام، ويبدو أن التنافس كان على أشده بينهما، وتعود جذور ذلك إلى وقت تعيين بهرام واليًا على عسقلان حتى يبعده ويأمن جانبه فلما وصل إلى عسقلان وجد جماعة من الأرمن وصلوا بحرًا في طريقهم إلى القاهرة فمنع الكثير منهم من ذلك فلما علم بهرام استدعاه وصرفه عن عسقلان، فقدم إلى القاهرة وامتن له الناس كثيرًا لمنعه الأرمن من الوصول إلى القاهرة فلما رأى بهرام التقاف الناس حوله أبعداه وولاه الغربية وأخذ بهرام يمعن في استجلاب الأرمن بني جلدته حتى وصل عددهم إلى ثلاثين ألف قدموا من تل باشر ومن بلاد الأرمن^(١).

فعظم أمرهم واستطالوا على المسلمين وجأهروا بنصرانيتهم واكثروا من بناء الكنائس والديارات و«صار كل رئيس منهم يبني له كنيسة بجوار داره»^(٢) فخاف الناس أن يغيروا الملة الإسلامية فاستنجد المسلمون بوالي الغربية رضوان بن الولخشي^(٣).

وخاصة بعد أن وردت الأخبار من قوص أن الباساك شقيق بهرام قد جار على الناس واستباح أموالهم وظلم واستبد^(٤)، كما وصل إليه ابن أخيه وكان يلقب بالسبع الأحمر وكثرت الشكاية منه للخليفة عندما أطلق أسيرًا من أكابر الفرنج^(٥).

ويبدو أنه اضطهد انصار حركة الجهاد ضد الصليبيين حيث أنه كان نصرانيًا فسارع رضوان لنجدتهم وحشد العربان واستجاب واعتلى المنبر وخطب في الناس

(١) النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٠١، المقرئزي : اتعاظ، جـ ٣، ص ١٥٩، جمال الشيال : الوثائق الفاطمية، الوثيقة الخامسة عشرة ص ١٤٥.

(٢) المقرئزي : اتعاظ، جـ ٣، ص ١٥٩، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٨، ص ٣٠١، سعيد عاشور : مصر في العصور الوسطى، ص ٢٠٨.

(٣) ابن ميسر : المنتقى، ص ١٢٤، النويري : نهاية، جـ ٢٨، ص ٣٠٢، أحمد شلبي : موسوعة التاريخ، جـ ٥، ص ١٣٥.

(٤) المقرئزي : اتعاظ، جـ ٣، ص ١٦٠.

(٥) نفسه ص ١٥٦.

خطبة بليغة حرض فيها على الجهاد في سبيل الله فاستجاب له ثلاثون ألف شخص^(١) واتجه للقاء بهرام الذي جمع الأرمن إليه وقال لهم: «اعلموا أننا قوم غرباء لم نزل نخدم هذه الدولة والآن فقد كثر بغضهم لأيماننا وما كنت بالذي أكون عبد قوم وأخدمهم من حال الصبا فلما بلغت الكبر أقاتلهم، لا ضربت في وجوههم بسيف أبداً، سيروا»^(٢).

وسار العسكر والأمراء شيئاً بعد شيء إلى رضوان واجتمع بهرام بالخليفة ليعرف موقفه مما يحدث ولكن يبدو أن الخليفة لم يشأ أن يقف ضد تيار النزعة الدينية وكان أضعف من أن يقاوم ثورة المسلمين الطاغية فقال لبهرام: «غلبني الإسلام عليك» ففهم بهرام من هذه الجملة أن الخليفة قد تخلى عنه وآثر الإقباد لشعور المسلمين فجمع على الفور بهرام الأرمن الذين كانوا طوعاً له لا يخالفونه في أمر وسار بهم نحو الصعيد حيث يقيم أخاه الباساك بقوص^(٣).

وكان مقصده من الاتجاه نحو الصعيد أن يجتمع بأخيه ويمضون إلى أسوان ليتملكونها ويتقوون بالنوبة لأنهم أهل ملة واحدة^(٤).

وأن الباساك هذا قد ولى الأعمال القوصية وإليه تنسب المنية التي بالقرب من أطفح وقد ظلم ظلماً كبيراً واستباح الأموال فضج الناس بالشكوى^(٥).

ويذكر المقرئ ما يدل على كراهية الناس لبهرام الأرمني وثورتهم العارمة ضده أن بهرام عندما شعر بالهزيمة وأن الخليفة الحافظ قد تخلى عنه عاد إلى

(١) النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٠٢، المقرئ : اتعاض، جـ ٣، ص ١٦٠، جمال الشيال : الوثائق الفاطمية، الوثيقة الخامسة عشر، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٢) المقرئ : اتعاض، جـ ٣، ص ١٦٠، جمال الشيال : الوثائق، الوثيقة الخامسة عشر، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٣) المقرئ : اتعاض، جـ ٣، ص ١٥٩ - ١٦٠، جمال الشيال : الوثائق، الوثيقة الخامسة عشر، ص ١٤٦.

(٤) المقرئ : اتعاض، جـ ٣، ص ١٦٠ - ١٦١.

(٥) ابن ميسر : المنتقى ص ١٢٤، النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٠٢، المقرئ : اتعاض جـ ٣، ص ١٦٠ استاريجيان : تاريخ الأمة الأرمنية، ص ١٩.

القاهرة وأخذ ما خف حمله وخرج من باب البرقية سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م وعندما رحل «اقتحم رعاك الناس وأوباشهم إلى دار الوزارة فنهبوا وهدموا حرمتها وعملوا كل مكروه فكان هذا أول نهب وقع في دار الوزارة، وامتدت الأيدي إلى دور الأرمن التي كانوا قد عمروها بالحسينية خارج باب الفتوح فنهبوا وهدموا كنيسة الزهري^(١) ونهبوا قبر البطريرك أخي بهرام^(٢)، وطار خبر انهزام بهرام في سائر أقليم مصر فوصل الخبر بذلك إلى قوص قبل وصول بهرام فثار المسلمون بها على الباساك وقتلوه ومثلوا به وجعلوا في رجله كلباً ميتاً والقوه على مزبلة^(٣).

وعزل بهرام عن الوزارة سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م^(٤) ووليها ابن الولخشي فبعد وصول رضوان إلى القاهرة والتفاف الناس حوله وانضمامهم إليه خاصة عندما رأوه وجنده رافعين المصاحف فوق أسنة الرماح ووقف بين القصرين واستأذن الحافظ فيما يفعله فأمره الحافظ بالنزول في دار الوزارة فنزلها وخلع عليه خلع الوزارة ولقب بالسيد الأجل الملك الأفضل^(٥).

أما بهرام فقد وصل إلى قوص وكان وصوله بعد مقتل الباساك بيومين فلما علم أمر قتل أخيه ثار وأعمل القتل في أهل قوص ونهبها هو ومن معه من الأرمن وكانوا نحو الألفي فارس رماة ثم سار إلى أسوان ونزل بالأديرة البيض وهي أماكن حصينة تقع غربي أخميم فتفرق عنه جماعته إلى بلادهم ومنعه كنز الدولة من دخول

(١) كنيسة الزهري كانت في بر الخليج غربي اللوق في الموضع الذي عرف بإسم البركة الناصرية بجوار حكر أقبغا ما بين السبع سقايات وقنطرة السد وقد هدمت هذه الكنيسة سنة ٧٢٠هـ زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي أنشأ بركة الناصرية إلى جوارها : المقرئزي : الخطط، جـ ٢، ص ٥١١.

(٢) كان شقيقه البطريرك الأرمني أغريغوريوس الذي وصل إلى مصر في فترة وزارة بدر الجمالي ٤٧٢هـ / ١٠٧٩م : أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية، ص ١٩٣.

(٣) المقرئزي : اتعاظ، جـ ٣، ص ١٦١ - ١٦٢.

(٤) ابن الوردي : تنمة المختصر، جـ ٢، ص ٦٤، قارن جمال الشيال : الوثائق الفاطمية : الوثيقة الخامسة عشرة، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٥) المقرئزي : اتعاظ، جـ ٣، ص ١٦١ - ١٦٢.

أسوان فاضطر إلى الإقامة بالأديرة البيض^(١) ومعه أهله وأولاده ثم تهرب^(٢).

وفي شهر رمضان سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م أحضر الحافظ بهرام الأرمني من الصعيد وأكرمه وجعل له سكنا في القصور مما أثار حنق الأفضل وزاد من ذلك رفض الحافظ طلبه أن يسكن في القصور^(٣) مما يدل على عظم منزلة بهرام لدى الحافظ وأنه كان قد تخلص منه مضطراً فقد أنزله الحافظ عنده في القصر ولم يمكنه من التصرف في شيء ولكنه كان دائماً ما يستشيريه في تدبير أمور الدولة^(٤) إلى أن مات بهرام ٥٣٥هـ / ١١٤٠م فحزن عليه الحافظ حزناً كثيراً ووصفه ابن ميسر قائلاً بحيث ظهر على القصر كمدته «وأمر بغلق الدواوين لمدة ثلاثة أيام وأحضر بطرك الملكية بمصر وطلب منه تجهيزه» و«أخرج عند صلاة الظهر في تابوت عليه الديباج وحوله النصارى يبخرون باللبان والسندروس والعود. وخرج الناس كلهم مشاة بحيث لم يتأخر أحد من أعيان الوقت عن جنازته وخرج الحافظ راكباً بغلته خلف التابوت وعليه عمامة خضراء وثوب أخضر بغير طيلسان، فما زال الناس سائرين والأقساء يعلنون بقراءة الإنجيل والحافظ على حالته إلى دير الخندق بظاهر القاهرة فنزل الحافظ عن بغلته وجلس على شفير القبر يبكي بكاءً شديداً»^(٥).

فيبدو أن الحافظ قد أحبه لما رأى منه من طاعة له فقد حزن عليه كل الحزن بعد أن كان كارهاً لتعيينه أولاً كما أخبرتنا المصادر.

وبوفاته انتهت مرحلة من أهم مراحل التاريخ الفاطمي في مصر تلك المرحلة التي سيطر فيها العنصر الأرمني على الحكم وهي المرحلة التي بدأت باعتلاء بدر

(١) ابن القلاسي : ذيل ص ٢٦٢، النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٠٣، المقرئزي : اتعاظ، جـ ٣، ص ١٦٢.

(٢) ابن الوردي : تنمة المختصر، جـ ٢، ص ٦٤.

(٣) النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٠٤، المقرئزي : اتعاظ، جـ ٣، ص ١٧٥.

(٤) ابن ميسر : المنتقى، ص ١٣٣، النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٥) ابن ميسر : المنتقى، ص ١٣٣، النويري : نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٠٦ - ٣٠٧، المقرئزي : اتعاظ جـ ٣، ص ١٧٥.

الجمالي وزارة السيف والقلم وما نتج عن ذلك من تحكمه في كل أمور الدولة والتي انتهت بوفاة بهرام الأرمني.

ورغم ما قيل عنه من أنه كان حسن السيرة ساس الأمور ببراعة نادرة وكان مطيعاً للخليفة وزاد من أرزاق الجند فراسله الملوك وانتشر الأمن وزالت الفتن مدة وزارته وأنه لم يكن هناك اعتراض إلا على كونه نصرانياً وكان يوم الجمعة يتوارى في أحد الدكاكين بمفرده حتى ينتهي الخليفة من الصلاة بالناس^(١) وكان رجلاً سليم الباطن جيداً في نفسه»^(٢) إلى أنه ومما لا شك فيه لم يكن سياسياً محنكاً كما لم يكن ذا نظرة ثاقبه فلو كان كذلك لما استثار مشاعر المسلمين بتصرفاته ولوضع حداً لاستطالة أبناء جنسه الذين جلبهم على عهده حتى قيل أنه «استعمل الأرمن على الناس»^(٣) فقد أثار حنق المسلمين عليه كما أغضب الخليفة عليه لتسلطه وتسلط الأرمن الذين عينهم في أرفع وأرقى مناصب الدولة^(٤) وبذلك يكون قد أقام في الوزارة سنة واحدة وعشرة أيام^(٥).

(١) المقرئزي : اتعاظ، جـ ٣، ص ١٥٦.

(٢) ابن أبيك : كنز الدرر، جـ ٦، ص ٥٠٧.

(٣) ابن الوردي : نعمة المختصر، جـ ٢، ص ٥٩.

(٤) سهام أبو زيد : تاريخ الأرمن، ص ٨١.

(٥) ابن أبيك : كنز الدرر، جـ ٦، ص ٥٠٧.

جواهر مؤتمن الخلافة ت ٥٦٤هـ / ١١٦٨م

هو جواهر بن عبد الله مؤتمن الخلافة وهو خصي كان بقصر العاضد، وكان له الحكم على أهل القصر فقد كان أحد الأستانيين المحنكين ولقب بزمم القصر كما لقبه بعض المؤرخين بمقدم السودان وكان إليه الإشراف الكامل على شئون القصر الفاطمي^(١).

وكان قد ثقل عليه زوال خلافة الفاطميين عن مصر فاتفق مع جماعة من المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى مصر لمساعدتهم في القضاء على صلاح الدين وإنقاذ الخلافة المتداعية^(٢)، فقد ضايق صلاح الدين هؤلاء وشدد عليهم واستبد بأمور الدولة وقبض على أكابر أهلها^(٣).

وقد اتفقوا على استدعاء الفرنج^(٤) إلى البلاد منفيين خطة محكمة للإيقاع بصلاح الدين وأصحابه وحصرهم بين فكي كماشة وكانت ترتيبات تلك الخطة أنه عند قدوم الفرنج إلى البلاد فسوف يسارع صلاح الدين وأصحابه لمنعهم من دخول البلاد في تلك اللحظة يثور مؤتمن الخلافة بمن معه على جند صلاح الدين الباقين فإذا ما انتهوا من القضاء عليهم تتبعوا صلاح الدين وأصحابه وقوضوهم والتفوا حولهم فيكون الفرنج أمامهم وهم وراءهم فيتم القضاء عليهم واستئصالهم واستعادة سيادة الفاطميين على البلاد^(٥).

(١) ابن الأثير : الكامل، جـ ١١، ص ٣٤٥ - ٣٤٦، محمد بهادر : مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ١١، أبو شامة الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٥٠، ابن الفرات : تاريخه، جـ ٤، ص ٧٧ - ٧٨ حاشية ٢٤٠، ابن خلدون : العبر، جـ ٥، ص ٢٨٣ المقرئزي : اتعاط، جـ ٣، ص ٣٠٧، حاشية ٣ والخطط جـ ٢، ص ٢، ٣.

(٢) ابن الأثير : الكامل، جـ ١١، ص ٣٤٦، ابن الفرات، جـ ٤، ص ٧٧، المقرئزي : الخطط، جـ ٢، ص ٢، ٣.

(٣) المقرئزي : الخطط، جـ ٢، ص ٢.

(٤) أبو شامة : الروضتين، جـ ١، ق ٢، ص ٤٥، ابن الفرات، جـ ٤، ص ٧٧.

(٥) أبو شامة : الروضتين، جـ ١، ص ٢، ص ٤٥٠ : ٤٥١، ابن الفرات : تاريخه، جـ ٤، ص ٧٧، =

وقد أرسلوا مكاتبتهم للفرنج مع «إنسان ذي خلقان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي»^(١) فلاحظ أحد التركمان الصلاحية أن النعلين جديدين رغم أن الرجل رث الهيئة»^(٢).

فشك فيه وأتى بالرجل إلى صلاح الدين وتم فتح النعلين واكتشاف المؤامرة حيث وجد فيها مكاتبة للفرنج من أهل القصر «يرجون بحركتهم حصول النصر»^(٣). وطلب صلاح الدين احضار كاتب هذه الرسالة وتبين له أنه أحد اليهود فلما تم سؤاله سارع بالنطق بالشهادة واحتفى بالإسلام قبل أن يتكلم حتى يضمن النجاة من عقاب صلاح الدين ثم اعترف أن مؤتمن الخلافة هو المحرض على ذلك^(٤). فكان سلوك مؤتمن الخلافة هذا أبلغ دليل على اصراره على التخلص من صلاح الدين وجنوده النورية^(٥).

وأطلق صلاح الدين سراح الرجل اليهودي وتربص بمؤتمن الخلافة الذي استشعر غدر صلاح الدين، رغم أن صلاح الدين لم يظهر له الغدر، وتركه مدة حتى يشعر بالأمان ويأخذ على حين غرة فخرج مؤتمن الخلافة بعد أن التزم القصر فترة محتمياً فيه واتجه إلى قصره^(٦) بالخرقانية بقلوب فأرسل إليه صلاح الدين جماعة فقتلوه وأتوا برأسه سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م^(٧).

= ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٢٨٣، المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٢، ٣.

(١) أبو شامة الروضتين، جـ ١، ق ٢، ص ٤٥٠.

(٢) النويري: نهاية، جـ ٢٨، ص ٣٦٠، المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٣.

(٣) أبو شامة: الروضتين، جـ ١، ق ٢، ص ٤٥١، المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٣.

(٤) أبو شامة: الروضتين، جـ ١، ق ٢، ص ٤٥١، المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٣.

(٥) المقرئزي: انعاظ، جـ ٣، ص ٣٠٧.

(٦) أبو شامة: الروضتين، جـ ١، ق ٢، ص ٤٥١ - ٤٥٢، ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٢٨٣.

(٧) ابن الأثير: الكامل، جـ ١١، ص ٣٤٦، أبو شامة: الروضتين، جـ ١، ق ٢، ص ٤٥١ - ٤٥٢،

ابن الفرات: تاريخه، جـ ٤، ص ٧٧ : ٧٨، ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٢٨٣، المقرئزي:

خطط، جـ ٨، ص ٣.

وقام صلاح الدين بعزل جميع خصيان القصر وولي أمور القصر بهاء الدين قراقوش الخصي الأبيض^(١)، والذي كان من أخلص خدمه وعهد إليه بكل أمور القصر^(٢).

وكان لقتل جوهر مؤتمن الخلافة ردود أفعال قوية لدى المصريين والأجناد وازمة القصر من السودان^(٣) «لأنه كان يتعصب لهم»^(٤) فثاروا وانضم إليهم الكثير من الأمراء والعامة حتى زاد عددهم على خمسين ألف^(٥) وساروا إلى دار الوزارة التي كان يسكنها صلاح الدين ومعهم الأسلحة فاستنفر شمس الدولة توران شاه عساكر الغز وصرخ فيهم والتفت أهل صلاح الدين وأقاربه وكل جنوده^(٦) وعلى رأسهم الأمير أبو الهيجاء^(٧) وكانت بينهم وقعة كبيرة بين القصرين انهزم فيها السودان ومن معهم وقتل الكثير وأخرجوا إلى الجيزة وعبر إليهم توران شاه شقيق

(١) بهاء الدين، قراقوش: أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب بهاء الدين كان خادماً صلاح الدين وقيل خادماً أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين فاعتقه ولما استقل صلاح الدين بسلطان مصر جعله زمام القصر وكان يثق به فتاب عنه مدة بالديار المصرية وكان ذا همة فبنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وبنى قلعة الجبل وبنى القناطر التي بالجيزة وعمر بالمقس رباطاً وله خان سبيل ووقف كثير لا يعرف مصرفه توفي ٥٩٧هـ ودفن بسفح المقطم : ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ٤، ص ٩١ : ٩٢ وسبط ابن الجوزي : مرآة الزمان، جـ٨، ق ٢ ص ٥٠٤، ابن أبيك: كنز الدرر، جـ٧، ص ١٥١، الأصفهاني : الفتح القسي، ص ٢٠٩، وأبي شامة: الروضتين، جـ١، ق ٢، ص ٤٨٨، الحنبلي : شذرات الذهب، جـ٤، ص ٣٣١ - ٣٣٢، المقرئزي : الخطط، جـ٢، ص ٩٣، ١١٠، ابن تغرى بردي : النجوم، جـ٦، ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٢) محمد بهادر : مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص ١١، ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص ٣٤٦، ابن الفرات تاريخه جـ٤، ص ٧٧ - ٧٨، ابن خلدون : العبر، جـ٥، ص ٢٨٣.

(٣) محمد بهادر : مخطوط فتوح النصر جـ١، ص ١١.

(٤) ابن الأثير : الكامل، جـ١١، ص ٣٤٧.

(٥) ابن الأثير : الكامل، جـ١١، ص ٣٤٧، أبو شامة : الروضتين، جـ١، ق ٢ ص ٤٥١.

(٦) المقرئزي : خطط، جـ٢، ص ٣.

(٧) أبي شامة : الروضتين، جـ١، ق ٢، ص ٤٥٢.

صلاح الدين وقضى عليهم^(١).

وذكر ابن الفرات أن قتل جوهر هذا كان سبب «زوال دولة العبيديين وكان سبب خلافتهم بالديار المصرية أولاً جوهر القائد وبين الجوهرين بون كبير»^(٢).

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١، ص ٣٤٧، أبي شامة : الروضتين جـ ١، ق ٢ ص ٤٥٢.
(٢) الأول جوهر القائد غلام المعز لدين الله والثاني جوهر بن عبد الله مؤتمن الخلافة الخصي استأذ الدار عند الخلفاء المصريين العبيديين، ابن الفرات : تاريخه جـ ٤، ص ٧٨.

الفصل الثالث

الفصل الثالث

دور المماليك الإجتماعى فى مصر فى العصر الفاطمى

المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى

- الخاصة: الأسرة الحاكمة - الأشراف - أرباب الوظائف.
- العامة: التجار - أرباب الصناعات والحرف - العوام - أهل الذمة - العبيد.

المماليك من الجوارى والغلمان والخصيان:

- الجوارى: حياة القصور ودور الجوارى فيها - اقتناء الخلفاء للجوارى - الأعمال التى قامت بها الجوارى فى القصور - عتق الخلفاء للجوارى - ثراء الجوارى - الغلمان وحياة القصور - عتق الغلمان - ميراث الخدم من الغلمان - الخصيان فى القصر الفاطمى - الأساتذة المحنكون - الأساتذة غير المحنكين.

علاقة المماليك بالمجتمع المصرى:

- امتلاك العامة للرقيق.
- الآثار التى ترتبت على تواجد الجوارى فى الأسرة المصرية.
- عتق العامة للجوارى.
- إيجابيات وسلبيات تواجد الرقيق فى المجتمع الفاطمى.

الفصل الثالث

دور المماليك الإجتماعى فى مصر فى العصر الفاطمى

تسهم عوامل متعددة فى تشكيل النمط الاجتماعى لأى مجتمع باعتباره نتاجاً حتمياً للظروف البيئية المحيطة به، كذلك تسهم العوامل ذاتها فى التركيب الاجتماعى، وتشكيل الشخصية المميزة لذلك المجتمع.

من ذلك الأحداث التاريخية والظروف البيئية التى ينشأ فيها الأفراد الذين يمثلون نسيج ذلك المجتمع.

وتتأثر شخصية المجتمع بطبيعة الحال بالتراث الحضارى المادى والمعنوى والنفسى والاجتماعى، هذا بالإضافة إلى العوامل الاقتصادية والسياسية والعمرائية والتقاليد والعادات وغيرها مما يشكل ملامح البيئة الخاصة بذات المجتمع ويتضح فيما تخلفه أقلام الأدباء والكتاب والمؤرخين فيما دونوه من أدب اجتماعى أو سياسى خلال الملاحظات والمشاهدات التى يعاصرونها.

ويمكن للباحثين أن يضعوا تصوراً لحالة مصر الاجتماعية فى العصر الفاطمى من خلال ما كتب فى أدب السياسية ونظم الحكم حيث يعكس صورة واضحة للأوضاع السياسية والاجتماعية.

وقد قام عدد من مؤرخى تلك الفترة بتسجيل مشاهداتهم لأحداث العصر، فكانوا شهود عيان لما جرى فى مصر على أيام الفاطميين.

لقد دخل المجتمع المصرى اعداد ضخمة من الجلبان الذين حملوا من الأسواق أو جاءوا مع المسترقين فى المعارك، فتعايشوا مع أفراد المجتمع الذى منحهم حق الحياة، والمشاركة فى فعاليات وأنشطة ذلك المجتمع^(١).

لقد منح الشعب المصرى للدولة الفاطمية التى قامت على أرضه ولاءً كان ناتجاً

(١) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٩٨ - ٩٩: المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ١٩٣ - ١٩٤.

عن إدانة شعبية للأنهيار الاجتماعي والأخلاقي الذي اتسمت به مرحلة ما قبل دخول الفاطميين مصر، وخاصة بين طبقة الحاكمة، حتى أن هناك من يميل إلى القول بأن ذلك الولاء لم يكن انحيازاً للمذهب الشيعي أو انسلاخاً عن المذهب السني وإنما محاولة للخلاص من الانحدار الذي ظهر في أخلاقيات المجتمع في تلك الفترة^(١).

وقد تباينت ظروف المجتمع المصري الاجتماعية في عصر الدولة الفاطمية من حين إلى آخر. فتارة تبلغ الدولة ذروة الثراء وقمة المجد الحضاري وتمتلئ الخزائن الفاطمية وأخرى تصل إلى درجة متدنية من الفقر نتيجة لضعف الخلفاء سياسياً حتى أنهم في بعض الأحيان لا يستطيعون صد خطر العناصر الأجنبية التي جلبوها واشتروها لحمايتهم فيقوضونهم داخل قصورهم دون حيلة. ويصل الحال بأحد خلفاء الدولة وهو المستنصر الفاطمي ٤٦٤هـ / ١٠٧١م «أن يجيء إليه رسول ناصر الدولة ابن حمدان فإذا هو جالس على حصير وفي رجله قبقاب من خشب أبيض من غير دهان ولا سير وحوله ثلاثة من الخدم ولم ير شيئاً من أثار المملكة». ولما طلب من المستنصر ما لا ابن حمدان قال له المستنصر: «ما يكفي ناصر الدولة أن أجلس في مثل هذا البيت على هذا الحال: فبكى الرسول وعاد فأخبر ناصر الدولة بالحال، فأطلق للمستنصر كل شهر مائة دينار»^(٢).

(١) محمد عمارة: عندما أصبحت مصر عربية، ص ٣٢.

(٢) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٣٨.

المجتمع المصري في العصر الفاطمي

تكون المجتمع المصري في العصر الفاطمي من أخلاط مختلفة من العناصر البشرية، فكان القبط والعرب والروم والبربر والأكراد والديلم والسودان والحبشان. وقد شهد المجتمع المصري في ذلك الوقت دخول العناصر الأجنبية بشكل ملحوظ في خدمة الدولة التي حكمت مصر، فانصهرت تلك العناصر في الحياة المصرية وتأثرت بعادات المصريين وتقاليدهم حتى انتسب الجميع إلى مصر، حتى الخلفاء أنفسهم. ودخلت بعض تلك العناصر في الجيش الفاطمي بمختلف طوائفه وأجناسه فأطلق عليه العساكر المصرية «جند المصريين»^(١).

ومن المهم أن نوضح أن المؤرخين لم يعنوا بدراسة المجتمع عنايتهم بدراسة أحوال الحكام والأمراء ولذلك فمن الصعوبة بمكان أن نجد تقسيمات واضحة لطبقات السكان.

كان المجتمع المصري أو بالأحرى مجتمع مصر في العصر الفاطمي يشمل طبقتين كبيرتين شأنه شأن العصور السابقة والعصور اللاحقة.

أما الطبقة الأولى فهي طبقة الخاصة. وأما الثانية فكانت طبقة العامة. الأولى تمتعت بكل الامتيازات المتاحة في ذلك الوقت. أما الثانية فقد أهمل شأنها بشكل ملحوظ بالرغم من أهميتها كقاعدة للمجتمع.

وقد أورد القاضي النعمان تقسيماً لطبقات المجتمع المصري على أيامه فذكر خمس طبقات ، هي:

- (١) الجند.
- (٢) أعوان الوالى من القضاة والعمال والكتاب.
- (٣) أهل الخراج من ملاك الأراضى.

(١) ابن الصلت : الرسالة المصرية جـ ١، ص ٢٣ ، ٢٤ : ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٠٥ : المقرئزي: اتعاظ جـ ١، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ : وانظر عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري، ص ٢٣.

(٤) التجار وذوو الصناعات.

(٥) الطبقة السفلى وهم أصحاب الحاجة^(١).

ويقول المقرئ في كتابه «إغاثة الأمة بكشف الغمة» «في فصل بعنوان» فصل في ذكر أقسام الناس وأصنافهم وبيان جمل من أحوالهم وأوصافهم «أعلم حرسك الله بعينه التي لا تنام وركنه الذي لا يرام أن الناس في مصر في الجملة على سبعة أقسام»

القسم الأول ، أهل الدولة. والقسم الثاني، أهل اليسار من التجار وأولو النعمة من ذوى الرفاهية. والقسم الثالث، الباعة وهم متوسطو الحال ويقال لهم: أصحاب البر، ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السوقة والقسم الرابع، أهل الفلح، وهم أهل الزراعات والحرث سكان القرى والريف. والقسم الخامس، الفقراء، وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم. والقسم السادس، أرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن، والقسم السابع، ذوو الحاجة والمسكنة الذين يتكفون الناس ويعيشون منهم^(٢).

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تقسيم المجتمع المصرى في عهد الفاطميين إلى طبقتين^(٣):

طبقة الخاصة وتضم خمسة أقسام:

(١) الأسرة الحاكمة.

(٢) الأشراف.

(٣) أرباب الوظائف بالقصر.

(١) القاضى النعمان: افتتاح الدعوة، ص ٣٠٦، دعائم الإسلام، ج ١، ص ١٤٣: المقرئ: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٧٢، ٧٣، السجلات المستنصرية ص ١٢٧.

(٢) المقرئ: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٧٢، ٧٣.

(٣) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص ٢٦.

٤) أرباب الوظائف الدينية.

وطبقة العامة وتضم:

١) التجار.

٢) أصحاب الصناعات والحرف.

٣) العوام.

٤) أهل الذمة.

٥) العبيد.

طبقة الخاصة:

أولاً: الأسرة الحاكمة:

كانت على رأس طبقات المجتمع في العصر الفاطمي. ويأتى الخليفة على قمته. وكان يتمتع بالتوقير والأحترام. وكانت له هبة وعظمة لمكانته الدينية، فكان الخلفاء الفاطميون يعتقدون أن لهم الأولوية في حكم العالم الإسلامي مستندين إلى حقهم الألهي في الحكم. وقد استمدوا هذا الحق من نسبهم إلى السيدة فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام. واتبع الكثير مذهبهم واعتنقوه ودافعوا عنه^(١).

وتميزت حياة الخلفاء الفاطميين بمصر بالثراء الفاحش على النقيض تماماً من حياتهم في المغرب التي غلب عليها طابع التقشف والزهد والبعد عن الأسراف^(٢) لذلك كانت أولى المهام الموكلة إلى القائد جوهر من الخليفة المعز عند فتحه مصر أن «يبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا»^(٣) وما أن وصل إلى مصر إلا وشرع في بناء القاهرة المعزية^(٤).

(١) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية تفسير جديد، ص ٧٤.

(٢) المقرئزي: اتعاظ جـ ١، ص ٩٥ - ٩٦.

(٣) مخطوط شرح اللمعة: مجهول، ص ٤ " ابن بيك: كنز الدرر، جـ ٦، ص ١٣٨: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣ ص ٣٤٩.

(٤) ابن الوردي: تنمة المختصر جـ ١، ص ٤٠٨. الحسن بن عبد الله: أثار الأول، ص ٣٣.

ومن نص الحسن بن عبد الله^(١) نستطيع أن نتبين أنها كانت معدة لتكون مدينة للملوك يسكنونها هم وأهلهم وجنودهم وحاشيتهم فيقول «لما أستولى جوهر المعزى على مصر بنى لسيده القاهرة المعزية والقصور ليكون هو وأصحابه بمعزل عن العامة». «وهكذا بنيت المدينة التي قل نظيرها»^(٢).

كما أشار إلى ذلك المعنى قائلا: «ولم تزل القاهرة دار خلافة، ومنزل ملك، ومعقل قتال لا ينزلها إلا الخليفة وعساكره وخواصه الذين شرفهم بقربه فقط»^(٣).

وكانت لهذه الأسرة الحاكمة قصور غاية في الجمال والأبهة كان أهمها على الإطلاق، القصر الكبير الشرقي الذي اختطه جوهر عند بداية بنائه القاهرة وكان مقراً لخلافة المعز ومن جاء بعده من الخلفاء حتى زوال الدولة^(٤).

وكانت به قاعة الذهب ويقال لها قصر الذهب وكانت مثار دهشة وعجب كل من يراها، وكان يدخل إليها من باب الذهب أو من باب البحر، وجدد هذا القصر من بعد العزيز الخليفة المستنصر في سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٦م وكان يجلس بها الخلفاء يومى الاثنين والخميس ويمد بها سماء شهر رمضان والعديد للأمرء، وكان بها سرير الملك كما كانت لاستقبال السفراء والزوار لأطلاعهم على مدى أبهة الفاطميين^(٥)، كما كان الخلفاء يقيمون المآدب في العيدين للخواص والعوام و«تنصب مائدة الخواص في حضرته ومائدة العوام في سرايات أخرى»^(٦).

(١) الحسن بن عبد الله: آثار الأول، ص ٣٣.

(٢) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٠٤.

(٣) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٣٦٣.

(٤) المصدر السابق، ج ٢ ص ٣١٤.

(٥) انظر المسجى: اخبار مصر، ص ٤٩: المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٣٨٥.

(٦) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٢٢.

وعن ثروة الخلفاء يروى ناصر خسرو أنه شاهد في القاهرة حوالى عشرون ألف دكان كلها ملك السلطان كان يقوم بتأجير البعض منها، كما كان يمتلك كل الأربطة والحمامات والأبنية وليس من حق أحد امتلاك شئ غير المنازل أو ما يبنيه الشخص لنفسه، فكان للسلطان ثمانية آلاف بيت في القاهرة ومصر يؤجرها للعامّة^(١)، كما كان لهؤلاء الحكام الدور والمناظر في مختلف الأماكن التي يخرجون إليها للتنزه. ومنها على سبيل المثال منظره الجامع الأزهر التي شيدت ليجلس عليها الخليفة لمشاهدة الأحتفال الدينى بليالى الوقود^(٢)، ومنظره اللؤلؤة التي شيدت في عهد العزيز. وكانت تقع على الخليج ومحاطة بالبساتين الزاهرة، وكانت من أجمل القصور حتى أن المقرئى وصفها بأنها «أحد منتزهات الدنيا المذكورة»^(٣)، وقد بناها العزيز بالله (٣٦٥هـ - ٣٨٥هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦م)^(٤).

ومع ذلك فقد كان الخلفاء الفاطميون يقومون بأعمال البر والأحسان وينفقون بسخاء على إقامة المنشآت الدينية^(٥).

كما كان هؤلاء الخلفاء الفاطميون يحيطون أنفسهم في المواكب بأرقى مظاهر الأبهة، فيصف الرحالة ناصر خسرو ركب الخليفة في عيد فتح الخليج قائلاً و «يسير في ركاب السلطان عشرة آلاف فارس على خيولهم سروج مذهب وأطواق والأجمة مرصعة وجميع لبد السروج من الديباج الرومى والبوقلمون نسجت لهذا الغرض خاصة فلم تفصل ولم تخط وطرزت حواشيها بأسم سلطان مصر وعلى كل حصان درع أو جوش وعلى قمة السرج خوذة جميع أنواع الأسلحة الأخرى. وكذلك تسير جمال كثيرة عليها هودج مزينة وبغال عماريتها (هودجها) كلها مرصعة بالذهب

(١) ناصر خسرو: سفرنامه ص ١٠٤.

(٢) المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٤٦٥.

(٣) نفسه ص ٤٦٧: أنظر عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص ٣٣.

(٤) ناصر خسرو: سفرنامه حاشية (٢)، ص ١٠٧.

(٥) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص ٣٣.

والجواهر موشاة باللؤلؤ»^(١).

ثانياً: الأشراف:

حظيت طبقة الأشراف بمكانة مرموقة واحترام كبير في المجتمع الفاطمي وكثيراً ما كان يأتي ذكر هؤلاء قبل الأمراء والقادة كما كانوا يتقدمون غيرهم في المواكب ومجالس الخلفاء:

فعندما حضر المعز إلى القاهرة ودخل الناس للسلام عليه والتهنئة بوصوله «أذن بدخول الأشراف أولاً»^(٢).

وكان الأشراف في العصر الفاطمي ينقسمون إلى قسمين «الأول، وهم الأشراف الأقارب أي المنتسبون إلى الفرع الفاطمي وكان يقوم أحد الأساتذة المحنكين برعاية مصالحهم العامة والخاصة ويحافظ على أنسابهم»^(٣)، وكان يسمى نقيب الأشراف «أو زم الأقارب»^(٤).

وكان الخليفة يمنحه الخلع عند تنصيبه ويتقدم موكبه الطبالون وأصحاب البوق والبنود مثل الأمراء وله ديوان وموظفون يعملون تحت إمرته. وكان يساتده في مباشرة مهامه اثنا عشر نقيباً^(٥). وكان هناك القسم الآخر من الأشراف وهم الطالبيون وسموا كذلك نسبة إلى أبي طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم وكان يشرف على شئونهم أحد الأساتذة غير المحنكين أو أحد الأشراف المميزين^(٦).

وكان القسم الأول وهو الأشراف الأقارب لهم التميز على الطالبيين عند الدخول

(١) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٠٩.

(٢) المقرئزي: خطط، ج ١، ص ٣٨٤.

(٣) عبد المنعم سلطان: المجتمع، ص ٣٦.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١، ص ٣٩٥ - ٣٩٦.

(٥) المقرئزي: خطط، ج ١، ص ٤١١.

(٦) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٨٦.

إلى مجلس الخليفة «ثم يسلم بالأشراف الأقارب زمامهم وهو من الأستاذين المحنكين وبالأشراف الطالبين نقيبهم وهو من الشهود المعدلين وقارة يكون من الأشراف المميزين»^(١).

ويبدو أن عدد الأشراف كان كبيراً في الدولة الفاطمية ولكنهم لم يقيموا جميعاً في قصر الخلافة فقد ذكر المقرئ في عددهم في روايتين مختلفتين، فذكر عددهم في القصر الفاطمي عند وفاة العاضد سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م واستيلاء صلاح الدين على القصر قائلاً: «عدة الأشراف في القصور مائة وثلاثين والأطفال خمسة وسبعون وجعلهم في مكان أفرد لهم خارج القصر، وجمع عمومته وعشيرته في إيوان بالقصر وأحترز عليهم، وفرق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا، وليكون ذلك أسرع لأنقراضهم»^(٢).

ثم عاد وذكر «حدثني الأمير عضد الدين مرهف بن مجد الدين سويد الدولة بن منقذ أن القصر أغلق على ثمانية عشر ألف نسمة عشرة آلاف شريف وشريفة وثمانية آلاف عبد وخادم وأمة ومولدة وتربية»^(٣).

أرباب الوظائف:

وكانوا يعدون ضمن طبقة الخاصة لما يحظون به من رعاية الخلفاء، ولما يتمتعون به من مراكز مرموقة في المجتمع الفاطمي، ولما وصلوا إليه من سلطة في عصور الدولة المختلفة كالوزراء، أو الذين شغلوا الوظائف العسكرية ويسمون أرباب السيوف، أو أولئك الذين قاموا على الوظائف المدنية وهم أرباب الأقلام، ثم يأتي أصحاب الوظائف الدينية.

(١) نفسه، ص ٣٨٥ - ٣٨٦: وللمزيد عن الأشراف أنظر المقرئ: نقلاً عن ابن زولاق: اتعاط جـ ١، ص ١٤٧: نص تقليد زم الأقارب وهو التقدمة على أقارب الخليفة. القلقشندى، جـ ١، ص ٣٩٤.

(٢) نفسه ص ٣٩٦.

(٣) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري في العصر الفاطمي ص ٣٧.

الوزراء:

كان الوزراء على قمة الهرم الإداري للدولة وكان بعضهم من الذميين كما نلاحظ أن بعض المسلمين منهم لم يكونوا إسماعيليين^(١).

وكانت وظيفة الوزير لا تتعدى تنفيذ أوامر الخليفة. وكانت الوزارة في العصر الفاطمي الأول سنة (٣٥٨هـ - ٤٦٥هـ / ٩٦٩ - ١٠٧١م) وزارة تنفيذ فقد كان الخلفاء أقوياء أداروا شئون بلادهم بأنفسهم وحرصوا على إنتقاء وزرائهم ممن يصلحون لإدارة شئون البلاد اقتصادياً ويستطيعون تدبير الأموال وكان حاكم الولاية أو كبار موظفي الدولة كثيراً ما يرتقون إلى منصب الوزارة إذا توافرت لديهم الكفاية لتولى ذلك المنصب^(٢).

ولم تظهر تسمية الوزير وزيراً بوضوح إلا في عهد العزيز وكان يعقوب بن كلس من أشهر وزرائه وكان يستقبل الناس كل يوم بعد صلاة الصبح فينظر في مظالمهم وأنشأ في قصره العديد من الدواوين بعضها تعنى بأمور الجيش المالية والسجلات والبعض الآخر يعنى بجباية الخراج، وعين لكل ديوان موظفين لإدارة شئونه^(٣).

ثم ضعف شأن الوزارة بعد وفاة يعقوب بن كلس وأطلق عليها تسمية الوساطة حرصاً على منع ازدياد نفوذ الوزراء.

وفي عهد الحاكم بأمر الله قام بعزل عيسى بن نسطورس لأنه قام بمحاباة المسيحيين أهل ديارته، وأسند إليهم المناصب الهامة في الدولة، وعين الحسن بن عمار زعيم الكتاميين بدلاً منه ولقب بأمين الدولة^(٤).

(١) محمد حمدي المناوي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، ص ٣١٤.

(٢) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٤١.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٧٢.

(٤) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٤٢.

ومن أشهر وزراء العصر الفاطمي أبو الحسن علي بن جعفر بن فلاح الذي لقب وزير ذا الرياستين وأبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي الذي استندت إليه الوساطة في أوائل خلافة الظاهر ولكنه لم يتولى الوزارة إلا بعد وفاة الظاهر، فولاه المستنصر الوزارة رسمياً، ثم وليها بعده أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى^(١) ثم ما لبث أن تقوض نفوذه بعد استفحال نفوذ أبي سعد التستري اليهودي^(٢).

ثم تغير الأمر في النصف الثاني من ذلك العصر بعد أن ولي بدر الجمالي السلطة للمستنصر فبدأ الأمر يأخذ شكلاً جديداً، فأصبح وزير السيف والقلم ، وفاق نفوذه نفوذ الخليفة. وكانت الوزارة تسمى وزارة تفويض^(٣) ، ومن ثم تحولت الوزارة إلى سلطة استبدادية استأثر فيها الوزير بكل كبيرة وصغيرة من أمور الدولة. ويظهر ذلك من سجل تولية بدر الجمالي الوزارة «وقد قللك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره وناط بك النظر في كل ما وراء سريره»^(٤) ، واستفحل أمر هؤلاء الوزراء وكلماء ازداد ضعف الخلفاء ازداد هؤلاء الوزراء قوة حتى سمي العصر بعصر الوزراء العظام^(٥) . وأصبحوا يتحكمون في تعيين الخلفاء وعزلهم وبلغ من ازدياد نفوذ بدر الجمالي أن نقل الدواوين إلى داره التي بناها سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م وجلب إليها الكثير من النقائس^(٦).

(١) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٤٢.

(٢) والمقريري: الخطط، جـ ١، ص ٤٣٩ وحسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ص ٢٧٦، ٢٧٧.

(٣) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٤٥ - ٥٢.

(٤) جمال الشيال: السجلات المستنصرية سجل رقم ٥٩، ص ١٩٤ - ٥١٩: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٤٤٩، والمقريري، خطط، جـ ١، ص ٤٣٩.

(٥) جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، وثيقة رقم ١١، ص ١٣٠.

(٦) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية ص ١٤٣.

وكان من ألقاب وزراء التفويض:

أمير الجيوش، وكافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين، ثم أضيف إليها لقب ملك بعد أن ولى رضوان بن الولخشى في عهد الخليفة الحافظ^(١).

ويتجلى بوضوح مدى قوة الوزراء وضعف الخلفاء في إقصاء الأفضل بن بدر الجمالى نزار بن المستنصر عن العرش رغم أنه كان ولى عهده وأكبر أبنائه وقيامه بمبايعة أخيه الصغير الأمير أبى القاسم أحمد الذى لقب بالمستعلى ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م والذى كانت أمه أبنة بدر الجمالى وأخت الأفضل وماتل الأفضل المستنصر قبل وفاته في أخذ البيعة لنزار حتى مات^(٢). ما لبث الأفضل أن استبد بأمر مصر دون المستعلى وصار «هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد وإليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية وهو الذى يولى المناصب الديوانية والدينية»^(٣).

وبلغ من نفوذ الأفضل أنه لما توفى المستعلى سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م بايع ابنه أبا على بالخلافة وأقامه مكان أبيه ولقبه (الأمير بأحكام الله) ولم يكن قد بلغ من العمر خمس سنوات^(٤).

وزاد نفوذه حتى أنه مال كل الميل إلى السنيين والغى الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ومولد ابنته فاطمة ومولد الخليفة القائم بالأمر، مما حدا بالأمر بعد أن بلغ سن الرشد إلى التخلص منه، فاتفق مع أحد خواصه المقربين وهو أبى عبد الله محمد بن البطائحي بتدبير مؤامرة لأغتياله، فقتل الأفضل وخلفه ابن البطائحي في الوزارة سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م^(٥).

(١) المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٤٣٩.

(٢) التويرى: نهاية الأرب جـ ٢٨، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٣) المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٤٤.

(٤) ابن ميسر: اخبار مصر، ص ٤٠.

(٥) ابن القلاسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

وفي عهد الحافظ نهج الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل نهج أسلافه فمنع الحافظ من التصرف في شئون الدولة وسجنه في خزانة، وحذف اسمه من الخطبة، واستولى على نفائس قصره وأمواله. واستأثر بالسلطة والنفوذ، ولكن كان لسياسة المناهضة للمذهب الإسماعيلي وتقديم مذهب الإمامية أبلغ الأثر في نفوس الإسماعيلية الذين تزعمهم يأنس الأرمني. وتم اغتيال أبي علي هذا سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م^(١).

وتم تعيين يأنس الأرمني في الوزارة ثم توفي فوليها بهرام الأرمني الذي تمتع - رغم كونه نصرانياً - بمكانة عالية في عهد الحافظ^(٢).

ووزر بعده رضوان بن الولخشى ٥٣٠هـ/١١٣٥م الذي تلقب (بالسيد الأجل الملك الأفضل) وكان أول من لقب بالملك من وزراء مصر^(٣).

وفي عهد الظافر تنافس مع المظفر علي بن السلار على منصب الوزارة ودارت بينهما المعارك وانتهت بفوز ابن السلار بالوزارة ولكنه ما لبث أن قتل سنة ٥٤٨هـ/١١٣٥م لتعصبه للمذهب السني دون المذهب الشيعي. ثم ولي الوزارة بعد ذلك طلائع بن رزيك والي الأشمونين فاستدعته نساء القصر بعد مقتل الظافر ووزر للفائز، فلما توفي الفائز سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م أقام طلائع العاضد خليفة على البلاد في نفس السنة وكان آخر الخلفاء الفاطميين^(٤).

ومما سبق يتضح لنا مدى استفحال نفوذ الوزراء في مصر في العصر الفاطمي

(١) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ١٧.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٠٠ - ٣٠٢.

(٣) المقرئزي: خطط، ج ١، ص ٤٢٩.

(٤) جمال الدين الشيبان: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ١٢٠ - ١٢٢.

حتى أصبحوا يتدخلون في تولية الخلفاء وعزلهم مما أدى إلى زوال الخلافة الفاطمية وسقوط الدولة بعد أن تصارعوا دون أن يشعر المصريون - الذين لم يعتبروهم غرباء عنهم - بخطرهم فقد أعلنوا حرصهم على إصلاح أمورها وتغنى شعراؤهم هذه المعاني في مديحهم^(١).

وكان الوزراء في عصر الدولة الفاطمية يتمتعون بثراء كبير، فقد كان الوزراء يتقاضون مرتبات عالية إذ بلغ راتب الوزير في الشهر خمسة آلاف دينار هذا بخلاف ما فرض لأبنائه وأخوته، وذويه فقد تراوح ما يصرف للولد ما بين ثلاثمائة إلى أربعمائة دينار مضافاً إليها الأقطاعات^(٢).

وقد خلف الكثير من الوزراء ثروات طائلة تحدثت عنها الكثير من المراجع. وتعجب مؤرخوها لحياة الثراء التي كان يعيشها هؤلاء الوزراء والهبات السخية التي كان ينفقها عليهم الخلفاء. فقد كان للوزير يعقوب بن كلس ثروة هائلة^(٣). ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام^(٤).

كما تمتع برجوان الصقلبي بمكانة عالية^(٥) في عهد العزيز وخلف ثروة هائلة تحدثت عنها الكثير من المراجع باستفاضة^(٦).

وكذلك كان بدر الجمالي من أجل وزراء الفاطميين فقد «قامت بوصوله الحرمة وأصلح الدولة وكان وزير السيف والقلم وإليه قضاء القضاة. والتقدم على البدعة،

(١) أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية، ص ١٥٤.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤٠١.

(٣) مخطوط شرح اللمعة: مجهول، ص ٥: وجمال الدين علي بن ظافر: مخطوط أخبار الدولة المنقطعة، ص ٤٥.

(٤) ابن خلكان: وفيات، ج ٧، ص ٣٣.

(٥) ابن الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٥٧.

(٦) مخطوط شرح اللمعة: مجهول، ص ٥: أبو شامة: الروضتين. ج ١، ق ٢ ص ٤٩٤: والقلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٥٦.

وساس الأمور أحسن سياسة^(١). وقد وصفه ابن كثير أنه كان «عاقلاً كريماً محباً للعلماء»^(٢) وقال عنه ابن ميسر «كان يحكم بمصر تحكم الملوك ولم يبق للمستنصر معه أمر»^(٣).

وكذلك تمتع ابنه الأفضل بمكانة عالية حتى «لم يكن للمستعلى مع الأفضل حل ولا ربط بل كان الأفضل أمير الجيوش هو الكل»^(٤) وقد مدحه الشعراء وكان عهده من أزهى العهود الأدبية وكان يغدق على الناس المنح والعطايا^(٥). وكان عادلاً كريماً ولما قتل حزنّت عليه الرعية وبكاه الناس^(٦).

وقد خلف الأفضل بعد قتله سنة ٥١٥ هـ/١١٢٢م من «الأموال ما لم يسمع قبلها»^(٧). كما ترك أربعة آلاف قطعة من البسط والستور وسبعة آلاف سرج تقدر بملايين الدنانير وأنواعاً مختلفة من الحرير المذهب وأربع حجرات ملأى بالوسائد والمنسوجات وثلاثة عشر ألف ملعقة من الذهب والفضة وستة ملايين من الدنانير وخمسة وسبعون ثوباً من الديباج وآلاف من التحف النادرة^(٨).

(١) ابن خلكان: وفيات جـ ٢، ص ٤٤٨-٤٤٩: انظر ابن الصيرفي الإشارة، ص ٩٤-٩٥: والذهبي: العبر، جـ ٢، ص ٣٥٧ والحنبلي: شذرات، جـ ٣، ص ٣٨٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٤٧-١٤٨.

(٣) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٥٢: وانظر ابن اياس: أخبار مصر، ص ٣٠.

(٤) اليافعي: مرآة الجنان، جـ ٣، ص ١٥٨: وانظر النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٢٧٤.

(٥) أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٣٠٧.

(٦) ابن القلاسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٤.

(٧) العيني: السيف المهند، ص ١٦٣.

(٨) جمال الدين علي بن ظافر: مخطوط الدول المنقطعة، ص ٧٩: علي إبراهيم حسن: عظمة الفاطميين، ص ٩٦-٩٨.

ثانياً: وظائف القصر:

وقد تعددت الوظائف المختلفة في القصور الفاطمية فبالى جانب وظيفة الوزير وجدت وظائف أخرى كان يتولاها الغلمان والخصيان الذين تربوا في القصور الفاطمية ومنحوا ثقة الخلفاء فتقلدوا تلك الوظائف^(١) والتي من أهمها:

وظيفة زمام القصور:

وهو المشرف على القصور ويقف على يمين الوزير في مجلس الخليفة^(٢) وغالباً ما يكون من الاستاذين المحنكين^(٣) وأشهرهم مؤتمن الخلافة^(٤)، كما كان يلقب بالأمير الثقة لأنه كان من شروط تولي تلك الوظيفة أن يكون من حائزي ثقة الخليفة وكان له نواب أربعة^(٥).

وظيفة متولى بيت المال:

وكان مسئولاً عن الخزانة ويقف عن يسار الوزير في مجلس الخليفة^(٦)، وذكر المقرئزي له مهمة أخرى غير الإشراف على خزائن بيت المال أنه في يوم عيد الفطر «تقدم على الرسم لفرش المصلى فيفرش الطراحات على رسمها في المحراب مطابقة ويعلق سترين يمنة ويسرة: في الأيمن البسمة والفاطحة ۞ سَبِّحَ اسْمَ رَبِّكَ

(١) انظر في ذلك المسبجى: أخبار مصر ص ٣٢، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٥، ١٩٠ وص ٢٣٥: وابن الطوير: نزهة ص ٢٨، وابن خلكان: وفيات، ج ١، ص ٢٧٠ - ٢٧١، والمقرئزي: خطط، ج ١، ص ٤٠٣، ٤١١، ٤١٢، ٤٤٨، وج ٢ ص ١٧، واتعاظ، ج ٢ ص ١٧، ١٧٢ وج ٣، ص ١٤٥، وابن تغرى بردى: النجوم، ج ٤، ص ٨٨ وسهام أبو زيد: الصقالبة، ص ١٦٧، وعطية مشرفة: نظم الحكم، ص ١٠٩. وزكى حسن: كنوز الفاطميين، ص ٢٠٩ - ٢١٢.

(٢) المقرئزي: خطط، ج ١، ص ٣٨٦.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣، ص ٤٨١، ص ٤٩٥ - ٤٩٦ وص ٥٠٠، ص ٥٠١.

(٤) المقرئزي: اتعاظ، ج ٣، ص ٣٠٧ حاشية^(٣).

(٥) المقرئزي: خطط، ج ١، ص ٤١٠.

(٦) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٣٨٦.

الْأَعْلَى ۞ وفي الأيسر مثل ذلك و ۞ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۞ (١)».

وظيفة مقدم خزانة الكسوة:

وهو الذي يتسلم ما يختص بالخليفة من كسوة وملابس «ولها رتبة عظيمة في المباشرات وهما خزانتان فالظاهرة يتولاها خاصة أكبر حواشي الخليفة أما أستاذ أو غيره وبها كل ما غلا ثمنه من الملابس الملونة رجالية ونسائية أما خزانة الكسوة الباطنية فيها ما هو خاص بلباس الخليفة نفسه» (٢).

وظيفة حامل المظلة:

وكانت لصاحبها مكانة مرموقة في القصر لقرب موقعه من الخليفة (٣) وهو الذي يتولى حمل المظلة للخليفة وكان يلقب بالأمير عظيم الدولة وسيفها (٤)، ففي وصف موكب الخليفة ذكر المقرئ أنه «إذا دخلت الدابة لركوب الخليفة وأسندت إلى الكرسي الذي يركب عليه من باب المجلس أخرجت المظلة إلى حاملها فيكشفها مما هي ملفوفة فيه غير مطوية فيتسلمها، بإعانة أربعة من الصقالبة يرسم خدمتها فيركزها في آلة حديد، متخذة شكل القرن وهو مشدود في ركاب حاملها الأيمن بقوة وتأکید، فيمسك العمود بحاجز فوق يده فيبقى وهو منتصب واقف» (٥).

ومن أشهر حاملي المظلة في العصر الفاطمي «ريدان الصقلبي» عصر الحاكم (٦) ومظفر الصقلبي الملقب ببهاء الدولة (٧)، وغالباً ما كانوا من الطواشية الصقالبة

(١) نفسه، ص ٣٨٦ ، ٤١٠.

(٢) نفسه، ص ٤١٠ ، ٤١٢.

(٣) المقرئ: خطط، ج ١، ص ٤٠٣.

(٤) المقرئ: خطط، ج ١، ص ٤٤٧ - ٤٤٨.

(٥) نفسه.

(٦) ابن خلکان: وفيات، ج ١ ص ٢٧٠.

(٧) المسبحی: أخبار، ص ١٨٠ - ١٨٥.

وخاصة في أوائل العهد الفاطمي في مصر^(١).

حامل السيف:

ويحمله أحد الأمراء العظام وكان سيفاً مصنوعاً من الصاعقة يوضع في غلاف محلى بالذهب^(٢) «ثم يخرج بالسيف فيتسلمه حامله فإذا تسلمه أرخيت ذؤابته ما دام حاملاً له»^(٣).

حامل الرمح:

وهو أمير مميز يتمتع بمكانة مرموقة^(٤).

وظيفة شد التاج:

ويتولى صاحبها شد التاج على رأس الخليفة في المواقب العظيمة وله مكانة متميزة لأنه يلمس ما يضعه الخليفة على رأسه^(٥) ويقال له شدة الوقار «وهو من الأستاذين المحنكين وله ميزة للممارسة ما يعلو تاج الخليفة. فيشدها شدة غريبة لا يعرفها سواه ثم يحضر إليه البيّمة وهي جوهرة عظيمة لا يعرف لها قيمة فتتظم هي وحواليها ما دونها من الجواهر وهي موضوعة في الحافر وهو شكل الهلال من ياقوت أحمر ليس له مثال في الدنيا فتتظم على خرقة حرير أحسن وضع ويخيطها شاد التاج بخياطة خفيفة ممكنة.. فتكون بأعلى جبهة الخليفة»^(٦).

وظيفة صاحب الرسالة:

وهو المكلف بأستدعاء الوزير من داره لحضور مجلس الخليفة فيمضى إلى

(١) Yaacov Lev Arab history and civilization' State and society v. lp*74.

(٢) المقرئزي: خطط، ج ١ ص ٤٤٨.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه ص ٣٨٦.

(٦) المقرئزي: الخطط، ج ١ ص ٤٤٧.

إستدعائه في هيئة المسرعين على حصان دهراج امتثالاً لأمر الخليفة بالإسراع على خلاف حركته المعتادة، فإذا عاد مثل بين أيدي الخليفة وأعلمه بالاستدعاء^(١).

وظيفة صاحب الدفتر:

وهو الذي يشرف على الدواوين التي تخص أمور الخلافة^(٢).

وظيفة زم الأقراب:

ولصاحبها الإشراف على ما يخص طبقة الأشراف من أقارب الخليفة^(٣).

وظيفة صاحب المجلس:

ومهمته ترتيب مجلس الخليفة في المناسبات، ويلقب بأمين الملك، ويعلن للحاضرين عن جلوس الخليفة، ويبشر إلي الأستاذين برفع الستر عن مجلسه. وفي ذلك يقول المقرئزي «فيشير صاحب المجلس إلى الأستاذين، فيرفع كل منهم جانب الستر، فيظهر الخليفة جالساً بمنصبه المذكور»^(٤).

وظيفة مقدم الشراب:

وكان أثناء مد السماط يحمل في يده إناء من الذهب بغطاء مرصع بالجواهر والياقوت به الشراب الخاص بالخليفة^(٥).

وظيفة متولى خزائن الإنفاق:

ويقف في الأحتفالات أثناء مد السماط يحمل حقيبة مملوءة بالدنانير ليوزع منها الخليفة ما يشاء على من يشاء من الحاضرين على سبيل الصدقة^(٦).

(١) نفسه، ص ٤٤٦ - ٤٤٧.

(٢) نفسه ص ٤١١.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤٤٨.

(٤) نفسه ص ٤٤٨.

(٥) نفسه ص ٣٨٦، ص ٤١٠، ص ٤٥٤.

(٦) نفسه ص ٤٥٥.

وظيفة حامل الدواة:

«إذا انتصب الخليفة على المرتبة وضع أمين الملك مقلح أحد الأستاذين المحنكين الخواص الدواة مكانها من المرتبة» فكانت تلك الوظيفة لأحد خواص الخليفة لأهميتها^(١) فقد كان صاحبها مختصاً بأمر دواة الخليفة فيقوم بوضعها على المرتبة في مجلس الخليفة ويحملها أمامه على السرج ويسير بها في المواكب الخلفية^(٢).

وظيفة حامل خزائن السروج:

وهو من الأستاذين المحنكين ويشرف على مركبات الحلى الخاصة بموكب الخليفة^(٣).

الفراشون:

ذكر المقرئ أن لهم تخصصات متنوعة، فمنهم فراش الخاص وفراشو المجلس وفراشو خزائن الكسوة وخزائن الكتب^(٤).

عرفاء الفراشين:

وهم مرتبة أدنى من الفراشين فقد خصصوا لمساعدتهم^(٥).

وظيفة مشرف خزانة الطيب:

«وكانت من الخدم الجليلة وكان بها أعلام الجوهر التي يركب بها الخليفة في الأعياد ويستدعى منها عند الحاجة ويعاد إليها عند الغنى عنها وكذلك السيف والثلاثة رماح المعزية»^(٦).

(١) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٣٨٦، ٤٤٨.

(٢) نفسه ص ٣٨٦.

(٣) نفسه، ص ٣٨٦، ٤٤٨.

(٤) نفسه، ص ٤١١، ٤٤٨.

(٥) نفسه ص ٤١١، ٤٤٨.

(٦) نفسه، ص ٤٤٨.

الأجناد أو أرباب السيوف:

وينقسمون إلى عدة تخصصات، ودرجاتهم العسكرية متفاوتة، ولكن لهم جميعاً مرتبات محددة تصرف من الدولة، ويشرف على شئونهم عدة دواوين، فديوان الجيش كان عمله تنظيم الأجناد وصرف ما يحتاجونه من العتاد والخيول وتسجيل أسمائهم^(١).

وكانت تختلف مسمياتهم حسب وظائفهم، فمنهم (صاحب الباب) وهي أعظم وظائف أرباب السيوف وكان يطلق على صاحبها «المعظم»^(٢) وكذلك الأسفهلار^(٣) وقد وصفه المقرئزي «أنه زمام كل زمام وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم»^(٤). وهذا يعنى أنه صاحب مركز مرموق^(٥) وقد تنوعت وظائف الأمراء في الجيش بعد ذلك يجمعهم رعاية الخلفاء لهم وإغداق الأموال والهدايا عليهم»^(٦).

الكتاب وأرباب الأقلام:

وهؤلاء هم الذين يعملون في دواوين الدولة المختلفة وكان على رأسهم صاحب ديوان الإنشاء الذى غالباً ما كان من كبار رجال العلم والأدب البارعين في فن اللغة والبلاغة وكان دائماً موضع ثقة الخلفاء وكان يجلس على مرتبة عظيمة بالمخاد والمسند^(٧).

(١) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى ص ٤٢.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ١ ص ٤٠٣.

(٣) وهو اصطلاح عسكرى مركب من كلمتين أسفه وتعنى مقدم وهي كلمة فارسية وسلار وتعنى عسكر وهي كلمة تركية معناها مقدم العسكر - انظر القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣، ص ٤٧٩.

(٤) المقرئزي: خطط، ج ١، ص ٤٠٣.

(٥) نفسه، ص ٤٤٢.

(٦) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص ٤٥ - ٤٦.

(٧) القلقشندي - صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٨٦.

وقد تعددت أنواع الدواوين في الدولة الفاطمية وكان لكل منها كاتب يتمتع بمكانة مرموقة يعاونه مجموعة من الحجاب والكتاب وجميعهم تصرف لهم المرتبات والمنح^(١).

أرباب الوظائف الدينية:

كان لرجال الدين في ذلك العصر أهمية كبيرة ونوع من الإجلال والوقار، وكان يطلق عليهم لقب (أرباب العمائم) والتي كانوا يلبسونها وكانت كبيرة الحجم ليميزوا بها عن غيرها من الطوائف الأخرى، ومنهم القضاة والدعاة والشهود العدول وقراء الحضر والخطباء والقراء والمؤذنون في الجوامع^(٢). وكان على قائمتهم قاضى القضاة وكانت وظيفته من أجل الوظائف الدينية وأرفعها شأنًا^(٣). وكان الخلفاء غالباً ما يمنحون هؤلاء القضاة مرتبات كبيرة حتى لا يطمعون في أموال الناس، فقد ذكر ناصر خسرو أن قاضى القضاة يتقاضى «ألفى دينار مغربى في الشهر ومرتب كل قاضى على قدر مرتبته وذلك حتى لا يطمع القضاة في أموال الناس أو يظلمونهم»^(٤).

وكان قاضى القضاة يتمتع بمكانة رفيعة في البلاط الفاطمي فقد كان يتقدم ركب الخليفة في الاحتفالات إلى جانب الوزير وكبار رجال الدولة^(٥) وكان مجلسه في المسجد الجامع^(٦).

(١) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى ص ٤٨.

(٢) نفسه ص ٥١.

(٣) المقرئى: الخطط، جـ' ص ٤٠٣.

(٤) ناصر خسرو: سفر نامه ص ١٢٥.

(٥) ناصر خسرو: سفر نامه ص ١١٢.

(٦) نفسه ص ١١٨.

ومن الوظائف الدينية أيضاً داعى الدعاة، وهو أقل رتبة من قاضى القضاة وأحياناً كان يتولاهما قاضى القضاة إلى جانب وظيفته، وكان من شروطها أن يكون ملماً بأصول المذهب الشيعى، ويعمل بين يديه اثنا عشر نقيباً، وله نواب في كل الأقاليم، ثم قراء الحضرة الذين يقرأون القرآن في مجلس الخليفة ومؤذنى الجوامع^(١).

وتأتى وظيفة المحتسب ولا يعين بها إلا أشخاص اشتهروا بالعدل^(٢)، وكان عليه مراقبة الأسواق والأخلاق العامة ومراقبة الموازين والمكاييل^(٣).

أما وكيل أعمال الخليفة فهو الذى يشرف على ممتلكات الخليفة وينوب عنه في التصرف في أملاكه سواء بالبيع أو بالشراء وعق العقيد وتزويج الإماماء^(٤).

ثم تأتى وظيفة النائب، أى نائب صاحب الباب، وتعرف بالنيابة الشريفة ويتولاهما أحد كبار الأعيان ومهمته استقبال الرسل القادمين على الخليفة وبصطحبهم مع صاحب الباب لاستقبال الخليفة^(٥).

الحرفيون وأرباب الصنائع بالقصر:

فقد تعددت أنواعهم، فمنهم الخياطون والرفاؤون^(٦) وكانوا يحظون في عهد المعز بكل عناية، فقد خصص لهم حجر للإقامة في القصر الفاطمى^(٧).

كما وجد الأطباء فكان للخليفة أكثر من طبيب خاص إلى جانب الأطباء

(١) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص ٥٥.

(٢) المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٤٦٣.

(٣) نفسه، ص ٤٦٣ - ٤٦٤.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٨٣-٤٨٤.

(٥) نفسه، ص ٥٢٢.

(٦) المقرئى: خطط، ج ١، ص ٣٩٩.

(٧) نفسه، ص ٤٤٣.

المخصصين لأهل القصر والذين ذكرهم المقرئزي ضمن موظفي القصر الذين يمنحون الخلع من خزانة الكسوات، فقد ذكر من الأطباء الشديد أبو الحسن على بن أبي الشديد، أبو الفضل النسطوري وقد خلع على كل منهم ببدة حريرية وذلك في سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م في عهد الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمي^(١).

من ذلك يتضح لنا أن طبقة الخاصة والتي كانت تسكن القاهرة وبعضها كان يسكن داخل قصر الخلافة نفسه قد تمتعت بهبات وعطايا الخلفاء حتى يحتفظون بولائهم للخلافة وإخلاصهم لها.

ثانياً : طبقة العامة :

وهم عامة الشعب الذين يزاولون المهن الحرة. أصحاب الدخل المتواضع وكانوا يقيمون في الفسطة التي كانت مقرهم الرئيسي ورغم أن هؤلاء العامة كانوا يمثلون الغالبية العظمى من السكان فقد كان لهم دور مميز في الكثير من الأحداث. ومن هؤلاء التجار وأصحاب الصناعات والحرف والعوام من الفقراء وأهل الذمة ثم العبيد.

أولاً: التجار:

كانت التجارة من أهم الأنشطة في الحياة الاجتماعية في مصر في تلك الفترة. وكان يتمتع كبار التجار بمكانة مرموقة في ذلك العصر فيدعوهم الخليفة لحضور الاحتفالات وللتهنئة بالأعياد أسوة بكبار رجال الدولة^(٢).

وكان التجار يتعاملون بالبيع والشراء في كل أنحاء مصر، فيذكر ناصر خسرو أنهم كانوا يتبادلون السلع مع ولاية النوبة يبيعون لسكانها الخرز والأمشاط والمرجان ويجلبون منها الرقيق^(٣).

وكان التجار في مصر يتصفون بالصدق والأمانة، ومن يكذب منهم أو يغش

(١) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤١١.

(٢) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٧٤ - ٧٥.

(٣) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ٩٦.

يتعرض للتشهير بوضعه على جمل ويطاف به في المدينة ويبيده جرس يدقه وينادى «قد كذبت وها أنا أعاقب وكل من يقول الكذب فجزاءه العقاب»^(١).

وكانت توزع عليهم الأوعية اللازمة لما يبيعون سواء كانوا بقالين أو عطارين أو بائعي خردوات. وكانت مصنوعة من الزجاج أو الخزف أو الورق تخفيفاً على المشتري^(٢)، وكان التجار من الجوهرين والصيارف والصاغة البزازين أثناء مرور موكب الخليفة في الأعياد يزينون الطريق «بما تقتضيه تجارة كل منهم ومعاشه لطلب البركة بنظر الخليفة»^(٣).

وكان التجار يتمتعون بالثراء «فكانت دكاكين البزازين والصرافين وغيرهم مملوءة بالذهب والجواهر والنقد والأمتعة المختلفة والملابس المذهبة والمقصبة بحيث لا يوجد فيها متسع لمن يريد أن يجلس»^(٤).

وقد بلغ من ثرائهم أنهم كثيراً ما كانوا يقرضون الدولة وقت المجاعة أو القحط أو نقص النيل مثلما حدث في عهد المستنصر، فقد أقرض أحد التجار الأغنياء النصارى الدولة من الغلة ما أمكن به «إطعام أهل مصر الخبز ست سنوات»^(٥).

وقد تمتعت مصر في هذه الفترة بالأمن حتى أن البزازين وتجار الجواهر والصيارفة كانوا يسدلون الستائر على دكاكينهم ولا يغلقون أبوابها^(٦).

وكان التجار يرتدون الملابس الواسعة والعمائم المدورة ويضعون على أكتافهم الطيالس الطويلة وكانوا لا يستخدمون الخيول في تنقلاتهم حيث كان ركوبها مقصوراً

(١) نفسه، ص ١٢٠.

(٢) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٢٠.

(٣) المقرئزي: خطط، ج ١، ص ٤٤٥.

(٤) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٢٠.

(٥) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٢١.

(٦) نفسه، ص ١٢٤.

على الجند والعسكر والعلماء بل كانوا يركبون الحمر وعليها «برادع مزينة»^(١).

أرباب الصناعات والحرف:

وكانوا يعدون ضمن طبقة العامة وتشتمل على الصناعات بمختلف صناعاتهم فقد كانت هناك مدن بأكملها في مصر تشتهر بصناعات ذات شهرة عالمية مثل مدينة تنيس^(٢) التي اشتهرت بنسج القصب الملون من عمامات وما ترتديه النساء ولا ينسج في أي جهة غيرها «حتى أن ملك فارس أرسل رسله إلى تنيس بعشرين ألف دينار ليشتروا له حلة من كسوة السلطان، وقد بقي رسله هناك عدة سنين ولم يستطيعوا شراءها»^(٣).

والأبيض منه كانت تشتهر بنسجه مدينة دمياط وقد نسج عامل عمامة السلطان فكان أجره خمسمائة دينار ذهب مغربي قيل إنها تساوي أربعة آلاف دينار^(٤).

كما تشتهر تنيس بإنتاج قماش البوقلمون وهو نوع من الأقمشة يتغير لونه بتغير ساعات النهار^(٥).

ووصف صناعات تنيس أنهم يعملون برضاهم للسلطان، ولا يسخرون كما في البلاد الأخرى ويضعون أستار هودج الجمال ولبود سروج الخيل الخاصة بالسلطان من البوقلمون كما تصنع بها آلات الحديد كالمقارض والسكاكين^(٦).

كما اشتهرت بمصر صناعة الفخار بكل أنواعه وهو شفاف بحيث تظهر اليد إذا

(١) المقرئزي: خطط، ج ١، ص ١٢١.

(٢) تنيس من أجمل المدن وتقع بالقرب من دمياط للمزيد عنها أنظر ناصر خسرو: سفرنامه، ص ٩٢ حاشية ١.

(٣) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ٩٢.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه.

(٦) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ٩٢.

وضعت عليه من الخارج فتظهر من الداخل وتصنع منه الكؤوس والأقداح والأطباق ويتم تلوينه بكل الألوان^(١).

وانتشرت الأسواق في كل أنحاء مصر وكان كل سوق متخصصاً في صناعة معينة^(٢).

العوام:

وهم طبقة كان الخلفاء ينفقون عليها بسخاء لجذبهم إلى المذهب الشيعي وترك المذهب السني وكانت توزع عليهم الصدقات في المناسبات والأعياد، أو عند خروج الخلفاء للنزهة، فيتصدق الخليفة على الفقراء والمحتاجين على امتداد طريق سيره من قصره حتى المكان الذي يذهب إليه للنزهة وكذلك في العودة^(٣).

وأول من سلك تلك السياسة جوهر الصقلي عند دخوله مصر، وكانت تعاني من القحط، ووزع على الفقراء والمحتاجين الصدقات^(٤).

وسلك الخلفاء الفاطميون نفس السياسة وحرصوا على القيام بأعمال البر والخير خاصة في المناسبات فيذكر المقرئزي أنه كان يقام سماط في شهر رمضان بالقصر يحضره القاضي والأمراء والوزير والأستاذين و«يصل منه شيء إلى أهل القاهرة من بعض الناس لبعض ويأخذ الرجل الواحد ما يكفي جماعة»^(٥). وكذلك سماط عيد الفطر^(٦).

و«كان لهم في كل من فصلى الشتاء والصيف كسوة تفرق على أهل الدولة وعلى أولادهم ونسائهم»^(٧).

(١) نفسه ص ١١٩.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٣٧٣ - ٣٧٥.

(٣) نفسه، ص ٤٨١ - ٤٨٤.

(٤) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ٢٠٤.

(٥) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٣٨٦.

(٦) نفسه، ص ٣٨٤.

(٧) نفسه، ص ٤٩٢.

وفي الأعياد المختلفة كعيد الغدير مثلاً يذكر المقرئزي أنه «صار موسماً يرصده كل أحد ويرتقبه كل غنى وفقير»^(١).

وذكر المقرئزي أنه في احتفال رأس السنة الهجرية كان صبيان الخاص يخرجون في الموكب الاحتفالي حاملين أكياساً تحوى أموال الصدقة ليوزعها الخلفاء على الفقراء أثناء مرور الموكب^(٢).

كما كانت توزع الصدقات أثناء مرور موكب الخليفة لصلاة الجمعة^(٣). وفي عهد الحافظ في سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م «هاجر إلى باب الأجل يعنى الوزير المأمون البطائحي الضعفاء والمساكين من البلاد ومن انضم إليهم من العوالى والأدوان على عاداتهم في طلب الحلال وتزويج الأيامي» فقد كان الخلفاء في ذلك العيد يكثرون من أعمال البر ومن الذبائح ومن عتق الرقاب^(٤).

وفي سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م أى في عهد الخليفة الأمر ذكر المقرئزي أنه في موسم أول العام خرج الخليفة من باب الفتوح «والعساكر فارسها وراجلها بتجملها وزياها، وأبواب حارات العبيد معلقة بالسستور، ودخل من باب النصر، والصدقات تعم المساكين والرسوم تفرق على المستقرين»^(٥).

(١) عيد الغدير يحتفل به الشيعة في اليوم الثامن عشر من ذى الحجة ويوافق ذكرى "نزل الرسول عليه الصلاة والسلام أثناء سفره بغدير خم ونودي الصلاة جامعة وصلى الظهر بالناس وأخذ على حد قول الشيعة بيد على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال "الستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم" قالوا بلى فقال من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه " وغدير خم على ثلاثة أميال من الحجة بسرة الطريق وتصب فيه عين وحولته شجر كثير.

المقرئزي: خطط، ج ١، ص ٣٨٨.

(٢) المقرئزي: خطط، ج ٢، ص ٢٨١.

(٣) نفسه، ج ١، ص ٤٩٤.

(٤) المقرئزي: خطط، ج ١، ص ٣٨٨.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٤٥.

وبرغم ذلك كان هؤلاء يعيشون عيشة قحط ولم تكن تكفل لهم تلك الهبات حياة كريمة مستمرة وكثيراً ما كان هؤلاء يعرضون شكواهم على الخلفاء مطالبين بأرزاقهم أو رفع الظلم عنهم وكان بعض الخلفاء يقتربون من الناس ويتعاطفون مع مشاكلهم، ويعملون على إيجاد حلول لها، وكان الخليفة العزيز يقرأ مظالم الناس أثناء سيره في الموكب^(١).

وكثيراً ما كان العوام يواجهون الخلفاء بأخطائهم عندما يتضجرون مما وصل إليه حالهم من الفقر والجوع وكثيراً ما كان ذلك يثير حنق هؤلاء الخلفاء عليهم ومن ذلك ما فعله العامة عند مرور موكب الحاكم سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م. فقد وضعوا في طريقه «صورة امرأة عملت من قراطيس وفي يدها جريدة عليها ورقة فيها سب للحاكم وأسلافه بقبيح الفعال»^(٢).

فقد استثاروا الحاكم فأمر العبيد بنهب مصر وحرق بعض دورها وفرق عليهم السلاح فتبادروا إليها ونفذوا أوامره فكانت وقعة عظيمة^(٣).

وكانت العوام في مصر تمجد الخلفاء لدرجة السجود والدعاء لهم عند الأقتراب منهم في الموكب كما كانوا كثيراً ما يستمتعون بالفرجة على المواكب في الاحتفالات والأعياد^(٤).

وكان الخلفاء يقيمون المآدب في الأعياد وتنصب مائدة العوام في إحدى سرايات القصر الفاطمي^(٥).

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٠ م.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٩٣، ابن تغري بردي: النجوم، ج ٤، ص ١٨١، وعنان: الحاكم بأمر الله، ص ١١٩ - ١٢٠.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٩٣. ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٩، ١٠.

(٤) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١١٢ - ١١٣.

(٥) المصدر السابق، ص ١١٢.

وكان العوام يمثلون قوة هامة في المجتمع حيث كان يلجأ إليهم الخلفاء والقواد طمعاً في معاونتهم ضد أعدائهم. ومن أمثلة ذلك عندما ما نشب الصراع بين جند الترك والمغاربة في عهد الظاهر سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م تغلب الأتراك أولاً ولكن وبمساعدة العوام لجند المغاربة تمكنوا من قتل الكثير من الأتراك، فقد كان المغاربة أكثر قرباً للمصريين من جند الأتراك، فقد تعايشوا معهم وامتزجوا بهم منذ فتح الفاطميين لمصر (١).

كما كان هؤلاء العوام يتصدون للبيد عند خروجهم لنهب البلاد أيام الشدة مثلاً. حدث في عهد الظاهر سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م عندما هاجموا منازل أهل الساحل ونهبوها. فقد استبد بهم الجوع حتى أكلوا الكلاب «فخرج إليهم عامة المصريون بالسلاح وحاربهم الرجال والنساء من أعلى المنازل بالحجارة والطوب والجرار. وخرج إليهم العتالون والنفاطون فهزموهم» (٢).

أهل الذمة:

وهم النصارى واليهود، فقد شعر الخلفاء الفاطميون بحاجتهم الشديدة إلى معاونة أهل الذمة لهم حيث إنهم جاءوا إلى مصر بمذهب شيعي مخالف للمذهب السني الذي اعتنقه المصريون أنصار الخلافة العباسية فقام الخلفاء الفاطميون بتقريب أهل الذمة وتسامحوا معهم وعينوهم في أرقى المناصب (٣).

وقد دفع طمع الكثير منهم في الحصول على الهبات والمنح والمناصب إلى اعتناق المذهب الشيعي وقد تقلد البعض منهم الوزارة. وكانوا طبقة مستقلة في ذلك

(١) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٨٤.

(٢) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص ٨٦.

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج ٣، ص ٤٣٥.

المجتمع، فقد تميزت حياتهم بالخصوصية وكانت لهم أعياد دينية ومناسبات اجتماعية خاصة بهم، فقد كان التعصب الديني بين الأديان المختلفة سمة من سمات العصور الوسطى، كما كان هناك أيضاً تعصب في المذاهب بين أصحاب العقيدة الواحدة^(١)، ويبدو أن القبط كانوا يعتقدون أن لهم الأولوية في اعتلاء المناصب الإدارية فتكثروا وساندوا بعضهم البعض وتماسكوا، وأعطاهم النظام الإداري في مصر الكثير من المزايا فلم يستطيعوا إخفاء شعورهم تجاه المسلمين^(٢).

وعندما وصل المعز إلى مصر اتبع سياسة التسامح مع أهل الذمة والتي بدأها جوهر فقد استأذنه أفرهام السرياني البطريرك الثاني والستون في بناء كنيسة أبي مرقورة في القسطنطينية، وكذلك الكنيسة المعلقة بقصر الشمع، فكتب له سجلاً من ذلك وأطلق له من بيت المال ما يستلزمه عمارتها وعندما حاول المسلمون منعهم جاء المعز وأشرف بنفسه على بناء الكنيستين وأمر ببناء كل ما تحتاجه الكنائس من عمارتها^(٣).

وقد استخدم الخلفاء الفاطميون الكثير من الأطباء اليهود، وأصبحوا ذوي شأن في البلاط الفاطمي أمثال موسى بن العازار اليهودي^(٤) (بلطيل بن شفتيا) الذي بلغ شأنًا كبيراً أنه بعد وفاة المعز «خرج القائد جوهر وموسى بن العازار الطبيب بالعزير فأجلسوه وخرج إليه اخوته وعمومته وسائر أهله فبايعوه»^(٥) مما يوضح المكانة التي وصل إليها ذلك الطبيب في القصر الفاطمي.

وكان يخلع على الطبيب عند تعيينه ويخرج في موكب مثلما خرج منصور بن مقشّر النصراني طبيب العزيز في موكب فخم إلى الكنيسة وحوله الشموع الموكبية والتي يصل وزن الواحدة منها أكثر من قنطار^(٦).

(١) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٩٥.

(٢) O.Leary: Ashort history of the Khalifate (London 1923.p.114)

(٣) ساويرس بن المقفع: تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية، ج ٢، ق ٢، ص ٩٦ - ٩٧.

(٤) المقرئزي: اتعاظ، ج ١، ص ٢٢٨.

(٥) نفسه.

(٦) نفسه، ص ٢٨١.

أما عن علاقة أهل الذمة بالدواوين والنظم الإدارية، فقد كان كتاب الدواوين وموظفى الخراج من أهل الذمة فقد أثر جوهر تركهم في مناصبهم حتى لا يحدث خلل في الأجهزة الإدارية للدولة وحتى تستقيم له الأمور ويتعرف جيداً على تلك الأنظمة ، حيث كانت أكثر تعقيداً وتحضراً عما كانت عليه في أفريقية^(١). ولكن بعد أن استقرت له الأمور «لم يدع عملاً إلا جعل فيه مغرباً شريكاً لمن فيه»^(٢) فقد أشرك «المغاربة والمصريين فجعل في كل ديوان مغربياً ومصرياً»^(٣).

وقد اتسمت سياسة المعز بالتسامح مع أهل الذمة وولاهم المناصب الإدارية. وكان أشهرهم على الإطلاق يعقوب بن كلس الذى تدرج في المناصب حتى اعتلى منصب الوزارة أيام العزيز وكان كثيراً ما يحابى أهل دينه و«أذل كتابه وقهرهم وقدم الأتراك وعزل القائد جوهر عن الوزارة وكان العزيز يستشيرهم في الباطن»^(٤).

وقد أظهر العزيز سياسة التسامح مع أهل الذمة حتى اعتلوا في عهده أرقى المناصب وأطلق لهم حرية بناء وتجديد الكنائس غير مبال بمشاعر المسلمين. فقد كانت إحدى الكنائس قد تهدمت وتحولت إلى مخزن للقصب لأحد تجار المسلمين. فأمر العزيز بإعادة بنائها من أموال الدولة ولما احتج المسلمون وحاولوا التجمهر ومنع بنائها أرسل العزيز «جماعة من جنده ومماليكه أن يخرجوا يقفوا على عمارة البيعة وأى من يعرض لهم في ذلك يردعوه ويقابلوه بما يستحقه»^(٥).

وقد وطد العزيز علاقته بالنصارى بعد أن تزوج منهم وكانت زوجته جارية مسيحية رومية تسلطت عليه واستطاعت تولية أخويها المناصب الكنيسية الهامة فكان أحدهما بطريركا على بيت المقدس ٣٧٥هـ/٩٨٥م وتولى الثانى مطراناً على

(١) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص ٧٧.

(٢) المقرئى: اتعاظ، ج ١، ص ١١٩.

(٣) بيبس الدوادار: مخطوط، زبدة الفكرة، ص ٢٠٤.

(٤) المقرئى: اتعاظ ج ١، ص ٢٢٨.

(٥) أبى صالح الأرمنى: تاريخه، ص ٤٥ - ٤٦.

القاهرة ومصر ثم بطريقاً للملكاتيين بالأسكندرية^(١).

وكان لها تأثير بالغ في سياسته المتسامحة مع المسيحيين حتى أنه شاركهم في أعيادهم الدينية^(٢).

وعندما توفي يعقوب بن كلس أسند العزيز تولى الدواوين إلى عيسى بن نسطورس النصراني ٣٨٤هـ/٩٩٤م بإيعاز من زوجته، فمال النصارى وقلدهم أهم وظائف الدواوين، واستناب العزيز على الشام منشأ ابن إبراهيم القزاز مما مكن لأهل الذمة واستثار مشاعر المسلمين السنيين^(٣) حتى أن أهل الفسطاط جعلوا امرأة تعترض ركب العزيز وتقدم له ورقة فيها «بالذي أعز اليهود بمنشأ والنصارى بابن نسطورس وأذل المسلمين بك إلا نظرت في أمري؟»^(٤).

فتألم الخليفة و«عاد إلى قصره منقسم الفكر»^(٥) وقبض عليهما وصادر أموال ابن نسطورس التي بلغت ثلاثمائة ألف دينار^(٦) وأموال سائر اليهود والنصارى في مصر والشام ورد وظائف الدواوين التي كان يشغلها أهل الذمة إلى الكتاب المسلمين^(٧) ولكن حدث أن تحالفت زوجة العزيز النصرانية عليه ليرجع عن قراره وكذلك ابنته منها ست الملك^(٨) فعفا عنه العزيز وأعادته إلى مناصبه بعد أن شرط عليه أن يولى المسلمين في الدواوين^(٩).

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي: ص ١٤٤، ١٤٥، ساويرس بن المقفع: تاريخ بطارقة الأسكندرية، ج ٢، ق ٢، ص ١١٢.

(٢) جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية، ص ٨٦.

(٣) ابن القلاسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٣. المقرئ: اتعاط، ج ١، ص ٢٩٧.

(٤) جمال الدين على بن ظافر: مخطوط أخبار الدول المنقطعة. ص ٥٤.

(٥) نفسه ص ٥٥.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ١٩٦.

(٧) جمال الدين على بن ظافر: مخطوط أخبار الدول المنقطعة. ص ٥٥.

(٨) نفسه ص ٥٥.

(٩) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، ص ١٨٠.

ولما مات العزيز بويق ابنه المنصور أبو على الحاكم بأمر الله بعهد من أبيه وتولى الخلافة وعمره إحدى عشرة سنة^(١).

ففتحت عيناه على قصر «يموج بالكثير من العناصر والأديان فأمره مسيحية وزوجة أبيه أم أخته ست الملك مسيحية كذلك وبالقصر عناصر يهودية وشيعية وسنية ولا دينية محايدة ولا دينية هدامة متطرفة. والقصر صورة مما في المجتمع الفاطمي من اتجاهات وأديان ومذاهب»^(٢).

وكان للحاكم كاتب نصراني يدعى فهد النصراني استدعاه عندما غضب عليه المصريون بعد قتله برجوان الخادم «ووشحه بحله ملكية ترطيباً لقلوب الأهالي وقال له: كن مطمئناً وتول توزيع أرزاق الدولة»^(٣) ويبدو أنه فعل ذلك لكي يكسب أهل الذمة إلى جانبه بعد قتله برجوان.

وتميز عصر الحاكم باضطهاد لأهل الذمة ، فقد أمرهم بلبس الغيار ومنعهم من دخول حمامات المسلمين وقام بهدم كنائسهم ومحلاتهم وخيرهم بين اعتناق الإسلام أو الخروج إلى بلاد الروم. فاضطرت الغالبية منهم إلى اعتناق الإسلام عن كره^(٤).

وأمر الحاكم سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٣م بهدم جميع الكنائس الموجودة في مصر ووهب كل ما فيها إلى جماعة من الصقالبة والفراشين والسعدية^(٥) وأحرق حارة

(١) أبو الفداء: المختصر، جـ ٢، ص ١٣١، ابن الوردي: تاريخه، ص ٤٣٤.

(٢) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ، جـ ٥، ص ١١٧.

(٣) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٧٤.

(٤) ساويرس: تاريخ البطارقة، جـ ٢ ق ٢، ص ١٢٥-١٢٦-١٣٣، ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٦، ص ٢٩٨: المقرئزي: اتعاط، جـ ٢، ص ٤٨، ٥٣، ٧٥، ٩٣ وص ص ٩٥-١٠٠ وخطط، جـ ٢، ص ٢٨٧، ٤٩٥.

(٥) المقرئزي: اتعاط، جـ ٢، ص ٩٤ وخطط، جـ ٢، ص ٤٩٥.

الجودرية الخاصة بسكن اليهود على أهلها لأنهم كانوا يسخرون من المسلمين^(١).

وقد ولى في سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م فهد بن إبراهيم النصراني الوساطة بعد قتل برجوان^(٢) ثم ولى منصور بن عبدون النصراني الوزارة ويذكر كل من الأنطاكي والمقريري أن هذا الوزير هو الذي أشار على الحاكم بهدم كنيسة القيامة في القدس^(٣).

ثم ولى الوساطة سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م الكاتب أبو الخير زرعة بن عيسى بن نسطورس^(٤) ثم ولى صاعد بن عيسى بن نسطورس الوزارة سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م^(٥).

كما منع النصارى من الاحتفال بأعيادهم على شاطئ النيل، وحرم الألعاب الخاصة بهم في هذا اليوم على ضفاف النيل والخليج وألغى الأحباس المرصودة على الكنائس والأديرة وضمت إلى الديوان، وأدت تلك السياسة مع الذميين إلى دخول غالبيتهم في الإسلام. وكذلك الكثير من النصارى.

وفي الوقت نفسه هاجر الكثير إلى الدولة الرومانية الشرقية والحبشة والنوبة. ولم يمنعهم الحاكم وسمح لهم بحمل أموالهم معهم^(٦). وحرم الحاكم على أهل الذمة ركوب الخيل واستخدام المسلمين في أعمالهم ودورهم ومنعهم من شراء العبيد والإماء^(٧).

ويبدو أن أهل الذمة قد أستاءوا من تلك القرارات وذلك الأضطهاد فكانوا

(١) المقريري: خطط، ج ٢، ص ٤٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦.

(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، ص ١٩٤. والمقريري: خطط، ص ٢٨٦.

(٤) المقريري: اتعاظ، ج ٢، ص ٨٥.

(٥) نفسه، ص ١١٤.

(٦) جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية، ص ٨٨.

(٧) المقريري: اتعاظ، ج ٢، ص ٥٣ وخطط: ج ٢، ص ٢٨٦-٢٨٧.

يقومون بأعمال العنف والتخريب في أماكن المسلمين، فيذكر المقريري أنه في سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م «تزايد وقوع النار وكثر الحرق في الأماكن فأمر الناس باتخاذ القناديل على الحوائيت.. وأزيار الماء مملوءة ماء.. وعظم الحريق ووقعت في أمره شناعات من القول فقرئ سجل في الجوامع بزجر السفهاء والكف عن أحوال تفعل وأن يدخل الناس إلى دورهم من بعد صلاة العشاء. فأغلقت الدور والحوائيت والدروب من بعد صلاة المغرب»^(١).

وقد استخدم الحاكم الأطباء من اليهود والنصارى أمثال أبو الفتح منصور بن مقشر النصراني ويعقوب بن نسطاس النصراني وصقر اليهودي^(٢).

ثم عدل الحاكم سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م عن سياسته في اضطهاد أهل الذمة فأطلق حرية الشعائر للنصارى واليهود ورد كل ماسلب من أوقاف الكنائس والأديرة وسمح لهم بتجديد كنائسهم ومنحهم أماناً يحمل هذا المعنى^(٣) وكان عند خروجه للصيد يقيم في دير يسمى دير شهران كان به قصر الحاكم^(٤).

وبعد اعتلاء الظاهر عرش الخلافة كانت عمته ست الملك تجمع مقاليد الأمور في يدها فبادرت إلى إلغاء قرارات أخيها الحاكم ضد أهل الذمة، وأعادت إليهم الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها من قبل^(٥) وأعيد بناء الكنائس والأديرة. وعقد الظاهر اتفاقية مع بيزنطة بإعادة فتح جامع القسطنطينية مقابل إعادة كنيسة القيامة^(٦)، فقد حاول منذ اعتلائه عرش الخلافة أن يتقرب من أهل الذمة، وأصدر بياناً حررهم فيه في عقائدهم وشعائهم وخيرهم في دخول الإسلام أو البقاء على

(١) نفسه، ص ١٠٥. خطط، ج ٢، ص ١٠٨.

(٢) نفسه.

(٣) انظر نص الأمان في تاريخ الأنطاكي، ج ٢، ص ٢٣٢.

(٤) أبي صالح الأرمني: تاريخه، ص ٦٠.

(٥) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، ص ٢٣٧ وما بعدها.

(٦) نفسه، ص ٢٧٠ - ٢٧١، المقريري: اتعاظ، ج ٢، ص ١٧٦.

دينهم دون التظاهر بدخول الإسلام^(١).

ومن مظاهر التسامح مع أهل الذمة أن الخليفة الظاهر كان يشاركهم الأحتفالات بأعيادهم مثل عيد الغطاس وكان ينزل فيه الخليفة إلى قصر جده الإمام العزيز على البحر لنظر الغطاس^(٢).

وتميز عهد المستنصر بالاعتدال في معاملة الذميين، فقد كانت أمه جارية عند أبي سعد التستري اليهودي قبل أن يأخذها الظاهر ويتزوجها، فولدت له المستنصر^(٣) ولما تولى ابنها الخلافة عظم شأن أبي سعد هذا وتولى كل ما يخص السيدة الوالدة. وأصبح ينظر في كل أمور الدولة^(٤) وقد كره المسلمون نفوذ هذا اليهودي لأنه رفع من شأن اليهود الذين أساءوا بدورهم معاملة المسلمين^(٥).

وقد تمتع بعض النصارى في عهده بالثراء الفاحش حتى أن أحدهم أقرض الدولة من الغلة الكثير لإطعام أهل مصر حين نقص النيل واشتد الغلاء^(٦).

كما تمتع اليهود بالثراء وكانوا يتاجرون بالجواهر وكان أحدهم يحتفظ على سقف داره بثلاثمائة جرة من الفضة زرع في كل منها شجرة كأنها حديقة^(٧).

وفي عهد المستنصر تولى بدر الجمالى الوزارة وقد عمل هذا الوزير كل ما يمكن عمله لرعاية أهل الذمة حتى أن عصره شهد نوعاً من التسامح وهدوءاً

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخ، ص ٢٣٥. ساويرس: تاريخ البطارقة، ق ٢، ج ٢، ص ١٣٥. وأبو صالح الأرمني: تاريخه، ص ٦٠. المقرئ: خطط، ج ١، ص ٣٥٥. واتعاط، ج ٢، ص ١٧٦.

(٢) المسبحي: أخبار مصر، ص ١٩٠.

(٣) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٣.

(٤) ابن الصيرفي: الأشارة إلى من نال الوزارة، ص ٧١-٧٢.

(٥) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ج ٢، ص ٧-٥.

(٦) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٢١.

(٧) نفسه، ص ١٢٤.

ملحوظاً في معاملة أهل الذمة وبنيت الأديرة فتم بناء ديران لطائفتين مختلفتين هما الأرمن والأحباش ويبدو أنهما كانتا ضمن القلاى الملحقة بدير القديس يسونس القصير^(١) وفي عهد ابنه الأفضل استخدم أهل الذمة في الأعمال الإدارية مما أدى إلى ازدياد شكاية أهل مصر سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م للمستنصر من تسلط وتعالى أهل الذمة وإساءة معاملتهم للمسلمين، فأصدر أوامره بإلزامهم بلبس الملابس المميزة لهم (الغيار والزنانير) و«تعليق الدراهم الرصاص في أعناقهم مكتوب على الدراهم «ذمي» وأن تجعل هذه الدراهم أيضاً في أعناق نسائهم في الحمامات ليعرفن بها وأن يلبسن الخفاف فرداً أسود وفرداً أحمر وجلجلاً في أرجلهن»^(٢).

كما اتسمت سياسة الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤هـ/١١٠١ - ١١٣٠م) مع أهل الذمة بالتسامح وظهر منهم الراهب أبو نجاح بن قنا الذي تولى رئاسة الدواوين سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م وقد أساء إلى الناس واستولى على أموالهم الكبير منهم والصغير حتى أنه «صادر رجلاً حملاً فأخذ له عشرين ديناراً»^(٣) وخلف ثروة طائلة عند وفاته^(٤).

وكثيراً ما كان يتقرب الأمر من رهبان النصارى ويزورهم وخاصة في دير «نهبيا بالجيزة» وقد كان يبيت فيه في بعض الأوقات وينزل أحياناً في ضيافة الرهبان ويطلق لهم الهبات والعطايا في كل مرة حوالى ألف دينار^(٥) وأجاب طلبهم في منحهم

(١) عاطف مرقص بطرس: الأرمن وعلاقتهم بالبيزنطيين، ص ٢٤٠. وفي عهد بدر الجمالى وجدت مخطوطتان بلغة أرمنية وبعض أجزاء من الانجيل مقسمة إلى خمسة اعمدة كل عمود بلغة مختلفة وتتصدر اللغة الأرمنية أولى هذه اللغات ثم تليها اللغة العربية فالقبطية والسريانية والحبشية. عاطف مرقص: الأرمن وعلاقتهم بالبيزنطيين، ص ٢٤٠.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم، ج ٥، ص ١٣١.

(٣) جمال الدين على بن ظافر: مخطوط أخبار الدول المنقطعة، ص ٧٧.

(٤) نفسه ص ٧٨.

(٥) أبى صالح الأرمنى: تاريخه، ص ٧٨.

أرضاً في الجيزة تقارب الثلاثين فداناً للزراعة. ووافق أن يقوم النصارى بتعمير كنائسهم وأصلحها^(١).

وفي عهد الحافظ ٥٢٤-٥٤٤هـ/١١٣٠-١١٤٩م تمتع أهل الذمة بالأمن والأمان وتكاثرت أعدادهم بفضل الوزير الأرمنى بهرام^(٢) فقد عمل على استجلاب عدد كبير من الأرمن إلى مصر وولاهم أرفع المناصب حتى كثر عددهم وضايقوا المسلمين^(٣).

وكان أهل الدولة قد كرهوا تعيينه في الوزارة لأنه نصرانى وإن من شروط الوزارة أن الوزير يرقى المنبر مع الإمام في الأعياد، فأصر الحافظ على تعيينه ووجد حلاً لصعود المنبر أن يستنوب عنه قاضى القضاة^(٤).

و «بنيت في أيامه كنائس كثيرة وديرة حتى أن كل رئيس من أهله بنى له كنيسة وخاف أهل مصر منهم أن يغيروا الملة الإسلامية»^(٥).

وقد طلب من الحافظ السماح له بإحضار إخوته وأهله فأذن له وأحضرهم من تل باشر حتى صار منهم بالديار المصرية حوالى ثلاثين ألف إنسان^(٦)، «فاستطالوا على المسلمين وأصاب المسلمين من النصارى جور عظيم»^(٧) واكثروا من بناء الكنائس والديارات وصار كل رئيس منهم يبنى كنيسة بجوار داره^(٨).

(١) نفسه، ص ٧٨.

(٢) السيوطى: حسن المحاضرة ص ٢٠٥، وجمال الشيال: الوثائق الفاطمية، الوثيقة الخامسة عشرة، ص ١٤٤-١٤٥.

(٣) النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٠٢، وجمال الشيال: الوثائق الفاطمية، الوثيقة الخامسة عشرة، ص ١٤٤-١٤٥.

(٤) النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٠٠-٣٠٢.

(٥) نفسه، ص ٣٠٢.

(٦) المقرئى: اتعاظ، ج ٣، ص ١٥٩-١٦٠.

(٧) نفسه.

(٨) نفسه.

وقد تولى أخوه الباساك ولاية قوص فظلم المسلمين وصادر أملاكهم فشكوا إلى رضوان بن ولخشي وإلى الغربية فاستجاب لهم وجاء على رأس جيش كبير لمحاربة بهرام ففر بهرام إلى القاهرة ودخلها رضوان وتولى الوزارة^(١) ولما استعفى بهرام وترهب أمر الخليفة ببناء مكان له يتعبد فيه داخل القصر^(٢). وذلك كان قمة التسامح والمحابة حتى أن خليفة المسلمين يقبل إقامة طقوس الدين المسيحي في مكان بقصره. وقد أباح الحافظ لهم استعمال طقوسهم في المناسبات الخاصة فلما توفي بهرام حزن عليه الحافظ كثيراً^(٣).

وبعد وفاة بهرام وتولى الوزير رضوان بن الولخشي الوزارة ضيق رضوان على النصارى وصادرهم وأبادهم بالسيف وصرف ابن زكريا الأخرم عن ديوان النظر^(٤).

وأصدر سجلاً بمنع النصارى واليهود من «إرخاء الذوائب وركوب البغلات ولبس الطيالة وأمر النصارى بشد الزناتير المخالفة لألوان ثيابهم وألا يجوزوا على معابد المسلمين ركباً فما رئى في أيامه يهودي ولا نصراني يجوز على الجامع ركباً لكنه ينزل ويقود دابته وأمر أن يؤخذ الجزية من فوق مساطب وهم وقوف أسفلها ومنعهم من التكني بأبي الحسن وأبي الحسين وأبي الطاهر وأن يبيضوا قبورهم»^(٥).

ونزل الفائز على رغبة رهبان دير طور سيناء فقد أصدر منشوراً إلى رجاله في شبه جزيرة سيناء يوصيهم خيراً برهبان دير طور سيناء وكان تصرفه هذا ناتجاً عن

(١) المقرئزي: اتعاظ ج ٣، ص ١٦٠ - ١٦١.

(٢) ابن أبيك: الدرر المضية، ج ٦ ص ٥٠٧.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٠٦ - ٣٠٧، المقرئزي: اتعاظ ج ٣ ص ١٧٥.

(٤) المقرئزي: اتعاظ، ج ٣ ص ١٦٥.

(٥) المصدر السابق: ص ١٦٥.

شكوى تقدم بها أسقف الدير من الضريبة التي فرضت على رهبان الدير وكان مقدارها عشرة دنانير، فأصدر الخليفة أوامره بمنع مثل هذه الضريبة^(١).

ومن هذا تتضح سياسة الخلفاء الفاطميين المتسامحة مع أهل الذمة، فقد كان اليهود يمارسون نشاطهم التجارى في ذلك العصر بمنتهى الحرية وخاصة في الإسكندرية التي كانت تعد من أهم مراكز التجارة الداخلية والخارجية في ذلك الوقت وكان بطريك النصارى يشارك كبار موظفي الدولة في تهنئة الخليفة بالأعياد^(٢). ونستطيع القول إنه باستثناء عصر الحاكم بأمر الله الذى تعرض فيه هؤلاء إلى الإضطهاد فإن العصر الفاطمى كان يعتبر عصر أهل الذمة الذهبى الذى امتزجوا فيه في الحياة السياسية العامة للدولة في مصر^(٣).

وكما امتزجوا في الحياة السياسية امتزجوا أيضاً في الحياة الإجتماعية وكانوا يشاركون المسلمين في أفراحهم. فكان النصارى يشاركون بالحضور في تلك الأفراح مهنئين^(٤).

العبيد:

اكتظت أسواق الرقيق في المجتمع الفاطمى بأنواع متعددة من الرقيق ولكن العبيد السود المجلوبين من بلاد النوبة كانوا يمثلون العدد الأكبر منهم «واركان الدولة والخدم من العبيد السود أو الروم»^(٥).

وانتشر السودانيون داخل المجتمع المصرى على هيئة أفراد أو جماعات، ولكن يبدو أن ذلك المجتمع نظر إليهم نظرة إمتهان وتعامل معهم على أنهم من الطبقة الدنيا. فكانت لهم مساكن خاصة بهم وحارات كاملة لهم وذلك بسبب كثرة أعدادهم

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٢) المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٣) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص ١٠٦.

(٤) ابو صالح الأرمنى: تاريخه، ص ١٢٩.

(٥) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٠٥.

حتى قال المقرئزي «كان لهم بديار مصر في كل قرية وضيفة مكان مفرد لا يدخل وال ولا غيره احتراماً لهم»^(١).

وأهم تلك الحارات حارة المنصورية وقد ضمت مساكن عديدة للسودان وكان لهم عرفاء يشرفون على شئونهم ويسلمونهم الأسلحة^(٢) وقد استعان بهم الحاكم على الأتراك فقاموا بحرق القاهرة^(٣).

وكثيراً ما كانوا ينهبون البلاد ويثيرون القلق والذعر لدى العامة في الحارات والدور^(٤). ويدخلون البيوت فينهبون ما فيها، فيذكر المسبحي أن العبيد تجمعوا «ونزلوا وقصدوا السواحل ونهبوا دارست ياقوت التي بساحل الشعير ودار الكاتبة وطرحوا فيها النار ونهبوا ما وجدوه من القمح والشعير والحبوب وغير ذلك في الدكاكين ودخلوا إلى منازل من أمكنهم الدخول إليه من أهل الساحل فنهبوها»^(٥).

كما أنهم كانوا يخرجون لنهب قوافل الحجاج كما حدث ٤١٥هـ/١٠٢٤م واستخدمهم الخلفاء وقربوهم إليهم فكان للحاكم خادم وكاتب أسود كناه بأبى الرضا سعد أعطاه المنح وأغدى عليه بالجواهر والأموال والإقطاعات وكان يقوم بدور الوسيط بين الحاكم والرعية^(٦).

وبلغ من شغبهم في عهد الظاهر أن أصدر مرسوماً بإباحة قتلهم في حالة

(١) المقرئزي: خطط، جـ ٢، ص ١٨-١٩.

(٢) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ١٤٨-١٤٩.

(٣) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ١٩٣-١٩٥. ابن كثير: البداية والنهاية. جـ ١٢، ص ٩-١١. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص ٤٣٥.

(٤) المسبحي: أخبار مصر، ص ٢٠٣.

(٥) المسبحي: أخبار مصر ص ٢٠٨.

(٦) المقرئزي: اتعاظ جـ ٢، ص ١٠٤.

تعرضهم للشعب أو قيامهم بإعمال الشعب^(١). وفي عهد المستنصر كانت أمه تغريهم ضد الأتراك وتمدهم بالمال والسلاح فاضطربت الأمور على المستنصر^(٢). واستخدم الفاطميون النوبيين في الشرطة فكانوا يقومون بحراسة القصر وتنظيم الأعياد وكان يتولى الشرطتين في عصر الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠-١٠٣٥م) الأمير بدر الدولة وهو نوبى الأصل^(٣). وكان لهم دور بارز في الإشتراك في احتفالات وفاء النيل حيث يسيرون في أعداد ضخمة مع بقية الفرق الأخرى^(٤) وكان الخلفاء يعتقدون الكثير من عبيدهم في المناسبات والأعياد حتى أن الحاكم اعتق سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م كل ما كان يمتلكه من العبيد والأماء وأعطاهم كل ما كانوا يمتلكونه من أموال اقتنوها منه ومن أبيه. وأطلق لهم حرية التصرف فيه^(٥). وكان للعبيد دور كبير أبان سقوط الخلافة الفاطمية فقد تصدوا لصالح الدين بقيادة مؤتمن الخلافة الخصى الأسود واجتمع خمسة آلاف منهم لحرب صلاح الدين وانقاذ الخلافة الفاطمية فأحرق صلاح الدين حارتهم المعروفة بالمنصورية على من فيها من أهلهم ثم تتبعهم بعد فرارهم وقضى عليهم وعلى رأس هؤلاء الطائفة الفرجية^(٦) ثم أنضمت لها بقية الطوائف^(٧).

(١) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٦: المقرئزي: الخطط، ج ١ ص ٩٤. وسعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٥١.

(٢) النويرى: نهاية الإرب ج ٢٨ ص ٢٢٤، والذهبي: العبر ج ٢ ص ٣٧، وابن الوردي: تاريخه ص ٥٢٣، المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٧٣-٢٧٤ وسعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى ص ٢٥١.

(٣) المسبحى: أخبار مصر، ص ١٩٠.

(٤) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٩٠.

(٥) الأنطاكى: تاريخه، ج ٢، ص ٢٠٦، ابن أبيك: كنز الدرر، ج ٦، ص ٢٦٥.

(٦) الفرجية: كانت طائفة من طوائف عبيد الشراء مثل الحسينيين والميمونيين نسبة إلى ميمون الخادم. المقرئزي: الخطط، ج ٢. ص ١٤.

(٧) المصدر السابق، ج ٢ ص ٣.

ثالثاً: الممالك من الجوارى والغلمان والخصيان في حياة القصور

الجوارى:

حياة القصور ودور الجوارى فيها:

يعد وجود الجوارى في القصور الفاطمية ظاهرة عامة استحققت اهتمام الكتاب والشعراء الذين تباروا في الحديث عنها، فعدّدوا الجوارى والقيان والوصائف والمولدات والسرارى والإماء والمحظيات^(١)، وقد ظهرت هذه الطائفة من النساء في قصور الملوك من العرب والعجم، وكثر نسلهن فظهرت طائفة من الأبناء عرفوا بابناء السرارى^(٢).

وشهد العصر الإخشيدى كثرة الجوارى، إذ كان قصر الإخشيد يعج بهن، وقد لمس المؤرخون تأثيرهن السلبي في المجتمع وسجله العديد منهم وشجع بعضهم الناس على اقتناء الجوارى كقول الجاحظ «من أراد قلة المؤونة وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة فعليه بالأماء دون الحرائر»^(٣).

ولما قامت الدولة الفاطمية في مصر، جلب الخلفاء الجوارى من شتى بقاع الأرض، وتباروا في اقتنائهن بشكل لافت للنظر فقد وصلت أعدادهن فى بعض الأحيان إلى الآلاف. وقد علل الجاحظ سبب تعلق الخلفاء بهن لأسباب منها أن «ريح الجارية أطيب وثيابها أعطر ومشيتها أحسن ونغمتها أرق والقلوب إليها أميل»^(٤). وعلى الرغم من انتقاد الخلفاء الفاطميين لبنى العباس في اقتنائهم للجوارى

(١) ابن منظور: لسان العرب، ج ١٢، ص ٣٨٣: الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص ٢٣٠. القيان، ص ١٥٨

(٢) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ١، ص ١٢٤.

(٣) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص ٢٣٠، كتاب القيان، ص ١٥٨، والمقرئزي: اتعاط، ج ١، ص ١٠٠.

(٤) الجاحظ: رسائل مفاخرة الجوارى والغلمان، ص ٩٧.

وأنهم «ملكوا الجوارى زمام أمورهم وقوام سياستهم»^(١) فإن نفوذهن قد ازداد بصفة خاصة على عهد الظاهر الفاطمي الذي تزوج من جاريته السودانية وانجب منها المستنصر الذي سار على نهج والده فقد اعتلى عرش الخلافة صغيراً، ومال إلى اللهو وتعلق بالجوارى، مما شغله عن الاهتمام بأحوال البلاد التي عانت في عهده من الشدة العظمى^(٢).

وكانت الجوارى اللاتي تسبى من بلاد الأعداء وتنقل إلى بلاد المسلمين في سن متقدمة يصعب تعليمهن العربية أو فناً من الفنون أو أخلاق البلاط وكانت أثمانهن تختلف عن غيرهن من الصغيرات فتحول إلى أعمال المنزل أو القصور أما الصغيرات فينشأن نشأة عربية يتعلمن خلالها اللغة العربية ويتقنن فنونها، فظهر منهن الشاعرات والمغنيات اللاتي أجدن فن الشعر والغناء.

ونظراً لزيادة أعدادهن فقد أثرن في حياة القصور تأثيراً واضحاً، وكان الخلفاء الفاطميون يستخدمونهن ويستولدونهن، وأحياناً يبيعونهن ويتصرفون فيهن تصرف المالك لملكه^(٣).

وكانت الجوارى يأتين ضمن السبى الذي يحصل عليه المسلمون فيأخذ منهم الخليفة ما يروق له ثم يهب وزراءه وأقاربه منهم العدد فيقمن بالخدمة وتربية الأولاد^(٤).

ويقول ناصر خسرو أن أعداد جوارى القصر الفاطمي أكثر من أن يقدر إذ بلغن الألوف في العدد مما يدل على أن الخلفاء قد اقتنوا أعداداً ضخمة منهن^(٥).

(١) عبد الله عفيفي: المرأة العربية، ص ٦٢.

(٢) نفسه، ص ٦٢-٦٣.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٢٠، وانظر: جبور عبد النور: الجوارى، ص ٥٨-٥٩.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ٢ ص ١٩٣، ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٠.

(٥) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٠٤.

اقتناء الخلفاء للجواري:

لم يقتصر اقتناء الجواري على الخلفاء فقط وان كان الخلفاء قد اكثروا منهم بشكل كبير. ومن الملاحظ أن الخليفة المعز لم يكن له غير زوجة واحدة وكان دائماً يحث حاشيته على عدم الاستكثار من النساء، فقد جمع شيوخ كتامه وحثهم على الالتزام بزوجة واحدة قائلاً لهم «ولا تشرهوا إلي التكاثر منهن والرغبة فيهن فيتنقص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتتهكوا أبادتكم وتذهب قوتكم وتضعف نحايكم فحسب الرجل الواحد الواحدة ونحن محتاجون إلي نصرتكم بأبادتكم وعقولكم»^(١).

وكان له من أبنائه من شغف بالجواري أمثال ابنه تميم الذي كان يتصف بالوفاء والكرم والفصاحة. اشترت له جارية كانت رائعة الجمال والغناء ودعاها إلي مجلس به أصحابه وأمرها بالغناء فغنت:

فبدا لينظر كيف لاح فلم يطق نظر إليه وصده سجاته
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سمحت به أجفاته
فطرب طرباً شديداً هو ومن حضر معه ثم غنت:-

أستودع الله في بغداد لي قمرا بالكرخ من فلك الأزارار مطلعته
« فاشتد طرب تميم وافرط جداً ثم قال لها تمنى ما شئت فلك مناك... فقالت
أتمنى أن أغنى هذه النوبة ببغداد، فأستنقع لون تميم وتغير لونه وتكرر
المجلس»^(٢).

فيبدو أن قلبها كان متعلقاً بأحد في بغداد وأرادت الذهاب اليه مما أحنن تميم وهذا يدل على مدى تعلقه بهذه الجارية.

أما عبد الله بن المعز فقد تعلق بجارية تدعى عليه «وكانت من وجوه عجائز

(١) المقرئزي: اتعاط، ج ١، ص ٩٦. خط، ج ١، ص ٣٥١.

(٢) المسبحي: أخبار مصر، ص ٢٢٨. المقرئزي: اتعاط، ج ٢، ص ١٧٣.

القصر وعقلائهم» فلما توفيت صلى عليها داعى الدعاة قاسم بن عبد العزيز النعمان. وكان عبد الله قد ختم على كل ما خلفته. وتقدر ثروتها بأربعمائة ألف دينار مما يدل على مدى ثرائها في ذلك الوقت. وبلغ من شدة ولعه بها أن دفنت عند رجلى مولاها في داره^(١).

وكان للعزيز الكثير من الجوارى^(٢) وأمهات الأولاد. فقد تزوج من جارية رومية ومسيحية أنجبت له ابنه الحاكم^(٣).

وقيل إنه بعد وفاته وجد له عشرة آلاف جارية^(٤) كما قيل كان لأبنته ست الملك ثمانية آلاف جارية يقمن على خدمتها^(٥) وذكر ابن إياس أن جوارىها كن أربعة آلاف جارية منهن ألف وخمسمائة من الأبقار والباقي من الثيبات^(٦).

كما تزوج الحاكم من إحدى جوارى أخته ست الملك. وتزوج الظاهر من جارية سوداء سودانية ولدت له ابنه المستنصر بالله^(٧).

فكانت الجارية تدخل القصر فتصبح بعد فترة وجيزة سيده بزواجها من الخليفة وإنجابها له الأبناء فتتسلط على أمور الدولة. وكان للحاكم جارية يحبها تدعى راشدة فلما ماتت بنى لها جامعاً سمى جامع راشدة كانت قد أوصت ببنائه قبل وفاتها^(٨).

فقد انتشر في القصر الفاطمي نظام التسرى الذى كثيراً ما يعقبه التزوج فإذا

(١) نفسه، ص ٢٢٨، وكانت جارية ابى على بن الحسن بن بكار.

(٢) Yaacov Lev , Arab history and Civilization state and society*V.I.P.75.

(٣) الأنطاكى: تاريخه، ص ١٦٤.

(٤) ابن الفلاسى: تاريخه، ص ٤٤-٤٥ Yaacov Lev , Arab history and Civilization

'state and society*V.I.P.75

(٥) مخطوط شرح اللمعة: مجهول ص ٩ ، المقرئى: خطب، ج ١، ص ٤٥٨.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٨.

(٧) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٤٥٧.

(٨) بيبرس الدوادار: مخطوط زبدة الفكرة، ص ٢٨٣.

ولدت الجارية له إبنًا تزوجها^(١) ولم يكن قاصراً على الخلفاء وكبار رجال الدولة فقط بل كان يستطيع التبصرى كل من يملك ثمن الأمة^(٢). وتلك كان يطلق عليها أم ولد وقد قال عنهن الجاحظ «ثم هن أمهات أولاد من قد بلغ بالحب لهن أن غفروا لهن كل ذنب وأغضوا منهن على كل عيب»^(٣).

فأم الولد هي الجارية أو الأمة التي تنجب من سيدها فيكفل لها هذا الإيجاب بعض الحقوق فلا يجوز بيعها أو توريثها. وعند وفاة مالكها تصبح حرة. ولا يعتبر ابنها رقيقاً بل حراً منذ ولادته وكثيراً ما حظيت أمهات الأولاد بكل التقدير والأحترام ويدلنا على ذلك بعض الكتابات الأثرية التي تحمل أسماء أمهات الأولاد وقد تمتعن بألقاب الحرائر من زوجات الخلفاء والسلاطين لأنهن أنجبن أولاداً أحراراً^(٤) ومن هذه الكتابات كتابة أثرية بنص جنائزى بتاريخ ١٥ المحرم سنة ٢٢٥هـ/ ١٦ نوفمبر ٨٣٩م على شاهد رخام من مصر محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة بأسم «حوراء ابنت مؤنسة أم ولد عبد الواحد بن سليم الحسنى» وكتابة بنص جنائزى بتاريخ شهر ذى الحجة سنة ٢٤٢هـ/ إبريل ٨٥٧م على شاهد من الرخام من الفسطاط محفوظ بالمتحف نفسه^(٥) باسم «عنبر أم ولد كاتب بن موسى السعدى».

ونلاحظ أن هذين النصين سبقا العصر الفاطمى معنى ذلك أن هؤلاء وجدن في عصر الطولونيين والإخشيديين.

ومما يبين ما تمتع به من منزلة لدى الخلفاء أن كان للعزیز أم ولد اسمها درزان^(٦)، ماتت فحملت إلى القصر وصلى عليها العزيز وصرف على كفنها مبلغ

(١) وهو اقتناء الجوارى للتمتع بهن واستيلادهن. جرجى زيدان: تاريخ التمدن، ج ٥، ص ١١٧.

(٢) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص ١٨٩.

(٣) الجاحظ: كتاب القيان، ص ١٧٥-١٧٦.

(٤) حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف، ج ١، ص ٩١-٩٢.

(٥) متحف الفن الإسلامى؛ سجل رقم ٩١١٧.

(٦) نفسه سجل رقم ٢٧٢١/٢١١.

عشرة آلاف دينار. ولما أخذت الغاسلة ما كان تحتها من الفرش وما عليها من ثياب وصلت قيمته ستة آلاف دينار وتصدق عليها للفقراء بألف دينار. وللقرء الذين قرأوا على قبرها ثلاثة آلاف دينار وللشعراء الذين رثوها خمسمائة دينار وقد أقامت ابنتها على قبرها شهراً تقيم العزاء والعزير يأتيها كل يوم والناس تطعم كل ليلة أصناف الأطعمة والحلوى وفرق في الشعراء ألفي دينار^(١).

وكان للحاكم عدد من أمهات الأولاد. وقد قام بإغراق بعضهن بعد وضعهن في صناديق مغلقة وإلقائهن في البحر مما حدا بالسيدة ست الملك أخته إلى استضافة إحداهن مع ولدها الظاهر (أبي الحسن علي) خوفاً عليهما منه وظلا في قصرها بعيدين عنه إلى أن فقد^(٢) ومنع الحاكم بيع الإمام لأهل الذمة^(٣) وبلغت عدة جواريه عشرة آلاف جارية^(٤).

ويذكر ابن خلكان أن الحاكم كان يزوج ممالئكه لجواريه بعد أن يعتقهما وأمر ولي الدولة بن خيران أن «أخطب فيهما خطبتين حسنتين وأنسق الصداق والمهر بعد ذلك على ما تقتضيه صناعة الوراق»^(٥) وقيل عن الظاهر «إنه كان مشغوقاً باللهو محباً للغناء، فتأنق الناس في أيامه بمصر واتخذوا المغنيات والرقاصات وبلغوا من ذلك مبلغاً عظيماً»^(٦).

وكانت زوجة الظاهر جارية سودانية سوداء شديدة البطش قوية الشخصية وصفها المقرئ أنها «إذا قالت قولاً وفت به وثبتت عليه»^(٧) فقد طغت تلك السيدة طغياناً كبيراً بسبب ضعف شخصية ابنها^(٨) وكان قد باعها أبو سعيد التستري

(١) المقرئ: اتعاط، ج ١، ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، ج ٢ ص ٢٠٦.

(٣) المقرئ: اتعاط، ج ٢، ص ٥٣.

(٤) نفسه، ج ١، ص ٢٩٤. ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٨.

(٥) ابن خلكان: وفيات، ج ٥، ص ٢٩٥.

(٦) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٣٥٤.

(٧) المقرئ: اتعاط، ج ٢، ص ٢٠٧.

(٨) ناريمان عبد الكريم: أحوال المرأة في مصر، ص ١٦٥ - ١٦٦.

اليهودى إلى الخليفة الظاهر فملك عليه قلبه ومشاعره وأصبحت أثيرة عنده وولدت له المستنصر^(١).

وقد استولت تلك السيدة على مقاليد الأمور في مصر واستكثرت من أبناء جنسها وتولى أبو سعيد التستري كل ما يخصها وعظم شأنه وأصبح العبيد حزباً والأتراك حزباً وكانت تمد هؤلاء العبيد بالمال والسلاح لأنهم أبناء جنسها واشتعلت الحروب واشتد الأمر وغلت الأسعار^(٢).

وزاد من ذلك انخفاض النيل وانتشار المجاعات والأوبئة وقد تسبب نفوذها في زيادة أعداد الجند الذين اصطدموا بالأتراك ودارت بين الفريقين حروب طاحنه دفع ثمنها الشعب المصرى جوعاً ووباء وقحطاً^(٣).

وكان الأمر من الخلفاء الذين عشقوا الجوارى عشقاً فظيلاً وكان يرسل بعيونه إلى البوادي يبلغه بأجملهن فبلغه أن بالصعيد جارية من أجمل الجوارى وهى شاعرة ظريفة فتخفى في زى ثرى أعرابى وصار يجول في الأحياء حتى وصل حياها ولما رآها طار عقله ورجع إلى قصره وأرسل إلى أهلها يخطبها فوافقوا وزوجوها منه فلم تطق حياة القصور بعد أن اعتادت حياة البادية فلما رآها حزينة بنى لها في جزيرة الفسطاط الهودج على شاطئ النيل ولكنها كانت متعلقة بأبن عم لها يعرف بابن مياح فكتبت إليه:

يا أبن مياح إليك المشتكى	مالك من بعدكم قد ملكا
كنت في حياى مرأ مطلقا	نائلا ماشئت منكم مدركا
فاننا الآن بقصر مؤصد	لا أدري إلا حبيساً ممسكا

(١) ابن ميسر: أخبار مصر، ج ٢ ص ١.

(٢) ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٧١. ابن ميسر: المنتقى، ص ٢٥. أبو الفدا: المختصر، ج ٢١ ص ١٨٩. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج ١، ص ٥٢٣. المقرئ: اتعاظ، ج ٢، ص ٢٦٦-٢٦٧. ابن تغرى بردى: النجوم ج ٥، ص ١٧-١٩.

(٣) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص ١٣٨-١٤٠.

كم تثنيننا بأغصان اللوا
وتلاعبننا برملات الحمى
فأجابها:

بنت عمى والتى غذيتها
نجت بالشكوى وعندى ضعفها
مالك الأمر إليه يشتكى
شأن داود غدا في عصرنا
بالهوى حتى علا واحتنكا
لو غدا ينفع منها المشتكى
هالك وهو الذى قد هلكا
مبديا بالتية ما قد ملكا

ولما بلغ الأمر تلك الأبيات قال: «لولا أنه أساء الأدب في البيت الرابع لرددتها
إلى حيه وزوجتها به»^(١)

كما كانت له جارية تجيد الكثير من العلوم والثقافة ولها معرفة بعلوم الطب
والموسيقى والنجوم كانت تحب الأمر حبا جما وكانت تحتاط له من المؤامرات التى
يدبرها وزيره الأفضل وكانت لها يد في تدبير اغتيال الأفضل^(٢).

وكانت إحدى زوجات الحافظ من الجوارى المغنيات وكانت تعزف على العود من
جملة الجوارى المغنيات في مجالس الغناء والطرب بالقصر الفاطمى. وقد أحبها
الحافظ وتزوجها بعدما تحققت رؤية منامه وهو في السجن لما اعتقله كتيفات ابن
الأفضل. فقد رآها الخليفة وكان الخلافة أعيدت إليه وهى تغنى بين يديه قول أبى
العتاهية:

أتته الخلافة منقادة
فلم تك تصلح إلا له
ولو نالها أحد غيره
إليه تجر أذيالها
ولم يك يصلح إلا لها
لزلزلت الأرض زلزالها

(١) المقرئى: خط، ج ٢، ص ١٨١-١٨٢.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم ج ٥، ص ٢١٨.

فلما استيقظ أخرج من حبسه ورأى نفس الجارية تغنى فأعطاها الكثير من الجواهر النفيسة وتزوجها ^(١). كذلك كان الفائز يحب «التفرد بالجوارى واستماع الأغاني» ^(٢).

وعند وفاة العاضد وجد في القصر الكثير من الجوارى بيع جزء منهن وعتق ووهب الباقيون ^(٣).

ومن الملفت للنظر أنه برغم المكاة التي تمتعت بها الجوارى لدى الخلفاء في ذلك العصر فإن بعضهم كان يستعمل منتهى القسوة مع هؤلاء الجوارى، وأصبحت ظاهرة إبادتهن جماعياً شائعة في عصر الحاكم وابنه الظاهر، فقد كان الحاكم يمر على إحدى حمامات النساء فسمع غناءهن ومرحهن وصياحهن فأمر أن يبنى باب وسد عليهن الحمام فمتن جميعاً ^(٤)، كما أنه أخرج جوارى وأمهات أولاده ووضعهن في صناديق بها حجارة وأغلقها عليهن وأمر بالقائهن في النيل ^(٥).

واعتقد أن تلك الروايات مبالغ فيها وناتجة عن كراهية العامة للحاكم لتشيديده في الكثير من الأمور عليهم فمن الممكن أن يكون المؤرخون نقلوها عن هؤلاء العامة دون التأكد من صحتها فإذا كان أمر الجوارى لا يعنيه فعلى الأقل كان يرأف بأمهات أولاده مراعاة لهؤلاء الأولاد.

كما يذكر كل من السيوطي وابن إياس أن الظاهر جمع كل جوارى القصر ووعدهم بقضاء يوم حسن. وأمر كل من كانت عنده جارية أن يحضرها مزينة مرتدية أجمل ما عندها وجمعهن في مجلس وأمر البنائين فبنوا أبواب المجلس

(١) المقرئى: خط، ج ٢، ص ٤٤٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات، ج ١، ص ٢٣٧.

(٣) مجهول: مخطوط شفاء القلوب ص ٢٠. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج ٢، ص ١٢٢. والمقرئى: خط، ج ٢، ص ٢٨٤.

(٤) ابن أبيك: الدرة المضية ج ٦، ص ٢٥٨.

(٥) الأنطاكى: تاريخه، ص ٢٠٦.

عليهن حتى متن جميعاً وكانت عدتهن ألفين ستمائة وستين جارية وبعد ستة شهور أحرقهن بما عليهن من ثياب وحلى^(١).

وقد أقتنى الوزراء والكتاب وأرباب الرتب عدداً من الجوارى، فكان ليعقوب بن كلس ثمانمائة حظية غير جوارى الخدمة^(٢).

وكان لمحسن بن بدوس متولى بيت المال في عهد الظاهر الكثير من الجوارى حتى أنهن بعد وفاته أخفين أمواله فاشتدت معاقبتهم و «ضربن ضرباً شديداً»^(٣) كما كان لعمدة الدولة أمير المطالبين خادم المستنصر الكثير من الجوارى خلف منهن عند وفاته «ثلاثمائة جارية أكثرهن كالبذور وبعضهن سراريه»^(٤) «كذلك ترك الأفضل ثمانمائة جارية منهن حظايا خمس وستون ولكل جارية حجرة خاصة وخزانة مملوءة بالكساوى والألات والديباج والذهب والفضة»^(٥).

وكانت الجوارى من أنفس الهدايا التي تقدم للتقرب من الخلفاء أو كمنحة للأدباء والشعراء وكان تهاديهم مرآة تصور مدى ما وصل إليه ذلك العصر من الترف والبذخ ، فكثيراً ما كان العمال والأمراء يتقربون إلي الخلفاء بأمثال تلك الهدايا^(٦).

وكانت الجوارى المغنيات المدربات في قصور الفاطميين من أئمن الهدايا التي تهدي إلي كبار رجال الدولة وعمال الولايات، فقد أهدى الظاهر إلي والى المغرب

(١) السيوطى: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٨٥ - ٢٨٦. ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١ ق ١، ص ٢١٤.

(٢) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ٥، ٦. ابن أبيك: الدرة المضية، ج ٦، ص ٢٦٦.

(٣) المسبحى: أخبار مصر، ص ١٩٠.

(٤) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٥) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى. ص ٤١.

(٦) إلیاس الإیوبی: تاریخ مصر الإسلامية. ص ٢٧١.

المعز بن باديس سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م جوارى مغنيات وراقصات فائنات^(١).
كما أهدى الظافر إلي والى صقلية سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م الجوارى الحسان^(٢).
وكثيراً ما اشتركت الجوارى في المؤامرات والفسائس عند خلع خليفة ومبايعة
آخر^(٣)، وقد كن عيوناً على الوزراء والقواد فيهب الخليفة احدى جواريه إلي من
يريد التجسس عليه. فتقترب منه وتتعرف علي جلسائه وتنقل كل ما رأت أو سمعت
للخليفة^(٤).

(١) ابن الزبير: الذخائر والتحف، ص ٧٠.

(٢) المقرئزي: اتعاظ، ج ٢، ص ١٣٦.

(٣) جبور عبد النور: الجوارى، ص ٨٢.

(٤) عبد الله عفيفي: المرأة العربية، ص ٤٧.

الأعمال التي قامت بها الجوارى في القصر

أولاً: الجوارى المغنيات والراقصات:

انتشر الغناء والطرب بين كافة طبقات المجتمع المصري في العصر الفاطمي انتشاراً كبيراً وكانت مجالس الخلفاء وكبار الأمراء لا تخلو من سماع الغناء والتمتع برقص الجوارى. وقد صور الفاطميون العديد من مظاهر الفن في مجالسهم على جدران القصور ، وحفروها على أبوابها ورسموها على قطع الخزف التي كانوا يستعملونها فما زالت آثار ذلك العصر تدلنا على الكثير من تلك المعاني. من ذلك مجموعة التحف الخشبية الثمينة المتبقية من القصر الفاطمي الغربي والتي تجسد مجالس الفاطميون وأحوالهم من غناء وطرب في تلك المجالس (١).

فكان الخلفاء الذين يسمعون الغناء «يحضرون الندماء في مجالسهم والجوارى يغنين من وراء الستائر» (٢).

وكان الخلفاء الفاطميون يقبلون على الغناء والطرب ويزهون في مجالسهم بجوارىهم المغنيات فكان للعزیز الكثير من الجوارى الحسنات والراقصات اللاتي يقضى معهن أمتع الاوقات وهو يحتسى الخمر، ويشاركهن المرح والغناء، ويغدق عليهن أنفس الجواهر وأثمنها (٣).

كما كان برجوان شديد الشغف بالجوارى المغنيات، ويجمعهم ويتبسط معهم كأحدهم (٤).

(١) انظر زكى حسن ، كنوز الفاطميين لوحة ٤٧ ص ٢٠٤ . ٢٠٥ . ٢٠٩ . ٢١٠ . ٢١٢ . ٢١٣ .

ودليل متحف الفن الإسلامى ، ص ١٦٥ .

(٢) الحسن بن عبد الله: آثار الأول، ص ١١٢ .

(٣) ابن الزبير: الذخائر والتحف، ص ١٣ ، ١٤ .

(٤) المقرئى: خطط، ج ٢ ص ٤ ، اتعاط، ج ٢ ص ٢٦ .

وفي عهد الحاكم صدرت عدة قرارات بمنع الغناء ونهى عن بيع المغنيات ^(١). وجاء الظاهر فأباح كل ما منعه والده وأقبل على مجالس الغناء والطرب ، وفعلت مثله الرعية واتخذوا المغنيات والراقصات ^(٢). وكان المستنصر محباً للغناء والطرب وأشهر المغنيات في عهده نسب الطبالة «وكانت تقف تحت القصر الفاطمي تردد الأغاني في المناسبات، كما تسير بفرقتها في ركاب الخليفة، تنشد أعذب الألحان ^(٣) وقد أقطعها الخليفة الأرض المجاورة للمقس مكافأة لها حتى أنتسبت إليها وعرفت بأرض الطبالة ^(٤). كذلك كانت زوجة الحافظ إحدى الجوارى المغنيات في القصر ^(٥). كذلك ولع الظافر بالجوارى الحسان ^(٦)، وكذلك وزيره الأفضل الذي اشتهر بإقتناء الكثير من الجوارى المغنيات والراقصات ^(٧). كما اشتهر الأمر بحبه لاقتناء الجوارى المغنيات والراقصات ^(٨). وكان لهؤلاء الجوارى المغنيات والراقصات ملابس خاصة، وغالباً ماكانت عارية، لإبراز مفاتنهن فكانت المغنيات ترتدين ثوباً طويلاً أكمامه واسعة مزينة بالزخارف وتغطي رأسها بعصابة تشبه العمامة ^(٩) وأحياناً تضع على رأسها تاجاً أو

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، ص ٢٠٠-٢٠٢.

(٢) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٣٥٤.

(٣) المقرئ: الخطط، ج ٢ ص ١٢٥ ، اتعاض: ج ٢، ص ٢٥٤.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٢.

(٥) المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٤٤٨.

(٦) المقرئ: اتعاض، ج ٣ ص ٢٠٩.

(٧) نفسه ص ٧١.

(٨) ابن تغرى بردى: النجوم، ج ٥، ص ٢١٨.

(٩) سيد محمد خليفة: دليل متحف الفن الإسلامى، ص ٨٦.

تترك مرصعة بالجواهر تتدلى من عصابة كذوابه ^(١) وإلى جانب أعمال الغناء والرقص تقلدت الجوارى العديد من الوظائف بالقصر نذكر منها:

وظيفة القهرمان:

والقهرمان هو المسيطر الحفيظ على من تحت يده، وهو من أمناء الملك وخاصته، والقهرمان لفظ فارسي معرب معناه القائم بالأمور ^(٢) وفي القصور الفاطمية كان عمل القهرمان الإشراف على أمور الجيش ويجب أن تتوفر فيها شروطاً معينة، منها أن تكون كاتبه على قدر من الثقافة في شتى العلوم مثل الطب والموسيقى والنجوم وكان هناك قهرمانات للخلفاء وأخريات لسيدات القصر. وأشهرهن قهرمانات الخليفة الأمر بأحكام الله (٤٩٥-٤١٥هـ / ١١٠١-١١٣٠م) ^(٣).

مقدمة المائدة الشريفة: ^(٤)

تشرف صاحبة هذه الوظيفة على مائدة الخليفة، تحمل إلى جانب لقب مقدمة المائدة الشريفة لقب المعلمة ومن أهم واجباتها أن تتسلم ما يصرف شهرياً لاستهلاك دار الخلافة من التوابل والراتب الشهري لذلك يتكون من: المسك وماء الورد والفسق ويساعدها في عملها مقدم الفراشون الذي كان يعمل تحت خدمتها ^(٥).

وقد دعت الحاجة إلى استخدامهن «فقد كان في الرسم الأول ظهور الجوارى غير السرارى وتصرفهن في الخدمة بارزات غير مستترات مثل الإستئذان عليهم

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، ج ١٥، ص ٣٩٨.

(٣) ناريمان عبد الكريم: أحوال المرأة في مصر، ص ٨٦.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤٢٠.

(٥) ناريمان عبد الكريم: أحوال المرأة في مصر، ص ٨٧.

والوقوف بين أيديهم للترويح ومناولة ما تدعو الحاجة إليه من طعام وشراب»^(١).

مقدمة خزانة الشراب:

وكانت تلقب بالمعلمة مقدمة خزانة الشراب ، وكانت تختص بالخليفة حيث أن خزانة الشراب كان عليها أحد كبار الأستاذين^(٢).

صاحبة دواة الخليفة^(٣):

وتعتبر من أهم الوظائف التي تقلدتها الجوارى في القصر نظراً لموقعها القريب من الخليفة وكان يقوم على خدمتها موظف يلقب بالاستاذ، وكانت تختص بإعداد الأقلام والدواة للخليفة ومنهن ست غزال جارية الحافظ^(٤).

مقدمة زين الخزان^(٥):

وتعمل بالخزانة الباطنة^(٦) وتتولى الإشراف على ملابس الخليفة، ويقوم على خدمتها ثلاثون جارية إلى جانب عشر جاريات يطلق عليهن وقافات يساعدها أثناء ارتداء الخليفة لملابسه ، وكانت تصرف لها حلة مذهبه ويصرف لمن تحت يدها حلة حريرية^(٧) ولا يرتدى الخليفة ثيابه إلا في تلك الخزانة وليس عند أحد من زوجاته أو جواريه ثياب له، وتجلب لتلك الخزانة يومياً الزهور العطرة لتوضع في صناديق الثياب حتى تكتسب رائحة طيبة قبل ارتدائه لها^(٨).

(١) الحسن بن عبد الله: أثار الأول ، ص ١١٢.

(٢) المقرئزي: خطط، ج ١، ص ٤٢٠.

(٣) ناريمان عبد الكريم: أحوال المرأة، ص ٨٧.

(٤) ١ لمقرئزي: خطط، - ج ٢، ص ٤٤٩.

(٥) خزن الشيء يخزنه خزناً واحرزه وجعله في خزانه والخزانة اسم الموضع الذي يخزن فيه الشيء والخزانة عمل الخازن. ابن منظور: لسان العرب، ج ١٦، ص ٢٩٦-٢٩٧.

(٦) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤١٠.

(٧) نفسه. ص ٤١١.

(٨) المصدر السابق، ص ٤١٣.

الطباخات:

وكن يعملن في مطبخ القصر والذي كان يقع خارج القصر قبالة القصر الغربى وله طريق تحت الأرض يصله بالقصر ويعمل فيه خمسون شخصاً^(١). من بينهم الطباخات اللاتي ذاع صيتهن في صناعة أصناف الأطعمة والحلوى^(٢).

العاملات في الإصطبل:

وهن القائمات على خدمة البغال والحمير، وكانت تلك المهمة تتطلب السهر ليلاً، حتى إذا ما أراد الخليفة الركوب في أى وقت يكن في خدمته وكانت وظيفة شاقة بالنسبة لطبيعة المرأة ورقتها فقال المقرئى «وله في الليل شدادات من النساء يخدمن البغلات والحمير الأثاث للجواز في السرايب القصيره الأقباء والطلوع على الزلاقات إلى أعالي المناظر والأماكن»^(٣).

كما كانت هناك بعض الوظائف المختلفة التى تعمل بها الجوارى في القصر وكان يطلق عليهن «المستخدمات أرباب الصنائع»^(٤).

المستخدمات عند الجهات العالية^(٥):

وهن خدم نساء الخلفاء وزوجاتهم وحظاياهم. وكانت تستخدم النساء النوبيات المشهورات بالرحمة والحنين في تربية الأطفال «ولأنهم أصلح أحذب الإنسا على

(١) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٢٣.

(٢) المقرئى: خطط، ج ١، ص ٤٦٢.

(٣) نفسه، ج ١، ص ٣٨٦، وناريمان عبد الكريم: أحوال المرأة، ص ٨٥.

(٤) المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٤١٠.

(٥) المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٤١٠.

أبنائهن وهن أصلح للتوليد»^(١) إلى جانب حرارتهن التى تدر اللبن بغزارة لإرضاع الأطفال مما جعل للنوبيات سوقاً رائجة في ذلك المجتمع لا كمربيات فقط بل كزوجات أيضاً. ووصلن إلى أعلى مراتب القصر الفاطمى وأشهرهن زوجة الظاهر وأم المستنصر^(٢) كما كان يعمل البعض منهن لدى أمراء القصر والأستاذين المحنكين^(٣).

عتق الخلفاء للجواري:

وكان الخلفاء كثيراً ما يبادرون إلى عتق الجواري وكان مظهراً من مظاهر الإحتفال ببعض الأعياد كعيد الغدير وغيره، فيذكر الأنطاكى أن الحاكم «اعتق سائر مماليكه بأسرهم من الإناث والذكور والخدم وحررهم جميعاً لوجه الله تعالى وملكهم أمر نفوسهم والتصرف فيما يملكونه واقتنوه منه ومن أبيه وفوض إليهم التصرف في جميعه بحسب اختيارهم»^(٤). كما اعتقت زوجة الحاكم وهى على فراش الموت اثنتين من جواريهها^(٥).

ويبدو أن عتق الجواري كان سمة عامة فكان يقوم الأمراء ووجهاء الناس بعتق جواريههم مثلما اعتق ابن عمار الجواري التركيات اللاتى استزاد منهن العزيز والموجودات بالقصر وباع الباقيات ليقتصد من مصاريف المطابخ ومن الأرزاق التى كانت تصرف عليهن مبلغاً كبيراً ينتفع به صنائعه من المغاربة^(٦).

(١) عبده بدوى: السود والحضارة، ص ١٣٠.

(٢) عبد الرازق عبد المجيد: العلاقات بين مصر والنوبة، ص ١٩١.

(٣) المقرئى: الخطط، ص ٤١١.

(٤) الأنطاكى: تاريخه ج ٢، ص ٢٠٦.

(٥) Levi- Provencal: Arabica Slave and slavegirls Tom IX -1962 P.8

(٦) المقرئى: اتعاظ، ج ٢، ص ١٢، ١٣، وعطية مصطفى مشرفه: نظم الحكم بمصر، ص ٩٩.

ثراء الجوارى:

وقد تمتعت الجوارى في القصر الفاطمي بمكانة مرموقة وكثيراً ما أغدق الخلفاء على جواريتهم وحظاياهم بنفيس الجواهر والعطايا حتى تضخمت ثروة هؤلاء بشكل واضح.

ومنهن عليه جارية الأمير عبد الله بن الإمام المعز لدين الله فقد خلفت بعد وفاتها أربعمائة ألف دينار^(١). كما كان لهذا الأمير جارية تدعى عانة كانت تمتلك داراً. وكانت لسرية الحاكم بأمر الله داراً خاصة وكانت معروفة بالبرجوانية إلى جانب قصر السيدة العمة^(٢).

ويذكر المسبحي دليلاً على تمتع هؤلاء الجوارى بما يمتلكون ووفرة الثروة في أيديهم أنه «نزلت طائفة من جوارى القصر ومعها طائفة من الخدم إلى دار الجواهر ودار الصرف ودار الأنماط^(٣) فابتاعوا من جميعها رحلاً وعادوا إلى القاهرة المحروسة»^(٤).

وقيل أن ناصر الدولة بن حمدان استولى على أموال جمة من أم المستنصر السيدة رصد^(٥). وقد أخرج الأثران من خزائنها أربعة آلاف سرج فرقت فيهم كما أخذوا من الخزانة الخاصة بها أدوات فضية وزنها ٣٤٠ ألف درهم تساوى ستة دراهم بدينار^(٦).

وبلغ من ثراء البعض منهم أنهم كن يقمن ببناء المساجد والأربطة أمثال

(١) المسبحي: أخبار مصر، ص ٢٢٨.

(٢) نفسه.

(٣) دار الجواهر ودار الصرف ودار الأنماط أسواق مشهورة كانت تقع شرق جامع عمرو وجنوبه بالقرب من درب المعاصير بالفسطاط. المقرئ: خط، ج ١، ص ٤٧٧-٤٨٤.

(٤) المسبحي: أخبار، ص ٥٩.

(٥) ابن ميسر: المنتقى، ص ٣٨.

(٦) وفاء محمد علي: نفوذ النساء في الدولة الإسلامية، ص ٩٢.

الجارية فوز التي بنت مسجداً ورباطاً بالقرافة الكبرى وأوقفته على أم الخير الحجازية^(١). وامتلك الكثير من الجوارى الدور والإقطاعات^(٢). لقد تمتعت الجوارى بحياة القصور ببذخها وترفها وعشن فيها كسيدات لهن نفس حقوق الحرائر.

الغلمان وحياة القصور:

استخدم الفاطميون في قصورهم الغلمان وكانوا يدفعون بهم إلي الأستاذين لتربيتهم وتعليمهم الفنون المختلفة فمنهم من يصبح أميراً من صبيان الخاص وتلك أعلى الدرجات ويطلق عليهم الترايى فقد كانوا «إذا وقع مركب وكسبوه لا يسألون عما فيه سوى الشخوص الكبار والصغار»^(٣). و«اصطفى الخليفة لنفسه السبى الذى فيه من رجال أو نساء أو أطفال»^(٤).

ويذهب بهم إلي مكان يسمى المناخ فيضاف الرجال إلي من فيه ويدخل بالنساء والصبيان إلي القصر لاستخدامهم وما يزيد يوزع على الجهات والأقارب^(٥).

واستخدم الفاطميون السود الزنوج وغالباً ما كانوا يحصلون عليهم طبقاً لمعاهدة البقط أو عن طريق الشراء وقد بلغ عددهم ثلاثين ألف رجل^(٦). وكان للخلفاء الفاطميين أعداد كبيرة من الحرس يقومون بحراسة القصر الفاطمى ذكر ناصر خسرو في وصف ذلك القصر قائلاً: «يقع قصر السلطان في وسط القاهرة وهو طلق من جميع الجهات ولا يتصل به أى بناء وقد مسح المهندسون فوجدوه مساوياً

(١) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٤٥٤.

(٢) الأنطاكى: تاريخه، ص ١٩٥.

(٣) ابن الطوير: نزهة، ص ٩٨-٩٩. المقرئزي: خطط، ج ٢، ص ١٩٣-١٩٤. ما جد تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٠، محمد مصطفى زيادة: بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك، ص ٨٢.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٢٣-٥٢٤.

(٥) ابن الطوير: نزهة، ص ٩٨-٩٩، العبادى: قيام دولة المماليك، ص ٧٠-٧١.

(٦) أمينة الشوربجى: رؤية الرحالة، ص ٤٨٥.

لمدينة ميفارقين وكل ما حوله فضاء ويحرسه كل ليلة ألف رجل وخمسمائة فارس
ينفخون البوق ويدقون الطبل والكوش من وقت صلاة المغرب ويدورون حول القصر
حتى الصباح»^(١).

وكان لقب مقدمهم «سنان الدولة» ومن واجباته نفخ البوق ودق الطبل
والصنوج بعد صلاة العشاء ثم اغلاق باب القصر وتثبيت سلسلة لمنع المرور بين
القصرين وترفع عندما ينفخ البوق مرة ثانية في الفجر^(٢).

أما عن عدد الخدم به فقد ذكر أن به اثني عشر ألف خادم مأجور غير النساء
والجوارى^(٣) وهذا يدل على ضخامة أعداد العلمان المملوكين في ذلك القصر فقد كان
لكل من أفراد الأسرة الفاطمية حاشية وخدم يلزمونهم لقضاء مطالبهم وكانوا عادة
ما يسكنون القصر^(٤).

وكانوا أحياناً يأتون في صورة هدية ضمن الهدايا، فيخبرنا المسبحي أنه في
سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م «وصلت هدية ابن مكارم ابن ابي يزيد من المحدثنة»^(٥)
بأسوان وهي عشرون رأساً من الخيل وثمانون بختياً وعدة من السودان الإناث
والذكرا ن وفهد في قفص وغنم نوبية وطيور ونسائيس وأنياب الأفيلة وعبر خلف
هديته بنفسه وولده بحجبه وشق البلد إلى أن وصل إلى حضرة أمير المؤمنين
يعرض ما معه وأمر بإتزاله في بعض الدور بالقاهرة» وفي سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م
وصلت هدية من بلد النوبة وفيها عبيد واماء وخشب الأبنوس وفيلة وزرافات وغير
ذلك^(٦).

(١) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٠٤.

(٢) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي، ص ٢٨.

(٣) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٠٤.

(٤) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٣٢-٨٦.

(٥) المحدثنة: مدينة لربيع محادة لأسوان من جهة الشمال.

(٦) المسبحي: أخبار مصر، ص ٣١.

وقد تمتع الغلمان بعطف الخلفاء وأهل القصر وكان لكل فرد من أفراد الأسرة الفاطمية حاشية وخدم ملازمين له لتلبية احتياجاته^(١).

وكان الخلفاء غالباً ما يعاملونهم معاملة طيبة ويغدقون عليهم الكثير من الهبات والعطايا وبخاصة في المناسبات والأعياد ، فقد ذكر المقرئزي «أنه في أول أيام رمضان يمنح الخدم أطباق الحلوى لهم ولأسرهم وبوسط كل طبق صرة من ذهب»^(٢) كما حرص الخلفاء على ارتباط هؤلاء الغلمان والخدم بطوائفهم فكان الخليفة يأمر عساكره في العيد أن يصلوا صلاة العيد مع أزمتهم في حاراتهم^(٣). وكان العزيز هو أول من قرر العطاء للغلمان والخدم وأولادهم وبناتهم ونسائهم وكساويرهم^(٤).

فقد كانت تسد جميع احتياجاتهم من الغذاء والكساء والعلاج بحيث لا يحتاج أحدهم أن يصرف شيئاً من راتبه إلا فيما ندر لذلك استطاع الكثير منهم تكوين الثروات^(٥)، فكان يصرف لهم من خزانة الطعام بالقصر ما يحتاجونه^(٦) ، إلى جانب الصدقات التي كانت تجرى على العبيد السودان^(٧)، وقد كثرت أموال برجوان لدرجة أنه نسبت إليه حارة بأكملها يبدو أنه امتلكها^(٨).

كما يذكر المسبحي أن القائد عنبر المصطنع الأسود انتقل إلى دار خاصة به عرفت بدار غبن و«حمل إليها من بيت المال من الفروش والستور والألات كل قطعة

(١) المقرئزي: اتعاظ، جـ ٣، ص ١٢.

(٢) المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٤٠٩ - ٤٢٢.

(٣) المسبحي: أخبار مصر، ص ٢٠١.

(٤) جمال الدين بن ظافر: مخطوط أخبار الدول المنقطعة، ص ٥٣ المقرئزي: خطط، جـ ١، ص ٤٠٢.

(٥) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٥٧.

(٦) المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٤٠٩ - ٤٢٢.

(٧) نفسه، ص ٤٦٥.

(٨) ابن أبيك: الدرة المضية، جـ ٦، ص ١٤٢.

طريقة معجزة ونصب فيها من خدمه حراساً وجماعة من عبيده وخزانه»^(١).

ومما يدل على ضخامة حجم ثروة هؤلاء امتلاكهم للخدم والحراس والعبيد فكان عطوف وهو أحد خدام القصر الفاطمي وكان مختصاً بخدمة ست الملك أخت الحاكم قد انتسبت إليه حارة العطوفية التي وصفها المقرئزي فقال إن بها الدور العظيمة والحمامات والأسواق والمساجد مالا يحصى كثرة^(٢).

وكان الخلفاء يسمحون لغلمانهم وعبيدهم بالتحدث في شكاواهم فقد ذكر المسبحي أنهم تجمعوا في حضرة الخليفة الظاهر، لاعتراضهم على منح أحد إخوة حسان بن جراح العطايا والمنح وفي الوقت الذي كان يعاني منه هؤلاء القيصريّة والعبيد والأتراك الفقر والجوع، وأبلغوه أنه كان الأجدر به أن يوزعها عليهم^(٣).

وكان الخلفاء عندما يثقون بأحد الخدم يطلقون يده في تدبير الأمور، فقد اصطنع الحاكم كاتباً أسود كناه بأبي سعد أعطاه من الجواهر والأموال الكثير، وأقطعته أقطاعات كثيرة وكانت له مكاة عالية فقد كان يقصده الناس لقضاء حوائجهم، ويقوم بدور الوسيط لهم لدى الحاكم لقضاء مطالبهم^(٤).

كما قرب الخليفة الظاهر الخادم معضاد الأسود. ومما يدل على ذلك ما جاء في سجل تلقّيبه من كلمات تدل على مدى قرب من الخليفة والثقة التي أولاها إياه، كما نلاحظ تلقّيبه بالظاهري نسبة إلى الخليفة، فقد أمر الخليفة سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٤م بغلق الأسواق وأن تجتمع كافة الرعية في صحن الأيوان وخرج القائد أبو الفوارس معضاد الخادم الأسود. والذي بدأ حياته في خدمة ست الملك وكان أشهر الأساتذة المحنكين^(٥) خرج وعليه «ثوب طميم حسن وعلى رأسه عمامة شرب مطاثره كثيرة

(١) المسبحي: أخبار مصر، ص ٥٩.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ١٣.

(٣) المسبحي: أخبار مصر ص ١٧١.

(٤) المقرئزي: اتعاظ، ج ٢، ص ١٠٤.

(٥) Yaacov Lev , Arab history and civilization state and society v.I p.75

الذهب خمريّة اللون ومعه سجل قرئ على العامة والخاصة بتلقبه بالقائد عز الدولة وسنانها أبى الفوارس معضاد الظاهري وأن أمير المؤمنين لقبه وكناه»^(١).

ومما جاء بالسجل «إن أولى من رفع أمير المؤمنين له ذكره وعظم محله وشرف قدره وأوجب تقديمه وأعز أمره من عرف سداه وصوابه وألف في الخدمة اجتهاده وانتصابه توكيداً لحرمة أواصره وأسبابه وكان إلى حضرة الإمامة والخلافة اعتزاًؤه وانتسابه. ولما وجدك أمير المؤمنين بحقوق خدمته قائماً ولألفة رجال دولته ناظماً وفي مصالح الجماعة ساعياً وعلى سنن الإخلاص في الطاعة جاريّاً وألفاك نقي الجيب تقى الغيب بريّاً من العيب محمياً من الريب ألوفاً للعفاف والصيانة معروفاً بالورع والديانة مع سوافك التي تزيد على السواف اختصاصاً وفضلاً ورسائلك التي تحكم لها الرعاية بتمام الإيجاب قسطاً وعدلاً وسوابك المرضية عوداً وبدءاً. المشكورة قولاً وفعلًا، رأى أمير المؤمنين - وبالله التوفيق - أن يرفعك عن التسمية ويشرفك بالتكنية ويلقبك بالقائد الأجل عز الدولة وسنانها لما أوجبه الله لك من الإجلال والإعزاز والتسنية وأمر بأن تدعى بذلك وتخطب وتكتب به عن نفسك وتكتب. ورسم ذكره فيما يجرى من ذكرك في المكاتيب وإثباته فيما يتعلق باسمك من السجلات والتوقيعات لتثبت هذه التكرمة بثبوت الاستقرار ويتقى عليك حالها بقاء الليل والنهار»^(٢).

«ولما قرئ سجله حمل على أربعة من الخيل بسروج مصفحة ثقال وعليه سيف ذهب مقلد به وخرج جميع المصطنعة يحجبونه وسائر القواد والناس إلى داره»^(٣).

ويبدو أن ذلك بداية تقريب الظاهر للسودانيين بتأثير من زوجته السودانية. كما

(١) المسبحي: أخبار مصر، ص ٤٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٥-٤٦.

(٣) نفسه، ص ٤٨.

قرب الأمر ممنوكين اصطفاهما. أحدهما يسمى هزير الملوك واسمه جوامرد والآخر برغش وينعت بالعدل. وكان الأمر يؤثره لرشاقته وكان الخلفاء الفاطميون يستخدمون هؤلاء الغلمان في الكثير من مظاهر الأبهة والعظمة لإضفاء نوع من الفخامة على الموكب الإحتفالية في المناسبات المختلفة. فكان الخاصة منهم والعبيد من الخدم يخرجون مع الخليفة في ركبه إلى صلاة الجمعة في الجامع الأزهر «ركب بين يديه سائر عبيده وخواص دولته»^(١).

وكذلك في موكب الإحتفال بعيد الفطر سار الخليفة في «عساكره ورجال دولته وكان بين يديه فيل واحد قد بقى من الفيلة والزرافات والبنود المذهبة بالقصب الفضة وغيرها والطبول وسبق بين يديه أصناف الجنائب بالسروج المجوهرة والمعتبرة الثقال وجميع قواد الأتراك والخدم المصطنعة في السلاح وغيرهم... وعلى رأسه المظلة المذهبة المثقل بحملها مظفر الصقلى على رسمه وخرج في أحسن زى وأكمل هيئة وأجمل عدة وبين يديه عبيده الخدم السودان وعليهم أصناف المذهبات والمثقلات والإستعمالات الجليلة القدر»^(٢).

وفي موكب الإحتفال بعيد الأضحى «يخرج الخليفة في عبيده وعساكره وخدمه ورجال دولته وبين يديه الجنائب الحسنة والبنود المذهبة بالقصب الفضة واللواين والزرافات والفيل الباقي من الفيلة وبين يديه عبيده الأتراك بالثياب المثقل والسلاح الحسن وعبيده الخدم المقودون المصطنعة بأحسن زى وأفخره»^(٣).

وكذلك وصف المقرئ خروجه مع الخليفة في أحتفال أول الموسم بشكل تفصيلي^(٤). وكان الخلفاء يتباهون بهؤلاء المماليك أمام سفراء الدول الأخرى ليلقوا

(١) ابن الطوير: نزهة المقتنين، ص ٢٦-٢٧.

(٢) المسبحى: أخبار مصر، ص ١٨٥.

(٣) نفسه، ص ٢٠١.

(٤) انظر المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٤٤٨-٤٤٩.

في قلوبهم الرهبة من أبهة الملك. فيذكر المسبحى أنه عندما حضر رسول من خراسان استحضر الخليفة «أمراء الأتراك وأمروا أن يلبسوا أفخر ثيابهم فلبس جميعهم الثقل والطميم» وأصدرت الأوامر للجميع باتخاذ أمانتهم و«كافة عبيد الدولة قياماً والأشراف ولم يجلس أحد بين يديه وعلى سائر الخدم المصطنعة الثياب الطميم والعمائم المطائرة»^(١).

وكان هؤلاء الغلمان والعبيد كثيراً ما يسببون القلق في جنبات القصر ولكن نجد أن طوائف منهم كانت تتصدى لطوائف أخرى إذا بدر منها أى خطأ، من ذلك عندما كبس عبيد القصر أثناء سماط عيد الأضحى سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م وصاحوا بالجوع الجوع نحن أحق بسماط مولانا قام الصقالبة بضربهم بالعصى ولكنهم لم يبالوا وهجموا فدخلوا القصر وتهافتوا على الطعام وضرب بعضهم بعضاً ونهبوا جميع ما أصلح من الأخباز والأشوية والحلوى ونهبوا القصاع والطنافير والزبديات وكان أمراً صعباً. وأخذوا ثلاثمائة زبدية ولم يصدق الحاضرون أنهم تخلصوا منهم ولا يخرجوا سالمين^(٢) وقيل عن الظاهر أنه «اتخذ حجر الممالك وعلمهم أنواع العلوم وسائر فنون الحرب واتخذ خزانة البنود وأقام فيها ثلاثة آلاف صانع»^(٣) وامتلك الوزراء أيضاً الغلمان. فكان لهم نصيب من الأسرى الذين يؤسرون^(٤) فقد خلف يعقوب بن كلس بعد وفاته من العبيد الممالك أربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية^(٥).

واستخدم بدر الجمالى الغلمان ، وكان له غلاماً مفضلاً يدعى صافياً ويلقب بأمين الدولة كان مقرباً إليه «استخلفه وقدمه وفخمه وعظمه ونخره لعقبه وأسلفه

(١) المسبحى: أخبار مصر، ص ٤٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٣) المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٣٥٤.

(٤) ابن الطوير: نزهة، ص ٩٨ - ٩٩. العبادى: قيام دولة الممالك، ص ٧٠-٧١ وعبد العزيز عبد الدايم: الرق في مصر، ص ٢٣-٢٤.

(٥) ابن الصيرفى: الإشارة، ص ٥٢ والمقرئى: خطط، ج ٢، ص ٧.

حسن الظن به»^(١).

حتى أنه تخيل أنه من الممكن أن يعتلى منصب سيده بعد وفاته، ويختاره ويؤثره على أبنه الأفضل^(٢).

وكثيراً ما كان الوزراء يكونون فرقاً من هؤلاء المشتريين وتنسب إليهم «كالوزيرية نسبة إلى يعقوب بن كلس»^(٣) والجيوشية من بقايا أمير الجيوش بدر الجمالي وولده الأفضل.. ولكل طائفة منهم قواد يحكمون عليهم^(٤).

وكذلك كانت فرقة اليانسية نسبة إلى يانس والعطوفية نسبة إلى عطوف خادم ست الملك أخت الحاكم^(٥)، كما اصطنع العادل بن السلار جماعة من الأتراك^(٦).

وكذلك للقواد أيضاً غلمان يحظون بمكانة رفيعة في القصر. مثلما يحظى أسيادهم بتلك المكانة ومنهم خادم يعرف بملهم من غلمان القائد عنبر المصطنع حدثت له حادثة قتل على أثرها من فرسه. فكانت له جنازة عظيمة حضرها كبار رجال الدولة^(٧).

ويذكر المسبحي استخدام الولاة للغلمان، فقد كان لبدر الدولة نافذ الخادم متولى الشرطتين في عهد الظاهر غلاماً يدعى حكل «سرق من مال مولاه فضرب بالعصى عقاباً له»^(٨).

وكان الغلمان والعبيد بعد دخولهم القصر كغلمان أو مشتريين وبعد اندماجهم

(١) نفسه، ص ٩٨.

(٢) نفسه.

(٣) المقرئزي: خطط، ج ٢، ص ٧. عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص ٢٨.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٥. محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص ٨٣.

(٥) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص ٣٠-٣١.

(٦) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٤٦-١٤٧.

(٧) المسبحي: أخبار مصر، ص ٢١٢.

(٨) نفسه، ص ٤٠.

للخدمة فيه وتعيينهم بمختلف الوظائف سرعان ما يشكلون فرقاً أو طوائف وينضم كل منهم إلى طائفته، سواء كانت من جنسه أو انتمى إليها تبعاً لانتماؤه لسيدته ، فكان هناك عبيد الشراء وهم عبيد مشترون بالمال قيل أنهم ثلاثون ألف رجل من السودان^(١) وكانت تشتمل على طائفة الفرحية^(٢) والميمونية نسبة إلى ميمون أحد الخدام^(٣) وكانت لهم الحارة الوسطى بأسمهم^(٤)، ولم يكونوا العنصر الأساسى في جيش الدولة الفاطمية ولم يعتمد عليهم إلا في عهد المستنصر^(٥).

وكان عبيد الشراء كثيراً ما يثيرون الشغب مطالبين بأرزاقهم مثلما حدث منهم مع الوزير الجرجرائى حتى أنهم أجبروه على حمل ما في داره لهم حتى أعاده الأتراك^(٦).

وكان هؤلاء ضمن بعض العناصر من مختلف الاجناس التى دخلت الجيش الفاطمى^(٧). وقد بقيت فرقة عبيد الشراء حتى آخر أيام الفواطم^(٨) كما كانت هناك فرقة تسمى المشاركة كانوا ترك وعجم قيل أن عددهم عشرة آلاف شاهدتهم ناصر خسرو في احتفالات فتح الخليج^(٩).

كما كان هناك فرقة تدعى صبيان الزرد ، وهم الذين اجتمعوا إلى الحسن بن

(١) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١١٠.

(٢) وكانوا من السودان يجيدون الطبل ويجوبون البلد في الإعياد انظر المسبحى، ص ١٨٤ ١٢٠.

(٣) المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ١٤.

(٤) ابن تغرى بردى: التجوم، ج ٤، ص ٤٥.

(٥) عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية. ص ٢٣٤.

(٦) التويرى: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢١٠-٢١١.

(٧) ماجد: نظم الفاطميون ، ج ١، ص ١٩٩.

(٨) المقرئى: الخطط. ج ٢، ص ٣ 'عبد الرحمن زكى: الجيش المصرى، ص ٣١.

(٩) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١١٠.

الحافظ في صراعه مع أبيه ففرق فيهم الزرد وجعلهم خاصته^(١) كما كان هناك المفردة ، وهم المماليك الخواص للسلطان ، وأطلقت عليهم هذه التسمية لأنهم يأخذون مرتباتهم من الديوان المفرد^(٢) وطائفة أرباب السلاح الصغير وهم «ثلثمائة عبد لكل واحد حربتان بأسنة مصقولة تحتها جلب فضة كل اثنتين في شرابه وثلثمائة درقة بكوابج فضة يتسلم ذلك عرفاؤهم على ماتقدم فيسلمونه للعبيد لكل واحد حربتان ودرقة»^(٣).

أما طائفة صبيان الحجر ، فقد أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم كانوا يقيمون في حجر مفردة بالقرب من القصر، وهم جماعة من الشباب ، جهزوا ليكونوا وقت استدعائهم على أتم حالة وكان عددهم أكثر من خمسة آلاف ولكل حجره من الحجر اسم تعرف به مثل المنصورة والفتح والجديدة وغير ذلك وعندهم سلاحهم ولهم حجر مفردة عليهم «أستاذون يبيتون عندهم وخدام برسمهم»^(٤).

وكانت حجرهم بمعزل عن القصر داخل باب النصر^(٥) وكان من أشهرهم العادل بن السلا^(٦) و«هم جماعة كانوا يكونون في جهات مفردة لكل واحد منهم يعلم فنا من أنواع الحرف والعلوم التي تحتاج الدولة إليها من الشجاعة والفروسية وغير ذلك. فإذا كبر منهم الصبي سلم إليه سلاح كامل يكون عنده متى جرد لا يكون له عائق وهم على نمط داوية الفرنج فإذا ظهر أثر الواحد منهم ونبغ في شيء مما أخرج

(١) ابن الطوير: نزهة، ص ١٤٨-١٤٩.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٩، حاشية ١ ص ٢٤.

(٣) ابن الطوير: نزهة، ص ١٤٨، ١٤٩.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٨١. والمقريري: الخطط، ج ١، ص ٤٤٣-٤٤٤.

وعطيه مشرفه: نظم الحكم، ص ١٠٩، والعبادي، قيام دولة المماليك، ص ٧١-٧٢.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٨١.

(٦) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٥٣. ابن خلكان: وفيات ج ٣، ص ٤١٦. النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣١٢.

إليه صير أميراً وولى مكاناً»^(١).

معنى ذلك أن صبيان الحجر من يظهر منهم النجابة يرتقى إلى درجة صبيان الخاص ويختص بخدمة الخليفة^(٢) أما صبيان الخاص وهم أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة الذين يتوفى أباءهم فيحمل الأبناء إلى القصر ويؤخذ في تعليمهم الفروسية^(٣). ويكونون في خدمة الخليفة متى احتاج إليهم^(٤). وكان عددهم حوالي خمسمائة فارس بعضهم يرتقى حتى يصل إلى رتبة أمير ، وكانوا يحملون الرايات الحربية المكتوب عليها «نصر من الله وفتح قريب» في موكب الخليفة^(٥) وفي عيد رأس السنة الهجرية يخرج منهم نحو عشرون رجلاً يحمل كل منهم تلك الراية^(٦).

وكان بعض الوزراء يتخوفون من سطوتهم فيذكر ابن ميسر أن العادل بن السلار وهو أحدهم قد أبادهم عن آخرهم سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م. وكذلك فعل يانس الأرمني سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م فقد قام بقتلهم تخوفاً منهم بعد أن قتلوا أبو على أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي عندما طعنه أحدهم أثناء لعبه بالكرة^(٧).

أما صبيان الركاب: وعددهم كان أكثر من ألف رجل ولهم اثنا عشر مقعداً^(٨)، وكانوا يتزينون في مواكب الخليفة فيرتدون العمام الكبيرة ويشدون أوساطهم

(١) ابن الطوير: نزهة، ص ٥٧.

(٢) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص ٢٧-٢٨.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣١٢.

(٤) المقرئ: اتعاظ، ج ٣، ص ١٩٩. حاشية ١.

(٥) نفسه، ج ١، ص ٤٤٨.

(٦) نفسه.

(٧) ابن ميسر: المنتقى، ص ١١٥. النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٩٩. والمقرئ: اتعاظ،

ج ٣، ص ١٤٤-١٤٥.

(٨) ابن تغري بردي: النجوم. ج ٤، ص ٧٩ حاشية ٢.

بالمناديل، ويشهرون سيوفهم المصقولة المذهبة في أيديهم وهم يحيطون بالخليفة من كل جانب^(١).

فكانوا يخرجون في احتفال رأس السنة الهجرية محيطين بالخليفة حاملين الأسلحة المحلاة بالذهب والفضة والجواهر^(٢). وكانوا في حوالي ألف رجل^(٣). كما كانوا يحملون اكياس تحوى أموال الصدقة ليوزعها الخلفاء اثناء مرور الموكب^(٤).

أما فرقة القيسرية وهم جماعة من الجند كانوا في خدمة ست الملك ابنة العزيز وسموا كذلك لأنهم ساروا معها إلى القصر بعد موت أبيها^(٥). وكانوا كثيراً ما يثيرون الشغب مع الطوائف الأخرى فقد حدث أن أحدهم تعرض لأحد الغلمان الأتراك فدارت معركة بين الأتراك والقيصرية وأمر الخليفة الظاهر بعدم تدخل بقية الطوائف بينهم «فلم يجسر أحد من الطائفتين على الإيقاع بالأخرى فتكافيا جميعاً»^(٦).

وكانت أحياناً تستخدم تلك الفرقة لضبط الأعمال وتنظيم الأمور فذكر المسبحى أن رفق الخادم الملقب بعدة الدولة أرسل ابن سرحان القيسرى في جمع كبير من القيسرية وراء خمسة آلاف من الرجال الجواله المقيمين في الأرياف خوفاً من نهبهم للديار^(٧).

(١) المقرئزي: خطط، ج ١، ص ٤٤٦-٤٤٩.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم ج ٤، ص ٤. المقرئزي: الخطط. ج ١، ص ٤٤٦. ٤٤٧.

(٣) المقرئزي: خطط، ج ١، ص ٤٤٦-٤٤٧.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٨١.

(٥) المسبحى: أخبار مصر، ص ٤٠ حاشية ١.

(٦) نفسه، ص ٢٧١.

(٧) نفسه، ص ٣٩-٤٠.

عتق الغلمان والعبيد:

كان الخلفاء يقومون بعتق العبيد في المناسبات المختلفة فقد اعتق الحاكم ٤١٤هـ/١٠٢٣م جميع ماكان يمتلكه من العبيد والإماء وملكهم ما كان تحت أيديهم^(١) وقد عتق زيدان «صاحب المظلة»^(٢)، وكان يطلق على الغلمان المعتوقين «الأمرء العتق» فقد أشار إليهم النويري ضمن أحداث قتل الحسن بن الحافظ^(٣).

ويذكر ابن القلاسي أنه بعد وفاة العزيز «كان في القصر عشرة آلاف جارية وخادم فبيع منهم من اختار البيع وأعتق من سأل العتق»^(٤) وعند سقوط الدولة الفاطمية وجد صلاح الدين في القصر الكثير من العبيد والإماء فباع البعض واعتق ووهب الباقين^(٥).

ميراث الخدم من العبيد والغلمان:

رغم أن العبيد ليس من حقهم الإرث ولا تجوز لهم الوصية شرعا لأن أموالهم ملكا لمولاهم لا يرثهم أحد إلا أن الخلفاء الفاطميين كانوا يستثنون العبيد المناصرين لدعوتهم الشيعية من هذا الشرط، «ذلك العتق لم يجزه إلا فيمن أخذ عليه عن أمره فأما من صار إلى ذلك عن غير أمره فهو بحسب ما كان على الأصل»^(٦) فكانوا من حقهم الإرث وتقبل شهادتهم ويسمح لهم بالبيع والشراء والتصرف فيما يملكون^(٧).

(١) الأبطاكي: تاريخه، ص ٢٠٦.

(٢) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٨٧.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٠٠.

(٤) ابن القلاسي: تاريخه، ص ٤٤.

(٥) مجهول: مخطوط شفاء القلوب، ص ٢٠. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج ٢، ص ١٢٢.

(٦) القاضي النعمان: مخطوط المجالس والمسائرات، ص ١٠، ١١، ص ٣٥٨، ٣٥٩.

(٧) نفسه.

ويذكر القلقشندي أن الدولة الفاطمية قررت توريث أهل من يموت من خدم القصر، فيذكر أنهم «يراعون من يموت في خدمتهم في عقبه وإن كان له مرتب نقلوه إلى ذريته من رجال أو نساء»^(١) من ذلك ما يذكر المسبحي. أن بنت أبي عبد الله بن نصر وزوجة أبي جعفر بن قائد القواد حسين بن جوهر قد توفيت وأن القائد معضاد والجرجرائي ومحسن بن بدوس صاحب بيت المال قد ذهبا لإثبات تركتها وزعموا أن للسلطان ثلث مالها لأن ابن جوهر أصله عبدا للدولة فقضوا يومهم بأكمله في إثبات مالها من طواحين بللور وبرادات مكلفة بالجواهر ومال وجواهر كثيرة وآلات^(٢).

الخصيان في القصر الفاطمي :

وجد الخصيان من الرقيق بكثرة في القصر الفاطمي لخدمة حريم القصر أو الخليفة نفسه يحوطون بالخليفة مطلقين البخور على جانبي طريقه إذا خرج في موكب من المواكب الاحتفالية^(٣).

فقد اتجه الخلفاء إلى شراء الخصيان واستجلابهم لخدمة حريمهم في القصر، أو لمناولة الطعام والشراب من النساء، وإحضاره عند الرجال وكذلك غيرة على النساء من خدمة الرجال لهم^(٤).

فتكاثرت أعداد الخصيان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق الحراسة الخاصة فإذا أقيم احتفال في القصر كان المماليك والخصيان زينة ذلك الاحتفال^(٥).

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٢٠.

(٢) المسبحي: أخبار مصر، ص ٥٤، ٥٥.

(3) Yaacov lev, Arab history and civilization – state and society, v. 1 , p.74.

(١) الحسن بن عبد الله: آثار الأول، ص ١١٢، جرجي زيدان: تاريخ التمدن، ج ٥، ص ٢٧.

(٥) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، ج ٥، ص ٢٧.

ويبدو أن أشهر أنواع الخصيان كانوا من الصقالبة^(١) أو الروم^(٢)، أو السودان وقد قال عنهم الجاحظ أن «الخصاء يأخذ منهم ولا يعطيهم، وينقصهم ولا يزيدهم، ويحطهم عن مقادير إخوانهم كما يزيد الصقالبة عن مقادير اخوتهم لأن الحبشي متى خصى سقطت نفسه وثقلت حركته وذهب نشاطه ولا بد أن يعرض له فساد»^(٣).

وقد أطلق عليهم لقب الطواشي وهو «في لغة أهل المشرق هو الخصي»^(٤) وقد حرص الخلفاء المسلمين في مصر على معاملة الصقالبة الخصيان معاملة طيبة، ولقبوهم بأفخم الألقاب وحرصوا على عتقهم وولوهم بعض المناصب الدينية فقد تولى غبن الصقلبي الحسبة من قبل الحاكم بأمر الله^(٥).

وقد اشتهر عن الصقالبة الخصيان حبهم لخدمة الملوك^(٦)، والعمل في القصور فكان «جوهر المعزي خصيا صقلبي الجنس وكانت له حرمة وافرة وكلمة نافذة»^(٧)، وكان الذي علم المعز فن الكتابة طواشي صقلبي^(٨).

وكان يأنس الصقلبي الخصي خادما من خدام العزيز بالله، وكان متوليا أمور القصور وخلع عليه وحمل على فرسين سنة ٣٨٨هـ / ٩٩٨م وتولى ولاية برقة، وأعطى خمسة آلاف دينار والكثير من الخيل والثياب، وإليه تنسب حارة الياتسية وطائفة العسكر الياتسية^(٩).

-
- (١) ومن أهم صفات الصقالبة الخصيان، اللعب بالطير والفخ ... البيهقي: المحاسن والمساوي، جـ ٢، ص ٣٩٥؛ وأما الصقالبة فقد صنع منهم الخصيان لحبهم في خدمة الملوك، نفسه
- (٢) وكل خصاء في الدنيا فإتما أصله من قبل الروم، نفسه.
- (٣) الجاحظ: الحيوان، جـ ١، ص ١١٩.
- (٤) ابن خلدون: العبر جـ ٥، ص ٣٦٢.
- (٥) سهام أبو زيد، الصقالبة، ص ٢٠٦.
- (٦) البيهقي، المحاسن والمساوي، جـ ٢، ص ٣٩٥.
- (٧) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١ ق ١، ص ١٨٩.
- (٨) Yaacov lev, Arab history and civilization. state and society v.1, p.74.
- (٩) المقرئ: خطط، جـ ٢ ص ١؛ اتعاط: جـ ٢، ص ٣٤، حاشية ١.

وكان برجوان الصقلبي متوليا لأمر القصور في عهد العزيز^(١)، وكان خصيا أبيض قام بتدبير ملك الحاكم بعد وفاة أبيه وحفظه له إلى أن كبر^(٢) وأغراه عليه زيدان الصقلبي خادمه فقتله سنة ٣٨٩/٩٩٨م^(٣) رغم أن هذا الخصي كان مخلصا فقد حفظ الملك للحاكم وكان «يعطف عليه ولا يدعه يركب لغير ضرورة أو يعطي أحدا عطية دون استحقاق»^(٤) ولكن وشى به لدى الحاكم مما دفع الحاكم إلى قتله.

وكان لهذا الخصي مكانة كبيرة لدى المصريين الذين تأثروا تأثرا شديدا وثاروا وتجمعوا على باب البلاط غاضبين لدرجة أخافت الحاكم حتى أنه صعد إلى مكان عال بالقصر وقال لهم «قد استبان لي عذر من برجوان فقتلته، والآن أرجو أن تكونوا معي لا علي لأنني فتى بعد. وبكي أمامهم ولاطفهم فتركوه وانصرفوا»^(٥)

وقيل عنه أنه كان مهتماً بلذاته مقبلا على سماع الغناء يقرب المطربين والمطربات ويتبسط معهم فيكون معهم كأحدهم، وإليه تنسب حارة برجوان بالقاهرة^(٦).

وقد خلف ثروة طائلة من السراويل الديبقي وألف نافجة مسك وجواهر وأواني وملابس بلغت قيمتها خمسمائة ألف دينار وأربع آلاف دابة^(٧)، إلى جانب ثلاثين ألف

(١) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ٥. المقرئ: خط، ج ٢ ص ٣؛ ابن تغري بردي النجوم ج ٤، ص ٤٨.

(٢) ابن القلاسي: تاريخ، ص ٤٨، ٤٩؛ أبو الفداء: المختصر، ج ٢، ص ١٣١؛ وابن الوردي، تاريخ ص ٤٣٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣٢٧.

(٣) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ٥، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٧٤؛ النويري: نهاية ج ٢٨، ص ١٧٤؛ ابن كثير البداية ج ١١، ص ٣٢٧؛ والمقرئ: خط، ج ٢ ص ٢٩٠.

(٤) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٧٤.

(٥) المصدر السابق.

(٦) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣٢٧؛ والمقرئ: خط، ج ٢، ص ٢٩٠.

(٧) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ٥؛ ابن أبيك: كنز الدرر، ج ٦، ص ٢٦٥.

دينار نقدا^(١)، وقد كانت له أعمال جليلة تذكر له منها تجديد بياض المسجد الجامع العتيق، وقلع شيئا كثيرا من الفسيفساء الذي كان في أروقته وقام ببياض مواضعه، ونقشت ألواح ذهب ونصبت على أبوابه الخمسة الشرقية، وكان اسمه ثابتا على الألواح التي قُلت بعد قتل^(٢).

واشتهر كذلك من بين الصقالبة الخصيان غبن الصقلبي أحد خدام الخليفة الحاكم بأمر الله، وقد نال لقب أستاذ الأستاذين الذي كان يطلق في العصر الفاطمي كمصطلح يدل على رئيس الخصيان^(٣).

وقد تمتع بمكاتب مرموقة لدى الخليفة، وتولى عدة مناصب وتلقب بقائد القواد، وترقى حتى تولى الشرطتين في مصر والقاهرة سنة ٤٠٢هـ/١٠١٢م^(٤) وكانت له أعمال جليلة فقد عرف باسمه جامع مشهور بالروضة هو جامع غبن^(٥) وكانت أعدادهم قليلة وأثمانهم مرتفعة مما يفسر سبب تبادل الحاكم لهم كهدايا^(٦).

ثانيا : الأستاذون المحنكون

وكانت طبقة الحاشية والخدم فئة يطلق عليها الأستاذون المحنكون وهم المعروفون بالخدم الطواشية وكان لهم في دولتهم المكاتب العالية^(٧) وكانوا يختصون بالخليفة، وأهمهم المحنكون وهم الذين يدورون عمائمهم على أحنأكهم كما تفعل العرب والمغاربة وهم أقرب وأخص الناس بالسلطان^(٨).

وكان لكل منهم مائة دينار شهريا، وكانوا أقرب الناس إلى السلطان وهم

(١) Yaacov Lev ,Arab history and civilization. state and society v.1,p.75.

(٢) سهام أبو زيد: الصقالبة، ص ١٥٨.

(٣) حسن الباشا: طبق غبن، ص ٧٣.

(٤) نفسه.

(٥) ابن أبيك: الدرر المضية، ج٦، ص ٢٥٩.

(٦) Yaacov Lev, Arab history and civilization. state and society v.1,pp.77 - 88.

(٧) المقرئزي: الخطط، ج٢، ص ١٧.

(٨) ابن الطوير: نزعة المقلتين، ص ٣٥، ٣٦ المقرئزي: الخطط ج٢، ص ص ١٧ - ١٨.

المطلعين على أسرارهِ وكان إذا ترشح أحدهم للتحنيك حمل إليه كل واحد من المحنكين قبله بدلة كاملة من ثيابه ومنديلاً وفرساً وسيفاً، فيصبح لاحقاً بهم وفي يده ما بأيديهم وإذا حضروا بين يدي خليفة يحضرون بوقار^(١).

ويصف المسيحي حفل التحنيك أنه في ذي القعدة سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٤م «حُكَّ ثلاثاً من الخدم المقودين وألبسوا العمام القطن والبيض الشرب بالأحبال وتشبهوا بمن تقدم من مقدمي قواد الخدم كميمون دنة ونصير وغيرهم وهؤلاء المقودون هم معضاد ونبا ورفق وأضيف إليهم فتك ومرتجى وسرور النصري ورامق، وذكر أن أمير المؤمنين يجلسهم بحضرته وهنئوا بذلك»^(٢) وكانوا يرتدون البدل المذهبة ويلفون عمامهم حول أحنائهم^(٣).

وقد ذكر ناصر خسرو أن عددهم كان ثلاثون ألف فارس وقد اشترى للخدمة وفيهم البيض والسود^(٤).

ومن وظائفهم أيضاً خلال الاحتفالات عندما تجتمع الناس قرب طاقات المنظرة في القصر لرؤية الخليفة يخرج أحد الأستاذين المحنكين يده من طاقة أخرى ويشير بكفه قائلاً: أمير المؤمنين يرد عليكم السلام وبعد انتهاء الاحتفال يخرج يده من الطاقة للقاضي وجماعته مشيراً برد سلام الخليفة^(٥)، وفي أثناء مد السماط يقف أربعة من الأستاذين المحنكين لخدمة الخليفة^(٦).

(١) عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم، ص ١٠٧.

(٢) المسيحي: أخبار مصر، ص ١٩١.

(٣) المقرئزي: الخطط جـ ١، ص ٤١١.

(٤) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١١٠.

(٥) المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٤٣٣.

(٦) نفسه، ص ٤٥٤، ٤٥٥.

الأستاذة غير المحنكين؛

ومنهم نقيب الطالبين وهم الأشراف من غير الأقارب^(١) وأحيانا كان يسند إلى هؤلاء وأولئك مناصب كبيرة مثل ولاية الشرطة والحسبة^(٢).

وكثيرا ما كان الخلفاء يقدقون عليهم المنح والهبات، وقد اشتهر الكثير منهم في العصر الفاطمي أمثال الأمير عظيم الدولة وسيفها، وكان من أشهر حاملي المظلة، والأمير صارم الدولة صافي متولي الستر، وفي الدولة إسعاف متولي المائدة، والأمير افتخار الدولة جندب والذي كان متوليا لخزانة الكسوة ويعمل تحت يده ستة أستاذين^(٣).

كان عظيم الدولة الصقلبي حامل مظلة الخليفة الحافظ، ويقال أنه كان صاحب الستر للخليفة الحافظ وكان له مسجدا باسمه «مسجد عظيم الدولة»^(٤).

وكذلك كان مؤتمن الخلافة الخصي أحد أشهر الأستاذين المحنكين في قصر الخليفة العاضد، وكان له دور كبير في مقاومة سقوط الدولة الفاطمية، إلا أن صلاح الدين استطاع القضاء عليه هو ومن معه من الخدم والسودان^(٥).

كما كان بهاء الدين قراقوش الخصي الأبيض الذي استعمل على القصر بعد قتل مؤتمن الخلافة^(٦).

وأحيانا ما كان يتعرض هؤلاء الخصيان على اختلاف درجاتهم إلى السخرية والاستهزاء، برغم ما وصلوا إليه من المناصب في خدمة الخلفاء فكانت تحاك حولهم

(١) نفسه، جـ ١، ص ٣٨٥، ٣٨٦.

(٢) نفسه، جـ ١ ص ٢٩٧.

(٣) سهام أبو زيد: الصقالبة، ص ٢٠٣.

(٤) نفسه، ص ٢٠٤، ٢٠٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ ١١، ص ٣٤٥، ٣٤٦؛ أبو شامة الروضتين: جـ ١، قسم ٢ ص ٤٥٠،

٤٥١؛ ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٢٨٣؛ المقرئ: خطط، جـ ٢، ص ٢، ٣؛ ومحمد بهادر:

مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ١١.

(٦) ابن الأثير: الصقالبة، ص ٢٠٦.

القصص والنوادر، وكان تقليد صوتهم وحركاتهم مما يجذب الناس^(١). فقد ذكر الجاحظ أن الخصي يتعرض لتغير صوته بعد عملية الخصاء فيشبه صوت النساء^(٢). وكانت حالات الإساءة إلى هؤلاء الخصيان نادرة، فقد كانوا يعاملون في مصر بكل تقدير واحترام، وقد حرص الخلفاء على عتقهم ومنحهم أفخم الألقاب، وتولى بعضهم المناصب الدينية ومنهم غبن الصقلي الذي تولى الحسبة من قبل الحاكم^(٣) وقد كون البعض منهم ثروات عظيمة إلى حد أن أطلق اسم أحدهم وهو «سيف الدولة نادر الصقلي المتوفى سنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢م، أطلق اسمه على إحدى الطرق، وخلف ٣٠٠ ألف دينار نقدا وأملاك قدرت ب ٨٠ ألف دينار ضمت الخيول والعبيد^(٤).

(١) سهام أبو زيد: الصقالبة، ص ٢٠٦.

(٢) الجاحظ: الحيوان، ج ١، ص ١١٣، ١٣٦.

(٣) سهام أبو زيد: الصقالبة، ص ٢٠٦.

(٤) yaacov Lev - Arab history and civilization state and society v.1,p.p 76 -

علاقة المالك بالمجتمع المصري

امتلاك العامة للرقيق :

تملك العامة الرقيق شأنهم في ذلك شأن الوزراء والقواد وغيرهم من أرباب الوظائف^(١).

فقد استخدم العامة هؤلاء الرقيق في الخدمة في المنازل، أو لتربية الأبناء أو للتسري وأحيانا كوصيفات، فقد وجد لدى أحد العامة ويدعى العدني المسلماني سبعين وصيفة^(٢).

وكان العصر الفاطمي هو العصر الذهبي لاستخدام الرقيق النوبي في مختلف الأعمال بمصر، فقد اشتهر رجالهم بالأمانة والإخلاص في العمل وحسن النظام والطاعة وعظمة الخلق وقوة البأس وكمال الأجسام^(٣).

إلى جانب أن هؤلاء اشتهروا بمهارة فائقة في بعض الصناعات مثل صناعة الجلود، وقد علموا المصريون فن تلك الصناعة وتميزوا بها في القرن الرابع الهجري^(٤). واستخدم الذكور منهم والإناث في الخدمة بالمنازل.

ولكن يبدو أن استخدام الإناث كجواني كان أكثر من استخدام العبيد، ويبدو أن الجارية النوبية كانت مفضلة على سائر الأجناس للخدمة في المنازل، وكانت لصغيرة السن الأفضلية أيضا، وكذلك التي ليس لديها أبناء حتى لا يشغلونها عن تأدية عملها، فقد ورد في إحدى عقود بيع الجواني عقد بيع لجارية نوبية في مدينة إدفو اتضح منه أن الأمة البكر كانت مفضلة عند الشراء^(٥)، وكانت تلك الشروط تحدد من

(١) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ١٨٩.

(٢) المسيحي: أخبار مصر، ص ٢٣٢.

(٣) عبد الرازق عبد المجيد: العلاقات بين مصر والنوبة، ص ١٩٠، ١٩١.

(٤) سيده الكاشف: مصر في عصر الإخشيديين، ص ٢٧٩.

(٥) جروهمان: أوراق البردي، ج ٥، ص ٣٥.

قبل ربة البيت التي غالبا ما كانت تشرف على أعمال الجارية^(١).

ومما يدل على امتلاك العامة لهؤلاء أنه عندما أمر الظاهر بجمع كل جوارى مصر والقاهرة و«صار كل من كان عنده جارية يلبسها من أحسن الأثواب الفاخرة ويحضر إلى قصر الخليفة» فأبادهن الظاهر حرقا ويذكر ابن اياس أن عددهن كان ألفين وستمائة جارية^(٢) ويبدو أن هؤلاء بينهن جوارى القصور لأنه لم يرد ذكر ذلك في نص ابن اياس.

وكان البيع يتم على يد سماسرة بعد مساومة في أسعارهن وكان أعلى سعر وجد في أوراق الجنيزة لبيع جارية كان ٨٠ دينار بيعت به إحدى الجوارى الروميات سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م^(٣) وأقل سعر لجارية وجد في وثائق الجنيزة أيضا كان ١٠,٥ دينار^(٤) فقد اختلفت أسعار الجوارى باختلاف أنواعهن، ولكن يبدو أن الجوارى الزنجيات كان سعرهن منخفض، فقد بيعت نوبية مع ابنتها الصغيرة سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م في مصر القديمة لأحد الأشخاص ويدعى جوزيف بن سلمان كوهين ب ٢٨ دينار، ثم بيعوا مرة أخرى سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م لأثنين أشقاء أولاد هما موسى كوهين ويعمل في الحكومة العليا ثم بيعوا لأختهم بـ ٢٠ دينار، ويبدو أن تلك الجارية كانت تتمتع بمهارات خاصة، فقد لقبت بالماهرة، وقد تعدد امتلاكها في نفس العائلة عدة مرات من سنة ٤٨٧هـ/٤٤٩هـ — ١٠٩٤-١١٠٥م وبالتالى تغيرت شخصيتها كما تعددت ألقابها ولقبت بالسماوية نظرا للون بشرتها الفضي^(٥).

وكان يتفق مع السودانيات على منحهن ٣٠ قطعة ذهب، ولكن ما يحدث هو أنهم لا يحصلن سوى على ١٥ قطعة فقط وكانت توجد منافسة بين الجوارى

(١) ناريمان عبد الكريم: أحوال المرأة، ص ٩٣.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٢١٤؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢ ص ٢٨٥، ٢٨٦.

(٣) Goitein, mediterranean society v.1 p.138.

(٤) نفسه.

(٥) Levi-Provençal; Arabica; slave and slave girls v. 9 p.10.

السودانيات والنوبيات، وكانت تباع النوبية بـ ١٥ دينار، كما كانت هناك منافسة بين النوبيات وبعضهن، فبيعت إحداهن بعشرين دينار وكانت تدعى بلاجر فقد بيعت لإحدى الأرامل سنة ٥٠٢هـ/١٠٨٠م^(١).

وكان السعر الرسمي في تلك الفترة عشرين دينارا للجارية، فبيعت إحدى الهنديات بـ ٢٠ دينارا^(٢) كما بيعت جارية ٥٤٣هـ/١١٤٨م كانت تصحب سيدها منذ ٤٠ عاما وقد دون سعر هذه الجارية في عقد زواج ذلك السيد وهو ٢٠ دينار^(٣).

وفي ٥٥٢هـ/١١٥٧م بيعت جارية تدعى فيروز ولدت في بيت مخدومها بـ ١٢ دينار فقط^(٤).

وكانت الأمهات تباع مع أطفالهن لا يفرق بينهم، وعندما يصبح الطفل له القدرة على العمل حسب السن القانوني يباع منفصلا^(٥) ومما يدل على ذلك أن إحدى الجواري بيعت مع ابنها ٤٨٧هـ/١٠٩٤م وكان عمره ١٠ سنوات، ولكن تذكر وثائق الجنيزة أنها بيعت مرة أخرى ٤٩٩هـ/١١٠٥م ولم يكن بصحبتها، معنى ذلك أنه عندما كبر بيع منفصلا فقد كان انفصام الأم الجارية عن أبنائها شيئا غير قانونيا^(٦).

وتذكر إحدى الوثائق مذكرة لأحد القضاة المشهورين في ذلك الوقت دون فيها أن إحدى الجواري وتدعى حبيبة كان لها ابنة سنتان مودعة عند تاجر الرقيق، وأن اسم البنت فضيلة، وكانت أمها قد ولدتها عنده أيضا وشاريها لم يدفع من مجموع ثمنها الذي وصل ٣٤ دينار غير جزء فقط من المبلغ وكان من المفروض أن يدفع

(١) op. cit.

(٢) Goitein, mediterranean society v.1 p.138.

(٣) Levi – provencal, Arabica, slave and slave girls v. 9 p. 10.

(٤) Goitein : mediterranean society, v.1 p.138

(٥) Levi – Provencal, Arabica, slave and slave girls Leiden. 1962 v. IX p.9 and Goitein - mediterranean society v. 1 p.138

(٦) Levi - provencal : Arabica – slave and slave girls. v. IX p. 10

باقي الثمن في نفس الشهر، وعندما لم يدفع رغم أن البائع والشاري كانوا جيران احتفظ التاجر بالابنة الصغيرة لديه كرهن حتى يدفع باقي الثمن^(١).

وغالبا ما كان يتم الشراء بوثيقة شراء، فقد احتوت إحدى وثائق شراء الجواري المؤرخة سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩ والتي خصصت لشراء جارية نوبية تدعى فاطمة ابنة نصر الفتح على عدة إشارات تدلنا على أسس بيع هؤلاء في ذلك الوقت فهي تدل أولاً على بيع هؤلاء الجواري المسلمات إلى الرجال المسلمين ثانياً تحتوي على وصف شامل لملاح الجارية وأوصافها، وتحتوي الوثيقة على الثمن الذي اشترت به الجارية وهو ٢٥ ديناراً وتوثق باليوم الذي يتم فيه الشراء^(٢) ويبدو أن ذلك كان ينطبق على العبد أيضاً.

وكانت الجواري من ضروريات البيت المصري في ذلك الوقت، وكانوا محط اهتمام رجال العامة في ذلك العصر، يدلنا على ذلك إحدى أوراق البردي التي يرجع تاريخها إلى عام ٣٩٣هـ/١١٠٢م وهي عبارة عن وثيقة عقد زواج اشترطت فيها الزوجة على زوجها أنه في حالة إذا ما اتخذ جارية عليها يكون بيعها بيد امرأته إن شاءت عتقت وإن شاءت بيعت فعتقها وبيعها جائز عليه ولازم له^(٣).

من هذا يتضح حرص المرأة في ذلك الوقت على جعل زمام تواجد الجارية في المنزل بيدها حتى إذا ما شعرت بالغيرة منها، أو أصبحت أثيرة لدى زوجها مما يهدد مركزها عنده قامت مسرعة ببيعها أو عتقها حرصاً على حياتها الزوجية.

وكان الدلال يمتلك الجواري والغلمان في منزله ويدربهم على الغناء وفنونه، فيخبرنا المسبحي أن الدلال المخنث البغدادي كان يجيد الرموز ويدرب جواريه في منزله على الغناء^(٤).

كما يذكر المسبحي أنه سنة ٤١٤هـ/١٠٣٢م توفي العدني المسلماني السباكن

(١) op. cit.

(٢) وثيقة غير منشورة بمتحف الفن الإسلامي تحت رقم ٢١١٩١، مؤرخة سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م.

(٣) جروهمان: أوراق البردي، ج١، ص ٨٩ عقود الزواج رقم ٤١.

(٤) المسبحي: أخبار مصر، ص ٢٢٦.

في زقاق زبان في دار أبي العقلين وخلف من الأموال العين والآلات والأمتعة ما لا يحصى كثره ومن الغلمان الروم والجواري أمرا عظيما^(١).

وكانت لهن بعض الوظائف المختلفة، فبدلنا أحد الأطباق الخزفية التي عثر عليها من بقايا حمام أبي السعود بمصر القديمة، - ويرجع للعصر الفاطمي -، على قيام الجواري ببعض أعمال التجميل في الحمامات، ففيه إحدى السيدات ممدة الأرجل وتقوم جاريتين بتدليكهما^(٢).

كما أن السودانيات كن أفضل مربيات، وقد ظهر ذلك من خطاب سيده مريضة لأختها توصيها خيرا بابنتها الصغيرة، وكذلك توصيها بمربيبتها السودانية «سعادة» وابنها، وتذكر لها أن الابنة تعلقت بتلك الخادمة وابنها مما يدل على استخدام الجواري ومعهن أبنائهن الصغار، ومعايشة هؤلاء الأبناء لأبناء أسيادهم، وقد لعنت تلك السيدة في نهاية الخطاب من يفرق بين ابنتها وبين الجارية مما يدل على تعلق الابنة الشديد بتلك الجارية^(٣).

(١) نفسه، ص ٢٢٢.

(٢) متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، لوحة رقم ١٣٠٨٠.

(٣) Goitein: Amediterranean society v.1.p. 135.

الآثار التي ترتبت على تواجد الجواري في الأسرة المصرية :

كان لتواجد الجواري في بيوت العامة أثر كبير على حياة الأسرة المصرية، فقد أثرت في المرأة بكثرة الأجناس المختلفة بخصائصها المتباينة فتولدت الغيرة لدى النساء من جمال هؤلاء، فقد غزون البيوت^(١)، وكان يوجد في كل منزل من منازل الطبقة المتوسطة خادمة أو خادمتين لمساعدة الزوجة في أعمالها^(٢).

فقد استعانت إحدى العرائس وكانت ثرية بجارية وخادمتين ودفعت ثمنًا للثلاثة مائة دينار^(٣)، كما يوجد في وثائق الجيزة خطاب من سيدة من الطبقة المتوسطة ومقيمة في القسطنطينية تطلب من قريب لها يعمل في وظيفة حكومية في البهنسا في مصر الوسطى تطلب منه أن يشتري لها جارية سمراء عمرها من ٥-٦ سنوات لتربيتها فقد كانت الجواري الصغيرات مفضلات^(٤) وقد تشبهت النساء بالجواري ليحصلن على رضا الزوج وسعادته وخاصة في ملابسهن فكانت الجواري والراقصات يرتدين الملابس الخفيفة التي تبرز مفاتهن فكانت العازفة والمغنية ترتدي ثوبا طويلا واسع الأكمام محلى بالزخارف وفوق رأسها عصابة تشبه العمامة وأحيانا تضع على رأسها تاجا^(٥)، وكانت الراقصة ترتدي ثيابا واسعة الأكمام وسراويل واسعة^(٦) فقلدتهن نساء العامة وكن يرتدين على رؤوسهن العصابات وانتشر لبس السراويل بالإضافة إلى القميص مما كان يعد خروجا على الآداب ومنافيا لتقاليد ذلك المجتمع مما حدا بالخليفة العزيز سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م أن يمنع النساء من لبس السراويل الكبار^(٧).

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج١، ص ٨٨.

(٢) Goitein: Amediterranean society v.1. P.135.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

(٥) سيد محمد خليفة: دليل متحف الفن الإسلامي، ص ٨٦.

(٦) نفسه، ص ١٦٠.

(٧) المقرئزي: اتعاظ ج١، ص ٢١٤.

فقد استطاعت بعض الجواري استمالة الأزواج إليهن وجذبهم والإيقاع بهم في حبائلهن، ومما يدل على ذلك ما دون في وثائق الجنيزة من قصص مثل حكاية شخص يدعى إبراهيم ميموندز الذي كان متزوج وعنده أطفال وأحب جاريته فأهمل زوجته وعائلته من أجلها، وكانوا يقيمون في الإسكندرية والجارية التي أحبها في مصر القديمة واشترى لها ملابس ثمينة وعاش معها في إحدى قرى الفيوم، وحالة أخرى لرجل يدعى كوهين ترك زوجته العروس والتي تزوجها حديثا وأحب جارية مسيحية وأخذها إلى قريته في البحيرة^(١) ومما هو جدير بالذكر أن طبقة العبيد والجواري في تلك الفترة لم تكن شيئا هامشيا في المجتمع، ولكن تمتع العبيد والجواري ببعض الحقوق، وكان لهم الحق في الدفاع عن حقوقهم المسلوبة فتذكر وثائق الجنيزة أن إحدى الجاريات ظهرت أمام المحكمة الإسلامية تشكو سيدتها التي تعمل عندها لأنها ضربتها ضربا مبرحا، وطلبت من المحكمة الدخول في الدين الإسلامي حتى تضطر سيدتها اليهودية لبيعها فلم يكن يسمح لغير المسلمين بامتلاك عبيد أو جواري مسلمات فأرادت تلك الجارية الاحتماء بالدين الإسلامي، مما يبين تمتع هؤلاء الرقيق في ذلك الوقت بالإرادة وتحديد المصير فكان يستطيع كل منهم أن يميز حقوقه لدى سيده ويدافع عنها، كما نرى مثالا آخر لرجل ترك زوجته وابنته الصغيرة أمانة لدى جاريته وخيرها بين البقاء معهم أو ترك خدمتهم وقتما شاءت^(٢).

(١) Goitein: Amediterranean society v.1P.135.

(٢) Goitein - Amediterranean society v.I , p.142

عتق العامة للجواري:

كان يتم عتق الجواري من قبل السيد أو من قبل زوجته حسب ما يتم اشتراطه في عقد زواجهما. (١)

فقد عتقت في رمضان ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م سيدة تدعى اسطورهيوه جاريته التي تحمل اسمان اسم عربي وهو صفراء، واسم قبضي وهو دجاشه، ونص صك العتق على عدم تعرض أحد أولاد سيدها لها بعد عتقها (٢).

كما يوجد في أوراق الجنيزة أنه في سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م عتقت جارية تدعى ست الروم - أوروبية - من قبل سيدها قبل وفاته، وظهرت أمام محكمة الإسكندرية العليا لتوكل محامي لجمع ميراثها (٣)، وكانت الجارية التي تعتق تكافأ من سيدها بعد عتقها بالكثير من المعونات التي تعينها على الزواج شرط أن تظل على دينها إذا كانت لدى أهل الذمة (٤)، ومثال لذلك وجد في وثائق الجنيزة أن سيده على فراش الموت قامت بعتق اثنين من جواربها العذاري، ويبدو أنهما كانتا صغيرات وأعطت لهن المال واشترطت عليهن أن يبقوا على الشريعة اليهودية وإحداهن تدعى ذهب (٥).

وكان من الممكن أن تظل الجارية بعد عتقها وزواجها في منزل سيدها، وكانت في هذه الحالة تحمل لقب مولاة، وتنسب إلى عاتقها وكذلك العبد يحمل لقب مولى وكذلك أبناؤه يحملون لقب ابن مولى أو ابنة مولى، فقد وجدت تلك الألقاب على بعض شواهد القبور في الفسطاط وأسوان والتي دلت على مكانة هؤلاء في المجتمع وقد أقام البعض منهم المساجد التي حملت أسماءهن ودلت على مدى الثراء الذي تمتع به مثل مسجد الحجر بالقرافة الكبرى الذي بنته مولاة علي بن يحيى سنة

(١) جروهمان: أوراق البردي جـ ١ ص ٨٩ عقد زواج رقم ٤١.

(٢) نفسه، كتاب العتق رقم ٧٣.

(٣) Arabica: salve and salve girls v,IX , p.9.

(٤) جروهمان: أوراق البردي، جـ ٦٧، عقد زواج رقم ٣٧.

(5) Goitein: Amediterranean society v. IP.153.

٤٣٠هـ/١٠٣٨م^(١).

وكانت جوارى العامة ضمن المتاع الذي يرثه الخليفة إن لم يكن لصاحبه وريث فقد ذكر المسبحي أن أحد الدلائن قتل ولم يعرف له أحد فنقل ما في منزله من المال والمتاع والجوارى المغنيات إلى قصر الخليفة^(٢).

وجدير بالذكر أن تلك الجوارى الموروثة كن يخيرن في أغلب الأحيان بين العتق أو الزواج^(٣).

كما كانت العامة تتهاذى الجوارى في المناسبات، فتذكر إحدى وثائق الجنيزة أنه في سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م أهديت جارية هندية لعروس بمناسبة زواجها^(٤).

إيجابيات وسلبيات تواجد الرقيق في المجتمع المصري في العصر الفاطمي:

كان لتواجد الرقيق في المجتمع بعض الإيجابيات كما كان له بعض السلبيات.

لقد امتزج رقيق ذلك العصر بالمجتمع وأفراده، فتركوا أثارا حسنة خاصة في نفوس الفقراء منهم، فكان عند وفاة أحدهم وخاصة من كانت له مكانة كبيرة تفرق الأطعمة والحلوى على الناس حينما يأتون لتقديم واجب العزاء، من ذلك ما ذكره المقرئ عند وفاة أم ولد العزيز «أقامت ابنتها على قبرها شهرا تقيم العزاء والعزيز يأتونها كل يوم والناس تطعم كل ليلة أصناف الأطعمة والحلوى» وكان العزيز قد دفع للفقراء ألفا دينار^(٥).

وكان للبعض منهم تأثير كبير في نفوس العامة لدرجة أنهم كانوا يشاركون في تشييعهم عند وفاتهم، من ذلك أن جميع الناس من العامة شاركوا في تشييع بهرام

(١) المقرئ: خطط، ج٢، ص ٤٤٩، ٤٥٠.

(٢) المسبحي: أخبار مصر، ص ٢٢٦.

(٣) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٣٠، ١٢٩.

(5) Goitein - A mediterranean society vl.138.

(٥) المقرئ: اتعاط، ج١، ص ٢٨٨، ٢٨٩.

الأرمني وساروا في جنازته مشاة وهم يضحجون بالبكاء^(١).

كما شارك الرقيق العامة في أحزانهم فقد أصبح لبعضهم مكانة بارزة في المجتمع المصري، وأصبحوا محل تقدير واحترام حتى أن حضورهم لجنازة أحد المتوفين يعتبر نوع من الشرف له ولأهله فكانوا يقدمون واجب العزاء ويشاركون في تشييع جنازة المتوفين، فقد نزل معضاد الأسود وسائر الخدم المقودين والمصطنعة في عهد الظاهر لتشيع جنازة الشريف الموسوي الساكن بمسجد الأخضر^(٢)، وعندما توفي إسماعيل الخصفي كاتب بيت المال شارك القائد معضاد في جنازته^(٣).

وكثيرا ما كان هؤلاء يدخلون البهجة في الأعياد على أفراد ذلك المجتمع، فكان السودانيون من الفرحية يعزفون أعذب الألحان على الطبل أثناء عبور السماط في الأعياد حيث يقف الناس في الشارع لمشاهدته^(٤)، وكان لهؤلاء المماليك مكانة في قلوب المصريين من العامة سواء كانوا قوادا أو ممالك عاديين، فقد تعلق بهم قلوب العامة خاصة الذين تركوا أثارا حسنة أفادت هؤلاء العامة، وكانوا يعبرون عن تلك المشاعر حين يتعرض أحد هؤلاء المماليك لأزمة من الأزمات، فقد تاروا عندما قتل برجوان وبكوا كثيرا حزنا عليه مما حدا بالحاكم إلى الخروج إليهم والاعتذار لهم وامتصاص غضبهم ومناشدتهم مساندته، وكان ذلك لحبهم له وارتباطهم به والخدمات التي أداها لهم^(٥).

كما كانوا كثيرا ما يقومون بالتوسط للعامة لدى الخلفاء لإقطاعهم الإقطاعات أو لانتزاع موافقة الخلفاء على مطالبهم فيذكر المقريري أن الحاكم كان له خادما وكاتبًا

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٠٧؛ والمقريري: اتعاظ جـ ٣، ص ١٧٥.

(٢) المسيحي: أخبار، ص ٢٤٣.

(٣) نفسه: ص ٢١٩.

(٤) نفسه، ٢٠١.

(٥) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٧٤؛ النويري: نهاية الأرب جـ ٢٨، ص ١٧٤ - ١٧٥؛ وابن

دقماق: الانتصار بواسطة عقد الأمصار، جـ ١ ص ٦٨.

أسود كنى بأبي الرضا سعد كان قريبا منه أثيرا لديه، وكانت الناس تقصده لقضاء حوائجهم فلم يرد الحاكم سؤاله في شيء وكان يسأله في أقطاعات للناس تجاوزت الخمسين ألف دينار^(١).

وكان لبعضهم الكثير من الأعمال الخيرية، منها بناء الجوامع وجامع راشدة أبرز دليل على ذلك فقد كانت جارية للحاكم وأوصت أن يبني لها جامع فلما ماتت أمر الحاكم ببنائه وسمى باسمها^(٢).

وكذلك مسجد الحجر بالقرافة الكبرى والذي بنته مولاة علي بن يحيى^(٣) كما بنت إحدى الجوارى وتدعى فوز مسجدا ورباطا بالقرافة الكبرى وأوقفته على أم الخير الحجازية^(٤) كما أقامت إحدى الجوارى المغنيات والتي تزوجها الحافظ مسجد سمي مسجد جهة بيان نسبة إليها على يد رجل عرف بابن الموفق^(٥).

كما كان بعض الرقيق يصل إلى منزلة رفيعة ويتمتع بثراء كبير، وكانوا يتصدقون من أموالهم ويتعاطفون مع عامة الشعب، ولا يتهاونوا في تقديم المساعدة للمحتاج، فقد حدث أن مرض الحسين بن مفلح بن أبي صالح القلعي الملقب بعصب الدولة نتيجة لقطع الإقطاع عنه من الشام، وساءت حالته فسار إليه بهاء الدولة مظفر الصقلبي، متولي المظلة حاملا إليه من ماله ألف دينار كما حمل له القائد معضاد جملة دنائير من ماله ولكنه رفضها تعففا حتى أنه لم يستطع إيجاد الدواء لعلته ولما رثى غلمانه لحاله، ذهب أحدهم إلى منزل معضاد وأحضر له قنينه مملوءة شرايا فأصر على معرفة مصدرها، ولما علم «نتف لحيته ولطم وجهه بيديه ودق صدره وأحل بنفسه العظام من البكاء.. وكان ذلك سبب موته» وبعد وفاته قام

(١) المقرئزي: اتعاط، جـ ٢، ص ١٠٤.

(٢) بيبرس الدوادار: مخطوط زبدة الفكرة رقم ٢٤٠٢٦، جـ ٦، ص ٢٨٣.

(٣) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٥٠.

(٤) نفسه، ص ٤٥٤.

(٥) نفسه، ص ٤٤٨.

معضاد بالوفاء له بدينه من ماله الخاص وكان حوالي ألفا ومائة وثلاثين ديناراً^(١).
كما كانوا يبذلون من أموالهم الصدقات للفقراء وأصحاب الحاجة الغرباء، مثلما
فعل مظفر الصقلبي صاحب المظلة، فقد بذل من ماله ألف دينار لوفد الحجازيين الذين
أتوا إلى مصر سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م والذين كانوا يتولون إقامة الدعوة للفاطميين
بمكة والحجاز وطلبوا بأرزاقهم من الخليفة، فلما لم يجابوا بذل لهم ذلك المبلغ من
ماله الخاص، إلا أنهم فرقوها على خمس مائة نسمة من ضعفائهم وعبيدهم فصار
لكل شخص ديناران^(٢). وفي الشدائد كانوا يقرضون الدولة، مما يدل على ما وصل
إليه ثراءهم أن الأمير بهاء الدولة مظفر الصقلبي حين حل الوباء والقحط أقرض
الدولة عشرة آلاف دينار^(٣).

كما كانوا يشاركون عامة الشعب في الاحتفال بالأعياد والمناسبات، فكانوا
يقيمون أسمطة في منازلهم للعامة على غرار سباط الخليفة ومن هؤلاء معضاد
ونافذ وعنبر الذين عملوا الأسمطة في ديارهم في عيد الفطر سنة
٤١٥هـ/١٠٢٤م^(٤).

أما عن سلبات تواجد هؤلاء الرقيق في المجتمع الفاطمي، فقد كانوا كثيراً ما
يثيرون الفوضى والشغب خاصة أيام المجاعات والأزمات فكانت أعمالهم تروع الناس
الآمنين.

فعندما دفع الحاكم بمقدمي السودان ونزلوا لمهاجمة ديار مصر كبسوا الحمامات
والمنازل يأخذون ما فيها ويعرون الناس في الطرقات ويقتحمون الدكاكين وينهبون
ما فيها ويحرقون أبوابها حتى كانت تغلق الدروب قبل الغروب، واقتحموا أسواق
النحاسين والسكريين ودار الشمع وغيرها وأخذوا ما بها، وأتلفوا الباقي لدرجة أنهم
كانوا يخلطون العقاقير والأصناف بعضها ببعض والمياه بالزيت ويفسدون مالا

(١) المسبحي: أخبار مصر ص ٢٢١، ٢٢٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩٢.

(٤) نفسه، ص ١٨٦.

يستطيعون حملهُ، ويضمرون النيران في الأبواب حتى ضج الناس بالدعاء إلى الله لتخليصهم مما هم فيه من بلاء^(١).

كما ذكر المسيحي أن معضاد الخادم الأسود متولى الشرطة عهد الظاهر ضرب رقاب تسعة أنفس وجدّهم من العبيد الذين نزلوا لنهب مصر وألقى بجثثهم للكلاب^(٢)، كما ضرب حطّي الصقليّ رقاب اثني عشر رجلاً من العبيد الذين تجمعوا لنهب مصر أيضاً ورمى بجثثهم للكلاب^(٣).

وقد أدت المجاعة التي حدثت في تلك الفترة إلى دفع بعض العبيد إلى السطو على ممتلكات الغير، وكانوا يخرجون لمهاجمة قوافل الحجاج ويقطعون عليهم الطريق وينهبون ما معهم من مؤن وسلاح^(٤). وقد خرج سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م إلى جبل المقطم حوالي ألف رجل من العبيد إلى جانب من انضم إليهم من قطاع الطرق واللصوص وقرروا النزول إلى مصر لنهبها وسرقتها، وأحدثوا الكثير من الاضطراب في المجتمع، فقد نهبوا البضائع التجارية المعدة للتصدير إلى الخارج والتي تم وضعها على ساحل مصر، كما أشعلوا النيران في الدور الموجودة على الساحل وبثوا الفوضى بالمناطق التجارية ونهبوا المساكن، مما دفع العامة إلى الاتحاد ضدهم ومحاربتهم والقضاء عليهم ولكن بعد أن توقفت مظاهر الحياة وأغلقت الدكاكين وتوقف العمل في الأسواق نتيجة خوف الناس واختبائهم، وتعذر وجود الخبز والدقيق^(٥) «فخرج إليهم عامة المصريين بالسلاح وحاربهم الرجال والنساء من أعلى المنازل بالحجارة والطوب والجرار، وخرج إليهم العتالون والنفاطون فهزموهم وأغلق الناس دروبهم واستعدوا وحفروا دون الدروب الخنادق فلم يقرب أحد منهم

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) المسيحي: أخبار مصر، ص ٢٣٥.

(٣) نفسه.

(٤) المسيحي، أخبار مصر، ص ١٩٤؛ المقرئزي: اتعاط، جـ ٢، ص ١٦٥.

(٥) النويري: نهاية، جـ ٢٨، ص ٢٠٦.

شارعا ولا زقاقا ولا تجاوز الساحل المعروف بالبيما»^(١).

ومن هذا يتضح أن هؤلاء كانوا عندما يثورون يروعون الأمنين من الرعية لدرجة أنهم أوقفوا الحركة التجارية نتيجة لالتزام الناس منازلهم، واضطروا الناس إلى حفر الخنادق للاختباء فيها مما أثر سلبا على الناحية الاقتصادية في أغلب الأحيان واضطرت العامة إلى اقتناء السيوف والسكاكين وخاصة «العوام والصناع» دفاعا عن أنفسهم^(٢).

كما كان الخلاف بين طوائف هؤلاء الرقيق أو المماليك تنطبع آثاره السيئة على العامة دائما ففي سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م عهد المستنصر «نهبت الجند دور العامة»^(٣) ووقفوا حجر عثره في سبيل الزراعة، فقد انتشروا في الدلتا وأفسدوا نظام الري، وتسببوا في هلاك الفلاحين، وفي أثناء ذلك كان الأتراك يجردون قصور الخلفاء الفخمة مما فيها ويشنتون مجموعات التحف الفنية والأحجار الكريمة والمجوهرات، وأسوأ ما فعلوا اقتحامهم للمكتبة النفيسة التي ليس لها مثل والتي احتوت على مائة ألف نسخة خطية استخدموها لإصلاح أحذيتهم وإشعال النيران فيها وإلقائها في القمامة^(٤).

وكثيرا ما كان هؤلاء يستمدون قوتهم من أنهم عبيد للخلفاء ويحظون بمؤازرة القواد فقد ذكر المسبحي أن الجواله من العبيد نزلوا ونهبوا بلدا بالأشمونين بالكامل حتى أن أحد الأفراد نهب منه تسع مائة رأس من البقر، وثلاثة آلاف رأس من الضأن وعندما التجأ دواس بن يعقوب متولى ديوان العرائف إلى معضاد الخادم الأسود أجاب «متقبل من عبيد مولانا»^(٥).

(١) انظر: المقرئزي، الخطط، جـ ١، ص ٣٤٣، ٣٤٤.

(٢) المقرئزي: اتعاط، جـ ٢، ص ٩٣.

(٣) الذهبي: العبر، جـ ٢، ص ٣١٧.

(٤) عبد الرحمن زكي: القاهرة، ص ٣٧؛ حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ ٤، ص ٥٨٩؛ ستاتلي

لينبول: سيرة القاهرة، ص ١٤١، ١٤٠.

(٥) المسبحي: أخبار مصر، ص ٢٠٣، ٢٠٤.

فكان جوابه يعد دعما لهؤلاء العبيد في استمرار نهب البلد^(١)، كما يوضح رد معضاد محاباته للسودانيين العبيد أبناء جنسه، وفي نهاية الدولة الفاطمية ثار حوالي عشرة آلاف من العبيد لقتل مؤتمن الخلافة مما أشاع الفوضى في المجتمع وألقى الرعب في نفوس الرعية^(٢).

وقد قال عنهم المقرئزي «فكان الضرر بهم عظيما لامتداد أيديهم إلى أموال الناس وأهاليهم فلما كثر بغيهم وزاد تعديهم أهلكهم الله بذنوبهم»^(٣).

وأحيانا كان هؤلاء المماليك يقفون إلى جانب المصريين في الشدائد ضد إحدى الطوائف منهم فعندما حرض الحاكم السودان على حرق مصر سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م ونهب ما فيها من أموال ومتاع وحريم، وقف الترك والمشاركة بجانبهم وعنفوا الخليفة واستحثوه على رحمة الشعب من هذا الخراب، ولكن بعد أن احترقت ثلث مصر ونهبت وسبى النساء والبنات^(٤)

وفي النهاية نستطيع القول بأنه على الرغم من أن الإسلام يساوي بين معتنقيه أحرارا كانوا أم غير ذلك إلا أن نظرة المجتمعات الإسلامية المختلفة إلى هذا الرقيق كانت غالبا دون الحر.

ولكن الرقيق في المجتمع الفاطمي تمتع بعطف السادة غالبا، فكان كثير من الأرقاء يحظون بحب السادة واحترامهم، فلم يكن هناك حواجز تمنع اتصال هؤلاء بطبقات الشعب المختلفة، فكانت العلاقة بين العبد وسيدته علاقة شخصية فالسيد امتلاك بدنه ولكن ليس له سلطان على قلبه إلا بالمودعة وحسن المعاملة فكثير من الرقيق كان يعامل معاملة حسنة، إلا إذا أساء الأدب فعلى سيده تأديبه فقد كان لبدر الدولة نافذ الخادم غلام يدعى حكل أدبه بضربه ثلاث مائة عصا، لأنه سرق تسعة

(١) ابن الفرات: تاريخه، جـ٤، ص ٧٧، ٧٨.

(٣) Yaacov lev - state and society v.1 p.76.

(٢) المقرئزي: الخطط، جـ٢، ص ٣١٩، ٣٢٠.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص ٩، ١٠.

آلاف دينار ولما تمت مواجهته بما فعل شتم وقذف فكان جزاؤه الضرب بالعصى^(١).
وتظهر ملامح المعاملة الحسنة لهؤلاء الرقيق من إغداق السادة عليهم بالمنح والعطايا ثم عتقهم في الكثير من المناسبات أو تقرباً لوجه الله تعالى.
وأخيراً فالعبد هو العبد مهما ارتقى من وظائف، ومهما اعتلى من سلطه، فكما كان ثواب ولائه العتق كان عقابه في أحيان كثيرة القتل، ولم تختلف نظرة الحكام لهؤلاء العبيد مهما تقربوا منهم فعندما يستلزم الأمر تظهر المشاعر الحقيقية من احتقار هؤلاء كعبيد. فبعد وفاة برجوان رغم ما كان يتمتع به من سلطة في عهد العزيز ثم في عهد ابنه الحاكم إلا أن الحاكم خاطب الناس حيث ثاروا قائلاً «كان برجوان عبدي وقد وظفته وعاملني بإخلاص فأحسنيت معاملته ثم أشعب فقتلته» فكانت الرسالة واضحة ضمن سطورها أن العبد هو العبد وقتله شيء تافه لا يهم الآخرين والمشاعر تجاه العبيد لا تختلف عبر العصور فأشعار المتنبي ضد كافور الخصي عكست وترجمت مشاعر الناس تجاه العبيد^(٢).

(١) المسبحي، أخبار مصر ص ٤٠.

(1) Yaacov Lev , Arab history and civilization. «state and society» V.1, P - 78.

الفصل الرابع

دور المماليك السياسي في مصر في العصر الأيوبي

الفصل الرابع

دور المماليك السياسي في مصر في العصر الأيوبي

مساندة المماليك لصالح الدين في إسقاط الخلافة الفاطمية

لم يكن القضاء على الخلافة الفاطمية مهمة شاقة أمام صلاح الدين الأيوبي ومن ناصره من المماليك في مصر، ذلك أن الخلافة الفاطمية كانت قد وصلت إلى نهاية المطاف طبقاً لنظرية قيام الدول وانهارها التي شرحها ابن خلدون، ويمكن القول أن الدولة الفاطمية كانت قد وصلت في تلك الحقبة من عمرها إلى مرحلة الشيخوخة فأصبحت هشة سهلة السقوط.

ومع ذلك فقد قام المماليك بدور أساسي في مساندة صلاح الدين في إسقاطها، وقيام الدولة الأيوبية في مصر.

لكننا يجب أن نوضح أن هناك عدة عوامل تضافرت على إضعاف الخلافة الفاطمية في مصر منها عوامل داخلية وأخرى خارجية، كلها أسهمت في الإسراع بالقضاء عليها وزوالها.

أما في الداخل فقد اسلم الخلفاء الفاطميون الأواخر زمام الأمر إلى وزراءهم، وأصبح للوزراء اليد الطولى في تعيين الأئمة وخلعهم، بالإضافة إلى اهتمام خلفاء الفاطميين بمشكلات الوراثة مما شغلهم عن القيام بواجباتهم الأساسية في إدارة شئون البلاد.

أما العوامل الخارجية فقد كان من أهمها ظهور الخطر الصليبي الذي داهم بلاد الإسلام، واقتطع أجزاء منها دون أن يدرك الفاطميون خطورته عليهم، بل أن الجيوش الفاطمية في فلسطين لم تقو على أن تصد ذلك الخطر ولا أن تدافع عن حدود مصر، وكان على الدولة الفاطمية أن تتحمل تبعات ذلك فقد تقاعست عن الدفاع عن البلاد والخلافة جميعاً^(١).

ومما لا شك فيه أن المماليك قاموا بدور بارز في تلك الفترة وأولئك هم الذين

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ١١٠؛ سعيد عاشور: مصر والشام عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٩ - ١٣.

أتوا مع أسد الدين شيركوه وصلاح الدين من قبل الملك العادل نور الدين زنكي وكانوا من الأتراك والأكراد فقد أدى النورية خدمات جليلة للإسلام وافتوا نظر صلاح الدين بشجاعتهم وفروسيتهم كما أن شيركوه كانت له فرقة تألفت من خمسمائة من المماليك الترك والكرد أطلق عليهم الأسيدي وهم الذين ظهر دورهم في القضاء على شاور وتمكين أسد الدين من الوزارة، كما استطاعوا فيما بعد القضاء على فتنة مؤتمن الخلافة وإسقاط دولة الفاطميين.

كان نور الدين يتطلع إلى مصر خاصة وقد سهل له هذه المهمة وزراء مصر فقد استنجد به شاور وزير العاضد الفاطمي ضد ضرغام، الذي أبعده عن الوزارة واستدعى أمراء مصر وضرب رقابهم جميعا وكان عددهم أربعين أميرا، ثم نهب دورهم، وكان شاور قد وعد نور الدين أن يعطيه ثلث أموال مصر إذا ساعده في استعادة الوزارة^(١). واستجاب نور الدين لهذا الطلب فأرسل معه عساكره وعلى رأسهم أسد الدين شيركوه أكبر أمرائه وأشجعهم^(٢) فهزم أسد الدين عساكر ضرغام وقتله عند قبر السيدة نفيسة وأعاد شاور إلى وزارة العاضد وكان ذلك في سنة ٥٥٩هـ/١١٣٦م وقيل سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م^(٣).

لكن شاور سرعان ما نقض عهده مع نور الدين وأسد الدين وأرسل إليه يطلب منه العودة إلى بلاد الشام فما كان من أسد الدين إلا أن استولى على بلبيس والشرقية مما حدا بشاور إلى الاستنجاد بالفرنج لإخراج أسد الدين من البلاد، وانتهاز هؤلاء الفرصة وساروا إلى مصر وانضم إليهم عسكرها وحصروا شيركوه ببلبيس

(١) ابن خلكان: وفيات، جـ ٢، ص ٤٤٤؛ وابن الأثير: الكامل جـ ١١، ص ٢٩٨ - ٢٩٩، ابن شداد: النوادر، ص ٢٦؛ وابن العبري: تاريخ مختصر الدول، جـ ٢، ص ٢١٢؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣، ص ٤١ والقلقشندي: صبح الأعشى جـ ٣، ص ٤٣٢؛ المقرئ: اتعاظ جـ ٣، ص ٢٦٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١١ ص ٢٩٨؛ والقلقشندي: صبح الأعشى جـ ٣، ص ٤٣٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١، ص ١٠٩؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٦؛ البنداري: سنا البرق الشامي، ص ١٩؛ أبو الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ٤١؛ المقرئ: اتعاظ جـ ٣، ص ٢٧١ - ٢٧٢.

لمدة ثلاثة أشهر الأمر الذي جعل نور الدين يسارع بالاستيلاء على حارم^(١) حتى يخلص شيركوه من حصارهم وفعلا راسل الفرنج شيركوه واتفقوا على الصلح فعاد إلى الشام سالما^(٢).

وكان من أهم نتائج تلك الحملة أن لفتت أنظار نور الدين وأسد الدين إلى أهمية مصر «فقد عاد منها وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد وعرف أنها بلاد بغير رجال تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهال والمحال» فأقام بالشام يفكر في كيفية الرجوع إلى مصر وأخذ يعمل على ترغيب نور الدين فيها ويطمعه في العمل على امتلاكها حتى نجح في إقناعه فجهزه بالعساكر والحشود سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م وأصر على أن يرافق صلاح الدين عمه أسد الدين رغم كراهية صلاح الدين لذلك^(٣).

ولما علم شاور ذلك داخله الخوف على البلاد من الأتراك فراسل الفرنج يستغيث بهم فخرجوا لملاقاة شيركوه في الطريق فغير شيركوه خط سيره ووصل إلى مصر وعبر النيل ونزل الجيزة واستولى على الغربية فاستنجد شاور بالفرنج فأسرعوا إليه طمعا في ملك مصر^(٤)، ورحل شيركوه نحو الصعيد، وجرت بينهم حروب شديدة^(٥). ورحل شاور والفرنج في أثره فخشي شيركوه أن ينهزم فاستشار أمراء

(١) حارم: حصن حصين وكورة جليلة في اتجاه إنطاكية وهي الآن من أعمال حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٢٠٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١١، ص ٢٩٩؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، جـ ١، ص ٢١٢ - ٢١٣ وتاريخ الزمان ص ١٧٧؛ أبو الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ٤١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٢، ص ٢٤٧ - ٢٤٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٤٣٣.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٦ - ٣٧ وانظر ابن خلكان: وفيات، جـ ٢، ص ٤٤٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٤٨؛ ابن تغري بردي: النجوم، جـ ٥، ص ٣٤٦ - ٣٤٨ وفتحية النبراوي: العلاقات السياسية، ص ١٩٠ - ١٩١.

(٤) أبو شامة: الروضتين، جـ ١، ص ٣٦٤ - ٣٦٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٤٩؛ فتحية النبراوي: العلاقات السياسية، ص ١٩٢.

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٧؛ المقرئ: اتعاظ جـ ٣، ص ٢٨٢ - ٢٨٥.

المماليك النورية، فنهض شرف الدين برغش^(١) معارضا قائلاً أنه من خاف من الأسر أو القتل فلا يخدم الملوك ويأكل رزقهم ويكون في بيته عند امرأته. وقال: والله لا نزال نقاتل إلى أن نقتل عن آخرنا أو ننتصر فوافقه أسد الدين وأعاد ترتيب عسكره^(٢).

وراسل أسد الدين نور الدين وأخبره بالأمر فجرد عساكره إلى بلاد الفرنج وأخذ المنيطرة^(٣) فخاف الفرنجة على بلادهم وعادوا بعد أن هزمهم أسد الدين «وطحطحهم الأتراك وكسروهم وانهزم من أمكنه الانهزام»^(٤) وقد أحرز أسد الدين ورجاله النصر رغم قتلهم إذ لم يتجاوز عددهم ألفي مقاتل، بينما كان عدد أجناد الفرنج والمصريين عشرة آلاف^(٥).

وعاد شيركوه إلى مصر، واتجه إلى الإسكندرية فاحتلها دون قتال وترك فيها صلاح الدين ابن أخيه، ورجع إلى الصعيد فملكه وأخذ الخراج من أهله في الوقت الذي أعاد فيه المصريون والفرنج ترتيب عسكرهم وحاصروا صلاح الدين بالإسكندرية واشتد الحصار فسار أسد الدين من الصعيد مسرعا لنجدته فطلب منه المصريون الفرنج الصلح على أن يؤدوا له خمسين ألف دينار^(٦) ويعود إلى بلاده وتبقى الإسكندرية للمصريين ويؤدي المصريون للفرنج مائة ألف دينار ويعودوا إلى بلادهم ويبقوا بها حامية تحرس أبوابها حتى لا يطمع بها أصحاب نور الدين فيما بعد

(١) شرف الدين برغش هو أحد المماليك النورية الذي اشتهروا بالشجاعة والجرأة وكانت له الكلمة المسموعة لدى أسد الدين وصلاح الدين، انظر أبي شامة: الروضتين، جـ ١، ق ١، ص ٣٦٤.

(٢) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٣٠ - ٣٣٦؛ انظر ابن الأثير: الكامل، جـ ١١ ص ٣٤٢ - ٣٢٥؛ وأبي شامة: الروضتين، جـ ١، ق ٢، ص ٣٦٥؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٧٨ - ١٧٩، وابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٥٠ - ١٥١.

(٣) المنيطرة: حصن بالشام قريب من طرابلس. ياقوت: معجم البلدان جـ ٤، ص ٦٧٣.

(٤) ابن شداد: النوادر، ص ٣٧؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٧٩ وللمزيد انظر ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٥١.

(٥) قارن ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٤٨؛ أبي الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ٤٣.

(٦) ابن الأثير: الكامل، جـ ١١ ص ٣٢٦؛ أبو الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ٤٣؛ الوردی: تمة المختصر جـ ٢، ص ١١١.

واصطلحوا وعادوا جميعا إلى الشام وتسلم المصريون الإسكندرية في شوال سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م^(١).

كان من نتائج تلك الجولة الثانية أن ازداد طمع أسد الدين في البلاد المصرية وكذلك خوفه الشديد من الإفرنج، فقد علم «أنهم كشفوها لما كشفها وعرفوها من الوجه الذي عرفها فأقام في الشام على مضض وقلبه مقلقل والقضاء يجره إلى شئ قد قدر لغيره»^(٢).

وعاد الفرنج لمهاجمة مصر وذلك عام ٥٦٣هـ/١١٦٧م ناقضين العهد، فأرسل الخليفة الفاطمي العاضد إلى نور الدين يستجده وأرسل إليه شعور نسائه طي الكتب^(٣). كما قام شاور بحرق مصر لمنع عموري من دخولها حتى قدوم أسد الدين، فأمر الناس بالجللاء عنها، وأرسل عبيده بالمشاعل والنفوط وأوقدوا النيران لمدة أربع وخمسين يوما واستدعى نور الدين أسد الدين من حمص وجهزه بمائتي ألف دينار^(٤) سوى الثياب والسلاح، واختار أسد الدين ألفي فارس من الأقوياء وستة آلاف من العسكر التركمان الذين يبدو أنهم من قبيلة الياروقي كان مصاحبا لشيركوه ومنح نور الدين كل فارس عشرين دينارا وكان مصاحبا له من المماليك النورية عز الدين جرديك^(٥) مملوك نور الدين وشرف الدين برغش. وعين الدولة

(١) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٧٩؛ أبو الفدا: المختصر، ج ٣، ص ١٤٣؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، ج ٢، ص ١١١؛ ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٢٨١؛ المقريزي: اتعاظ ج ٣، ص ٢٨٧.

(٢) ابن شداد: النوادر، ص ٣٧؛ انظر ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٢٨١.

(٣) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، ج ١، ص ٩؛ ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ق ١ ص ٢٦٨ - ٢٧٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٤٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ١٥٨، والنويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٤٠ - ٣٤١؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، ج ٢، ص ١١٥.

(٤) ابن الوردي: تنمة المختصر، ج ٢، ص ١١٥؛ ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٢٨١. والمقريزي: اتعاظ، ج ٣، ص ٢٩١ - ٢٩٣؛ وانظر

Gibb - Armies of Saladin p.74.

(٥) عز الدين جرديك النوري: كان من أكابر الأمراء النورية وخدم صلاح الدين في جميع غزواته وهو الذي قتل شاور بمصر واتصف بالشجاعة والشهامة توفي سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م. سبط =

الياروقي^(١) وغيرهم^(٢).

مقتل شاور: واجتمع رأي المماليك النورية على القضاء على شاور رأس
الحربة وقتله، لأنهم تأكدوا أنه يلعب بهم تارة وبالإفرنج تارة أخرى، وإن الطريقة
الوحيدة التي يستطيعون بها الاستيلاء على البلاد هي القضاء عليه، فقد كان يتحين
الفرص للتخلص من شيركوه^(٣). فقبض صلاح الدين والنورية ومنهم جرديك على
شاور في غفلة منه، وأدخلوه في خيمة منفردة وقطعوا رأسه وأرسلوها إلى العاضد
على رمح وتم تولية أسد الدين الوزارة وخلع عليه سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م ولقبه
العاضد الملك المنصور أمير الجيوش^(٤).

وكان صلاح الدين مباشر الأمور مقرر لها وزمام الأمر والنهي مفوض إليه
لمكان كفايته ودرايته وحسن تأنيه وسياسته^(٥)، وكان حضوره إلى مصر على كره
منه فقد أحب نور الدين مسيره وفيه ذهاب الملك من بيته وكره صلاح الدين المسير
وفيه ملكه^(٦).

وما لبث أسد الدين أن توفي في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة

^(١) ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، ق ٢، ص ٥٤٦؛ م مخطوط فتوح النصر: محمد بهادر، جـ ١، ص ٤٩؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٦١؛ الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٤٠٤.

^(٢) عين الدولة الياروقي: كان من التركمان عرفت باسمه محلة كبيرة بظاهر حلب كان قد نزل بها فسميت الياروقية - ياقوت: معجم البلدان، جـ ٥، ص ٤٢٥ وقد كان من أكابر الأمراء النورية وخدم صلاح الدين وكان يتصف بالشجاعة والكرم. الأصفهاني: الفتح القسي ص ١٧٠.

^(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٥٨؛ محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ٩ والنويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٤١ و Gibb - Armies of Saladin p.74.

^(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ١١، ص ٣٣٩؛ ابن شداد: النوادر، تنمة المختصر، جـ ٢، ص ١١٥.

^(٥) ابن خلكان: وفيات، جـ ٢، ص ٤٤٧ - ٤٤٨؛ ابن شداد: النوادر، ص ٤٠، وابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٨٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٦١ - ١٦٣ والنويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٤٣؛ محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ٩ والبنداري: سنا البرق، ص ٤١؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، جـ ٢، ص ١١٦ وابن كثير: البداية، جـ ٢، ص ٢٥٦ - ٢٥٧؛ المقرئ: اتعاظ جـ ٣، ص ٣٠١.

^(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٤٠.

^(٧) ابن الوردي: تنمة المختصر، جـ ٢، ص ١١٥.

٥٦٤هـ/١١٦٨م^(١) وبعد مرور أقل من ثلاثة أشهر فقط على توليه الوزارة وبعد وفاته ظهر بجلاء دور المماليك النورية والأسدية ومطالبتهم بأحقيتهم في الوزارة ومنهم الأمير عين الدولة الياروقي وقطب الدين خسرو بن تليل^(٢). وسيف الدين الهكاري^(٣) واختلفوا على شخص صلاح الدين، ولكن الأسدية ساندوا صلاح الدين^(٤) ونادوا له بالوزارة فعاد النورية الذين رفضوه أولاً إلى الموافقة وأعلنوا ولائهم له إلا عين الدولة الياروقي فقد سار بجنوده إلى الشام^(٥).

واجتمع المماليك الأسدية وكان عددهم خمسمائة على طلب الوزارة لصلاح الدين وذكروا أن أسد الدين أوصى إليه ومال العاضد إلى هذا الرأي قائلاً لهم «إني لأستحي من تسريح صلاح الدين وما بلغت غرضاً في حقه لقرب عهد عمه» «وخلع عليه بالوزارة ونعت بالملك الناصر»^(٦).

كان لهؤلاء المماليك الأتراك دور متميز في مساندة صلاح الدين للقضاء على الدولة الفاطمية ومناهضيها وبرز ذلك الدور حين اكتشف أحد هؤلاء الأتراك مؤامرة مؤتمن الخلافة^(٧) الخصي الأسود والذي كان زماماً لقصور العاضد الفاطمي وهذا يدل

(١) أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص٤٦ - ٤٧؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، جـ٢، ص١١٦ والمقريزي: اتعاظ، جـ٣، ص٣٠٤.

(٢) قطب الدين خسرو ابن تليل هو أحد أكابر الأمراء النورية وهو ابن أخي أبا الهيجاء الهذياتي الذي كان صاحب أربل. أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٠٦.

(٣) سيف الدين علي بن أحمد الهكاري هو أحد أكابر الأمراء النورية وكان جده صاحب قلاع الهكارية. أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٠٦.

(٤) عفاف صبرة: بهاء الدين قراقوش الوزير المفترى عليه، بحث بمجلة الدارة السعودية - العدد الثاني، السنة الثالثة عشر محرم ١٤٠٨هـ / أغسطس ١٩٨٧م ص١٣٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص٣٤٣، أبي شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٠٦ - ٤٠٧ وابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢١٣، وابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٦٨ - ١٦٩

وGibb. The Armies of Saladin p.74

(٦) المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص٣٠٧ - ٣٠٨ وانظر أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٠٧؛ وأبو الفدا: المختصر جـ٣، ص٤٧.

(٧) تفاصيل المؤامرة - انظر ابن واصل: مفرج الكروب جـ١، ص١٧٤ - ١٧٥ وابن الفرات: تاريخه جـ٤، ص٦٨ - ٦٩؛ المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص٣١١ - ٣١٢.

على مدى يقظتهم وذكائهم في فهم الأمور.

وكانت طبقة السود قد زادت في أخريات الدولة الفاطمية لاستعانة الخلفاء الفاطميين بقوات كثيرة من السودانيين والأحباش وصل تعدادهم في أيام صلاح الدين إلى مائة ألف مقاتل^(١).

وقد شعر هؤلاء السودانيون بمدى الخطر المحدق بهم من ازدياد نفوذ صلاح الدين، فحاك زعيمهم تلك المؤامرة فثار أكثر من خمسين ألفاً منهم^(٢) ووصلوا إلى باب صلاح الدين بأسلحتهم فأسرع إليه فخر الدين شمس الدولة توران شاه وأخبره بما جرى، ودار القتال بين القصرين وكادوا أن يغلبوا العساكر الشامية^(٣).

وكان العاضد يتطلع من منظره القصر ويراقب الموقف وكان سعيداً لما يحدث لممالكك صلاح الدين الأتراك وأمر جماعة عنده في القصر من السودان أن يرموا العساكر الشامية بالنشاب^(٤) والحجارة فأمر شمس الدولة النفاطين أن يحرقوا منظره العاضد^(٥)، فاستدرك العاضد الأمر وفجأة انفتح باب المنظر ونودي أن أمير المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السودان من بين أظهركم، ومن بلادكم، فقوى الشاميون وضعف جأش السودان^(٦). وكان العبيد مشتدين الأنفس بأن العاضد راضى بأفعالهم فلما سمعوا ذلك فت في أعضادهم فجببوا وتخاذلوا عند سماع هذا القول^(٧). وفروا وتتبعتهم العساكر الشامية وقتلوهم وأسروهم وكلما ذهبوا إلى مكان أحرقوه

-
- (١) عبده بدوي: السود والحضارة العربية، ص ١٤٦.
- (٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ ص ٢٥٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٢٤٠.
- (٣) ابن الفرات: تاريخه، ج ٤، ص ٧٠ وانظر ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ١٧٥ - ١٧٦.
- (٤) النشاب: هو ما يرمى به عن القسي الفارسي وهو يعكس النبال التي يرمى بها عن القسي العربي - انظر الفلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٤٢.
- (٥) ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٢٥٨.
- (٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.
- (٧) ابن الفرات: تاريخه، ج ٤، ص ٧٠ وابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١ ص ٢٤٠؛ جمال الشيال: تاريخ مصر، ج ٢، ص ٢١ - ٢٢.

عليهم إلى أن خرجوا إلى الجيزة فنهب المماليك الأتراك أموالهم وديارهم^(١). ولما هزم السودان وتم القضاء عليهم نهائيا ضعف أمر العاضد الفاطمي فلم يبق له غير الخطبة، وخلا لصالح الدين المسرح السياسي مما مهد لقيامه على رأس الدولة الأيوبية، ومات العاضد فأسقطت الخطبة سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م وزالت دولة الفاطميين التي امتدت مائتين وثمانين سنة وكسرا^(٢) فصاروا كأمس الذاهب كأن لم يغنوا فيها^(٣).

فقد اتسعت أطراف تلك الدولة وحكمت مدة من الزمان حتى كادت أن تملك ملكا عاما وان تدين الأمم لها وإليها^(٤).

ومما يؤكد دور هؤلاء الأتراك البارز في مساندة صلاح الدين للقضاء على تلك الدعوة تخوف العاضد منهم، فبعد رحيل الفرنج عن ثغر دمياط كتب نور الدين إلى العاضد يهنئه بذلك وكان العاضد قد كتب إليه بتخوفه من ولاء الأتراك وطلب منه مغادرتهم الديار، ويبقى صلاح الدين وخواصه فقط ولكن الملك العادل رد عليه بالمدح في هؤلاء وأنه لم يرسلهم ولم يعتمد عليهم إلا لعلمه بأن^(٥) قنطاريات الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك، وأن الفرنج لا يخافون إلا منهم ولولاهم لزاد طمعهم في البلاد والديار المصرية^(٦).

فقد شعر ذلك الخليفة بحسه السياسي أن في وجود هؤلاء المماليك الأتراك زوال ملكه فحاول إبعادهم ولكن كان الوقت قد فات.

(١) ابن واصل : مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٧٥ - ١٧٦؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ ٤، ص ١٧٠؛ مخطوط شفاء القلوب، ص ١٩؛ المقرئزي: اتعاظ، جـ ٣، ص ٣١٣ - ٣١٤.

(٢) محمد بهادر : مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ١٢-١٣؛ ابن العبري: مرآة الزمان، ص ١٨٧ وابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٧٨ - ١٧٩؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، جـ ٢، ص ١٢٢ والمقرئزي: اتعاظ جـ ٣، ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ٢٦٧.

(٤) ابن طباطبا: الفخري في الآداب، ص ٢٦٢.

(٥) القنطارية نوع من الرمح وهي لفظ من أصل يوناني وسميت هكذا لأنها تصنع من مادة الخشب يحمل هذا الاسم باليونانية- انظر ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٨٣، حاشية ٢.

(٦) ابن الفرات: تاريخه، جـ ٤، ص ٨٧.

وقد ذكر ابن الفرات حادثة تؤكد مساندة هؤلاء المماليك لصالح الدين في إسقاط الخلافة الفاطمية فقد ذكر أنه اجتمع بهم سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م واتفق معهم على أن يوكل كل واحد من مماليكه بواحد من أمراء المصريين فإذا خرج للخدمة يقبض عليه ويستولي على ما يخصه من اصطبل وخزائن وذخائر وإقطاع وعين لكل واحد من أمراء الشام أميرا من أمراء مصر فتجهزوا ولبسوا أسلحتهم وأحاط كل أمير منهم وعساكره ببית أمير من أمراء مصر فلما أصبح أمراء مصر وخرجوا كعادتهم للخدمة قوضوهم من كل الجهات وقتلوهم^(١) واستولوا على ممتلكاتهم من أهل ومال وخيول وعبيد وجوار فمن لم يقتل منهم أصبح أسيرا قال أمرهم إلى أن صار الأمير منهم بوابا على الدار التي كان يسكنها وصار آخر منهم سائس فرس كان يركبها وصار آخر وكيل القبض في بلد كانت إقطاعا له^(٢).

وكان ذلك قبل موت العاضد بمدة قليلة فاستاء لذلك وسأل صلاح الدين عن سبب ذلك فأخبره أنهم عاصيين للأوامر ففضل قتلهم والاستعانة بأمرائه الذين يمثلون للأوامر^(٣).

وعين صلاح الدين قراقوش الخصي وهو أحد مماليك عمه أسد الدين شيركوه زماما على القصور حتى يطلعه عما يدور فيها «فما كان يدخل إلى القصر شئ ولا يخرج منه إلا بمراى منه وسمع»^(٤).

فاحتباط هذا الخصي على أهل القصر وكانت عدة الأشراف مائة وثلاثين والأطفال خمسة وسبعين وأفرد لهم مكانا خارج القصر وجمع أقارب العاضد في إيوان بالقصر وفرق بين الرجال والنساء لنلا يتناسلوا وينقرض الفاطميون في أسرع وقت^(٥).

(١) ابن الفرات: تاريخه، جـ ٤، ص ١٢٩ - ١٣٠ والمقريزي: اتعاظ، جـ ٣، ص ٣٢١ و- Gibb

'Armies of Saladin p.74

(٢) المقريزي: اتعاظ، جـ ٣، ص ٣٢١.

(٣) ابن الفرات: جـ ٤، تاريخه ص ١٢٩ - ١٣٠؛ المقريزي: اتعاظ، جـ ٣، ص ٣٢١.

(٤) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢١٥؛ أبو الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ٥٠ - ٥١ والنويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٦١ المقريزي: اتعاظ جـ ٣، ص ٣٩٢؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ ٤، ص ١٣١، وانظر: عفاف صبرة: بهاء الدين قراقوش، ص ١٤٠.

(٥) ابن الفرات: تاريخه، جـ ٤، ص ١٦٦؛ المقريزي: خطط جـ ١، ص ٤٩٦.

ويذكر ابن أبيك أنه في سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢ أصدر السلطان صلاح الدين أمرا بقتل جميع السودانيين بالديار المصرية وسائر أعمالها^(١)، ويبدو أن ذلك أثار النوبيين الذين استفزهم أيضا عزوف صلاح الدين عن استخدامهم في الجيش الأيوبي واستبدالهم بالعناصر التركية والكردية فقاموا بعدة محاولات لاسترداد مركزهم الذي فقدوه بعد زوال الخلافة الفاطمية^(٢).

فخرج في تلك السنة العبيد من بلاد النوبة لحصار أسوان وكان بها شخص يدعى كنز الدولة^(٣) فأرسل لهم السلطان الشجاع البعلبكي على رأس العساكر فسار إلى أسوان سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م فرحل عنها العبيد فتبعهم هو وكنز الدولة الذي كان وقتها مواليا للسلطان وقتلوا منهم الكثير وعاد إلى القاهرة^(٤).

ثم حدث أن قام هذا الرجل الذي يدعى كنز الدولة سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م بجمع أهل الصعيد لخلاف بينه وبين صلاح الدين الذي اتهم الكنز بتشجيعهم للعلوية ومناصرة الفاطميين روحيا^(٥) فخيل له أنه يستطيع تملك البلاد، واجتمع عليه الكثير من السودانيين^(٦) وسار متجها إلى القاهرة في مائة ألف^(٧) وسار حتى قصد قوص فأرسل إليه صلاح الدين الكثير من العساكر وعلى رأسهم أخيه الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب^(٨).

(١) ابن أبيك: كنز الدرر، جـ٧، ص ٥٠.

(٢) مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١٣٦؛ مكي شبكة: السودان عبر القرون، ص ٣٥.

(٣) كنز الدولة من مقدمى المصريين نزح إلى أسوان وجمع السودانيين وأوهمهم أن باستطاعته ملك البلاد وإعادة الدولة المصرية فاجتمع عليه ناس كثيرين والتفوا حوله فجرد له السلطان عسكرا عظيما وقدم عليهم أخاه العادل سيف الدين فاستأصلهم سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م. ابن شداد: النواذر ص ٤٧ - ٤٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ١٦ - ١٧.

(٤) أبى شامة: الروضتين، جـ١، ق ٢، ص ٢٣١؛ المقرئ: السلوك، جـ١، ق ١، ص ٥٠؛ ابن تغري بردي: النجوم، جـ٦، ص ٢٤٠؛ مكي شبكة: السودان عبر القرون، ص ٣٤.

(٥) مكي شبكة: السودان عبر القرون، ص ٣٤ - ٣٥.

(٦) ابن شداد: النواذر السلطانية، ص ٤٧ - ٤٨.

(٧) اليافعي: مرآة الجنان، جـ٣، ص ٣٩٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، جـ٦، ص ٧٨.

(٨) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ١٦ - ١٧.

وكان لممالك الأتراك دور كبير في القضاء على كنز الدولة، فقد وصفهم ابن شداد أنهم عسكرا عظيما شاكين في السلاح من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية وخافوا على فوت ذلك منهم^(١) فقاموا بالقضاء على الكنز وقتله هو ومن معه واستأصلوا شأفتهم وكان الكنز قد فتك بأخ لأحدهم وهو حسام الدين أبي الهيجاء السمين وبمن معه فقام العسكر عليهم في قرية طود^(٢) فأبادوا الكنز وأصحابه بالسيف حتى أجهزوا عليهم في سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م^(٣).

كانت كل تلك الأسباب مجتمعة هي التي دعت صلاح الدين إلى تصفية الجيش الفاطمي واستبداله بالفرق الخاصة من الممالك النورية والأسدية والصلاحية^(٤).

وجدير بالذكر أن صلاح الدين استعرض كل قواته في سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م سواء القديم منها والجديد أثناء وجود رسل من اليونان والفرنجة وكان العدد يقدر بحوالي ١٧٤ وحدة وكل وحدة أو كتيبة تتكون من قائد، وهو حامل العلم والرمح، ثم حامل البوق ثم عدد من الفرسان يتراوح ما بين مائتين إلى مائة أو سبعين وكل إجمالي الوحدات أربعة عشر ألف فارس غالبيتهم من الطواشية والقراغلامية واستعرض القوات العربية التي كانت في خدمة السلطان وقدر عددهم بسبعة آلاف فارس ثم تحدد بعد ذلك عددهم بألف وثلاثمائة فارس فقط^(٥).

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) طود: بليدة في الصعيد الأعلى فوق قوص ودون أسوان بها مناظر وبساتين تشأها الأمير درباس الكردي في عصر صلاح الدين. ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٥٦.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٧؛ المقرئ: السلوك، ج ١، ق ١ ص ٥٧ - ٥٨؛ ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ٦، ص ٧٨.

(٤) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص ٩٠ - ٩١؛ العبادي: قيام دولة المماليك ص ٨٣.

(٥) Gibb. The armies of Saladin p.75.

استخدام صلاح الدين للماليك

استطاع صلاح الدين أن يقضي على الخلافة الفاطمية وأن يعيد مصر إلى المذهب السني وأن يقيم فيها دولة جديدة هي الدولة الأيوبية.

وقد سار صلاح الدين على نهج النظام السلجوقي^(١) الحربي والعسكري فقد نشأ صلاح الدين في كنف نور الدين بن زنكي الذي اعتمدت دولته في سياستها ونظمها على أنظمة دولة السلاجقة^(٢).

وكان نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي (٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م) هو أول من ابتدع نظام الإقطاع الحربي^(٣) ذلك النظام الذي كان يعتمد في قوته العسكرية على قوات مأجورة أو مشتراه تدفع رواتبها من مستغلات الإقطاعات والأراضي والقصور والمون وكان سلاطين السلاجقة لا يولون الوظائف القيادية في الدولة لرجال من الأحرار شكا منهم في إخلاصهم، كما أنهم لم يعتمدوا في تكوين جيشهم على جنس واحد بل اعتمدوا على أجناس متعددة فكان الحرس الخاص للسلطان من الأرقاء وأصبح منهم كبار الموظفين الذين كان يتم تعيينهم وفقا لمعايير خاصة تبين قدراتهم ومواهبهم، ومدى استعدادهم ثم يتدرجون في سلك الوظائف إلى أن يعتقوا في النهاية ويصيروا أحرارا، وبذلك يظهر أن الجيش قد تكون من نوعين من الجنود هما:

المرتزقة والأرقاء، ومنهم ظهر معظم القواد الذين أعدهم السلاطين السلاجقة لولاية زمام الأمور الحربية وغير الحربية اعتقادا منهم أن نشأتهم في البلاط السلجوقي تزيد في إخلاصهم لهم^(٤) أما الوظائف المختلفة فكانت توكل إلى من يؤدي

(١) نظير حسان سعداوي: حبش مصر، ص ٢٠١، والعبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ٧٣-٧٦.

(٢) فتحية النبراوي: العلاقات السياسية الإسلامية، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٣) سعيد عاشور: البنية البشرية لجيوش صلاح الدين، بحث منشور بالمجلة العربية للعلوم الإنسانية ص ٩، ١٠.

(٤) سعيد عاشور: البنية البشرية لجيوش صلاح الدين ص ٩ - ١٠، محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص ١٥٠ - ١٥١.

منهم خدمات هامة للدولة، أو يظهر من الكفاءة والإخلاص ما يؤهله للوصول إليها سواء كان ذلك في الجيش أو البلاط أو حكم إقليم من أقاليم الدولة السلجوقية المترامية الأطراف وكان هؤلاء الأرقاء غالباً ما يتمردون على سادتهم ويستقلون بحكم تلك الأقاليم حتى تفككت عرى الدولة السلجوقية وانقسمت إلى دويلات، واستولى هؤلاء المماليك أو الأتابكة^(١) مثل أتابكية كيفا وماردين ودمشق والدانشمند والموصل والجزيرة وسورية وغيرهما على النفوذ والسلطان، وأطلق على هذه الدويلات فيما بعد دول الأتابكة كما أن السلاجقة أطلقوا يد القواد في أماكن مختلفة من بلاد السلاجقة وعرفوا بالشاهات كشاهات خوارزم وشاهات أرمنية وقد أورثوا هذا لأبنائهم^(٢).

كاتب تلك الإقطاعات التي أنشأها السلاجقة بقصد الدفاع عن إمبراطوريتهم سبباً في القضاء عليهم، فقد تحول حكمها وأمرؤها من أوصياء على أبناء السلاطين عن طيب خاطر إلى سلطة فعلية وراثية شكلت خطراً قوياً على السلاجقة.

وعلى ذلك الأساس قامت الكثير من الأسر الحاكمة بالشرق الأدنى وغالباً ما كان هؤلاء من الرقيق الذين نشأوا في ذلك البلاط وظهروا على أيدي أولئك السلاطين فاتابكة الموصل ينتمون إلى عماد الدين زنكي بن أفسنقر مملوك ملك شاه وatabike دمشق ينتهي نسبهم إلى ظهير الدين طغتكين أحد ممالك تتش بن الب أرسلان، وقد جاء قيام تلك الدويلات والأسر الحاكمة مثلاً حياً أمام كل من كانت له طموحات في تكوين بيوتاً حاكمة مثلهم ومن أولئك نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه وجميع الأسر الأيوبية^(٣).

(١) الأتابك: وتتألف من كلمتين: هما «أطأ» بمعنى أب و«تبك» بمعنى أمير. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٤٦ وكانت مهمته الوصاية على أولاد السلطان ورعايتهم وتربيتهم وكانت غالباً مقصورة على أمراء الترك وأول من لقب بها نظام الملك. حسن الباشا: الفنون والوظائف، ج ١، ص ٣.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ٤، ص ٦١ - ٦٢ وانظر Gibb - The Achievement of Saladin p.95.

(٣) Gibb - The Achievement of Saladin p.95.

وبما أن البيت الأيوبي نشأ في كنف السلاجقة وأن نجم الدين أيوب وأخاه أسد الدين شيركوه كانا من أمراء عماد الدين زنكي أحد رجال السلطان محمود السلجوقي فقد أقطعها زنكي سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م عدة إقطاعات في شمال العراق، وكذلك عندما خلف نور الدين محمود أباه عماد الدين زنكي في حكم الموصل وحلب دخل الأخوان أيوب وشيركوه في خدمته فزاد نور الدين محمود من إقطاعاتهما بعد أن صارا من جملة أتباعه واعتمد عليهما في كثير من المهام الصعبة^(١)، فقد ادخل عماد الدين زنكي وولده العادل نور الدين نظام الإقطاع الحربي تأثرا بأنظمة الدولة السلجوقية وسار صلاح الدين على نفس النهج وأدخل ذلك النظام في مصر فقد كانت تقسم الأراضي والقرى على قواد جيشه^(٢).

فلما أرسل نور الدين محمود حملاته الحربية الثلاث إلى مصر بقيادة شيركوه وبصحبه ابن أخيه صلاح الدين سنة ٥٥٩-٥٦٤هـ/١١٦٤-١١٦٨م كانت تلك الجيوش جيوشا إقطاعية تتألف من عدد من الأمراء المقطعين لكل منهم أجنادهم ومماليكهم وعلى رأسهم جميعا شيركوه أكبر الأمراء المقطعين لنور الدين^(٣) فقام صلاح الدين بعد سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م بالتخلص من الأمراء المصريين الفاطميين والعبيد السود وبدأ في استجلاب عسكرا من الأتراك والأكراد^(٤).

وعلى أحمد بيومي: قيام الدولة الأيوبية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة ١٩٤٦ ص ١٢.

(١) ابن خلكان: وفيات جـ ١، ص ٢٦٠، فتحية النبراوي: العلاقات السياسية الإسلامية، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ١٧٢، - Gibb - The Achievement of Saladin p.75 - 76.

(٣) سعيد عاشور: البنية البشرية لجيوش صلاح الدين، ص ١٣ - ١٤.

(٤) نظير حسان سعداوي: جيش مصر ص ٦، ٧ و Gibb - The Achievement of Saladin p.74.

فقد أدرك مدى أهمية توحيد القوى الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي وقد كلفه هذا الأمر الكثير من الجهد والوقت ولكن إيمانه بتلك القضية كان يدفعه للتغلب على الكثير من الصعاب^(١)، وأهمها استبعاد العناصر التي تمثل خطورة على مركزه، أولئك الذين أتوا معه مثل عين الدولة الياروقي وغيره ممن اعترض على تعيينه في الوزارة الفاطمية^(٢).

وقام بشراء مجموعة من المماليك الأتراك بلغ عددهم اثني عشر ألف مملوك وكون لنفسه منهم فرقة لقبت بالصلاحية أو الناصرية نسبة إليه^(٣) وكان من أشهرهم علم الدين كرجي وسيف الدين سنقر الدوري وأبيك الساقى وركن الدين منكورش وفارس الدين ميمون القصرى^(٤) وكان قائدهم أبا الهيجاء السمين^(٥).

(١) فتحة النبراوي: العلاقات السياسية والإسلامية، ص ١، ٢ و Gibb - The Achievement of Saladin p.100.

(٢) نظير حسان سعداوي: جيش مصر، ص ٦ - ٧.

(٣) أنور زقلمة: المماليك في مصر، ص ١٤؛ أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، ج ٢، ص ٧.

حاشية ١ و Gibb - The Achievement of Saladin p.74

(٤) كانوا من كبار أمراء الصلاحية الذين شاركوا صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين وقد كان لهم من الإقدام والشجاعة ما تغنى به الكثير من المؤرخين- انظر عماد الدين الأصفهاني- الفتح القسي ص ٤٧٢ وقد ذكر ابن العديم أنهم خدموا بعد صلاح الدين = الملك الأفضل وبعد فساد أحواله اتصلوا بالعزیز لخدمته. انظر ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣، ص ١٣٠ وقارن ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦، ص ٢١٨.

(٥) كان من كبار أمراء صلاح الدين اتصف بالكرم والشجاعة شارك صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين ثم أقامه العزيز على القدس ثم عزله فسار إلى بغداد وأصبح من جملة أمراء الخليفة وسيره إلى همذان فلم يتم له أمر ثم سار إلى الشام ومرض في الطريق ومات وهو نازل على تل بالشام ودفن فيه سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م انظر ابن شداد: النوادر، ص ١٣٤ وقارن ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٤، ص ٣١٧ وعبد العزيز عبدالدايم: الرق في مصر، ص ٢٦.

كما اشتهر منهم أيضا المبارز بن يوسف بن خطلخ وإيبك فطيس^(١)
 وجهاركس الصلاحي^(٢) وإياز الطويل^(٣) وسيف الدين بن المشطوب^(٤)
 وسنقر الخلاطي^(٥) وأيبك الأطرش^(٦) وصارم الدين قايماز النجمي^(٧)

- (١) وهما من كبار أمراء الصلاحية اتصفوا بالشجاعة والإقدام. الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٤٧٢.
- (٢) جهاركس بن عبد الله الصلاحي: ويكنى أبا المنصور ويلقب فخر الدين كان عالي الهممة شديد العزم وهو أحد أمراء الدولة الصلاحية الناصرية توفي سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م بباتياس - ابن الفرات: تاريخه، ج ٥، ص ١٢٢ وقارن المقرئزي: السلوك، ق ١، ص ١٧٥.
- (٣) إياز الطويل: كان من معاليك صلاح الدين وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة حتى وصفه ابن الأثير «أنه لم يكن في زمانه مثله» وتوفي في ٩ شعبان سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م انظر ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، وقارن ابن شداد النوادر السلطانية، ص ١٨٠.
- (٤) هو أبو عباس أحمد بن الأمير سيف الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن أبي الهيجاء ابن عبد الله بن أبي الخليل ابن مرزبان الهكاري المعروف بابن المشطوب الملقب عماد الدين والمشطوب لقب والده وقيل له ذلك لشطبه كانت بوجهه كان أميرا كبيرا وافر الحرمة عند الملوك معدودا بينهم مثل واحد منهم وكان كبيرا شجاعا وكان من أكابر أمراء الصلاحية كانت له وقائع كثيرة في الخروج على ملوك الأيوبيين إلى أن توفي في الاعتقال في ربيع الآخر سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م - انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٨٠ - ١٨١ والتويري: نهاية الأرب، ج ٢٩، ص ٩٠ حاشية ١ وهو صاحب العبارة المشهورة التي قالها صلاح الدين عندما حاصر الفرنج بيت المقدس سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م أستحث صلاح الدين معاليكه لحربهم ونجدة المسلمين فرد عليه ابن المشطوب قائلا «يا مولانا:- نحن معاليك وعبيدك وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا وليس لنا إلا رقابنا وهي بين يديك والله ما يرجع احد منا عن نصرتك إلى أن نموت» انظر ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢١٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣٨٥ - ٣٨٦.
- (٥) سنقر الخلاطي: هو حسام الدين أحد معاليك صلاح الدين المعدودين توفي في رجب سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م، الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٢٠٢، حاشية ١، وص ٢٣٨.
- (٦) إيبك الأطرش أحد شجعان الصلاحية وكان مملوكا لصلاح الدين موصوفا بالشهامة قتل أثناء حربه ضد الصليبيين وحصار الفرنج لصيدا في جمادي الأولى سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م - الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٢٩٠ وابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٨٤ - ٢٨٥.
- (٧) قايماز النجمي: صارم الدين أحد معاليك صلاح الدين الشجعان شارك في حصار قلعة كوكب إلى أن فتحها السلطان وكان شجاعا مقداما، الأصفهاني: الفتح القسي ص ١٧٨ - ١٧٩ وص ١٩٢.

وشمس الدين بن المقدم^(١).

اهتم صلاح الدين بشراء الممالك الترك على اختلاف أجناسهم والذين ترجع جذورهم إلى منطقة سهوب وسط آسيا وغربها وكان معظمهم من الأتراك والأكراد والتركمان^(٢)، وكان عليهم التصدي للحروب والغزوات وصيانة الحدود والحصون ولا يغادرون العاصمة إلا مع السلطان ويطلق على رؤسائهم لقب «مقدموا الممالك السلطانية» وكل مقدم يتراأس خمسين مملوكا^(٣) وكانوا «إذ ذاك لا يجلبهم التجار ببيعهم أو التطرق إليهم»^(٤).

وكانوا بمثابة حراس للسلطان، لا يفارقونه حتى عندما يتفرق العساكر للراحة في فصل الشتاء^(٥)، وقد وصفهم القلقشندي أنهم «أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدرا وأشدّهم إلى السلطان قربا وأوفرهم إقطاعا ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة»^(٦).

أما جند الحلقة فهم «عدد جم كثير وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم بواسطة النزول عن الأقطاعات... ولكل أربعين نفسا منهم مقدم منهم ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر في الحرب كانت موافقه معهم وترتيبهم في موقفهم إليه»^(٧).

وقد استخدم تعبير أبناء الحلقة هذا في عهد صلاح الدين واختلف تفسيره لدى المؤرخين فقليل أنهم سموا كذلك لإحاطتهم بالسلطان وتأليفهم حرسه وقيل أنه اسم مشتق من تكتيك عسكري استعمله الأتراك في الهجوم وذلك بأن يحيطون بعدوهم

(١) شمس الدين بن المقدم: أشهر ممالك صلاح الدين وأحد كبار أمرائه. النويري: نهاية جـ ٢٩، ص ١٢٢.

(٢) سعيد عاشور: البنية البشرية، ص ١٧، ١٨ و Gibb - Armies of Saladin p.74

(٣) نظير حسان سعداوي: جيش مصر، ص ٢٧

(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٤٥١.

(٥) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص ١٤٨-١٤٩.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١٥-١٦.

(٧) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ٢ ص ٢٨١ حاشية ٥ وقارن جواتفيل: القديس لويس، ص ١٣٨-

على شكل حلقة لشل حركته^(١).

وبازدياد الاعتماد على المماليك في الجيش تضاعف نفوذ أبناء الحلقة نظرا لأنهم كانوا من غير المماليك ويضمون أو يتألفون عادة من أبناء المماليك أو أفرادا من سكان مصر الذين احترفوا الجندية كما أطلق عليهم لقب أولاد الناس حتى ولو كانوا من نسل المماليك الذين ولدوا في مصر مسلمين فهم أحرارا وليسوا مماليك وكان أولاد الناس ويسمون الأسياد أو أولاد الملوك^(٢). وقد انتشر الارتزاق بالجندية انتشارا واسعا في العصور الوسطى في الشرق والغرب وبمرور الوقت أصبح معظم هؤلاء من أهل مصر ومن أصحاب الحرف والصناعات فلم يكن تغيير هذه الطبقة مرتبطا بتغيير السلاطين وإنما بقيت أساسا دائما للجيش في مصر وكان جند الحلقة يتم تنظيمهم تنظيما دقيقا فكانوا يقسمون إلى مائة ويطلق على رئيسهم باش أو باش العسكر أو يقسمون إلى أربعينات عليهم مقدم الأجناد وكان جند الحلقة يسجلون في ديوان الجيش ولهم الحق في الإقطاعات وذلك باسم امرائهم^(٣).

وعلى ذلك يمكن القول أن الجيش النوري المكون من ثمانية آلاف جندي^(٤) والذي شارك في الحملة الثالثة بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين كان بمثابة النواة الحقيقية للجيش المصري في عصر الأيوبيين فقد شارك هؤلاء في تأسيس الدولة الأيوبية والتمكين لصلاح الدين بها فرأى أن يقرب المماليك الأسدية المنتسبين إلى عمه المتوفي وعدتهم نحو خمسمائة مملوك وكانوا من الأتراك والأكراد والتركمان تحت قيادة مجموعة من الأمراء لكل منهم اتباعه ومماليكه^(٥).

(١) عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر، ص ١٨-١٩.

(٢) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي من عين جالوت إلى رشيد، ص ١٠-١١، وعبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر ص ١٨-١٩.

(٣) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي ص ١٠-١١، وقارن عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم، ص ١٤٩.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ١٥٨.

(٥) سعيد عاشور: البنية البشرية، ص ٢٤؛ محمد أمين علي: السلطان الملك الصالح، رسالة ماجستير جامعة القاهرة سنة ١٩٦٨م، ص ١٥٥-١٥٦.

وقام بالاستغناء عن كبار قادة المماليك النورية، وسمح لهم بالعودة إلى الشام ثم عمل على تكوين فرقة من المماليك خاصة به أطلق عليها لقب الصلاحية أو الناصرية نسبة إليه وأحيانا كان يطلق عليهم المماليك الخواص ومن هاتين الطائفتين الأخيرتين كانت نواة جيشه الحقيقي^(١).

وقد أعدق عليهم صلاح الدين الإقطاعات^(٢) المختلفة ليضمن ولاءهم له فخاضوا معه الكثير من المعارك ضد الصليبيين وكان لهم دور بارز في فتح الساحل وقلاع الصليبيين^(٣).

(١) نفسه ١٥٥-١٥٦.

(٢) قام هذا النظام الإقطاعي على أساس فكرة الحقوق والواجبات المتبادلة بين الأمير أو السيد الإقطاعي من ناحية وأفصاله المقطعين من ناحية أخرى بمعنى أن الأرض أو المدن أو القلاع والحصون التي يتم إقطاعها للأفصال والأتباع تكون مقابل خدمات حربية يلتزمون بتقديمها لسادتهم الإقطاعيين متى طلب منهم. سعيد عاشور: البنية البشرية، ص ١٣ وجدير بالذكر أن نظام الإقطاع اختلف في ظل الدولة الأيوبية فقد كان يعطي الجند حق الانتفاع بدخل الإقطاعات دون امتلاكها وليس لهم حق الوراثة في الانتفاع بها. أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية، ص ٣٩.

(٣) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص ١٤٨-١٤٩ و Gibb – Armies of saladin p.p. 77-78.

مساندة المماليك لصالح الدين

في حروبه ضد الصليبيين

وقد تزامنت الحروب الصليبية مع دخول عناصر جديدة من شعوب آسيا الوسطى في الإسلام وكانت لهم حماسة شديدة لحماية عقيدتهم وأمد هؤلاء المسلمون الجدد من الأتراك السلاجقة أو التركمان والأكراد الدولة الإسلامية بطاقات متعطشة للدفاع عن دينها وكيانها مما أعطاهم الفرصة للحلول محل البيوت العربية المتداعية ففرضوا سيادتهم على بعض الأقاليم حاملين لواء التصدي للخطر الصليبي والزود عن الإسلام^(١).

واختلف المؤرخون حول تسمية جنود صلاح الدين بعساكر مصر فمنهم من يرى أن العساكر الأسدية من بقايا أسد الدين شيركوه ومماليكه والصلاحية لقبوا بعساكر مصر حيث أنهم تمركزوا فيها وأقاموا بها وأنهم من الأكراد والأتراك وليسوا من أبناء مصر الأصليين^(٢)، ويرى فريق آخر أن العساكر المصرية هم مصريون أصلاً وليسوا مماليك مشتركين ويذكر أن صلاح الدين عندما قضى على الفاطميين فقد جعل من مصر وأهلها ركيزة لجيوشه فجندده الملقبون بالصلاحية أو الخاصكية أو أبناء الحلقة هم الذين ساعدوه في بداياته ولم يتعد عددهم الآلاف أما بالنسبة للمعارك الكبرى المصرية فإن صلاح الدين اتخذ من المصريين ركيزة جيشه ووصل عددهم إلى مئات الألوف مستندين في ذلك الرأي إلى العماد الأصفهاني في الفتح القسي بأنه كان يقاتلهم بعسكر مصر التي جاءته «بأهلها السمر» وأن طوائف الصلاحية لم يتعد دورها حراسة السلطان^(٣).

ويمكن أن نرجح الرأي الأول لعدة أسباب منها: أنه لو كان المصريون اشتركوا

(١) سعيد عاشور: البنية البشرية لجيوش صلاح الدين، ص ١.

(٢) نفسه ص ٢٥.

(٣) عبد المنعم ماجد: المصريون وحدهم استردوا بيت المقدس من الصليبيين. الموسم الثقافي،

الجمعية التاريخية ١٩٧٨-١٩٨٣ طبعة ١٩٨٤م ص ٩٦-٩٧.

بالفعل في تلك الحروب لذكرت المصادر المعاصرة أسماء من لمعوا مع مجاهدي الحركة الصليبية في تاريخ تلك الفترة ضمن ذكرها لأسماء هؤلاء فقد ذكر الأصفهاني: علم الدين كرجي وسيف الدين سنقر الدوري وهم من «المماليك الناصرية والمساكير الأسدية» أنهم جماعة من عسكر مصر والقاهرة^(١)، وقوله بعد تحرير الكرك^(٢) «وأقفر بلد الشرك وامتلاً من الكرد والترك»^(٣).

كما أنه لو كان عدتهم بمئات الألوف لما احتاج الأيوبيون إلى شراء واستجلاب المماليك من الأتراك وغيرهم.

كما ذكر ابن شداد بعض أسماء برزت في المعارك ومن قوله «أن مملوكا للسلطان يدعى سراسنقر وكان شجاعا قد قتل من أعداء الله خلقا عظيما وفتك فيهم فأخذوا في قلوبهم من نكايته فيهم فمكروا به وتجمعوا حوله وكمنوا له وخرج إليه بعضهم وتراءوا له فحمل عليهم حتى صار بينهم ووثبوا عليه من سائر جوانبه فأمسكوه وأخذ واحد بشعره وضرب الآخر رقبتة بسيفه فإنه كان قتل له قريبا فوقعت الضربة في يد الماسك بشعره وقطعت يده وخلي عن شعره فاشتد هاربا حتى عاد إلى أصحابه وأعداء الله يشتدون عدوا خلفه فلم يلحقه منهم أحد وعاد سالما والحمد لله»^(٤).

فقد عكس نجاح القوى الصليبية في أواخر القرن الخامس الهجري مدى ضعف المسلمين في تلك الفترة حيث انشغلوا بمشاكلهم وتصارعهم على الحكم وكان لانقسامهم أثر كبير في تحقيق الصليبيين الانتصار تلو الآخر حتى ضاع بيت المقدس وتم سيطرتهم على فلسطين.

ولما استقر الصليبيون في الشام بدأوا يفكرون في توسيع حدودهم وتطلعوا إلى

(١) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٤٧٢.

(٢) الكرك: قرية في جبل لبنان بينه وبين القدس مسيرة يوم. رحلة ابن جبير: ص ٢٦٠، ط بيروت ١٩٦٤م، ص ٢٦٠.

(٣) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٥٩.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١١٧.

السيطرة على مصر والبحر الأحمر تمهيدا للاستيلاء على الأراضي المقدسة الإسلامية مما حدا بالمسلمين إلى إحياء روح الجهاد واستطاع عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود من بعده أن يبعثوا في المسلمين روح الجهاد ويوحدوا الصفوف ويكونوا الجبهة الإسلامية للتصدي لخطر الصليبيين.

لقد أخذت الدولة الأيوبية على عاتقها مواجهة الخطر الصليبي وأخذت تعد العدة لمواجهته وقد استطاع صلاح الدين أن يسخر امكانيات مصر الاقتصادية والبشرية بالإضافة إلى إمكانيات الشام والجزيرة من أجل خدمة ذلك الهدف.

وقد ساعد صلاح الدين في سرعة تحقيق هذا الهدف قيامه على رأس السلطة السياسية في مصر ثم تحسين علاقاته بالخلافة العباسية في بغداد مما أضفى على تحركاته شرعية وتأثيرا اسلاميا عاما، ثم وهب صلاح الدين نفسه للجهاد وقد أكد شداد^(١) هذا بقوله: «وقد كان حبه للجهاد والشفغ به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آله ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه».

وفي سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م قرر صلاح الدين مهاجمة الفرنج وتطهير بلاد المسلمين منهم، فخرج إليهم قرب عسقلان والرملة^(٢) وحاربهم فيها ثم عاد إلى مصر ثم خرج إلى آيلة^(٣) وحصرها برا وبحرا وفتحها في نفس

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٤٤.

(٢) عسقلان: هي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين يقال لها عروس الشام. ياقوت: معجم البلدان، ج ٦، ص ١٧٤، والرملة: مدينة عظيمة بفلسطين وكانت العاصمة الحربية لها في عهد عمر بن الخطاب ثم انشأها هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥/١٢٥هـ لتقوم بدور رئيسي في حماية الثغور والدفاع عن المدن الساحلية حتى استولى عليها الصليبيون في نهاية القرن الخامس الهجري ثم استعادها المسلمون مرة أخرى. انظر محمد عبد الهادي شعيرة، الرملة ورباطاتها السبعة - بحث بمجلة الجمعية التاريخية، مجلد ١٥، ١٩٦٩، ص ٣٧ - ٤٨.

(٣) آيلة: على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام. ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٢٢.

السنة واستباح أهلها (١)

كما يذكر ابن واصل من نوادر واقعة الكمين: أن مملوكا من ممالك السلطان يقال له أيبك أثنى بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تشجب دما وبيات ليلة أجمع على تلك الحال إلى صبيحة يوم الثلاثاء فتفقد أصحابه فلم يجدوه فعرفوا السلطان فقده فأنفذ من يكشف حاله فوجده بين القتلى فحملوه إلى المخيم وداووه وعافاه الله تعالى وعاد السلطان إلى المخيم عاشر جمادى الآخرة فرحا مسرورا (٢).

وكان ممالك صلاح الدين الأتراك قد وصلوا لدرجة من التمكن والقوة بحيث أنهم باتوا يعارضوه وهو بدوره يحترم آرائهم ويستمع لمشورتهم (٣).

وقد أبلى هؤلاء بلاء حسنا في معارك تحرير بيت المقدس سنة ٥٧٠هـ - ٥٨٢هـ / ١١٧٤م - ١١٨٦م فقد توجه صلاح الدين برجاله لتحرير بيت المقدس «فإنه مكث في يد الكفر إحدى وتسعين سنة لم يتقبل الله فيه من عابد حسنة ودامت هم المملوك دونه متوسنة (٤) وخلفت القرون عنه متخيلة وحلت الفرنج به متولية، فما أخر الله فضيلة فتحه إلا لآل أيوب ليجمع لهم بالقبول القلوب.

«وخص به عصر الإمام الناصر لدين الله ليفضله به على الأعصار ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار» (٥) ورافق صلاح الدين في معاركه العساكر النورية والأسدية والصلاحية فقتلوا من الفرنج الكثير وأسروا مائة أسير «فرجعوا ناكسين على أعقابهم خائفين منه غاية المخافة ولا زال جيشه خلفهم يقتل ويأسر» (٦) فقد «أقبل السلطان بإقبال سلطانه وأبطال شجاعانه وإقبال أولاده وإخوانه

(١) أبو الفدا: المختصر، ج ٣، ص ٥٠، محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، ج ١، ص ١٩.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٨٨.

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ٨٨.

(٤) متوسنة: أي مسترخية غير يقظة. العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ١٢٢ حاشية (١).

(٥) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ١٢٢.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢١٤.

وأشبال مماليكه وغلمايه وركام أمرائه وعظائم أوليائه»^(١).

وقد وصفهم مكسيموس مونروند أحد معاصري الحروب الصليبية بأنهم «اندفعوا من كل جهة بصراخات مرعشة المفاصل» فشمّل الخوف الصليبيون وفروا هاربين^(٢).

وفي سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م انتصر جند صلاح الدين في مرج العيون^(٣) واستولوا على حصن رعان^(٤) بقيادة سيف الدين ابن المشطوب على رأس ثمانمائة فارس^(٥) وقيل ألف فارس^(٦) وكان يفتخر ويقول هزمت بألف عشرين ألف فارس^(٧).

وفي سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م انتصر صلاح الدين بمماليكه النورية أمثال عز الدين جرديك النوري والأسدية أمثال جاولي الأسدي فحاربوا الفرنج وأسروا منهم مائة فارس ثم ساروا طالبين عكا والسلطان في أثرهم^(٨). وفي نفس السنة توجه سعد الدين كمشبه الأسدي وعلم الدين قيصر إلى الداروم^(٩) فقاتلوا الفرنج في

(١) العماد الأصفهاني: الفتح القسي ص ١٢٠.

(٢) مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة في الشرق، ج ٢، ص ٨٤-٨٥.

(٣) المرج هي الأرض الواسعة فيها نبت كثير ومروج العيون بسواحل الشام ياقوت. معجم البلدان: ج ٨، ص ١٥، ١٦.

(٤) حصن رعان: مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات وتعتبر من العواصم وهي قلعة تحت جبل خربتها الزلازل سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م فأعاد سيف الدولة بناءها. انظر ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٥١.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٠٢-٣٠٣.

(٦) محمد بن بهادر: مخطوط فتوح النصر، ج ١، ص ٢٠.

(٧) نفسه، ج ١، ص ٢٠.

(٨) سبط الجوزي: مرآة الزمان: تاريخ الأعيان، ج ٨، ق ١، ص ٣٧٧، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٦١-٦٢.

(٩) الداروم: قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر الواقف فيها يرى البحر خربها صلاح الدين لما ملك الساحل سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م. ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٣.

الداروم وقتلوهم وقدموا بالرؤس إلى القاهرة^(١).

وفي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م في معركة حطين^(٢)، ظهر الله الأرض المقدسة من المشركين على أيدي صلاح الدين ورجاله^(٣)، وتباري المؤرخون في وصف شجاعة بعض الشخصيات المملوكية التي شاركت في تلك الحروب أمثال دور «قايماز النجمي» في فتح القدس فقد ذكره الأصفهاني قائلا^(٤) «فثبت قايماز النجمي في صدورهم وأشرع الأسنة إلى نحورهم وروى اللهاذم^(٥) من تامورهم^(٦) ومما يدل على ثقة السلطان ذكر ابن كثير أنه لما حاصر السلطان صلاح الدين حصن كوكب^(٧) سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م ورآه صعبا منيعا وكل به الأمير قايماز النجمي في خمسمائة فارس وقد وصفه العماد الأصفهاني أنه «الصارم المخذم والحازم المقدم والغضب^(٨) البتار والندب المغوار^(٩) والأسد الأسد^(١٠) فسد الطريق بمضايقتها عنها ومنع الدخول إليها والخروج منها ولم يزل عليها مقيما ولحصرها مستديما إلى أن يسر الله فتحها وسهل لآمال فيها نجحها^(١١) كما وكل للصفد^(١٢) خمسمائة فارس مع طغرليك

(١) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ٨٠.

(٢) عن واقعة حطين: انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ٧٩٦-٨١٠.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٢، ص ٧٩٩-٨١٠.

(٤) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٦٣.

(٥) اللهاذم: جمع لهزم وهو القاطع من الأسنة، نفسه حاشية ٢.

(٦) التامور: النفس وحياتها والقلب وحياته ودمه - العماد: الفتح القسي، ص ٦٣ حاشية ٤.

(٧) حصن كوكب: هو قلعة حصينة تقع على الجبل المطل على طبرية وتشرف على الأردن وهي من

فتوح صلاح الدين، انظر البغدادي: مرصد الاطلاع، جـ ٣، ص ١١٨٨.

(٨) السيف القاطع: الأصفهاني، الفتح القسي، ص ١٧٨، حاشية ٧.

(٩) الندب: المغوار من الرجال الكثير الغارات السريع إلى الفضائل الخفيف في الحاجة لأنه إذا ندب

اليها خف لقضائها، نفسه حاشية ٨.

(١٠) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ١٧٨، ١٧٩.

(١١) نفسه، ص ١٧٩، انظر ص ١٩٢.

(١٢) الصفد: مدينة في جبال عاملة المطلّة على حمص بالشام وهي من جبال لبنان - ياقوت: معجم

البلدان، جـ ٣، ص ٤١٢.

الجامدار ليمنعون المؤمن أن تصل لتلك الحصون ويضيقون على أهلها^(١).
واستبسل بهاء الدين قراقوش في الدفاع عن عكا ضد الفرنج^(٢) كما ذكر ابن
شداد بعض الأمراء والمماليك الأسدية والناصرية ضمن ذكره لترتيب الجيش في
معركة عكا سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م فذكر أسماء كبار المماليك الأسدية كسيف الدين
يازكج ورسالن بغا ووصفهم بأنهم «يضرب بهم المثل»^(٣).
واستشهد في نفس السنة أحد المماليك الخواص «أبيك الأطرش» ووصفه العماد
بأنه «شهما بالوقائع لا يتحرش وثبتا بالروائع لا يتشوش وأنيسا بالحوادث لا
يتوحش»^(٤).

ووصفه ابن واصل أنه «كان شجاعا فارسا مقداما فتقنطر به فرسه، فلجأ إلى
صخرة فقاتل بالنشاب حتى فنى نشابه ثم بالسيف حتى قتل جماعة، ثم تكاثروا عليه
فقتلوه»^(٥).

كما يصف ابن شداد قايماز النجمي وأصحابه بأنهم «أسود الإسلام»^(٦) وذلك
سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م حينما وصل ملك الألمان وهاجم الخيم العادلية التي كان
المسلمون قد تنبهوا إلى هجومهم عليها فأخلوها قبل وصولهم ووقف الملك العادل
أخو صلاح الدين وحوله المماليك أمثال: صارم الدين قايماز النجمي وعز الدين
جريدك النوري وجماعة من المعروفين بالشهامة الموصوفين بالصرامة^(٧) ويسترسل
الأصفهاني في وصف شجاعتهم واستبسالهم حتى أوقعوا للعدو عشرة آلاف قتيل^(٨).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٢٩.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٠٥.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٠٠ وانظر ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٩٥-٢٩٦.

(٤) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٢٩٠.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٨٤-٢٨٥.

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢٩.

(٧) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٤٠٤.

(٨) نفسه، ص ٤٠٤، انظر ابن شداد: النوادر، ص ١٢٩ - ١٣٤.

وفي نهاية تلك السنة يذكر الأصفهاني دور بهاء الدين قراقوش الأسدي وثباته عندما ضجر الأمراء وطلبوا الخروج «أقام ولم يرم ولم ينحل عقد ثباته ولم ينخرم»^(١).

واستطرد قائلا في وصف المماليك وشجاعتهم «والمماليك الخواص من خصهم وعمهم الاستخلاص يغادون القتال ويرأحون ويكافنون العدو ويكافحونه ويجارونه ويجارحون ويبرحون به ولا يبارحونه»^(٢).

وفي سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م ترد إشارة باسم اياز الطويل مملوك صلاح الدين وقتله بعد استبسال كبير في عكا ووصف بأنه «كان فارسا عظيما في دبوسه عشرة أرطال حديد وكان يضرب الفارس ويهشمه فقاتل في ذلك اليوم قتالا عظيما وقتل من الفرنج جماعة فتقنطر به فرسه فقتلوه فحزن عليه السلطان»^(٣). كما قتل في تلك الواقعة مقدم عساكر سنجان^(٤) وخلق كثير من المماليك الترك»^(٥).

وكان بعض هؤلاء قد خرج عن طوع السلطان فقطع عنهم الأعطيات المقررة لهم وغضب عليهم ومنهم عز الدين أرسل وحسام الدين تمرتاش بن جاولي وسنقر الوشاق من الأسدية ثم توسلوا إليه أن يعفوا عنهم^(٦).

ويبدو أن المؤرخين المعاصرين دأبوا على وصفهم بصفات كثيرة تدل على شجاعتهم في تلك الحروب التي عاصروها ورأوا وشاهدوا بسالتهم فيها فمما قيل عنهم «المماليك الناصرية والمساكير الأسدية أسد العرين

(١) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٤٦٠.

(٢) نفسه، ص ٤٦٦ وانظر عفاف صبره: بهاء الدين قراقوش، ص ١٦١-١٦٦.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ق ٨، ص ٤٠٨ - ٤٠٩؛ ابن شداد: النواذر السلطانية، ص ١٨.

(٤) سنجان: مدينة من بلاد الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٦٢.

(٥) ابن ايبك: كنز الدرر، الدر المطلوب، ج ٧، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٦) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٥٠٦.

الشم العرائن الغر الميامين»^(١).

وفي سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م يذكر المقرئزي تفصيلا شجاعة الأسدية وعلى رأسهم يازكج الأسدي وغيره في قتال الفرنجة على عسقلان^(٢).

كما ذكر العماد الأصفهاني المملوك الصلاحي حسام الدين سنقر الخلاطي كأحد مماليك صلاح الدين المعدودين ويذكر أنه من ثقة صلاح الدين به أن ولاه أحد القلاع لحسن سيرته وسلوكه^(٣).

(١) نفسه، ص ٤٧٢.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٠٨؛ انظر العماد الأصفهاني - الفتح القسي، ص ٥٨٣.

(٣) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٢٠٢ وحاشية ١ نفس الصفحة وص ٢٣٧-٢٣٨.

خلفاء صلاح الدين والمماليك

تعرضت السلطنة الأيوبية للتفكك بعد وفاة صلاح الدين الذي قسم المملكة بين أبنائه وأقاربه، فميز أبنائه واختصهم بالممالك الهامة فجعل مصر للعزیز عثمان بوصاية ابن أخيه المظفر تقي الدين عمر صاحب حماه، وأن تكون الشام لابنه الملك الأفضل بوصاية أخيه الملك العادل، ولم يحدد أمر الوصاية بمدة^(١).

ويمكن القول أن ذلك كان من أسباب تفكك السلطنة إذ اختص أبنائه بحكم الأجزاء الرئيسية واستبقى لإخوته وأقاربه المناصب الثانوية^(٢)، بعد أن كان يعتمد على إخوته وأبنائه عمومته في بداية توطيد سلطانه فكان يختصهم بالمناصب الكبرى والولايات الرئيسية، فلما عاد وفضل أبنائه عليهم زرع الفرقة في نفوسهم^(٣).

فقد كان صلاح الدين يعتمد على أخيه سيف الدين العادل^(٤) في تدبير شئون مصر عند خروجه من القاهرة بجيشه سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م ثم ولى بعد ذلك العادل على حلب سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م وعهد صلاح الدين بأمر مصر إلى ابن أخيه تقي الدين عمر^(٥).

-
- (١) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٨٨؛ السيد الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين، ص ١٠٦.
(٢) منى الشاعر: جهاد البيت الأيوبي في شمالي الشام والجزيرة ضد القوى الصليبية والمسيحية المجاورة. رسالة ماجستير، كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر ١٩٩٢م ص ٢٥.
(٣) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين، ص ٦٧-٦٨.
(٤) هو أبو بكر محمد بن أبي الشكر أيوب بن شاذي بن مروان الملقب بالملك العادل سيف الدين أخو صلاح الدين وكان ينوب عنه في غيابه بالشام ولما ملك السلطان حلب سنة ٥٧٩هـ اعطاها لولده الظاهر ثم أخذها منه واعطاها للعادل الذي تنازل عنها له مرة أخرى وكان ملكا عظيما حسن السيرة عاقلا حازما متدينا ولد سنة ٥٣٨هـ وتوفي سنة ٦١٥هـ ودفن بالقلعة بدمشق ثم دفن بتربة مدرسته المعروفة به: ابن خلكان وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٧٤-٧٥، الملطي: نزهة الأساطين، ص ٥٦-٥٧.

- (٥) السيد الباز العريني: المماليك، ص ٣٤-٣٥.

وسرعان ما حل العادل محل أبناء صلاح الدين على رأس دولة موحدة^(١).

وتجب الإشارة إلى أن الأفضل نور الدين استقر في دمشق وبمصر الملك العزيز عماد الدين عثمان وبحلب وبلادها الملك الظاهر غيات الدين غازي وباليمن عمهم الملك العزيز سيف الإسلام ظهر الدين طغتكين بن أيوب وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب وبحماه وسلمية^(٢) والمعرة^(٣) ومنبج^(٤) وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين وبحمص والرحبة^(٥) وتدمر^(٦) الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه وبعلبك^(٧) وأعمالها الملك الأمجد مجد الدين بهراشاه بن قرخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب وببغداد الملك الظافر خضر بن السلطان صلاح الدين بصرى وهو في خدمة أخيه الملك الأفضل ... والملك الأفضل هو أكبر أبناء السلطان^(٨).

وقد استطاع العادل توحيد هذه الممالك تحت جبهة واحدة وسار على سياسة

(١) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٨٨؛ ومنى الشاعر: جهاد البيت الأيوبي في شمالي الشام والجزيرة، ص ٢٢.

(٢) سلمية: بلدة صغيرة من أعمال حماه بينهما مسيرة يومين وكانت من قبل من أعمال حمص. ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٤٠.

(٣) المعرة: هي معرة النعمان وهي مدينة كبيرة قديمة مشهورة تقع بين حلب وحماة. ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٥٦.

(٤) منبج: بينها وبين حلب مسيرة يومين وإلى ملطية أربعة أيام وإلى الفرات يوم واحد وهي لصاحب حلب في هذه الفترة. ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٥) الرحبة: قرية من قرى دمشق بينها وبين دمشق ميل. ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٣٥.

(٦) تدمر: مدينة مشهورة في الشام بينها وبين حلب خمسة أيام. ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٦٩.

(٧) بعلبك: مدينة قديمة فيها ابنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرخام بينها وبين دمشق ثلاثة أيام. ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٦٧٣.

(٨) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٣-٥؛ التنويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٤٤٠-٤٤١؛

القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣، ص ٤٣٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٢-٢٦.

الوفاق مع خلافة بغداد حتى يأمن جانبها^(١).

كان طبيعيا أن ينتج عن ذلك التقسيم وتلك المنازعات ازدياد أعداد المماليك وخاصة الترك فقد استجلب بنو أيوب الرقيق واكثروا من شراء المماليك وعنوا بتدريبهم وتنشأتهم لتقوية جيوشهم مما استنزف الأموال الطائلة لهؤلاء السلاطين وبدأت الفرق المملوكية تتكون الواحدة تلو الأخرى كل فرقة حاملة لاسم السلطان الذي جلبها كالمماليك العزيزية نسبة إلى العزيز بن صلاح الدين والعدلية نسبة إلى العادل والأشرفية نسبة إلى الأشرف بن موسى بن العادل والكاملية نسبة إلى الكامل بن العادل والصالحية نسبة إلى الصالح أيوب^(٢).

وقد فاقت قوتهم كل الحدود حتى أصبحوا يتوغلون في إقامة سلطان وعزل آخر وكان معظمهم قد جلب من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفقاق وما وراء النهر إلى جانب من جلبوا من أوربا^(٣).

وإلى هؤلاء المماليك يرجع الفضل في احتفاظ خلفاء صلاح الدين خاصة العادل والكامل بتفوقهم حربيا على الصليبيين ومنافسيهم من أمراء المسلمين حتى أن هؤلاء المماليك شعروا بمدى أهميتهم لدى سلاطين الأيوبيين وعدم قدرتهم على الاستغناء عنهم مما أدى إلى تزايد نفوذهم السياسي وتحكمهم في مقاليد الأمور^(٤).

ومن الواضح أن نفوذهم ازداد بضعف الملوك الأيوبيين الذي نتج عن

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٤٣٢؛ عبد الحميد الدسوقي: موقعة عين جالوت، رسالة

ماجستير: كلية دار العلوم، جامعة القاهرة ١٩٥٥م، ص ٩٨.

(٢) انظر سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٤٢٥؛ العبادي: قيام دولة المماليك الأولى،

ص ٨٨، ٩٢؛ قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ٩؛ حسنين ربيع: السنظم

المالية في مصر زمن الأيوبيين، ص ١٠٧.

(٣) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٤ وقارن زبيده عطا: بلاد الترك في العصور الوسطى،

ص ١٣٨، حاشية ١؛ عبد العزيز عبد الدايم: الرق في مصر في العصور الوسطى، ص ٢٧.

(٤) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٤؛ قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي

ص ٩، إبراهيم العدوي: التاريخ الإسلامي، ص ٣٤٧، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك،

ص ٢٢.

صراعاتهم وأطماعهم من أجل السلطة والتملك مما أتاح لهؤلاء المماليك الذين يمثلون القوة الفعالة في ملاقات هذا الضعف وفرض ذلك النزاع أن زادهم ذلك قوة وسلطانا.

وكان السلطان الأيوبي عند توليه يقوم بإبعاد ممالك سلفه ويجعل ممالكه بدلا منهم مما أدى إلى الإكثار من جلب الرقيق من هؤلاء الذين خضعوا للتتار على يد التجار الذين وجدوا في أبناء البيت الأيوبي مصدرا كبيرا لدخلهم لكثرة اقتناء هؤلاء الرقيق واستخدامهم في جيوشهم وصراعاتهم وحروبهم الداخلية، وقد جاءت طائفة من المماليك الأتراك القفجاق إلى الشام ومصر في أواخر الدولة الأيوبية واشتراه ملوك بني أيوب بأبخس الأثمان ليزينوا بهم مواكبهم في البلدان وليساندوا في حروبهم وقت الحاجة^(١).

وأدت الظروف السياسية في تلك الفترة إلى ازدياد أعداد المماليك في العصر الأيوبي فقد كان التجار الأوروبيين يتنافسون زملاءهم الشرقيين في تجارة المماليك فقد اعتبروا ذلك العصر عصر ازدهار تلك التجارة مما اضطر ملوك أوربا وبابوات روما إلى توقيع العقوبات ضد التجار الذين يبيعون المماليك للمسلمين^(٢).

(١) العيني: عقد الجمان، جـ ١، ص ٦٤-٦٥.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٣٧.

دور المماليك في الصراع بين العزيز والأفضل

كان للمماليك الصلاحية دور واضح في الخلاف الذي احتدم بين العزيز عثمان والأفضل أبناء صلاح الدين، بل نستطيع القول أنهم هم الذين وضعوا بذرة هذا الشقاق بين الأخوين منذ البداية حينما زينوا للعزيز مهاجمة دمشق وانتزاعها من أخيه وضمها إلى مصر^(١).

وكان الملك العزيز قد قرب منه ممالك والده وأمرائه وأحسن إليهم فأحبوه وأخلصوا له في حين أن الأفضل كان يسئ معاملة هؤلاء و«يقدم عليهم من استجده ولا ينبغي الاعتماد عليه»^(٢).

ففي سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م استحكمت الوحشة بين العزيز والأفضل وحرص المماليك الصلاحية العزيز على الاستئثار بحكم المملكة كلها وأشاروا عليه بالتوجه إلى الشام وامتلاكها وخاصة أن ثغر جبيل^(٣) وهو من جملة فتوح صلاح الدين كان عليه رجلا كرديا اغراه الفرنج بالمال فسلمهم الثغر ولم يستطع الأفضل استخلاصه منهم فقالت الصلاحية للعزيز «توانيت فطرت البلاد واستولى عليها الفرنجة» فصمم على قصد الشام^(٤).

ووصف الأفضل بأنه كان ميالا إلى اللهو والخمر وكان لإبعاده أمراء أبيه ومماليكه الصلاحية، بإيعاز من وزيره ضياء الدين بن الأثير أكبر الأثر في إضعاف جانبه ففارقوه إلى العزيز ومنهم الأمير فخر الدين جهار كس وفارس الدين ميمون

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ٢٦.

(٢) نفسه، ص ١٢.

(٣) مدينة حصينة من أعمال دمشق ليس لها ماء جار وشرب أهلها من الآبار. ابن شداد: الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، دمشق، ١٩٦٢م، جـ ٢، ص ٩٦.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ٢٦؛ أبو الفداء: المختصر، جـ ٣، ص ٩٠.

القصري وشمس الدين سنقر الكبير^(١) فرحب بهم العزيز وأكرمهم وتقوى بهم فالتفوا حوله وانضموا إليه إلى جانب الأسدية وقاموا بمحاصرة دمشق حتى استنجد الأفضل بأبناء البيت الأيوبي فاستنجد بعمه العادل وبالظاهر صاحب حلب والمنصور صاحب حماه والمجاهد صاحب حمص والأمجد صاحب بعلبك فاضطر العزيز إلى الاتسحاب لعدم قدرته على مواجهة كل هؤلاء وبعث فخر الدين جها ركس الصلاحي إلى عمه العادل ليقرر معه قواعد الصلح ويوقع الاتفاق^(٢).

وقيل أن أمراء الصالحية كانوا يتمتعون بمنزلة كبيرة لدى العزيز فحسدهم الأسدية لذلك وأخذت كل طائفة تنافس الأخرى واستثمر الملك العادل ذلك الخلاف لصالحه فعمل على الإيقاع بينهما وكذلك الإيقاع بين الأسدية والعزيز فكاتب العزيز سرا يحذره من الأسديه ويحثه على إبعادهم وكاتب الأسدية ينفرهم منه ويستميلهم إليه حتى أن العزيز استشعر كراهيتهم له ولم يثق فيهم ولم يثقوا به فعزموا على مفارقتة^(٣).

وحقيقة الأمر أن العزيز لم يقرب الصلاحية بصورة دائمة بل كان يثق بالأسدية حتى أنه أناب بهاء الدين قراقوش الأسدي عنه في القاهرة أثناء تواجده بالشام فبقى هو والأسدية بالقاهرة على العهد^(٤). وكان العزيز قد استصحب معه ٢٧ أميراً على رأس ألفي فارس وألف من جنود الحلقة وكان معه جها ركس وميمون القصري وسنقر الكبير والشجاع الخادم وجرديك^(٥)، فيبدو أن بعضاً من الأسدية فقط هم الذين كانوا يبغضون العزيز ويحقدون عليه، ولم يقم كلهم بالتآمر عليه مع العادل والأفضل

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ٥٠٤؛ ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٧، ص ١٢٤ والنويري: نهاية جـ ٢٨، ص ٤٤٢؛ المقرئ: السلوك جـ ١، ق ١، ص ١١٤-١١٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، جـ ٦، ص ١٢٠.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ٢٨-٣١؛ المقرئ: السلوك ج ١، ق ١، ص ١١٦-١١٧.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ٤٦؛ النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٤٤٧؛ والمقرئ: السلوك ج ١، ق ١، ص ١٢٤.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ٤٨؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٦، ص ١٢٣.

(٥) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٤٤٤-٤٤٥.

وكان سبب انقلاب بعض هؤلاء الأسدية على العزيز استمالة العادل لهم ببذله الأموال وكان مقدمهم أبو الهيجاء السمين الذي عزله العزيز عن ولاية القدس، فانقلب عليه وتقدم الأسدية سيف الدين جرديك وركب أبو الهيجاء وجموعه ومعه أركش في الليل قاصدين دمشق فلما أصبح العزيز لم ير في خيام الأسدية أحد فكان ذلك سبب عودته إلى مصر في الوقت الذي حرض فيه أركش وأبو الهيجاء السمين والأسدية العادل على أخذ مصر واستحثوه على سرعة الرحيل إليها حتى لا تفوته الفرصة بعد أن فارق العزيز أكثر العسكر وحرصت الأسدية على أن يسبقوا العزيز في الوصول إلى مصر^(١).

مما سبق يتبين لنا أن العادل هو الذي بادر بالإتصال بهم وقدم لهم العهود والوعود بدليل أن الإبقاء عليهم وإرجاعهم للخدمة كان أول شروط صلحه مع العزيز^(٢).

وعندما علم العادل والأفضل بعودة العزيز إلى مصر اجتمعا وتحالفا على أن يقسما البلاد فيما بينهم فتكون ثلث الديار المصرية من نصيب العادل ويكون الثلثين للأفضل^(٣).

وسارا معا إلى مصر وانضم إليهما المنصور صاحب حماه^(٤) وعز الدين بن المقدم صاحب بعرين^(٥) وسابق الدين عثمان صاحب شيزر^(٦) وفي الطريق انضم إليهما الأمراء الخارجون على العزيز ووصلوا إلى القدس واستولوا عليه ثم ما لبثوا

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ٥٠.

(٢) منى الشاعر: جهاد البيت الأيوبي، ص ٣٩.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ٥١.

(٤) حماة: مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات تحيط بها سور محكم وتقع على نهر العاصي. ياقوت: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٣٣٠-٣٣١.

(٥) بعرين: بلدة بين حمص والساحل ولفظ بعرين خطأ والصواب بارين. ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٥٢.

(٦) شيزر: كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم. البغدادى: مراصد الإطلاع، جـ ٢، ص ٨٢٦.

أن وصلوا إلى بلبيس وحاصروها^(١).

وقد فرح الملك العادل لما علم باستقرار العزيز بمصر فقد كان متخوفاً أن ينازعه الملك وراسل العزيز وهو على بلبيس ليجتمع بالقاضي الفاضل^(٢) ليقوم بالصلح بينه وبين أخيه الأفضل^(٣) فقد كان القاضي الفاضل رافضاً للتدخل في نزاعهم^(٤) لحزنه على ما آل إليه أبناء صلاح الدين من نزاع وكان قد أقام في داره^(٥) فآلح عليه العزيز فوافق وسار إلى العادل وأرسل معه العزيز ابنه فرق العادل لهما وأعاد العزيز الأمراء الأسدية إلى الخدمة وأبقاهم على إقطاعاتهم تلبية لرغبة عمه العادل وتضمن الاتفاق على بقاء العادل بمصر لتقرير قواعد ملك العزيز فيها مقابل استقرار العزيز والأفضل على ما بأيديهم من بلاد ويلي أبا الهيجاء ولاية القدس^(٦)، من قبل الأفضل واجتمع الملوك الثلاثة وتم عقد الصلح بينهم وبقي العادل بمصر فحكم وأمر ونهى في كل الأمور^(٧).

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ٥١؛ وابن أبيك: الدر المطلوب، ص ١٢٥.

(٢) القاضي الفاضل: أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد علي ابن القاضي السعيد أبي محمد الحسن بن الحسن بن أحمد بن الفرّج بن أحمد اللخمي العسقلاني المولد المصري الدار المعروف بالقاضي الفاضل الملقب مجير الدين ولد في خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة بمدينة عسقلان التي ينتسب إليها دفن بالقاهرة في السابع عشر من شهر ربيع الثاني عام ٥٩٦هـ/١١٩٩م ودفن في تربته بسفح المقطم بالقرافة الصغرى وقد نشأ في بيسان بفلسطين لذلك لقب بالببستاني حيث تولى أبوه قضاءها ثم انتقل إلى مصر في نهاية حكم الفاطميين وترجم له ابن خلكان وفي وفاته والسبكي في طبقاته وابن العماد في شذراته وقد برز في صناعة الإنشاء وتقدم فيها، انظر ابن خلكان - وفیات، جـ ٧، ص ١٥٨-١٦٣؛ فتحية النبراوي - إنشاءات القاضي الفاضل، ط القاهرة ١٩٨٠م، ص ٩-١٢.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ٥٣.

(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٤٤٧.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ٥٣.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ٥٤؛ المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ٤، ص ١٢٨؛ وابن

تغري بردي: النجوم جـ ٦، ص ١٢٤؛ محمود الحويري: العادل الأيوبي: ص ٥٨-٥٩.

(٧) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ٥٤.

ثم توالى الأحداث بحدوث خلاف بين العزيز والأفضل بسبب ازدياد حماقة وزيره ابن الأثير وأفعاله السيئة وانقياد الأفضل له فاستاء المماليك الصلاحية وأغروا العزيز بأخيه الأفضل^(١)، وكاتبوا العادل الذي حاول بدوره نصح ابن أخيه فلم ينتصح حتى بعد أن أرسل إليه قائلاً له «ارفع يد هذا الأحقق السئ التدبير القليل التوفيق فلم يلتفت»^(٢) فما كان من العادل إلا أن اتفق مع العزيز على التوجه إلى الشام سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م فخاف الأفضل وأراد مصالحتهما إلا أن وزيره أشار عليه بالعصيان فاستعد للقتال وجهاز الجند غير أن الظروف خدعت العزيز والعادل فدخلا البلد دون حرب بمساعدة أحد الأمراء الذي فتح لهم أبواب دمشق فخاف الأفضل وذهب إليهما وبكى بكاء شديدا فأمره العزيز بمفارقة دمشق إلى صرخد^(٣).

وكان العزيز قد اتفق مع عمه العادل أن يكون نائبه بمصر ويقيم العزيز بدمشق ولكن ما لبث أن ندم على ذلك^(٤).

وفي سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م امتلك الفرنج قلعة بيروت وقاموا بأعمال القتل والسبي للمسلمين في أطراف بلاد القدس فاستنجد العادل بالعزيز فخرج العزيز بنفسه لقتالهم ونزل على الرملة ومعه الصلاحية والأسدية وعليهم الأمير شمس الدين سنقر الدوادار وسراسنقر^(٥).

وتوفي العزيز عثمان بن صلاح الدين سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م وكان قد أوصى بملك مصر لأكبر أولاده وهو ناصر الدين محمد^(٦) وأوصى مقدم الأسدية بهاء الدين

(١) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٤٤٤-٤٤٥.

(٢) ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٤، ق ٢، ص ٤٤١.

(٣) صرخد: مدينة قديمة من أعمال دمشق وقلعتها محدثة أنشئت قبل الشهيد نور الدين محمود بن زنكي. العمري: مسالك الأبصار، ص ١٢٠.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ق ٢، ص ٤٤١؛ وابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٢٢٣؛

ابن تغري بردي: النجوم، ج ٦، ص ١٢٥ والسيد الباز العريني: المماليك، ص ٣٥-٣٦.

(٥) المقرئ: السلوك ق ١، ص ١٤٠-١٤١.

(٦) محمد بن عثمان بن يوسف بن أيوب الملك المنصور أبو الفتح ابن العزيز بن الناصر - تسلطن

يوم الاثنين سابع عشر محرم ٥٩٥هـ وخلف ٥٩٦هـ. الملطي: نزهة الأساطين، ص ٥٣-٥٤.

قراقوش أن يكون مديره حتى يكبر وكان عمره وقتها عشر سنوات^(١).

وهنا يبرز دور الصلاحية والأسدية بوضوح في تولية ابن العزيز الحكم^(٢) فقد أشار بذلك فخر الدين جهاركس ولكن سيف الدين ايازكوش من الأسدية اعترض لصغر سنه لكنهم عادوا واتفقوا على توليته تحت كفالة عمه الأفضل وأيدهم في ذلك القاضي الفاضل وأرسل ايازكوش يستدعي الأفضل من صرخد وقد كان سيف الدين ايازكوش مقدم الأسدية يميل إليه هو ومن معه من الأسدية على حين كرهه الصلاحية الذين اشترطوا على الأفضل أن لا يرفع فوق رأسه السنجق ولا يذكر له اسم في الخطبة ولا السكة وأن يدبر أمر الملك المنصور لمدة سبع سنوات فقط ثم يسلم إليه الأمر، فقد خاف هؤلاء الصلاحية والأسدية من تطلع العادل إلى الاستيلاء على مصر فأسرعوا باستدعاء الأفضل وسلموه مقاليد الأمور سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م^(٣).

ومن سياق الأحداث نستطيع أن نتبين أن الصلاحية لم يكونوا يميلون إلى الأفضل لأنه يؤثر الأسدية فقالوا «إن ملك حكموا علينا» ولكنهم لم يستطيعوا مخالفتهم فتظاهروا بالموافقة ومن ناحية أخرى أرسلوا إلى أصحابهم بدمشق أن يمنعوا الأفضل من المجئ فركب عسكر دمشق ليمنعوه ولكن كان قد علم بذلك فسارع إلى مصر^(٤).

وحضر الأفضل وخرج جمع من الأمراء للقاءه ببلييس وحدث أن استوحش منه فخر الدين جهاركس الصلاحي وأحس منه الغدر فغادر ببلييس إلى القدس وامتلكها

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣، ص ٨٧-٨٨.

(٢) ابن الوردي: المختصر جـ ٢، ص ١٧٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٢، ص ١٤٠-١٤١؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، ق ٢، ص ٤٥٩؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣، ص ٨٨٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ٨٧-٨٨ والمقريزي: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ١٤٦-١٤٧؛ سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٤٢٦.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، ق ٢، ص ٤٦١.

وتبعه بعض الصلاحية منهم قراجا وقراسنقر وميمون القصري واتفقوا على عصيان الأفضل وأرسلوا للعادل يستدعونه ويرغبونه في امتلاك مصر فلاطفهم وطلب منهم العودة فرفضوا^(١)، فكاتوا قد تخوفوا منه واستشعروا منه الغدر فتركوه وساروا إلى القدس^(٢). فقد خشوا أن يكون قد كشف حيلتهم في مكاتبة الصلاحية في دمشق لمنعه من المجئ إلى مصر^(٣).

وسار الأفضل من بلبيس إلى القاهرة فخرج المنصور للقائه^(٤) وقبض الأفضل على من بقي من الصلاحية ونهب أموالهم ثم أقام في بركة الجب^(٥) أربعة أشهر وحلف الأمراء والأجناد بها ثم قصد دمشق للاستيلاء عليه بناء على استدعاء الظاهر غازي صاحب حلب واستخلف على القاهرة سيف الدين ايازكوش الأسدي^(٦). فقد استغل الأفضل فرصة وجود عمه على حصار ماردين فأراد الاستيلاء على دمشق ووصل إليها وسانده الأسدية والظاهر غازي صاحب حلب فعلى الفور استنجد العادل بالمماليك الصلاحية الذين كانوا على بيت المقدس فساروا إليه فتقوى بهم وأرسل العادل إلى ولده الكامل يأمره بالحضور إلى دمشق عن طريق البر فرحل الأفضل عنها^(٧).

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، ص ١٤٠-١٤١؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣، ص ٨٨٨ وابن الساعي: الجامع المختصر، ج ٩، ص ٣، الحموي: التاريخ المنصوري، ص ٢١٨ وابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٣٣٥ والمقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٤٦ وابن تغري بردي: النجوم، ج ٦، ص ١٤٦.

(٢) المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٤٧.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ق ٢، ص ٤٦١.

(٤) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، ج ١، ص ٣٩.

(٥) بركة الجب: من ديار مصر وهي بركة الحجاج كانت مساحتها ٥٠٠ فدان. انظر ابن الجيعان: التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، ط ١٩٧٤م، ص ٦.

(٦) المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٤٨-١٤٩.

(٧) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ق ٢، ص ٤٦١؛ ابن الساعي: الجامع المختصر، ج ٩، ص ٣؛ الحموي: التاريخ المنصوري، ص ٢١٩-٢٢٠ والمقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٤٩؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٦، ص ١٤٧.

وأرسل الملك العادل خلفه العسكر ودار القتال بين الفريقين وكسر الأفضل وسار العادل خلفه إلى القاهرة وبقي فيها وملكها وحلف للأفضل على ميفارقين^(١) ورأس عين الخابور^(٢) وسميساط^(٣) وحاني^(٤) وجبل الجود^(٥).

وظل النزاع قائما بين الطائفتين الصلاحية والأسدية حتى تمكن العادل ووحيد كلمة الأيوبيين فكان ذلك نصرا للأسدية وقد خلع عليهم العادل الخلع ورد إليهم أقطاعاتهم بمصر.

أما الصلاحية فإتهم ضعفوا كما ضعف أبناء صلاح الدين وأحفاده ومما زاد من ضعفهم وفاة بعض زعمائهم أمثال جهاركس سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م وعز الدين أسامة إلى جانب استيلاء العادل على حصون وإقطاعات من بقي من زعمائهم^(٦).

(١) ميفارقين: مدينة عظيمة من مدن الجزيرة تقع على حدودها وعلى حدود بلاد أرمينية الكبرى - ابن الوردي: خريدة العجائب، ص ٤٢، ياقوت: معجم البلدان ج ٤، ص ٧٠٣.

(٢) عين الخابور: اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ويطلق اسمه على ولاية واسعة: ياقوت معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٣٤.

(٣) سميساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات. ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٥٨.

(٤) حاني: اسم مدينة معروفة بديار بكر بها معدن الحديد ويجلب منها إلى سائر البلاد. ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٠٨.

(٥) جبل جود: اسم بلورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية. ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٠٢.

(٦) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ٨٨.

دور المماليك الصلاحية والأسدية في سلطنة العادل على مصر

كان للمماليك الصلاحية والأسدية دور بارز في اعتلاء الملك العادل سلطنة مصر وتصادف ذلك مع هوى العادل الذي كان يعد العدة في دمشق لتحقيق أهدافه، فاستنجد بولده الكامل الذي حضر إلى دمشق ومعه الكثير من التركمان لنصرته^(١).

أما الأفضل فقد استوحش من المماليك الصلاحية ورفض الصلح مع العادل وطلب استبعادهم وغادر دمشق إلى مصر.

ولما علم الصلاحية بذلك غضبوا وحرصوا العادل على المسير وراء الأفضل لامتلاك مصر وساروا خلفه إلى بلبيس حيث قامت بينهما المعارك وتقاتلوا فهزم الأفضل ورحل إلى القاهرة وأغلق أبوابها ووصل العادل إلى البركة وتوسط سيف الدين جهاركس بين العادل والأفضل وأعطوا الأفضل مياقارقين وجبل جور وديار بكر وأخذ العادل مصر سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م واستدعى ولده الكامل وأنزله في دار الوزارة ولكنه لم يقطع الخطبة لولد العزيز^(٢).

وبذلك فقد تقرر أن يكون الملك المنصور بن الملك العزيز هو السلطان والملك العادل يكون أتابكه فحلف له الملك العادل على ذلك نزولا على رغبة المماليك الصلاحية وسلطنه ثم ما لبث أن عاد الملك العادل وطمع في ملك مصر والاستئثار به^(٣)، فأرسل رسله إلى البلاد واستحلف الناس لنفسه وخطب لنفسه وضرب السكة باسمه^(٤) فأجابه الناس جميعا لحكمته ووقاره ودينه واحضر العادل ابنه الكامل وجعله ولي عهده وحلف الناس له^(٥)، فقد كان تقبل العادل للأمر الواقع وهو أن يكون أتابكا للملك المنصور أمر في غاية الصعوبة وقد ظهر ذلك من رده على أمراء

(١) أبو الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ٩٧ وابن الوردي: تاريخه، جـ ٢، ص ١٦٥.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٢، ق ٢، ص ٤٧٠؛ ابن الوردي: تاريخه، جـ ٢، ص ١٦٥؛

ابن تغري بردي: النجوم، جـ ٦، ص ١٤٩-١٥١؛ محمود الحويري: العادل، ص ٦٢-٦٣.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ١٠٠-١١١؛ المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ١٥١.

(٤) ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٣٧.

(٥) الحموي: التاريخ المنصوري، ص ٢٢٢-٢٢٣؛ حسنين ربيع: النظم المالية، ص ٣٠.

الدولة مبررا خلعة للسلطان الأيوبي الصغير قائلا «أنه قبيح بي أن أكون أتابك صبي مع الشيخوخة والتقدم والملك ليس هو بالإرث وإنما لمن غلب»^(١).

وفي حقيقة الأمر أنه خالف ذلك فقد طبق نظام الإرث هذا عندما أوصى لابنه الملك الكامل محمد ملك مصر والمعظم عيسى ملك دمشق والأشرف موسى ملك الجزيرة^(٢).

وكان تخوف العادل من انحياز الصلاحية للمنصور محمد بن العزيز من أقوى الأسباب التي دفعته لإخراج المنصور من مصر تخوفا من أن يعيده الصلاحية لينازعه في ملك مصر^(٣) وأخرج معه والدته وأخوته وساروا إلى الرها^(٤) ثم وصلوا حلب فأقاموا عند الملك الظاهر الذي أحسن استقبالهم^(٥).

ويذكر الحموي أن الصلاحية أسفت لما حدث وحلف ابن المشطوب وجهار كس وقراجا وميمون القصري على أن يولوا الملك الأفضل وراسلوه ليطلعوه على ما جرى بينهم لثقتهم به فأظهر السرور ولكنه سرعان ما كاتب العادل يخبره بما حدث وسارع إلى ديار مصر وأخبره تفصيلا بما سمع^(٦).

وقيل أن سبب ذلك غيرة الأسدية من الصلاحية لأنهم هم الذين ادخلوا العادل إلى مصر وأخرجوا منها الأفضل فخافوا من ازدياد نفوذ هؤلاء الصلاحية فأطمعوا العادل في الاستقلال بحكم مصر وعزل المنصور تقربا إليه وحلفوا له فلما بلغ الصلاحية ذلك استاءوا وعزموا على خلع العادل وطلبوا من الأسدية مساندتهم في ذلك فلم

(١) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ١٥١-١٥٢.

(٢) جمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامية جـ ٢، ص ٩٥-٩٦؛ السيد الباز العريني: المماليك، ص ٣٧-٣٨.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ١٤٠.

(٤) الرها: مدينة عظيمة مشهورة واسعة الأقطار ديارها عامرة وتتصل بأرض حران ابن السوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب ط القاهرة ١٢٧٦م ص ٤٢ ودائرة المعارف جـ ١٠، ص ٢٧٩.

(٥) ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٧، ص ١٥٣.

(٦) الحموي: التاريخ المنصوري، ص ٢٢٢-٢٢٣.

يفعلوا وأجبرت الصلاحية على الموافقة فحلقوا له وامتلك الديار المصرية^(١).
وحاول العادل استرضاء الصلاحية لكي يأمن جانبهم فجهز فخر الدين جهاركس
مقدمه إلى باتياس^(٢) لحصارها والاستيلاء عليها فنجح في مهمته^(٣).
ويبدو أن حدس العادل قد صدق فقد أرسل فارس الدين ميمون القصري إلى
العادل يطلب منه أن يعيد المنصور محمد إلى ملكه ويبلغه أنهم لم يدخلوا في طاعته
إلا مراعاة لولد العزيز وخوفا على ملكه فرد عليه العادل ردا غليظا فأعاد ميمون
الرد قائلا أنه لو لم يوافقهم على ما طلبوا فسوف يفارقونه وطلب ميمون القصري
من زملائه الصلاحية أن يقوموا معه على العادل فأجابوه «بأننا قد افتضحنا بين
الناس بأننا نقيم كل يوم ملكا ونعزل ملكا ثم إلى من نسلم الأمر؟ الأفضل ما فيه رجاء
وباقى اخوته غير الظاهر ليست لهم في النفس عظمة والظاهر فما يمكنه أن يخلي
بلاده ويصير إلينا^(٤)».

يفهم من تلك العبارة مدى النفوذ الذي وصل إليه هؤلاء المماليك وتملكهم زمام
الأمر وتحكمهم في تولية الملوك وعزلهم بل إننا عندما نتأمل تلك العبارة جيدا
نستطيع أن نتبين أن اختيار هؤلاء المماليك للملوك كان يتحدد حسب هيبة وعظمة
ومكانة هؤلاء الملوك في نفوس المماليك والعامة وهل باستطاعة هذا الملك أن يملأ
كرسي الملك فيولونه ويساعدونه أم لا فيستبعدونه؟

وفي سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م ظهر دور الصلاحية بارزا في الخلاف الذي وقع
بين ملوك الأيوبيين في الشام في الوقت الذي كانت معاملة العادل قد بدأت تتغير

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ١١٠-١١١؛ محمد بهادر: مخطوط الفتح النصر، ج١، ص ٤٠ والمقريزي: السلوك ج١، ق ١، ص ١٥٢-١٥٣.

(٢) باتياس: كانت قصبة جولان ويضم إليها القدس المدينة التي في الغور على الحدود بين حولة والجبال في إقليم دمشق ويصفها بأنها مدينة كثيرة الخيرات وأنها بمثابة سوق لدمشق - دائرة المعارف ج ٣، ٣١٧.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ١١٧.

(٤) نظام الدين الأصفهاني: وزير الملك الظاهر الأيوبي. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ١١٤.

بالنسبة لهم فيقول ابن واصل وفي هذه السنة وصل إلى مصر الأمير شمس الدين محمد بن قلج، ونظام الدين محمد بن الحسين الأصفهاني^(١)، وزير الملك الظاهر رسولين منه إلى الملك العادل في أن يحلف للملك الظاهر على ما بيده من البلاد ويقيم الملك الظاهر للملك العادل بحلب الخطبة والسكة فطلب العادل من الرسولين إن كانا يحملان رسالة إليه أن يسلمها لقاضي بلبيس ويسلمها هو له بدوره فرجعا وقد تغيرا عليه واجتمعا بميمون القصري ورغباه في الانحياز للظاهر فوافقهما واستاء الظاهر من تصرف عمه واعتبره إهانة له فكتب الصلاحية يستميلهم إليه كما كاتبهم ميمون القصري فأجاب عدد منهم وظلت المكاتبات والرسائل بينهم وبين الأفضل وبينهم وبين الظاهر^(٢).

فما كان من الظاهر صاحب حلب إلا أن أرسل إلى ابن عمه الملك المنصور صاحب حماه بعده بإعطائه قلاعا إذا اتفق معه على عمهم العادل بمصر فاعتذر له صاحب حماه أن بينه وبين عمه يمين فسار صاحب حلب إلى المعرة وهي في حكم حماه وأقطع بلادها واستولى على كفر طاب^(٣) ثم إلى فاميه^(٤) وزحف على حماه وحاصرها وقاتل قتالا شديدا فجرح في ساقه بسهم ثم صالح صاحب حماه بعد أن بذل له ثلاثين ألف دينار ثم رحل صاحب حلب إلى دمشق وكان عليها المعظم عيسى بن عمه الملك العادل صاحب مصر فحاصرها وأخوه الملك الأفضل الذي فقد دمشق وآلت إلى المعظم عيسى وانضم إليهما صاحب نابلس والأمراء الصلاحية واتفق الأفضل والظاهر انهما إذا تغلبا على دمشق وملكاها يتسلمها الأفضل كما كانت له ثم يسيران إلى العادل في مصر فيستوليان عليها ويأخذها الأفضل منه ويسلم دمشق

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ١١٥.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ١٨٨-١٩٩؛ ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٢٧؛

المقريزي: السلوك، جـ ١، ق ١ ص ١٥٤-١٥٥.

(٣) كفر طاب: بلدة صغيرة تقع على الطريق بين المعرة وشيزر. أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٦٣.

(٤) فاميه: مدينة كبيرة وكوره من سواحل حمص. ياقوت: معجم البلدان، جـ ٣، ص ٨٤٦.

لصاحب حلب وبذلك تكون مصر للأفضل والشام كله للظاهر صاحب حلب^(١). واستقطبا الصلاحية واغدقا على جهاركس المال فأعطاه الأفضل ثلاثين ألف دينار^(٢)، ولما علم العادل بحصارهم لدمشق وبها ابنه خرج بالعساكر وأقام بنابلس وخاف من مقاتليهم. ثم اختلف الأخوان الأفضل والظاهر بمكيدة من العادل عمهما فأطمع الظاهر في دمشق وأنه أراد امتلاكها دون الانتظار لتملك الأفضل لمصر وتقاتل عسكرها مع الأمراء الصلاحية الذين ناصرُوا الأفضل ليعيدوه إلى ملكه ومن ثم أوقف الأفضل ذلك القتال وتفرقت الجنود ورحل كل من صاحب حلب إلى بلده وسار الأفضل إلى حمص^(٣) فحصل الوهن في العسكر بعد أن شارفوا على امتلاك دمشق للأفضل^(٤) وبعث العادل في السر إلى الأفضل يعده بالبلاد التي منحت له بالشرق وهي رأس عين^(٥) والخابور^(٦) وميافارقين وغيرها فانخدع الأفضل وأذن إلى الصلاحية في العودة إلى العادل وهم جهاركس وقراجا وعلاء الدين شقير وسعد الدين بن علم الدين قيصر^(٧).

وكان من أشد أسباب انقلاب الصلاحية على العادل أن مقدمهم جهاركس علم أن العادل ندم على تمكينه لجهاركس من أخذ باتياس فاجتمع بزملائه من الصلاحية واتفقوا على إطماع الأفضل لامتلاك دمشق^(٨) ومنهم زين الدين قراجا^(٩).

-
- (١) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ١ ص ٤١؛ المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ١ ص ١٥٥.
(٢) الحموي: التاريخ المنصوري، ص ٢٢٤، المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ١٥٥.
(٣) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ٤١؛ المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ١٥٦.
(٤) المقرئزي: السلوك جـ ١، ق ١ ص ١٥٦.
(٥) رأس عين: هي إحدى مدن الجزيرة تقع بين حران ونصيبين وديسر وبها عيون كثيرة. ياقوت: معجم البلدان، جـ ٤، ص ١٢.
(٦) الخابور: اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ويطلق اسمه على ولاية واسعة كبيرة. ياقوت: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٣٣٤.
(٧) الحموي: التاريخ المنصوري، ص ٢٢٤-٢٢٦.
(٨) نفسه، ص ٢٢٤-٢٢٦.
(٩) هو زين الدين قراجا أحد كبار المماليك الصلاحية وأحد مقدميها كان له دور بارز في أحداث =

ولما توفي الملك العادل سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م توارى دور الأسدية والصلاحية وبدأ ينشط دور الكاملية والأشرفية فقد كرهت العادلية تولية ابن الكامل وأرادوا تولية أخاه المعظم مما حدا بالكامل بعد سلطنته أن قبض على كثير من أمرائهم وصادر أموالهم ثم توفي الكامل سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م وخلفه في السلطنة على مصر ابنه الأصغر العادل الثاني وبقي ابنه الصالح أيوب على الولايات الفراتية وكان ذلك نتيجة تدخل أم العادل لرغبتها أن يكون ابنها سلطاناً^(١).

غير أن المماليك الكاملية لم يرضوا وحالفوا الأشرفية ومقدمهم عز الدين أيبك الأسمر^(٢) انتهزوا فرصة خروج العادل الثاني الصغير لحرب قريبه صاحب الكرك^(٣) فقبضوا عليه في بلبس وخلعوه سنة ٦٣٧هـ/١٢٤٠م ولم يتحرك لنصرة العادل إلا الأكراد الذين تمت هزيمتهم على يد المماليك الكاملية والأشرفية من الأتراك مما يبين تفوق القوى المملوكية التركية على قوة الأكراد في الدولة الأيوبية^(٤).

ولتفصيل ذلك نبدأ بحادثة موت السلطان الملك العادل سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م، فلما علم العسكر ومنهم عماد الدين أحمد بن سيف الدين على بن المشطوب وهو من الأكراد الهكارية^(٥)، اتفق مع الجند والأكراد على خلع الكامل وتولية الفائز ابن العادل

= تعيين سلطانا على مصر بعد وفاة العزيز. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٢، ص ١١٨ وسيط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٦، ق ٢، ص ٤٦١.

(١) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ٩٢.

(٢) عز الدين أيبك الأسمر أحد كبار أمراء المماليك الأشرفية وقد كان له دور فعال مع باقي الأشرفية في خلع الملك العادل الثاني وأحاطوا بهليزه انتبهوا ما حوله وجعلوه في خيمة صغيرة ووكلوا به من يحفظه وأرسلوا في استدعاء الصالح أيوب للقدوم إلى مصر ليولونه عليها. ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٥، ص ٢٦٣.

(٣) الكرك: قرية في أصل جبل لبنان بينه وبين القدس مسيرة يوم، انظر. رحلة ابن جبير، ص ٢٦٠.

(٤) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٩٢-٩٣.

(٥) الهكارية إحدى قبائل الأكراد وعاشوا في أعالي الجزيرة حياة مستقلة في تحصيناتهم الجبلية وسط غيرهم وقد حاول أتابك زنكي إخضاعهم واستولى على الكثير من تحصيناتهم ومنهم من دخل في خدمته. ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٤، حاشية ٤، ص ١٦.

حتى يتمكنوا في البلاد ولما شعر الكامل بتلك المؤامرة ترك العادلية ليلا وتوجه إلى أشمون طنّاح^(١) فنزلها تاركا خيامه وخزائنه^(٢) فلحق به العسكر مما أدى إلى استيلاء الفرنج على دميّاط وامتلاكهم لها^(٣) وتلك الحادثة تدل على مدى قوة هؤلاء المماليك وخشية السلاطين منهم حتى أن الكامل يترك مكانه ليلا ويترك خيامه وأمواله خوفا منهم.

وقد كان الكامل محاصرا لدميّاط وكان والده قبل وفاته يرسل له الإمداد أولا بأول فكان مانعا لها من الفرنج الذين نزلوا على دميّاط ورابط الكامل قبالتهم أربعة أشهر كاملة وقاتلهم ودفعهم عنها حتى توفي والده واختلف العسكر عليه فترك العادلية فامتلك الفرنج دميّاط^(٤).

وفي سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م أرسل الكامل إلى إخوته لنجدته من الفرنج ورابط حتى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م بالمنصورة^(٥).

ثم حدث في تلك السنة أن تقدم الفرنج إلى مصر ووصلوا المنصورة واشتد القتال بين الفريقين وتوافد إلى مصر من الشام ملوك الأيوبيين لتخليص دميّاط^(٦) ونصرة الكامل وأطلق النفير العام في كل نواحي مصر لدعوة أهلها إلى الزود عن البلاد وقد خرج الأمير علاء الدين جرديك وجمال الدين بن صيرم وجمعوا خلق كثير من كل النواحي وجهزوا ألفين من الفرسان مع آلاف من العربان حتى يمنعوا الفرنج ويحولوا بينهم وبين دميّاط وهنا عبر أحد المماليك وهو بدر الدين بن حسون إلى رأس بحر المحطة وحفر ومن معه حفرة عظيمة من النيل وكان متزايدا فغرق الماء

(١) أشمون طنّاح: قرية قرب دميّاط. ياقوت: معجم البلدان، جـ ١، ص ٢٦٠.

(٢) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٨٩.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤، ص ١٦ - ١٧؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ ٥، ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٤) محمد بهادر: فتوح النصر، جـ ١، ص ٤٥؛ ابن الوردي: تنمة المختصر جـ ١، ص ٢٠٠ وابن الفرات: تاريخه جـ ٤، ص ٢٤٩.

(٥) أبو الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ١٢٢.

(٦) ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٤٩ - ٣٥٠؛ المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ١٩٧.

تلك الأرض ومنع الفرنج من الوصول إلى دمياط وانقطع عنهم المدد فكادوا يموتون جوعاً وطلبوا الصلح على أن يتنازلوا عن كل ما أخذوا من المسلمين وعن دمياط^(١). واتسع ملك الكامل حتى قال خطيب مكة مرة عند الدعاء له «سلطان مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها»^(٢).

ويذكر ابن أبيك أنه سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م قبض على مماليك والده العادل وأودعهم الجب الكبير^(٣) وفي سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م قبض على بعض منهم ممن انحاز إلى أخيه المعظم^(٤). وفي سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م وصل الخلاف بين الأخوين الكامل والمعظم صاحب دمشق إلى ذروته حتى أن الكامل استدعى ملك الألمان إلى الشام ووعدته بإعطائه القدس وبعض السواحل واستدعى المعظم السلطان جلال الدين خوارزم شاه ليعينه على أخيه الكامل في مقابل الطاعة له والخطبة له على المنابر وضرب السكة باسمه وقطع خطبة أخيه الكامل فخرج الكامل لحربه قاصداً دمشق وكان ذلك ناتجا عن وقعة بين الملكين الشقيقين من جهة بعض المماليك ولكن المعظم استطاع استمالة أخيه ليعود عن قصده فلما عاد إلى مصر قبض على هؤلاء المماليك العادلية وهم فخر الدين الطنبا الجيشي وفخر الدين الطنبا الفيومي أمير جاندار وعشرة من الأمراء العادلية وصادر أموالهم^(٥) وفي تلك الفترة وبالتحديد عام ٦٢٦هـ/١٢٢٨م حدث تحول خطير كان بداية النهاية للدولة الأيوبية فقد أوعزت أم ولد السلطان الكامل له وهي أم ولده الملك العادل أبي بكر^(٦) بأن ولده الملك الصالح

(١) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ٤٩-٥٠؛ ابن الوردي: تنمة المختصر جـ ٢، ص

٢١١ وابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٥؛ المقرئ: السلوك جـ ١، ق/١، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ ٢، ص ٣٤.

(٣) الجب الكبير: هذا الجب كان بقلعة الجبل يسجن فيه الأمراء. المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ١٨٨.

(٤) ابن أبيك: الدر المطلوب، جـ ٧، ص ٢٦١؛ المقرئ: السلوك، جـ ١، ق/١، ص ٢١٥.

(٥) النويري: نهاية الأرب جـ ٢٩، ص ١٤٠-١٤١؛ المقرئ: السلوك جـ ١، ق/١، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٦) أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن أيوب العادل بن الكامل بن العادل سيف الدين أبو الفتح تـسلطن

سنة ٦٣٥هـ، وخلع ٦٣٧هـ فقد أقام سنتين وشهرين وثمانية عشرة يوما، الملطي: ص ٦١ نزهة

الأساطين، ص ٦١.

نجم الدين أيوب^(١) نائب أبيه في الملك بالديار المصرية وولى عهده يريد الوثوب على السلطنة وعزل أبيه وانه اشترى جماعة كثيرة من المماليك الترك وعددهم ألف مملوك^(٢) وأخذ أموالا كثيرة من بيت المال فغضب الكامل على ابنه الملك الصالح وقبض على بعض ممالিকে واعتقلهم وصادر أموالهم وعهد لابنه الملك العادل سيف الدين بالسلطنة من بعده^(٣).

وفي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م أنعم الكامل على ابنه الصالح نجم الدين أيوب بحصن كيفا فسار إليه وجعله ولى عهده في ممالك الشرق ورتب معه الطواشي شمس الدين صواب العادلي^(٤) الذي كان من كبار المماليك العادلية وأكثرهم ثقة لدى الكامل وأمسكه زمام الأمور ولا يكون الصالح سوى صورة معه^(٥).

وعندما توفي الملك الكامل سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م اجتمع الأمراء ومنهم الأمير سيف الدين على بن قليج وعز الدين أبيك وركن الدين الهيجاوي وعماد الدين بن موسك وغيرهم^(٦) واتفقوا في النهاية على تولية العادل بن الكامل على أن يتولى الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل أبي بكر بن أيوب نيابة دمشق وحلفوا على ذلك^(٧).

(١) هو أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب الملك الصالح نجم الدين أبو الفتح بن الكامل بن العادل صاحب المدارس الصالحية بين القصرين وباقي قلعة الروضة وهو الذي جلب المماليك إلى مصر بكثرة وتسلطن في عاشر شوال سنة تسع وثلاثين وستمائة وهو غائب حلف له الأمراء وسلطنوه وتوفي سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م فأمضى عشر سنين في الملك. الملطي: نزهة الأساطين، ص ٦١.

(٢) النويري: نهاية، جـ ٢٩، ص ١٦٠؛ المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ٢٣٨.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٤، ص ٢٧٧-٢٧٨؛ المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ٢٤٠-٢٤٧.

(٤) شمس الدين صواب العادلي: مقدم المماليك السلطانية، عهد العادل توفي في ثامن رجب سنة اثنتين وأربعين وستمائة ودفن به وكان خيرا دينا فيه صلاح، المقرئ: خطط، جـ ٢، ص ٤١٣.

(٥) ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٧، ص ٣٢٨؛ المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ٢٦١؛ السيد الباز العريني: المماليك، ص ٣٩.

(٦) ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٧، ص ٣٢٨.

(٧) المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ٢٦١؛ السيد الباز: المماليك، ص ٣٩.

وكان نفوذ المماليك قد زاد وسيطرتهم قد استحكمت في تلك الفترة وأصبحت لهم سيطرة كبيرة على السلاطين وظهر ضعف هؤلاء السلاطين تجاه ممالكهم فيذكر النويري أنه عند اجتماع الأمراء أشار عماد الدين بن موسك أن لا يولوا الملك الجواد نيابة دمشق وكانت وجهة نظره أن تولية أحد الخدام نائبا عن العادل بن الكامل تجعل من السهولة عزله في أي وقت أما إذا تولوها أحد من بيت الملك فلن يستطيعوا عزله بسهولة ومن الجائز أن يطمع ويستقل بالملك فلما علم الجواد حضر إليه «وتحدث معه وذكر له سالف صحبه ومودة وترفق له ووعدده أن يعطيه إقطاع مائة وخمسين فارسا وعشرة آلاف دينار فقال: والله لا وافقت إلا على ما فيه مصلحة لابن استاذي»^(١).

وبعد أن أقر هؤلاء المماليك أمر دمشق واستقر بها الملك الجواد نائبا عن العادل الصغير باتفاقهم جميعا عادوا إلى القاهرة، فركب العادل للقائهم وأرسل إليهم في منازلهم الأموال والخلع والخيول فامتلك بذلك قلوبهم فعاهدوه على الإخلاص له وأكثر من بذله الأموال لهم وللجند حتى بدد في مدة يسيرة ما جمعه أبوه في مدة متطاولة^(٢).

ولكن المماليك الأشرفية ومقدمهم عز الدين أيبك الأسمر لم يرضوا عن تولية العادل الثاني فقبضوا عليه في بلبس وخلعوه سنة ٦٣٧هـ / ١٢٤٠م وحاول الأكراد نصرته ولكنهم انهزموا بعد تحالف المماليك الكاملية والأشرفية الأتراك عليهم مما يبين زيادة سطوة الأتراك على القوة الكردية ثم اختلف هؤلاء على من يقوم في السلطنة فمال الأشرفية إلى إسماعيل بن العادل الكبير صاحب دمشق وعم الصالح أيوب على حين مال الكاملية وهم الأقوى إلى الصالح أيوب فاضطر الأشرفية إلى

(٢) النويري: نهاية الأرب جـ ٢٩، ص ٢٨٨ - ٢٩٩.

(٣) المقرئزي: السلوك جـ ١، ق ١ ص ٢٦٧.

الخضوع واستدعى الملك الصالح أيوب وتولى السلطنة ودخل مصر سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م^(١).

ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة يظهر فيها نفوذ المماليك بشكل يغير ما كان عليه في أيام العادل والكاظم، مما سيمهد إلى تغير سياسي كبير في السنوات القليلة القادمة.

(١) النويري: نهاية الإرب، ج٢٩، ص ٢٥٠-٢٥١؛ المقرئزي: السلوك، ج١، ق١، ص ٢٨٠-٢٨١ والعبادي: قيام دولة المماليك ص ٩٢-٩٣.

دور المماليك الأشرفية والكاملية

في تولية الصالح أيوب

وفي سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م خرج جماعة من الأمراء الترك عن طاعة الملك العادل «لما ظهر من ترفه ومجونه وتقريبه جنود الحلقة والترابي ومنحهم الإقطاعات والأموال»^(١).

كما تطلع الناصر داود صاحب الكرك لمصر التي سار إليها ومعه الجواري الجنكيات^(٢) والعوديات والراقصات وأواني للشرب فاحتفل العادل بقدومه وقبل هديته من الجواري وغيرها^(٣).

فخرج بعض هؤلاء الأتراك عن طاعة العادل وأرسلوا إلى الصالح يستدعونه لملك مصر، كما خرج جماعة من جند الحلقة من القاهرة من باب النصر متجهين إلى الشام بلغ عددهم ألف فارس من الأتراك فما كان من العادل إلا أن حرض الأكراد على قتالهم فقاتلوهم وانهزموا وانسحبوا إلى الشام ودخلوا في خدمة الملك الصالح أيوب^(٤).

وكان على رأس هؤلاء الأمراء سبعة عشر أميراً منهم الأمير نور الدين علي بن فخر الدين عثمان الاستادار والأمير علاء الدين بن الشهاب أحمد، والأمير عز الدين أبيك الكريدي العادلي، والأمير عز الدين بلبان المجاهدي، والأمير حسام الدين لؤلؤ السعودي، والأمير سيف الدين بشر الخوارزمي والأمير عز الدين قضيب البان العادلي، والأمير شمس الدين سنقر الدنيسري فخرجوا في عدة كثيرة من أتباعهم

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٥، ص ٢٦٢؛ المقرئ: السلوك، جـ ٢، ق ٢، ص ٢٧٥.

(٢) هن الجواري اللاتي يلعبن على الجنك وهو من آلات الضرب وهو لفظ فارسي معرب. المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ٢٧٥ حاشية ٣.

(٣) نفسه، ص ٢٧٥.

(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٢٥٠-٢٥١.

وأجنادهم والكثير من مقدمي الحلقة والمماليك السلطانية فسربهم الملك الصالح كثيرا وتقوى بهم^(١).

وكانت تتوالى عليه كتب الأمراء تعدده بالمساندة إن قدم لتولي سلطنة مصر^(٢) فخرج من دمشق قاصدا مصر وجعل نايبه فيها ولده الملك المغيث عمر^(٣)، ويذكر ابن واصل أن الأمير عز الدين أيبك الأسمر كان يميل إلى الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق ولكن المماليك الكاملية ومنهم جوهر النوبي وشمس الخواص كانت تميل إلى الصالح نجم الدين أيوب ولما كانوا كثرة فلم يستطع أيبك مخالفتهم^(٤).

وبقي الصالح أيوب يكاتب عمه صاحب بعلبك الملك الصالح إسماعيل ليعاونه على ملك مصر، ولكنه كان ينوي استرجاع دمشق لحوزته وسار وهاجم دمشق وحصر قلعتها وتسلمها واعتقل نايبها المغيث عمر بن الصالح أيوب واستمر بها حتى مات عنده، وأما الصالح أيوب فلما علم وهو بنابلس خبر انتزاع دمشق واعتقال ابنه ضعف وتخلّى عنه عساكره وتفرقوا خوفا على أهلهم بدمشق^(٥)، فعادوا إليها ولم يبق معه غير مماليكه وهم نحو الثمانين وطائفة من خواصه عددهم نحو العشرين فانتقل من نابلس إلى الغور^(٦)، ثم رجع إلى نابلس ثم اعتقله الناصر داود صاحب الكرك ولم يترك معه غير مملوك واحد وهو ركن الدين بيبرس وجاريته شجر الدر^(٧) وظل

(١) المصدر السابق:

(٢) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٢٨١-٢٨٣.

(٣) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ١٢٢٦ ابن تغري بردي: النجوم، جـ ٦، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٥، ص ٢٦٣.

(٥) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٢٨٤.

(٦) الغور: هو غور الأردن بالشام يقع بين بيت المقدس ودمشق وسمى غور لأنه منخفض من أرض دمشق وأرض بيت المقدس. ياقوت: معجم البلدان، جـ ٤، ص ٢١٧.

(٧) هي شجر الدر بنت عبد الله الملكة عصمة الدين أم خليل سريّة الملك الصالح التركيّة وقيل بل أرمينية اشتراها الملك الصالح وحظيت عنده ثم اعتقلها وتزوجها وكان لا يفارقها «سفرا وحضرا» وكانت معه في حبسه لدى الناصر صاحب الكرك وقاست معه أهوال كثيرة وولدت له ولد سمي خليل مات صغيرا وهي صاحبة التربة بطريق المشهد النفيسي بالقاهرة وقد ماتت مقتولة على يد=

معتقلا عاما ونصف وتركه باقي مماليكه وأرسل العادل أخاه إلى صاحب الكرك يطلب منه إرساله إليه في قفص مقابل مائة ألف دينار ولكنه رفض وأفرج عنه وعاد ممالك الصالح أيوب إليه فعظمت مكانتهم عنده ^(١) وتحالف مع صاحب الكرك في القدس عند قبة الصخرة على أن تكون ديار مصر للصالح أيوب ودمشق والبلاد الشرقية للناصر صاحب الكرك ويعطيه مائتي ألف دينار ثم رجعا إلى غزة ^(٢).

فلما علم بذلك العادل خرج بعساكره إلى بلبيس لقتال أخيه الصالح ٦٣٦هـ/١٢٣٨م ^(٣) إلى أن قام الأشرفية بالاتفاق مع أكابر الكاملية بالقبض على الملك العادل «فركبوا وأحاطوا بدھليز الملك العادل وانتهبوا ما حوله ورموا الدھليز وجعلوا الملك العادل في خيمة صغيرة ووكلوا به من يحفظه فلم يتحرك أحد من الأمراء ولا غيرهم ولزم كل وطاقة ^(٤).

وكان مع أيبك الأسمر مقدمي الحلقة الطواشي مسرور الكامي، وكافور الفائزي، وجوهر النوبي وقاموا بنهب ممتلكات الأكراد مؤيدي العادل فاضطروا إلى

= أمراء البحرية انتقاما منها لمقتل زوجها المعز أيبك - أبو الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ١٩٢ والمقريري: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٣٦١-٣٦٢ وابن ياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ٢٩٥؛ الملطي. نزهة الأساطين، ص ٦٧-٦٨ وقد ذكرتها بعض المصادر على أنها شجر الدر والبعض الآخر شجرة الدر ولكن يبدو أن شجر الدر هو الأصح لأنه اللقب الذي أطلقته عليها المصادر المعاصرة وأيده المؤرخون الأوروبيون أمثال دائرة المعارف ولين بول وجاستون فييت وكنج وغيرهم. العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٠٥ حاشية ١.

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٢٦١-٢٦٤؛ محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ٥٨. والمقريري: الخطط، جـ ٢، ص ٢٣٦؛ السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٢٨٨، ٢٣٩.

(٢) أبو الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ١٦٦؛ ابن الوردي: المختصر، جـ ٢، ص ٢٤٢؛ محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ٥٩؛ المقريري: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٣) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ٥٨-٦٠؛ النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٥، ص ٢٦٢-٢٦٣؛ انظر محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ٦١؛ أبو الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ١٦٦؛ ابن الوردي: تاريخه، جـ ٢، ص ٢٤٣ وابن أيبك: كنز الدرر، جـ ٧، ص ٢٣٩.

الموافقة على تولية الصالح واستولى الأتراك على خيامهم وأثقالهم وخيولهم وانهزم الأكراد كما قبض هؤلاء الأمراء على خواص العادل أيضا (١).

وقيل في سبب كراهية الأشرفية والكاملية بمقدمهم على العادل تخوفهم منه فقد قرب خواصه وبلغهم أنه قال «عن قليل تشربون من دم أيبك الأسمر وهؤلاء العبيد السود فلان وفلان وسماهم فاجتمعوا على خلعه» (٢).

وكذلك فانهم تخوفوا غدره فغدروا به قبل أن يتمكن منهم فذكر النويري أن ثلاثة من المماليك خنقوه بشاش ... وعلقوه بعمامته وأظهروا أن شنق نفسه وخرجت جنازته كجنازة الغرباء (٣).

ووصل الصالح أيوب إلى بلبس في ذي القعدة سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م ونزل في خيمة العادل وجلس على سرير الملك واستحلف الأمراء وزينت القاهرة ومصر (٤).

وكان أول ما فعله أن قبض على أمراء الأشرفية واعتقلهم لما بلغه تغيرهم عليه وتخوفه منهم فهم الذين قبضوا على أخيه وقطع أخابزهم وأعطاهم لمماليكه (٥).

وقام الملك الصالح بعد القبض عليهم واعتقالهم بما فيهم مقدمهم عز الدين أيبك الأسمر بقتل الكثير منهم وأودع الباقي في السجون، كما قبض على جوهر النوبي وشمس الخواص مسرور وهم من الكاملية الذين ساعدوا في خلع العادل الثاني وكافور الفائزي وبعض الأتراك والأمراء الكاملية «وكلما قبض على أحد منهم أعطى

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٢) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ٢٩٤-٢٩٥.

(٣) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٢٣٩.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥، ص ٢٦٣-٢٦٤ وقارن محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر،

جـ ١، ص ٦١ والمقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٢٩٦.

(٥) أبو الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ١٦٧؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ ٧، ص ٣٤٣-٣٤٤ والمقرئزي:

السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٢٣٩-٣٤٠ وحسنين ربيع: النظم المالية، ص ٣٢.

خبزه لمملوك من ممالكه وقدمه»^(١).

وقيل أنه تغير عليهم لما تحقق من فساد نياتهم وغدرهم وأنهم أرادوا انتزاع البلاد منه وتسليمها إلى عمه الصالح إسماعيل وقال «لابد هؤلاء الغدارين أن يفعلوا بي كما فعلوا بأخي الملك العادل»^(٢).

ولما استقر الصالح أيوب في مملكته أخذ ينظم شئون الدولة، ويهتم بتقوية نفوذه، فاستجلب أعدادًا كبيرة من المماليك الترك^(٣)، فقد عانى الملك الصالح من الجماعات الخوارزمية وهم الجنود الذين سلموا من جيش الدولة الخوارزمية بعد قضاء التتار عليها سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م، فقد هاجم المغول أملاك تلك الدولة وطاردوا جلال الدين منكبرتي وقبضوا عليه وتمكنوا في مدة وجيزة من اجتياح أملاك الدولة الخوارزمية^(٤)، حتى وصلوا إلى حدود أذربيجان سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م وهزم جلال الدين وقُتل^(٥) كانت تلك الدولة تتألف من عناصر عديدة شملت الدولة السلجوقية وهم الفرس والعرب والترك فكانت كذلك صورة الجيش ولكن كان العنصر التركي يمثل الأغلبية فقد صاهر السلطان علاء الدين أحد فروع القبائل التركية فازداد عددهم في الجيش فأخذوا هؤلاء الزعماء والقادة المنهزمين يعرضون خدماتهم على ملوك الأيوبيين حتى انتهى بهم الحال إلى خدمة السلطان الصالح أيوب فكانوا مناسر حربية تدخل في طاعة من يريد استخدامها ومن يدفع أكثر ولا يهمهم سوى السلب والنهب^(٦).

(١) المقرئزي: السلوك جـ ١، ق ٢، ص ٣٠٠، أنظر ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥، ص ٢٧٥ -

٢٧٦، ابن الوردي: تنمة المختصر، جـ ٢، ص ٢٤٨، وأبو الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ١٦٧،

وابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٧، ص ٣٤٣ - ٢٤٤.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٥، ص ٢٧٤ - ٢٧٥.

(٣) ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٧٣.

(٤) عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ١٥٥ وما بعدها.

(٥) نفسه، ص ٢٥٨ - ٢٧٠.

(٦) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٢٧٩، حاشية ٢، ٣، الباز العريني: مصر في عصر

الأيوبيين، ص ١٢٧ والعبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٠٠.

وعندما كان الصالح أيوب حاكمًا على حصن كيفا^(١) في عهد والده الكامل أرسل إلى أبيه سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م يستأذنه في ضم هؤلاء الخوارزمية إلى جيشه فأذن له^(٢).

كما نجح الصالح أيوب بفضل مساعدتهم له في الإستيلاء على سنجار ونصيبين^(٣) ثم ما لبثوا أن انقلبوا عليه وزادت أطماعهم وأرادوا القبض عليه ونهبوا أملاكه ففر إلى سنجار^(٤) ثم لما انقلب عليه بدر الدين لؤلؤ أرسل الصالح أيوب للخوارزمية يستميلهم ويعددهم بالوعود والإقطاعات^(٥) فتقوى بهم كما خلصوا المعظم غياث الدين تورانشاه^(٦) ابنه من حصاره في أمد ومنحهم أقطاعات كثيرة منها حران والرها وجميع البلاد الجزرية مقابل خدماتهم له في أملاكه دمشق^(٧) ثم صاهرهم بأن زوج أخته من أمه لمقدمهم حسام الدين بركة خان^(٨) وساعدوه في الاستيلاء على بيت المقدس سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م واستخلصه من الصليبيين فنهبوا القدس ودخلوا الكنيسة^(٩) وضربوا القبور التي فيها وقاموا بإحراق عظام الموتى ثم نزلوا

(١) حصن كيفا: مدينة بأرض الجزيرة - العراق على الضفة اليمنى لنهر دجلة في منتصف الطريق بين ديار بكر وجزيرة ابن عمر. للمزيد أنظر دائرة المعارف الإسلامية، جـ ٧، ص ٤٥٤.

(٢) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ٢٥٥، عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ٢٧٣.

(٣) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة بينها وبين سنجار تسعة فراسخ وبينها وبين الموصل ستة أيام. ياقوت: معجم البلدان، جـ ٥، ص ٢٨٨.

(٤) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ٢٥٧.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٥، ص ١٨٧.

(٦) تورانشاه بن أيوب بن محمد بن أبي بكر بن العادل بن أيوب بن شادي الملك المعظم غياث الدين بن الملك الصالح بن الكامل بن العادل. مخطوط شفاء القلوب: مجهول، ص ١١٧، نزهة الأساطين: الملطي، ص ٦٣ - ٦٤، المقرئزي: السلوك جـ ١، ق ٢، ص ٣٥١.

(٧) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، ق ١، ص ٤ - ٧ ابن أبيك: كنز الدرر جـ ٧، ص ٣٣٠ والمقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ٢٧١.

(٨) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٩) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٥، ص ٣٣٧.

غزة وخلع عليهم الصالح أيوب الخلع والكساوي والأموال وانضاف إليهم العسكر المصري لمواجهة اتحاد الملوك الأيوبيين الصالح إسماعيل صاحب دمشق والناصر داود صاحب الكرك والمنصور صاحب حمص بالإضافة إلى الفرنج ضد الصالح أيوب فقد راسلوا الفرنج ووعدهم الصالح إسماعيل إن هو ملك مصر أن يعطيهم الأعمال الساحلية كلها واقتتل الفريقان عند^(١) غزة في مكان يقال له الفرما^(٢)، واعملا القتل والأسر في الفرنج وأرسلوا رؤوسهم والأسرى على ظهور الجمال إلى مصر^(٣)، فزينت البلاد بالقاهرة والقلعتان قلعة الجبل وقلعة الجزيرة «وضربت البشائر أياما متوالية»^(٤).

من ذلك نرى أن الصالح أيوب أمتلك غزة والسواحل والقدس بفضل مساعدة الخوارزمية له، كما أنه أمتلك دمشق أيضا فبعد انتصارهم له في غزة أرسلوا إليه يستأذنونهم في محاصرة دمشق ومحاربة الصالح إسماعيل فأذن لهم سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م فقطعوا الطريق ونهبوا وأطاحوا بكل ما في طريقهم وزحفوا عليها من كل ناحية^(٥).

ثم تغيرت العلاقات بين الصالح أيوب وبينهم فقد ظنوا أن السلطان إذا دخل دمشق فستكون مناصفة بينه وبينهم^(٦) فبدت أطماعهم تتجلى واضحة خاصة بعد ذلك

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٣٠٢ - ٣٠٣.

(٢) الفرما: قرية كانت تعرف زمن الصليبيين باسم لافوريي وهي تقع في منتصف الطريق بين غزة وعسقلان وتعرف بقرية حربيا الآن - محمد مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع، ص ٧٥.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨، ق ١، ص ٧٤١ - ٧٤٧، النويري: نهاية الأرب جـ ٢٩، ص ٣٠٢ - ٣٠٣، ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٧، ص ٣٥٤، ابن خلدون: العبر جـ ٥، ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٥، ص ٣٣٩.

(٥) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، ق ١، ص ٧٥٢ - ٧٥٥، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٥، ص ٣٣٧، ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٧، ص ٣٥٢ - ٣٥٣، ابن الوردي: تاريخه جـ ٢، ص ٢٤٩، النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٣١٠ - ٣١١.

(٦) عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ٢٩٦.

النصر الذي أحرزه الخوارزمية فاتعدت آمالهم على أن يحصلوا على الإقطاعات من أراضي مصر مقابل مساعدتهم للملك الصالح، لكنه أدرك خطورتهم فلم يسمح لهم أن يجتازوا حدود مصر فاتفقوا مع الأمير ركن الدين بيبرس الصالحى وهو أكبر أمراء الصالح أيوب والذي كان معتقلا معه بالكرك وكتبوه أن يكون معهم يدا واحدة على الصالح وزوجوه امرأة منهم وتقوى بهم كما إتحدوا مع الصالح إسماعيل واتفقوا جميعا على حرب الصالح أيوب فلما علم بذلك قبض على بيبرس واعتقله^(١).

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، ق ١، ص ٧٦٠ - ٧٦١، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥، ص ٣٤٩، أبو الفدا: المختصر جـ ٣، ص ١٧٦، عفاف صبرة: التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ص ٢٩٦.

الصالح أيوب وتكوين فرقة المماليك البحرية

كان لكثرة ما لاقى الصالح أيوب من هؤلاء الخوارزمية وما عانى من خيانتهم له تارة وتحالفهم مع أعدائه ومماليكه تارة سبباً قوياً في أن يفكر في استجلاب أعداد كبيرة من المماليك الترك^(١).

وقد وجد تجار المماليك الفرصة سانحة لزيادة ثرواتهم نظراً للخلاف الدائم بين أبناء البيت الأيوبي واحتياجهم المستمر لشراء المماليك لاستخدامهم في حروبهم مع بعضهم فكان السلاطين يشترونهم بأعداد تصل إلى الآلاف فإذا كانوا صغاراً تولت الحريم تربيتهم وإذا كانوا شباباً يتدربون ويتعلمون وينشأون في القصر السلطاني ثم يعتقون ويتولون أعلى المناصب حاملين صفات الولاء والإخلاص لسادتهم وقد جاءت طائفة من الأتراك القفجاق إلى الشام ومصر في أواخر الدولة الأيوبية بيعوا بأبخص الأثمان ليزينوا المواكب ويساندوا في الحروب^(٢).

كما أدت الظروف السياسية في تلك الفترة إلى ازدياد أعداد المماليك في العصر الأيوبي فقد كان لظهور المغول وانتصارات جنكيزخان ملك التتار سنة ٦١٨هـ / ١٢٢٠ في وسط آسيا على قزوين وهزيمتهم للقجاق والروس سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٢م وتشريدهم في الآفاق واستيلاء باطوخان ابن جنكيزخان على طوائف الترك المختلفة وتمكنوا منهم قتلاً وسبياً ونهباً سبباً في جلب سبائاً هذه الطوائف إلى الشام ومصر^(٣) فتكونت منهم المماليك العادلية والكاملية والأشرفية والمعظمية والناصرية والعزيرية^(٤) فقد كان الأسويون يبيعون أولادهم لكي يقتاتون بثمنهم^(٥).

وجدير بالذكر أن تجار الرقيق في العصر الأيوبي كانوا لا يقومون بعملية

(١) ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٧٣.

(٢) العيني: عقد الجمان، جـ ١، ص ٦٤ - ٦٥، عبد المنعم ماجد: طوماتباي، ص ١٤ - ١٥.

(٣) ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٧٢ - ٣٧٣.

(٤) السيد الباز العريني: المماليك، ص ٤٠ - ٤١.

(٥) عبد المنعم ماجد: طوماتباي، ص ١٤.

الخصاء للرقيق كما كانوا يفعلون من قبل لاستخدامهم في قصور الحريم فقد تغيرت الظروف السياسية نظرا لحاجة السلاطين إلى رجال أقوياء ليكونوا جنودًا شجعان يزودون عنهم ويعاونونهم في منافساتهم وحروبهم^(١).

اشترى الصالح نجم الدين أيوب من هؤلاء الممالك أعدادًا كبيرة^(٢)، حتى قيل أن أحدًا لم يشتري من الممالك مثله فقد ذاق مرارة غدر الأكراد والخوارزمية^(٣) وكان يدفع في شرائهم الكثير من الأموال للتجار بلغت في بعض الأحيان أضعاف ثمنهم^(٤) وأصبح «أكثر أمراء العسكر ممالكه»^(٥).

وقد انفق الصالح أيوب عليهم الكثير من الأموال وسموا بالبحرية نسبة إلى بحر النيل، وتعددت التفسيرات في إطلاق اسم البحرية عليهم فذكر النويري أن تسميتهم بالبحرية نسبة إلى بحر النيل وقيل أنهم سموا بالبحرية لجلبهم عن طريق البحر صحبة تجار الرقيق^(٦).

ولم يكن إطلاق لفظ البحرية جديدًا على العصر الأيوبي فقد عرفت الممالك البحرية العادلة - ممالك العادل الكبير والبحرية الظاهرية نسبة إلى الظاهر بيبرس ثم جاء عصر الصالح ليشهد تكوين البحرية الصالحة ثم يستعمل فيما بعد على إطلاقه عندما تقوم دولة الممالك البحرية تمييزًا لهم عن الممالك الجراكسة.

وعرفت ممالك الصالح أيوب أيضًا بالجمدارية^(٧)، لأنهم كانوا يبيتون في القلعة

(١) نفسه، ص ١٤.

(٢) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ٧١، ابن تغري بردي: النجوم، جـ ٦، ص ٣١٩.

(٣) ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٧، ص ٣٠٠.

(٤) ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٧٢.

(٥) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ٧١ وانظر ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٧، ص ٣٠٠.

(٦) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٣٦١، العيني: عقد الجمان، جـ ١، ص ٦٥.

(٧) عرف القلقشندي الجمدارية بأنهم خواص السلطان من ممالك الأمراء وأرباب الوظائف

«يسهرون بالنوبة بقسمة بينهم على بناكيم الرمل كلما انقضت نوبة قوم أيقظوا أصحاب النوبة

الذين يلونهم ويتعاضون كل منهم ما يشغله عن النوم فقوم يقرأون في المصاحف وقوم يلعبون

بالشطرنج والأكل وغير ذلك» القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٤٩.

وحول دهاليز السلطان في السفر ممثلين حرسه الخاص^(١).

وكان هؤلاء المماليك كثيرًا ما يضايقون أهل القاهرة فكانوا يقومون بنهب البضائع من الدكاكين مما تسبب في دعاء الناس على الملك الصالح بسببهم من ذلك أن أحد الشعراء تغنى قائلاً:

الصالح المرتضى أيوب أكثر من الترك بدولته يا شر مجلوب
لا آخذ الله أيوباً بفعلته فالناس قد أصبحوا في صبر أيوب^(٢)

فلما زاد تعديهم على الناس بنى لهم قلعة بالروضة بجزيرة^(٣) بالقرب من المقياس وأسكنهم بها وسماهم المماليك البحرية وكانوا لا يخاطون الناس بالمدينة ولهم النفقات وجعل حول هذه القلعة المراكب الحربية المشحونة بالسلاح استعداداً لملاقاة الفرنج في أية لحظة فيستقلون هؤلاء المماليك المراكب ويخرجون لقتالهم^(٤).

(١) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٦٥٥، حاشية ٢.

(٢) ابن دقماق: الجواهر الثمين، جـ ٢، ص ٣٧.

(٣) جزيرة الروضة من الجزر التي تقع في وسط النيل وكان يطلق على النيل البحر وهو دائر عليها من جميع الجهات وهي بين الفسطاط والجزيرة وبطرفها من الجنوب دار المقياس وكانت بها البساتين الغناء والثمار وتحصن بها الروم عند فتح عمرو بن العاص مصر فلما طال حصارها وهرب الروم منها حزب عمرو بن العاص بعض ابراجها وأسوارها ثم عمر حصنها أحمد بن طولون سنة ٢٦٣هـ ليحرز فيها حريمه وماله عند قدوم موسى بن بغامن العراق ليلى مصر - ابن دقماق والانتصار جـ ١، ص ١٠٩ وأقام الأمر اليهودج لإحدى حظاياها ثم عمرها الأفضل أمير الجيوش في العصر الفاطمي ثم اشتراها الملك المظفر تقي الدين عمر شقيق صلاح الدين الأيوبي ثم أوقفها بالكامل عند ميسرة إلى الشام كرجية صلاح الدين إلى أن استأجرها الصالح أيوب لمدة سنتين واستولى على ما فيها وقطع النخيل وجعلها لمماليكه وأسكنهم بها (نفسه ص ١٠٠) وأخفت شجر الدر جثة الصالح بحصن الروضة إلى أن تمت هزيمة الفرنسيين عند المنصورة سنة ١٢٤٩م - دائرة المعارف جـ ١٠، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

و Neil D., Mackenzie - Ayyubid, Cairo, p.p. ٢٧ - ٧٧

(٤) ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٥٦، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١، ق ١، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

وليام موير: تاريخ دولة المماليك، ص ٣٧، والعبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ٩٤ - ٥٩.

محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ص ٢٢..

وقد اختلف المؤرخون في أعداد المماليك البحرية الصالحة فبعض المصادر تقدرهم بسبعمائة وخمسون، وقيل أنهم ثمانمائة^(١) وقيل ألف من المماليك الأتراك^(٢). ويذكر المقرئزي أنهم كانوا جميعاً من الأتراك وقد دربهم الصالح تدريباً عسكرياً رفيع المستوى فتنشأوا في طاعته وأخلصوا له ودانوا بالولاء^(٣).

ويروي القلقشندي أن البحرية كانوا من خيار الترك اتسموا بالشجاعة والوفاء وعدم الغدر وقال أن منهم معظم جيش الديار المصرية وأن مصر امتلأت بهم ومنهم «أقمار مواكبها وصدور مجالسها وزعماء جيوشها وعظماء أرضها»^(٤).

كما يعرفهم عندما عرف الأجناد وأنواعها فقال أن الأجناد على طبقتين، الطبقة الأولى المماليك السلطانية، أما الثانية فهم أجناد الحلقة وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند، ثم قال ومن الجند طائفة ثالثة يقال لهم البحرية يبيتون بالقلعة وحول دهاليز السلطان في السفر كالحرس، وأول من رتبهم وسماهم بهذا الاسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب^(٥).

ومن الملاحظ أن ابن خلدون قد دأب على إطلاق لقب موالي على المماليك حتى تولية تورانشاه فقد بدأ يطلق عليهم لفظ ممالك فمثلاً أنه قال «ثم اختط قلعة بين سعي النيل إزاء المقياس واتخذها مسكناً وأنزل بها حامية من مواليه فكانوا يعرفون بالبحرية»^(٦).

ويبدو أن ذلك بسبب شدة موالاتهم وارتباطهم بسيدهم واستأذهم الصالح نجم الدين أيوب حتى إذا جاء عهد ابنه بدأ يلقبهم بلقبهم الحقيقي وهو المماليك.

وكان لهؤلاء المماليك البحرية دور كبير ومؤثر في ازدياد قوة ونفوذ الملك

(١) المقرئزي: السلوك، جـ ٢، ق ٢، ص ٣٤١.

(٢) ابن دقماق: الجواهر الثمين، جـ ٢، ص ٣٧.

(٣) المقرئزي: الخطط جـ ٢، ص ٢٣٦ الباز العريني: المماليك، ص ٢٥٣.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٤٥٨.

(٥) نفسه، ص ١٥، ١٦.

(٦) ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٥٦، أنظر ابن الوردي: تكملة المختصر، جـ ٢، ص ٢٤٨.

الصالح نجم الدين أيوب فقد حرسوا ملكه وثبتوا دعائمه لذلك ظهرت بسالتهم في
التصدي لحملة لويس التاسع في المنصورة^(١).

وعلى الرغم مما تمتع به هؤلاء المماليك من القوة وشدة البأس فقد كان
للصالح أيوب عندهم مهابة عظيمة فقد قيل عنه «لا يجسر أحد أن يخاطبه ولا يتكلم
ابتداء ولا يستعمل أحد من أهل دولته بأمر من الأمور إلا بعد مشاورته وكان إذا
شاهده الترك يرتعدون مخافة منه ولم تقع له في حالة غضبة كلمة هجر وأكثر ما
يشتّم به يا متخلف»^(٢).

وإذا جلس بين ممالكه «لا يقدر أحد أن ينطق بحرف ولا ينقل قدم عن قدم ولا
يلتفت يمينا ولا شمالاً وهم يرتعدون منه هيبة وجلالة»^(٣).

(١) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ص ١٦، ١٧.

(٢) مجهول: مخطوط شفاء القلوب، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٣) ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٧، ص ٣٧١.

المماليك البحرية والتصدي للحملة الصليبية السابعة

١٢٤٩هـ / ١٢٤٧م

ظهر دور المماليك واضحا في التصدي للحملة الصليبية السابعة التي قادها الملك لويس التاسع ملك فرنسا وقد كانت هذه الحملة من أخطر الحملات الصليبية، على الشرق خاصة وأن القديس لويس جاء محاولا إعادة هبة أوربا المسيحية، كما وجه اهتمامه إلى ضرب مصر التي استطاعت استرجاع بيت المقدس وتقليص مملكة بيت المقدس الصليبية وحصرها في عكا^(١).

وكان إخلاص هؤلاء المماليك لمولاهم الصالح أيوب وإحساسهم بالمسئولية تجاه مصر التي احتضنتهم وتربوا في كنفها وحماسهم الشديدة للدين الإسلامي دوافع أساسية وراء استبسال هؤلاء للدفاع عنها.

فلم ييأس الصليبيون مما حل بهم من هزائم متكررة في الشرق فبعد هزيمتهم في دمياط ٦١٨هـ / ١٢٢١م عادوا إليها مرة أخرى سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م بقيادة لويس التاسع بعد أن تطايرت أنباء هزيمتهم سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م في القدس وسقوطها في يد الملك الصالح أيوب والخوارزمية إلى أوروبا وكذلك هزيمتهم عند غزة وتسليم بيت المقدس وما جرى لهم على أيدي الخوارزميين مما أثار الروح الصليبية في نفس لويس التاسع ملك فرنسا فقامت الدعوة للحملة السابعة بقيادته^(٢).

وكان الاعتقاد السائد لدى الغربيين أنه ليس من طريق إلى الاستيلاء على بيت المقدس إلا بالاستيلاء على مصر أولا، التي تزعمت العالم الإسلامي والجهاد ضد الصليبيين في تلك الفترة ومن هنا قامت الدعوة لتلك الحملة التي تعددت أسباب قيامها وتكاثفت العوامل الجوهرية والثانوية لأخراجها إلى حيز الوجود والتنفيذ فكان تدهور أوضاع الأراضي المقدسة والمعاناة التي تعرض لها النصارى في تلك الفترة وفقدانهم لبيت المقدس سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م على يد الصالح أيوب والمعارك التي

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٦.

(٢) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٠٠.

تلتها بين المسلمين والفرنجة وأخذ طبرية وعسقلان منهم سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م على يد الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ موقداً من الصالح أيوب والعذاب الذي تعرض له النصاري على يد الخوارزمية واشعال النيران في قبر المسيح أثار شعوراً بوجوب الثأر لنصرانيتهم كذلك كان شفاء لويس التاسع من مرض عضال ألم به حافزاً له على التوجه لتخليص الأرض المقدسة اعترافاً منه بفضل الله عليه في الشفاء^(١).

وتوالت وفود الرسل إلى الغرب في طلب النجدة وأرسل روبرت بطريك بيت المقدس إلى أمراء الغرب سفارة برئاسة واليران Walleran اسقف بيروت يستحثهم على النهوض بحرب صليبية ضد المسلمين.

وتأكد عزم أوربا على إرسال حملة جديدة إلى الشام في مؤتمر ليون سنة ١٢٤٥م بزعامة البابا أنوسنت الرابع حيث ناقشوا الأوضاع في الأراضي المقدسة، وبدأ مسيحي أوربا يسترجعون حماسهم وبدأت الحملة للجهاد ونادى البابا بالغفران لكل من يشارك في تلك الحملة حاملاً الصليب لنصرة دينه، وقوض دعاة الحملة أرجاء أوربا كلها وخاصة فرنسا فقد أخذ ملكها لويس التاسع لواء قيادة تلك الحملة وعقد سنة ١٢٤٥م مجمعاً كبيراً دعا إليه كبار رجال الدولة وكبار رجال الدين واثار مشاعر الناس بخطبة حماسية مدوية دعاهم فيها إلى حمل الصليب وشاركه أخوته الثلاثة روبرت كونت أرتوا وشارل كونت انجو والفونس كونت بواتييه وجوانفيل مؤرخ تلك الحملة وأحد كبار فرسانها كما شاركته زوجته مرجريت دي بروفانس واستأجر لويس التاسع عدد من السفن من جنوه ومرسيليا واشترى من قبرص ما يحتاجه جيشه من المؤن التي أعدت له عند مروره بالجزيرة التي التقت بها الجيوش الصليبية المشاركة^(٢).

وخرج لويس التاسع من فرنسا سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م بعد أن حشد جنوده

(١) جوزيف نسيم: لويس التاسع في الشرق الأوسط، ص ٢٤ - ٢٧.

(٢) نفسه، ص ٢٧ - ٣٠.

وحمل الأموال الكثيرة^(١) وشتى في جزيرة قبرص^(٢) وأرسى بعكا وجاءته الحشود من كل مكان وساروا قاصدين دمياط^(٣).

وكان اختيار ميناء دمياط لرسو الحملة فيه لأكثر من سبب، فقد كانت دمياط تتمتع بمركز جغرافي وتجاري وصناعي متميز مما جذب أنظار أهل الغرب إليها كما وأنها أقرب موانئ مصر إلى بيت المقدس وهي الهدف الأساسي الذي قامت من أجله هذه الحملة كما أنه قريباً من القاهرة قلب مصر^(٤).

وصل الملك لويس التاسع بعساكره وجنوده إلى دمياط وخرج السلطان الملك الصالح إلى المنصورة بجنوده ودار القتال بين الفريقين واستطاع ملك فرنسا الإستيلاء على دمياط بعد أن أخلاها فساحت الفرصة للصليبيين لتملكها^(٥)، وكان الصالح على المنصورة فلما علم غضب أشد الغضب وشنق من أعيان دمياط ستين شخصاً^(٦) وقيل أربع وخمسون شخصاً صلبوا مرتدين ثيابهم^(٧) وهرب الباقون وقيل أن مماليكه خشوا منه بعدما أمر بقتل هؤلاء وأرادوا قتله لولا أن ابن الشيخ أقنعهم بالعدول عن ذلك لمرضه ولكن تلك المقولة تحتل الشك ولا يمكن قبولها حيث أن هؤلاء المماليك كانوا يحبون استاذهم ويدينون له بالولاء والإحترام والإخلاص لسيدهم فبعد وفاته نقلوا جثمانه من قلعة جزيرة الروضة إلى تربته التي بنيت له عند مدرسته بين القصرين وأقاموا له العزاء بالقاهرة وذكر العيني أنهم قطعوا شعورهم حزناً عليه «وعملوا له عزاء جديداً»^(٨).

(١) ابن العبري: مرآة الزمان، ص ٢٩٣.

(٢) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ٢، ص ٧٠ - ٧٠.

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، جـ ٢، ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٤) جوزيف نسيم: لويس التاسع في الشرق الأوسط، ص ٣٦.

(٥) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٣٣٤.

(٦) الحنبلي: شذرات الذهب، جـ ٥، ص ٣٣٤.

(٧) العيني: عقد الجمان، ص ٣٧.

(٨) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ق ١، جـ ٨، ص ٧٧٣، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول جـ ٢،

ص ٢٥٩، ابن الوردي: تاريخه جـ ٢، ص ٢٦٣.

ولبس جميع العسكر البياض ونزل المكان الأشرف والمعز من قلعة الجبل إلى التربة الصالحة ومعهما سائر الممالك البحرية والجمدارية والأمراء والقضاة والأعيان واغلقت الأسواق بالقاهرة ومصر وأقيم المأتم بالدفوف بين القصرين^(١)، لذلك فمن الصعب تصديق أنهم أرادوا قتله لولا تدخل ابن الشيخ.

وقد اشتركت الممالك البحرية في صد حملة لويس التاسع على مصر كأحدى الطوائف التي شاركت في الدفاع عن مصر فقد كان هؤلاء البحرية بالنسبة للصالح أيوب «شوكة دولته وعصابة سلطنة وخواص داره»^(٢).

وقد وصفهم جوائفيل أنهم «كتائب يستحب النظر إليها فقد كانت أسلحتها من الذهب إذا وقعت عليها الشمس كان لها بريق يخطف الأبصار وكان صوت طبولهم وأبواقهم يبعث الرهبة في قلوب سامعيها»^(٣).

أما عن جند الحلقة فقد وصفهم جوائفيل بأنهم شبان صغار يحملون نفس أسلحة السلطان ويطلق عليهم البحرية وعندما تبدأ لحاهم في الظهور ينصبهم السلطان فرساناً ويتخذون رنوكاً تشبه رنوك السلطان من الذهب الخالص مع إضافة قضباناً قرمزية اللون محلاة بالزهور أو الطيور لتمييزها عن رنوك السلطان^(٤).

وفي اعتراف ضمني لجوائفيل بشجاعة هؤلاء الممالك وقوتهم في حروبهم بأنهم لم يكونوا ليستطيعوا الإستيلاء على دمياط إلا بالمجاعة مثلما حدث لجان دي بريين ملك بيت المقدس الذي شارك في الحملة الخامسة على دمياط سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م ولكن خدمه الحظ عندما أخلاها أهلها واضمر الترك النيران في أسواقها بعد أن جمعوا فيها كل ما خف حملة وغلا ثمنه وذكر أن تلك الخسارة كانت

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، ق ١، ص ٧٧٣، الحنبلي: شذرات الذهب، جـ ٥، ص

٢٣٧، المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٣٧١.

(٢) ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٧٣.

(٣) جوائفيل: القديس لويس، ص ٩١.

(٤) نفسه، ص ١٣٧ - ١٣٨.

كبيرة^(١)، وذلك يعد اعترافاً بأنه لولا أن الحظ خدمهم لما استطاعوا الإستيلاء على دمياط من الأهوال التي لاقوها بعد ذلك في حربهم مع المماليك والمسلمين^(٢).

ولما توفي الصالح أيوب بالمنصورة في ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م، لم تظهر زوجته شجر الدر شيئاً ودبرت الأمور ولم تعلن نبأ وفاته نظراً للظروف العصيبة التي كانت تمر بها البلاد وتواجد الصليبيين في دمياط فكان يمد السماط كل يوم وهي تعلن أن السلطان مريض ولا يجب أن يزوره أحد^(٣)، وتكتب المراسيم وعليها علامة الصالح فلا يشك أحد أنها علامته^(٤).

وأحضرت فخر الدين ابن الشيخ والطواشي محسناً وعرفتهم بموته وكنتموا الخبر وأحضروا الأمراء وحلفوهم للصالح ولإبنه من بعده^(٥) وأرسلوا أقطاي^(٦) أحد المماليك البحرية في استدعاء ابنه تورانشاه من حصن كيفا فوصل دمشق بعد معاناة وأهوال كثيرة تعرض لها أقطاي ثم قام حسام الدين الهذباتي بمصر بجمع باقي الأمراء وتقوية جاشهم واستحلفهم على الولاء والطاعة لتورانشاه^(٧).

(١) نفسه، ص ٩٦ - ٩٧ وأنظر ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٤٠ - ٢٤١ وللمزيد عن الحملة السابعة أنظر عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي، ص ١٨٠ وما بعدها.

(٢) جوائيل: القديس لويس، ص ٩٦ - ٩٧.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ٧٧٣، أبو الفدا: المختصر ج ٣، ص ١٣٩.

(٤) ابن الوردي: تاريخه، ج ٢، ص ٢٦٠.

(٥) مخطوط شفاء القلوب: مجهول، ص ١٠٤.

(٦) هو الأمير فارس الدين التركي الصالح النجمي اشتراه الصالح بألف دينار وقد كان من أكابر أمراء البحرية وعظماهم وكان متصفاً بالكرم والشجاعة ولما اعتلى المعز أيبك السلطنة كان يغار منه لميل البحرية إليه فاستفحل أمره وأخذ من المعز الأسكندرية إقطاعاً وتزوج ابنه صاحب حماه وكان يتصرف في بيت المال فاتفق المعز وزوجته شجر الدر على قتله وقتل بالفعل في القلعة سنة ٦٥٢ هـ - الذهبي: العبر، ج ٣، ص ٢٦، ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٣٧٥ - ٣٧٦.

(٧) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ٧٧٣، ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٣٦ وقد لقب ابن خلدون الصالح بلقب سيد ملوك الترك لاستجلابه لهم ورعايته إياهم حتى أصبحوا ملوكاً. نفسه وأنظر عقاف صبرة: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٤٠٨.

فلما تسرب نبأ وفاة الصالح إلى الفرنج تجرأوا وتقدموا من دمياط إلى فارسكور وواقعوا العسكر ثم نزلوا بقرية شرمشاح بالبرمون^(١)، ثم إلى المنصورة وجرى بينهم وبين المسلمين وقعات كبيرة برز فيها دور البحرية الذين استبسلوا في القتال حتى استطاعوا أن يردوهم على أعقابهم وكان القتال مشتدًا برًا وبحرًا^(٢).

واستخدم المماليك النار الإغريقية^(٣) في حروبهم ضد الصليبيين، كما ذكر جوافيل أنه عندما تم دفع مشاه المماليك ارتدوا إلى كتيبة كبيرة من المماليك الفرسان الذين جاءوا أمام معسكر الصليبيين لمنعهم من مهاجمة جيش المسلمين المرابط خلفهم فقام ثمانية من المماليك بإقامة المتاريس من الحجارة المصقولة، حتى لا يتمكن رماة السهام الصليبيين من إصابتهم وأخذوا يطلقون النار على معسكر الصليبيين وجرحوا الكثير من رجالهم وجيادهم^(٤)، وهذا اعتراف من مؤرخ الحملة ببسالة وشجاعة هؤلاء في مواجهة الأعداء.

وتعددت صور شجاعة هؤلاء المماليك في التصدي لأعداء الإسلام وشهد التاريخ ببسالة الدور الذي لعبه المماليك في مقاومة الصليبيين فذكر جوافيل أن الكونت بواتييه والكونت فلاتدر وبعض قادة قواتهم كانوا يرسلون إلى الملك لويس يتوسلون إليه أن «يقصر عن الحركة لعجزهم عن متابعته لضغط المماليك الشديد عليهم»^(٥).

ويقول: «... ثم جاء للكونستابل سر جندي كان يحمل صولجانا ويرتجف خوفًا وأخبره أن الترك قد أحرقوا بالملك وأنه في خطر عظيم فرجعنا فأبصرنا بيننا وبينه

(١) والبرمون بليدة ذات أسواق في كورة الغربية من أرض مصر في طريق الإسكندرية من القسطنطينية. ياقوت: معجم البلدان، جـ ٢، وأنظر المقرئ: الخطط جـ ٢، ص ٢٣٦.

(٢) الحنبلي: شذرات، جـ ٥، ص ٢٣٨.

(٣) وصف جوافيل النار الإغريقية أنها «كأنما هي الدنان المشتعلة وذيلها من خلفها مثل الحراب الطويلة ودويها يشبه الرعد وكأنها جارج يشق الهواء ولها نور ساطع جدا من جراء عظم انتشار اللهب الذي يحدث الضوء» جوافيل ص ١١٠ - ١١٢، ص ١٢٢.

(٤) جوافيل: القديس لويس، ص ١٢٨.

(٥) نفسه، ص ١١٩.

مالا يقل عن ألف مملوك. والملك قريبا من النهر والمماليك يدفعون قواته ويضربون السيوف والصولجانات وأرغموا القوات الأخرى على التقهقر^(١).

وحين علم لويس التاسع بوفاة السلطان الصالح أيوب طمع في البلاد وتقوى وزحف إلى فارسكور فتحالف المماليك على أن يكونوا كلمة واحدة على الجهاد في سبيل الله وركب بيبرس البندقداري والأمير لاجين وفارس أقطاي وبقية الأمراء ومعهم العربان والعوام والفلاحين ودار قتالاً استشهد فيه ستين أميراً غير المماليك السلطانية والعربان والعوام وقتل أثني عشر ألف من الفرنج^(٢).

وذكر ابن أيبك أن المماليك الصالحة المعروفين بالبحرية كان لهم بلاءً حسناً في تلك الحروب التي كانت في منتصف شوال سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م^(٣) وقد هاجم الفرنج مخيم المسلمين نتيجة لخيانة أحد الجواسيس الذي دلهم على طريق يسلكونه عبر بحر أشمون^(٤) فهاجموهم وقتلوا الأمير فخر الدين بن الشيخ ووصل ملكهم إلى باب القصر الذي كان للسلطان الصالح^(٥) فقامت المماليك البحرية وركب فارس الدين أبو الهيجاء وركن الدين بيبرس البندقداري في عدة من الترك وبددوا شمل هؤلاء الفرنج وقيل «والله لقد كنت اسمع زعقات الترك كالرعد القاصف ونظرت إلى لمعان سيوفهم وبريقها كالبرق الخاطف قلله درهم لقد أحيوا في ذلك اليوم الإسلام من جديد بكل أسد من الترك قلبه أقوى من الحديد فلم تكن إلا ساعة وإذا بالفرنج قد ولوا على أعقابهم منهزمين وأسود الترك لأكتاف خنازير الإفرنج ملتزمين»^(٦).

وقتل في تلك الساعة الفين وخمسمائة فارس من شجعان الفرنج هذا غير

(١) نفسه، ص ١١٩ - ١٢٠.

(٢) ابن لباس: بدائع الزهور، ج ٢، ق ١، ص ٢٨٠.

(٣) ابن أيبك: كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٧٦ - ٣٧٧، إنظر ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٣٧٤.

(٤) المقرئ: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٣٤٩، الحريري: الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، ص ٢٥٢.

(٥) جمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ج ٢، ص ١٣٣ - ١٣٤، جوزيف نسيم: هزيمة لويس التاسع، ص ٥٠ - ٥١.

(٦) ابن أيبك: كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٧٦ - ٣٧٧.

الرجالة^(١) وانتهت المعركة بالقضاء على الكونت ارتوا قائدها وشقيق الملك^(٢).

فقد أعمل المماليك الحيلة للقضاء عليهم فهاجموهم في معسكراتهم فلما أخذوا في مطاردة المماليك فر المماليك في حيلة أو خدعة فاتجهوا يمينا تجاه المنصورة ثم إلى ما وراءها من المزارع المؤدية إلى القاهرة ولما حاول جنود الصليبيين العودة أخذ المماليك يرمونهم بالقسي والسهم في شوارع المدينة الضيقة^(٣).

وكان بيبرس البندقداري قد رتب جنوده في المراكز المنيعة داخل المدينة فلما وصل الفرنج عند أسوار القلعة التي كانت مقرا لقيادة المصريين خرج عليهم المماليك في الشوارع والحارات والدروب وقتلوهم فلم يستطيعوا الفرار وكانوا يلقون بأنفسهم في النيل فيموتون غرقى^(٤)، فكان لهذه الخطة أبلغ الأثر في هزيمة جيش الصليبيين^(٥).

كما أنهم لم يتركوا الصليبيين يعودون إلى دمياط سالمين فأنزلوا بهم الهزائم وأسروهم حتى أنهم أسروا ملكهم لويس التاسع نفسه وسجن في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان^(٦) ووكل به الطواشي صبيح المعظمي حتى يدفع الفدية^(٧).

وتضمنت انتصارات المماليك على الصليبيين أنهم استطاعوا الإستيلاء على ثمانين سفينة من سفن الصليبيين بعد أن قاموا بسحب بضعة سفن من سفن المسلمين إلى اليابسة ثم أنزلوها ثانية إلى الماء على بعد فرسخ من شمال معسكرهم فاستحالت عودة الفرنج الذين ذهبوا إلى دمياط لجلب المؤنة وتم قتل جميع بحارة الثمانين سفينة^(٨)، كما استولوا على اثنين وثلاثين مركبا مما أضعفهم وطلبوا الصلح

(١) نفسه، أنظر المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٢٣٦ - ٢٣٧، السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٣٥٠.

(٢) جمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، جـ ٢، ص ١٣٤.

(٣) جوانفيل: القديس لويس، ص ١١٤ - ١١٥.

(٤) السيد الباز العربي: مصر في عصر الأيوبيين، ص ١٤٦ - ١٤٧.

(٥) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي، ص ١٠.

(٦) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٩، ١٠، عفاف صبرة: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٤ - ٨.

(٧) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ٧٢.

(٨) جوانفيل: القديس لويس، ص ١٤١ - ١٤٢.

على أن يتسلموا القدس وبعض الساحل مقابل تسليم دمياط إلى المسلمين فلم يجبههم أحد^(١) ولما تم أسر الملك والقبض على أمراء الفرنج هربت مراكبهم في البحر فتبعهم المسلمون وتمكنوا منهم^(٢).

(١) أبو الفدا: المختصر جـ ٣، ص ١٤٠.

(٢) ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٧، ص ٣٧٩.

المماليك وتوران شاه

بعد وفاة الصالح نجم الدين أيوب أخفت زوجته نبأ وفاته إلا عن فخر الدين ابن الشيخ والطواشي محسناً للذين احضروا الأمراء وحلفوهم لتوران شاه ابن الصالح^(١). وحلف المماليك وأرسلوا أقطاي أحد المماليك البحرية لاستدعاء توران شاه من حصن كيفا فصار ومعه خمسين من الأمراء ودخل تورانشاه دمشق ونزل القلعة وأنفق الأموال وأحببه الناس ثم رحل إلى مصر ففرح الناس به ونزل في قصر أبيه وأعلن رسمياً وفاة الصالح أيوب وتسلطن وتولي مملكة الديار المصرية والشامية في ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م^(٢).

تباينت الآراء واختلف المؤرخون حول شخصية تورانشاه وتعددت أسباب قتله في نظرهم ولكنهم اجتمعوا على قتله على يد ممالك أبيه البحرية^(٣).

لقد وصلت انتصارات المماليك البحرية على الصليبيين في المنصورة ثم في فارسكور إلى أوجها مما أدى إلى ازدياد شوكتهم وشعورهم بأنهم أصحاب ذلك النصر العظيم وأنهم أنقذوا البلاد من ذلك الخطر الكبير^(٤) فازدادت قوتهم وتطلعهم إلى السلطة وكان انتصارهم هذا «بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك»^(٥). لذلك ظهرت خشيتهم واضحة من ضياع ذلك النصر من بين أيديهم.

وذكر ابن تغرى بردي عن تورانشاه أنه لما وصل إلى المنصورة «فتح الله علي يديه ونصر الله الإسلام في يوم دخوله فتيمن الناس بطلعته»^(٦).

(١) ابن الوردي: تاريخه، جـ ٢، ص ٢٦٠، مخطوط شفاء القلوب: مجهول، ص ١٠٤.

(٢) مخطوط شفاء القلوب: مجهول، ص ١١٧ وأنظر المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٢٣٦، والسلوك

جـ ١، ق ٢، ص ٣٥٢ وابن دقماق: الجواهر الثمين، جـ ٢، ص ٤٠، محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ٧١.

(٣) المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٢٣٦، ابن تغرى بردي: النجوم جـ ٦، ص ٣٦٤.

(٤) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين، ص ١٦٩.

(٥) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي، ص ١١.

(٦) ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٦، ص ٣٦٤.

فقد خشي المماليك على أنفسهم أذن من القوة الجديدة التي تحقق النصر بوصولها، وانقسم المماليك على أنفسهم، قسم يؤيد تورانشاه، وقسم يؤيد شجر الدر ويبدو أن الفريق الثاني تشكك في نوايا تورانشاه.

ومن هنا بدأ صراع القوتين قوة السلطان تورانشاه سليل الأسرة الأيوبية وما تحمله من تاريخ سابق مجيد لأجداده وقوة شجر الدر والمماليك البحرية وتطلعهم إلى السلطة وتخوفهم من أن ينقلب عليهم هذا السلطان ولا يتمتعون بالمراكز التي كانت لهم في عهد أبيه.

وإذا قمنا بتفنيد الأسباب التي أدت إلى قتله فلن نجد بينها سبباً واضحاً يستدعي قتل هذا السلطان بتلك البشاعة.

واختلفت آراء المؤرخين وتعددت حول أسباب قتل تورانشاه ونفور المماليك منه ومن هذه الأسباب:

(١) أن هؤلاء المماليك خدموه أتم خدمة وانتظروا مجازاتهم واعتقدوا أنه سيملاً فراغ والده ولكنه قدم أمراءه وتوعد ممالك أبيه - الذين رباهم كأولاده - وقطع أخبارهم ونهب أموالهم ولم يعمل بوضعية أبيه تجاههم^(١).

ولكن من غير المعقول أن يكون هذا سبباً كافياً لقتل ابن استأذهم وسلطان مصر، فمن غير المستبعد أن يكون تورانشاه قد شعر بطمعهم في الإستيلاء على البلاد فلم يطمئن إليهم وقدم بطانته التي يثق بها وهذا أمر طبيعي أن أي سلطان جديد يقدم بطانته مثلما قام أبيه بشراء هؤلاء وقدمهم على العادلية والكاملية وأسكنهم القلعة وأنفق فيهم الأموال.

(٢) وقيل من أسباب قتله أنه قدم عبداً أسود نوبي الجنس وجعله أمير جاتندراه وأقطعه الإقطاعات العظيمة والمنح الكثيرة ولم يراع ما قاساه ممالك أبيه وخدمتهم لأبيه وحمايتهم له وزودهم عن البلاد فاتفقت المماليك البحرية على قتله^(٢).

(١) ابن أبيك: كنز الدرر، ج-٧، ص ٣٨١، النويري: نهاية الأرب، ج-٢٩، ص ٣٥٢ - ٣٥٣.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج-٨، ق/١، ص ٧٨٢، أبو الفدا: المختصر، ج-٣، ص ١٤١

وابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٤٨ - ٥٠ والمقريزي: الخطط، ج-٢، ص ٢٣٧ =

على أن هذا أيضاً ليس سبباً لمعاقبته بالقتل فكل سلطان الحرية المطلقة في اختيار أو تقريب ما يروق له من ممالكه.

(٣) ويبدو أن أهم الأسباب التي ذكرت في قتله أن ممالكه أشاروا عليه بصلح الفرنج بعد أن كان ملكهم في يديه حتى لا يحتاج إلى شجر الدر أو ممالك أبيه لأنهم مسيطرين على الحكم وسولوا له أن هؤلاء هم أعداءه وإن في «صلح الملك وتركه وأخذ الأموال والجواهر صلاح الحال وتسليم دمياط» فشعر أمراء أبيه بتغيره عليهم واستهتاره بما قاسوه حتى وصلوا إلى هذا النصر على الصليبيين فدبروا قتله^(١).

كما أنهم أفرجوا عن الملك وتم رحيله تحت سمعهم وبصرهم ولو لم يوافقوا على أخذ الفدية وتركه لما تركوه بعد قتل تورانشاه.

(٤) وقيل أيضاً في أسباب قتله أنه كان قد وعد أقطاي حين ذهب إليه يستدعيه من حصن كيفا أن يؤمره ولم يف بوعده فحقد عليه أقطاي^(٢) ولما ذكره بوعده على لسان بعض خواصه رد قائلاً «أعطيه جباً مليحاً يليق به»^(٣) فمن الجائز أن يكون تورانشاه كان سيفي بما وعد به لولا شعوره بطمع أقطاي وزملائه في الملك وتغيرهم عليه. كما أنه من غير المعقول الأخذ بالرأي القائل بأن من أسباب قتل الممالك له أنه «تعرض لحظايا أبيه»^(٤) فلماذا حظايا أبيه وقد كان في عصر من الممكن الحصول فيه على أكبر عدد من الممالك والجواري والحظايا وكان طبيعياً أن لكل سلطان حظايا فلم تكن ثروة ثمينة لا يستطيع الحصول على مثلها.

(٥) وقيل أن من أهم أسباب قتله أنه طالب زوجة أبيه شجر الدر بمال أبيه

= والسلوك جـ ١، ق ٢، ص ٣٥٨ والعين: عقد الجمان، ص ٢٢، ٢٣.

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، جـ ٢، ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٢) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٣٦٠، المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٣٥٨.

(٣) ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٧، ص ٣٨١ - ٣٨٢.

(٤) مخطوط شفاء القلوب: مجهول، ص ١١٧.

والجواهر^(١) وما قيل عن تهديده أياها فخافت منه وكاتبته الأمراء وحرضتهم على التخلص منه^(٢)، واعتبار ذلك ضمن أسباب قتله، فمن الطبيعي عند انتقال السلطة من سلطان لآخر أن يطالب بأموال من سبقه وخزائنه لأنها للدولة وليست ملكاً خاصاً له وكان تهديده لزوجته أبيه ناتجاً عن رفضها تسليمه الأموال والإستيلاء عليها ولا تنسى أن السلطان هنا كان أبيه.

(٦) وكان حبه لشرب الخمر أحد تصرفات تورانشاه التي أثارت حنق المماليك البحرية عليه وذكرها معظم من أرخ لتلك الفترة، فقد كان يشرب الخمر حتى تدور رأسه ويأتي بالشموع ويسميها باسم ممالك أبيه ويطيح بها بسيفه وقد حذره أبوه في وصيته بترك شرب الخمر ولكن يبدو أنه لم يسمع النصيحة وقد جاء في الوصية: يا ولدي قلدت إليك أمور المسلمين فافعل فيهم ما أمرك به الله ورسوله يا ولدي إياك والشراب فإن جميع الآفات وما تأتي على الملوك إلا من الشرب^(٣).

(٧) وذكر ابن العبري^(٤) أن أحد تصرفات تورانشاه التي أثارت حفيظة البحرية ضده حين علم أن الملكة زوجة الملك لويس التاسع المعتقل لديه ولدت له ابناً في دمياط فسير إليها معظم عشرة آلاف دينار ذهباً ومهداً للطفل ذهبياً وحلاً ملكية^(٥)، ويبدو أن هذا كان فيه نوع، من المغالاة فمن الممكن أن يكون أهدى للطفل مهداً وحلاً ولكن مسألة العشرة آلاف ديناراً ذهباً مشكوك في صحتها فقد تم الاتفاق على إطلاق سراح الملك مقابل خمسمائة ألف دينار^(٦).

(١) المقرئزي: السلوك جـ ١، ق ٢، ص ٣٥٦.

(٢) ابن أبيك: كنز الدرر، جـ ٧، ص ٣٨١ - ٣٨٢، النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

(٣) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٣٤٧.

(٤) استعمل ابن العبري لفظ العبيد بدلاً من المماليك وأطلق على ممالك تورانشاه لفظ الصغر ومماليك الصالح أيوب لفظ العبيد الشيوخ، ابن العبري: مرآة الزمان، امتداد الجزء.

(٥) ابن العبري: مرآة الزمان ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

(٦) جوفيل: القديس لويس، ص ١٦١.

ويبدو أنه أراد بإرسال تلك الهدية أن يظهر له كرم المسلمين في معاملة الأسرى من الملوك أخذًا بقول رسولنا الكريم «إرحموا عزيز قوم ذل».

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ما هي مجموعة الأسباب الحقيقية التي أدت إلى نهاية تورانشاه مقتولاً بتلك البشاعة على أيدي ممالك أبيه؟

بداية يجب أن نذكر حقيقة هامة وهي أنهم شعروا باختلاف شديد في معاملة السلطان لهم ومعاملة تورانشاه المختلفة فقد كان الملك الصالح يحب ممالكه ويهتم بهم ويغدق عليهم الكثير من الإتياف وقد بلغ من شدة اهتمامه بهم أنه ذكرهم في وصيته لإبنه تورانشاه «الولد يتوصى بالخدم محسن ورشيد والخدام المقدمين لا تغيروهم. فما قدمت أحد من الخدام ولا من الممالك إلا بعد ما تحققت نصحه وشفقته. وأستاذ الدار وأمير جاندار تتوصى بهم وكذلك الحسام لا تغيروهم فإني أعتمد عليهم في جميع أموري» (١).

«وقد عينت في ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من الممالك تقدمهم تعطى كل واحد كوس (٢) وعلم وتحسن إليهم وتتوصى بالممالك غاية الوصية. فهم الذين كنت اعتمد عليهم واثق بهم وهم ظهري وساعدي. تتلطف بهم وتطيب قلوبهم وتوعدهم بكل خير. ولا تخالف وصيتي ولولا الممالك ما كنت قدرت أركب فرسي ولا أروح إلى دمشق ولا إلى غيرها فتكرمهم وتحفظ جانبهم» (٣).

من هذه الوصية نستطيع التأكد من أن الصالح أيوب كان قد تنبأ مبكرًا بالصدام الذي من الممكن أن يحدث بين ابنه وبين ممالكه الذين درس شخصياتهم وعرف حجم طموحاتهم واستشعر طمعهم في الحكم والدليل على ذلك أنه كثيرًا ما كان يطلب

(١) النويري: نهاية الأرب جـ ٢٩، ص ٣٥٠.

(٢) الكوس من شعارات السلطنة والإمارة وهي صنوج من نحاس يدق في المواكب. نفسه حاشية ٣، ص ٣٥١.

(٣) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٣٥١.

منه الأمراء إحضار ابنه من حصن كيفا وكان يرد غاضبًا: أجيبه أقتله؟^(١) و« أجيبه لهم يقتلوه»^(٢).

فقد كان ابنه شابا طموحًا ليس له عقل الشيوخ الراجح لذلك لم يعهد إليه بالملك صراحة حتى لا يستثيرهم ولكن وصيته له كانت دليلًا على أنه عهد به إليه شفاهة لزوجته شجر الدر وكتب الوصية وأخفاها فكل ما في الوصية يؤكد أنه سبلى الأمر من بعده كما أنه لم يتوقع أن مرضه سيؤدي به إلى وفاة سريعة فخشي غيرة مماليكه وآثر أن يظل هو السلطان القوي الذي يدينون له بالولاء والطاعة حتى آخر لحظة وليس كما قال المقرئ أن أبوه الصالح نجم الدين أيوب كان يكرهه^(٣).

وعن ذكر بعض المصادر أنه كان به هوج وخفة^(٤) وأنه لم يكن عاقلًا أو مدبرًا للأمور نجد البعض الآخر يصفه بأنه كان عالمًا حتى أن الشعراء أنشدوه التهانى «وجرت بين يديه مباحثات ومناظرات في أنواع من العلوم وكان السلطان المعظم قد مهر في العلوم وعرف الخلاف والفقه والأصول وكان جده الملك الكامل يحبه لميله إلى العلم ويلقى عليه من صفه المسائل المشكلة ويأمره بعرضها وامتحان الفقهاء بها في مجلسه»^(٥). كما قال عنه الحنبلي أنه «كان قوى المشاركة في العلوم ذكيًا»^(٦).

إذن فكيف لهذا العقل الراجح والتفكير الذكي الذي تجلى في خطة كسر الطريق على سفن الصليبيين ومنعهم من العودة من دمياط بالمؤمن لتجويع الصليبيين وحملهم على الإستسلام والتي وضعها بدقة تورايشاه، كيف لهذا العقل البارع أن يوصف بأنه أهوج؟؟ وكيف كان يدير الأمور بحصن كيفا؟؟ لقد كانت خطته التي نفذها ضد هؤلاء

(١) نفسه، ص ٣١٦.

(٢) مخطوط شفاء القلوب: مجهول، ص ١١٧.

(٣) المقرئ: السلوك جـ ١، ق ٢، ص ٣٤٢ حاشية ٥.

(٤) نفسه، ص ٣٥٣.

(٥) المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٣٥٣.

(٦) الحنبلي: شذرات، جـ ٥، ص ٢٤١.

الصلبيين هي التي انقذت البلاد منهم واجهزت على البقية الباقية من هذا الأسطول وعجلت بفرارهم وطلبهم الصلح فكانت بمثابة الضربة القاضية إلى الجيش الصليبي استطاع بها أن يمنع وصول الأقوات إلى القوات المقيمة جنوبي بحر أشمون فقد كانت السفن الصليبية تجلب المؤن والإمدادات من دمياط إلى المعسكر عن طريق النيل فأمر معظم بصنع عدة مراكب وأنزلها في بحر المحلة خلف المعسكر الصليبي حتى يتمكن من عرقلة الفاتحين بأسطولهم وحالت هذه السفن بين مراكب الفرنج الآتية من الشمال وبين الوصول إلى معسكرهم عند المنصورة (١).

ومما يدل على أن تلك الوصية كانت قد كتبت أثناء مرض الصالح أنه قال: «والوصية بجميع الأمراء وأكرمهم واحترمهم وارفع منزلتهم فهم جناحك الذي تطير به وظهرك الذي تركن إليه، وطيب قلوبهم وزيد في إقطاعهم، وزيد كل أمير على ما معه من العدة عشرين فارساً وأنفق الأموال، وطيب قلوب الرجال يحبوك وتتال غرضك في دفع هذا العدو» (٢).

فمن جملة «في دفع هذا العدو» نستطيع أن نستنتج أنها كتبت أثناء مرض السلطان الصالح وكان يقصد بالعدو الصليبيين ومنها نستطيع أن نتبين أنه درس شخصية هؤلاء المماليك دراسة وافية وعلم أن طمعهم بالمال لا يفوقه أي حد لذلك أوصاه بزيادة الإتفاق عليهم حتى يطيعوه وهذا الأسلوب هو الذي كان يتبعه الصالح معهم.

إذن فمن الراجح أن هؤلاء المماليك توقعوا بعد الانتصارات التي حققوها والصعاب التي واجهوها في سبيل تخليص البلاد من ذلك الخطر الصليبي وحفظ البلاد للسلطان في غيابه وحتى مجيئه وحلفهم له وتنصيبهم إياه سلطاناً على البلاد أن يقدر ذلك الجميل ويكافئهم كما تعودوا من أبيه (٣).

ولكن يبدو أن الأمر كان مغايراً تماماً لما توقعوه وبعد أن كان لهم الحل والعقد

(١) جوزيف نسيم: وليس التاسع، ص ٥٣ - ٥٤.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٩، ص ٣٤١.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ٧٨٢ - ٧٨٣.

والأمر والنهي أثر ممالئكه ودأب على تهديد هؤلاء ووعيدهم^(١) فلم يستطيعوا تقبل الأمر كما هو فقتلوه.

وكانت تلك هي عادتهم أو ردود أفعالهم تجاه مواجهتهم لأي مشكلة فليس لديهم إلا القتل وظاهرة العنف التي اتسموا بها، فقد قاموا بقتل العادل الثاني من قبل وادعوا أنه كان سيقتلهم وتآمر عليهم^(٢)، كما هموا بقتل الصالح استاذهم - إن صحت الرواية - بعد ضياع دمياط وغضبه عليهم لولا نصيحة الشيخ فخر الدين بن الشيخ لهم بأنه مريض وأن يصبروا عليه فسوف يموت حتماً^(٣).

وكانت أكبر أخطاء تورانشاه أنه أقام بنيابة السلطنة الأمير جمال الدين أقوش النجيبى^(٤) بدلا من الأمير حسام الدين أبي على الذي كانت له هيبة في عهد الصالح وهو الذي كان قد أمر الخطباء بالدعوة لتورانشاه على المنابر يوم الجمعة بعد الدعاء لأبيه وأن ينقش اسمه على السكة بعد اسم أبيه وهو الذي حرص على استدعائه في سرعة حتى لا يتغلب الأمير فخر الدين على البلاد عقب وفاة الصالح^(٥) فكان من الممكن أن يسانده ويتقوى به.

(١) ابن أبيك: كنز جـ ٧، ص ٣٨١ - ٣٨٢، النويري: نهاية، جـ ٢٩، ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

(٢) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٣٢٩.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، ق ١، ص ٧٧٣، الحنبلي: شذرات، جـ ٥، ص ٢٣٧.

(٤) العيني: عقد الجمان، ص ٢٢.

(٥) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٣٤٥.

مقتل تورانشاه ونهاية الدولة الأيوبية

اجتمعت الأمراء البحرية واتفقوا على قتله وكان يوم قتله هو يوم الثلاثاء السابع والعشرين من المحرم سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م^(١) وبينما هو جالس على السماط في فارسكور جاءه الأمير عز الدين أيبك^(٢) التركماني وطلب منه شيئاً فرد عليه السلطان رداً لا يرضيه فاستل سيفه وضرب السلطان ضربة اتقاها بيده^(٣) فقطعت أصبعه ودخل إلى برج خشب كان في خيمته وأقسم ألا يبقى أحداً من البحرية واستدعى الطبيب ليخيط له يده فاجتمع البحرية واتفقوا على قتله وهجموا عليه شاهرين سيوفهم فهرب إلى أعلى البرج وأغلق عليه بابه فحرقوه بالنار فنزل من البرج وهرب إلى البحر فتبعوه وضربوه بالسيوف^(٤) فألقى بنفسه في ماء البحر وهو يستغيث و«تعلق بذيل اقطاي واستجار به فما أجاره»^(٥).

وظل يصرخ دعوني أعود إلى الحصن فوالله ما أريد الملك وهم لا يلتفتون إلى

-
- (١) أبو الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ١٤١، النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٣٦٠ - ٣٦١.
- (٢) هو أيبك التركماني الصالحي التركي الملك المعز عز الدين أبو الغز صاحب المعزية بمصر وهو أول ذكر تسلطن بمصر ممن مسه الرق وهو مملوك الصالح نجم الدين أيوب وترقت به الأحوال حتى جعله جاشنكيره وكان قد اشتراه في حياة أبيه الملك الكامل محمد وكان تركي الأصل والجنس وانتقل إلى ملك السلطان الصالح نجم الدين أيوب مع بعض أولاد التركماني فعرف بابن أيبك التركماني وترقى في الخدمة حتى صار أكبر الأمراء الصالحية وكان مشهوراً بدينه وكرمه وجودة رأيه وقتل سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م علي يد مماليك زوجته. ابن أيبك: كنز الدرر، جـ ٨، ص ١٢ - ١٣، الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٢٧٥، المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٢٣٧ - ٢٣٨، السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٣٦٧ - ٣٦٩ وابن أبياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ وكان يلقب بالصالحي النجمي نسبة إلى الصالح أيوب استأذه. ابن تغرى بردي: المنهل الصافي، جـ ١، ص ٦.
- (٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، ق ١، ص ٧٨٢، أبو الفدا: المختصر جـ ٣، ص ١٤١، النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٣٦٠، المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٣٦٠.
- (٤) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٣٦٠، أنظر ابن الغوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٤٦ - ٢٤٧، ومخطوط شفاء القلوب: مجهول، ابن تغرى بردي النجوم، جـ ٦، ص ٣٧١.
- (٥) نفسه: نفس الصفحات.

كلامه وصراخه وقتلوه في الماء فمات «قتيلا حريقًا غريقًا» واختفي أصحابه الذين أتوا معه من الشرق^(١).

وبقى ملقى على الأرض ثلاثة أيام انتفخ ثم دفن^(٢) بعد أن شفع فيه رسول الخليفة^(٣).

فكانت مدة سلطنته بالمنصورة نحو أربعين يوما لم يدخل فيها إلى القاهرة ولا طلع قلعة الجبل ولم يعتلى سرير الملك^(٤).

وقيل أن قتله كان قصاصا من أبيه الصالح الذي بعث إلى محسن الخادم أن يأخذ معه من المماليك من يخلق العادل أخيه ورفض جميع المماليك إلا هؤلاء الأربعة الذين باشروا قتل تورانشاه^(٥).

وقيل أن بعد قتله ثار أسرى الفرنج بمصر وفكوا قيودهم من أرجلهم واعملوا القتل في الكثير فأحاط بهم العسكر وقتلوا الكثير منهم وزاد عدد قتلاهم على ثلاثة عشر ألف أنسان^(٦).

وبوفاة تورانشاه انقضت دولة بني أيوب^(٧) بعد أن أقامت إحدى وثمانين سنة وسبعة عشر يوما وملك منهم ثمانية ملوك^(٨) وكان تورانشاه آخر من تولى السلطنة من بني أيوب^(٩) على أن بعض المصادر ذكرت أن الدولة الأيوبية انتهت بخلع شجر الدر^(١٠).

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٣٦٠ - ٣٦١، أنظر سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨، ق ١، ص ٧٨٢، ابن العبري: مرآة الزمان، ص ٢٩٤ - ٢٩٥، ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٦١، المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٣٦٠.

(٢) الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٢٦١، ابن دقماق: الجواهر الثمين، جـ ٢، ص ٤٢، ابن تغري بردي: النجوم، جـ ٦، ص ٣٧١، الحنبلي: شذرات الذهب، جـ ٥، ص ٢٤١.

(٣) المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٣٦١.

(٤) ابن أبياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ٢٨٥.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم جـ ٦، ص ٣٧٢.

(٦) ابن الغوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٤٧.

(٧) العيني: عقد الجمان، ص ٢٧ - ٢٨، المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٨) المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٢٣٦، ابن تغري بردي: النجوم، جـ ٦، ص ٣٦٤.

(٩) ابن أبياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ٢٨٥.

(١٠) الجبرتي: عجائب الآثار، جـ ١، ص ٥١.

المرحلة الإنتقالية

سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك الأولى

بعد وفاة تورانشاه أجمع المماليك على أن يقيموا شجر الدر سرية أستاذهم في السلطنة وحلفوا لها واتفقوا على اختيار الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالح أحد البحرية أتابك لها وقالوا: «هذا متى أردنا خلعه أمكننا ذلك بسرعة» فدبرت الأمور وأنفقت الأموال على هؤلاء المماليك «حتى أرضت الكبير والصغير منهم بكل ما يمكن وساست الرعية أحسن سياسة»^(١).

وخطب على منابر الإسلام لشجر الدر أم خليل حظية الصالح نجم الدين أيوب وللأمير أيبك التركماني أتابكاً لها وتحالف الأمراء على ذلك، وكانت «علامتها تخرج على التوقيع وهي مبدلة عند الجميع وكل من للبحرية لها مطيع»^(٢).

وقد دعوا لها في الخطبة وكان الخطباء يقولون بعد الدعاء للخليفة المستعصم بالله واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح خليل أمير المؤمنين»^(٣).

وضربت السكة باسمها وكان ينقش عليها «المستعصمية الصالحة ملكة المسلمين والددة الملك المنصور خليل فقد كانت ولدت للملك الصالح ولذا يدعى خليل

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص ٥١، العيني: عقد الجمان، ص ٢٩، المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٣٧، ابن تغرى بردي: المنهل الصافي، ج ١، ص ٦، ابن اياس: بدائع الزهور ج ١، ق ١، ص ٢٨٦، علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٩.

(٢) أبو الفدا: المختصر، ج ٣، ص ١٤٢، ابن أبيه: كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٨٣، أنظر النويري: نهاية الأرب، ج ٢٩، ص ٣٦٢، الذهبي: العبر، ج ٣، ص ٣٦١، ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٢٨٥، بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية ص ٢٧.

(٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٤٧.

سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م ولكنه مات صغيرا وكانت توقع والدته خليل^(١) تخرجها من ايراز اسمها مكشوفاً حتى لا تستثير شعور المسلمين الذين لم يتعودوا أن تحكمهم امرأة فقد اعتبر اسم المرأة عورة في ذلك العصر كما أن شعورها أنها دخيلة على البيت الأيوبي وليس لها حق شرعي في الحكم جعلها تحرص على التلقب بلقب «أم خليل الصالحة» فانتسابها إلى ابنها يظهر صلتها القوية بالبيت الأيوبي وكذلك انتسابها إلى الصالح يعطيها الشرعية^(٢).

ولم يتقبل الناس تولية امرأة على السلطنة فأرسل أهل سوريا إلى الخليفة العباسي في بغداد يشكون إليه تولي امرأة أمور الملك فكتب إليهم ما معناه «إذا لم يكن بينكم من يصلح للسلطنة أقدم إليكم فاقم عليكم من يحكم فيكم»^(٣).

وقال لهم «إن كانت الرجال عدت عندكم فاعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً»^(٤). وذلك لأن أمر المسلمين لا يناط بامرأة وخاصة إذا كان ذلك الأمر يتعلق بأمور الحكم والسياسة.

فاضطرت إلى التنازل عن الملك للمعز أيبك وتزوجها^(٥) فكانت سلطنتها وليدة للظروف التي احاطت بمصر في ذلك الوقت ومساندة مماليكها ومماليك زوجها الصالح وليس لرغبة الناس الحقيقية في توليتها كما أنها جاءت عن غير رضا الخلافة العباسية لأن الأمامة من ولاية أمر المسلمين يجب أن تكون لرجل^(٦).

(١) أبو الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ١٤٢، ابن الوردي: تاريخه، جـ ٢، ص ٢٦٢، النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٢٧٦، وأنظر ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٧٤، لينبول: سيرة القاهرة، ص ١٧٥.

(٢) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ١٣.

(٣) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٣٦٣، الحريري: الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص ٢٥٥ - ٢٥٦، العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٢٣، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ص ٢٥ - ٢٦.

(٤) المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ٣٦٨ - ٣٦٩.

(٥) النويري: نهاية الأرب، جـ ٩، ص ٣٦٣.

(٦) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٢٣، جمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ص ١٥١.

وبعد زواجها من المعز أيبك اعتلى السلطنة سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م^(١) وتعتبر فترة سلطنة شجر الدر بمثابة مرحلة انتقالية تمهيدية أو مرحلة وسط بين سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك الأولى واعتبر المؤرخون المعز أيبك التركماني أول سلاطين هذه الدولة^(٢).

ويذكر أبو الفدا أنه تزوجها سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م أو التي قبلها سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م على حين يذكر المقرئ أنه تزوجها سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م وذكر سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥١م والأرجح أنه سنة ٦٥٢هـ كاتفاق أبا الفدا وابن أيبك المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة^(٣).

وكان إجماع الأمراء على توليته السلطنة سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م إرضاءً للملوك الأيوبيين ومنهم الناصر صاحب الشام والمغيث صاحب الكرك اللذان اعترضا على تولية شجر الدر وقالوا بوجوب بقاء الملك في البيت الأيوبي فولوه السلطنة^(٤)، على أن يكون اتابكاً للأشرف موسى ابن يوسف صاحب اليمن المعروف باقسييس بن الكامل بن العادل أبي بكر بن أيوب^(٥).

لعب المماليك دوراً بارزاً في تسطير نهاية كل من المعز أيبك وشجر الدر فقد طمع المعز أيبك في السلطنة وأصبح له الأمر النافذ، وكان الظاهر بيبرس وفارس الدين أقطاي يخلصان في خدمته في الوقت الذي أضمر لهما الغدر هما وخوشدأشيتهما ولما شعر الظاهر بيبرس بذلك حذر فارس الدين أقطاي حتى وقع ما خاف منه فاتفق المعز مع الأمير سيف الدين قطز^(٦) مملوكه وجماعة من مماليكه على قتل أقطاي

(١) بيبرس المنصوري: التحفة المملوكية في الدولة التركية، ص ٢٦، أبو الفدا: المختصر، ج ٣، ص ١٤٣.

(٢) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٢٩٥.

(٣) أبو الفدا: المختصر، ج ٣، ص ١٩٠ - ١٩١، ابن أيبك: كنز الدرر، ج ٨، ص ١٣.

(٤) ابن أيبك: كنز الدرر، ج ٨، ص ١٣.

(٥) ابن الوردي: تاريخه، ج ٢، ص ٢٦٥.

(٦) هو محمود بن مودود ابن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك سمي سيف الدين قطز وكان مملوكاً للمعز أيبك وقد تولى سلطنة مصر بعد قتل أيبك وكان سيق ضمن الرقيق بعد قضاء المغول على=

واستدعاه إلى القلعة فضربه قطز بالسيف وساعده جماعة من المماليك وهو خارج من قاعة العمد بالقلعة، وغضب الظاهر بيبرس وجماعته لما علموا بقتل أقطاي وذهبوا إلى القلعة فألقيت إليهم رأس أقطاي ففرعوا وفرّوا إلى الشام وقبض على ممالिकهم الباقية وامتلت بهم السجون^(١).

ثم حدثت الواقعة بين شجر الدر والمعز أيك وكان للمماليك دور كبير في الواقعة بينهما فلما قبض المعز أيك على عدة من البحرية واعتقلهم بقلعة الجبل وفيهم أيديكين الصالحي فلما وصلوا تحت الشباك الذي كانت تجلس فيه شجر الدر تكلم معها أيديكين بشمقدار بالتركي قائلاً: «والله ياخوند ما علمنا ذنبا يوجب مسكنا إلا أنه لماسير يخطب بنت صاحب الموصل ما هان علينا لأجلك فإنا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين» فأومات شجر الدر إليه بمتدليل يعني «قد سمعت كلامك» فلما نزلوا بهم إلى الجب قال أيديكين «أن كان حبسنا فقد قتلناه»^(٢).

وكان هذا المملوك وزملاؤه دارسين لشخصية شجر الدر ويعلمون تماماً أنها لن تتركه ولن تقبل خيائته تمر دون عقاب فعلموا وتنبأوا مسبقاً أنهم انتقموا منه وأنه حتماً مقضياً عليه.

فلما تأكدت شجر الدر من خبر خطبته لأبنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل^(٣)، وقيل لها أيضاً أنه أرسل يخطب ابنة الملك المنصور بن المظفر صاحب حماه^(٤) فأرسلت إلى الملك الناصر يوسف بالهدايا وأبلغته أنها نوت قتل المعز والزواج منه

= الدولة الخوارزمية وجاء إلى مصر وترقى في سلك الجندية وكانت أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزمشاه. السيوطي: حسن المحاضرة، جـ ٢، ص ٣٨ - ٣٩، وجمال الدين الشيباني: تاريخ مصر الإسلامية، جـ ٢، ص ١٦١ - ١٦٢.

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الظاهر، ص ٥٢ - ٥٤.

(٢) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٤٠١ - ٤٠٢.

(٣) أبو الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ١٩٢، ابن دقماق: الجواهر الثمين، جـ ٢، ص ٥٥.

(٤) المقرئزي: السلوك جـ ١، ق ٢، ص ٢٩٨، ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٧٧.

وتمليكه مصر، ولكنه خاف أن تكون خدعة منها فلم يرد عليها وأرسل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يحذر المعز من شجر الدر ويعلمه بما جرى بينهما فغضب لذلك واضمر لها الشر وكان مستاءً من تصرفاتها واستبدادها بأمور الملك وعدم مشاركته لها في الأمور الهامة^(١) وعدم تمكنه من التصرف في شيء إلا بإذنها^(٢)، كما أنها أجبرته على طلاق زوجته أم ابنه علي وكان قد طلب منها الإطلاع على ذخائر الملك الصالح فرفضت^(٣).

ولما أحست شجر الدر من زوجها المعز أيك الغدر أوعزت إلى مماليكها بقتله والتخلص منه فقتلوه في الحمام سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م^(٤) فلما علم مماليكه بذلك صمموا على الانتقام منها فاحتمت بدار السلطنة وحماها الأمراء الصالحية من ممالك المعز ثم أخرجت إلى البرج الأحمر بقلعة الجبل والملك المنصور علي ابن المعز ووالدته يحرضان الممالك المعزية على قتلها حتى تمكنوا منها فقتلوها ورموها في خندق^(٥). فأكلت منها الكلاب سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م^(٦) ثم حملت إلى التربة التي بنتها لنفسها قرب مشهد السيدة نفيسة فدفنت بها^(٧).

وبذلك أدى طموح تلك المرأة التي اعتلت سلطنة أكبر دول العالم الإسلامي وأثرت في أحداثها وتمكنت بمقدرة فائقة من إدارة دفة أمورها في أخرج لحظاتها إلى القضاء عليها بطريقة مأساوية نتيجة اصطدام طموحها وشخصيتها القوية بمحاولة زوجها إيجاد مكانا له على المسرح السياسي، تلك الشخصية الغريبة التي رفضت أن

(١) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٤٠١ - ٤٠٢.

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، جـ ٢، ص ٢٦٠.

(٣) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٤٠١ - ٤٠٢.

(٤) ابن الوردي: تنمة المختصر، جـ ٢، ص ٢٧٩ - ٢٨٠، ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ ١، ص ١١.

(٥) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، جـ ٢، ص ٢٦١، الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٢٧٦.

(٦) الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٢٧٦.

(٧) أبو الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ١٩٢، ابن الوردي: تاريخه، جـ ٢، ص ٢٨٠، ابن تغري بردي: المنهل الصافي، النجوم: جـ ٦، ص ٣٧٧.

تتنحى وتعيش في الظل وتترك العنان للرجل الذي جعلت منه صورة ولها الحكم والقوة فسطرت بذلك نهاية دولة وبداية دولة جديدة من الأرقاء أدت في نهايتها إلى تسليم حكم مصر للأتراك العثمانيين.

وقد اجتمع المؤرخون على أنها امرأة من طراز غير عادي ولها إمكانيات خاصة حيرت حتى أعداءها فقد فعلت ما عجز عنه «فحول الحاكمين»^(١) وكانت مشهورة بجمال طبيعي أخاذ^(٢) جعل منها أثيرة لدى زوجها الصالح الذي ذكرها في وصيته لإبنه أن لها «على من الحقوق والخدمة مالا أقدر أصفه أرعي جانبها وأكرمها واحترمها وأرفع منزلتها فهي عندي بمنزلة عظيمة. وكنت طيب القلب بصحبتها آمنة على نفسي من جهتها فاجعلها لك مثل الوالدة، واجتهد في اتصال الراحة إليها وطيب قلبها وأجعلها حاكمة على جميع أمورك وأموالك ولا يبدو منك كلمة تضيق صدرها ولا توجع لها قلباً أبداً ولا من يتعلق بسببها ولا من يضيق صدرها بسببه. ولا تخرج عن رأيها وتدبيرها. وهذه وصيتي فلا تخالف أمري واخدمها كما تخدمني واحترمها كما تحترمني، ولا تجعل على يدها يد والوصية بجميع العيال أحسن إليهم فلهم على خدمة»^(٣).

إذن فقد علم الصالح شخصيتها وتأكد أنه لا يمكن أن يأمن على ابنه إلا بإطاعته لها وقد صدق حسه فكانت «صعبة الخلق شديدة الغيرة قوية البأس ذات شهامة زائدة وحرمة وافرة»^(٤).

فلما رأت أن تورانشاه سوف ينافسها - وقد كانت تعتقد أنها سوف تجعل منه صورة ليس أكثر وتسيطر عليه فخاب أملها وأوعزت إلى البحرية بقتله فكانت «داهية الدهر لا نظير لها في النساء حسناً وفي الرجال حزمًا»^(٥).

(١) جوزيف نسيم: هزيمة لويس التاسع، ص ٢٩.

(٢) ابن العبري: تاريخ الزمان ص ٢٩٥، الذهبي: العبر ج٣، ص ٢٧٦.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص ٣٤١ - ٣٤٢.

(٤) ابن أبياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٩١، أنظر ابن تغري بردي: النجوم ج٦، ص ٣٧٤.

(٥) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ج٢، ص ٢٥٩.

وقيل عنها كانت «سكرانة من خمرة العجب والتهيه»^(١)، «وقد نالت من الدنيا ما لم تنله امرأة قبلها ولا بعدها»^(٢).

وهكذا تضافرت العوامل المختلفة لإسقاط الدولة الأيوبية، فكان تقسيم صلاح الدين لتلك المملكة بين أولاده وإخوته وأقاربه، قد أدى إلى تنافسهم وتحاسدهم، فتفككت عراهم وكان لتمك الصغار منهم وإقامة أوصياء عليهم من المماليك الأقوياء والإستكثار من هؤلاء المماليك لاتخاذهم أعواناً وتدخلهم في شئون البلاد مما أتاح لهؤلاء أواخر أيام الدولة الأيوبية أن يصبحوا شوكة قوية في ظهر تلك الدولة، بعد أن كانوا سوساً ينخر في عظامها ببطء حتى أنهم لم يستسيغوا أن يتولى تورانشاه السلطنة فقتلوه واستولوا على الملك، فكان شبابه وطموحه حجر عثرة في سبيل تحقيق حلم هؤلاء في الإستقلال بحكم البلاد فما لبث أن اصطدم بقوتهم وانتهى الصدام بمصرعه بطريقة مأساوية وهو ما تنبأ له الصالح أبيه من قبل فرفض مجيئه وابعده منذ البداية خوفاً عليه وتحسباً لذلك الصدام.

فكان سقوط تلك الدولة وقيام دولة المماليك استجابة لظروف العالم الإسلامي في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

لقد قامت دولة المماليك في مصر في ظروف سياسية شديدة التعقيد فحركة الجهاد كانت تتطلب مواصلة الجهود لتطهير البلاد من العدو الغاصب مما حتم ضرورة نقل السلطة من الدولة الأيوبية التي انهكت قواها خلال ظروف الجهاد والتنافس على السلطان حتى لم يبق بعد وفاة الصالح أيوب من يستطيع تحمل المسؤولية، ومن ثم انفض المماليك ليجدوا لهم دوراً في مواصلة الدور الذي قام به الأيوبيون العظام فأقاموا دولتهم وأثبتوا جدارتهم في حمل الأمانة ومواجهة الأخطار التي داهمت العالم الإسلامي متمثلة في الصليبيين والمغول^(٣).

(١) ابن أبياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ٩١.

(٢) نفسه، ص ٢٩٥.

(٣) فتحية النبراوي: العلاقات السياسية وصراع القوى، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

الفصل الخامس

الفصل الخامس

الدور الاجتماعي للمماليك في العصر الأيوبي

- نظم تربية المماليك في العصر الأيوبي
- العلاقة بين المماليك
 - العتق
 - العلاقات والروابط بين المماليك
 - علاقة المملوك بالأغا
 - رابطة الخشداشية
 - النزاع بين الفرق المملوكية
- المماليك والمجتمع المصري
- الجوارى في العصر الأيوبي
- الوظائف والمهن التي تقلدها المماليك
 - المماليك السلطانية - أجناد الحلقة
 - مراسم التأمير
 - أنواع الوظائف والمهن التي تقلدها المماليك
- دور المماليك في إقامة المنشآت والمؤسسات
 - المساجد - الخوانق - الأربطة - الزوايا - الدروب -
الحمامات - المدارس - الخانات - القياسر والأحكار

الفصل الخامس

الدور الاجتماعي للمماليك في العصر الأيوبي

عاش المماليك في مصر، وتربوا على أرضها واهتم بهم السلاطين فتربوا تربية خاصة تركزت على الجانبين الديني والعسكري فنشأوا على الولاء والإخلاص لهم وأسهموا في تشكيل الجيوش من أجل ذلك أنفق السلاطين الأموال الطائلة في جلبهم وشرائهم من أسواق تجارة الرقيق بل أن السلاطين تنافسوا في شرائهم ليتقوا بهم ويدعموا مراكزهم في البلاد.

ولم يقتصر شراء المماليك على السلاطين فحسب بل شاركهم الأمراء في استجلابهم والإستعانة بهم.

وتتحدث المصادر الإسلامية عن ممالك الأمراء وممالك العوام، الذين اختلفوا عن الممالك السلطانية، ذلك أن ممالك السلطان كانوا يرتبطون به ويقيمون معه في القاهرة باعتبارهم حرسه الخاص.

وقد استمر ورود المماليك إلى مصر واعتماد السلاطين عليهم حتى خلال العصر الأيوبي كله وكثرت أعدادهم واشتركوا في الحروب التي خاضتها الدولة، ومع ذلك يظل الدور الاجتماعي لهم محدوداً وفي نطاق ضيق يتلمسه الدارس في حياة المماليك أنفسهم وعلاقاتهم بالدولة، ثم علاقتهم بالشعب، تلك العلاقة التي تأرجحت بين الحب والكراهية والإحترام والإزدراء والتعاطف والبغض.

ولا يزال أمام الباحثين جهداً كبيراً للكشف عما غمض من دور اجتماعي قام به المماليك في مصر على الرغم من طول الفترة الزمنية التي عاشوها بين أبنائها إلى أن تم القضاء عليهم أو على معظمهم إلى أن تلاشوا بذوبانهم في المجتمع المصري. وفي البداية يجب أن نقرر أنه ليس من المتيسر دراسة عادات هؤلاء المماليك وحياتهم وتربيتهم دراسة عميقة فقد أغفلت مصادر تلك الفترة إلى حد كبير دراسة الناحية الاجتماعية لهؤلاء في تلك الفترة ولم تشرح لنا تلك المصادر الطرق التي نهجها الأيوبيون في تربية وتنشئة ممالكهم ولكننا يمكننا الاعتماد على ما أورده

المقريري عن نظم الدولة المملوكية نفسها في تربية ممالكها وقيل «أن ترتيب الديار المصرية مأخوذ عن ترتيب الخلافة ببغداد وترتيب الخلفاء الفاطميين بمصر ثم ترتيب الدولة الأيوبية وقد انتقى ملوك الدولة التركية من مجموع مذهب أولئك أحسنه وأبهجه حتى صارت أحسن الممالك ترتيباً وأبهجها منظراً وأجملها هيئة»^(١). ويمكننا أن نستنتج أن ما استقر في دولة المماليك إنما أسس على ما كان سابقاً في مصر على عهد الأيوبيين، وبذلك تكون المعلومات التي أوردها المقريري قوية بوجهة النظر الخاصة بذلك، وهي أن ما كان في دولة المماليك إنما يمتد أصله إلى دولة الفاطميين ومن بعدهم الأيوبيين^(٢).

ويمكن القول أن الفاطميين هم أول من وضع نظاماً دقيقاً لتربية المماليك، تأسيساً على ما كان معروفاً في دولة بني العباس أيام المعتصم كما استخدمهم بعد ذلك الطولونيين والأخشيديين إلا أنهم كانوا يشترونهم كباراً مدربين لكي يستخدموا في تعضيد قوة جيوشهم، فكونوا منهم الفرق العسكرية المختلفة وبذلك اختلف الوضع مع الفاطميين الذين استخدموا أعداداً ضخمة من المماليك ليلتحقوا بالخدمة في القصور وفي الجيوش، فمنهم من جاء بطريق الشراء ومنهم الأطفال الصغار أسرى الحروب وهم الذين يطلق عليهم المقريري اصطلاح الترابي إذ يقول «يدفع بهم إلى الأستاذين فيربونهم ويتعلمون الكتابة والرماية ويقال لهم الترابي ومنهم من صار أميراً من صبيان خاص الخليفة»^(٣).

ويذكر القلقشندي أن الدولة الأيوبية عندما قامت على أنقاض دولة الفاطميين غيرت الكثير من نظمها وسارت على نظم الدولة الزنكية بالموصل والشام أي دولتي عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود^(٤) اللذين سارا على أنظمة الدولة السلجوقية فقد ابتكر السلاجقة ذلك النظام حيث كان المماليك الأتراك يتولون قيادة

(١) مؤلف مجهول: مخطوط شرح اللمعة من أخبار المعز، ص ١٢.

(٢) المقريري: الخطط، ج ٢، ص ٩٤، ١٠٧، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٥ - ٦.

(٣) المقريري، ج ٢، ص ١٩٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٥ - ٦.

جيوشهم. هؤلاء الذين كانوا يشترونهم من الأسواق ويعتقون الإسلام ويعيشون في بلاط الخليفة أو السلطان فينشأون نشأة إسلامية على يد أمراء السلاجقة نتيجة اختلاطهم بهم وفي حال ظهور شيء من النجاسة على أحد هؤلاء أو أظهر الإخلاص والولاء عمد سلاطين السلاجقة إلى تقليده أعلى المناصب ومكافأته بإقطاع لأحد أقاليم الدولة السلجوقية^(١).

كما كانوا يعهدون إلى مثل هؤلاء بتربية أبنائهم وكان السلطان إذا عين أحد أبنائه على ولاية من الولايات أرسل معه هذا التركي ليرعاه ويسدى له النصيح وسرعان ما أصبح هؤلاء من أصحاب النفوذ الفعلي في تلك الولايات فيسيطرون على مقاليد الأمور فيها^(٢) ويطلق على هذا المربي لفظ الأتابك^(٣).

فلما انتقلت السلطة إلى الأيوبيين أكثروا من شراء المماليك الترك فاستعان نور الدين وصلاح الدين بجنود مدربين من المماليك، واستكثر الصالح نجم الدين أيوب من شراء المماليك الترك خاصة وبني لهم الثكنات في قلعة الروضة التي أنشأها سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م بتلك الجزيرة وقام بتجهيز هذه القلعة على مستوى عال جدًا وزودها بكثير من الأسلحة والآلات الحربية وأنشأ فيها جامعًا وحصنها بالأبراج التي بلغت ستين برجًا. ولما تم بناؤها انتقل للإقامة بها واصطحب معه أفراد أسرته ومماليكه الذين أطلق عليهم اسم المماليك البحرية ومن ثم اتخذها مقرًا للملك^(٤).

وكان المماليك المستخدمين قبل عصر الصالح أيوب من الجند المرتزقة

(١) المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٩٤، القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٥ - ٦، حافظ حمدي، الدولة الخورازمية ص ١٠٠.

(٢) ابن القلائسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٨٤.

(٣) حسن الباشا: الفنون الإسلامية، جـ ١، ص ٣، وفيه توضيح لكلمة أتابك التي تتألف من كلمتين تركيتين هما «أطا» بمعنى أب و«بك» بمعنى أمير وأول من لقب بها الوزير نظام الملك حين عهد إليه السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي أمر تدبير المملكة.

(٤) المقرئزي: خطط، جـ ٢، ص ١٨٢، ٢٣٥، ٢٣٦، محمد محمد أمين علي، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، رسالة ماجستير جامعة القاهرة، ص ١٦٦، ستانلي لينبول، طبقات سلاطين الإسلام، ص ٧٨.

المحاربين كبار السن الذين أقتوا فن الحرب نتيجة خوضهم الكثير من المعارك ولكن الصالح نجم الدين أيوب استجلب المماليك صغار السن فأقام لهم في جزيرة الروضة نظامًا يتضمن تربيتهم تربية خاصة وكان يغدق عليهم الكثير كلما تقدموا في تدريبهم ويشجعهم ثم يمنحهم العطايا بمقدار ما يظهرون من ولائهم له^(١).

وعلى ذلك يمكن القول أن الصالح أيوب هو أول سلطان اهتم بتربية مماليكه منذ الصغر فنشأوا على الولاء والإخلاص له وأظهروا كفاءة عسكرية شهدت بها المصادر المعاصرة لموقعة فارسكور سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م عند انتصارهم على الصليبيين وأسر ملكهم لويس التاسع^(٢).

وقد تطور ذلك النظام بعد الصالح أيوب فأصبح من حق كل من يتقدم من الأمراء أن يستجلب لحسابه الخاص ممالك ويدين هؤلاء وصاحبهم للسلطان بالولاء وعرفوا وانتسبوا لأسماء أصحابهم وإذا ما تحول صاحبهم الأصلي عن ولائه للسلطان تحول ممالكه معه لأنهم كانوا يجهلون ولاءهم الثاني فكانوا يحاربون في صف صاحبهم دون أن يعرفوا مع من أو ضد من يحاربون^(٣) فقد كان يغرس في المماليك الارتباط الشديد بأستاذهم أي شاريهم الأصلي^(٤).

وقد نشط تجار الرقيق في استجلاب الكثير من الرقيق لإرضاء سلاطين مصر الذين كانوا يتهافتون على هذه البضاعة ويدفعون فيها الأموال الطائلة وكان كل سلطان وكل أمير يحاول تقوية مركزه بالإكثار من شراء المماليك^(٥).

كان المماليك ينتسبون إلى أساتذتهم أي ساداتهم الذين اشتروهم من التجار وأشرفوا على تربيتهم مثل المماليك الصالحية نسبة إلى الصالح أيوب، والظاهرية

(١) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، من المقدمة ص ٣٥، ٣٦.

(٢) محمد محمد أمين علي: السلطان الملك الصالح نجم الدين، ص ١٦٦.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، من المقدمة ص ٣٦، أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الإجتماعي ص ٤٠٨ - ٤٠٩.

(٤) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الإجتماعي ص ٤٠٨.

(٥) سعيد عاشور، عبد الرحمن الرافعي: مصر في العصور الوسطى، ص ٤٢٨.

نسبة إلى الظاهر بيبرس، والأشرقية خليل نسبة إلى الأشرف خليل وأحياناً ينسب المملوك إلى التاجر الذي جلبه أو الثمن الذي دفع فيه إذا كان ذلك الثمن كبيراً من باب الفخر فقد كان يعني ذلك أن هذا المملوك يحمل الصفات المتميزة والمواهب المتعددة مثل قلاوون الألفي الذي اشترى بألف دينار فانتسب إلى الثمن الذي دفع فيه^(١).

وكان عدد الممالك الذين يحق للأمير أن يلحقهم بخدمته محدوداً بحسب رتبته ومكانته، وليس من حق الأمير طرد المملوك من خدمته إلا بعد موافقة نائب السلطنة وبعد وفاة الأمير أو عزله ينتقل ممالكه إلى خدمة السلطان أو إلى أمراء آخرين أو يوزعون بين الفريقين^(٢).

وكان ممالك السلطان يقيمون بالقاهرة وكانت أعدادهم تتكاثر حين يضم إليهم ممالك أسلافه من السلاطين أو من يغضب عليهم من كبار الأمراء، ولكننا نلاحظ أن العلاقة بين السلطان والممالك الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم عادة ما تكون أقوى من العلاقة بينه وبين غيرهم من الممالك وكان السلاطين يهتمون اهتماماً خاصاً بتربية هؤلاء لأنهم كانوا بمثابة الحرس السلطاني الخاص لهم ويعرفون بالخاصكية^(٣) وكانوا «أعظم الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرًا وأشدّهم إلى السلطان قربًا وأوفرهم اقطاعًا»^(٤).

وكان السلطان يمنحهم في كل شهر راتباً نقدياً أو عينيّاً من اللحوم والتوابل والخبز والعلف والزيت وكلما ترقى الأمير المملوكي من أمير عشرة إلى أمير مائة

(١) نفسه، ص ٤٢٨.

(٢) عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر ص ١٨.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٢٢، حاشية ٢، وقاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٩-٢٠، وعبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر ص ١٥.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥.

أو أمير ألف أو غيرها من الرتب المختلفة يزداد إقطاعه^(١)، ولم يكن ذلك متاحًا لممالك الأمراء فقد كانوا يظلون أرقاء طوال حياتهم أما ممالك السلطان فلم يكن باب الترقى مفتوحًا أمامهم إلا إذا أعتقهم السلطان وانضموا إلى الحرس السلطاني أو إلى وظائف البلاط^(٢).

وكان الأمراء الكبار ولاية الأقاليم يمتلكون أعدادًا من الممالك تصل إلى عشرة ممالك لكل منهم^(٣).

ولم يكن الرق وحده كافيًا بنجاح المملوك فقد تمتع ممالك السلاطين والأمراء بمميزات لم تكن متاحة للممالك الذين يمتلكهم العوام، ومع ذلك فكان مملوك الأمير أقل مكانة من مملوك السلطان، وكان من سبل معاقبة الممالك السلطانية نقلهم إلى خدمة الأمراء، وكان من المعروف أيضًا أن ممالك الأمراء يتحولون عادة إلى خدمة السلاطين إما نتيجة لمصادرة أساتذتهم أو تولية أحد هؤلاء الأساتذة السلطنة ومن الأمثلة على ذلك أن الظاهر بيبرس البندقداري الصالحى أصله من ممالك الأمير ايدكين البندقداري الصالحى وانتقل مع غيره إلى خدمة الصالح أيوب بعد مصادرة ايدكين^(٤).

وكان السلطان عندما يحصل على ممالك سلفه الذي توفي أو عزل أو قتل بالقسر أو بالشراء يطلق عليهم لفظة قرانصة أو قرانيص أو قرانص أو الممالك السلطانية^(٥). أما ممالك الأمراء الذين يتوفون أو يغضب عليهم أو يقتلهم فيسمون سيفيه^(٦).

(١) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٢١٥، قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي

ص ١٩، ٢٠، علي إبراهيم حسن، تاريخ الممالك البحرية ص ٣٣.

(٢) علي إبراهيم حسن: تاريخ الممالك البحرية، ص ٣٣، ٣٤.

(٣) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٢١٧.

(٤) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٣٠٠، السيد الباز العريني: الممالك، ص ١٣٠ - ١٣١.

(٥) ماجد: نظم دولة سلاطين الممالك ص ١٣.

(٦) نفسه، ص ١٣.

واختلف المؤرخون في تسمية أولاد الناس فقيل أنهم أبناء المماليك الذين ولدوا في مصر ولم يمسهم الرق فعرفوا في مصطلح ذلك العصر باسم «أولاد الناس» وكانت مكانتهم الإجتماعية أقل من المماليك وغالبًا ما كانوا يعيدون عن الحياة السياسية والعسكرية ويعيشون حياة عادية فلم يكن لأبائهم وقت لرعايتهم فكانوا ينشأون في حجور الحريم يلعبون الألعاب المختلفة كالفرسية والكرة ورمي الرمح والنشاب أو يحضرون مجالس العلم وكان بعضهم ينضم إلى الحلقة ليكون من جنود الجيش ويتجهون للناحية الثقافية فمنهم من برع في تدوين التاريخ مثل «ابن أبيك الدوادار» و«خليل بن شاهين الظاهري» و«صارم الدين بن دقماق» و«ابن تغرى بردي» و«ابن إياس» وغيرهم^(١).

وجدير بالذكر أن تجار المماليك في تلك الفترة كانوا من الأجانب الأوروبيين من النصارى أو اليهود أو أحيانًا من الإيرانيين ويدلنا على ذلك اللقب الذي أطلق عليهم وهو «خواجه» أو «الخواجه» أو «الخواجية» وفسره القلقشندي أنه يعني التجار الأجانب^(٢).

نظم تربية المماليك في العصر الأيوبي:

يبدو أن الأيوبيين قد اتبعوا في تربية المماليك ما كان سائدًا في مصر في عصر الفاطميين ويمكن أن نستنتج أنهم أضافوا ما رأوه مناسبًا لعصرهم في تربية ممالكهم. فقد كان هؤلاء المماليك بعد أن تتم عملية شرائهم يوضعون في أماكن خاصة سميت بالطبق أو الأطباق ومفردها طبقة أو طبق وهي المدارس العسكرية، وكانت تلك الطباق أغلبها بالقلعة والبعض منها في أماكن متفرقة بالقاهرة وقد بلغ عددها اثني عشر طبقًا أو أكثر.

وكان البعض منها يشبه حيًا كاملاً ويحتوي على ألف مملوك وكانوا يعرفون

(١) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي ص ٢٥، أحمد الهواري: الرواية التاريخية في الأدب العربي ص ٨٩.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٦، ص ١٣، ٦٩، ٧٣.

باسم ممالك الطبايق أو الكتابية أو كتابية ومفردها كتابي وأطلق عليهم تلك التسمية لأنهم يتعلمون فنون الكتابة والحرب بها ولم يكن جميعهم يذهبون إلى الطبايق بل منهم من يلتحق مباشرة بخدمة السلطان ويتربى مع أبنائه تربية خاصة وأحياناً كان السلطان نفسه وكبار الأمراء يرسلون أبنائهم إلى تلك الطبايق ليتعلموا فيها^(١). وكان لتعدد جنسيات الممالك أن وضع كل منهم مع من هم من نفس جنسه^(٢).

وقد عنى السلاطين بتربية ممالكهم وفق نظام خاص حتى يضمنوا رقيهم في مختلف النواحي الثقافية بمدارس خاصة لتعليم القراءة والكتابة ومختلف العلوم بما فيها الفقه والفلسفة والرياضة بالإضافة إلى الفروسية وفنون الحرب ولكن من الملفت أن بعض هؤلاء الممالك بقي أمياً ولم يهتم باستعمال اللغة العربية في حياته الخاصة والعامة حتى أن بعض السلاطين لم يكن يستطيع كتابة اسمه^(٣). وكان التعليم بهذه الطبايق يمر بثلاثة مراحل: المرحلة الأولى وهي مرحلة الصغر إلى سن البلوغ وهي التي يوضعوا فيها في ثكنات بعيدة عرفت بالطبايق تحت إشراف الأغوات فيلقنونهم تدريبات رياضية ويتعلمون القراءة والكتابة وآيات القرآن والفروض الدينية ويتعودون على تأدية الصلاة ويحفظون بعض الأدعية لتلاوتها في مناسباتها ويربون على التخلق بالأخلاق الحميدة^(٤).

والمرحلة الثانية تبدأ من سن البلوغ وفيها يعامل المملوك بمنتهى الشدة فلا يغفر له أي خطأ ويعاقب عقاباً صارماً ويقسمون إلى عدة طوائف يتولى كل طائفة أحد المعلمين المتميزين يمرنهم على السباحة في الماء واللعب بالسيف والضرب بالرمح^(٥)، والقذف بالأطواق وركوب الخيل والعدو على ظهورها والمبارزة ورمي

(١) ماجد: طومان باي، ١٩ - ٢٠، عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص ١٠.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢١٣.

(٣) ويليام موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص ١٨٨، علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص ٣٨، قارن جواتفيل، حياة القديس لويس، ص ١٣٧، ١٣٨.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢١٣، عبد الرحمن زكي: الجيش المصري ص ١٤.

(٥) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢١٣، عبد الرحمن زكي: نفسه، ص ١٤.

النشاب ولعب الكرة وأحياناً تكون على ظهور الخيل وفي وقت الفراغ من الممكن أن يدرس المملوك الأدب أو غيره من العلوم أو دراسة الشعر^(١).

والمرحلة الثالثة ولا تتحدد بسن وتعتمد أساساً على المواهب التي تبرز للمملوك والمهارات التي تلاحظ عليه من شجاعة وحسن البلاء فيكافأ بالعتق ويلحق بإحدى الوظائف ويكتب له إقطاعها - وهو عبارة عن جزء من الأرض يستغله كما يشاء أو يفرض له على مال معين، ويمنح خيلاً وقماشاً ليبدأ به حياة حرة جديدة ويترقى في سلك وظائف الجندية حتى يبلغ مبلغ الإمارة فيمنحه السلطان لقبها ثم يترقى إلى أن يصل إلى أعلى المناصب في الدولة وفي هذه الفترة وحتى يعتق لا يسمح له بالنزول إلى المدينة أو الإختلاط بأهلها ولا الزواج^(٢).

وقد أثرت الحياة في تلك الطباق على شخصية المملوك تأثيراً كبيراً فقد جمعت تلك الطباق بين طوائف من المماليك اختلفت جنسياتهم برغم سيادة العنصر التركي الآتي من بلاد القفجاق ولكنها جميعاً حكمت تحت نظام تربوي صارم كان له أهمية كبيرة في حياة المملوك ومستقبله كما كان لتلقيهم أصول الدين الإسلامي في الطباق وابتعادهم عن أوطانهم ودياناتهم الأولى أثراً كبيراً في إخلاصهم لخدمة الدولة الإسلامية ودفاعهم عنها وقد تجلى ذلك في حروبهم مع الصليبيين والتتار كما كان لزمالتهم في الرق والتعليم والعتق أثره في إرتباط ممالك الطباق بعضهم ببعض دوناً عن المماليك الآخرين الذين لم ينشأوا في الطباق^(٣).

وكانت تمنح المكافآت المجزية للمملوك الذي يتقن فناً من الفنون أو عملاً من الأعمال وتكون تلك المكافأة بالترقي في الوظائف والرتب وما يترتب على ذلك من زيادة الرواتب والعطايا إلى أن يمنح إقطاعاً من الإقطاعات^(٤).

وكان هناك أساتذة متخصصون يشرفون على تعليم هؤلاء المماليك في الطباق

(١) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي، ص ١٤ ١٥.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) السيد الباز العريني: المماليك، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٤) نفسه: ص ٢٥٧.

وكان المماليك يدينون لهم بالإحترام الشديد وكان التصوف منتشرًا بين المماليك حديثي الإسلام وكذلك خدام الطباق أو الطواشي أو الأغوات الذين يشرفون على تربيتهم ويبدو أن الإشراف العام على الطباق يكون لشخص يطلق عليه مقدم الطباق من حقه أن يعاقب المتمردين منهم وكان يتمتع بشخصية قوية وكان الإشراف العام على كل الأطباق لأمر من أمراء المماليك وهو مقدم المماليك وله نائب يحاسب مقدموا الطباق^(١).

وكانت هناك أنظمة دقيقة مفروضة على هؤلاء المماليك في الطباق فيمنعون من الخروج من الطباق^(٢) وخاصة في الليل ويتعين عليهم ارتياد الحمام يوميًا في الأسبوع وأكلهم عبارة عن اللحم والأطعمة والفواكه والحلوى والفول المسلوق ويتسلمون كسوات فاخرة وتصرف لهم رواتب شهرية تتراوح بين ثلاثة إلى عشرة دنائير في الشهر^(٣). وكانت تفرض عليهم عقوبات صارمة إذا ارتكب أحدهم خطأ أو خرج عن الأنظمة الموضوعة لهم وكان السلطان يتفقد أحوالهم من حين لآخر^(٤).

وكان لمماليك الطباق إسطنبول خاص بهم لاهتمام السلاطين بالفروسية واستجلابهم أجود أنواع الخيول من البحرين أو من برقة^(٥).

وكانت الدراسة في الطباق تمتد لأربعة أو خمسة عشر شهرًا أو أحيانًا إلى عدة سنين بعدها يعتق المملوك وكانت المماليك تعتق بالحلبة في احتفال خاص يحضره السلطان والأمراء ويمنح المملوك شهادة تسمى شهادة إعتاق أو عتاقة يسلم بعدها سلاحًا وفرسًا ولباسًا خاصًا واقطاعًا يبقى له مدى الحياة ويلقب بعدها عتيقًا أو معتوقًا ويطلق على معتقه أستاذة. أما رفاقه المتخرجون معه يسمون خشداشية مفردها خشداش. وكان هؤلاء المماليك المتخرجون يقسمون أقسامًا لكل جماعة منهم

(١) ماجد: نظم الدولة سلاطين المماليك، ص ١٥ - ١٦.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢١٣.

(٣) ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ص ١٧.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢١٤.

(٥) ماجد: طومان باي، ص ٢٠ - ٢١.

باش أو نقيب أو منهم الذي كان مقرباً من السلطان فيصل إلى مرتبة الإمارة دون التقيد بالرتب التي يجب أن يتدرج فيها قبل أن يصل إلى هذه المرتبة^(١).

وكان السلاطين يعيشون مع ممالئهم في القلعة لذلك اشتملت على الدور السلطانية ودار العدل وقصور السلطان والبساتين وقصور الحريم فضلاً عن الطباق والإصطبلات^(٢) وذلك في قلعة الجبل وكذلك كان الحل في قلعة جزيرة الروضة فقد سكنها الصالح أيوب مع ممالئكه البحرية مما يدل على تطابق الأنظمة في الدولتين وكان بها المرافق الكاملة والقصور والبساتين، وأنشأ بها الصالح جامعاً وستين برجاً وجعلها بالأسلحة والآلات الحربية والدور السلطانية وكانت مقرّاً للملك^(٣).

وكانت مجموعات الممالئ تشكل كل منها جماعة منفصلة لا تختلط ببقية المجموعات الأخرى، ويصبح كل هدفها حماية مصالحها الخاصة^(٤) وكانت الجنود السلطانية في العصر الأيوبي والمملوكي على طبقتين ممالئك سلطانية وأجناد الحلقة وهم عدد كبير وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم بواسطة النزول عن الإقطاعات^(٥)، و« لكل أربعين نفساً منهم مقدم فهو ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر في الحرب كانت مواقفه معهم وترتيبهم في مواقعهم إليه»^(٦).

فكان هؤلاء الممالئ نتيجة لاهتمام السلاطين بهم أنهم أصبحوا «سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى»^(٧).

كما ذكر الحسن بن عبد الله أنه «لما ركب الله فيهم من السر الإلهي والعناية الربانية ملكهم بلاده وعباده وجعلهم حضنة بيته وخدام حرمه ونصرة دين رسوله

(١) ماجد: نظم سلاطين الممالئك ص ١٧ - ١٩.

(٢) الباز العريني: الممالئك ص ٢٠٢.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، من المقدمة ص ٣٥.

(٤) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي ص ٤٠٩.

(٥) المقرئزي: السلوك، ج ١، قسم ٢، ص ٢٨١ حاشية ٥.

(٦) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢١٥-٢١٦.

(٧) المصدر السابق، ص ٢١٤.

محمد ﷺ محافظين على كتابه وسنته منفذين أحكام شريعته ملازمين على طاعته وخصصهم بخصائص نالوا بها الحظ الأوفى فتقربوا بها إليه زلفى ومنهم المماليك الصالحة النجمية مثل الملك المعز أيبك وأقطاي والملك المظفر قطز»^(١).

ومما يدل على أن هؤلاء المماليك كانوا موضع عناية وعطف ورعاية سلاطين مصر وصية كتبت عند بيع بعض المماليك من السلطان لمقدمهم جاء فيها «ليحسن إليهم، وليعلم أنه واحد منهم ولكنه مقدم عليهم، وليأخذ بقلوبهم مع إقامة المهابة التي يخيّل إليهم أنه معهم وخلفهم وبين أيديهم، وليلزم مقدم كل طبقة بما يلزمه عند تقسيم صدقاتنا الجارية عليه، وليكن لأحوالهم متعهدًا ولأموارهم متفقدًا، وليستعلم أخبارهم حتى لا يزال منها على بصيرة ويتعرف ما هم عليه مما لا يخفى عليه فإتاهم إن لم يكونوا أهلًا فإتاهم جيرة.. ليفرق فيهم ما لهم من الكساوي ويسبل عليهم رداء الشفقة.. وليحمل النظر في أمر الصغار منهم والكبار أصحاب الطبقات العالية.. وليوصي مقدميهم بتفقد ما يدخل إليهم فإن الغش أكثره من الطعام أو الشراب»^(٢).

(١) الحسن عبد الله: أثار الأول في ترتيب الدول، ص ١١٧.

(٢) ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٩٨ - ٩٩.

العلاقة بين الممالك

تأثرت شخصية المملوك تأثراً كبيراً بالرق والتطورات التي يمر بها أثناء استرقاقه وتحوله من ديانتة الأصلية إلى الإسلام وانتقاله من مرحلة إلى مرحلة حتى يصل إلى سلك الجندية، وتسهم سنوات الرق في تكوين شخصية المملوك وبالتالي تحديد علاقته مع الآخرين لا سيما زملائه الممالك الذين ربطت بينهم ظروف الرق والعق والتربية^(١) والخدمة، وتحدد إطار علاقاته وخاصة علاقة المملوك الكبير والصغير والتي تتشابه كثيراً مع روابط البنوة أو الأخوة ولم يتعود الممالك الحياة العائلية ولم يكن لهم أي روابط من ذلك النوع فانعدم لديهم الارتباط الأسري^(٢).

ومصطلحات المجتمع المملوكي تبين مدى تأثير سنوات الرق على علاقة المملوك بأستاذه الذي يعتبره والداً له وكذلك ورد لفظ الأغا^(٣) بمعنى الأخ الأكبر والآني^(٤) بمعنى الأخ الصغير كما ورد لفظ خشداش^(٥) وهو يرادف لفظ أخ وكان يطلق على الزملاء في الرق والعق.

(١) السيد الباز العريني: الممالك، ص ٢٥٧، أحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية في المجتمع المملوكي، بحث منشور بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الثالث والعشرون سنة ١٩٧٦م، ص ١٥٥ والممالك ومفهوم الأسرة لديهم بحث في مجلة كلية الآثار جامعة القاهرة العدد الثاني، سنة ١٩٧٧م، ص ١٨٨.

(٢) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر، ص ٢٥، ٢٦، وأحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية، ص ١٥٥.

(٣) أغا أصلها آقا وهي من كلمات اللغة المغولية ومعناها الأخ الأكبر وترد كثيراً في تاريخ المغول وقد دخلت هذه الكلمة في اللغة الفارسية واستخدمها الكتاب الذين جاؤوا بعد غزو جنكيزخان وجمعها أقان أو أقايان، أحمد عبد الرازق، الممالك ومفهوم الأسرة ص ١٨٩ حاشية ٦، وكانت تطلق على الممالك بصفة عامة ونادراً ما تطلق على الطواشييه رغم أن صاحب هذا اللفظ معيَّراً بأنه خصياً، أحمد عبد الرازق: الممالك ومفهوم الأسرة، ص ١٦٢.

(٤) كلمة آني أو آني جمعها انيات أصلها ايناك أو اينكا وهي من كلمات اللغة المغولية وتعني الأخ الصغير وهي من الكلمات المألوفة أيضاً في تاريخ المغول. نفسه ص ١٨٩، حاشية ٧.

(٥) خشداش وجمعها خشداشيه وهو لفظ معرب من لفظ خواجاتاش الفارسي ويعني الزميل في الخدمة. المقرئزي: السلوك، ج ١، قسم ٢، ص ٣٨٨.

أدت كل تلك الروابط إلى إيجاد وحدة إجتماعية متماسكة بين هؤلاء المماليك
وكونوا طبقة منفصلة عن المجتمع يؤدي كل فرد فيها واجباته تجاه طبقته^(١).

ولما كان هؤلاء الرقيق بمثابة سلع تباع وتشترى، إلا أنهم عندما يعتقوا
ويصبحون أحراراً عند تحولهم إلى جنود أو عند ممارستهم للوظيفة العسكرية فكانت
هنا تنتفي عنهم صفة السلعية و« يتحول هذا الإلتواء إلى لبنة في الهيكل
البيروقراطي أي في التكوين الإجتماعي الاقتصادي الشرقي المبني على النمط
الأسوي للإنتاج» وظل الرق في العصر الأيوبي والمملوكي في مصر مرتبطاً
بالخدمة الشخصية كما كان عليه الحال من قديم الأزل فلم يكن عنصر إنتاج على
مدى هذين العصرين^(٢).

وحفاظاً على كيان طبقة المماليك وخصائصها كان السلاطين يختارون زوجات
مماليكهم^(٣).

وإذا أنجب المملوك لا يخلفه ابنه في مركزه ولا يرثه عند وفاته ولكن المملوك
هو الذي يرث أستاذه ويحل محله وأحياناً يستولى على حريمه، وكان الواحد منهم لا
يأكل مع أبنائه وحريمه وإنما يفضل أن يأكل مع ممالكه وإذا رأى ناراً توقد سأل عنها
فيقال أن أحد المماليك أحب أن يأكل نوعاً من الطعام فيغضب ممن لا يأكل معه^(٤).

ومن هذا يتبين لنا أن حياة طبقة المماليك العائلية لا تقوم على أساس العلاقة
بين الرجل وزوجته وأبنائه بقدر ما تقوم على أساس العلاقة بين الأستاذ ومماليكه
وبين المماليك وبعضهم البعض^(٥).

(١) السيد الباز العريني: المماليك، ص ٢١٨، أحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية في المصطلح
المملوكي، ص ١٥٥-١٥٦.

(٢) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الإجتماعي الإقتصادي، ص ٤١٧ - ٤١٨.

(٣) الباز العريني: المماليك ص ٢١٩.

(٤) أحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية ص ١٥٦، المماليك ومفهوم الأسرة ص ١٨٩ - ١٩٠، قاسم
عبد قاسم: دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي، ص ٢٦.

(٥) أحمد عبد الرازق: نفسه، ص ١٥٦.

العتق:

كان المملوك الذي يتم تحريره يطلق عليه لفظ عتيق وجمعها عتقاء ويعرف باسم معتق جمعها معاتيق وكان دائماً يرد لفظ عتيق مقترناً بلفظ فلان أي يقال «عتيق فلان» أو «كان أصله من عتقاء فلان» وردت كذلك عبارة «أصله من ممالك فلان» ولم تكن تدل بالضرورة على الأستاذ الذي أعتق المملوك وإنما تشير أحياناً إلى السيد الذي آل إليه هذا المملوك^(١).

وإذا انتقل المملوك بعد عتقه إلى خدمة سيد آخر كان يطلق على هذا السيد الجديد اسم مخدوم ويصبح المملوك مستخدم ولكن ارتباط المخدوم بالمستخدم هنا لم يكن في قوة ارتباط المعتق وعتيقه ولكن كانت العلاقة بينهما أكثر سطحية بسبب تمييز المخدوم لمماليكه القرانيس الذين انتقلوا إلى خدمته بعد عتق سلاطينهم لهم فكان السلطان يعتبرهم أقل درجة من معاتيقه^(٢).

العلاقات والروابط بين الممالك:

تعددت مسميات الروابط التي ربطت الممالك ببعضهم ولكن كانت أهمها وأقواها على الإطلاق تلك الرابطة المسماة برابطة الأستاذية وهي الرابطة التي تربط المملوك بسيدته أي أستاذه الذي اشتراه صغيراً ورباه وقام على رعايته حتى كبر واعتقه^(٣) ولفظة أستاذ^(٤) مصطلح تاريخي مملوكي يطلق على السيد الذي يشتري المملوك

(١) أحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية ص ١٥٧، الممالك ومفهوم الأسرة، ص ١٩٢.

(٢) السيد الباز العريني: الممالك ص ٢٠٨ - ٢٠٩، أحمد عبد الرازق، العلاقات الأسرية، ص ١٦٠، الممالك ومفهوم الأسرة لديهم، ص ١٩٣.

(٣) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ٢٤، السيد الباز: الممالك ص ٢٠٧.

(٤) لفظة أستاذ هي لفظة معربة لأنه يقال أنه ليس في اللغة العربية كلمة عربية أصيلة تجتمع فيها الذال والسين، أنظر القاموس المحيط مادة «سيده» وأستاذ معربة عن كلمة أستاذ الفارسية وهي تعني السيد أو المشهور بعمله وكانت تستخدم في العصر الأيوبي والمملوكي للدلالة على تاجر الممالك أو السيد الذي يشتري المملوك ويربيه - أحمد عبد الرازق الممالك ومفهوم الأسرة ص ١٨٩، حاشية ٥.

بالمال ويقوم بتربيته وتعليمه ثم عتقه وكانت من أقوى الروابط التي عرفها تاريخ المماليك^(١).

ويبدو أن التاجر الذي جلبه هو بمثابة أول أستاذ له وبالتالي فهو أول من ينتمي إليه المملوك ثم يظل ينتقل من أستاذ إلى آخر ولكن أهمهم جميعاً هو ذلك الأستاذ الذي يشتري المملوك ويبقى في حوزته حتى يعتقه وهو هذا الأستاذ بالمعنى الإصطلاحي المملوكي كما يقصد بذلك اللفظ أيضاً السيد الذي يكون في خدمة مملوك من المماليك أي أنه ليس من الضروري أن يكون هو الذي اشتراه واعتقه وهنا يترادف مع لفظ مخدوم وتجمع المملوك بأستاذه الذي أعتقه رابطة قوية ويدين له بالوفاء والإخلاص مدى الحياة^(٢).

ومن أروع أمثلة وفاء المملوك لأستاذه الذي اعتقه ما اشتهر به السلطان بيبرس البندقداري من حب وتقدير لأستاذه ايدكين البندقداري^(٣) فقد جعله نائباً له على الشام بعد اعتلائه عرش مصر وكان كثير التعظيم له ويذكره في الكثير من المناسبات بقوله «أنت أستاذي» ويقدر له حق تربيته له كما أظهر الاحترام والعرفان للأستاذ الذي اشترى ايدكين واعتقه في العصر الأيوبي وهو جمال الدين بن يغمور الذي عاصر بيبرس في العصر المملوكي وأصبح محل تقديره واحترامه^(٤).

علاقة المملوك بالأغا:

كانت تلك العلاقة أو الرابطة لا تقل أهمية عن رابطة الأستاذية وتتمثل في علاقة المملوك الصغير الذي عرف في المصطلح المملوكي باسم آني والأكبر منه سناً والذي لقب بالأغا وهو الذي يرعى الآني في الطباقي وكانت تقع عليه مسئولية تأديبه ولكن كان بينهما نوعاً من الارتباط الأسري والإحساس بالمسئولية تجاه هذا الصغير

(١) عبد العزيز الشناوي: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، المجلد الثاني، بحث منشور عن أروقة الأزهر، سنة ١٩٨٥، ص ٢٣.

(٢) السيد الباز: المماليك ص ٢٠٧ - ٢٠٨، أحمد عبد الرازق: المماليك ومفهوم الأسرة، ص ١٩١.

(٣) المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٣٠٠.

(٤) السيد الباز: المماليك ص ٢١٧، أحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية ص ١٦١ - ١٦٥.

وإذا حدثت مشكلة في الطبايق بين الممالك الصغار الآتيات كان الأغا يسرع لمعاونة آتياته وفي المقابل كان هؤلاء الآتيات يدينون بالولاء لأغواتهم حتى ولو ارتقى بعد هذا الآتي وأصبح أعظم من الأغا فكان دائماً يحترمه ويبجله ويستجيب لكل مطالبه^(١).

وليس من المؤكد أن هؤلاء الأغوات كانوا يختارون من بين الممالك الذين تم عتقهم إلا أنه كان هناك واحد لكل طبقة من بين الممالك الذين تم بالفعل عتقهم وكان يلقب باسم أغا الطبقة وهو ليس من بين الطواشية الخصيان وكان هناك مقدم الطبقة وعرف باسم طواشي الطبقة أو خدام الطبقة أو سواق الطبقة وكان من أهم الشروط التي تتوافر فيه أن يكون من بين الطواشية الخصيان من أجل الحرص على سلامة الممالك الأحداث الذين يدخلون الطبايق صغاراً وخوفاً عليهم من الشذوذ الجنسي الذي ابتلى به المجتمع المصري في العصر المملوكي^(٢).

ولكن هناك حقيقة يجب ألا نغفلها وهي أن هذا الأغا لم يرتقى أبداً لدرجة الأستاذ ولم يتمتع بمكانته فكثيراً ما كان يلعب دور الوسيط بين الخشداشية والأستاذ^(٣).

رابطة الخشداشية:

ومفردتها خشدأش وهو لفظ معرب من لفظ خواجاتاش الفارسي وتعني الزميل في الخدمة والخشداشية أو الخواشداشية أو الخجداشية أو الخوجداشية في الإصطلاح المملوكي هم الأمراء الذين نشأوا بممالك عند سيد واحد فنشأت بينهم رابطة الزمالة القديمة ويقابلها في الفرنسية (Camarades) وكان لتلك الرابطة آثار واضحة على الممالك الذين اختلفت أماكن استجلابهم فعوضوا بتلك الرابطة وغيرها

(١) أحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية ص ١٦١ - ١٦٥.

(٢) أحمد عبد الرازق: الممالك ومفهوم الأسرة، ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(٣) نفسه، ص ٢٠٠.

فقدانهم للحياة العائلية والدفع الأسري^(١).

وكلما زادت خشداشية أمير من الأمراء ازدادت مكانته وكلما زاد ولاؤهم للسلطان منحهم الرتب والوظائف العالية^(٢).

ومن الأمثلة على ذلك أن أصبح الأمير أقطاي زعيم البحرية وكانت أقوى فئات المماليك في ذلك الوقت أن لا يستطيع أحد الأمراء التكلم في شيء أو إبداء رأي إلا بحضوره لكثرة خشداشيته، ومن مظاهر ولاء السلطان للخشداشية ما فعله الظاهر بيبرس مع سنقر الرومي الصالح النجمي أحد ممالك الصالح أيوب والذي ترقى عنده في الخدم حتى أصبح جامدار وكان من خشداشية بيبرس البندقداري وكان من خلصائه وخرج معه إلى الشام بعد قتل أقطاي زميلهم ثم اختلفا وجاء سنقر إلى مصر وأقام بها وترك بيبرس ولما عاد بيبرس إلى مصر وصار أميراً لم يقدم له سنقر شيئاً كعادة الخشداشية^(٣) الذين كانت من آدابهم أن يتهادوا من تقدم منهم في المناسبات المختلفة^(٤).

ولممالك بيبرس قدم سنقر ومنحه الإقطاعات الجلييلة فلم يرضى وكان يرد كل تلك العطايا ويبدو أنه حدثت بينهما نوعاً من الغيرة فكان سنقر يتعمد أن يجذب إليه المماليك ويقربهم ويفرق فيهم المال وكان كل ذلك يبلغ بيبرس فيتغاضى عنه مراعاة للزمالة ولكن ما لبث أن زاد ضرر سنقر بقتله اثنين من المماليك بغير ذنب فاضطر بيبرس إلى اعتقاله^(٥).

وكان من مظاهر وفاء الخشداشية وحبهم لبعضهم حرصهم على إنقاذ من يقع

(١) المقرئزي: السلوك، جـ ١، قسم ٢، ص ٣٨٨ حاشية ١، محمد مصطفى زيادة، بحث منشور بعنوان بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك، مجلة كلية الآداب الجامعة المصرية المجلد الرابع، جـ ١، مايو ١٩٣٦، ص ٨١ - ٨٢، عبد العزيز الشناوي: دراسات في الحضارة ص ٢٣.

(٢) السيد الباز: المماليك ص ٢١١ - ٢١٢، أحد عبد الرازق: المماليك ومفهوم الأسرة ص ٢٠٣.

(٣) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٨٢.

(٤) السيد الباز: المماليك، ص ٢٣١.

(٥) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٨٣.

منهم في محنة ومناصرة كل جماعة لمن ينتمي إليها ويتجلى ذلك فيما حدث بين أيبك وأقطاي وبين بيبرس وقطر وتمليك بيبرس السلطنة^(١) وكذلك وفاء خشداشية المعز أيبك له وقتلهم شجر الدر زوجته عندما تأمرت عليه وقتلته^(٢).

ومن الملفت أن شجر الدر اعتبرت نفسها خشداشاً للصالحية البحرية رغم كونها امرأة وساعدوها على اعتلاء السلطنة^(٣) وحاولوا بكل الطرق حمايتها من الإغتيال على يد مماليك المعز أيبك إلا أنهم فشلوا في ذلك لإصرار مماليك أيبك على الأخذ بثأر أستاذهم، وكان هؤلاء الخشداشية رغم ارتباطهم الشديد ببعضهم البعض أحياناً ينقسمون أثناء تولية سلطان جديد فينحاز كل فريق إلى الأمير الذي يريده وتنشب الحروب بينهم لمناصرة من يريدون فاعتلاء نصيرهم السلطنة سوف يعود عليهم بالمنافع الكثيرة^(٤). وكانت الطائفة الأقوى من بينهم تنتخب للسلطنة أقدم زملائها أو أكبرهم سنًا^(٥).

ومن كل هذا يتضح أن العائلة المملوكة كانت تتألف أساساً من الأستاذ وهو الأب والخشداش وهو الأخ والزميل والأغا وهو الأخ الأكبر والآني وهو الأخ الأصغر تلك كانت أسرة المملوك الحقيقية^(٦).

النزاع بين الفرق المملوكية:

وكثيراً ما كان يقوم نزاعاً كامناً بين الفرق والطوائف المختلفة للمماليك لعدة أسباب مختلفة وأحياناً يكون بسبب توزيع الأسلاب التي استولوا عليها من عرق

(١) نفسه، ص ٣٠٠ - ٣٠١ وابن العبري: تاريخ مختصر الدول، جـ ٢، ص ٢٦١، الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٢٧٦.

(٢) السيد الباز: المماليك، ص ٢١٦.

(٣) الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٢٧٦.

(٤) السيد الباز: المماليك، ص ٢١٦، أحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية، ص ١٣٣.

(٥) محمد مصطفى زيادة: بعض ملاحظات جديدة، ص ٨١ - ٨٢.

(٦) أحمد عبد الرازق: المماليك ومفهوم الأسرة، ص ٢٠٧.

الشعب^(١). وبرغم انقسامهم الداخلي عند بروز أي مشكلة وانقسامهم إلى أحزاب وشيع كل حزب يرأسه زعيم مثل البحرية بقيادة أقطاي وببيرس والمعزية بقيادة أيبك وقطر^(٢) إلا أن هذا الانقسام لم يؤثر على ارتباط المملوك الشديد بحزبه وبأسرة زعيم هذا الحزب حتى بعد وفاته أدى النزاع بين تلك الفرق أو الأحزاب المملوكية إلى إتسام هؤلاء المماليك بالعنف مما أوحش الناس منهم وخشوا بأسهم^(٣). وكذلك لم يؤثر ذلك الانقسام على وحدتهم إزاء الأخطار الخارجية التي تعرضت لها البلاد وتصدوا لها مما يفسر إنتصاراتهم المتتالية على أعدائهم^(٤)، ولم تكن تلك العصبية العنصرية بين طوائف المماليك تتعارض مع شعور هؤلاء بعصبية ربطتهم جميعاً^(٥).

(١) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي، ص ٤١٩.

(٢) المقريري: الخطط، ج ٢، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(٣) وليام موير: تاريخ دولة المماليك البحرية في مصر، ص ١٨٧.

(٤) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٣٢.

(٥) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ٢٤.

المماليك والمجتمع المصري

دائمًا ما تتميز الحياة الإجتماعية عن الحياة السياسية أو الحياة الإقتصادية بنوع من الثبات والاستقرار وببطء التغيير^(١). فتجرى الأحداث السياسية على السطح سريعة مهروله ويمضي تغير النمط الإجتماعي بطيئًا متناقلًا^(٢)، وقد واصل المماليك السير على تقاليد الأيوبيين واحتفظوا حتى بألقابهم ولم يغيروا في أول الأمر شيئًا من ثقافة أسلافهم^(٣)، وكان المماليك يتحركون داخل إطار واحد ولا بد أن النظم والعادات والتقاليد التي سادت مجتمعهم في العصر المملوكي لها جذورها التي ترجع إلى ما قبل ذلك والمستفاه من العصر الأيوبي.

وإذا كانت المصادر المعاصرة قد أغفلت إلى حد بعيد الإشارة إلى الأوضاع الإجتماعية لفئة المماليك في العصر الأيوبي فإن هذه الأوضاع حتمًا لها جذورها في عصر الأيوبيين، لذلك فمن الممكن الإستناد إلى علاقاتها بالمجتمع المصري في العصر المملوكي وخاصة في أوائله ونطبقها على حياتهم في العصر الأيوبي حيث أن الفترة بين العصرين قصيرة لدرجة لا تحتمل تكوين أنظمة معينة لكي تحكم تلك العلاقة، وقد كان لأصل هؤلاء المماليك وظروف نشأتهم وطريقة تربيتهم وعدم إختلاطهم بالأهالي سياج يحيط بهم جعل منهم طبقة منفصلة ذات خصائص مغايرة للمحيط الذي تعيش داخله^(٤).

إن هؤلاء المماليك عاشوا في مصر يكونون عنصرًا منفصلًا عن بقية سكان البلاد ولم يبذلوا إلا محاولات نادرة للتقرب من الشعب أو الإختلاط به والإمتزاج معه

(١) سعيد عاشور: صور من مجتمع القاهرة في العصور الوسطى، بحث بمجلة الجمعية التاريخية، مجلد ١٨، سنة ١٩٧١م، ص ١٦١.

(٢) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٢٩٨.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: ج ٣، ص ٢٢٥.

(٤) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ١١ - ١٢.

وقصروا الوظائف العسكرية على بني جنسهم المستجلبين^(١) فكان من أهم شروط اختيار عناصر الجيش أن يكونوا من الرقيق المستجلبين ويعتقون بعد تدريبهم بحيث يكونون منقطعين تمامًا عن كل علاقة أسرية أو قومية وليس لهم من سمة إلا الوظيفة القاهرة وهي القتال^(٢).

واعتمدوا على أبنائهم في الوظائف الإدارية ووظائف الدواوين فأصبحوا يكونون طبقة أرستقراطية حاكمة لا يملكون الأرض ولا يمتهنون الحرف ولم يسمحوا لأهل مصر الأصليين بالإرتقاء إلى مناصب الحكم^(٣).

وكان غالبية المماليك المجلوبين من قبل الأيوبيين من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق التي تشمل حوض الفولجا والأراضي الواقعة حول بحر قزوين وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر فكانوا خليطاً من الأتراك والشراكسة والروم والروس وأقلية من بلاد أوروبا وكانوا بمثابة السيل الذي لا يتوقف بسبب احتياج هؤلاء السلاطين المستمر لأولئك لإستخدامهم في مشاحناتهم وأطماعهم وحروبهم^(٤).

وقد احتفظ هؤلاء المماليك بجنسيتهم وعاداتهم وكانت حكومتهم أوليغريقية يرأسها الأمير أو السلطان، وليس معنى ذلك أن بقية المماليك لم يكن لهم سلطان بل على العكس تمتعوا بنفوذ قوى والملفت للنظر أنهم ابتعدوا عن أهل البلاد المصرية سواء من الأقباط أو المسلمين الذين يعتنقون دينهم ولا يوجد تفسير لتلك الظاهرة الغريبة وكانت تلك العزلة والترفع من أهل البلاد سمة من السمات التي تميز بها حكمهم، مما ساعد على قيام نظام طبقي أدى إلى تميز كل طبقة من طبقات المجتمع

(١) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، من المقدمة ص ٣٦، على إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص ٣١.

(٢) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي والإقتصادي، ص ٤٠٤ - ٤٠٥.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٣٦ من المقدمة.

(٤) وليام موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص ١٨٦.

بملاح تـختلف عن مثـيـلاتـها تـبعـاً للمركـز الـذي تـتمـتع به ونوع النـشاط الـذي تـقـوم به^(١).

وكثيـراً ما كانوا ينقسمون فيما بينهم إلى شيع وأحزاب بإنقسام زعمائهم ولكن ذلك لم يكن حائلاً بينهم وبين شعورهم برابطة تجمعهم دائماً وهي رابطة الأرستقراطية الحاكمة تلك الرابطة التي جعلت منهم طائفة منفصلة قائمة بذاتها^(٢)، وكان شعورهم بالأرستقراطية ناتجاً عن كونهم يمثلون الجهاز الحربي الذي كان له السلطة المطلقة في حكم البلاد والدفاع عنها^(٣).

وهكذا كان الحكم الأيوبي المملوكي يمثل سلطة البيروقراطية - وخاصة العسكرية - المعزولة عن الشعب إجتماعياً وسياسياً وثقافياً وكانت هذه العزلة سبباً في شعور أبناء الشعب من الكادحين بالسلبية كرد فعل حتمي لما يحدث حولهم^(٤).

أدت هذه العزلة الإجتماعية التي عاش فيها المماليك إلى احتفاظهم بأخلاقهم وطباعهم التي ميزتهم كطبقة خاصة على مر السنين دون أن يمتزجوا أو يتأثروا بأخلاق وطباع أهل البلاد وعاداتهم وتقاليدهم، وظل السيل المتدفق لهؤلاء المماليك من الخارج شريئاً متجدداً يحيى فيهم طباعهم الأولى ويذكرهم دائماً بأصولهم^(٥). فكان ممالك القرن السابع الهجري في نهايات العصر الأيوبي مشابهين في أخلاقهم لممالك القرن العاشر الهجري مع وجود فروق بسيطة في مسلكهم راجعاً إلى خلل نظامهم الإجتماعي والحربي الذي نتج عن تغير نظم تربيتهم ونشأتهم فقد أصبح المماليك يأتون أجلاً إلى مصر في سن الشباب ولم يعودوا يأتون صغاراً، فانتفت صفة الولاء لأسائدتهم واحترامهم لهم فبعد أن كانوا يخضعون لنظاماً صارماً في التربية والتدريب ضعفت سيطرة السلاطين والأمراء على أولئك الجلبان الذين تخطوا

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ١٠.

(٢) ابن عبد الظاهر: تـشـريف الأيـام والعـصور، من المـقـدـمة ص ٣٧.

(٣) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين، ص ١٦٨.

(٤) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الإجتماعي والإقتصادي، ص ٤٠٥.

(٥) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي، ص ٢٣ - ٢٤.

سن البلوغ مما أدى إلى الكثير من حوادث الشغب والإضطراب^(١).

وفي بداية العصر الأيوبي لم تكن حياة المماليك مرفهة أو مترفة فقد كان الشغل الشاغل لسلطين هذه الدولة منذ اعتلاها صلاح الدين هو درء خطر الصليبيين وبناء جيش قوي وإنفاق الأموال في بناء قلعة الجبل وسور القاهرة وتحصين الثغور لحماية البلاد فقد غلبت فكرة الحرب على هؤلاء السلاطين وبالتالي مماليتهم وتغلبت عقيدة الجهاد والزود عن الدين الإسلامي على أحاسيس الناس ومشاعرهم فلم يكن هناك مجالاً للترف أو إقامة الاحتفالات إلا في أضيق الحدود على عكس أواخر العصر الأيوبي وبداية العصر المملوكي وكانت كل الأموال تدخر لحراسة القوافل وإعداد الجيوش وبناء السفن والأساطيل وصناعة الأسلحة والآلات الحربية^(٢).

وتأرجحت علاقة المماليك بالشعب المصري تأرجحاً كبيراً فكما كانت لهم الكثير من السلبيات كان لهم بعض الإيجابيات، ولم يكن الشعب المصري يحب هؤلاء المماليك وخاصة البحرية في نهاية العصر الأيوبي نظراً لتجبرهم وقيامهم بالأفعال المنافية للأخلاق من سلب ونهب لممتلكاته ولكنه كان شعباً مسالماً يتوق لكل من يدافع عن دين الإسلام وكان المصريين هم الذين أقاموا شجر الدر للإبقاء على الدولة الأيوبية وحتى لا تسقط تلك الدولة في يد المماليك الأتراك المسيطرين على الدولة والجيوش في تلك الفترة فقد نظروا إلى هؤلاء الرقيق بإزدراء ورفضوا أن يحكمهم هؤلاء^(٣) فقد ذكر المقرئزي في حوادث ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م أن «فيها كثر ضرر المماليك البحرية بمصر ومالوا على الناس وقتلوا ونهبوا الأموال وسبوا الحريم وبالغوا في الفساد حتى لو ملك الفرنج ما فعلوا فعلتهم»^(٤).

كما أن أقطاي أحد زعماء البحرية بالغ في «الإذلال والتجبر»... «كان يدخل

(١) أحد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي والإقتصادي، ص ٤٠٥.

(٢) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٣) عبد المنعم ماجد: موقف المصريين من حكم المماليك في العصور الوسطى، حوليات آداب عين شمس، مجلد ١٢ سنة ١٩٦٩م، ص ٤٩.

(٤) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٨٠ وأنظر: الخطط، ج ٢، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

الخزائن ويتصرف في الأموال»^(١).

كما ذكر المقرئزي أن أقطاي وزملاءه من البحرية استفحل أمرهم لدرجة أن شجر الدر وأبيك لم يستطيعا إيقاف هؤلاء ومنعهم من إيذاء الناس فكانوا يأخذون أموال الناس ونساءهم وأولادهم ولا يستطيع أحد منعهم، كما كانوا يهاجمون حمامات النساء ويأخذونهن بالقوة^(٢).

وكان «أقطاي إذا ركب يقتل بين يديه جماعة بأمره»^(٣) ومن أبلغ المظاهر التي تدل على كراهية العامة للمماليك ومنهم شجر الدر أنها عندما قتلت على يد ممالك المعز أبيك زوجها الذي سبق وقتلته وألقيت من فوق سور القلعة إلى الخندق لم يكن عليها سوى سراويلها وقميص وبقيت أياماً في الخندق لم يصعب حالها على العامة الذين قاموا بأخذ بعض تكة سراويلها^(٤).

وهذا يبين مدى استيائهم تجاه عجرة هؤلاء وتعاليتهم حتى أنهم لم يقوموا بدفنها وتركوها حتى نتنت ثم حملت في قفة ودفنت بتربتها^(٥)، وكان إستتارهم بوظائف الحكم والعسكرية والإدارة في بلد غريب عنهم جعلهم يتصرفون كأقلية عسكرية تنأى بنفسها عن المشاركة في الحياة الاجتماعية للمصريين لا سيما المشاركة الظاهرية في المواكب السلطانية والأعياد الدينية والعامة.

ويبدو أن المصريين امتزجت مشاعرهم تجاه هؤلاء فأصبحت مزيجاً من الكراهية لسياستهم والعداء الاجتماعي لتواجدهم بينهم والولاء الديني بفضل القناع الديني الذي تخفى وراءه هؤلاء لإضفاء نوع من الشرعية على وجودهم^(٦)، وكان

(١) الذهبي: العبر في خبر من خبر، جـ ٣، ص ٢٦٨، محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ٧٧.

(٢) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٣٨٩ - ٣٩٠، محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ٧٨.

(٣) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ١، ص ٧٧.

(٤) نفسه، ص ٧٧.

(٥) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٤٠٤.

(٦) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر، ص ٢٤.

لهذا القناع أثر كبير في بعض الأحيان حيث ينضم الشعب المصري إليهم مكوناً يداً واحدة معهم للدفاع عن البلاد والزود عن الدين الإسلامي ويتضح ذلك فيما أبداه فلاحو مصر من معاونة للمماليك في موقعة المنصورة ومعهم المقاليق والحجارة للضغط على العدو وما تلاه من أسر لملكهم لويس التاسع نفسه فكان تضامن الشعب مع هؤلاء المماليك سبباً مباشراً في توطيد سلطنتهم في مصر وظهور قوتهم حتى استطاعوا اقتناء الفرصة واعتلاء عرش البلاد^(١).

ونتيجة لأعمال السلب والنهب ازدادت ثروات هؤلاء المماليك وكذلك نتيجة لمنح السلاطين وعطاياهم لهم والإغداق عليهم لضمان ولايتهم، فقد ذكر النويري أن فارس الدين ميمون القصري عند وفاته سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م «خلف أموالاً جمّة»^(٢).

كما يذكر المقرئزي ثروة أحد هؤلاء المماليك وهو «بكتاش الفخري»^(٣) أنه كان «كريمًا شجاعًا .. وكانت له رغبة في شراء المماليك والخيول بأعلى القيم وكان يبعث للأمرء المجردين معه النفقة ويقوم لهم بالشعير والأغنام وبلغت ممالكه الغاية من الحشمة وكان إقطاع كل منهم في السنة عشرين ألف درهم فضة عنها يومئذ ألف مثقال من الذهب ولكل من جنده خبز مبلغه في السنة عشرة آلاف درهم سوى كلفهم من الشعير واللحم»^(٤).

(١) جوائيل: القديس لويس ص ١٢٩ - ١٣١، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج ٢٩، ص ٦٤.

(٣) الأمير بدر الدين، أمير سلاح الصالح النجمي .. كان أولاً مملوكاً لفخر الدين بن الشيخ فصار إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب وتقدم عنده من جملة من قدمه من المماليك البحرية الذين ملكوا الديار المصرية من بعد انقضاء الدولة الأيوبية وتآمر في أيام الملك الصالح وتقدم في أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري واستمر أميراً لأكثر من ستين سنة لم ينكب فيها، المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٣٢.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٢.

كما ذكر ثروة مملوك آخر يدعى بيسرى^(١) أن كانت له «عدة ممالك راتب كل واحد منهم مائة رطل لحم وفيهم من له عليه في اليوم مبلغ ستين عليقة لخيله وبلغ عليق خيله وخيل ممالكه في كل يوم ثلاثة آلاف عليقة سوى علف الجمال وكان ينعم بالآلف دينار مرة وبالخمسائة مرة». وقال أن بيسرى هذا «لم يعرف عنه أنه شرب الماء في كوز واحد مرتين وإنما يشرب كل مرة في كوز جديد ثم لا يعاود الشرب منه»^(٢).

ويبدو أن تصرفاتهم الهمجية مع عامة الشعب أن أصلهم مباعين في أسواق النخاسة وينقلون إلى مصر دون أن يكون لهم جذورًا أو رابطة تربطهم بتلك الأرض وأهلها فليس من العجب أن يعاملوا أهل هذا البلد معاملة الغالب للمغلوب على أمره ويبتزرون الأموال وينعمون بحياة الترف والبذخ وكانوا يفعلون كل ما يحقق أغراضهم من الأفعال القبيحة القائمة على التوحش والهمجية لتحقيق أطماعهم الذاتية بما في ذلك الأفعال من عنف وإزهاق للدماء والأرواح^(٣).

وكان الرجل من العامة يمتلك عبدًا واحدًا وكان يعاني معهم من حياة البؤس والشقاء على عكس العبيد المملوكين للأغنياء فكانوا يقومون بتصريف أمور أسيادهم^(٤). وقل اهتمام هؤلاء الممالك باللغة العربية حتى أن الذين أجادوها منهم احتفظوا بلكنة خاصة^(٥) ويبدو أن السلاطين الأيوبيين تأثروا بلغة ممالكهم فكانوا يتحدثونها بل كانوا يعرفون أيضًا بعض لهجاتها^(٦).

(١) الأمير شمس الدين الشمسي الصالحي النجمي أحد ممالك الصالح نجم الدين أيوب البحرية تنقل في الخدم حتى صار أجل الأمراء في أيام الملك الظاهر بيبرس البندقداري واشتهر بالشجاعة والكرم وعلو الهمة، المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٦٨.

(٢) المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٦٨.

(٣) أنور زقلمة، الممالك، ص ١٥، أنظر وليام موير: تاريخ دولة الممالك، ص ٣٤.

(٤) كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص ١١٣.

(٥) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ٢٣، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، جـ ٥، ص ١٨٤.

(٦) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي، ص ٤٠٤.

ومن الملاحظ أن المماليك عاشوا مقربين بين المصريين ولم يتوطد الترابط بينهم على الرغم من تعلم بعضهم للعربية، وتجدر الإشارة إلى أن كثيرًا منهم لم يتعلم العربية على الإطلاق^(١)، ولم يعرف المماليك في الغالب الحياة الأسرية، ولم يقبلوا على الزواج وممارسة الحياة العائلية، فقد كان ذلك يأتي في مرتبة تالية لإهتماماتهم ومن بينها الولاء لأسيادهم^(٢)، كما لم يتزوجوا إلا في حالات نادرة حيث ارتبط بعض المماليك ببعض بنات رجال الدولة من القضاة والعلماء، وكانوا يفضلون الزواج من الفتيات المسلمات من الجواري المستجلات ولم نفع في مصادرها على زواجهن من مصريات مسيحيات، ومع ذلك فلم يغير زواجهن من بعض المصريات من حياة العزلة التي كنوا يفضلونها، ولم يندمجوا في المجتمع ولم يختلطوا بغيرهم^(٣)، ولم يكونوا أسرى كبيرة العدد حيث غالبًا ما ينتهي أمرهم بالموت في القتال أو الإغتيال وبالتالي تنتقل ممتلكاتهم بما فيها النساء إلى القاتل أو السلطان وإذا كان لهم أبناء أطلق عليهم مصطلح أولاد الناس أو مولدين فلم يكن لهم نفس المكانة التي كانت لأبائهم^(٤).

وقد تدخل السلاطين في اختيار زوجات المماليك للإبقاء على صفات وخصائص تلك الطبقة، ومن الجائز أن يتزوج أحدهم إذا ظهر أمره من عائلات السلاطين^(٥)، فقد ذكر المقرئ أن الأمير ركن الدين منكورش كان زوجًا لام الأوحدين العادل^(٦).

وكان البعض منهم حريصًا على التسري واقتناء الجواري والمحظيات على حين حرص البعض الآخر على الزواج وإنجاب الأطفال^(٧). وكما كان لهؤلاء المماليك

(١) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي، ص ٢٣.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، من المقدمة ص ٣٧.

(٣) وليام موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص ١٨٧، أنظر علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٣٢، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٥، ص ١٨٤.

(٤) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الإجتماعي، ص ٤٠٥.

(٥) السيد الباز العريني: المماليك ص ٢١٩.

(٦) المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٩٣.

(٧) أحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية في المصطلح المملوكي، ص ١٥٥.

سلبيات كان لهم إيجابيات أيضًا، فقد شارك البعض منهم في أعمال الخير فكانوا يتصدقون بالأموال ومن أمثلة هؤلاء قايماز النجمي الملقب بصارم الدين وكان من أكابر ممالك نجم الدين أيوب لما كان محل ثقة صلاح الدين الأيوبي، وكانت له صدقات كثيرة ولم يكن يتوانى عن القيام بأفعال الخير^(١).

وكان المبارز بن يوسف بن خطلخ الذي كان مملوكًا لشمس الدولة محسنًا إلى الناس كريمًا شجاعًا^(٢)، كذلك كان لؤلؤ الحاجب^(٣) الذي تصدق على الفقراء بكل ما بقي معه بعد أن زوج بناته الأربع وأعطى ابنه ما يكفيهما، فيقول المقرئزي أنه كان «يفرق في كل يوم اثني عشر ألف رغيف مع قدور الطعام، وإذا دخل شهر رمضان ضاعف ذلك وتبذل للتفرقة من الظهر في كل يوم إلى نحو صلاة العشاء الآخرة ويضع ثلاثة مراكب طول كل مركب أحد وعشرون ذراعًا مملوءة طعامًا ويدخل الفقراء أفواجًا وهو قائم مشدود الوسط كأنه راعي غنم وفي يده مغرفة وفي الأخرى جرة سمن وهو يصلح صفوف الفقراء ويقرب إليهم الطعام» وكان يبدأ بالرجال ثم النساء ثم الصبيان ولم يكن الفقراء يتزاحمون رغم كثرتهم لعلمهم أن «المعروف يعمهم فإذا انتهت حاجة الفقراء بسط سباطا للأغنياء تعجز الملوك عن مثله»^(٤).

واللافت للنظر أن هؤلاء المماليك في بداية العصر الأيوبي حيث تمتع السلاطين الأيوبيون بالقوة كان سلوكهم وأخلاقياتهم على مستوى أرفع من نهايات العصر الأيوبي الذي استفحل فيه أمرهم بعد شعورهم بقوتهم وانتصاراتهم على الصليبيين وإحساسهم بحقوقهم في إمتلاك واعتلاء عرش السلطنة في مصر فيذكر المقرئزي أنه في عهد العادل الكبير الأيوبي شقيق صلاح الدين حدثت مجاعة لقصور النيل

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، ق ٢، ص ٤٨٤.

(٢) نفسه، جـ ٨، ق ١، ص ٥٧٩.

(٣) كان أرمني الأصل من أجناد مصر أيام الفاطميين ولما استولى صلاح الدين على مملكة مصر خدم

في أسطوله، «وكان حينما توجه فتح وانتصر وغنم، المقرئزي، خطط، جـ ٢، ص ٨٥.

(٤) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٨٥ - ٨٦.

وبلغ سعر أردب القمح ثمانية دنانير فكان أمراء الممالك يصدقون على الفقراء بالآقوات^(١).

ولما فاض النيل وتوفرت المياه لم يوجد أحد يزرع الأرض لكثرة عدد المتوفين بسبب تلك المجاعة وذلك الوباء فخرج الممالك على الفور بغلماتهم وقاموا بزراعة ما استطاعوا زراعته^(٢).

كما كان للبعض منهم تصرفات إنسانية تتم عن أخلاق رفيعة تحلوا بها وخاصة البعض من البحرية الذين اهتم الصالح أيوب بتربيتهم وتأديبهم ومنهم الأمير فخر الدين جهاركس الصلاحي^(٣).

فيذكر المقرئ حادثة تؤكد ذلك، فقد بلغ الأمير جهاركس أن أحد الأجناد يمتلك فرساً عرض عليه فيه ألف دينار فأبى بيعه فأحب جهاركس أن يرى هذا الفرس واستدعى صاحبه وأخذ الأمير جهاركس الفرس وركبه ومضى به إلى داره فلم يعترض صاحبه ولم يطلب الفرس لعدة أيام لاحقة فتعجب جهاركس وطلب صاحب الفرس وأجلسه معه على سباطه وسأله لماذا لم يطلب فرسه؟ فكان رد الرجل «ياخوند وما عسى أن يكون من هذا الفرس وما ركبته الأمير إلا وهو قد صلح له، وكل ما صلح للمولى فهو على العبد حرام، ولقد شرفني مولانا بأن جعلني أهلاً أن يتصرف في عبده، والمملوك يحسب أن هذا الفرس قد أصابه مرض فمات. وأما الآن فقد وقع في محله وعند أهله، ومولانا أحق به» ولما سأل جهاركس عن سبب رفضه بيع الفرس رغم أنه عرض عليه فيه ألف دينار رد قائلاً «يامولانا، هذا الفرس جعلته للجهاد، وأحسن ما جاهد الإنسان على فرس يعرفه وثيق به، وما مقدار هذا الفرس له أسوة، فاستحسن الأمير همته وشكره» وأمر بأن يخلع عليه

(١) المقرئ: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٣١.

(٢) نفسه، ص ٣١.

(٣) مقدم الناصرية والحاكم بديار مصر في أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين وكان له العديد من أعمال البر وكان من أكبر أمراء الدولة الصلاحية وكان كريماً عالي الهممة، المقرئ: خطط، ج ٢، ص ٨٦ - ٨٧.

خلعة من أفر ملبوسه وأعطاه ألف دينار والفرس^(١).

وعلى الرغم من أن الممالك لم يختلطوا أو يندمجوا مع المصريين إلا أننا نستطيع أن نلمس أثرهم في الحياة الفكرية في ذلك الوقت فقد كان لإنتصاراتهم ضد الصليبيين ودفاعهم عن الدين الإسلامي أثر كبير انعكس على أدب تلك الفترة فقد تبارى الأدباء في وصف شجاعتهم ومآثرهم^(٢).

كما كان لتواجد العنصر التركي أثر كبير على أدب تلك الفترة فقد اشتهر الأتراك سواء النساء أو الغلمان بالجمال والحسن ووصف الشعراء عيون الأتراك الدعجاء بأنها جميلة رغم أن العرب كانوا يفضلون دائماً العيون المتسعة التي شبهوها بأنها كعيون المها^(٣).

وكان الغلمان الأتراك يعملون كسقاء للخمير في المآدب فظهر الولع بالغلمان الترك السقاء وانعكس هذا على شعر الشعراء الذين ارتبط حديثهم عن الخمر ومجالسها بالحديث أيضاً عن سقاتها وما يتميزون به من جمال وظهر ذلك في شعر ابن النبيه عن أحد السقاء والذي انطلق يصف وسامة ساقيه وطول قامته وضخامة ردفه ونعومة شعره المنسدل على جبينه فقال:

يسعى بها عبل الروادف أهيفُ	خنتُ الشمائل شاطر الحركات
يهوى فتسبقه ذوائب شعره	ملتفة كأساور الحيات
ساق كان جبينه في شعره	قمر تبّج في الليالي السود
غصن ترنج ردفه في خصره	ف عجبت للمعدوم في الموجد ^(٤)

ومن ناحية أخرى نجد أن المصريين أصبحوا لا يخشون هؤلاء الممالك والذي يدل على ذلك سخريتهم التي اتسموا بها دائماً من حكامهم الطغاه، وفي تلك الفترة سخرؤا من قراقوش الأسدي مملوك صلاح الدين ومن بعده والذي بالغ في القسوة

(١) المقرئزي: خطط، جـ ٢، ص ٨٦.

(٢) أحمد سيد محمد، الشخصية المصرية، ص ١٩٠.

(٣) نفسه، ص ٢٠٢.

(٤) ابن النبيه، ديوانه، ص ١٢٥.

على المصريين حتى أنه أراد هدم الأهرامات ليبني من حجرها قلاعًا، وحيث أنهم لم يكن لديهم ما يعبرون به عن إستيائهم من قسوته فلجأوا إلى المقاومة السلبية فقاموا بعمل صورًا مضحكة على شكله وهو ما عرف بإسم القراقوز الذي هو في الأصل صورة قراقوش والتي تضحك الأطفال والكبار وذلك في كتاب صنف في واقعه سمي الفاشوش^(١).

وكذلك سخر المصريون من المماليك فخشوا بأسهم وأصبحوا لا يخرجون إلا وقد لبسوا دروعهم وأسلحتهم^(٢).

وكان لأستغلال المماليك البحرية لسطوتهم في العبث بمصالح البلاد والشعب واستيلائهم على أموال الناس وممتلكاتهم أثرًا كبيرًا على الناحية الفكرية والثقافية عامة وعلى الشعر والشعراء خاصة فقال ابن النبيه المصري:

صنف من الترك والخدام قد بلغا بأقبح الفعل فينا غاية الأمل
فسعدُ هذا بما قد قد من دُبرٍ فيه وهذا بما قد قد من قبل^(٣)

كما اشتكى الناس منهم للصالح أيوب بعد مضايقتهم لهم واندفع الشعراء للتنديد بهم واضطر الصالح لبناء قلعة الروضة^(٤)، لمنع أذاهم فقال الشاعر:

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته يا شر مجلوب
قد أخذ الله أيوبًا بفعْلته فالناس قد أصبحوا في ضر أيوب^(٥)

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، ق ٢، ص ٤٠٥، النويري، نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٣٠ - ٣١، الحنبلي: شذرات، جـ ٤، ص ٣٣١ - ٣٣٢، عفاف صبرة: بهاء الدين قراقوش، ص ١٢٦ - ١٣٧.

(٢) ماجد: موقف المصريين من حكم المماليك، ص ٥٦.

(٣) ابن النبيه المصري: ديوان ابن النبيه، ص ٤٠٩.

(٤) ابن دقماق: الجوهر الثمين، جـ ٢، ص ٣٧.

(٥) ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٥٦.

الجواري في العصر الأيوبي

زاد عدد الجواري والمحظيات في العصر الأيوبي زيادة بالغة وكان السلاطين الأيوبيون والمماليك يتميزون بالغنى الفاحش ويمتلكون الجواري والمحظيات رغم المجاعات والأوبئة التي تعرضت لها البلاد سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤م^(١).

ويروى الرحالة عبد اللطيف البغدادي أن هذه المجاعات سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م أثرت على التجارة حتى تجارة الجواري أيضاً فيقول «وأما بيع الأحرار فشاع وذاع عند من لا يراقب الله حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة وعرض على جارتين مراهقتين بدينار واحد ورأيت مرة أخرى جارتين إحداهما بكر ينادى عليهما بإحدى عشر درهماً»^(٢).

مما يدل على بخس الثمن الذي ابتيعت به هذه الجارية لأن الناس كانوا جوعاً لا يملكون طعامهم فكيف يدفعون في شراء الجواري.

وقد كان لدى بعض سلاطين الأيوبيين ولع بالجواري فقد كان العزيز ابن صلاح الدين يهوى قينة شغلته عن كل اهتماماته فلما علم والده أمره أن يتركها، ومنعها من صحبتها، فحزن العزيز لذلك حزناً شديداً ولكنه لم يستطع مخالفة والده فلما طال الوقت أرسلت له مع بعض الخدم كرة من العنبر فكسرها فوجد في وسطها زر ذهب فلم يعرف مقصودها من ذلك، وكان العزيز يثق في القاضي الفاضل وكان مقرباً إليه فأطلعه على الأمر ليستوضح ذلك فأرسل القاضي الفاضل له الرد في معنى ما فعلته الجارية في بيتين من الشعر وهما:

أهدت لك العنبر في وسطه زرٌ من التبر دقيق اللحم
فالزر في العنبر معناهما زر هكذا مستتراً في الظلام
فعلم العزيز أنها أرادت زيارته ليلاً^(٣).

(١) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي، ص ٤٢٢.

(٢) عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والإعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر، ص ٥٤.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٦١.

وحفلت مجالس الأيوبيين بالشعراء والأدباء والمغنيات من الجواري لغناء
الأشعار على العود، فلما رحل الفرنج سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م اجتمع عند الملك
الكامل أخواه المعظم عيسى والأشرف موسى وكان للأشرف جارية محببة تدعى ست
الفخر فغنت على العود:

ولما طغى فرعون عكا ببغيه وجاء إلى مصر ليفسد في الأرض
أتى نحوهم موسى وفي يده العصا فأغرقهم في اليم بعضا على بعض
فطرب الأشرف وطلب منها تكرار ما قالت فغضب الملك الكامل وأمرها بالسكوت.
وطلب من جاريته الغناء فغنت على العود:

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا لما قد جرى في وقتنا وتجدوا
أعياد عيسى إن عيسى وقومه وموسى جميعا ينصرون محمدا
فأعجب الكامل بها وأمر لها بخمسمائة دينار ولجارية أخيه الأشرف بخمسمائة
دينار^(١).

ومن ذلك يتبين لنا أن هؤلاء الجواري كن يطوعن الشعر والغناء لما يرضى
هؤلاء السلاطين فيغتنمن من وراء ذلك الثروات.

وتزوج بعض السلاطين الأيوبيين من الجواري والمحظيات وكانت غالبية نساء
السلاطين من هذه الطائفة^(٢)، فكانت أم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب أم
ولد تدعى ورد المنى^(٣) وكانت زوجته شجر الدر جارية محظية لديه فاعتقها
وتزوجها وأنجب منها ابنه خليل الذي توفي صغيرا^(٤).

(١) المقرئزي: السلوك، ج١، ق١، ص ٢٠٩.

(٢) أحمد شفيق: الرق في الإسلام، ص ٩٩.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٣٩.

(٤) أبا الفدا: المختصر، ج٣، ص ١٩٢، ابن تغرى: النجوم، ج٦، ص ٣٧٣.

وانتشر نظام التسري وتعدد الزوجات والذي كان سبباً قوياً في إضعاف الرباط الأسري في نهايات الدولة الأيوبية وبدايات دولة المماليك الأولى فقد كان من الصعب على زوج لأربع نساء وله العديد من الجواري والحظيات أن يهتم ببناته وأبنائه ومن هنا أصبحت الحياة الأسرية لطبقة المماليك تتميز بالتفكك والجمود والسطحية^(١).

كما تدل قصة مريم الزنارية إحدى قصص ألف ليلة وليلة على أن الجواري كثيراً ما كن يتعرضن للأذى بإعتبارهن سلعة تباع وتشترى من حق صاحبها التصرف فيها كيفما شاء، فتروى القصة أن مريم بيعت لأكثر من تاجر وتعرضت للضرب والإهانة والإغتصاب من قبل أحد التجار ثم قام ببيعها للآخر^(٢).

كما تدلنا ما أشارت إليه بعض قصص ألف ليلة وليلة أن الزوجة كانت في تلك الفترة قد اعتادت وتقبلت احتفاظ زوجها بالحظايا والجواري والسراري دون أن تبدى اعتراضاً رغم ما عرف عن المرأة من غيرة تدفعها في بعض الأحيان إلى قتل زوجها مثلما فعلت شجر الدر مع المعز أيبك^(٣).

(١) أحمد عبد الرازق: المرأة في مصر المملوكية، ص ١٠١ - ١٠٢.

(٢) رشدي صالح: ألف ليلة وليلة، حكاية على نور الدين المصري مع مريم الزنارية، جـ ١٧، ص ١٢٨٨، وما بعدها.

(٣) نفسه: حكاية قمر الزمان ابن الملك شهرمان، جـ ٦، ص ٤٢١، وما بعدها وحكاية علاء الدين أبي الشامات، جـ ٧، ص ٤٩٩، وما بعدها.

الوظائف والمهن التي تقلدها المماليك

ارتبطت الوظائف التي تقلدها المماليك في العصر الأيوبي بالسلطين فقاموا على أمورهم من خدمة وحراسة بشكل كبير وتمكنوا من أن يحوزوا ثقتهم ويثبتوا جدارة فيما كلفوا به من مهام، فمنحهم السلطين الرتب العالية وقلدوهم الوظائف الهامة مما جعلهم يشكلون عاملاً مهماً وأساسياً في إدارة شئون الحكم، بل أن يستقلوا به فيما بعد^(١)، وذلك على عكس ما كان موجوداً في البلاط العباسي أو عند الطولونيين والإخشيديين، حيث عملوا جنوداً في الجيوش ولم يتمكنوا من الوصول إلى الحكم كما حدث بعد ذلك في عهد المماليك.

وكان المماليك في العصر الأيوبي مثلما كانوا فيما بعد في عصر المماليك فقد قسموا إلى:

أولاً: المماليك السلطانية؛

وهؤلاء وصفهم القلقشندي بأنهم «أعظم الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرًا وأشدّهم إلى السلطان قربًا وأوفرهم إقطاعًا ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة وهم في العدة بحسب ما يؤثره السلطان من الكثرة والقلّة»^(٢).

ثانيًا: أجناد الحلقة؛

«وهم عدد جم وخلق كثير وربما يدخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم بواسطة النزول عن الإقطاعات وقد جرت عادة ديوان الجيش عدم الجمع على الجند كي لا يحاط بعدته ويطلع إليه»^(٣).

وقد ظهرت تلك التسمية في عهد صلاح الدين لتدل على الجنود الذين احترفوا الجندية وقيل أنهم سموا بذلك لأحاطتهم بالسلطان وقيل أنه اسم مشتق من تكتيك

(١) أحمد صادق سعد، تاريخ مصر الاجتماعي، ص ٣٨٤ - ٣٨٥.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥، وأنظر المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٦٥٢.

(٣) نفسه، ص ١٥ - ١٦.

عسكري استعمله الترك في الهجوم وذلك بالإحاطة بالعدو على شكل حلقة، هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يشكلون مجموعة أساسية في الجيش لا تتغير بتغير السلاطين^(١).

وكان أجناد الحلقة يقسمون إلى مجموعات فمنهم أمراء الألوف لوضعهم تحت إمرة أمراء الألوف، وكان يطلق عليهم أيضاً لقب الفرسان، والمثيين حيث يترأسهم أمراء المئات أو باش العسكر والأربعينات ويقوم على رأسهم مقدم الأجناد وتمتع الجميع بالتسجيل في ديوان الجيش والحق في الإقطاعات^(٢).

وأشرف عليهم النقباء الذين كان عليهم تفقدهم ومعرفة أحوالهم من حيث الغياب والحضور والحياة أو الموت^(٣).

وبالإضافة إلى المماليك السلطانية وأجناد الحلقة كانت هناك المماليك البحرية أو طائفة البحرية الذين كانوا يبيتون بالقلعة وحول دهايز السلطان في السفر كالحرس وهم مماليك الصالح نجم الدين أيوب^(٤).

وقد ذكر القلقشندي طائفة البحرية بعد المماليك السلطانية أجناد الحلقة مما يدل على أن هذا التقسيم كان من أنظمة العصر الأيوبي، فلم تقتصر مهمة المماليك من الأمراء على الناحية العسكرية بل كانت تسند لهم الوظائف المختلفة، وكان تقليد المملوك للوظيفة يأتي بعد تأميره، وكان التأمير من الأنظمة الأيوبية التي ورثها بعد ذلك المماليك في دولة المماليك البحرية وكان التأمير من حق السلطان وحده الذي يقوم به.

(١) أنظر ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ص ١٤٩، عبد الرحمن زكي، الجيش المصري من عين

جالوت إلى رشيد، ص ١٠، عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر، ص ١٨.

(٢) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري من عين جالوت إلى رشيد، ص ١١.

(٣) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة، ج ٢، ص ٢٩٣.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٦ - ١٧، أنظر المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢،

ص ٦٥٥.

مراسم التأمير:

- (١) كان السلطان يتفقد ممالكه فإذا ظهرت نجابة أحدهم أمره أي جعله أميراً^(١).
- (٢) كان التأمير يتم في حفل خاص.
- (٣) كان السلطان يمنح المملوك اللقب ويلبسه زياً خاصاً.
- (٤) كان السلطان يضع على رأسه الشربوش^(٢).
- (٥) تخلع عليه إحدى الوظائف الهامة.
- (٦) تعين له الإقطاعات.
- (٧) يمنح رنك خاصاً به^(٣).

وكان الرنك يوضع على البيوت والأماكن المملوكة لصاحبه كما يوضع على قماش خيوله من جوخ ملون مقصوص وعلى قماش جماله من خيوط صوف ملونة تنقسم على العبي وربما نقش على السيوف والأواني والأدوات الخشبية والمعدنية والزجاجية وقد صار الرنك حقاً وامتيازاً خاصاً بالأمراء وحدهم في عصر الأيوبيين والمماليك فضلاً عن السلطان^(٤).

وقد كان السلطان في أواخر العصر الأيوبي يمنح الرنك للمملوك عند تأميره فقد

(١) الأمير هو ذو الأمر أو المتسلط واستخدمت تلك اللفظة كاسم وظيفية أو للدلالة على طبقة أو رتبة أو كلقب فخري وقد وردت بهذه الدلالات المختلفة في الكتابات الأثرية على الآثار العربية، حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف، جـ ٢، ص ١١٥.

(٢) كان السلطان يلبسه الشربوش وهو شيء يشبه التاج كأنه شكل مثلث يجعل على الرأس يعني عمامة ويلبس معه على قدر رتبته أما ثوب بخ أو طرد وحش أو غيره وقد عرف بذلك سوق الشرابيش. المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٩٩.

(٣) اتخذت الرنوك في مراسم تقليد الأمراء في العصر الأيوبي والرنك كلمة فارسية بمعنى اللون ولكن الرنك كالشارة أو الشعار التي يميز بها الأمير نفسه عن غيره، وكان الرنك عبارة عن رسم لشيء معين حيوان أو طائر أو أداة كالدواء أو السيف وقد يتألف من منطقة واحدة أو ينقسم إلى منطقتين أو ثلاث مناطق أفقية وقد يكون من لون واحد أو من أكثر من لون، حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ ١، ص ١٧٠.

(٤) حسن الباشا: الفنون والوظائف، جـ ١، ص ١٧٠ - ١٧٢.

ذكر ابن تغري بردي أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب أمر مملوكه أيبك ومنحه رنكاً على هيئة خونجا^(١) (أي خوان).

ويبدو أن الرنك كان مرتبطاً بوظيفة صاحبه فحين أمر أيبك كان يشغل وظيفة جاشنكير للصالح أي ذواقه وقد أعطى رنكاً على هيئة خوانجا أي خوان^(٢).

وكان يعين لكل أمير ممالك في خدمته ويكلف بقيادة عدد من جنود الحلقة وكان لكل أمير عدد من الجنود ليس له حق استبدالهم إلا بشروط معينة وكان هؤلاء الأمراء هم الذين يقومون على خدمة السلطان وحمايته في الداخل والخارج وإدارة شئون السلطنة^(٣).

وقد عرفت لفظة الأمير كدلالة على مرتبة أو طبقة في الدولة الأيوبية في مصر وسوريا وكانت انتقلت إليها عن الأتابكة والفاطميين فقد ورثت الدولة الأيوبية النظامين النوري الأتابكي والفاطمي وقد ذكر جرديك بن عبد الله النوري على أنه من أكابر أمراء نور الدين^(٤) وذكر الحنبلي أنه أحد أكابر أمراء الدولتين النورية والصلاحية^(٥) وكان نور الدين ي كاتب صلاح الدين أثناء حكمه لمصر «بالأمير الإسفهلار»^(٦).

وقد شغل هؤلاء الأمراء المناصب والوظائف العسكرية المختلفة وكانوا على أربع طبقات:

-
- (١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، جـ ١، ص ٥.
 - (٢) الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٢٧٥، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ ١، ص ٥، حسن الباشا: الفنون والوظائف، جـ ٢، ص ١٧٢.
 - (٣) حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف، جـ ١، ص ١٧٥.
 - (٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، ق ٢، ص ٤٥٦، النويري، نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٧٥.
 - (٥) الحنبلي: شذرات، جـ ٤، ص ٣١٦، ابن تغري بردي، النجوم، جـ ٦، ص ١٤٣.
 - (٦) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢١٣، أبا الفدا: المختصر، جـ ٣، ص ٤٧، النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٥٩.

الطبقة الأولى:

«أمراء المنيين مقدموا الألوفاً وعدة كل منهم مائة فارس قال في «مسالك الأبصار» وربما زاد الواحد منهم العشرة والعشرين وله التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء وهذه الطبقة هي أعلى مراتب الأمراء على تقارب درجاتهم ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف والنواب»^(١).

الطبقة الثانية:

«أمراء الطبلخاناه»^(٢) والغالب أن عدة كل منهم أربعون قال في «مسالك الأبصار» وقد يزيد بعضهم على ذلك إلى سبعين فارساً وألا يكون الطبلخاناه لأقل من أربعين وهذه الطبقة لا ضابط لعدد أمرائها بل تتفاوت بالزيادة والنقص»^(٣).

الطبقة الثالثة:

«أمراء العشرات وعدة كل منهم عشرة فوارس قال في «مسالك الأبصار»، وربما كان فيهم من له عشرون فارساً ولا يعد إلا في أمراء العشرات وهذه الطبقة أيضاً لا ضابط لعدد أمرائها بل تزيد وتنقص»^(٤).

الطبقة الرابعة:

«أمراء الخمسات وهم أقل من القليل وأكثر ما يقع ذلك في أولاد الأمراء المندرجين بالوفاء رعاية لسلفهم وهم في الحقيقة أكابر الأجناد»^(٥). وظل نظام التأمير معروفاً عند الأيوبيين فكان المملوك يؤمر ثم يولى المناصب

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٤، مجهول، مخطوط شرح اللمعة، ص ١٥.

(٢) هي طبول متعددة معها أبواق وزمر مختلف الأصوات على إيقاع مخصوص تدق في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب وصحبة الطبل في الأسفار والحروب وهي رسم قديم للملك، مجهول، مخطوط شرح اللمعة، ص ١٤.

(٣) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ١٦، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٤ - ١٥.

(٤) نفسه، ص ١٦.

(٥) نفسه، ص ١٥ - ١٦.

الهامة وقيادة الجنود ويمنح الإقطاعات كما كان متبعًا عند السلاجقة والأتابكة ومن أوائل الأمراء المماليك في الدولة الأيوبية منكورش الأسدي الذي توفي في شوال سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م^(١) وكذلك يوجد كتابة أثرية بنص جنائزي بتاريخ ٥٩٨هـ / ١٢٠١م على عمود من الرخام بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة باسم الأمير زين الدين ابن الأمير حسام الدين الحاجب لؤلؤ^(٢).

كما تسمى به غالبية المماليك البحرية مثل الأمير فارس الدين أقطاي والأمير بيبرس البندقداري والأمير قلاوون الألفي والأمير سنقر الأشقر والأمير بيسري^(٣) والأمير علاء الدين البندقداري^(٤) كما ذكر المعز أيبك أنه صار أميرًا في حياة أستاذه الملك الصالح^(٥)، كما قيل عن شمس الدين ابن المقدم أنه أحد كبار الأمراء في دولة صلاح الدين^(٦).

وكذلك ذكر شمس الدين علي بن الدايه علي أنه من أكبر الأمراء النورية^(٧) وكذلك الأمير قراجا والأمير عز الدين أسامة والأمير فخر الدين جهاركس^(٨).

(١) المقرئزي: اتعاض، جـ ٣، ص ٣٢٢، حاشية ٣.

(٢) متحف الفن الإسلامي، سجل رقم ١١٧٠٣.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، جـ ١، ص ٧، ابن اياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ٢٩١ - ٢٩٢.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٢٠، ص ٤٤٠، المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ٢، ص ٣٩١ - ٣٩٢.

(٥) ابن اياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٦) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ١٢٢، حاشية ٣.

(٧) ابن الأثير: الكامل، جـ ١١، ص ٤٠٦.

(٨) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ١٧٥.

أنواع الوظائف والمهن التي تقلدها المماليك:

(١) النيابة:

ويلقب صاحبها بالنائب الكافل أو كافل الممالك الإسلامية^(١) وهو ينوب عن السلطان في كل شيء سواء التواقيع أو المناشير أي كل ما يعلم عليه السلطان^(٢) بخلاف سائر النواب الذين لا يوقعون إلا على ما يخص نيابتهم وأحياناً يلقب السلطان الثاني ويقوم بتعيين أرباب الوظائف كالوزارة وكتابة السر وهو يركب بالعسكر في أيام المراكب ويقوم الجميع على خدمته وعند وقوفه بين يدي السلطان يقف في ركن الإيوان فإذا انقضت الخدمة ذهب إلى دار النيابة بالقلعة والأمراء معه ويأتيه الناس لقضاء حوائجهم وبين يديه أرباب الوظائف وأمامه الحجاب وتقرأ عليه القصص ثم يمد السماط للأمراء كما يمد لهم السلطان فيأكلون وينصرفون وفي تلك الحالة لم يكن للسلطان اعتراض على قراءة القصص وسماع الشكاوي ويوقع على ما كتبه النائب بالعلامة الشريفة وكذلك كان النائب الكافل مشرفاً على كل أمور الجيش ويطلع السلطان على الأمور الخطيرة فقط وهذا النائب غير نائب الغيبة وهو الذي يتولى الأمور في غياب السلطان والنائب الكافل ودوره ينحصر في إخماد الثورات ورد الحقوق إلى أصحابها^(٣).

أتابك العساكر:

وأتابك بمعنى كبير أو رئيس والعساكر جمع عسكر أي جيش^(٤). وأصل تلك الكلمة فارسية ومعناها الوليد الأمير وأول من لقب بها نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي عندما فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥هـ /

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١٧، حاشية ١، سمي بذلك تمييزاً له عن نواب السلطان بالممالك الشامية.

(٢) مجهول، مخطوط شرح اللمعة، ص ١٧، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١٧.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١٧ - ١٨.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٦، ص ٢٠٨، حسن الباشا: الفنون والوظائف، ص ١٣.

١٠٧٢م كما قيل أن أطايك معناه أمير أب أو أبو الأمراء^(١)، أي أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل وصاحب هذه الوظيفة هو أشبه بالقائد العام للجيش وهي من أرقى الوظائف ومن أشهر أتابكة العساكر عز الدين أيبك في عهد شجر الدر^(٢).

أمير مجلس:

وهي أحد أهم الوظائف العسكرية في العصر الأيوبي، ومن المحتمل أنها انتقلت إليهم من السلاجقة والأتابكة^(٣).

ويعهد لصاحبها بترتيب مجلس السلطان وترتيب الحراسة الخاصة به سواء في داخل قصره أو حتى في حجرة نومه كما كان يشرف على أطباء القصر والكحاليين^(٤) وأمثالهم وكان دائماً من بين أمراء المئين مقدمي الأكل^(٥).

أمير سلاح:

اسم وظيفة يتألف من لفظة أمير ولفظة سلاح أي آلة القتال^(٦). وهو المسئول عن حمل السلاح للسلطان في الإحتفالات (المجامع الجامعة) وصاحبها أحد مقدمي السلاح داريه من المماليك السلطانية ويشرف على خزانة الأسلحة السلطانية وما يستعمل لها وما يقدم إليها ويكون واحداً من مقدمي الأكل^(٧).

(١) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ١٧، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج ١٩، ص ٧٥، حاشية ٣، حسن الباشا: الفنون والوظائف، ص ١٤ - ١٥.

(٣) حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ج ١، ص ٢٥٩.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٩، ج ٥، ص ٤٥٥، والكحاليين هم أطباء العيون، نفسه، ج ٤، ص ١٩، حاشية ٣.

(٥) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ١٧، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٩.

(٦) حسن الباشا: الفنون والوظائف، ج ١، ص ٢٥٥.

(٧) مجهول، مخطوط شرح اللمعة، ص ١٧، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨.

وكان من أشهر أمراء السلاح في العصر الأيوبي بكتاش الفخري^(١) أحد المماليك البحرية في عهد الصالح نجم الدين أيوب^(٢).
أمير أخور^(٣):

وهو المشرف على الأسطبلات السلطانية والخيول والبغال والجمال ويسكن بأسطبل السلطان وهو مقدم ألف ويساعده ثلاثة من أمراء الطبلخانة ويتبعهم العديد من أمراء العشرات والأجناد^(٤).

ومن أشهر من ولى في هذه الوظيفة في عهد الأيوبيين رسول أمير أخور الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب^(٥).

الدوا دار:

وتتألف من كلمتين «دواة» العربية ومعناها ما يكتب منه و«دار» بالفارسية

(١) الأمير بدر الدين، أمير سلاح الصالحى النجمي، كان مملوكاً لفخر الدين بن الشيخ فصار إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب وتقدم عنده وتآمر في أيامه وكان كريماً شجاعاً وكان وفاته سنة ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م المقرئزي، الخطط، ج٢، ص ٣١ - ٣٢.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج٢، ص ٣١ - ٣٢.

(٣) أمير أخور من أسماء الوظائف المتفرعة من لفظة أمير وهو اسم مركب من لفظة أمير العربية ولفظة أخور الفارسية ومعناها المعلق وتطلق على أمراء الدواب والقائمين على خدمتها في أسطبلات السلاطين، ومن أشهر من ولى هذه الوظيفة في العصر الأيوبي رسول أمير أخور الملك الكامل محمد بن العادل مؤسس أسرة بني رسول المعروفين بملوك اليمن وكانوا يقيمون بحصن تغز وانتقل هذا الاسم إلى الأيوبيين عن طريق الأتابكة والسلاجقة كما هو الحال في الكثير من الألقاب المماثلة المركبة من ألفاظ عربية وأخرى فارسية ولم يعرف هذا الاسم في دولة الفاطميين فقد كان القائم عليها يدعى راتص وانتقلت هذه الوظيفة من الأيوبيين إلى المماليك، حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف، ج١، ص ١٧٤ - ١٧٥، وكان يطلق عليه أخور سالار أيضاً وهي لفظة تركية تتألف من أخور بمعنى أسطبل وسالار بمعنى مشرف والمعنى الكلي مشرف الأسطبل وكان عليه الإشراف على الأسطبلات والعناية بالخيول وكانت تسند عادة إلى أحد المماليك وانتقلت إلى الأتابكة ثم الأيوبيين، نفسه، ص ٢٩.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٨.

(٥) المصدر السابق، ج٧، ص ٣٣٩.

وتعني ممسك أي ممسك الدواه أو الموكل بها وقد انتقلت هذه الوظيفة للأيوبيين عن طريق السلاجقة والأتابكة^(١).

وصاحبها مسئول عن تبليغ الرسائل عن السلطان إلى العامة وتبليغ السلطان بكافة الأمور وتقديم القصص إليه والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد مع أميرجانددار وكاتب السر ويأخذ الخط على كافة المناشير والتواقيع والكتب وإذا خرج عن السلطان بكتابة شيء بمرسوم حمل رسالته وعينت فيما يكتب^(٢).

أميرجانددار^(٣):

وتجمع جاندارية^(٤) وصاحبها أحد الممالك السلطانية الملازمين للسلطان من حرسه أو حاشية قصرة^(٥). وقد ظهرت هذه الوظيفة في عهد الأيوبيين أما في العصر الفاطمي فكانت «جانددار» فقط دون لفظة الأمير.

وكان من مهامه الإشراف على الزردخاناة وهو بمثابة معتقل (أي درجة أعلى من السجن) لأنه لا تطول به مدة المعتقل فإما يفرج عنه أو يقتل وكان هو المناط به تنفيذ العقوبة والقتل حسبما يأمره السلطان ومن هنا جاءت تسميته أمير جانددار أي الأمير الممسك للروح، وربما كانت تعني تلك اللفظة أن من مهامه حراسة السلطان في خروجه والطواف حوله في سفره صباحًا ومساءً^(٦) وتقع على صاحبها أيضًا مسئولية دخول الأمراء للخدمة والإستئذان في ذلك ويدخل أمامهم إلى الديوان ويقدم

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، حاشية ٦، حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ٢، ص ٥٢٠.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٩ - ٢٠.

(٣) وتتألف هذه الكلمة من ثلاث كلمات «أمير» وهي وظيفة للدلالة على طبقة أو رتبة أو كلقب فخري و«جان» الفارسية والتركية ومعناها الروح، و«دار» الفارسية ومعناها ممسك أي أن معناها الكلي الأمير الممسك للروح، أنظر القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٠، ٥٩، جـ٥، ص ٤٦١، وحسن الباشا: الفنون الإسلامية، جـ١، ص ١١٥، ١٩٦.

(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٦٥، حاشية ٣.

(٥) مجهول: مخطوط شرح اللمعة ص ١٨، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٠.

(٦) حسن الباشا: الفنون الإسلامية، جـ١، ص ١٩٦.

البريد مع الدوا دار وكاتب السر وجرت العادة أن يكون فيها أميران: مقدم ألف وطبلخاتاه وصاحب هذه الوظيفة هو المقدم^(١).

استادار:

فسر القلقشندي معنى هذه الكلمة أنها فارسية الأصل مركبة من «استد» بمعنى الأخذ و«دار» بمعنى ممسك، فيكون معناها «ممسك الأخذ» أو «متولي قبض المال»^(٢).

وكان شغلها في العصر الأيوبي أحد الأمراء العسكريين وكان من مهامه الإشراف على حاشية القصر وخدمه وتنظيمهم في الخدمة، فكان يشرف على إعداد السماط وما يتعلق بالمطبخ والشراب والمحافظة على المواد الغذائية المخزونة والتأكد من صلاحية الأطعمة كما كان من مهامه الإشراف على خزائن القصر التي تحوى الآلات والثياب كما كان عليه الإشراف على الخيام والفرش والإشراف على الاسطبل وغلمانه والحظائر كما كان من مهامه أيضًا الإشراف على جميع الممالك والمستخدمين كما كان عليه تنفيذ أوامر الخليفة الشخصية وإليه أمر الجاشنكيرية وإن كان كبيرهم نظيره في الإمرة من ذوي المنيين، وجرت العادة أن يكونوا أربعة واحد مقدم ألف وثلاثة طبلخاتاه وربما نقصوا، وكان صارم الدين قايماز النجمي مملوك نجم الدين أيوب استادار للسلطان صلاح الدين وكان جهاركس الخليلي أحد الأمراء الصالحة استادار للملك العزيز بمصر^(٣).

الجاشنكير:

اسم وظيفة مركب من لفظين فارسيين: أحدهما «جاشنا أو جاشني» ومعناه

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٠، مجهول، مخطوط شرح اللمعة، ص ١٨.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٥، ص ٤٥٧.

(٣) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ١٨، ابن خلكان: وفيات جـ ١، ص ٣٨١، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣، ص ٢٧، النويري، نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٢١ حاشية ١، ص ٤٥، حاشية ١، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١٩، حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف، جـ ١، ص ٣٩، ٤١.

الذوق والثاني «كبر» ومعناه المتعاطي لذلك أي إنها تعني المتذوق أو الذي يذوق^(١) وقد حرفته العامة إلى كلمة شيشني^(٢).

ومهمة صاحب هذه الوظيفة تذوق الطعام والشراب قبل تناول الخليفة له خوفاً من أن يكون هذا الطعام مسموماً لذلك كان له حق الإشراف الكامل على إعداد الطعام والشراب ومراقبة صناعيه للتأكد من إخلاصهم، ويقف على السماط مع استادار الصحبة وأكبرهم يكون من الأمراء المقدمين ومن أشهر من تولى هذه الوظيفة المعز أيبك حيث تولاها للملك الصالح نجم الدين أيوب^(٣).

خازندار:

اللفظ مكون من كلمتين الأولى «خزانة» العربية، والثانية «دار» الفارسية بمعنى ممسك، والمعنى الكلي ممسك الخزانة أو الموكل بالخزانة^(٤).

ولصاحبها الإشراف على خزائن الأموال السلطانية بما تحويه من أموال وأقمشة وغيرها وكان يليها أمير طبخاتاه ثم أصبحت لأمير ألف^(٥).

استادار الصحبة:

وهي إحدى الوظائف التي يليها الأمراء من العسكريين وصاحبها عادة أمير عشرة وربما يليها أيضاً أمير عشرين ومهمته الإشراف على الطعام والمشى أمامه والوقوف على السماط وتحت يده آخر يعبر عنه بالمشرف وله طباخ كبير يعبر عنه باسباسلار^(٦).

(١) حسن الباشا: الفنون والوظائف، ص ٣٤٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٥، ص ٤٦٠.

(٣) مجهول، مخطوط شرح اللمعة ص ١٩، الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٢٧٥.

(٤) النويري: نهاية الأرب، ص ١٥٩، حاشية ١، حسن الباشا، الفنون الإسلامية، جـ ١، ص ٤٥٣.

(٥) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ١٩، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢١.

(٦) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ١٩، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١٣، ٢٠.

مقدم الممالك:

كان لقب المقدم معروفاً في الدولة الأيوبية إذ كان يطلق على رؤساء طوائف الصنائع وأصحاب الحرف كما أطلق على قائد الجيش^(١) وكذلك على الأمراء الذين كانوا يتوجهون من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة وقبض الغلال فقد لقب هؤلاء بالأمراء المقدمون^(٢).

وكانت لصاحبها الكلمة المطاعة على الممالك السلطانية والحكم فيهم ولا يكون صاحبها إلا طواشيًا وكان من أشهرهم في العصر الأيوبي، الطواشي شمس الدين الصواب المتوفي سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م^(٣) وهو الملقب بالزمام وعادته أنه يكون أمير طبلخاتاه^(٤).

زمام الدور السلطانية:

ويكون صاحبها من أكبر الخدام الطواشية وهو المعبر عنه بالزمام وغالبًا ما يكون أمير طبلخاتاه^(٥). وكانت مهمته الإشراف على جميع حريم السلطان أو الأمير ومخاطبته بشأن ما يخصهن^(٦).

نقيب الجيوش:

وقد استخدمت تلك اللفظة لتدل على رتبة عسكرية في بعض الدول الإسلامية مثل الدولة العباسية والسلاجقة والأتابكة والأيوبيين^(٧).

وفي الدولة الأيوبية ودولة الممالك كان النقيب هو المسئول عن تحلية الجنود

(١) حسن الباشا: الفنون والوظائف، جـ ٣، ص ١١٢٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٨، ص ٢٣٠.

(٣) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٣١.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٢.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٢، المقرئزي، الخطط، جـ ٢، ص ٤٣١.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٢.

(٧) حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ ٣، ص ١٢٩٥.

عند عرضهم ومعه يمشي النقباء وإذا طلب السلطان أو النائب أو الحاجب أميرًا أو غيره أحضره وهو «كأحد الحجاب الصغار وله التطلب بالحراسة في المواكب والسفر»^(١).

شاد الناحية:

وهي من الوظائف التي وجدت في عهد الدولة الأيوبية ومهمة صاحبها الإشراف على الناحية وتدير أمورها والعمل على تثيرها وتعمير ما بها من ضياع^(٢).

شاد الدواوين:

وكان يرافق الوزير ومهمته استخلاص الأموال على من يعسر استخلاصه منه وذلك إما بالشدة أو باللين^(٣). وقد عرفت هذه الوظيفة في الدولة الأيوبية حيث تولاه الأمير علاء الدين بن الحصني^(٤).

أمير شكار:

وهي كلمة فارسية بمعنى صيد ، وقد شاعت تلك الوظيفة عند العباسيين والسلاجقة وانتقلت منهم إلى الأيوبيين والمماليك^(٥).

وصاحبها يكون مسئولاً عن الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها وأعمال الصيد السلطانية وأحواش الطيور وغيرها وهو أمير عشرة^(٦)، وأحياناً يلقب بأمير الصيد^(٧).

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٢.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ١١، ص ٤٧-٤٨، حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ ٢، ص ٦٠٥.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٢.

(٤) نفسه، جـ ١٢، ص ٣٢٤.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٣، حاشية ١، حسن الباشا، الفنون الإسلامية، جـ ١، ص ٢٢٨.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٣.

(٧) حسن الباشا: الفنون الإسلامية، جـ ١، ص ٢٢٩.

أمير الطير:

وطبر بالفارسية تعني فأس^(١) وصاحبها يكون حاملاً الطَّبر في المواكب، ويحكم على من دونه من الطَّبردارية الذين يمشون في المواكب حاملين الفؤوس، وعادتها إمرة عشرة أيضاً^(٢).

أمير علم:

اشتهرت هذه الوظيفة في عصر السلاجقة فكانت تسمى أمير العلم السلطاني، ومنها انتقلت إلى الأتابكة والأيوبيين^(٣). وكانت مهمته الإشراف على الأعلام السلطانية والطبلخاناه وأهلها وأدواتها وآلاتها من الطبول والأسواق، كما كان من مهامه أيضاً الوقوف على الطبلخاناه عند ضربها في كل ليلة وكذلك تولي أمرها في السفر والإحتياط عليها في الحرب وتحريك العساكر سواء بالإقدام والمبارزة أو بالإدبار حسبما تقتضى ظروف الحرب^(٤). وصاحبها غالباً ما يكون أمير عشرة^(٥).

حارس الطير:

ويكون صاحبها مسئولاً عن حراسة الطيور من الكراكي التي هي بصدد أن يصيدها السلطان في الأماكن التي تنزل بها الطيور من المزارع وغيرها ويكون صاحبها عادة أمير عشرة^(٦).

(١) نفسه، ص ٢٣٠.

(٢) مجهول: مخطوط شرح اللمعة ص ٢٠، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٣.

(٣) حسن الباشا: الفنون والوظائف، جـ ١، ص ٢٤٢.

(٤) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ٢٠، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١٣، ٢٢، ٢٣، جـ ٥، ص ٤٥٦.

(٥) مجهول: مخطوط شرح اللمعة ص ٢٠، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٣.

(٦) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ٢٠، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٣.

أمير حاجب:

وهي صيغة لوظيفة «حاجب»^(١) وهو من أركان الملك القديمة من الدولة الأيوبية^(٢).

ومهمة صاحبها أن ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعته النائب وإليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند وغيره وجرت العادة على خمسة حجاب اثنان من مقدمي الألوف وهما حاجب الحجاب^(٣) وصاحب الميسرة وثلاث طبليخانات^(٤).

اسباسلار:

وهو كبير الطباخين وقد عرفت هذه الوظيفة عند السلاجقة والأتابكة ومن بعدهم الأيوبيين، وكانت مهمته الإشراف على الطباخين في المطبخ السلطاني ومن مهامه إعداد الطعام للسلطان وحاشيته وتجهيز الأسمطة في أيام الإنتقالات وكذلك إعداد الولائم وكان يشرف عليه أمير يسمى استادار الصحبة وأميرًا آخر يسمى المشرف^(٥).

أخورسلار:

وهي لفظة تركية تتألف من جزئين الأول أخور وتعني اسطبل وسلار وتعني مشرف والمعنى الكلي مشرف الاسطبل.

وقد عرفت هذه الوظيفة عند السلاجقة ومهمة صاحبها الإشراف على

(١) حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ج١، ص ٢٠٦.

(٢) مجهول، مخطوط شرح اللمعة، ص ١٨.

(٣) وهو المشار إليه من الباب الشريف والقائم مقام النائب في كثير من الأمور وأول من استخدم هذا الاسم عبد الملك بن مروان الأموي لحجب السلطان عن العامة واغلاق الباب دونهم أو فتحه لهم وقتما يشاء السلطان وتبعه العباسيون في استخدام حاجب الحجاب، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٠.

(٤) مجهول: مخطوط شرح اللمعة ص ١٨، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٠.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٣.

الإسطبلات السلطانية بما في ذلك العناية بالخيل والسروج الخاصة بها، وكانت عادة تسند إلى أحد المماليك، وقد انتقلت إلى الأيوبيين بعد السلاجقة والأتابكة^(١).

جمدار:

وهذا الاسم مؤلف من جزئين: أحدهما من اللغة التركية جاما ومعناها الثوب^(٢)، والثانية دار الفارسية وتعني ممسك فيكون المعنى الكلي هو ممسك الثوب أو الوصيف الذي يلزم السلطان أو الأمير لإلباسه ثيابه ويشارك في حراسته كما اتخذ الأمراء أيضًا لكل منهم جمداريتة يتعهدون إلباسه ويلزمونه^(٣) ومن أشهر الجمدارية في العصر الأيوبي أقطاي الذي تولى هذه الوظيفة في عهد الصالح أيوب، فقد ذكر اسمه مقترنًا بلقب الجمدار^(٤). وكذلك كان الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي النجمي من أكبر جمدارية الصالح أيوب، وكان الجمدارية يبيتون عند السلطان ويسهرون بالنوبة وكلما انقضت نوبة مجموعة أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلسونهم ويقومون بلعب الشطرنج والأكل أو يقرأون في المصاحف حتى لا يغلبهم النوم^(٥).

الطشت دار:

وقد وجدت هذه الوظيفة في العصر الأيوبي فقد ذكر المقرئ أن العادل قد أعطى عبدًا أسود عمله طشت داره يعرف بابن كرسون منشورًا بخمسين فارساً^(٦) وهو المسئول عن تفرقة اللحم على المماليك السلطانية من الحوائج خاتاه وإقامة قبّاض اللحم وتحت يده عدة غلمان عرفوا بالطشت داريه أو بالرختوانيه ويطلق على كل من غلمان الطشت خاتاه وقبّاض اللحم بابا وهي لفظة رومية بمعنى الأب أطلقت

(١) الفلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٦، ص ١٧، وأنظر حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف، جـ ١، ص ٢٩.

(٢) الفلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٥، ص ٤٥٩.

(٣) الفلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٤٩، ٦١، جـ ٥، ص ٤٥٩.

(٤) ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٧٥، ابن تغري بردي: المنهل الصافي، جـ ١، ص ٧.

(٥) الفلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٤٩.

(٦) المقرئ: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ٢٩٤.

على مهتار الطشت خاناه تعظيماً له وهؤلاء الغلمان يتدربون على ترتيب الأحمال التي تحمل على ظهور البغال للزينة في المواكب العظيمة ونحوها «ويأتون فيها من بديع الصنعة والتعاليق الغريبة بكل عجب وهم يتباهون بذلك ويسامى بعضهم بعضاً فيه»^(١).

الولاية :

ويتولاها الوالي، وكانت الولاية والولاية قسمين: القسم الأول ولاية الشرطة الذين لقبوا في مصر بولاية الحرب وهم ثلاثة بالقاهرة والفسطاط المعروف بمصر والقرافة فأما والي القاهرة فيحكم في القاهرة وضواحيها وهو أكبر هؤلاء الثلاثة وأعلىهم رتبة ويكون عادة أمير طبلكاناه ووالي الفسطاط ويشرف على الأمور الخاصة بمصر مثلما يحكم والي القاهرة فيها ويكون أمير عشرة ووالي القرافة فيحكم في القرافة والتي تعتبر تربة هاتين المدينتين ويراجعه في تصرفاته والي مصر ويكون أمير عشرة والقسم الثاني هم ولاية القلعة وهم اثنان أحدهما والي القلعة وهو أمير طبلكاناه يشرف على باب القلعة الكبير الذي يعبر منه عامة العسكر والثاني والي باب القلعة ويكون أمير عشرة ويشرف على هذا الباب وأهله^(٢).

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٣، مجهول، مخطوط شرح اللمعة، ص ٢٠.

دور المماليك في إقامة

المنشآت والمؤسسات

شهدت مصر في العصر الأيوبي نهضة عمرانية كبيرة بالرغم من تخصيص الجزء الأكبر من موارد البلاد لتدعيم القوة العسكرية لمواجهة الصليبيين^(١). وأهتم الأيوبيون بالقاهرة وأضافوا الكثير إلى عمارتها، فأقاموا المدارس وأسسوا المكتبات، وبنوا القلاع والحصون، كما اهتموا بالعلم والعلماء، وشجعوا الفنون ووجهوا عنايتهم إلى مجالات التطور المختلفة فأقاموا العديد من المؤسسات. منها ما اتسم بالطابع الديني كالمساجد والخانقاوات والأربطة والزوايا، ومنها ما كانت له صبغة إجتماعية كالدروب والحمامات ومنها ما استهدف الرقي العملية التعليمية كالمدارس ومنها ما تميز بالطابع الإقتصادي كالخانات والأحكار والقياسر وغيرها^(٢).

وقد أسهم بعض المماليك في أعمال الخير بإقامة المنشآت الحيوية فقد أقام المماليك الأسدية والصلاحية بعض المؤسسات واقتدى بهم المماليك الصالحية النجمية^(٣)، فقد كان من بين هؤلاء المماليك من يعظمون الدين ويعملون على تثبيته فحبسوا بعض أموالهم على أعمال الخير وبناء المدارس إسهاماً منهم في الحياة الإجتماعية في مضر^(٤).

وقد تباينت أخلاق هؤلاء المماليك تبايناً غريباً أذهل الكثير من المؤرخين وجمعوا بين متناقضات كثيرة فرغم أن نشأتهم كآرقاء وبيعتهم كالسلع أثر في شخصياتهم وجعل لهم ميلاً للعنف والظلم وسفك الدماء فقد كان لديهم ميلاً أيضاً للفنون والعلوم والأدب والدين فكانوا شديدي التمسك بالدين الإسلامي يؤدون فرائضه

(١) سعيد عاشور: مصر في عصر الأيوبيين، ص ١٦٢.

(٢) سعيد عاشور: العلم بين المسجد والمدرسة، ص ١٥ - ١٦.

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ٩٦.

(٤) ويليام موير: تاريخ دولة المماليك، ص ١٨٨ - ١٨٩.

كاملة فأنشأوا المساجد والمدارس وغيرها من المنشآت^(١).

ولما كان الناس في كل العصور على دين ملوكهم فكان هؤلاء المماليك يتبعون سنة سلاطينهم في بناء المساجد والمدارس وغيرها^(٢). ويؤكد ذلك ابن دقماق إذ يقول: «لما عمر السلطان الملك الصالح قلعة جزيرة الروضة وصار في كل سنة يحفر هذا النهر بنفسه وجنده ويطرح بعض رمله في هذه البقعة شرع خواص السلطان الملك الصالح في العمارة على شاطئ هذا البحر فعمر الأمير فخر الدين عثمان بن قزل وولده نور الدين دار صاحب عماد الدين ولد صاحب فخر الدين بن الخليلى المنقلة إليه بالإبتياح من ذريتهما وعمر الشمس الضفيدة التي هي الآن لابن طيبرس الوزير والربع المجاور لها وبني المعز أيبك التركماني الذي ملك بعد أولاد السلطان الملك الصالح دار صاحب فخر الدين التي أوقفها خانقاه وبني التجيبي الدار التي هي الآن وقفاً على المارستان المنصوري وبني الطواشي شهاب الدين رشيد الدار التي عند الباب المجاور للفندق المذكور وعمر الأمير عز الدين أيدمر الصالحي في بعض بقعة هذا الجامع الآن منظره بأيوان كبير أمامه بستان وعمر فوق الأيوان رواقاً عظيماً وعمر بجوار سور البستان المعروف بالعالمية اسطبلًا كبيراً وبجواره بيوتات»^(٣).

كما اعتمد صلاح الدين على مملوكه الأسدي الصالحي بهاء الدين قراقوش في بناء قلعة الجبل والسور الذي أداره على مصر والقاهرة والقنطرة التي عند الأهرام^(٤) وكذلك كانت شجر الدر لها «بر ومعروف وإيثار وأوقاف على جهات بر وصدقة»^(٥).

(١) عبد الرحمن زكي: القاهرة، ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٢) المرجع السابق: ص ٨٦ - ٨٧.

(٣) ابن دقماق: الإنتصار بواسطة عقد الأمصار، ق ١، ص ٧٧.

(٤) الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٢٠٩، حاشية ١، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٥٤،

الحنبلي، شذرات، ج ٤، ص ٣٣١ - ٣٣٢.

(٥) ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٢٩٥.

وقد بنت شجر الدر التربة بطريق المشهد النفيسي^(١) فكانت ضريحاً لزوجها الصالح أيوب^(٢).

ومن الأسباب التي شجعت هؤلاء المماليك على إنشاء المدارس والمساجد غير إلتماس الأجر والثواب أنهم كانوا ينشأون في بلاط السلطان رقيقاً مبتاعين ولسلطانهم عليهم حق الولاء أو الرق فإذا توفي أحدهم وله مال أو ضياع فتؤول للسلطان دون أولاد هذا المملوك أو المولي ويحرم منها أبناءه فكان أحدهم إذا ولي منصب الإمرة وكثر ماله خشي أن تفاجئه المنية ويستولي السلطان على أملاكه ويتعرض أبناءه للفقر والحاجة فكان يبني المدارس أو الزوايا أو الربط ويقف عليها الأوقاف المغلة من ضياعه أو أبنيته ويجعل في شروط الأوقاف أن يتولاها بعض أولاده وله نصيب منها والأوقاف ثابتة فيطمئن بذلك على مستقبل أبنائه من بعده^(٣).

المساجد:

أسهم بعض المماليك في العصر الأيوبي في بناء المساجد ومنها:

مسجد جهاركس الصلاحي:

وهو أبو المنصور جهاركس بن عبد الله الناصري الصلاحي عمر مسجداً كبيراً وربعاً معلقاً^(٤).

مسجد فخر الدين بن قزل:

بناه فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومي استأدار الملك الكامل الأيوبي أمام المدرسة الفخرية بين سويقة صاحب ودرج العداس وقد ذكرها المقرئزي عند ذكره للمدرسة الفخرية وليس في تصنيفه للمساجد في مصر في كتابه الخطط^(٥).

(١) الملطي: نزهة الأساطين، ص ٦٨.

(٢) ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ١٨٤.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، ج ٣، ص ٢٠٢.

(٤) ابن خلكان: وفيات، ج ١، ص ٣٨١، المقرئزي: خطط، ج ٢، ص ٨٥.

(٥) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٦٦، Niel D. Mackenzi, Ayyubid p. ١٣٨.

مسجد صواب :

ويقع خارج القاهرة بخط الصليبية عرف بالطواشي شمس الدين صواب وكان
مقدم المماليك السلطانية وتوفي ثمان رجب سنة اثنتين وأربعين وستمائة ودفن
فيه^(١)

مسجد لؤلؤ الحاجب :

ويقع بالقرافة الصغرى: بني بجانبه مقبرة وحفر عندها بئراً^(٢). فقد أحب هؤلاء
المماليك المساهمة في بناء المساجد لأن المساجد كانت رمزاً لعزة الإسلام على مر
الدهور.

ثانياً: الخوانق والأربطة والزوايا :

الخوانق :

«الخوانق أو الخوانك جمع خاتكاه وهي كلمة فارسية معناها بيت وقيل أصلها
خونقاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك والخوانك ابتدعت في الدولة الإسلامية
حوالي سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م»^(٣).

وقد جعلت ليتعبد فيها الصوفية^(٤). والخوانق والأربطة والزوايا بمثابة معاهد

(١) المقرئ: الخطط جـ ٢، ص ٤٢١، Niel D. Machenzie, Ayyubid, Cairo P.138.

(٢) المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٤٥٤.

(٣) المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٤١٤، أنظر السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ٢، ص ٢٥٦،
حاشية ١.

(٤) الصوفية: تيار فكري تميزت به جماعات خاصة من العباد والزهاد وكانت لهم مواقف سلبية أحياناً
 وإيجابية أحياناً أخرى، وكان الصوفية يعرفون باسم القراء والزهاد والنسك، والصوفية حركة
 أدبية إلى جانب كونها حركة دينية ينقطع أصحابها إلى العبادة والزهد في كل متع الحياة، أنظر
 فتحية النبراوي، النظم والحضارة الإسلامية، ص ٢٤٩ - ٢٥٢، وللمزيد أنظر دولت عبد الله،
 معاهد تركية النفوس، ص ٣٨ - ٣٩.

دينية إسلامية خصص بها مكانًا للرجال وآخر للنساء^(١) وأنشئت خصيصًا لينقطع فيها ذوي العلم والزهاد والعباد^(٢).

ويعتبر تشييد الخوانق في بلد من بلدان الدولة الإسلامية تجسيدًا ماديًا وتعبيرًا خالدًا وتعريفًا بمبدأ وعقيدة فكانت الخوانق في العصر الأيوبي تعبيرًا صادقًا عن مدى ما وصل إليه الإسلام من سمو روحاني تمثل في هؤلاء الصوفية الذين اتقوا الله وصفت نفوسهم وكانت لهم أفكارهم الروحانية ذات الطابع الإسلامي الصادق فراعوا الله في تصرفاتهم الظاهرة والباطنة واقتدى بهم الكثير^(٣).

ولم تعرف الخوانق بمصر قبل العصر الأيوبي وأول من ابتكر إقامة تلك الخوانق السلطان صلاح الدين الأيوبي فأول خاتناه أقيمت كانت الخاتناه الصلاحية المعروفة بسعيد السعداء وهو لقب خادم للمستنصر الفاطمي اسمه قنبر وكانت تلك الدار ملكًا له ثم سكنها الصالح طلائع بن رزيق ثم سكنها شاور السعدي وزير العاضد ثم ولده الكامل ولما ملك صلاح الدين جعلها خاتناه^(٤) وكان إنشاؤها سنة ٥٦٩ هـ — / ١١٧٣ م^(٥) وأنشئت للفقهاء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة وولي عليهم شيخًا .. وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين دينارًا فما دونها كانت للفقراء ولا يحق للديوان السلطاني التعرض لها ومن أراد السفر يدفع له المال اللازم لسفره

(١) المقرئزي: السلوك، ج—٢، ق١، ص ١٨٢، حاشية ٤، وأنظر Neil D Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.140.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، ج—٢، ص ٢٥٦، حاشية ١، وأنظر: Neil O. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.140.

(٣) دولت عبد الله: معاهد تزكية النفوس، ص ٢٩، وقد ذكرت تلك الخوانق في إحدى وثائق العصر المملوكي وهي وثيقة بيبرس الجاشنكير على أنها بيوتًا للصوفية وثيقة بيبرس الجاشنكير ٧٣ محكمة، دار الوثائق المصرية.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج—٣، ص ٣٦٨، وأنظر Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.140.

(٥) المقرئزي: السلوك، ج—١، ق١، ص ١٨٢، حاشية ٤، دولت عبد الله: معاهد تزكية النفوس، ص ٣٧.

ورتب للصوفية كل يوم طعامًا ولحمًا وخبزًا وبني لهم حمامًا بجوارها فكانت أول خانقاه عرفت بمصر وسميت بدويرة الصوفية ولقب شيخها بشيخ الشيوخ^(١).

وقد كانت نظرة صلاح الدين بإنشاء تلك الخانقاه بعيدة وثاقبة فإنما اراد توثيق الصلة بين مصر وغيرها من البلاد الإسلامية فكانت تلك الخانقاه مأوى للكثير من الغرباء المقيمين بمصر من أهل السنة المتصوفين^(٢) وأقتدى المعز أيبك التركماني بصلاح الدين فبنى دار الصاحب فخر الدين ووقفها خانقاه^(٣).

كما أنشأ الأمير علاء الدين ايدكين البندقداري الصالحي النجمي مملوك السلطان الصالح نجم الدين أيوب خانقاه بالقرب من الصليبية في مكان يعرف قديمًا بدويرة مسعود وقد جعلها مسجدًا لله تعالى وخانقاه ورتب فيها صوفية وقراء وهو الذي ينسب إليه الملك الظاهر بيبرس البندقداري لأنه كان أولاً مملوكه ثم انتقل منه إلى الصالح نجم الدين أيوب^(٤).

الأربطة:

مفردتها رباط وجمعها أربطة أو رباطات أو ربط ويطلق لفظ الرباط، والذي هو لفظًا عربيًا في الأصل، على مكان إقامة الحامية المرابطة عند ثغور العدو^(٥).

وقد انبثقت فكرة الأربطة عن الخوانق فكانت للصوفية المتطرفين الذين يرفضون مواكبة التطور ولا يريدون التواجد مع الصوفية المعتدلين في الخوانق فأنشئت لهم تلك الأربطة وكذلك الزوايا^(٦).

(١) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ١، ص ١٨٢، وأنظر: Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.141.

(٢) دولت عبد الله: معاهد تزكية النفوس، ص ٣٧.

(٣) ابن دقماق: الإنتصار لواسطة عقد الأمصار، ق ١، ص ٧٧.

(٤) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٢٠، العبادي: قيام الدولة المماليك، ص ٩٦.

(٥) المقرئزي: السلوك، جـ ١، ق ١، حاشية ٤.

(٦) دولت عبد الله، معاهد تزكية النفوس، ص ٣٩، وأنظر Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.140.

تعددت مراحل تطور الرباط اختلف فيها دوره من مرحلة عسكرية حيث اعتبر بمثابة منشأة أقيمت للدفاع أو الإنذار ثم تحول إلى منشأة دينية وإجتماعية فقد كانت المراقبة نوعاً من الجهاد للزود عن حوزة الإسلام والمسلمين عملاً بما جاء في القرآن الكريم ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢)، فقد أقام المسلمون الأربطة في ثغورهم ومواقعهم المتاخمة للعدو في الشام ومصر على طول سواحل الخليج العربي وذلك أيام الفتوحات الإسلامية، كما أقيم العديد من تلك الأربطة في مواجهة البيزنطيين على الحدود السورية وشمال العراق وخراسان وغيرها من بلاد العدو (٣).

وبعد توقف حركة الفتوحات الإسلامية وسيطرة الأجناس غير العربية كالفرس والروم على الدولة العباسية ضعفت حركة الجهاد وانتشرت حركات الزهد والتصوف وتحولت الأربطة من وظيفتها العسكرية في الثغور وتحول طابعها العسكري وانتقلت من الثغور لتنشأ داخل الأقاليم والمدن وظلت تحمل نفس التسمية مع تغير مدلولها فصارت المراقبة تعني المداومة على الطاعة وانتظار إقامة الصلاة بعد الأخرى على اعتبار أن المرابطين بالرباطات يدفعون بدعائهم البلاء عن العباد والبلاد (٤).

وانتشرت الأربطة بهذا المفهوم الجديد في أنحاء العالم الإسلامي ومدنه بمصر وسوريا والعراق وغيرها وخضعت لإقامة الزهاد والمنقطعين وتحدثت عنها بعض الوثائق على أنها مأوى للجند البطالين الذين يصبحون بلا مورد للرزق بعد تبطلهم وانقطاع معاشهم أو سحب اقطاعاتهم وكذلك العتقاء (٥).

(١) سورة الأنفال، آية ٦٠.

(٢) سورة آل عمران، آية ٢٠٠.

(٣) محمد سيف النصر أبو الفتوح، منشآت الرعاية الإجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك، رسالة دكتوراه، جامعة أسيوط، كلية آداب سوهاج ١٩٨٠م، ص ٣٥٢.

(٤) السهروردي، عوارف المعارف، ص ٣٦٢.

(٥) وثيقة السلطان بيبرس الجاشنكير رقم ٧٣، محكمة.

كما يفهم دور تلك الأربطة الإجتماعي من وثيقة خاصة بالسلطان الناصر محمد ذكر فيها أن تلك الأربطة كانت بمثابة مكان يأوى إليه المسافرين القادمين إلى مصر من أنحاء العالم ويقيمون فيه للراحة من عناء السفر حيث يتمتعون بالإقامة المجانية لمدة ثلاثة أيام قابلة للزيادة بموافقة شيخ الرباط إذا رأى أن المسافر له ظروف خاصة يحتاج معها إلى مد مدة إقامته^(١).

وكان لتلك الأربطة دور إنساني واجتماعي متميز حيث عكس مدى سبق الحضارة الإسلامية في مجال الرعاية الإجتماعية فقد تم تخصيص البعض منها للنساء الأراامل والمطلقات والمسنات ممن لا عائل لهن ولا مأوى حيث يتم توفير الرعاية الشاملة لهن من إقامة ومأكل وملبس ومشرب حتى لا يضطرون إلى الإحراف مع مراقبتهم والتعرف على مدى مواظبتهم على أداء العبادات فتقيم الواحدة منهن في الرباط إلى أن تتزوج أو تعود إلى زوجها أو ينتهي أجلها، وانتشرت تلك الأنواع من الأربطة في المدن الإسلامية المختلفة وكان لمصر السبق في هذا المجال فانتشرت الأربطة بمصر والقاهرة فحمت الكثير من نساء مصر اللاتي تعرضن لتلك الظروف من مذلة السؤال أو الإحراف مع العمل على تثقيفهم في الدين والمداومة على الطاعة والعبادات وانتشرت تلك الأربطة في الفسطاط والقاهرة وخارجها^(٢).

وتسابق الناس في إقامة الأربطة وكان من المماليك من أقام الأربطة مثل قراقوش الذي عمر بالمقس رباطاً كما عرف أيضاً رباط الأمير عز الدين أيبك الصالحي النجمي المعروف بالأفقرم وهو يقع بحارة المجاتين فيما بين سوق القصاصيين المتصل بالسوق الكبير والرحبة بالمدرسة المعزية وكان الفقيه رشيد الدين أبو عبد الله البهنسي إمامه وشيخه إلى أن توفي فتاب عنه ولده ولهذا الرباط باب من ناحية المطابخ السلطانية^(٣).

(١) وثيقة السلطان الناصر محمد، رقم ٢٥، محكمة.

(٢) محمد سيف، منشآت الرعاية الإجتماعية، ص ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٩١ - ٩٢، ابن أيبك، كنز، ج ٧، ص ١٥١، النويري:-

كما وجد رباط الآثار وقد عرف بالرباط الصاحبى أنشأه الصاحب تاج الدين ابن الصاحب فخر الدين فيما بين عام ٦٤٠ - ٧٠٧هـ — / ١٢٤٢ - ١٣٠٧م بجوار بستان المعشوق الذي كان وقفاً عليه وكان به بعض من الآثار النبوية الشريفة التي اشتراها الصاحب تاج الدين من الشريف في ينبع بمبلغ مائتين وخمسين ألف درهم وجعلها في خزانة هذا الرباط للزيارة والتبرك وهي قطعة من العنزة وقطعة من القصعة ومروود وملقط ومخصف^(١) وكذلك رباط ابن قزل وهو الأمير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومي استأدار الملك الكامل محمد بن العادل وعمر هذا الرباط بالقرافة^(٢).

الزوايا:

كانت الدروس تقام في تلك الزوايا وكان الدارسون يلتفون حول الشيخ لينهلوا من العلوم ثم تطورت فأصبح لها طابع سياسي^(٣)، وذلك بعد أن شاع التصوف وظهر من المتصوفين المتطرفين الرافضين للإعتدال الذي وصف به صوفية الخوانق وانشئت تلك الزوايا ليمارسوا فيها أفكارهم وعقائدهم في إنعزالية تامة عن المجتمع الذي يعيشون فيه^(٤).

والزاوية هي في الأصل ركن البناء وكانت تعرف في بادئ الأمر في عهد الدولة الإسلامية على أنها مسجد صغير قد يلحق بمؤسسة أخرى وربما لا تقام فيه صلاة

= نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٣٠، المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٩٣، Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, P.138.

(١) ابن دقماق: الإنتصار لواسطة عقد الأمصار، جـ ٤، ص ١٠٢ - ١٠٣، القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٣٤٧.

(٢) المقرئزي: خطط، جـ ٢، ص ٣٦٦، وأنظر Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.138.

(٣) دولت عبد الله، معاهد تزكية النفوس، ص ٥٢.

(٤) دولت عبد الله، معاهد تزكية النفوس، ص ٧٥، Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.140.

الجمعة وإمام الزاوية هو الذي يؤم المصلين فيها^(١).

وكانت بعض الزوايا تنشأ بهدف إيواء الفقراء من طائفة معينة من الأغراب الذين كانوا يفدون إلى القاهرة كالأحباش والأعاجم وغيرهم، وقد ساهم بعض المماليك في إقامة زوايا في العصر الأيوبي ومنهم الطواشي بلال الفراجي الذي أنشأ زاوية لنفس الغرض أطلق عليها زاوية الخدام خارج باب النصر فيما بين شقة باب الفتوح من ناحية الحسينية وبين شقة الحسينية خارج باب النصر وقد جعلها وقفًا على الخدام الحبش الأجناد وكان ذلك سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م^(٢).

كما أنشأ أحد المماليك الصالحية النجمية وهو عز الدين أبيك الدمياطي الصالحي النجمي أحد الأمراء المقدمين أيام الملك الظاهر بيبرس زاوية الدمياطي التي نسبت إليه فيما بين خط السبع سقايات وقنطرة السد خارج مصر إلى جانب حوض السبيل المعد لشرب الدواب^(٣).

وكانت بعض الزوايا تنشأ لأفراد من الصلحاء وتحمل اسم ساكنيها أو منشئها كزاوية الشيخ خضر التي بناها له السلطان بيبرس البندقداري الذي كان شديد الإعتقاد فيه وكان دائم التردد عليه حتى أنه كان ينزل إليه مرة أو مرتين في كل أسبوع وقد أوقف عليها السلطان بيبرس أحكارًا تغل في السنة نحو ثلاثين ألف درهم^(٤).

وقد ذكر زين العابدين عبد القادر الأنصاري الخرجي أن الزوايا كانت بمثابة مكان لإيواء الفقراء دون شرط إنتمائهم لمذهب معين على أن يداوموا على العبادات فكان الفقراء يجدون بها كل أنواع الرعاية من إقامة وطعام، ويعين للزاوية إمام وخدام وبواب ويوفر بها طعام دائم للفقراء المجاورين والمترددون من ذلك ما جاء بالوثيقة «ويصرف في مصالح الزاوية برسم السادة الفقراء المقيمين والمجاورين

(١) حسن الباشا: الفنون الإسلامية الوظائف، ج ١، ص ٩٨، ١٠٨.

(٢) المقرئزي، خطط، ج ٢، ص ٤٣٢.

(٣) نفسه، ص ٤٣٠.

(٤) نفسه، ص ٤٢٩.

والمترددین من المتعبدین فی زمن الواقف، ومن غیرهم من المسلمین الکائنة بالرميلة تجاه الميدان السلطاني بالقرب من قلعة الجبل.. ويرتب إماماً فقیهاً من أي مذهب من أهل الخیر والدين یوم بالفقراء المجاورين ومن حضر معهم فی أوقات الصلاة المفروضات ... وأن يكون هذا الإمام المقرئ خادماً لما بها من الربعات والشریقات ویتولى مصالحها ویتعهد خزانتها، ویصرف للقیام بجميع ذلك فی كل شهر خمسون درهماً ويرتب الناظر والمترددین والمقیمین ویصرف له خمسون درهماً ویصرف فی كل يوم عشرة دراهم یشتری بها للفقراء المجاورین من الطعام أو من یقوم مقامها ما یقوم بأودهم برسم الغدا والعشا بحسب الأوقات»^(١).

الدروب:

وللممالیک الأسدية والصلاحية إلى جانب الخانات دروب ظل بعضها یحمل أسماءهم مدة من الزمان^(٢). ومنها:

درب الجاولي الكبير:

نسبة إلى الأمير عز الدين الجاولي الأسدي وكان یقع بجوار الجامع الأزهری^(٣).

درب الوشاقی:

نسبة إلى الأمير حسام الدين سنقر الوشاقی الصلاحي ویقع بحارة زويلة^(٤).

درب خاص ترك:

ویقع برحبة باب العيد وعرف بالأمیر الكبير ركن الدين بیبرس المعروف بخاص الترك الكبير^(٥)، وهو أحد أمراء الصالح نجم الدين أيوب أو بالأمیر عز الدين أيبك المعروف بخاص الترك الصغير سلاح دار الملك الظاهر ركن الدين بیبرس

(١) وثيقة زين الدين عبد القادر الأنصاري الخرجي، رقم ٥٦، محكمة، دار الوثائق المصرية.

(٢) العبادي: قیام دولة الممالیک، ص ٩٠.

(٣) المقریزی: خطط، ج ٢، ص ٤٢.

(٤) نفسه، ص ٤٣.

(٥) المقریزی، خطط، ج ٢، ص ٤٣.

البندقاري^(١) وكل تلك المنشآت إنما تدل على مقدار ما بلغه ممالك الأيوبيين من نفوذ وكثرة^(٢).

درب البنادين (درب أمير جاندار) :

بحارة الروم يعرف بالبنادين وهم جملة من طوائف العسكر في الدولة الفاطمية ثم عرف بدرب أميرجاندار وهو ينفذ إلى حمام الفاضل المرسوم بدخول الرجال. وأمير جاندار هذا هو الأمير علم الدين سنجر الصالحي المعروف بأمرير جاندار^(٣).

درب الرصاصي:

بحارة الديلم: هذا الدرب كان يعرف بحكر الأمير سيف الدين حسين بن أبي الهيجاء صهر بن رزيك من وزراء الدولة الفاطمية ثم عرف بحكر تاج الملك بدران بن الأمير سيف الدين المذكور ثم عرف بالأمير عز الدين أيبك الرصاصي^(٤).

الحمامات:

من أهم مظاهر الحياة في مدن الإسلام الحمام^(٥)، فقد ارتبط الحمام العام منذ نشأته بخدمة العقيدة على مر العصور ففي مصر الفرعونية على الرغم من أنه

(١) نفسه، ص ٤٣.

(٢) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٩١.

(٣) المقرئزي: ج ٢، ص ٤٠.

(٤) نفسه، ص ٤٠.

(٥) الحمام: قال ابن سيده الحمام والحريم والحميمة جميعاً الماء الحار والحميمة أيضاً المخفي إذا سخن وقد أحمه وحمه وكلما سخن فقد حم، قال ابن الأعرابي والحمام جمع الحميم الذي هو الماء الحار وهذا خطأ لأنه فعلاً لا يجمع على فعال وإما هو جمع الحميمة الذي هو الماء الحار لغة في الحميم مذكر وهو أحد ما جاء من الأسماء على فعال نحو القذاف والجبان والجمع حمامات قال سيبويه: جمعوه بالالف والتاء وإن كان مذكراً حيث لم يكسر جعلوا ذلك عوضاً عن التفسير والاستحمام الاغتسال بالماء الحار وقيل هو الاغتسال بأي ما كان والحميم العرق واستحم الرجل عرق وأما قولهم لداخل الحمام إذا خرج طاب حميمك فقد يعني به العرق أي طاب عرقك وإذا دعي له بطيب العرق فقد دعي له بالصحة لأن الصحيح يطيب عرقه، المقرئزي، خطط، ج ٢، ص ٧٩.

ليست هناك أدلة على معرفة الحمام العام عند أفراد الشعب إلا أنه وجدت حمامات ملحقة بالمعابد يستخدمها الكهنة للتطهر قبل إجراء الطقوس وإجراء طقوس التطهير^(١).

وقد ارتبطت بالحمامات العامة الكثير من الخرافات والأساطير المتوارثة والتي تناقلتها الأجيال من أن الجان يتخذون من قباب الحمام سكناً لهم وسيطر ذلك الإعتقاد على عقول الناس في العصور الوسطى فكان يوصى بعدم الصياح في الحمام فيما بين المغرب والعشاء لأنه وقت إنتشار أو تواجد الشياطين^(٢).

وربما يكون هذا الإعتقاد راجعاً إلى العصر اليوناني حيث كان يقام نوع من الحمامات لعبادة الآلهة أفروديت آلهة الحب والجمال والعائلة وكان يطلق على تلك الحمامات اسم (Nymphium) أي مكان سباحة الجنيات فكانت تقوم الجوارى المقدسات Nymphe بأداء الطقوس الدينية ومنها السباحة في هذه الحمامات وكان الحضور لمشاهدة هذه الطقوس بمثابة نوعاً من أنواع العبادة وقد اكتشف بمصر حمامات مماثلة لتلك^(٣).

وعند الرومان كان الحمام العام هو المعبد الذي يقيمون فيه شعائر عبادة البدن والتي كانت من أقرب العبادات إليهم وكان من الشائع أن عمليات الإستحمام تحلل قوى البدن الحيوانية والطبيعية والنفسية ولإستعادة هذه القوى وتقويتها يقومون بالرسم على جدران الحمامات صوراً ونقوشاً ورسوماً معتقدين في قواه السحرية وكان من تلك الرسوم والصور مناظر الصيد والإستحمام والشرب والأبراج الفلكية وغيرها^(٤).

وكان للحمامات العامة دوراً رئيسياً وبارزاً في المجتمع المصري الإسلامي فقد

(١) محمد سيف النصر: منشآت الرعاية الإجتماعية، ص ١٦٠.

(٢) ابن الأخوة: معالم القرية في أحكام الحسبة، ص ٢٤١.

(٣) أرسطو: مخطوط سر الأسرار (السياسية والفراسة في تدبير الرئاسة)، ص ١١٧ - ١١٨.

(٤) محمد سيف: منشآت الرعاية الإجتماعية، ص ١٦١.

كان الجامع والسوق والحمام نواة رئيسية لنشأة أية مدينة إسلامية^(١).

وقد جعل الإسلام الطهارة شرطاً أساسياً لإقامة شعائره فقد حث القرآن والسنة المسلمين على الإهتمام بالنظافة الشخصية والصحة العامة وتطهير الجسم ونظافته وتجلّى ذلك في فرض الوضوء على المسلمين عند كل صلاة، فقد صار الحمام من المنشآت العامة وأصبح ضرورة من ضروريات الحياة اليومية^(٢).

وعرف العرب الإستحمام بالماء الساخن في صدر الإسلام وربما عرفوه من إختلاطهم بالمصريين والسوريين عند فتحهم لبلادهم^(٣).

وقد ذكر القلقشندي أن عمرو بن العاص كان مندهشاً بعد فتحه لمصر بما رآه من أبنيه وحمامات فقد بعث برسالة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائلاً: «أما بعد، فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أنني أصبت فيها أربعة آلاف بنية وأربعة آلاف حمام...»^(٤).

في حين ذكر المقرئ أن أول حمام أنشئ في الفسطاط بناه عمرو بن العاص بسوقة المغاربة وكان يسمى حمام الفأر لأنه كان ضيقاً ثم ازدادت عدد الحمامات بها حتى وصل ألف ومائة وسبعون حماماً.

ويبدو أن عمرو بن العاص كان يقصد بقوله عدد الحمامات في مصر كلها وليس الفسطاط فقط، وهذا يدل على مدى اهتمام المصريين في ذلك الوقت بالحمامات لأن هذا العدد إذا قورن بتعداد السكان في تلك الفترة فإنه يدل على مدى اهتمام المصريين الشديد ببناء هذه الحمامات والحرص على التأنيق في بنائها.

أما في القاهرة فالخليفة العزيز بالله أول من بني بها الحمامات التي أصبح عددها في نهاية القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ثمانون حماماً^(٥).

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٩٤.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ ٤، ص ٥٦٦ - ٥٦٧.

(٣) نفسه: ص ٥٦٦ - ٥٦٧.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٣٢٣.

(٥) المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٨٠.

فقد زار المؤرخ العلامة عبد اللطيف البغدادي القاهرة في عهد الأيوبيين ووصفها وصفاً دقيقاً وأشار على ما حظت به الحمامات من عناية فائقة فذكر أن «أحواضها يسع الواحد منها ما بين روايتين إلى أربع روايا وأكثر من ذلك يصب فيه ميزابان بخاخان حار وبارد وقبل ذلك يصب الميزابان في حوض صغير جداً مرتفع فإذا اختلطا فيه جرى منه الماء إلى الحوض الكبير وهذا الحوض يقع نحو ربعه فوق الأرض وسائره في عمقها ينزل إليه المستحم فيغتسل فيه، وداخل الحمام مقاصير بأبواب وبالحمام أيضاً مقاصير لأرباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم، وفي وسط الحمام بكرة مرخمة عليها أعمدة وقبة. وجميع ذلك مزوق السقوف مبيض الجدران وجرى ترخيم الأرض بأصناف الرخام المجزع، وهو مع ذلك كثير الضياء رائع الأصباغ بحيث إذا دخله الإنسان لم يؤثر الخروج منه»^(١).

وفي إحدى الوثائق المنسوبة للملك العادل والمؤرخة في سنة ٦١١هـ/١٢١٤م نجد وصف لإحدى حمامات العصر الأيوبي وإن كان مختصر وهو حمام البيمارستان ورغم أن هذا الوصف يخلو من التفاصيل إلا أن له أهمية خاصة حيث أنه دون في وثيقة وقف الملك العادل ووصف بأنه حمام صغير كان مخصصاً للرجال ويشتمل إلى جانب الإيوانات الثلاثة في بيت الحرارة على أحواض ومطاهر ومستوقد وقُدود ومجاري صرف الماء المستعمل^(٢).

العاملون بالحمام:

تعددت وظائف القائمين على الخدمة بالحمامات العامة في مصر كما تعددت مسمياتهم وألقابهم حسب تخصصاتهم والوظيفة التي يؤدونها داخل الحمام فمنهم:

الحمامي:

وهو مستغل الحمام ومديره ويسمى أحياناً المدولب^(٣) وهو الذي يستأجر الحمام

(١) عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ٣٨ - ٤١.

(٢) وثيقة الملك العادل رقم ٢، محفظة ١، وثائق.

(٣) نفسه.

من ناظر الوقف أو صاحبه حيث كانت معظم الحمامات تنشأ لتوقف لصالح منشآت ومؤسسات أخرى كالمدارس والبيمارستانات وغيرها لتدر دخلاً ثابتاً من الأجرة التي يدفعها الحمامي فتتفق على تلك المؤسسات^(١) كما أطلق عليه اسم التابوتي حيث يوجد بالمثلج مصطبة خاصة لوضع التابوت كما خصص مقطع للتابوتي أي المشرف على التابوت الذي يتولى حفظ أمتعة الزبائن بالتابوت (الصندوق الذي يوضع به أمتعة الزبائن) وتسليمها لهم بعد إنتهائهم من الإستحمام كما يطلق عليه الآن معلم الحمام أو المعلم^(٢).

القيم:

ويطلق عليه أيضاً القائم وهذه الوظيفة ليست خاصة بالحمامات فقد وجد قائم بيت المال وقائم دار العلم وقيم المدرسة وقيم الرباط^(٣)، وهو يشبه المدلك في الحمام ويجب عليه أن يكون متقناً لصنعتة «يغض طرفه ويخشن كفه ويتعهد أرض الحمام بالكنس ويتردد لغسل الخاص العام يعم الرأس حكه والجسم دلكه وعليه أن يحرص ألا يجلس الكرام إلى جانب اللنام وكان يقوم بعمليات التجميل وإزالة الجلد الميت من القدمين بواسطة حجر الخفاف» .

وكان المحتسب يأمر المدلك بأن يدلك يده بقشور الرمان لتصير خشنة فتخرج الأوساخ ويستلذ بها المستحم^(٤).

الناطور:

والناطور لغة هو الحافظ والحارس الناظر والناطور وهي حافظ الكرم والنخل أعجمي تجمع على نطار ونطراء ونواطير ونظر^(٥) ويشترط فيه صفات معينة وهي

(١) محمد سيف عبد الفتاح: منشآت الرعاية الإجتماعية، ص ١٨٣.

(٢) نفسه، ص ١٨٣.

(٣) ابن سعيد المغربي: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، ص ٣١٨ - ٣٢٠.

(٤) الشيرزي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ٨٩.

(٥) الشيرزي، القاموس المحيط، جـ ١١، ص ١٢٠.

الأمانة والنظافة وحسن الخلق وبشاشة الوجه فعليه أن يقوم بتحية الداخلين إلى الحمام كما أن عليه أن يدعو للخارجين منه وهو الذي يقدم المناشف للمستحمين وعليه أن يحرص على أن تكون نظيفة كما يقدم أيضا أحجار التخفيف لإزالة الجلد الزائد^(١).

المزين:

وهو الذي يقوم بالحلاقة للزبائن كما يتولى أيضا عمليات الختان^(٢).

الوقاد:

وهو الذي يقوم بإمداد جورة النار بالوقود لتسخين قدور الماء^(٣).

السواق:

يقوم بإدارة الساقية وسوق البقر كما يتعهدا بالإصلاح وإحضار السلب والدلاء وغيرها من الأدوات اللازمة لرفع الماء لملئ الصهريج لضمان استمرار إمداد القدور بالماء^(٤).

الزبال:

وعليه القيام بإحضار الوقود اللازم لبيت النار وهو غالبًا ما يكون من زباله الحي^(٥).

وقد ساهم المماليك في إقامة الحمامات العامة ومن أشهر تلك الحمامات في العصر الأيوبي:

حمام تتر:

كانت تقع هذه الحمام بخط دار الوزارة الكبرى وتتر هذا أحد ممالك أسد

(١) محمد سيف عبد الفتاح: منشآت الرعاية الاجتماعية، ص ١٨٤ - ١٨٥.

(٢) المرجع السابق: ص ١٨٥.

(٣) المرجع السابق، ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٤) المرجع السابق، ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٥) المرجع السابق، ص ١٨٥ - ١٨٦.

الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين الأيوبي وقد استولى على ذلك الحمام الذي كان معداً لدار الوزارة في مدة الدولة الفاطمية فعرف به وما حوله حتى يقال عن ذلك المكان خرائب^(١).

حمام كرجي:

ويقع بخط خرائب تتر أيضاً وينسب إلى الأمير علم الدين كرجي الأسدي أحد أمراء الأسدية في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد خرب بعدهم^(٢).

حمام السلطان:

وكان موضعها قديماً من جملة دار الديباج وقد أنشأها الأمير فخر الدين عثمان بن قزل استادار السلطان الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب^(٣).

حماما طغريك:

يقعا بجوار فندق فخر الدين بالقرب من سوق حارة الوزيرية وقد قام بإنشائهما الأمير حسام الدين طغريك المهراني أحد الأمراء الأيوبية^(٤).

حمام عجينة:

وتقع هذه الحمام بخط الأكفانيين وقد أنشأه الأمير فخر الدين أخو الأمير عز الدين موسك في الدولة الأيوبية وظلت ملكيته تنتقل حتى آل إلى أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقداري^(٥).

(١) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٨٠، وأنظر: Neil D. Mackenzie, Ayyubid, Cairo p96.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٩ - ٨٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٨١.

(٤) المقرئزي، الخطط، جـ ٢، ص ٨١، Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo p.97.

(٥) نفسه، ص ٨١.

حمام الرصاصي:

كان يقع هذا الحمام بحارة الديلم وأنشأه الأمير سيف الدين حسين بن أبي الهيجاء المرواني حامل السيف المنصور وأوقفه وما حوله على أولاده وذريته فلما زالت الدولة الفاطمية عرف بالأمير عز الدين أبيك الرصاصي^(١).

حمام بن علكان:

ويقع بحارة الجودرية وقد أنشأه الأمير شجاع الدين عثمان بن علكان صهر الأمير الكبير فخر الدين عثمان بن قزل ثم انتقلت ملكيته إلى الأمير علم الدين سنجر الصيرفي الصالح النجمي^(٢).

حمام كتبغا الأسدي:

وهو أحد الأمراء الأسدية وكان يقع هذا الحمام بخط ما بين القصرين^(٣).

حمام الرومي:

ويقع بجوار حارة برجوان وعرف بالأمير سنقر الرومي الصالح النجمي أحد مماليك نجم الدين أيوب البحرية والذي ترقى عنده في الخدم حتى صار جامدار، وكان من خوشدأشيه بيبرس البندقداري وأصدقائه وقد أنشأ هذا الحمام بجوار اسطبله الذي يعرف باسطبل ابن الكويك وذلك تجاه رجة داره التي عرفت بدار مازن^(٤).

حمام الجويني:

ويقع بجوار حمام ابن الكويك فيما بينها وبين البندقانيين عرفت بالأمير عز الدين إبراهيم بن محمد بن الجويني والي القاهرة في أيام الملك العادل أبي بكر بن

(١) نفسه، ص ٨١، نفسه p.96.

(٢) نفسه، ص ٨٢، نفسه p. 98.

(٣) نفسه، ص ٨٢.

(٤) المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٨٢، وأنظر: Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.98.

أيوب توفي سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م وأنشأه بجوار داره فعرف باسم حمام الجهيني^(١).

حمام الأفرم:

أنشأه الأمير عز الدين الأفرم بظاهر باب القنطرة وأنشأ حمامًا آخر بجوار داره بخط دار الملك^(٢).

وذكر المقرئ أن شجر الدر بنت حمات بالقرب من مشهد السيدة نفيسة^(٣).

حمام الدود:

هذا الحمام خارج باب زويلة في الشارع تجاه زقاق خان حلب بجوار حوض سعد الدين مسعود بن هنس عرف بالأمير سيف الدين الدود الجاشنكيرى أحد أمراء الملك المعز أيبك التركمانى وخال ولده الملك المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك^(٤)، وجاء وصفه في وثيقة وقف السلطان قايتباي أنه كان مزدوجًا حيث يشمل حمامين أحدهما للنساء والآخر للرجال وهما ملاصقين ولهما مستودع واحد وكان يدخل إلى حمام الرجال بواسطة دهليز يفتح على المسلخ وكان بالمسلخ ثلاثة مقصورات صغيرة (مقاطع) تعلوها ثلاثة آخر تطل عليه ويصعد إليها بسلم وعلى جوانب المسلخ أربعة مساطب ودرابزين من الخشب ويتوسط المسلخ نافورة (فسقية) تعلوها منور (شخشيخة) على أربعة أعمدة من الرخام وأرض المسلخ مفروشة بالبلاط الرخام الملون وبأحد جوانب المسلخ يفتح بابين أحدهما باب دورة مياه والثاني يؤدي إلى دهليز مفروش بالرخام الملون بسقفه قبو به جامات مغطاه بالزجاج الملون يؤدي إلى بيت أول وبهذا الدهليز خلوة صغيرة تجاه الداخل

(١) المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٨٣.

(٢) ابن دقماق: الانتصار بواسطة عقد الأمصار، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٣) المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٢٠.

(٤) نفسه، جـ ٢، ص ٨٤.

مخصصة للأغراض العلاجية حيث نصت الوثيقة على أنها خلوة دواء^(١).

حمام لؤلؤ:

ويقع هذا الحمام برأس رحبة الأيدمرى ملاصقة لدار السناني من القاهرة أنشأه الأمير حسام الدين لؤلؤ الحاجب وكان أرمني الأصل من جملة أجناد مصر أيام الفاطميين فلما استولى صلاح الدين الأيوبي على السلطنة انضم إلى خدمته وكان كثير التصديق قائماً على فعل المعروف^(٢).

المدارس^(٣):

استحدثت المدارس في أوائل القرن الرابع الهجري ولم تكن تعرف زمن الصحابة والتابعين.

وكان أول من أنشأ مدرسة في الإسلام أهل نيسابور وهي المدرسة البيهقية كما أنشأ الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة، وكذلك بني أخيه محمود بن سبكتكين مدرسة

(١) وثيقة السلطان قايتباي، رقم ٨٨٦، وقف دار الوثائق، وجدير بالذكر أن هذا الحمام لا زال موجوداً إلى وقتنا هذا ويقع في شارع محمد علي عند تقاطعه مع شارع الحليمية

(٢) المقرئزي: خطط، جـ ٢، ص ٨٥، وأنظر: Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p/97.

(٣) قال ابن سيده درس الكتاب يدرسه درساً ودراسة ودارسه من ذلك كانه عاوده حتى إنقاده لحفظه وقد قرئ بها وليقولوا درست ودارست ذاكرتهم وحكى درست أي قرئت وقرئت درست أي هذه أخبار قد عفت وانمحت ودرست أشد مبالغة والدارس والمدارس وقال ابن جني ودرسته أياه ودرسته ومن الشاذ قراءة ابن حيوة وبما كنتم تدرسون والمدرس الموضع الذي يدرس فيه، المقرئزي، الخطط، جـ ٢، ص ٣٦٢، والمدرسة كما يتبين من مدلولها اللغوي تدل على أنها أخص من المسجد من حيث كونها موضع للتدريس وإن كانت تتسع للسجود أيضاً، وإن كان للسجود فكرة منبثقة من الفكرة الأصلية للمدرسة، وهو مكان تلقى فيه الدروس، دولت عبد الله: معاهد تزكية النفوس، ص ٧ - ٦٢، وكانت المدرسة غالباً تسمى باسم منشئها وكان يأتيها يوقف عليها من الأوقاف ما يكفي للإتياف على مدرسيها وطلبتها وباقي مستخدميها وعلى إصلاحها والمستخدمون فيها هم ناظر وقفها ومدرسوها والمشرف على خدمتها والخدم، أحمد بدوي، الحياة العلمية في عصر الحروب الصليبية، ص ٧٥ - ٧٦.

إلى جانب المدرسة السعدية التي أنشأها إلى جانب مدرسة رابعة^(١).

وقد أقام بعض المؤسسين المدارس الخاصة بهم لإملاء الحديث أو لإلقاء محاضرات الفقه من ذلك ما يقال أن أبا حاكم محمد بن حيان البستي - نسبة إلى بست - المتوفي سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م اتخذ من داره مدرسة لأصحابه وأفرد فيها مكاناً ليسكن فيه الطلاب الغرباء الذين يدرسون الحديث والفقه وأنشأ بها خزانة للكتب وضع بها كل ما يملك من الكتب وأقام عليها خزاناً يقوم بمناولة الكتب لمن يريد القراءة أو النسخ وشرط عليه عدم إخراج أي كتب خارج المدرسة وكان للطلبة الدارسين بها بعض الجرايات الخاصة بنفقتهم^(٢)، ولكن كانت أشهر المدارس التي بنيت في تلك الفترة المدرسة النظامية ببغداد والتي اعتبرها بعض المؤرخين أول مدرسة في الإسلام^(٣) لأنها الأولى التي «قرر بها للفقهاء معاليم»^(٤) وسميت كذلك نسبة إلى منشئها وهو الوزير نظام الملك الطوسي^(٥) وقد بناها في مدينة بغداد سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٤م وانتهى من بنائها سنة ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م وقام بالتدريس فيها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي الفيروز أبادي صاحب كتاب «التنبيه في الفقه» على مذهب الإمام الشافعي واقتدى الناس به في المشرق وخاصة في العراق وخراسان وما وراء النهر وبلاد الجزيرة وديار بكر وقاموا بإنشاء المدارس وفي تلك الفترة كانت مصر بيد الخلفاء الفاطميين وكانوا يدينون بالمذهب الشيعي الإسماعيلي^(٦) وكان الطلاب يتلقون أصول المذهب الشيعي في الجامع الأزهر^(٧).

وقد تنافس الملوك والسلاطين في بناء المدارس بإعتبارها مراكز للعلم والثقافة

(١) المقرئزي: الخطط، ج-٢، ص ٢٦٣.

(٢) عفاف صبرة: المدارس في العصر الأيوبي، ندوة المدارس، ص ١٤٢.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، ج-٣، ص ٢٠٠.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج-٢، ص ٣٦٣.

(٥) ابن علي بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي، وزير ملك شاه بن الب أرسلان بن داود بن

ميكال بن سلجوق في بغداد، المقرئزي: خطط، ج-٢، ص ٣٦٣.

(٦) المقرئزي: الخطط، ج-٢، ص ٣٦٣.

(٧) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، ج-٣، ص ٢٠٣.

والإشعاع الحضاري، وحاولوا تقليد نظام الملك في إنشائه للنظامية فكانت المدرسة الأتابكية التي أنشأها سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي بالموصل في منتصف القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي كما أنشأ نور الدين محمود الكثير من المدارس في بلاد الشام^(١).

وأول ما عرفت المدارس في مصر في العصر الفاطمي في عهد العزيز بالله نزار بن المعز في وزارة يعقوب بن كلس «وأول ما عرف إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر في خلافة العزيز بالله نزار بن المعز ووزارة يعقوب بن كلس فعمل ذلك بالجامع الأزهر ثم عمل في دار الوزير يعقوب بن كلس مجلس يحضره الفقهاء فكان يقرأ فيه كتاب فقه على مذهبهم وعمل أيضا مجلس بجامع عمرو بن العاص من مدينة فسطاط مصر لقراءة كتاب الوزير ثم بنى الحاكم بأمر الله أبو علي منصور بن العزيز دار العلم بالقاهرة»^(٢).

ورغم محاولات الفاطميين المتعددة للقضاء على دراسة المذهب السني وفقهه في مصر إلا أن الظروف السياسية التي شهدتها مصر في أخريات العصر الفاطمي شجعت أهل المذهب السني على إقامة حلقات تدريس مذهبهم في جامع الفسطاط^(٣)، ثم أنشئت مدرسة في الإسكندرية كان التدريس فيها على مذهب المالكية في أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي^(٤).

كما أنشئت مدرستان سنيتان هما مدرسة الوزير رضوان بن الولخشى سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م وعرفت بالصوفية نسبة إلى الفقيه المالكي أبي طاهر بن عوف الذي قام بالتدريس فيها^(٥).

(١) عفاف صبرة: المدارس في العصر الأيوبي، ندوة المدارس، ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٦٣.

(٣) عفاف صبرة: المدارس في العصر الأيوبي، ندوة المدارس، ص ١٤٦ - ١٤٧، أيمن فؤاد سيد:

المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، ص ٢١٦ - ١١٩.

(٤) أيمن فؤاد سيد: المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، ص ١٢٠.

(٥) سعيد عاشور: العلم بين المسجد والمدرسة، ندوة المدارس، ص ٢٤.

وقد استمدت المدارس كيائها ونظامها من كيان المساجد الجامعة ونظمها فهي حلقات متصلة من التطور وقد اتخذت اسمها وتعريفها من البيوت المتخصصة لسكني الشيوخ والفقهاء لا من قاعات التدريس والمدرسين^(١).

ولما سقطت الدولة الفاطمية وأقام صلاح الدين دولة الأيوبيين أبطل المذهب الشيعي وأقام المذهب السني مذهب الإمام الشافعي والمالكي وأقام أول مدرسة سنية بمصر سميت باسمه وهي المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر ثم تلتها المدرسة القمحية بجوار الجامع أيضاً ثم المدرسة السيوفية بالقاهرة^(٢).

فمنذ تولي صلاح الدين عرفت المدرسة كمؤسسة سنية رسمية^(٣)، فقد سار على نهج نور الدين في إقامة المدارس السنية تدعيماً للمذهب السني وإبطالاً لمذهب الشيعة^(٤) وكان يعتبر إقامة تلك المدارس نوعاً من القربات إلى الله تعالى فإلى جانب المدرسة الناصرية^(٥) التي اهتمت بتدريس المذهب الشافعي كان هناك المدرسة القمحية^(٦) لتدريس المذهب المالكي والمدرسة الصالحية لتدريس المذهب الشافعي^(٧).

وقد احتل السلاطين الأيوبيون مكان الصدارة بين الحكام المسلمين في الإهتمام بالعلم والتعليم عملاً بمبدأ القرآن الكريم في حث المسلمين على العمل والتعلم واشتهر عن ملوك الأيوبيين حبهم وتقريبهم للعلماء وتباروا في إقامة المدارس

(١) أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، جـ ٢، المقدمة ح، وأنظر Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.109.

(٢) ابن خلكان: وفيات، جـ ٧، ص ٢٠٦ - ٢٠٧، المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٣٦٣.

(٣) أيمن فؤاد: المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، ندوة المدارس ص ١٢١.

(٤) عفاف صبرة، المدارس في مصر في العصر الأيوبي، ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٥) وقد كانت تعرف بابن زين التجار وكنت سجناً فبناها صلاح الدين للشافعية ابن خلكان: وفيات جـ ٧، ص ٢٠٦، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٣٤٦.

(٦) بنيت سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م وعرفت بذلك الاسم لأن معلومها كان يصرف للمدرسين والطلبة قمحا، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٣٤٦.

(٧) ابن خلكان: وفيات جـ ٧، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

لتدريس المذهب السني إلى جانب العلوم المختلفة مما ساعد على قيام نهضة فكرية وثقافية وأدبية ودينية في ذلك العصر، فأقام الملك العادل المدرسة العادلة لتدريس المذهب المالكي وأقام الكامل المدرسة الكاملية بين القصرين سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م وأقام الصالح نجم الدين أيوب المدرسة الصالحية سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١م لتدريس المذاهب الأربعة^(١)، كما وجدت مدارس أخرى كالمدرسة الفاضلية درس بها المذهبين الشافعي والمالكي^(٢).

وقد كانت المدارس في العصر الأيوبي يدرس بها مختلف العلوم النقلية كالتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام واللغة والصرف والبلاغة والأدب كما كانت تعني أيضًا بتدريس العلوم العقلية مثل الفلسفة والمنطق وعلم النجوم والفلك والرياضيات^(٣). فكان إدخال المدارس في مصر بمثابة انقلاب في الثقافة والبناء وأخذت الثقافات المختلفة تتدفق إلى القاهرة من كل أنحاء العالم الإسلامي بفضل إقامة تلك المدارس^(٤).

ثم توالى إنشاء المدارس فقد اقتدى المماليك والأمراء بصلاح الدين وخلفائه في بناء المدارس بالقاهرة ومصر وبلادها كما اقتدى به ملوك الترك بعد قيام دولة المماليك وكذلك أمراؤهم^(٥)، ولكن القلقشندي يذكر أنه كان هناك فارقًا كبيرًا بين المدارس التي بناها ملوك الأيوبيين وتلك التي بناها المماليك وذلك بعد وصفه للمدرسة الكاملية فيقول: «بني من بني من أكابر دولتهم مدارس لم تبلغ شأو هذه وشتان بين الملوك وغيرهم»^(٦).

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٣٦٧، المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٣٦٩، ٣٨٣، وقارن عفاف صبرة: المدارس في العصر الأيوبي، ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٢) دولت عبد الله: معاهد تزكية النفوس، ص ٦١ - ٦٢، عفاف صبرة: المدارس في العصر الأيوبي، ص ١٤٨ - ١٤٩، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ ٤، ص ٥٧٠.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، جـ ٤، ص ٥٧١.

(٤) ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ١٦٧.

(٥) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٣٦٣.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٣٤٦ - ٣٤٧.

وقد قام الأمراء المماليك في العصر الأيوبي بإنشاء العديد من المدارس وهي:

المدرسة القطبية:

وهناك مدرستان تحملان اسم القطبية إحداهما التي نحن بصدد ذكرها والأخرى أنشأتها عصمت الدين مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل أبي بكر وشقيقة الملك الأفضل قطب الدين وكانت أديبة فاضلة سمعت الحديث وبنت تلك المدرسة وأوقفتها على الشافعية والحنفية، أما هذه المدرسة فقد أنشأها الأمير قطب الدين خسرو بن بلبان بن شجاع الهذباتي سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م وجعلها وقفاً على الشافعية وهو أحد أمراء السلطان صلاح الدين الأيوبي وكانت تقع هذه المدرسة بالقاهرة في خط سويقة الصاحب بداخل درب الحريري^(١).

المدرسة الأزكشية:

وقد أنشأها الأمير سيف الدين أيازكوج الأسدي مملوك أسد الدين شيركوه وأحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وبنائها سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م وكان أيازكوج رئيساً للأسدية بمصر أيام صلاح الدين وابنه العزيز عثمان وقد أوقفها على الحنفية فقط وتقع هذه المدرسة على رأس السوق الذي كان يعرف بالخروقيين ثم عرف بعد ذلك بسويقة أمير الجيوش^(٢).

المدرسة العاشورية:

وقد أقامتها الست عاشوراء بنت ساروح الأسدي زوجة الأمير أيازكوج الأسدي وأوقفتها على الحنفية وكانت تقع بحارة زويلة بالقاهرة وقد اشترتها من الطبيب

(١) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٣٦٥، ابن تغرى بردي: النجوم، جـ ٦، ص ١٦، حاشية ١، وأنظر: زبيدة عطا: مكتبات المدارس «خزانة الكتب» ندوة المدارس، ص ٢٠٩ - ٢١٠، وأنظر:

Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p118

(٢) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٣٦٧، وأنظر: Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo,

p.118

اليهودي ابن جميع الذي كان يكتب لقراقوش^(١).

المدرسة الفخرية:

أنشأها الأمير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومي استادار الملك محمد بن العادل وانتهى من عمارتها سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م وقد تنقل هذا الأمير في الخدم حتى صار أحد الأمراء بمصر وتقدم في أيام الملك الكامل حتى أصبح استاداره وتقع هذه المدرسة فيما بين سويقة صاحب ودرب العداس^(٢)، وأطلق عليها البعض المدرسة التيمورية^(٣) ولم يحدد أحد من المؤرخين المذهب الذي قامت على تدريسه هذه المدرسة^(٤).

المدرسة الصيرمية:

وقد أنشأها الأمير جمال الدين شويخ بن صيرم أحد أمراء الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب وكانت وفاته سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م وتقع داخل باب الجملون الصغير بالقرب من رأس سويقة أمير الجيوش^(٥)، ولم يحدد المذهب الذي قامت عليه تلك المدرسة^(٦).

المدرسة المسرورية:

وتقع داخل درب شمس الدولة وعرفت بالمسرورية نسبة إلى شمس الخواص مسرور أحد خدام القصر في دولة الفاطميين وظل إلى دولة الأيوبيين واختص

(١) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٣٦٨، وأنظر: Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.116.

(٢) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٣٦٧.

(٣) زبيدة عطا: مكنتات المدارس، ندوة المدارس، ص ٢١٠.

(٤) عفاف صبرة: المدارس في العصر الأيوبي، ص ١٦٠، وأنظر: Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p122.

(٥) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٣٧٨.

(٦) عفاف صبرة: المدارس في العصر الأيوبي، ص ١٦٠، وأنظر: Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p122.

بالسلطان صلاح الدين وكان مقدماً عنده فقدمه على حلقة ولا زال مقدماً إلى أيام الكامل ثم توفي وكانت هذه المدرسة داراً له في الأصل أوصى أن تجعل مدرسة بعد وفاته فعمل بوصيته وأوقف عليها الفندق الصغير ودرس فيها القاضي كمال الدين خضر^(١).

وقد بناها من ثمن ضيعة له بالشام بيعت بعد وفاته لتحويل تلك الدار إلى مدرسة^(٢)، مما يدل على أن الخدام قد اقتدوا بأسيادهم.

المدرسة الغزنوية :

وقد أنشأها أحد مماليك الصالح نجم الدين أيوب وهو الأمير حسام الدين قايماز النجمي وقد نسبت إلى الشيخ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن يوسف بن علي بن محمد الغزنوي البغدادي المقرئ الفقيه الحنفي الذي قام بالتدريس بها وكان إماماً في الفقه وسمع على الحافظ السلفي وغيره وهي من مدارس الحنفية وتقع في راس سويقة أمير الجيوش^(٣).

الخانات^(٤) :

كان أمراء المماليك يقومون ببناء الخانات لما تعود عليهم به من فوائد وكان بناء تلك الخانات مدعاة للفخر حيث كانت كل غرفة من غرف تلك الخانات تعود على الأمير صاحبها بإيجار شهري مناسب لمستواها، وقد ازدحمت القاهرة بالخانات.

(١) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٣٧٨، السلوك، جـ ١، ق ١، ص ٦١٣، حاشية ٣، ج، القلقشندي:

صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٣٥٦.

(٢) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٣٧٨.

(٣) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٣٩٠، وقارن Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo,

p.119.

(٤) والخان كلمة فارسية معناها البيت وأصلها خن يعني يحفر وخانة نطق حلقى لكلمة كن - دن وهي

في فارس بمعنى المربع في رقعة الشطرنج. دائرة المعارف الإسلامية، جـ ٨، ص ٢١١، عبد

الرحمن زكي، القاهرة، ص ١٠٨

وقد أورد المقرئزي في خططه معلومت هامة عن خانات القاهرة كما عددها ومنها:

خان مسرور:

كان خان مسرور جزآن أحدهما كبير والآخر أصغر منه، والكبير يقع على يسرة من سلك من سوق باب الزهومة، وهو أحد أبواب القصر الشرقي الكبير الذي بني في عهد الفاطميين سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م إلى الحرية وكان موضعه خزانة الورق، والصغير على يمنة من سلك من سوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر، وكان مساحة مخصصة لبيع الرقيق بعد أن كان من قبل موضع المدرسة الكاملة^(١). وقد اشترى ثلثها من واحد والباقي من ورثة ابن عنتر وكان قبل ملك الفندق الكبير لعلامه ريجان وحبسه عليه، ثم من بعده على الأسدي والفقراء بالحرمين وكانت العبيد تباع بواسطة مسرور هذا وكان عبداً محبوباً لدى صلاح الدين الذي ترك المكان هبة لصالح الفقراء^(٢).

خان السبيل:

وقد بناه الأمير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش الأسدي الصلاحي مملوك أسد الدين شيركوه والذي وزر لصلاح الدين واعتقه وقد بناه لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجر وبه بئر ساقية وحوض، وكان يقع على باب الفتوح بظاهر القاهرة وله وقف كثير لا يعرف مصرفه^(٣).

و«كان هذا الخان تنزله المارة وأبناء السبيل فعرف خطة به»^(٤) وكان الفقراء

(١) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٩٢.

(٢) مجهول، مخطوط شرح اللمعة، ص ١٠، وقارن ستانلي لينبول، سيرة القاهرة، ص ٢٢٠.

(٣) المقرئزي: الخطط، جـ ٢، ص ٣٦، ٩٣، وراجع ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ٤، ص ٩١ -

٩٢، ابن أبيك، كنز الدرر، جـ ٧، ص ١٥١، النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ٣٠، ابن

تغري، النجوم، جـ ٤، ص ٤٦.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٣٦٠.

من المسافرين يقيمون في هذا الخان دون مقابل^(١).

خان منكورش:

يقع هذا الخان بخط سوق الخيميين بالقرب من الجامع الأزهر وقد بناه الأمير ركن الدين منكورش زوج أم الأوحى بن العادل الذى انتقل إلى ورثته، ثم انتقل إلى الأمير صلاح الدين أحمد بن شعبان الأربلى فوقفه^(٢).

خان بلال:

نسبة إلى بلال عبد الصالح نجم الدين أيوب وكان مقرباً جداً منه حتى أن السلطان قلاوون كان يترحم على الصالح قائلاً: لقد اعتدت أن أحمل نعل هذا العبد «بلال» حينما كان يذهب إلى حضرته!! وكان يقوم بأعمال خير كثيرة وامتدحه الشعراء، ونالوا منه العطايا الكثيرة، وكان من أفضل أعماله بناء ذلك الخان الذى كان يضع التجار فيه صناديقهم التى تشتمل على الثروات القيمة فكانوا يأمنون عليها فيه^(٣).

القياسر والأحكام:

كانت القياسر والأحكام من المؤسسات الإقتصادية التى ساهم المماليك فى أقامتها فى العصر الأيوبي ومنها:

قيسارية سنقر الأشقر:

تقع هذه القيسارية على يسار باب زويلة فيما بين خزانة شمائل ودرب الصغيرة تجاه قيسارية الفاضل. وقد قام بإنشائها الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الصالحى النجمي أحد المماليك البحرية ولم تزل إلى أن هدمت وأدخلت فى الجامع المؤيدى^(٤).

(١) ستانلى لينبول: سيرة القاهرة، ص ٢٢١.

(٢) المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٩٣.

(٣) المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٩٢، ستانلى لينبول: سيرة القاهرة، ص ٢٢٠.

(٤) المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٨٥.

قيسارية جهاركس:

بناها الأمير فخر الدين جهاركس سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م وكانت قبل ذلك يعرف مكانها بفندق الفراخ ولم تزل في يد ورثته وانتقلت إلى الأمير علم الدين صرغتمش بالميراث عن زوجته والي بنت شومان من أهل دمشق، ثم اشترى لوالدة خليل المسماه بشجر الدر الصالحية سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م ويذكر المقرئزي^(١) أن «صاحبها جهاركس نادى عليها حين فرغت فبلغت خمسة وتسعين ألف دينار على الشريف فخر الدين إسماعيل بن ثعلب وقيل عنها أن جماعة من التجار الذين طافوا البلاد ذكروا أنهم لم يروا مثلها في البلاد في حسنها وعظمتها وأحكام بنائها وأن جهاركس بني بأعلاها مسجدًا كبيرًا وربعا معلقا وقد توفي جهاركس في دمشق ودفن في جبل الصالحية بتربته هناك».

قيسارية بيبرس:

هذه القيسارية على رأس باب الجودرية من القاهرة وقد اشتراها وما حولها الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيرى قبل أن يتولى السلطنة وكانت دارا تسمى دار الأنماط هدمها وبني مكانها القيسارية والربع فوقها وعهد بعمارتها إلى مجد الدين بن سالم الموقع ولما اكتمل بناؤها ألزم سائر تجار قيسارية جهاركس وقيسارية الفاضل بإخلاء حوانيتهم من القيساريتين وألزمهم بالسكنى في هذه القيسارية وأجبرهم على ذلك وفرض عليهم أن يدفعوا أجرة عن كل حانوت منها مائة وعشرين درهما.

فأكره التجار على إستئجار تلك الحوانيت بهذه القيسارية وفضل الكثير منهم الاحتفاظ بحانوته القديم إلى جانب هذا الجديد كما قام بنقل صناع الأخفاف وأسكنهم

(١) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٨٦.

في الحوانيت التي خارجها فعمرت بالناس من الداخل والخارج في يومين، وجاء إلى مخدومه بيبرس وكان قد اعتلى السلطنة وتلقب بالملك المظفر وأخبره أنه أسكن القيسارية في يوم واحد فرد عليه بيبرس قائلاً: «يا قاضي إن كنت أسكنتها في يوم واحد، فهي تخلو في ساعة واحدة» وحدث ما توقعه بيبرس فحين فر من قلعة الجبل لم يبت في هذه القيسارية لأحد من سكانها قطعة قماش، بل نقلوا كل ما كان لهم فيها وخلت الحوانيت مدة طويلة ثم سكنها صناع الأخفاف ووصل إيجار الحانات فيها عشرة دراهم بعد أن كانت تؤجر أولاً بمائة وعشرين درهماً^(١).

الأحكار^(٢)؛

فالتحكير على هذا المنع فقول أهل مصر: فلان أرض فلان يعنون منع غيره من البناء عليها. وقد أسهم الممالك في بناء الأحكار ومنها:

حكر البواشقي؛

عرف بالأمير ازدمر البواشقي مملوك الرشيد الكبير أحد الممالك البحرية الصالحة، وممن قام على الملك المعز أيبك عندما قتل الأمير فارس الدين أقطاي في ذي القعدة سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م وخرج إلى بلاد الروم^(٣).

حكر جوهر النوبي؛

ويقع هذا الحكر تجاه الحارة الوزيرية من بر الخليج الغربي في شرقي بستان العدة، ويسلك منه إلى قنطرة أمير حسين من طريق تجاه باب جامع أمير حسين الذي تعلوه المنذنة.

وعرف هذا الحكر بجوهر النوبي أحد أمراء الملك الكامل وكان خصياً وكان قد

(١) المقرئزي: الخطط، ج-٢، ص ٧٨ - ٨٨.

(٢) «قال ابن سيده: الاحتكار جمع الطعام ونحوه مما يؤكل واحتسابه وانتظار وقت الغلاء به، والحكرة والحكر جميعاً ما احتكر، وحكره يحكره حكرًا ظلمه وتنقصه وأساء معاشرته.

المقرئزي: الخطط، ج-٢، ص ١١٣.

(٣) نفسه، ص ١١٤.

تقدم تقدمًا كبيرًا في أيام الملك الكامل وكان ممن ثاروا على الملك العادل بن الكامل وخلعه فلما مات الصالح نجم الدين أيوب قبض على جوهر سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م^(١).

حكر بن الأسود جفريل:

ويقع هذا الحكر قبل حكرتكان، كان في الأصل بستانًا ثم حكر وعرف الأمير شمس الدين موسى ابن الأمير أسد الدين جفريل أحد أمراء الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بمصر^(٢).

حكر خطلبا:

ذكر المقرئ أن هذا الحكر حده القبلي إلى الخليج، وحده البحري إلى الكوم الفاصل بينه وبين حكر الأوسية المعروف بالجاولي، وحده الشرقي إلى بستان الجليس الذي عرف بابن منقذ والحد الغربي إلى زقاق هناك.

وكان هذا الحكر بستانًا في الأصل اشتراه جمال الدين الطواشي من جمال الدين عمر بن ناصح الدين داود بن إسماعيل الملكي الكامل في سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م ثم اشتراه منه الطواشي محي الدين صندل الكامل في سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م وباعه للأمير الفارسي صارم الدين خطلبا الكامل سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م فعرف به^(٣).

(١) نفسه، ص ١١٧.

(٢) نفسه، ص ١١٨.

(٣) هو خطلبا بن موسى الأمير صارم الدين الفارسي التتبي الموصلي الكامل، استقر في ولاية القاهرة سنة ٥٧٢هـ / ١١٨١م ثم عزل منها وسار إلى اليمن فولى بمدينة زبيد بها فأقام بها مدة ثم قدم إلى القاهرة وصار من أصحاب الأمير فخر الدين جهار كس وظل إلى أيام الملك الكامل وصار من أمرائه إلى أن مات سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م. المقرئ: ج ٢، ص ١١٨.

حكر شمس الخواص مسرور:

ويقع هذا الحكر فيما بين خليج الذكر وحكر ابن منقذ كان بستاً لشمس الخواص مسرور الطواشي أحد الخدام الصالحة مات في نصف شوال سنة ستمائة وسبع وأربعين هجرية بالقاهرة ثم حكر وبني فيه الدور^(١).

(١) المقرئ: ج ٢، ص ١١٩.

الخاتمة

وبعد هذا العرض خلصت إلى النتائج الآتية:

قد ينصرف الحكم عند الحديث عن الممالك من الجواري والغلمان إلى دولة الممالك بشقيها البحرية والشراسية، لكن الحقيقة أن الممالك وقد استجلبهم الخلفاء والأمراء والحكام المسلمون إلى العالم الإسلامي واسندوا إليهم الكثير من المهام العامة والخاصة ظاهرة تستوقف النظر ومن ثم كانت هذه الدراسة.

تغلغل الممالك الأرقاء في الحياة العامة في مصر وسيطروا على الخلفاء واستطاعوا أن يثيروا القلاقل والفتن حسب غلبة طائفة على أخرى مما أثر على اقتصاديات البلاد.

وكان تفوق فرقة على أخرى يتم حسبما تقتضي المصالح وكان العنف والقتل وسفك الدماء سمة من السمات التي ميزتهم طيلة هذين العصرين.

تعددت الأسباب التي كانت تدفع تلك الطوائف إلى التصارع والتطاحن فكان الخلفاء أحيانا يقربون طائفة على حساب أخرى ثم يدفعون الثمن في النهاية تداعيا وانهيأراً لدولتهم.

كان لاختلاف البيئات والجنسيات لهؤلاء الممالك أثر كبير في عادات وتقاليدهم كل منهم والتي عبرت في معظم الأحيان عن سمات المجتمعات التي أتوا منها مما أدى إلى التنافس للوصول إلى السلطة والتقرب من الخلفاء لتحقيق هذا الهدف مستخدمين كل الوسائل للوصول إلى غاياتهم، فقد سلبوا الخلفاء هيبتهم ومكانتهم وسيطروا على كل الأمور مما أشاع الفوضى والانهيار الاقتصادي الذي أدى إلى سقوط دولة أثرت العالم الإسلامي علماً وثقافة ألا وهي الدولة الفاطمية.

لقد فتحت مصر قلبها واحتضنت هؤلاء فحفظوا لها الجميل وأسهموا في الحياة العامة والخاصة للمجتمع المصري.

كان للمماليك دور مؤثر في التاريخ السياسي للعصر الأيوبي في مصر فقد ساندوا صلاح الدين في إسقاط الفاطميين وقيام الدولة الأيوبية ومنهم النورية والأسدية والصلاحية والعادلية والأشرفية والكاملية والبحرية، لكل منهم بصمات واضحة في تاريخ مصر الأيوبية وخاصة في التصدي للصليبيين مع صلاح الدين أو مع خلفائه أو مع الصالح أيوب وخاصة تصديهم للحملة السابعة والذي كان انتصارهم فيها بمثابة صرخة الميلاد لقيام دولة المماليك الأولى أو البحرية كما نسبها البعض لهم.

كان لبعد نظر الصالح أيوب وحسه السياسي المرهف والذي تجلى في خوفه من اصطدام طموح ابنه تورانشاه وثورته كشاب بطموح هؤلاء المماليك - الذين تعودوا على نوع رفيع من السياسة يساسون به - والذي ظهر بجلاء في وصيته التي كتبها لابنه قبل وفاته يوصيه فيها بزوجة أبيه شجر الدر وبالمماليك البحرية والتي لم يتنبه إليها ذلك الشاب الثائر مما أدى إلى نهايته على أيديهم بطريقة مأساوية.

أسهمت عوامل مختلفة سياسية واقتصادية وغيرها في التعجيل بنهاية الدولة الأيوبية، من ذلك تصارع خلفاء صلاح الدين وأقاربه وتنافسهم على الاستئثار بالسلطة بالإضافة إلى جلب المماليك بكثرة ليعينوهم على الوصول إلى غاياتهم، مما جعل منهم شوكة قوية في ظهر تلك الدولة فبدلاً من أن يعملوا على الحفاظ عليها أسرعوا في وضع نهاية حاسمة إثر انقلاب عسكري قام به المماليك الذين جعلوا من أنفسهم أرستقراطية عسكرية سيطرت على مقاليد الأمور في مصر.

تغلغل هؤلاء المماليك في القصور وسيطروا على الخلفاء وخاصة الجواري فكانت الجارية التي تحظى برضى سيدها تكون سبباً في استئثار هذا الخليفة من أبناء جنسها مكونين طائفة قوية تؤثر في المجتمع المصري سياسياً واجتماعياً واقتصادياً معتمدة على مساندتها لهم وولع الخلفاء بهن واقتنواهم مع الغلمان والخصيان بكثرة.

قامت الجوارى بالكثير من الأعمال في القصور وكذلك الغلمان وكونوا الثروات وامتلكهم العامة شأنهم في ذلك شأن الخلفاء والوزراء والقواد، وكان لتواجد الرقيق آثار متعددة على الأسرة المصرية سلباً وإيجاباً وذلك في العصر الفاطمي.

نلمس في العصر الأيوبي تأثيرات اجتماعية للمماليك في مصر فاستحدثت أنظمة تربية المماليك ورعايتهم والعناية بهم وترتب على ذلك قيام علاقات بين هؤلاء وبعضهم البعض وعلاقات ربطت بينهم وبين المجتمع المصري، ومع ذلك أحاط المماليك أنفسهم بسياج جعل منهم طبقة منعزلة ذات سمات خاصة لا تختلط بمن حولها كما قصرُوا الوظائف العسكرية عليهم وعلى أبناء جنسهم.

امتنه المماليك العديد من الوظائف في قصور السلاطين الأيوبيين نظراً للثقة التي حازوها لديهم.

وكان لهؤلاء المماليك دور بارز في الإقْتداء بسادتهم في إقامة المنشآت الدينية والاجتماعية تقرباً إلى الله تعالى ومساهمة في النهضة الاقتصادية والاجتماعية لذلك العصر فأقاموا المساجد والخانقاوات والأربطة والزوايا والدروب والحمامات والمدارس والخانات والأحكار والقياسر.

من الملاحظ في النهاية أن هؤلاء المماليك كان لديهم إيمان مستقر بوجوب الدفاع عن البلاد ضد أي خطر يقترب منها وكان هذا الشعور نابعا من إيمانهم بالله سبحانه وتعالى وأن الإسلام يفرض عليهم الجهاد ضد المعتدين.

وقد شهد ذلك العصر بدايات التوسع في استخدام المماليك والذين نشط التجار في جلبهم وذلك عندما لمسوا تقدير السلاطين لبضاعته واستعدادهم لدفع الأموال الطائلة ثمناً لهم.

فقد ساد العبيد والأرقاء مواليتهم بفضل قوة شخصياتهم وطموحاتهم اللانهائية ولكن يجب ألا نغفل في النهاية دورهم القوي والمؤثر رغم إسرافهم في العبث بمصالح الناس في أنهم دافعوا عن مصر وقاموا بدرء أكبر خطرين تعرضت لهما وهما الخطر الصليبي ومن بعده الخطر المغولي.

كانت تقود المماليك في دفاعهم عن مصر نزعته الدينية للدفاع عن الإسلام في وقت كان فيه التعصب الديني مسيطرأ على عقول الناس وقلوبهم وتناسي الناس قومياتهم وأجناسهم وتلاشت حركة الشعوبية والقوميات أمام الروح الإسلامية التي تمكنت من شعوبها وطففت على أي شعور آخر في نفس الوقت الذي وجد فيه هؤلاء المماليك في الدين الإسلامي ملاذاً وملجأ يضيف عليهم شرعية لتواجدهم في المجتمع بحيث لا ينظر إليهم كأرقاء مستجلبين وإنما مسلمين ينصرون دينهم ويزودون عنه، وأرادوا إثبات ذلك بكل الطرق وبمنتهى البسالة في حروبهم ضد الصليبيين فكان لهم ما أرادوا واستطاعوا اعتلاء سلطة أكبر قطر من أقطار العالم الإسلامي دون أي اعتراض من شعب تلك الدولة.

ومن اللافت للنظر عند استعراض الذين اعتلوا سلطة الديار المصرية على مر تلك العصور بدءاً بالطولونيين ثم الإخشيديين ثم الفاطميين ثم الأيوبيين وأخيراً المماليك لم نلمس في كل مرحلة من تلك المراحل مقاومة ملموسة أو تصميم قوي من الشعب المصري على رفض اعتلاء هؤلاء سلطنته أو التحكم في مقاليد أموره أو إحساساً بأنه لا ينبغي لهؤلاء الغرباء الأجانب أن يحكموه، فإذا وجدنا له العذر في تقبل حكم الطولونيين والإخشيديين على اعتبار أنهم موفدين بموافقة الخلافة العباسية السنية. فماذا عن الفاطميين الشيعة هل لأن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي واكبت مجيئهم قد سمحت بقيام دولتهم؟ وإذا كان ذلك كذلك فلماذا لم يقاوم الأيوبيون الذين جاءوا لنصرة الفاطميين ثم ما لبثوا أن قاموا بالقضاء على دولتهم تحت سمع وبصر شعب مصر الذي لم يحرك ساكناً للدفاع عن الفاطميين، هل لأن الدولة الأيوبية جاءت بالمذهب السني الذي اعتنقه المصريون وابقوا عليه رغم تواجد الشيعة بينهم وتحكمهم في بلادهم لأكثر من قرنين من الزمان؟؟ مما قد يجعلنا نقول أن ظروف العالم الإسلامي وإحياء فكرة الوحدة الإسلامية قد تضاءلت أمامها الحدود الإقليمية الضيقة.

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

العهد القديم (التوراة)

العهد الجديد (الإنجيل)

ثانياً: المخطوطات

- (١) ابن بطلان ت ٤٥٥هـ/١٠٩٣م أبي الحسن المختار بن الحسن بن عبدون البغدادي «رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد» برقم ٢٣٣٢٧ - جامعة القاهرة - نسخة برلين أخذت ١٩٣٠م - عدد اجزائه (١).
- (٢) بريس الدواداري ت ٧٢٥هـ/١٤٢٣م ركن الدين المنصور الدواداري المصري «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة» ج٦ برقم ٢٤٠٢٦ جامعة القاهرة. نسخة مصورة بالفوتستات من نسخة محفوظة بمكتبة جامعة أكسفورد.
- (٣) ابن ظافر - جمال الدين أبو الحسن علي بن أبي منصور ظافر الأزدي ت ٦١٢هـ/١٢١٥م. مخطوط أخبار الدول المنقطعة رقم ٨٩٠ - دار الكتب
- (٤) المومني - محمد محمد بهادر المومني «فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر» رقم ٢٦١٦٦ - جامعة القاهرة، كتب سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م. نسخة مأخوذة بالفوتستات تصوير مكتبة جامعة فؤاد الأول ١٩٤٣م عدد اجزائه ٢.
- (٥) النعمان «القاضي النعمان بن محمد بن حيون قسي» ت ٣٦٣هـ/٩٧٣م. «المجالس والمسافرات» نسخة مأخوذة بالفوتستات عن نسخة مكتوبة بالهند ١٢٢٧هـ/١٨١٢م رقم ٢٦٠٦٠ جزآن - جامعة القاهرة.

(٦) مؤلف مجهول «مخطوط شفاء القلوب في تاريخ بني أيوب» رقم ٢٤٠٣١ - جامعة القاهرة - نسخة مأخوذة بالفوتستات من نسخة مخطوط بالمتحف البريطاني تحت رقم OR. 7311 .

(٧) مؤلف مجهول «مخطوط شرح اللمعة من أخبار المعز» رقم ٢٤٠٢٢ - جامعة القاهرة، نسخة مصورة بالفوتستات من مكتبة الأسكوريال عدد أجزاءه ١٠ .

ثالثاً: الوثائق

- (١) وثيقة بيبرس الجاشنكير، ركن الدين الجاشنكير رقم ٢٣ وقف مؤرخه في ٢٦ شوال ٧١٧هـ/١٣١٧م - دار الوثائق المصرية.
- (٢) وثيقة زين الدين عبد القادر الأنصاري الخزرجي رقم ٥٦ وقف مؤرخه في ٦ جمادي الأول ٨٠٢هـ/١٣٩٩م دار الوثائق المصرية.
- (٣) وثيقة شرف خاتون كهار رقم ٤ وقف والمؤرخة بتاريخ ذي القعدة ٦٣٧هـ/١٢٣٩، دار الوثائق المصرية.
- (٤) وثيقة الملك العادل الأيوبي رقم ٢ وقف والمؤرخة في ٢٩ رمضان ٦١٣هـ/١٢١٦م - دار الوثائق المصرية.
- (٥) وثيقة وقف السلطان قايتباي رقم ٨٨٦ أوقاف دار الوثائق المصرية.
- (٦) وثيقة السلطان محمد بن قلاوون الناصري رقم ٢٥ وقف المؤرخة في ١٦ جمادي الأول سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م. دار الوثائق.

رابعاً: المصادر العربية

- (١) ابن أبي أصيبعة، موفق الدين ابن العباس أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي الخرجي ت ٦٦٨هـ/١٢٧٠م.
- «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ٣ أجزاء القاهرة ط ١٨٨٢م.
- (٢) ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير الجزري ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م.
الكامل في التاريخ ١٣ جزء - ط بيروت ١٩٦٥م.
- (٣) ابن الأخوة، محمد بن أحمد القرشي ت ٧٢٩هـ/١٣٢٩م.
- «معالم القرية في أحكام الحسبة» تحقيق محمد محمود شعبان - صديق أحمد المطيعي - القاهرة - هيئة الكتاب سنة ١٩٦٧.
- (٤) ابن أمير حاج.
- «التقرير والتعجب».
- (٥) ابن إياس، أبي البركات الناصري محمد بن أحمد ابن إياس الحنفي.
- «بدائع الزهور في وقائع الدهور» ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م، تحقيق محمد مصطفى ط ١ القاهرة ١٩٧٥م.
- (٦) ابن أبيك، أبو بكر بن عبد الله بن أبيك الدواداري ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م.
- كنز الدرر وجامع الغرر الجزء السادس المعروف «بالدره المضية في أخبار الدولة الفاطمية»، تحقيق صلاح الدين المنجد القاهرة ١٩٦١م.
والجزء السابع المعروف «بالدر المطلب في أخبار ملوك بني أيوب» تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور القاهرة ١٩٧٢م.
والجزء الثامن المسمى «الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية» تحقيق أولرخ هارمان ١٩٧١م.

- (٧) ابن تيمية: أبى العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحميد ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م.
- «الفتاوى الكبرى» تقديم حسنين محمد مخلوف ط- بيروت.
- (٨) ابن جبير ت (٦١٤هـ - ١٢١٧م)، أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي.
- «رحلة ابن جبير» - بيروت ١٩٦٤م.
- (٩) ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر بن قزا وغلّى التركي ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م.
- «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان»، الجزء الثامن بقسميه نشر مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد - الدكن - الهند ١٩٥٢م.
- (١٠) ابن الجيعان، شرف الدين يحيى بن المعز بن الجيعان ت ٨٨٣هـ/١٥٨٠م.
- «التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية» - القاهرة ١٩٧٤م.
- (١١) ابن حنبل ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م أبى العلاء بن حنبل.
- «تفضيل الأتراك على سائر الأجناس» تقديم عباس العزاوي - القاهرة - ١٩٥٠.
- (١٢) ابن الحنبلي: ابن العماد الحنبلي. عبد الحي بن أحمد بن محمد المتوفي ١٠٨٩هـ-١٦٧٨م.
- «شذرات الذهب» ٩ أجزاء بيروت ١٩٧٩م.
- (١٣) ابن حوقل، أبى القسم بن حوقل النصيبى ت بعد سنة ٣٣٦هـ/٩٧٧م.
- «صورة الأرض»، قسمين ط مطبعة بريل ليدن ١٩٢٩م.
- (١٤) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي ت ٨٠٨هـ - ١٤٠٥م.
- «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر» تحقيق د. علي عبد الواحد وافي ط القاهرة ١٩٥٨م.

- (١٥) ابن خلكان، ابن العباس شمس الدين أحمد بن خلكان ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م.
- «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» ٨ أجزاء - تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨م.
- (١٦) ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدير العلاني ت ٨٠٩هـ-١٤٠٧م.
- «الإنتصار بواسطة عقد الأمصار» القسم الأول ط بيروت ١٨٩٣م.
- (١٧) ابن الزبير، رشيد الدين أبو الحسين أحمد بن علي بن إبراهيم الأسواني ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م.
- «الذخائر والتحف» تحقيق محمد حميد الله - الكويت ١٩٥٩.
- (١٨) ابن الساعي ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م، «تاج الدين أبي طالب علي بن انجب المعروف بابن الساعي»
- نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء، الحرائر والإماء» ج١ تحقيق د. مصطفى جواد - دار المعارف - القاهرة.
- «الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير» ج٩ تحقيق مصطفى جواد ط بغداد ١٩٣٤م.
- (١٩) ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م.
- «المغرب في حلى المغرب» القسم الخاص بتاريخ مصر المعروف «بالنجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة» تحقيق حسين نصار - القاهرة ١٩٧٠م.
- (٢٠) ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ت ٦٣٢هـ/١٣٣٨م.
- «سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماه بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» تحقيق جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٤م.
- (٢١) ابن شداد، عز الدين محمد بن علي إبراهيم ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م.
- «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» الجزء الثاني بقسميه تحقيق سامي الدهان - دمشق ١٩٦٢م.

(٢٢) ابن الصيرفي، أمين الدين أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الكاتب ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م.

- «الإشارة إلي من نال الوزارة» - تحقيق أيمن فؤاد سيد القاهرة - ١٩٩٠م.

(٢٣) ابن طباطبا - محمد بن علي طباطبات ٧٠٩هـ-١٣٠٩م المعروف بأبن الطقطقي.

- «الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» ط بيروت ١٩٦٠م.

(٢٤) ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م.

- «نزهة المقلتين في أخبار الدولتين» تحقيق أيمن فؤاد سيد - القاهرة ١٩٩٢م.

(٢٥) ابن عبد الظاهر، محيي الدين بن عبد الظاهر ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م.

- «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» تحقيق عبد العزيز الخويطر الرياض ١٩٧٦م.

(٢٦) ابن العبري، العلامة غريغوريوس أبو الفرج بن اهلون المعروف بابن العبري ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م.

- «تاريخ الزمان» ترجمة إسحق رملة ط بيروت ١٩٨٦م.

(٢٧) ابن العديم، صاحب كمال الدين أبي القاسم عمر بن هبة الله بن العديم ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م.

- «زبدة الحلب من تاريخ حلب» تحقيق سامي الدهان - ٣ أجزاء دمشق ١٩٦٨م.

(٢٨) ابن عذارى، أبو عبد الله محمد المراكشي ت ٦٩٥هـ/١٢٩٥م.

- «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» ج ١-٤ تحقيق ج.سي. كولان وليفى بروفنسال - ليدن - ١٩٤٨م.

(٢٩) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥م.

- «تاريخ ابن الفرات» المجلد الرابع ق ١ تحقيق حسن محمد الشماع ط البصرة ١٩٦٧م، المجلد الخامس تحقيق حسن الشماع ط البصرة ١٩٧٠م.

(٣٠) ابن فضالان، أحمد بن فضالان بن العباس بن راشد بن حمدان ت
٣٠٩هـ/٩٢١م.

- «رسالة بن فضالان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس» تحقيق
سامي الدهان دمشق ١٩٨٧م.

(٣١) ابن الفوطي، كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق بن الفوطي البغدادي ت
٧٢٣هـ/١٣٢٣م.

- «الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة» تحقيق مصطفى جواد
بغداد ١٣٥١هـ.

(٣٢) ابن القلانسي، أبي يعلى حمزة بن أسد التميمي القلانسي ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م.
- «ذيل تاريخ دمشق» نشر أمدرود ط ١٩٠٨م.

(٣٣) ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م.
- «مختصر تفسير ابن كثير» تحقيق محمد علي الصابوني ٣ أجزاء - بيروت
ط ٧ - ١٩٨١م.

(٣٤) ابن منظور، «لسان العرب» ط القاهرة ١٣٠١هـ.

(٣٥) ابن ميسر، تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب ت
٦٧٧هـ / ١٢٧٨م.

- «أخبار مصر» - تصحيح هنري ماسيه ١٩١٩م.

- «المنتقى من أخبار مصر» تحقيق أيمن فؤاد سيد طه القاهرة ١٩٨١م.

(٣٦) ابن النبيه المصري.

- «ديوان ابن النبيه المصري» تحقيق عمر محمد الأسعد، دمشق ١٠٦٨م.

(٣٧) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م.

- «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» ج ١، ٢، ٣ تحقيق جمال الدين الشيال
ط. القاهرة ١٩٥٢م ج ٤، ٥ تحقيق د. حسنين ربيع مراجعة د. سعيد عاشور
دار الكتب القاهرة ١٩٧٢م.

- (٣٨) ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م.
- «تتمة المختصر في أخبار البشر» ج١ تحقيق السيد محمد مهدي السيد حسن الخراسان ط ١٩٦٩م، ج٢ تحقيق أحمد رفعت البدرأوى ط بيروت ١٩٧٠م.
- «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» ط القاهرة ١٢٧٦هـ/١٨٥٩م.
- (٣٩) أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م.
- «الروضتين في أخبار الدولتين» نشر وتحقيق محمد حلمي محمد أحمد القاهرة ١٩٥٦م.
- (٤٠) أبو صالح الأرمني، ت ٦٠٥هـ/١٢٠٨م.
- «تاريخ أبي صالح الأرمني المعروف بكتاب كنائس وأديرة مصر» أكسفورد ١٨٩٥م.
- (٤١) أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م.
- «المختصر في أخبار البشر» المطبعة الحسينية المصرية د. ت.
- «تقويم البلدان» باريس ١٨٤٠م.
- (٤٢) أبو المحاسن، جمال الدين أبو المحاسن بن تغري بردي الأتابكي ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م.
- «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» ط ١٩٦٣ م.
- «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» تحقيق أحمد يوسف نجاتي ج١ القاهرة، ط ١٩٥٦م.
- (٤٣) الأصبخري، إسحاق بن إبراهيم بن محمد الفارس ت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري.
- «المسالك والممالك» تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني - القاهرة ١٩٦١م.
- (٤٤) الأصفهاني، عماد الدين الكاتب أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبو الفرج ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م.
- «الفتح القسي في الفتح القدسي» تحقيق محمد محمود صبح.

- «دولة آل سلجوق» القاهرة ١٩٠٠ م.
- «خريدة القصر وجريدة العصر» القاهرة ١٩٥١. قسم شعراء مصر تحقيق شوقي ضيف وإحسان عباس جزآن القاهرة ١٩٥١-١٩٥٢ م. وقسم شعراء الشام، ١-٣ تحقيق شكري فيصل المجمع العلمي العربي دمشق - ١٩٥٥ - ١٩٦٤ م.
- (٤٥) أمير ميتشاه.
- «تيسير التحرير» ج-٢.
- (٤٦) الأندلسي، أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي ت ٥٢٨ هـ / ١١٣٢ م.
- «الرسالة المصرية» تحقيق عبد السلام هارون - سلسلة نواذر المخطوطات مجلد ١ القاهرة ١٩٧٣ م.
- (٤٧) الأنطاكي «يحيى بن سعيد» ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م.
- «تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي» تحقيق شيخو في جزأين ط بيروت ١٩٠٩ م.
- (٤٨) الأيوبي، محمد بن تقي عمر بن شاهنشاه ت ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م.
- «مضمار الحقائق وسر الخلائق» تحقيق د. حسن حبشي - القاهرة ١٩٦٨ م.
- (٤٩) البغدادي، عبد اللطيف بن يوسف بن محمد ٦٢٩ هـ / ١٢٣٢ م.
- «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» مطبعة وادي النيل القاهرة ١٢٨٦ م.
- (٥٠) البغدادي، صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م.
- «مرصد الإطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع» تحقيق علي محمد البجاوي - بيروت ١٩٥٤ م.
- (٥١) البلوي، أبو حمد عبد الله بن محمد بن عمير من علماء القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي.
- «سيرة ابن طولون» تحقيق محمد كرد علي دمشق ١٣٥٨ م.

- (٥٢) البنداري، أبو إبراهيم الفتح بن علي بن محمد الإصفهاني ت ٦٤٣هـ/ ١٢٥٤م.
- «سنا البرق الشامي» - اختصره من كتاب البرق الشامي - تحقيق فتحية النبراوي القاهرة ١٩٧٩م.
- (٥٣) بنيامين التطيلي (ابن يونه التطيلي الأندلسي) توفي في النصف الثاني من القرن السادس.
- «الرحلة» ترجمة وتحقيق عزرا حداد - بغداد ١٩٤٥ م.
- (٥٤) بيبس المنصوري ٧٢٥هـ-١٣٢٤م.
- «التحفة الملوكية في الدولة التركية». نشر عبد الحميد صالح حمدان طبعة بيروت ١٩٨٧م.
- (٥٥) تميم، أبو علي بن المعز لدين الله الفاطمي ت ٣٧٤هـ/ ٩٨٤م.
- «ديوان تميم» القاهرة ١٩٥٨م.
- (٥٦) الجاحظ «أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ» ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م.
- «رسائل الجاحظ» تحقيق عبد السلام هارون طبعة ١٩٦٤ م - القاهرة.
- «المحاسن والأضداد» تحقيق فوزي عطوي، بيروت ١٩٦٩م.
- «الحيوان» - ٧ أجزاء تحقيق عبد السلام هارون القاهرة - ١٩٣٨م.
- (٥٧) الجبرتي عبد الرحمن الجبرتي ت ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥م.
- «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» تحقيق وشرح حسن محمد جوهر، عبدالفتاح السرنجاوي والسيد إبراهيم سالم ج ١ القاهرة ط ١٩٥٨ م.
- (٥٨) الحسن بن عبد الله ابن محمد بن عمر بن محاسن بن عبد الكريم.
- «أثار الأول في ترتيب الدول» ألفه سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨ م.
- (٥٩) الحموي، أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف.
- «التاريخ المنصوي» نشر بطرس عز يازينوچ أكاديمية العلوم الاتحاد السوفيتي موسكو ١٩٦٠ م.

- (٦٠) الدسوقي، العلامة شمس الدين الشيخ محمد، عرفة الدسوقي.
 - «حاشية الدسوقي على الشرح الكبير» ت ١٢٣٠هـ/١٨١٤م طبعة دار أحياء
 الكتب العربية - الحلبي وشركاه، ٤ أجزاء.
- (٦١) الدميري، كمال الدين الدميري.
 - «حياة الحيوان الكبرى» جزآن د.ت.
- (٦٢) الذهبي، الحافظ شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد ت
 ٧٤٨هـ/١٣٤٧م.
 - «العبر في خبر من غيب»، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني بيروت
 ١٩٨٥م.
- (٦٣) الزبيدي - المرتضى الزبيدي ت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م.
 - «ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب» تحقيق صلاح الدين المنجد دمشق
 ١٩٦٩م.
- (٦٤) ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين.
 - «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة» تشرىس عبد
 المسيح وعزيز سوريال - جمعية الآثار القبطية القاهرة ج٢ ١٩٥٩ م، ج٤
 ١٩٧٤م.
- (٦٥) السهروردي «أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله».
 - «عوارف المعارف» القاهرة ١٩٣٩ م.
- (٦٦) السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ت ٩١١هـ/١٥٠٥ م.
 - «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم -
 جزآن - القاهرة ط ١٩٦٧م.
- «نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر» عن نسخة كتبها الشاعر
 الأديب إبراهيم بن المبلط ط/١ دمشق.

- (٦٧) الشافعى «أبى عبد الله محمد بن أدریس الشافعى» ت ٢٦٤هـ/٨٧٧م.
 - «الشافعى الأم» ٧ أجزاء - ٤ مجلدات تقديم حسن عباس زكى - دار الشعب ط القاهرة ١٣٢١ هـ/١٩٠٣م.
- (٦٨) الشوكانى، محمد بن على بن محمد الشوكانى ت ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م.
 - «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار» ٧ أجزاء دار التراث القاهرة ١٢٩٧هـ.
- (٦٩) الشيرازى، ابن إسحاق إبراهيم بن على بن يوسف الفيروز أبادى، د.ت جزآن.
 - «المذهب فى فقه الإمام الشافعى» مطبعة عيسى البابى.
 - «القاموس المحيط» ١٤ جزء - القاهرة ١٩٥٢ م.
- (٧٠) الشيزرى، عبد الرحمن بن نصر الشيزرى ت ٥٨٩هـ/١١٣٩م.
 - «نهاية الرتبة فى طلب الحسبة» نشر السيد الباز العرينى - أشرف محمد مصطفى زيادة طبعة القاهرة ١٩٤٦ م.
- (٧١) الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ/٩٢٢م.
 - «تاريخ الأمم والملوك» - طبعة دى غويه - ليدن ١٨٨١م.
- (٧٢) عبد الله بن مسعود المشهور بـ (صبر الشريعة).
 - «شرح التوضيح فى متن التنقيح»
- (٧٣) العمرانى - محمد بن على بن محمد المعروف بأبن العمرانى.
 - «الإنباء فى تاريخ الخلفاء» ت ٥٨٠هـ/١١٨٤م تحقيق د.قاسم السامرائى - ليدن ١٩٧٣م.
- (٧٤) العينى، بدر الدين محمود العينى ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م.
 - «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» ج ١ تحقيق محمد أمين القاهرة ١٩٨٧م.
- «السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد» تحقيق فهم محمد شلتوت ود. محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٦٧ م.

- (٧٥) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١هـ/١٤١٨م.
 - «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» القاهرة ١٩٦٣م ط ١٩١٣ م.
- (٧٦) الكاساني، علاء الدين أبي بكر بن مسعود ت ٥٨٧هـ/١١٩١م.
 - «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» ٦ أجزاء دار الكتاب - بيروت ط ١٩٨٢م.
- (٧٧) مالك، بن أنس الأصبحي ت ١٧٩هـ/٧٩٥م.
 - «المدونة الكبرى» - ٦ أجزاء، دار صادر بيروت ط ١٣٢٣ هـ.
- (٧٨) الماوردي، علي بن محمد حبيب البصري الماوردي ٤٥٠هـ/١٠٥٨م.
 - «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» ط ١٩٦٦م.
- (٧٩) المسبحي، الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد ت ٤٢٠هـ/١٠٢٩م.
 - «أخبار مصر» تحقيق وليم ميلورد ج ٤، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٠م.
- (٨٠) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م.
 - «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ج ٤ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد بيروت ١٩٧٠ - ١٩٨٠م.
- (٨١) المقرئ، تقى الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م.
 - «المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار» جزآن - بولاق ١٢٧٠ هـ.
 - «السلوك لمعرفة دول الملوك» صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة ج ١ ق ١ ط ١٩٥٦م جزء ١ ق ٢ ط ١٩٥٧م.
- «اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء» تحقيق جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٧م
 ج ١، ج ٢، ٣ تحقيق محمد حلمي أحمد القاهرة ١٩٧٣م.
- «النقود الإسلامية» نشرة القاهرة ١٩١٤م.

- (٨٢) الملطى، عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطى ت ٩٢٠هـ/١٥١٤م.
- «نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين» تحقيق محمد كمال الدين عز الدين مكتبة الثقافة الدينية ط ١٩٨٧م.
- (٨٣) النويرى، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م.
- «نهاية الأرب في فنون الأدب» ج ٢٨ تحقيق د. محمد أمين ومحمد حلمى أحمد ١٩٩٢م ج ٢٩ تحقيق محمد ضياء الدين الرئيس، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة القاهرة ط ١٩٩٢م.
- (٨٤) اليافعى، أبو محمد عبد الله ابن أسعد بن سليمان ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م.
- «مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان» ط القاهرة ١٣٣٨هـ/١٩١٩م.
- (٨٥) ياقوت شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت الحموى الرومى ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م.
- «معجم البلدان» ٥ أجزاء بيروت ١٩٧٧م.

المصادر الأجنبية المترجمة

- (١) أرسطو، أرسنتليس «السياسيات»، ترجمة الأب أوغسطينس برباره البولسى ط بيروت ١٩٥٧م الناشر اليونسكو.
- «سر الأسرار السياسة والفراسة في تدبير الرئاسة» ترجمة يوحنا ابن البطريق ويوحنا ابن ماسويه كتبه الشيرازى سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م ط بيروت ١٩٩٥م.
- (٢) أفلاطون.
- «جمهورية أفلاطون» ترجمة نظلة الحكيم ومحمد مظهر سعيد، القاهرة ١٩٦٩م.
- (٣) جروهمان.
- أوراق البردى العربية، أدولف جروهمان ترجمة حسن إبراهيم حسن.
- (٤) جوانفيل.
- «القديس لويس» حياته وحملاته على مصر والشام ترجمة حسن حبشى ط ١ القاهرة ١٩٦٨م.
- (٥) ناصر خسرو علوى.
- «سفرنامه»، ترجمة يحيى الخشاب القاهرة ط ١٩٩٣م.

المصادر العربية والمترجمة

- (١) إبراهيم العدوى (دكتور)
- التاريخ الإسلامى آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية - القاهرة ط ١٩٧٦ م.
- (٢) إبراهيم مصطفى.
- المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية القاهرة ط ١٩٨٥/٣ م.
- (٣) إبراهيم هاشم الفلالى.
- لارق في القرآن القاهرة ١٩٦٢ م.
- (٤) أبو زيد شلبى (دكتور)
- تاريخ الحضارة الإسلامية - القاهرة ط ١٩٦٤ م.
- (٥) أحمد أحمد بدوى (دكتور).
- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، مكتبة نهضة مصر - القاهرة.
- (٦) أحمد أمين (دكتور).
- فجر الإسلام القاهرة ط ١٩٦٥ م.
- قاموس العادات والتقاليد المصرية - الطبعة الأولى القاهرة ١٩٥٣ م.
- (٧) أحمد حسين (دكتور).
- موسوعة تاريخ مصر ج-٢، القاهرة ١٩٨٧ م.
- (٨) أحمد السعيد سليمان (دكتور).
- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ج-١ دار المعارف القاهرة ط ١٩٧٢ م.
- (٩) أحمد سيد محمد (دكتور).
- الشخصية المصرية في الأدبين الفاطمى والأيوبي - دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢ م.

- (١٠) أحمد الشامي (دكتور).
- صلاح الدين والصليبيون القاهرة ١٩٩١ م.
- (١١) أحمد شفيق.
- الرق في الإسلام، ترجمة أحمد زكي القاهرة ١٩٨٢ م.
- (١٢) أحمد شلبي (دكتور).
- «موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية» مكتبة النهضة.
- «المجتمع الإسلامي أسس تكوينه - أسباب ضعفه» - وسائل نهضته القاهرة ١٩٨٦ م.
- (١٣) أحمد الشنتناوي.
- دائرة المعارف الإسلامية ١٩٣٣ م.
- (١٤) أحمد صادق سعد (دكتور).
- تاريخ مصر الأجماعى - الأقتصادى، القاهرة ط ١٩٧٩ م.
- (١٥) أحمد عبد الرازق (دكتور).
- المرأة في مصر المملوكية القاهرة ١٩٧٤ م.
- (١٦) أحمد فكرى (دكتور).
- مساجد القاهرة ومدارسها ج-٢.
- (١٧) أحمد مختار العبادى (دكتور).
- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام بيروت ١٩٦٩ م.
- في التاريخ العباسى والفاطمى القاهرة ١٩٨٢ م.
- (١٨) إستارجيان.
- تاريخ الأمة الأرمنية - مطبعة الإتحاد - الموصل ١٩٥١ م.
- (١٩) آدم متر.
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، ط ٣ القاهرة ١٩٥٧ م.

- (٢٠) أدولف أرمان، هرمان رانكه.
- مصر والحياة المصرية في العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال - مكتبة النهضة - القاهرة.
- (٢١) إسماعيل محمد أبو العينين (دكتور).
- مصر الإسلامية في العصور الوسطى. د. ت.
- (٢٢) الياس الأيوبي.
- تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني - القاهرة.
- (٢٣) أمينة أحمد إمام الشوربجي (دكتورة).
- رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والإقتصادية لمصر في العصر الفاطمي - القاهرة ١٩٩٤ م.
- (٢٤) أنور زقلمه.
- المماليك في مصر، القاهرة ١٩٦٧ م.
- (٢٥) أيمن فؤاد سيد (دكتور).
- «الدولة الفاطمية في مصر»، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٩٢ م.
- (٢٦) جان أحمرانيان.
- «من هم الأرمن» - القاهرة ١٩٧٨ م.
- (٢٧) جبور عبد النور.
- الجواري - دار المعارف، القاهرة ١٩٤٧ م.
- (٢٨) جرجي زيدان.
- تاريخ التمدن الإسلامي ج ١، دار الهلال القاهرة ١٩٠٢، ج ٣، القاهرة ١٩٠٤، ج ٤، القاهرة ١٩٠٥، ج ٥، القاهرة ١٩٠٦ م.
- (٢٩) جمال الدين الشيال (دكتور).
- مجموعة الوثائق الفاطمية مجلد ١ القاهرة ١٩٥٨ م.

- تاريخ مصر الإسلامية في العصران الأيوبي والمملوكي، القاهرة ١٩٦٣ م.
- (٣٠) جوزيف نسيم يوسف (دكتور).
- هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، مؤسسة المطبوعات الحديثة.
- (٣١) حافظ أحمد حمدي (دكتور).
- الدولة الخوارزمية والمغول دار الفكر القاهرة ١٩٤٩ م.
- (٣٢) حسب الله محمد أحمد (دكتور).
- قصة الحضارة في السودان القاهرة ١٩٦٦ م.
- (٣٣) حسن إبراهيم حسن (دكتور).
- تاريخ الإسلام السياسي ٤ أجزاء القاهرة ١٩٩١ م.
- « تاريخ الدولة الفاطمية » القاهرة ١٩٥٨ م.
- (٣٤) حسن أحمد محمود (دكتور).
- الإسلام والحضارة العربية في آسيا القاهرة ١٩٦٨ م.
- (٣٥) حسن الباشا (دكتور).
- الفنون الإسلامية والوظائف ج١ القاهرة ١٩٦٥ م.
- (٣٦) حسن حبشي (دكتور).
- نور الدين والصليبيون القاهرة ١٩٤٨ م.
- (٣٧) حسنين محمد ربيع (دكتور).
- النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين القاهرة ١٩٦٤ م.
- (٣٨) خودابخش مؤرخ هندي.
- الحضارة الإسلامية - ترجمة علي حسن الخربوطلي القاهرة ١٩٦٠ م.
- (٣٩) دولت عبد الله (دكتورة).
- معاهد تركية النفوس في مصر العصر الأيوبي والمملوكي مطبعة حسان القاهرة.

- ٤٠ (رشدي صالح.
- ألف ليلة وليلة، أجزاء ١٧، ١٨، ١٩ القاهرة ١٩٦٩م.
- ٤١ (زبيدة عطا (دكتورة).
- بلاد الترك في العصور الوسطى، أجزاء ١٧، ١٨، ١٩.
- ٤٢ (ستانلي لينبول.
- «سيرة القاهرة» ترجمه حسن إبراهيم حسن - علي إبراهيم حسن وأدوار
حليم دار النهضة المصرية - القاهرة " ١٩٥٠م.
- «طبقات سلاطين الإسلام»، ترجمه للفرسية عباس إقبال وترجمه عن
الفرسية مكي طاهر الكعبي - تحقيق علي البصري ١٩٦٨م.
- ٤٣ (سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور).
- «مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك - دار النهضة».
- «المجتمع المصري» القاهرة ١٩٦٢م.
- «العصر المماليكي في مصر والشام» ١٩٧٦م.
- «مصر في العصور الوسطى» - القاهرة ١٩٧٠م.
- ٤٤ (سهام مصطفى أبو زيد (دكتورة).
- تاريخ الأرمن في مصر الإسلامية، دار الكتاب الجامعي القاهرة ١٩٩١م.
- ٤٥ (السيد البار العريني (دكتور).
- مصر في عصر الأيوبيين، القاهرة ١٩٦٠م.
- المماليك، بيروت - ١٩٦٧م.
- ٤٦ (سيدة إسماعيل الكاشف (دكتورة)، حسن أحمد محمود (دكتور).
- مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة.
- ٤٧ (سيد قطب.
- العدالة الاجتماعية في الإسلام، القاهرة ١٩٥٢.

(٤٨) سيد محمد خليفة.

- دليل متحف الفن الإسلامي - القاهرة ١٩٥٢ م.

(٤٩) الشاطر بصيلي عبد الجليل (دكتور).

- تاريخ وحضارات السودان ١٩٧٢ م.

(٥٠) شوقي الجمل (دكتور).

- تاريخ السودان وادي النيل - القاهرة - ١٩٦٩ م.

(٥١) صابر محمد دياب حسن (دكتور).

- أرمينية. دار النهضة العربية ١٩٧٨ م.

(٥٢) عائشة عبد الرحمن (دكتورة).

- مقال في الإنسان، طبعة القاهرة ١٩٦٩ م.

(٥٣) عباس محمود العقاد.

- المرأة في القرآن - دار الإسلام - القاهرة ١٩٧٣ م.

(٥٤) عبده بدوي (دكتور).

- «السود والحضارة العربية» - الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٦ م.

(٥٥) عبد الرحمن زكي (دكتور).

- «القاهرة» القاهرة ١٩٤٣ م.

- «الجيش المصري في العصر الإسلامي»

(٥٦) عبد السلام عبد العزيز فهمي (دكتور).

- تاريخ الدولة المغولية في إيران القاهرة ١٩٨١ م.

(٥٧) عبد العزيز محمود عبد الدايم (دكتور).

- الرق في مصر في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٨٣ م.

(٥٨) عبد الفتاح عاشور (دكتور).

- منهج القرآن في تربية المجتمع - الطبعة الأولى القاهرة ١٩٧٩ م.

- (٥٩) عبد الكريم الخطيب (دكتور).
 - التعريف بالإسلام - الطبعة الأولى القاهرة ١٩٦٥ م.
- (٦٠) عبد الكريم رافق (دكتور).
 - بلاد الشام ومصر دمشق ١٩٦٩ م.
- (٦١) عبد الله بن أحمد قادري (دكتور).
 - أثر التربية الإسلامية في أمن المجتمع الإسلامي - ١٩٨٨ م.
- (٦٢) عبد الله حسين (دكتور).
 - الدولة الإسلامية.
- (٦٣) عبد الله عفيفي (دكتور).
 - المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، مكتبة الثقافة - المدينة المنورة.
- (٦٤) عبد الله محمد جمال الدين (دكتور).
 - الدولة الفاطمية «قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر»، القاهرة ١٩٩١ م.
- (٦٥) عبد المجيد عطيه.
 - تميم بن المعز - تونس ١٩٧٧ م.
- (٦٦) عبد المنعم سلطان (دكتور).
 - المجتمع المصري في العصر الفاطمي القاهرة ١٩٨٥ م.
- (٦٧) عبد المنعم ماجد (دكتور).
 - نظم دولة سلاطين الماليك ورسومهم في مصر القاهرة ١٩٧٩ م.
- ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر القاهرة ١٩٦٨ م.
- طومان باي القاهرة ١٩٧٨ م.
- تاريخ الحضارة الإسلامية القاهرة ١٩٧٢ م.

(٦٨) عثمان الترك.

- صفحات من تاريخ الأمة الأرمنية - القاهرة ١٩٦٠م.

(٦٩) عطية مصطفى مشرفه (دكتور).

- نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين القاهرة ١٩٤٨م.

(٧٠) عطية القوصي (دكتور).

- تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ط٢/، القاهرة ١٩٨١م.

(٧١) عفاف صبره (دكتورة).

- التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية القاهرة ١٩٨٧م.

- دراسات في تاريخ الحروب الصليبية القاهرة ١٩٨٥م.

(٧٢) علي إبراهيم حسن (دكتور).

- «تاريخ جوهر الصقلي» القاهرة ١٩٣٣م.

- دراسات في تاريخ الممالك البحرية القاهرة ١٩٤٤م.

(٧٣) فايد حماد محمد عاشور (دكتور).

- الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، دار الإعتصام.

(٧٤) فتحية عبد الفتاح النبراوي (دكتورة).

- العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى القاهرة ١٩٨٢م.

- إنشاءات القاضي الفاضل - دار النهضة القاهرة ١٩٨٠م.

- تاريخ النظم والحضارة الإسلامية دار الفكر القاهرة ١٩٩٧م.

(٧٥) فؤاد حسن حافظ

- تاريخ الشعب الأرمني القاهرة ١٩٨٦م.

(٧٦) قاسم عبده قاسم (دكتور).

- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي القاهرة ١٩٧٩م.

- الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث - القاهرة ١٩٧٧م.

- (٧٧) كلود كاهن.
- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين قاسم، بيروت ١٩٨٣ م.
- (٧٨) ماير - ل. أ. ماير.
- الملابس المملوكية - ترجمة صالح الشيتي - مراجعة وتقديم عبد الرحمن فهمي " - القاهرة ١٩٧٣ م.
- (٧٩) محسن محمد حسين (دكتور).
- الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين - بيروت ١٩٨٦ م.
- (٨٠) محمد أبوزهرة.
- تنظيم الإسلام للمجتمع القاهرة ١٩٦٥ م.
- (٨١) محمد جمال الدين سرور (دكتور).
- الدولة الفاطمية في مصر - القاهرة ١٩٦٥ م.
- (٨٢) محمد حسن عواد.
- محرر الرقيق - مطبوعات الشعب القاهرة ١٩٩٤ م.
- (٨٣) محمد حميد المناوي (دكتور).
- الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي القاهرة ١٩٧٠ م.
- (٨٤) محمد رمزي.
- القاموس الجغرافي للبلاد المصرية قسمان في ٥ أجزاء - القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٣ م.
- (٨٥) محمد عبدالله عنان (دكتور).
- الحاكم بأمر الله القاهرة ١٩٣٧ م.
- مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية - دار الكتب القاهرة ١٩٣١ م.
- (٨٦) محمد عمارة (دكتور).
- عندما أصبحت مصر عربية - بيروت ١٩٧٤ م.

- (٨٧) محمد كرد علي (دكتور).
- الإسلام والحضارة العربية ١٩٦٨ م.
- (٨٨) محمود رزق سليم.
- عصر الماليك وإنتاجه العلمي والأدبي - القاهرة ١٩٤٧ م.
- (٨٩) محمود محمد الحويري (دكتور).
- الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين ١٢، ١٣ - دار المعارف القاهرة
- العادل الأيوبي - ١٩٨٠ م.
- (٩٠) مصطفى محمد مسعد (دكتور).
- الإسلام والنوبه في العصور الوسطى مكتبة الأنجلو القاهرة ١٩٦٠ م.
- (٩١) مكي شببكة (دكتور).
- السودان عبر القرون - بيروت ١٩٦٥ م.
- (٩٢) نظير حسان سعداوي.
- جيش مصر في أيام صلاح الدين - مكتبة النهضة القاهرة ١٩٥٦ م.
- (٩٣) نعوم شقير.
- جغرافية وتاريخ السودان - بيروت ١٩٧٢ م.
- (٩٤) هند إسكندر عثمان.
- تاريخ مصر - القاهرة ١٩١٣ م.
- (٩٥) وفاء محمد علي (دكتورة).
- نفوذ النساء في الدولة الإسلامية - دار الفكر القاهرة ١٩٨٦ م.
- (٩٦) ول ديورانت.
- قصة الحضارة ج ٢، مجلد ٤، ترجمة محمد بدران.

المراجع الأجنبية

- 1) **Dozy – R:**
Dictionnaire detaille nome de vetements chez les Arabes,
Amsterdam, 1845.
- 2) **Gibb:**
Hamilton A. R Gibb "Studies on the civilization of Islam".
The Armies of Saladin.
The Achievement of Saladin. London 1965.
- 3) **Goitein: S. D Goitein.**
Mediterranean Society Volum III.
- 4) **Levi – Provencal.**
Arabica – Slave and Slave Girls VIX
- 5) **Neil D, Mackenzie – "Ayyubid Cairo" – American**
University in Cairo Egypt 1992.
- 6) **O,Leary De Lecy:**
A short history of the Fatimid Khalifate, London, 1923.
- 7) **William Muir:**
The Mameluke of Slave Dynasty of Egypt, 1968.
- 8) **Yaacov Lev.**
Arab History and Civilization "state and society in fatimid
Egypt". Leiden New York, 1991.
- 9) **Encyclopedia Americana V.25.**
- 10) **La grande Encyclopedie, Tom 16.**
- 11) **Encyclopedia Britannica V.20**

الرسائل العلمية

- (١) سوزي أباطة محمد حسن داود، السودانيون في جيش مصر الإسلامية حتى سقوط الدولة الفاطمية ودورهم في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، رسالة ماجستير - معهد الدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة ١٩٨٩م.
- (٢) صلاح شمردل عطية شحاته، الرقيق وأثره في المجتمع العراقي من الناحيتين الاجتماعية والسياسية في العصر العباسي حتى منتصف القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٩٤م.
- (٣) عاطف مرقص بطرس، الأرمن وعلاقتهم بالبيزنطيين، رسالة ماجستير - جامعة عين شمس - كلية الآداب ١٩٩٣م.
- (٤) عبد الرازق عبد المجيد سليم، العلاقات بين مصر والنوبة في العصر الفاطمي، رسالة ماجستير - معهد الدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة ١٩٧٨م.
- (٥) عبد الحميد أحمد الدسوقي، موقعة عين جالوت وأثرها في حماية الحضارة الإسلامية، رسالة ماجستير - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ١٩٥٥م.
- (٦) علي أحمد بيومي، قيام الدولة الأيوبية، رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٤٦م.
- (٧) ليبيبة إبراهيم مصطفى محمد، الرقيق وتجارتهم في مصر والشام في عصر دولة سلاطين المماليك ماجستير - كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٩٣م.
- (٨) محمد محمد أمين علي، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٦٨م.
- (٩) محمد سيف النصر أبو الفتوح، منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك - رسالة دكتوراه - كلية آداب سوهاج - جامعة أسيوط ١٩٨٠م.

- (١٠) منى سعد محمد الشاعر، جهاد البيت الأيوبي في شمال الشام والجزيرة ضد القوى الصليبية والمسيحية المجاورة. ٥٩٦ - ٦٩٨ هـ / ١٢٠٠ - ١٢٩٨ م. رسالة ماجستير - كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر ١٩٩٢ م.
- (١١) ناريمان عبد الكريم أحمد، أحوال المرأة في مصر في العصر الفاطمي، رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة عين شمس ١٩٨٤ م.
- (١٢) نهلة أنيس محمد مصطفى، العلاقات بين مصر والممالك الأفريقية في عصر دولة المماليك الجراكسة - رسالة دكتوراه - كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر ١٩٩٥ م.

الدوريات

- (١) أحمد عبد الرازق (دكتور)، المماليك ومفهوم الأسرة لديهم - بحث منشور في مجلة كلية الآثار - جامعة القاهرة عدد ١٩٧٧/٢م، العلاقات الأسرية في المصطلح المملوكي - مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - المجلد ٢٣ سنة ١٩٧٦م.
- (٢) أيمن فؤاد سيد (دكتور)، المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، ندوة المدارس في مصر الإسلامية التي أعتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة وعقدت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية، إبريل ١٩٩١م.
- (٣) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)، البنية البشرية لجيوش صلاح الدين، بحث منشور بالمجلة العربية للعلوم الإنسانية - مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت عدد ٣٧ المجلد العاشر ١٩٩٠م، العلم بين المسجد والمدرسة - ندوة المدارس - الجمعية التاريخية إبريل ١٩٩١م.
- (٤) سهام مصطفى أبو زيد (دكتورة)، تاريخ الصقالبة في مصر الإسلامية، بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر - العدد التاسع ١٩٩١م.
- (٥) سيدة الكاشف (دكتورة)، دراسات في المجتمع المصري الإسلامي قبل العصر الفاطمي، مجلة هيئة الآثار المصرية - قطاع المتاحف مجلد ١٩٨٠/٢م طبعة ١٩٨٢ - القاهرة.
- (٦) عبد العزيز محمد الشناوي (دكتور)، دراسات في الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري، بحث عن أروقة الأزهر - المجلد الثاني ١٩٨٥م.
- (٧) عبد المنعم ماجد (دكتور)، المصريون وحدهم استردوا بيت المقدس من الصليبيين، الموسم الثقافي - مجموعة المحاضرات العامة التي أقيمت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٧٨ - ١٩٨٣م طبعة ١٩٨٤ - القاهرة.
- موقف المصريين من حكم المماليك في العصور الوسطى، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس - مجلد ١٢ ١٩٦٩م.

- (٨) عفاف سيد صبره (دكتورة) - المدارس في العصر الأيوبي، ندوة المدارس - الجمعية التاريخية - إبريل ١٩٩١م.
- بهاء الدين قراقوش الوزير المفتى عليه، بحث منشور بمجلة الدارة السعودية العدد الثاني، السنة الثالثة عشرة - محرم ١٤٠٩هـ / أغسطس ١٩٨٧م.
- (٩) علي إبراهيم حسن (دكتور)، عظمة الفاطميين، مجلة الكتاب - عدد ممتاز - دار المعارف نوفمبر ١٩٤٦م.
- (١٠) محمد عبد الهادي شعيرة (دكتور)، الرملة ورياطاتها السبعة - بحث بمجلة الجمعية المصرية، للدراسات التاريخية مجلد ١٥ / ١٩٦٩م.
- (١١) محمد مصطفى زيادة (دكتور) «بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك»، مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية المجلد الرابع ج - ١، مايو ١٩٣٦م.

المحتويات

المحتويات

رقم الصفحة

الموضوع

٧	مقدمة
١٣	تمهيد
١٧	تاريخ الرق
١٨	الرق لغة واصطلاحاً
٢٠	مصادر الرقيق
٢٥	الرق في الديانات السماوية
٢٨	الرق في الإسلام

٣٧

الفصل الأول

الماليك

	مراكز تجارة الرقيق
٤١	أنواع الممالك
٦٨	دخول الممالك في خدمة الدولة الإسلامية
٨٤	دخول الممالك في خدمة حكام مصر

الفصل الثاني

دور الممالك السياسي في العصر الفاطمي

٩٧	استخدام الفاطميين للممالك
١٠٦	عناصر الممالك
١٠٦	الصقالية
١٢٠	الأتراك
١٣٠	السودان

١٤٥	الصراع بين طوائف المماليك
١٨٥	أبرز العناصر المملوكية في العصر الفاطمي
١٨٥	جوهر الصقلي
١٩٨	برجوان الصقلي
٢٠٥	بدر الجمالي
٢١٤	يانس الأرمني
٢١٨	بهرام الأرمني
٢٢٥	جوهر مؤتمن الخلافة

الفصل الثالث

دور المماليك الاجتماعي في العصر الفاطمي

٢٣٥	المجتمع المصري في العصر الفاطمي
٢٣٧	الخاصة: الأسرة الحاكمة - الأشراف - أرباب الوظائف
	العامة: التجار - أرباب الصناعات والحرف - العوام - أهل الذمة - العبيد
٢٥٦	المماليك من الجواري والغلمان والخصيان
٢٧٦	الجواري
٢٩٤	الغلمان وحياة القصور
٣٠٧	الخصيان في العصر الفاطمي
٣١٤	علاقة المماليك بالمجتمع المصري
٣١٤	إمتلاك العامة للرقيق
٣١٨	الآثار التي ترتبت على تواجد الجواري في الأسرة المصرية
٣٢١	عتق العامة للجواري
٣٢٢	إيجابيات وسلبيات تواجد الرقيق في المجتمع الفاطمي

الفصل الرابع

دور المماليك السياسي في مصر

في العصر الأيوبي

٣٣٢ مساندة المماليك لصالح الدين في إسقاط الخلافة الفاطمية
٣٤٥ استخدام صلاح الدين للمماليك
٣٥٣ مساندة المماليك لصالح الدين في حروبه ضد الصليبيين
٣٦٢ خلفاء صلاح الدين والمماليك
٣٦٦ دور المماليك في الصراع بين العزيز والأفضل
٣٧٤ دور المماليك الصلاحية والأسدية في سلطنة العادل
٣٨٥ دور المماليك الأشرفية والكاملية في تولية الصالح أيوب
٣٩٣ الصالح أيوب وتكوين فرقة البحرية
٣٩٨ المماليك البحرية والتصدي للحملة الصليبية السابعة
٤٠٧ المماليك وتورانشاه
٤١٥ مقتل تورانشاه ونهاية الدولة الأيوبية
٤١٧ المرحلة الإنتقالية: سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك الأولى

الفصل الخامس

الدور الاجتماعي للمماليك في العصر الأيوبي

٤٣٥ نظم تربية المماليك في العصر الأيوبي
٤٤١ العلاقة بين المماليك
٤٤٩ المماليك والمجتمع المصري
٤٦١ الجوارى في العصر الأيوبي
٤٦٤ الوظائف والمهن التي تقلدها المماليك
٤٨٢ دور المماليك في إقامة المنشآت والمؤسسات

الموضوع	رقم الصفحة
الخاتمة	٥١٧
قائمة المصادر والمراجع	٥٢١
المحتويات	٥٥٥

الجواري والعلماء

كلمة

